جامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
الدراسات العليا

التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل وأثرها في مواجهة الانحراف

رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص (الماجستير) في الدعوة والثقافة الإسلامية

إعداد

الباحث/ إبراهيم محمد السيد القط

المعيد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية بالكلية

إشراف

فضيلة الأستاذ الدكتور

فوزى عبدالعظيم رسلان

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المتفرغ بالكلية والعميد الأسبق لكلية الدراسات الإسلامية للبنات بالسادات وعضو اللجنة العلمية {المحكمة} بجامعة الأزهر الشريف

فضيلة الأستاذ الدكتور

مرسي شعبان السويدى

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بالكلية وعميد الكلية سابقاً وعضو اللجنة العلمية {المحكمة} بجامعة الأزهر الشريف

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1]

وعن سيدنا أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "إذا خرج الرجل من بيته، فقال بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذ هديت وكفيت، ووقيت، فتتنحى له الشياطين، فيقول شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدى وكفي ووقي"[2]

---

(١) سورة التحريم الآية "٦"

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، ٤٢٥/٧، رقم ٥٠٩٥، واللفظ له، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث حسن بشواهده"، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو الرجل إذا خرج من بيته، ١٢٧٨/٢، رقم ٣٨٧٦، ورواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب ذكر الشئ الذي يهدي القائل به، ويوفي إذا قاله عند الخروج من منزله، ١٠٤/٣، رقم ٨٢٢.

الإهداء

- ✍ إلى قادة البشرية ودعاة الحق، الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام –
- ✍ إلى من اقتطعا من وقتهما لوقتي، ومن جهدهما لجهدي أبي، وعمي/ رياض.
- ✍ إلى من يذهب العناء بلقائها، ويعجز الثناء عن ثنائها،– أمي الحبيبة –.
- ✍ إلى من عاشت معي مر الحياة وحلوها، رفيقة دربي وسلوتي، زوجتي العزيزة.
- ✍ إلى أجمل شئ في حياتي فلذتا كبدي، البراء والروميساء.
- ✍ إلى من كانوا دائماً عوناً لي وسنداً إخوتي الأعزاء الذين تمنوا لي التوفيق والنجاح.
- ✍ إلى من تكبد معي أعباء كتابة هذه الرسالة وطباعتها، الأستاذ/ محمود مصطفى.
- ✍ إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا البحث المتواضع.

الشكر والتقدير

أشكر الله العلي القدير، الذي امتن على بفضله وكرمه، وفتح لي باباً من أبواب الخير، وقدرني بعونه على إنجاز هذا العمل، وإخراجه إلى النور، وأدعوه بلسان الشاكرين ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، فالحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

وإذا كان من شكر المولى – ﷻ – شكر من أجرى الله – تعالى – النعمة على يديه، امتثالاً لقول النبي – ﷺ – فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي – ﷺ – قال: "..ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه"[2]، ومن هذا المنطلق فإني أتقدم بخالص الشكر وأجزله إلى شيخي اللذين تفضلاً بالإشراف على هذا العمل ودعمه بملحوظاتهما السديدة، وآرائهما الصائبة، ولم يبخلا على بملاحظة أو مشورة، ولولا دعمهما المتواصل، وتشجيعهما الدائم، لم يكن هذا العمل ليكتمل، فضيلة الأستاذ الدكتور/ فوزي عبد العظيم رسلان، أستاذ الدعوة والثقافة بالكلية، ووكيلها الأسبق، ذلكم العالم الجليل، والداعية الأصيل، الذي تعهدني بالرعاية وحسن التوجيه، وتذليل العصى، وتقريب القصي بصدر رحب واسع، فأشكره شكر التلميذ لأستاذه، والابن البار لوالده، والله – تعالى – أسأل أن يمتعه بالصحة والعافية، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

كما أتقدم بخالص شكري وعظيم تقديري إلى فضيلة الأستاذ الدكتور/ مرسي شعبان السويدي، أستاذ الدعوة والثقافة بالكلية، وعميدها السابق، ذلكم العلم العلامة، الذي وجدته أستاذاً حنوناً، وأباً رحيماً، وعهدته عف اللسان، فتى الجنان، يزين خلقه العظيم تواضعه الجم، وإنسانيته النبيلة، وسماحته الحميدة، فاللهم أجزه عني وعن الرسالة، وعن طلاب العلم خيراً.

---

(١) سورة النمل الآية "١٩"

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب الرجل يخرج من ماله، ٣/١٠٤، رقم ١٦٧٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد – صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين –

أما بعد،،،

فإن الدعوة إلى الله – ﷻ – من أفضل الطاعات، وأجل القربات، وأحسن ما دعا إليها الدعاة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] وقد أكد النبي – ﷺ – هذا المعنى، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً" (٢) وهي المهمة العظيمة التي جاء بها الرسل – عليهم السلام – لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[3]، وقال تعالى مخاطباً نبيه – ﷺ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(٤)، ولولاها لعاشت البشرية في تيه وضلال، فقد جعل الله فلاح الأمم مترتباً على الدعوة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[5]، ولاشك أن الأنبياء والرسل – عليهم السلام – مشاعل النور ومصابيح الهداية، انتظمت بهم طرق الحياة الطويلة، هداية للعباد ورشاداً، ولما كان الماضي سجلاً حافلاً بالقصص والعبر، فلابد للأمة أن تتأمل هذا الماضي، وتنظر فيه نظرة كلها تدقيق وتمحيص، حتى تستفيد منه، خاصة إذا كان هذا الماضي مسجلاً في كتاب محفوظ بحفظ الله تعالى له من التحريف والتبديل والتغيير (وهو القرآن الكريم).

---

(١) سورة فصلت الآية "٣٣".

(٢) رواه مسلم، كتاب "العلم"، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، ٤/٢٠٦٠، رقم ٢٦٧٤.

(٣) سورة النساء الآية "١٦٥".

(٤) سورة الأحزاب الآية "٤٥".

(٥) سورة الأحزاب الآية "٤٥".

وحيث إن القرآن الكريم وهو الكوكب الدرى الذى يستضاء به قد عنى عناية كبرى بأخبار الأنبياء وأحوالهم، وذكر نبأهم وما فيه من توجيهات وإرشادات، لوقاية الأمم من الانحرافات التي تعج بها، كان لابد من تتبع واستقراء هذه التوجيهات خاصة الوقائية منها، لأن (الوقاية خير من العلاج) لقد جاء أولو العزم من الرسل إلي أممهم، حاملين إياهم على التغيير نحو الأفضل والترقي نحو الكمال بتدرج وباتزان، فعملوا على تلمُّس المنهج التربوي الوقائي الذي يحمي الأفراد والمجتمعات من الانحِراف عن منهج الله القويم، حتى يكونوا في أحسن تقويم مستشارين مراقبة الله – ﷺ – في كل لحظة من لحظات حياتهم فكانت منهم تلك التربية الوقائية التي تهدف إلى الوقاية من خطر محتمل وشيك، وذلك بتفاديه قبل وقوعه، حفاظاً على الأفراد، وصيانة للمجتمعات، وتحقيقاً للسلامة العامة، وتداركاً للمحظور قبل وقوعه، أخذاً بمبدأ: الوقاية خير من العلاج، من خلال توجيههم نحو الطريق القويم والغاية المثلى، وقيادتهم نحو الخير والصلاح، من أجل تحصينهم من الوقوع في مفاتن الحياة وشهواتها، ووقايتهم شر العقبات في طريق حياتهم، فجاءت دعوتهم، كما جاءت دعوة الأنبياء والرسل – عليهم السلام – مشتملة على مناهج وقائية إلهية، لا غنى للبشرية عنها، فمن أخذ بها فاز وأفلح، ومن أعرض عنها انحرف فخاب وخسر، والأمة الإسلامية بحاجة ماسة إلى أن تستوعب هذه المناهج الوقائية، فى كل ما يحتاجون إليه، لتستخلص منها الدروس والعبر، وتضع أقدامها على الطريق نحو الاستقامة والاعتدال ولذا فإن القائمين على أمر التربية اليوم يسلكون هذا المسلك في طريقهم نحو إيجاد الفرد المسلم، من خلال حرصهم على الاعتناء بتحقيق المناعة الذاتية الأصيلة في نفوس المتربين، وإرشادهم إلى الطريق الصحيح دون تكلفة زائدة، أو ضياع لجهدهم ووقتهم، ودون خسارتهم أو سقوطهم في الشهوات والملذات، فتراهم يرسمون لهم الحواجز، ويرفعون لهم السدود، وقاية لهم من الضرر الواقع أو المتوقع دون أن يعزلوهم عن بيئتهم ومجتمعهم، كل ذلك من خلال عملية تربوية توجيهية متكاملة الأهداف والغايات وقاية للفرد من الذلل والتردي في مهاوي الانحراف، ووقاية للمجتمع من التفكك والانحلال عبر هذه التدابير الوقائية الشرعية العظيمة التي تربط القلب بالله، وترسم له النهج الصحيح في سيره إلى الله – ﷺ – ولما لم يكن هذا المراد محققاً على شكل كتاب جامع يحوي آداب أولي العزم من الرسل، وتوجيهاتهم الوقائية، حتى يتم النفع بها في كل آن، على وجه يعم نفعه الإنسانية كلها، وانطلاقاً من هذا

رأيت أن أتناول موضوعاً طالما تردد في نفسي، وقويت به عزيمتي، ألا وهو التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل وأثرها في مواجهة الانحراف.

❖ أهمية الموضوع

تكمن أهمية الموضوع في عدة نقاط منها:-

أولاً: حاجة البشرية الماسة لمعرفة الأسلوب الأمثل، والطريق الأقوم للاستقامة، خاصة إذا كان من طريق الوحي الإلهي، فالله – ﷻ – أنزل التوجيهات الوقائية التي يمكن أن تواجه أهل الأرض، ثم كلف الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام – ببيان هذه التوجيهات، وكيفية العمل بها، حتى يظل الناس على الصراط المستقيم، مهتدين للتي هي أقوم في كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية.

ثانياً: في هذا الموضوع دلالة على أن الإسلام منهج حياة متكامل، لا يتكفل بالجوانب العلاجية للناس فحسب، بل يتكفل بالجوانب الوقائية قبل العلاجية.

ثالثاً: يتشرف الموضوع بشرف مصدره، ويَعْظُمُ بعظم منهجه، فهو يستقي مصدره من كلام الله – ﷻ –، وسنة نبيه سيدنا محمد – ﷺ –، ويتناول التوجيهات الوقائية في دعوة أكثر الرسل صبراً وجهداً، وهم أولو العزم من الرسل – عليهم السلام – ليقف الناس على مواطن العبر والعظات، فيتخذوا لأنفسهم سبل الوقاية من دعوتهم، فيكون التأثير كبيراً.

رابعاً: من طبيعة الإنسان أنه يسعى ليأخذ سلوكه من تجارب البشر، فحرى أن يتجه بفكره وقوله وعمله إلى أفضل البشر – عليهم السلام – الذين ذكر الله – ﷻ – لنا مناهج دعوتهم في قرآنه الكريم، فنأخذ منها الفكر القويم لعقولنا، والنور لقلوبنا، لتكون مَعْلَماً نسير عليه في حياتنا، للوقاية من العلل على اختلاف المشارب والأهواء.

❖ أسباب اختيار الموضوع

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع عدة أسباب منها:-

أولاً: فضل الله – ﷻ – وتوفيقه، فهو الذي سبب الأسباب وهيأها لاختيار هذا الموضوع والبحث فيه.

ثانياً: إحساساً مني بالمسئولية الملقاة على عاتقي كباحث في إظهار بعض الجوانب المضيئة في دعوة أولي العزم من الرسل، حتى يتم تربية المسلم تربية متكاملة متوازية.

ثالثاً: رغبتي في أن أنال شرف خدمة كتاب الله – ﷻ –، وأحظى ببركة صحبته، وأنعم بحلاوة معايشته، فإن أجل ما يشغل به الباحث نفسه، وينفق فيه عمره وجهده، ويكدح فيه خاطره، هو كتاب الله – ﷻ – الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[1]، فهو أصدق الحديث، وأولاه بالتدبر.

رابعاً: ما وجدته من تشجيع أساتذتي ومشايخي الأجلاء، الذين اعتبروا هذا الموضوع جديراً بالبحث والعناية، لتعلقه بما يتعرض له الناس في حياتهم اليومية، خاصة في زمن كثرت فيه الانحرافات، وأثرت عليه تأثيراً سلبياً لا يخفي على أحد.

خامساً: المساهمة في مواجهة الصعوبات التي تعترض طريق الأمة، وإنقاذها من الانحرافات التي أطلت برأسها عليها، لعلي في الدنيا والآخرة أفوز برضا الله – ﷻ – عني.

❖ منهج البحث

أما عن المنهج المتبع في هذه الدراسة فهو:

أولاً: المنهج الاستردادي[2] والاستنباطي[3] والذي يقوم الباحث فيه بقراءة الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ذات الصلة بموضوع الدراسة، وفهمها، لتحديد التوجيهات المستنبطة من الأدلة واستخراجها.

ثانياً: عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

---

(1) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ...وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ **سورة فصلت من الآية "٤١ – ٤٢".**

(2) **"وهو الذي نقوم فيه باسترداد الماضي تبعاً لما تركه من آثار أياً كان نوع هذه الآثار، وهو المنهج المستخدم في العلوم التاريخية والأخلاقية"، مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، ط٣، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧م، صـ١٩.**

(3) **"وهو مجموعة من الحدود الأولية والتعريفات والبديهيات والمصادرات – في إطار مجموعة من قواعد الاشتقاق الصارمة – إلى ما يترتب من نتائج أو نظريات"، المدخل إلى مناهج البحث العلمي، محمد محمد قاسم، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٩٩، صـ٥٨.**

ثالثاً: تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، مع ذكر أقوال العلماء المحققين في الحكم على الحديث إن لم يكن في الصحيحين.

رابعاً: كثرة تكرار الاستشهاد ببعض الآيات القرآنية في مواضع متعددة من البحث، وذلك حسب ما يقتضيه المقام في كل موضع، إما لكونها مشتملة على أمور متعددة، أو كونها تحتمل عدة معانٍ.

خامساً: كثرة النظر في بعض كتب التفاسير القديمة والحديثة، لفهم معنى الآية وما تدل عليه، لاستنباط بعض التوجيهات الوقائية منها، لتحقيق أهداف هذا البحث.

سادساً: الترجمة المختصرة للأعلام غير المشهورين، عند ورود اسم العلم لأول مرة، أما إذا كان العلم مشهوراً تركته لشهرته.

سابعاً: عزو النقول إلى مصادرها الأصلية، مع توثيق المصادر والمراجع في الحاشية بذكر البيانات للمرجع كاملة عند وروده لأول مرة، ذاكراً اسم الكتاب أولاً، ثم مؤلفه، ثم محققه إن وجد، ثم ذكر دار النشر، ورقم الطبعة، وتاريخها، فإن لم يوجد أشرت إلى ذلك (بدون ت، ط) ثم ذكر الجزء والصفحة.

ثامناً: اقتصرت على النقاط والقواسم المشتركة بين دعوة أولي العزم – عليهم السلام – وإلا فكل واحد منهم يحتاج إلى دراسة مستقلة، مع الأخذ بالأهم وترك المهم إذا كان الموضوع متشعباً، ويأخذ حيزاً كبيراً من الرسالة.

❖ **الدراسات السابقة**

أولاً: التربية الوقائية في الإسلام، وهو كتيب صغير لمؤلفه/ فتحي يكن، يقع في ست ومائة صفحة، وضع الباحث فيه الخطوط العامة للتربية الوقائية في الإسلام، ولكن دون تفصيل، وتحدث عن أهميتها، وضرورة الأخذ بها للتخلص من الآفات والشرور بصورة مجملة، ثم توصل إلى أن الوقاية قد أخذت مساحة كبيرة في القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

ثانياً: التربية الوقائية في الإسلام، ومدى استفادة المدرسة الثانوية منها، إعداد/ خليل بن عبد الله الحدري، وهي عبارة عن رسالة مقدمة إلى كلية التربية جامعة أم القرى، عام ١٤١٨هـ، لنيل درجة التخصص (الماجستير) وهي تعطي لفتات في جوانب محددة، تم توظيفها لهدف الرسالة

الرئيس، وهو استفادة المدرسة الثانوية منها، مع ذكر لمصادرها من خلال القرآن والسنة وهدى السلف الصالح، وتحدث عن بعض أساليبها، ومجالات تطبيقها من خلال الأسرة والمجتمع، ثم أعطى تصوراً مقترحاً لاستفادة المدرسة الثانوية منها.

ثالثاً: التربية الوقائية وأساليبها في سورة الحجرات وتطبيقاتها التربوية، إعداد/ خالد بن عوض بن علي الفعر، وهي عبارة عن رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية جامعة أم القرى عام ١٤٢١هـ، تحدث فيها عن مفهومها، ومكانتها في سورة الحجرات، وذكر التدابير الوقائية المستنبطة من السورة الكريمة، مبيناً الأساليب التربوية التي اشتملت عليها السورة، ودور المؤسسات التربوية في تعميق مفهوم الوقاية لدى الفرد والمجتمع.

رابعاً: التربية الوقائية في سورة الفلق، وتطبيقاتها في الأسرة والمجتمع، إعداد/ محمد بن حاسن بن محمد الحسني، وهي عبارة عن بحث مكمل لنيل درجة التخصص الماجستير في الشريعة الإسلامية جامعة أم القرى عام ١٤٣٠هـ، بين الباحث فيها جوانب التربية الوقائية التي تضمنتها السورة الكريمة، وأهداف التربية الوقائية فيها ومجالات تطبيقها في المؤسسات التربوية.

خامساً: التربية الوقائية في سورة النور وتطبيقاتها التربوية، إعداد/ سليمان بن صفوق بن محمد العنزي، وهي عبارة عن رسالة مقدمة إلى كلية التربية الإسلامية، جامعة أم القرى عام ١٤٢٥هـ، عرف فيها الباحث بجوانب التربية الوقائية التي تضمنتها سورة النور، موضحاً أهدافها في هذه السورة، ومجالات تطبيق هذه الجوانب في الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام.

سادساً: التربية الوقائية في القرآن الكريم، إعداد/ حازم حسني حافظ زيود، وهي عبارة عن رسالة مقدمة إلى قسم أصول الدين بكلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين عام ٢٠٠٩م تحدث فيها الباحث عن أهمية الوقاية في كل شئ، ثم بين المسالك العامة للشريعة في التربية الوقائية مع ذكر بعض النماذج القرآنية في التربية الوقائية، في الجوانب الإيمانية، والأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية، ثم بين معالم التربية الوقائية في القرآن الكريم.

❖ خطة الدراسة

وتشتمل على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وبيانها كما يلي:-

- ✍ المقدمة وفيها: بيان لأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث، كما قد مر بنا.
- ✍ أما التمهيد: ففيه التعريف بمصطلحات الدراسة.
- ✍ أما الفصل الأول فهو بعنوان: التربية الوقائية في المنظور الإسلامي

ويشتمل على خمسة مباحث:-

المبحث الأول: مفهوم التربية الوقائية في الإسلام

المبحث الثاني: خصائص التربية الوقائية

المبحث الثالث: وسائل وأساليب التربية الوقائية

المبحث الرابع: أهداف التربية الوقائية

المبحث الخامس: دور التربية الوقائية في بناء الأفراد والمجتمعات

- ✍ **أما الفصل الثاني فهو بعنوان: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل من خلال الدعوة إلى الإيمان بأصول العقيدة الإسلامية**

ويشتمل على ستة مباحث:-

المبحث الأول: التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في جانب الإيمان بالله

المبحث الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الإيمان بالملائكة

المبحث الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الإيمان بالكتب

المبحث الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الإيمان بالرسل

المبحث الخامس: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الإيمان باليوم الآخر

المبحث السادس: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الإيمان بالقضاء والقدر

- ✍ **أما الفصل الثالث فهو بعنوان: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الجانب التشريعي**

ويشتمل على أربعة مباحث:-

المبحث الأول: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الصلاة

المبحث الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الزكاة

المبحث الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الصيام

المبحث الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الحج

- ✍ **أما الفصل الرابع فهو بعنوان: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الجانب الأخلاقي**

ويشتمل على أربعة مباحث:-

المبحث الأول: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الأخلاق مع الله

المبحث الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الأخلاق مع النفس

المبحث الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الأخلاق مع الناس

المبحث الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الأخلاق مع الأحياء غير العاقلة

✍ **أما الفصل الخامس فهو بعنوان: أثر التربية الوقائية في مواجهة الانحراف ويشتمل على أربعة مباحث:-**

المبحث الأول: أثر التربية الوقائية في مواجهة الانحراف الفكري

المبحث الثاني: أثر التربية الوقائية في مواجهة الانحراف السلوكي

المبحث الثالث: أثر التربية الوقائية في تغيير الواقع الدعوى للدعاة

المبحث الرابع: أثر التربية الوقائية في تغيير الواقع الدعوى للمدعوين

✍ **أما الخاتمة فأثبت فيها أهم ما توصلت إليه الدراسة والبحث من نتائج وتوصيات.**

✍ **ثم ذكرت قائمة المصادر والمراجع مرتبة ترتيباً أبجدياً.**

✍ **أما الفهارس فتشتمل على:-**

❖ **فهرس الآيات القرآنية ثم فهرس الموضوعات.**

📖 **وبعدُ، فإن هذا العمل المتواضع لا أنزهه عن نقص، ولا أبرئه من عيب، ولا أدعي له الكمال، فهو مجهود بشري متواضع بذلت فيه قصارى جهدي ومعرفتي المحدودة، فإن وفقت فبفضل الله - ﷻ - وتوفيقه، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان، والله - ﷻ - ورسله - عليهم السلام - منه براء، وحسبي أني اجتهدت، وأسأل الله ألا يحرمني الأجر إنه ولي ذلك والقادر عليه.**

التمهيد

ويشتمل على:

- **التعريف بمصطلحات عنوان الدراسة**

تمهيد

إن تحديد مصطلحات الدراسة في أي بحثٍ علميٍ، يُسهم ويساعد بشكلٍ كبيرٍ في توضيح المعلومة لدى القارئ بسهولةٍ ووضوحٍ، ويضبط كذلك اتجاهات البحث وتفريعاته، لأن المصطلحات تُعد مفتاحاً يفتح به القارئ خزائن المكتوب، ولذلك فإن "تثبيت الاصطلاحات العلمية لا يفيد العلماء وحدهم، بل يفيد الدعاة والمدعوين، كما يفيد جمهور القراء"(١)، وذلك لأن توضيح المراد من المصطلحات والألفاظ، يستلزم تحديد معناها، فالمعنى إذا كان محدداً، كان شرحه سهلاً على الداعي، ولا يستعمل اللفظ إلا فيما وُضع له، وكان فهم المراد منه سهلاً على المدعوين.

وسأحاول – إن شاء الله – ضبط مصطلحات الدراسة وتحريرها من حيث مدلولها اللغوي والاصطلاحي.

أولاً – مصطلح التربية

إن كلمة التربية من الكلمات الشائعة، والتي تتردد على ألسنة الكثير من الناس في حياتهم العامة، وبالرغم من شيوعها وكثرة ترددها، فقد لا يدرك البعض معانيها إدراكاً حقيقياً، لأنهم يقصرونها على الجانب الأخلاقي فقط، كقولهم: هذا حسن التربية، أو لأنهم يقصرونها على معنى التعهد والرعاية فقط، وهذا تضييق لمفهوم كلمة التربية الواسع، فمفهومها أعم وأشمل مما يستعمله الناس في حياتهم اليومية، وهذا مما يحتم على الباحث بيان معنى هذه الكلمة في اللغة والاصطلاح كما ذكرها أهل العلم.

(أ) المعنى اللغوي لمصطلح التربية

لقد تعددت المعاني اللغوية لهذه الكلمة وذلك تبعاً لاشتقاقها وهى كالتالي:-

(١) "ربا: ربا الشئ يَرْبو رُبُوّاً ورباءً: زاد ونما، وأربيته: نميته. وفى التنزيل العزيز: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾(٢)، ومنه أخذ الربا الحرام، قال الله – تعالى –: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ

---

(١) المعجم الفلسفى، د/ جميل صلبيا، دار الكتاب اللبنانى بيروت، بدون ط، ١٩٨٢م، صـ٩.

(٢) سورة البقرة من الآية "٢٧٦".

ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[١][٢]، وعلى هذا فتكون التربية هنا بمعنى النمو والزيادة، ومنه قول الله – ﷻ –: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾[٣]، "أي: يضاعف أجرها وينميها له"[٤].

(٢) ربَّ: فيقال "ربَّ الأب ولده: وليه وتعهَّده بما يغذِّيه وينميه ويؤدبه"[٥]

فالتربية هنا بمعنى الرعاية والتأديب، ومنه ما جاء في القرآن الكريم على لسان فرعون لسيدنا موسى – ؑ – ﴿ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا ﴾[٦]، أي: "ألم يسبق لك أنك عشت في نزلنا ورعيناك وأنت طفل صغير"[٧].

(٣) "(رباه): نماه، وفلاناً غذاه، ونشأه ونمى قواه الجسدية والعقلية والخلقية"[٨] فالتربية هنا بمعنى النمو والتغذية سواء كانت للجسد أو العقل أو الخلق.

(٤) ربْ: "والرب ينقسم على ثلاثة أقسام، فيكون الرب المالك، ويكون بمعنى السيد المطاع، قال الله – تعالى –:﴿ فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا ﴾[٩]، أي: سيده، ويكون الرب: المصلح، رب الشئ إذا أصلحه"[١٠] فالتربية هنا بمعنى المالك والسيد المطاع والصاحب.

---

(١) سورة الروم من الآية "٣٩".

(٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين أبى منظور الأنصارى المتوفى سنة ٧١١هـ، دار صادر، بيروت، ط ٣ ت، سنة ١٤١٤هـ، ج١٤ صـ٣٠٤.

(٣) سورة البقرة من الآية "٢٧٦".

(٤) تفسير الطبري المسمى "جامع البيان في تأويل القرآن" محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملى، أبو جعفر الطبري، المتوفى سنة ٣١٠هـ، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، سنة ١٤٢٠هـ سنة ٢٠٠٠م، ج٦، صـ١٥.

(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر، المتوفى سنة ١٤٢٤هـ، دار عالم الكتب، ط١ سنة ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، ج٢، صـ ٨٤٢.

(٦) سورة الشعراء من الآية "١٨".

(٧) التفسير الوسيط د/ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة القاهرة، ط١ سنة ١٩٩٨م، ج١٠، صـ٢٣٩.

(٨) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، بيروت، بدون ط، ت، ج١، صـ٣٢٦.

(٩) سورة يوسف من الآية "٤١".

(١٠) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١، صـ ٤٠٠ وما بعدها.

(٥) "(الربانى): العَالِم الراسخ في العلم والدين، أو الذى يطلب بعلمه وجه الله، وقيل: العالم العامِلُ، المُعُلِّم، وقيل: الرَّبَّاني: العالي الدرجة في العلم"[١]

وعلى هذا فالتربية هنا بمعنى العلم والحكمة، ومنه قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾[٢]، "أي: علماء حكماء"[٣].

فالتربية جاءت في معاجم اللغة بمعاني مختلفة، منها النمو والزيادة، والرعاية والتأديب، والنشأة والتغذية، والمالك والصاحب، والسيد المطاع، والعالم الرباني، وكل هذه المعاني لا تبتعد عن معنى التربية، لأنها تفيد الرعاية والتعهد، والتي تهدف إلى إعداد الأفراد والجماعات إعداداً جيداً: ليكونوا صالحين في المجتمع.

(ب) المعنى الاصطلاحي للتربية:

لا تخرج التربية في معناها الاصطلاحي عادة عن المعنى اللغوي، ولا تبتعد عنه كثيراً، ولكن تزيد عليه معان وظيفية أخرى، ولذلك فقد تعددت المعاني الاصطلاحية لكلمة التربية نظراً لتعدد معانيها اللغوية من جانب، واختلاف الزوايا التي يُنظر من خلالها لهذه العلمية من جانب أخر، هذا بالإضافة إلى اختلاف الاتجاهات والآراء، والزمان والمكان، والجوانب التي يتم معالجتها من جِهة ثالثة، وقد عُرفت بعدة تعريفات منها:–

(١) : "ايصال المربى إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها، عن طريق مراعاة فطرته، وتنمية مواهبه، وقدراته، وطاقاته بطرق متدرجة، وتوجيهها للعمل في إعمار الحياة على عهد الله وشروطه"[٤].

(٢) : "عملية التنشئة والرعاية والتوجيه من جانب الكبير تجاه الصغير، والعالم حيال المتعلم"[٥].

ومع اختلاف هذين التعريفين في الألفاظ إلا أنهما اتفقا على أن التربية نظام شامل يهتم بإعداد الإنسان الصالح إعداداً متكاملاً ومتوازياً في الدين والدنيا، ومن خلالها يتم صيانة الإنسان ورعايته، ونموه الجسدي والعقلي والاجتماعي والنفسي بما يتلاءم مع الفطرة التي فطر الله –

---

(١) المرجع سابق، صـــ ٤٠٤.

(٢) سورة آل عمران من الآية "٧٩".

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج٦، صـــ٥٤٠.

(٤) مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، على أحمد مذكور، دار الفكر العربي، بدون ط، سنة ١٤٢١هـــ، ٢٠٠١م، صـــ ٣٠.

(٥) من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، كمال الدين عبد الغنى المرسى، دار المعرفة الجامعية، ط١، سنة ١٤١٩هـــ، سنة ١٩٩٨م، صـــ١٨٩.

تعالى – الناس عليها، فالتربية لها خططها وقواعدها التي تسير عليها بطريق منتظم نحو الصلاح المرجو من المُربَّى وفق شرع الله – ﷻ – ودينه، بطريقة تدريجية، كما أنها تحافظ على الفطرة السليمة للناشئ، ولم تتركه عرضة للانحراف، فإذا وقع في الانحراف لسببٍ ما، فسرعان ما تقوم التربية بتقويمه ومعالجته وفق مبادئ الإسلام.

ثانياً: مصطلح الوقائية

(أ) المعنى اللغوي للكلمة:-

لفظ وقاية مأخوذ من الفعل (وَقَى)، يقال: "وَقَى: وقاه الله وَقْياً، ووِقَايةً وواقيةً: صانه"[١].

"ووقاه وقاية بالكسر، أي: حفظه، والتوقية: الكِلاَءَة والحفظ"[٢].

"(واتقى) بالشئ: جعله وقاية له من شئ آخر، والله خاف عقابه فتجنب ما يكره، والشئ حذره وتجنبه وتوقاه: حذره وتجنبه"[٣] ومنه جاءت كلمة التقوى، لأن "التقوى في اللغة: بمعنى الاتقاء: وهو اتخاذ الوقاية، وعند أهل الحقيقة: هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك"[٤].

ومنها التقية: "وهى اسم من الاتقاء: وهى أن يقي نفسه من اللائمة، أو من العقوبة بما يظهر، وإن كان خلاف ما أضمر"[٥].

إذاً فمعانى الوقاية كما جاءت في معاجم اللغة العربية، كلها تدور حول الحفظ والصيانة، والحماية والرعاية، ومنه قول الله – ﷻ –:﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾[٦]، "أي: صانهم من

(١) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج ١٥، صـــ٤٠٢.

(٢) المرجع السابق، صـــ٤٠١.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مرجع سابق، ج٢، صـــ١٠٥٢.

(٤) التعريفات، على بن محمد بن على الزين الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦هــ تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، سنة ١٤٠٣هــ سنة ١٩٨٣م، صـــ٦٥.

(٥) التعريفات الفقهية، محمد عميم الاحسان المجدي البركتي، دار الكتب العلمية، ط١، سنة ١٤٢٤هــ سنة ٢٠٠٢م، صـــ٦٠.

(٦) سورة الإنسان من الآية "١١".

شدائده"(١)، ومنه أيضاً قول النبي – ﷺ – في الحديث الذي رواه سيدنا ابن عباس(٢) – رضي الله عنهما –: "وتَوَقَّ كرائم أموالهم"(٣)، أي تجنب أموالهم واحذرها، ولا تأخذها مع مال الزكاة والصدقة.

(ب) المعنى الاصطلاحي للوقاية

مصطلح الوقاية من المصطلحات التي كثرت التعاريف حولها، نظراً لاختلاف الاتجاهات، والتأثر بالتعاليم والعادات والقيم والأهداف، فهناك من عرفها تعريفاً خاصاً وهناك من عرفها تعريفاً عاماً، فالوقاية بالمعنى الخاص هي:-

"المحافظة على الفرد والمجتمع في أحسن حالاته الصحية، ويقوم الطب الوقائي لتحقيق هذا الهدف على مجموعة من التعاليم، والارشادات، لوقاية الإنسان من الأمراض السارية والوافدة قبل وقوعها، ومنع انتشار العدوى إذا وقعت"(٤).

ففي هذا التعريف نجد أن الوقاية قاصرةً على الطب الوقائي فقط، مع أنها تكون في كل أمور الحياة على اختلاف أشكالها وألوانها، فتشمل الجسد والقلب والعقل، وإلا فما الفائدة من بدنٍ وجسمٍ صحيحٍ سليمٍ وعقلٍ ضالٍ أو قلبٍ سقيمٍ.

أما الوقاية بالمعنى العام فهي:-

---

(١) تفسير الرازي المسمى "مفاتيح الغيب"، أبو عبد الله محمد بن عمر الحسن بن الحسين التيمى الرازى، الملقب بفخر الدين الرازي، المتوفى سنة ٦٠٦هـ، دار احياء التراث العربي، لبنان، بيروت، ط٣، سنة ١٤٢٠هـ، ج٣، صـ٧٤٩.

(٢) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو العباس، ابن عم رسول الله – ﷺ – أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، ولد وبنوا هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقيل بخمس، مات النبي – ﷺ – وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وفي وفاته أقوال، فقيل: سنة خمس وستين، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة ثمان وهو الصحيح، واتفقوا على أنه مات بالطائف سنة ثمان وستين، واختلف في سنه، فقيل: ابن إحدى وسبعين، وقيل: ابن اثنتين، وقيل: ابن أربع، والأول هو الأقوى، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، ج٤، صـ١٢٢.

(٣) صحيح البخاري "الجامع المسند الصحيح المختصر من أيام رسول الله – ﷺ – وسننه وأيامه"، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري، المتوفى سنة ٢٨٦هـ، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢/١١٩ – رقم ١٤٥٨ واللفظ للبخاري، وفي صحيح مسلم "المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – ﷺ –"، مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري، المتوفى سنة ٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ١/٥١ – رقم ١٩.

(٤) الطب الوقائى في الإسلام د/ أحمد شوقي الفنجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣ سنة ١٩٩١م، صـ١١.

"حفظ الشئ عما يؤذيه ويضره"[١]، وهذا التعريف رغم قصر ألفاظه إلا أنه أشمل وأجمع.

من هذين التعريفين يتبين أن الوقاية تهتم بصيانة الأفراد والمجتمعات، وحفظهم من كل الأمراض الحسية والمعنوية، بواسطة التعاليم والإرشادات التي وُضعت بواسطة الوحي الإلهي المنزل على الأنبياء والرسل – عليهم السلام – من قبل الحق – ﷻ – من جهةٍ عليا، ليكون المجتمع سليماً معافاً بعيداً عن مخاطر الأمراض والعلل الحسية والمعنوية.

ثالثاً: معنى الدعوة

(أ) المعنى اللغوي للدعوة:

الدعوة لغة: مشتقة من الفعل الثلاثي دعا، يقال: "دَعَا الرجل دَعْواً ودعاءً: ناداه، والاسم الدَّعَوة، ودَعَوت فلاناً، أي: صحت به واسْتَدْعَيته"[٢].

و"دعا بالشئ دَعْواً، ودعوة، ودعاءً، ودعوى: طلب احضاره، يقال: دعا بالكتاب والشئ إلى كذا: احتاج إليه"[٣].

"(الدعوة) إلى الطعام بالفتح، يقال: كنَّا في دعوة فلان وَمَدْعاة فلان وهو مصدر، والمراد بها: الدعاء إلى الطعام، و(الدعوة) بالكسر في النسب، و(الدعوى) أيضاً، هذا أكثر كلام العرب"[٤].

"دَعَوت الله أَدْعوه دعاءً: ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير، ودَعَوت زيداً: نَادَيته، وطلبت اقباله، ودعا المؤذن إلى الصلاة: فهو داعى الله"[٥].

بعد الاطلاع والنظر في هذه التعاريف يتبين: أن الدعوة لغة تطلق وتشير إلى الطلب، والنداء والاستدعاء، والدعاء، والابتهال، والعبادة، وكلها تعود إلى معنى واحد وهو الطلب، وذلك لأن النداء فيه طلب الحضور، وكذلك الاستدعاء، والدعاء فيه طلب الخير من الغير وهو الله –سبحانه وتعالى–،

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، سنة ١٤١٠هـ، ج١، صـ٧٠٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٤، صـ٢٥٨.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مرجع سابق، ج١، صـ٢٨٦.

(٤) مختار الصحاح، زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الحنفي الرازي، المتوفى سنة ٦٦٦هـ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت صيدا، بدون ط، ت، صـ٢٠٥.

(٥) المصباح المنير في غريب شرح الكبير، أحمد بن محمد بن على الفيومي أبو العباس، المتوفى سنة ٧٧٠هـ، المكتبة العلمية، بيروت، بدون ط، ت، ج١، صـ١٩٤.

وكذلك أيضاً الابتهال، والعبادة فيها طلب الإيمان بالله، وعبادته وحده لا شريك له، والاستعانة فيها طلب العون، فالأصل في كل هذه المعاني تدور حول الطلب.

والأصل في مفهوم الدعوة: أنه يعتمد على البيان والكلام، كما جاء في معجم مقاييس اللغة "(دَعَو) الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشئ إليك بصوت وكلام يكون منك"[١].

(ب) المعنى الاصطلاحي للدعوة:-

إذا أطلق مصطلح الدعوة فغالباً ما يراد به معنيان:-

أ- الإسلام ورسالته. ب- نشر الإسلام وتبليغه للآخرين.

ومن هنا تعددت التعاريف الاصطلاحية للدعوة، واختلفت، وذلك لاختلاف تحديد معنى الدعوة، وسوف أذكر تعريفين لكل معنى من هذين المعنيين:

الأول: تعريف الدعوة: بمعنى الإسلام ورسالته:

(١) "برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم، وليكتشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين مع الله"[٢].

(٢) "هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين، وأنزل تعاليمه وحياً على رسول الله - ﷺ - وحفظها في القرآن الكريم، وبينها في السنة النبوية"[٣].

الثاني: تعريف الدعوة بمعنى النشر والبلاغ للآخرين:

(١) :"العلم الذى به تُعرف كافة المحاولات الفنية، المتعددة[٤]، الرامية إلى تبليغ الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق"[٥].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، المتوفى سنة ٣٩٥هـ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، بدون طبعة ت سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ج٢، صـ٢٧٩.

(٢) مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، الشيخ محمد الغزالى، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط٥، سنة ١٩٨١م، صـ١٢.

(٣) الدعوة الإسلامية، أصولها، ووسائلها، د أحمد أحمد غلوش، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٨٧م، صـ١٢ وما بعدها.

(٤) "الدعوة علم كسائر العلوم له قواعده وله موضوعه المتعلق بتعليم الدعاة كافة المحاولات المركزة الهادفة إلى تبليغ الإسلام، والمحاولات قولية كالخطبة والدرس، أو فعلية كالقدوة والطاعة لدين الله، وهي فيه لأنها تراعي جانب التطبيق النظري، وتلحظ عمليات التأثير في نفسية المشاهد والمستمع، وهي متعددة لأن بعضها متجه إلى العقل، وبعضها الآخر متجه إلى العاطفة والوجدان"، المرجع السابق، صـ١١.

(٥) المرجع السابق، صـ١٠.

(٢) :"الطلب بشدة وحث على الدخول في دين الإسلام، اعتقاداً، وقولاً، وعملاً ظاهراً وباطناً"[١].

فمن خلال هذه التعريفات وغيرها يتبين الاختلاف بين الكتَّاب والباحثين حول تناولهم لتعريف الدعوة في الاصطلاح، وذلك لخلطهم بين معنى كلمة الدعوة كرسالة، وبين الدعوة كوسيلة وهى النشر والبلاغ، وعلى الرغم من هذا الاختلاف، فهناك ارتباطٌ وثيقٌ بين المعنين، وذلك لأن عملية نشر الإسلام وتبليغه كعقيدة ورسالة، لا تتم إلا بالمبادئ الإسلامية، والتي تشمل الدين والدنيا والروح والجسد.

كما تطلق الدعوة أحياناً على الإسلام نفسه الذى تدعو إليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾[٢]، "وإنما عنى بدعوة الحق: توحيد الله، وشهادة أن لا إله إلا الله"[٣]، ومن هنا يظهر الارتباط الوثيق بين المعنيين.

وهناك من عرف الدعوة تعريفاً يشتمل على عناصر الدعوة الثلاثة وهى:- التبليغ والتكوين والتنفيذ، فعرفها بقوله: "تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه اياهم، وتطبيقه في واقع الحياة"[٤].

ثم استدل على شمولية هذا التعريف بقول الله – ﷻ -: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٥]، ثم قال: "فقد شمل قوله – ﷻ – ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ البيان والتبليغ، وهو العنصر الأول من عناصر الدعوة، كما شمل قوله ﴿ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ التربية والتعليم، أو ما يعبر عنه عادة في المصطلح الدعوى (التكوين)، كما شمل قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ التطبيق والتنفيذ، لأن الكتاب هنا: القرآن الكريم، والحكمة هنا: السنة النبوية"[٦].

---

(١) فقه الدعوة وأساليبها، محمود محمد حمودة، محمد مطلق عساف، مؤسسة الوراق، عمان، الأردن، سنة ٢٠٠٠م، صـ١١.

(٢) سورة الرعد من الآية "١٤".

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج١٦، صـ٣٩٧.

(٤) المدخل إلى علم الدعوة، د/ محمد أبو الفتح البيانوني، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط ٤ سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م، صـ١٧.

(٥) سورة الجمعة من الآية "٢".

(٦) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـ١٧.

فهذا التعريف فيه رؤيةٌ شاملةٌ وواضحةٌ، وإحاطةٌ كاملةٌ لعناصر الدعوة في جوانبها المختلفة، وهى التبليغ والتعليم، والتطبيق العملي والتنفيذ، مما يجعل هذا التعريف تعريفاً عاماً وشاملاً:-

رابعاً معنى أولى العزم من الرسل

(أ) معنى أولى:-

جاء في لسان العرب "(أولو) بمعنى (ذوو)، لا يفرد له واحد، ولا يتكلم به إلا مضافاً كقولك: أولو بأس شديد، وأولو كرم"(١).

و "أولو [جمع] مؤنثه، أوُلات: جمع لا مفرد له من لفظه، بمعنى أصحاب، يلزم الإضافة إلى اسم ظاهر، ويعرب بالواو رفعاً، وبالياء نصباً وجراً، (ترسم بالواو الأولى، ولا تنطق)، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾(٢) أولوا الأحلام والنهى، ذوو الألباب والعقول الراجحة – أولو الأمر: الرؤساء"(٣).

فكلمة أولى: تعنى أصحاب وذوى، وأولو العزم: أي أصحاب العزم والجد.

(ب) معنى العزم:

(١) في اللغة

جاء في معاجم اللغة "عَزَم: العَزْمُ: الجِدُّ"(٤).

"ع ز م (عَزَمَ) على كذا:، أراد فعله، وقطع عليه، وبابه ضرب"(٥) والعزم: "ما عقد عليه القلب من أمر أنت فاعله، أي: متيقنه"(٦).

من خلال النظر في هذه المعاني، يتبين أن مصطلح العزم يفيد قصد الشئ، وعقد النية على فعله، وتأتى بمعنى الصبر والجد والثبات.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١١، صـ٢٧.

(٢) سورة آل عمران من الآية "١٣".

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار، مرجع سابق، عبدالحميد عمر، ج١، صـ١٤١.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٢، صـ٣٩٩.

(٥) مختار الصحاح، زين الدين الرازي، مرجع سابق، صـ٢٠٨.

(٦) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي، مرجع سابق، ج٤، صـ٣٠٨.

(٢) معنى العزم في الاصطلاح:

لا يختلف المعنى في الاصطلاح كثيراً عن المعنى اللغوي، ولذلك فقد عُرِّف العزم بعدة تعريفات منها:-

الأول: "جزم الارادة بعد تردد"[١].

الثاني: "قوة قصد الفعل، وانعدام قصد الترك، وذلك بعد أن يكون التردد قد انتهى ولم يبق إلا الاستعداد وامكان الفرصة"[٢].

إذاً فالعزم في الاصطلاح يفيد الجد والقصد والجزم بفعل شئٍ معينٍ، بنيةٍ محققة، من غير ترددٍ ولا ضعفٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[٣]، وإذا أضيفت كلمة (العزم) إلى (أولى) فيكون معناها: أصحاب الجد والثبات والصبر والإرادة الصلبة القوية، وهو مصطلح قرآني يطلق على بعض الرسل الذين بعثهم الله – تعالى – إلى الخلق لهدايتهم وتبليغهم شرع الله – ﷻ –، وذلك لعظيم أمرهم مع قومهم وما تحملوه من المشاق في سبيل تبليغ دعوة رب العالمين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٤]، أي: "فاصبر كما صبر أولو الجد والثبات والصبر"[٥]، ومما يدل على ذلك استعمال كلمة العزم غالباً، مع أمور الصبر في آيات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[٦].

فأولو العزم هم: أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تطبيقها وتنفيذها على الوجه الأكمل، وصبروا على تحمل المعاندين والمكابرين.

---

(١) التعريفات الفقهية، البركتي، مرجع سابق، صـ١٤٦.

(٢) أفعال الرسول – ﷺ – ودلالتها على الأحكام الشرعية، محمد بن سليمان عبدالله الأشقر العتيبي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط٦، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ج٢، صـ١٣٢.

(٣) سورة آل عمران من الآية "١٥٩".

(٤) سورة الأحقاف من الآية "٣٥".

(٥) تفسير النسفي المسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، المتوفى سنة ٧١٠هـ، تحقيق يوسف على بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ج٣، صـ٣١٨.

(٦) سورة آل عمران من الآية "١٨٦".

(ج) معنى الرسل

(١) المعنى اللغوي لمصطلح الرسول

الرسل جمع، مفردها رسول وهو بمعنى "مبعوث، شخص يحمل الرسائل، أو ينقل رسالة شفوية، أو يقوم برحلة قصيرة لتوصيل رسالة، (ويستوى فيه الواحد وغيره)"[١] "وسمى الرسول رسولاً: لأنه ذو رسالة، والرسول اسم مِنْ أَرْسَلْتَ، وكذلك الرسالة، أو يقال جاءت الإبل أرسالاً: إذ جاء منها رَسَلٌ بعد رسَلَ"[٢] فالرسول على هذا المعنى: إنسان مبعوث يحمل رسالة، سواء كانت الرسالة مكتوبة أم شفهية، فقد جاء في كتاب التعريفات "الرسول في اللغة: هو الذى أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم، أو بالقبض"[٣]، وقد يراد بالرسول "مَلَك: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[٤]، وكقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[٥]، أو واحد من المجموعة التي تكونت من اثنى عشر تابعاً، اختارهم السيد المسيح للتبشير بالإنجيل"[٦]، وهؤلاء يعرفون في الإسلام بالحواريين.

من خلال ذلك يتبين أن الرسول في اللغة إما أن يكون مأخوذاً من الإرسال بمعنى التوجيه، فهو مُوَجَّه من قِبل مَنْ أرسله، ومبعوث برسالةٍ معينةٍ كُلّف بحملها وبتبليغها، وإما أن يكون مأخوذاً من التابع فيكون الرسول هو من تتابع عليه الوحى، أو الذى يتابع الأخبار لمن أُرسل إليهم من الذى أرسله، وهذه المعاني كلها مجتمعة تصح في معنى الرسول، لأنه مبعوث ومرسل من قبل الله – ﷻ – الذى وجهه إلى العباد لدعوتهم، وهو الذى يتابع الوحى والأخبار عن الله – ﷻ – ليبلغها قومه، أو من أُرْسِلَ إليهم.

---

(١) **معجم اللغة العربية المعاصرة ، د/ أحمد مختار، مرجع سابق ، ج٢، صــ٨٨٩.**

(٢) **لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١١، صــ٢٨٤.**

(٣) **التعريفات، الجرجاني، مرجع سابق، صــ١١٠.**

(٤) **سورة الشورى من الآية "٥١".**

(٥) **سورة الحج من الآية "٧٥".**

(٦) **معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار، مرجع سابق، ج٢٢، صــ٨٨٩.**

(٢) المعنى الاصطلاحي للرسل:

هناك تعريفات عدة ذكرها أهل العلم، لقد عرف جمهور العلماء الرسول: "بأنه إنسان ذكر حر من بني آدم، سليم عن منفر طبعاً، أُوحي إليه بشرع يعمل به، وأمر بتبليغه"(١).

وعلى هذا فالرسول إنسان ذكرٌ حرٌ من بني آدم مبعوث من قبل الله – ﷻ – ليبلغهم ما أمروا به من الوحي والتشريعات الإلهية، وهو بهذا الوحي يصير نبياً، وبإرساله يصير رسولاً، هذا أشهر وأصح ما قيل في تعريف الرسول، كذلك تعددت التعاريف حول مصطلح النبي، ومن أشهر ما قيل في تعريفه: "بأنه إنسان ذكر حر من بني آدم سليم عن منفر طبعاً، أو أوحي إليه بشرع يعمل به، وإن لم يؤمر بتبليغه"(٢)، إلا أن هذا التعريف لا يسلم من الاعتراض، لأن الأنبياء مأمورون بتبليغ الناس أمور دينهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ... ﴾(٣)، وهذا "يدل على أن كل منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير، واستظهر بعضهم أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسولٍ قبله كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة"(٤)، فالرسول مبعوث من قبل الله – ﷻ – بشرع جديد يدعو إليه، والنبي مبعوث من قبل الله – ﷻ – ليقرر شرعاً سابقاً عليه، وعلى ذلك فالنبي أعم من الرسول، والله أعلم.

خامساً: تعيين أسماء أولى العزم من الرسل:

اختلف العلماء اختلافاً كبيراً حول تعيين أسماء أولى العزم من الرسل، وهذا راجعٌ إلى اختلافهم حول معنى كلمة (من) في قوله تعالى (من الرسل)، هل هي بيانية أم تبعيضية؟ فإذا كانت (من) لبيان الجنس، فيكون المراد بأولى العزم: جميع الرسل وأنهم جميعاً ذو عزم وحزم ورأى، وهذا الرأي قد رده كثير من العلماء، لكثرة المآخذ عليه، ولكونه يعارض نصوص القرآن الكريم، فهو خلاف الأولى

---

(١) حاشية الإمام البيجوري على جوهرة التوحيد، المسمى تحفة المريد على جوهرية التوحيد، برهان الدين إبراهيم بن محمد الجيزاوي، المتوفي سنة ١٢٧٦هـ، تحقيق أ.د على جمعة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، صـ ٣٣.

(٢) تحفة المريد على جوهرة التوحيد، البيجوري، صـ٣٣.

(٣) سورة الحج من الآية "٥٢".

(٤) تفسير الشنقيطي، ج٥، صـ٢٩٠.

فقد جاء في الرد على هذا الرأي: "واعلم أن القول بأن المراد بأولى العزم جميع الرسل – عليهم الصلاة والسلام –، وأن لفظة (مِنْ) في قوله: (مِنْ الرسل) بيانية: يظهر أنه خلاف التحقيق، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية، كقوله تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[1] فأمر الله – ﷻ – نبيه في آية القلم، هذه بالصبر، ونهاه عن أن يكون مثل يونس – عليه السلام – لأنه هو صاحب الحوت، وكقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[2]، فأية القلم وآية طه المذكورتان: كلتاهما تدل على أن أولى العزم من الرسل الذين أُمر النبى – ﷺ – بأن يصبر كصبرهم: ليسوا جميع الرسل، والعلم عند الله – تعالى –[3]، وعلى هذا (فَمِنْ) في الآية ليست لبيان الجنس، ولكنها تبعيضية، و"المراد بأولى العزم: ما ذكر في سورة الأحزاب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[4]، ويونس ليس منهم لقوله: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾، وكذا آدم لقوله: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[5][6].

إذاً فالمراد من أولى العزم من الرسل هم سيدنا نوح، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا محمد – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين –، وهذا هو المشهور والراجح عند أهل العلم، واستدلوا بآية الأحزاب والشورى، وقد خصهم الله بالذكر لأنهم تميزوا بمزيد من الفضل والعزم والصبر "ووجه تخصيصهم بالذكر، الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل، لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة، ومن أولى العزم من الرسل"[7].

وهناك آراء كثيرة أخرى حول تعيين أسمائهم ولكنها لا تخلو من النقد ولا تسلم من الاعتراض، والحق فيما ذهب إليه جمهور العلماء، وهو المشهور عند الكثير من الناس.

---

(١) سورة القلم من الآية "٤٨".

(٢) سورة طه الآية "١١٥".

(٣) تفسير الشنقيطي المسمى "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، المتوفى سنة ١٣٩٣هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، بدون ط، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ج٧، صـ٢٤١.

(٤) سورة الأحزاب من الآية "٧".

(٥) سورة طه من الآية "١١٥".

(٦) تفسير النسفي، مرجع سابق، ج٣، صـ٣١٩.

(٧) فتح القدير، محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكانى اليمنى المتوفى سنة ١٢٥٠هـ، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١ سنة ١٤١٤هـ، ج٤، صـ٣٠٤.

سادساً: معنى الأثر

(أ) المعنى اللغوي

الأثر في اللغة: مأخوذ من "أَثَر: الهمزة والتاء والراء له ثلاثة أصول: تقديم الشئ، وذكر الشئ، ورسم الشئ الباقي"[١].

وجاء في لسان العرب "الأثر: بقية الشئ، والجمع آثار وأثور، وخرجت في أثره، وفى أَثَره: أى بعده"[٢]، "(والتأثير) ايفاء الأثر في الشئ"[٣]، "(والأَثْر: (نقل الحديث) من القوم وروايته"[٤].

إذاً فالمعنى اللغوي للأثر يدور حول العلامة، وابقاء الأثر في الشئ، والتبعية، وبقية الشئ.

(ب) المعنى الاصطلاحي للأثر

الأثر يختلف تعريفه في الاصطلاح، تبعاً لاختلاف الفنون والعلوم "فالأثر عند المحدثين يطلق على الحديث الموقوف[٥] والمقطوع[٦] كما يقولون: جاء في الآثار كذا، والبعض يطلقه على الحديث المرفوع[٧] أيضاً، كما يقال: جاء في الأدعية المأثورة كذا"[٨] إذاً فمعنى الأثر عند علماء الحديث ما يروى من السنة مرفوعاً، أو موقوفاً، أو مقطوعاً، "ويستعمل الفقهاء لفظ الأثر للإشارة عن بقية الشيء، وبينه وبين المعاني اللغوية ارتباط، فيطلقون الأثر بمعنى البقية، على بقية النجاسة ونحوها، كما يطلقونه بمعنى الخبر، فيريدون به الحديث المرفوع أو الموقوف أو المقطوع، وبعض الفقهاء يقصرونه على الموقوف، ويطلقونه بمعنى ما

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج١١، صـ٥٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٤، صـ٥.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٤، صـ٥.

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحصينى أبو الغيض الملقب بمرتضى الزبيدى، المتوفى سنة ١٢٠٥هـ، دار الهداية، بدون ط، ت، ج ١٠ صـ١٥.

(٥) الحديث الموقوف هو ما يروى عن الصحابة – ﷺ – من أقوالهم وأفعالهم ونحوها، فيوقف عليهم ولا يتجاوز به إلى رسول الله – ﷺ – "الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح رحمه الله تعالى"، إبراهيم بن موسى بن أيوب أبو إسحاق الأنباسي القاهري، المتوفى سنة ٨٠٢هـ، تحقيق صلاح فتحي هلل، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م، ج١، صـ١٤٠.

(٦) الحديث المقطوع هو: ما جاء عن التابعين موقوفاً عليهم من أقوالهم وأفعالهم، "الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح رحمه الله تعالى"، الأنباسي، مرجع سابق، ج١، صـ١٤١.

(٧) الحديث المرفوع هو: ما أضيف إلى رسول الله – ﷺ – خاصة ولا يقع مطلقه على غير ذلك نحو الموقوف على الصحابة وغيرهم، "الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح رحمه الله تعالى"، الأنباسي، مرجع سابق، ج١، صـ١٣٩.

(٨) التعريفات الفقهية، البركتى، مرجع سابق، صـ١٦.

يترتب على الشئ، وهو المسمى بالحكم عندهم، كما إذا أضيف الأثر إلى الشئ فيقال أثر العقد، وأثر الفسخ، وأثر النكاح وغير ذلك"(١).

فالأثر في اصطلاح الفقهاء يستعمل أحياناً فيما يروى من السنة عن النبى - ﷺ - مثل قولهم عند الاستدلال على بعض الأحكام الشرعية: ويستدل على ذلك بالأثر المروى عن فلان، وأحياناً يستعملونها مضافة إلى الحكم، فيقولون: أثر العقد أو الفسخ.

والمراد من الأثر في هذا العنوان: العلامة التي تركتها التربية الوقائية في الأفراد والجماعات لصيانتهم وحمايتهم من الوقوع في الانحراف والتطرف من خلال دعوات أولى العزم من الرسل – عليهم السلام –.

سابعاً: معنى المواجهة:

(أ) المعنى اللغوي للمواجهة:

"والمواجهة: المقابلة"(٢)

فالمواجهة في اللغة تدور حول المقابلة، وعادة ما تكون بين شيئين.

(ب) المعنى الاصطلاحي للمواجهة:-

وفى الاصطلاح: المواجهة هي: "أداة لتركيز انتباه المسترشد على جانبٍ ما من سلوكه الذى إذا تغير، سيؤدى إلى أداء أكثر فاعلية"(٣).

ثامناً: معنى الانحراف:

(أ) المعنى اللغوي للانحراف:-

الانحراف مأخوذ من "انحراف الشخص: مال عن جادة الصواب، حاد عن الطريق المستقيم (انحرفت غريزته)"(٤).

"وحَرْف الشئ: ناحيته، وفلان على حرف من أمره: أي ناحية منه كأنه ينتظر ويتوقع، فإن رأى من ناحية ما يحب، وإلا مال إلى غيرها"(٥).

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط ١٤٠٤هـ سنة ١٤٢٧م ج١، صـ٥٤٩.

(٢) مختار الصحاح، الرازي، مرجع سابق، صـ٣٣٤.

(٣) العملية الإرشادية، محمد محروس الشناوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١ سنة ١٤١٦هـ، سنة ١٩٩٦م، صـ١٠٤.

(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، مرجع سابق، ج١، صـ٤٧٥.

(٥) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ح ٩، صـ٤٢.

"وتحريف الكلم عن مواضعه: تغييره، والتحريف في القرآن والكلمة: تغيير الحرف عن معناه، والكلمة عن معناها، وهى قريبة الشبه" كما كانت اليهود تغير معانى التوراة بالأشباه، فوصفهم الله – ﷻ – بفعلهم، فقال تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[١][٢]، وكقول الله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾[٣] فالانحراف في اللغة يفيد الميل عن الاعتدال والاستقامة والابتعاد عن الحق

(ب) المعنى الاصطلاحي للانحراف

الانحراف هو: "الميل عن طاعة الله ورسوله والوقوع في المحرمات فيما يتعلق بالعبادات، والمعاملات والأخلاق"[٤].

فالانحراف يكون بالميل والخروج عن حد الوسطية والاعتدال الذي أمرنا به الله – ﷻ – ورسوله – ﷺ –، مما يشكل خطورة على الأفراد والمجتمعات، لما فيه من انتهاك للقواعد الدينية والاجتماعية، فأي إنسان ارتكب أي فعلٍ نهى الإسلام عنه، أو ترك أمراً أوجبه الإسلام دون عذر شرعي، يعتبر متطرفاً: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٥].

والانحراف يشمل كل فكر أو سلوك مخالف للإسلام وشريعته، والأعراف التي لا تصطدم مع الدين، ويشمل ذلك اعتناق المذاهب التكفيرية، والأفكار الهدامة، والآراء الشاذة، والعقائد الباطلة والمذاهب الفكرية الفاسدة، وذلك لميلها عن طريق الحق إلى الباطل.

وقد آثرت مصطلح (الانحراف) على (الفساد) مع أن الفساد أعم وأشمل، لأن من بنية الكلمة حرف – السين والألف والدال – (ساد) والتي تدل على الانتشار والعموم إلا أنها ليست مقصودة في هذه الدراسة، وذلك: لأن الانحراف بداية الطريق الذي يوصل إلى الفساد، والإسلام يحرم كل البدايات والطرق التي تؤدى إلى الفساد والحرام. ولا يتركها لتستفحل حتى تصل إلى الفساد "ومن هنا نفهم مراده – ﷻ – من قوله – تعالى –: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[٦] ولم يقل: (لا تزنوا) لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدى إليها، فاحذر أن تجعل نفسك على مقربة منها، لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع

---

(١) **سورة النساء من الآية "٤٦"، سورة المائدة من الآية "١٣"**

(٢) **المرجع السابق، صـ٤٣.**

(٣) **سورة الحج من الآية "١١"**

(٤) **وقاية الأولاد من الانحراف من منظور إسلامى، المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد ٤/العدد ٢٨، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية الرياض سنة ١٤٢٠هـ، صـ٢٤٦.**

(٥) **سورة الأنعام الآية "١٥٣".**

(٦) **سورة الإسراء من الآية "٣٢"**

فيه"[١][٢]، فالانحراف سبب من أسباب الفساد في الأرض، وفيه تهديد للضرورات الخمس[٣] التي أُمرنا بالمحافظة عليها، وهو طريق يوصل إلى سفك الدماء، وانتهاك الأعراض، والأضرار بالممتلكات، والإسلام يحرم كل الطرق بل كل ما يوصل إلى الفساد والضر، ألم يأمرنا ربنا بغض البصر وينهانا عن الاختلاط، وقاية من الوقوع في الفاحشة، والفاحشة: فساد، أما الاختلاط، وعدم غض البصر: فهو انحراف لأن النظرة بريد الزنا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٤] فالله – عَجَّلَ – يحذر من مجرد الاقتراب من الزنا، مبالغة في الوقاية من الوقوع فيه، فالإسلام يضع الحواجز، ويقيم السدود أمام الفساد.

فالإسلام في دعوته لاتباعه ينهاهم عن مجرد القرب من مواطن الانحراف، فيحرم كل وسيلة تفضى إلى محرم، أو أي طريق ينتهى بالإنسان إلى المحظور، "وحين ينهانا الحق – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – من الاقتراب من شئ، فهذه هي استقامة الاحتياط، وهى قد تسمح لك بأن تدخل في التحريم ما ليس داخلاً فيه، فمثلاً عند تحريم الخمر. جاء الأمر باجتنابها أي الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر في مكان"[٥] فالإسلام يحرم البدايات الموصلة للفساد، ولا يترك الانحراف يتوغل، ليصل إلى الفساد والعطب.

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٤، صـ٨٥٠٠.

(٢) لقول النبي – ﷺ –: "الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه"، رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه وعرضه، ٢٠/١، رقم ٥٢، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ١٢١٩/٣، رقم ١٥٩٩.

(٣) الضرورات الخمس هي: حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض.

(٤) سورة النور من الآية "٣٠ – ٣١"

(٥) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١١، صـ٦٧١٠.

الفصل الأول
التربية الوقائية في المنظور الإسلامي

ويشتمل على خمسة مباحث:-

المبحث الأول:- مفهوم التربية الوقائية في الإسلام

المبحث الثاني:- خصائص التربية الوقائية في الإسلام

المبحث الثالث:- وسائل وأساليب التربية الوقائية

المبحث الرابع:- أهداف التربية الوقائية

المبحث الخامس:- دور التربية الوقائية في بناء الأفراد والمجتمعات

المبحث الأول
مفهوم التربية الوقائية في الإسلام

تمهيد

لقد اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بوقاية الأفراد والجماعة، من العلل أياً كان نوعها، ولذلك فقد شرع المبادئ والأحكام التي تساعدهم على ذلك، فإذا زلَّ الإنسان، ووقع في العلة والمرض فالإسلام قد شرع له العلاج، حتى لا يتوغل المرض فيه، ومع ذلك شرع له ما يقيه، ويحافظ عليه في سلوكه مع نفسه، ومع غيره من أفراد المجتمع، ولينزجر غيره عن الوقوع في مثل ما وقع فيه، فشرع العقوبات لتكون تربية وقائية وعلاجية معاً، وبذلك يتميز التشريع الإسلامي عن غيره من التشريعات، لأنه من قبل الله – ﷻ – خالق الخلق، العليم بأحوال عباده، فهو يعلم ما يصلح حالهم، وما يكون سبباً في سعادتهم دنيا وآخرة، فلم يتركهم دون وقاية في وقت من الأوقات، لأن الأصل في التشريع الإسلامي: الوقاية، وليست العلل والأمراض، حتى يعيش الفرد والمجتمع بأسره معافىً من الأمراض والعلل.

أولاً: المقصود بالتربية الوقائية في الإسلام

يقصد بالتربية الوقائية في الإسلام: "الأخذ بالتوجيهات الإسلامية التربوية، والأساليب القرآنية التربوية، لتحقيق المحافظة على الفرد والمجتمع، وحمايته من الانحراف، من خلال التدابير الشرعية الوقائية التربوية التي تسعى إلى تقوية الإيمان في النفوس، ومن ثم حماية الفرد والمجتمع من مساوئ الأخلاق، لإمكان الوصول إلى صلاحها[١]".

أو هي "فرط صيانة فطرة الإنسان وحمايتها من الانحراف، ومتابعة النفس الإنسانية بالتوجيهات الإسلامية الربانية عن طريق أخذ الاحتياطات والتدابير الشرعية، التي تمنع من التردي في خبائث العقائد، والأخلاق، وسائر الأعمال، ليظل الفرد على الصراط المستقيم، مهتدياً للتي هي أقوم في كل جانب من جوانب حياته"[٢]، من خلال ما سبق أستخلص: أن التربية الوقائية في الإسلام يقصد بها، الوصايا والتدابير التي وضعها الشرع الحنيف لحماية الأفراد والمجتمعات

---

(١) التربية الوقائية وأساليبها في سورة الحجرات وتطبيقاتها التربوية، خالد بن عوض ابن على الفهر، المملكة العربية السعودية وزارة التعليم العالي، جامعة أم القرى، كلية التربية مكة المكرمة وهو بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية، سنة ١٤٢١هـ، صـ١١.

(٢) التربية الوقائية فى الإسلام ومدى استفادة المدرسة الثانوية منها، خليل بن عبدالله بن عبدالرحمن الحدرى، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة أم القرى مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية واحياء التراث الإسلامي، سنة ١٤١٨هـ، صـ٤٧ وما بعدها

من العلل والأمراض، الحسية والمعنوية، ليعيش الفرد والمجتمع سليماً معافى، لأن الوقاية خيرٌ وأفضل من العلاج، وبذلك تتحقق السعادة في الدنيا والآخرة.

ثانياً: الوقاية أصلٌ في التشريعات الإسلامية

لقد خلق الله - ﷻ - الخلق، وشرع لهم من الأوامر والنواهي ما فيه سعادتهم في العاجل والآجل، وفى الوقت ذاته لم يترك الإنسان سدى أو هملاً ليفعل ما يشاء من المحرمات والمنهيات، ولكن جعل له أموراً ترغيبية في الدنيا والآخرة، تدفعه إلى فعل الأوامر والواجبات، كما جعل أموراً أخرى هي مرهبات وزواجر في الدنيا والآخرة، لتمنعه عن الوقوع في المحرمات والمنهيات.

إن الناظر بعين الاستبصار والاطلاع في تعاليم الدين الحنيف، يجدها زاخرة بالوصايا والتدابير الوقائية، آخذة كل أسباب الحيطة والحذر بحماية الأفراد والمجتمعات من الوقوع من الآثام والشرور والعلل أياً كان نوعها، فالمصدر الأول من مصادر التلقي الأصلية عند المسلمين وهو القرآن الكريم يحمل بين دفتيه الكثير والكثير من الوسائل والأساليب التي تستأصل مادة الشر وإغلاق كل الأبواب التي تؤدى إليها، بشكل يجعله مهتماً بالجانب الوقائي، وهذا لا يعنى أن الإسلام أهمل النواحي العلاجية، ولكنه أولى أهمية كبيرة للناحية الوقائية، في الوقت الذى لم يهمل فيه الناحية العلاجية، وذلك لأن المرض يسبق العلاج، والوقاية تسبق المرض، ولذلك فإن "من يتمعن في المنهج التربوي القرآني، ويجرى مسحاً للآيات التربوية، يجد أن التركيز إنما ينصب على البناء الوقائي للفرد والمجتمع وعلى تقوية المناعة المكتسبة لدى الناس، تداركاً للأمور والمشكلات وتحوطاً منها، واتقاءً لشرها قبل وقوعها"(١).

لقد تضمنت السنة النبوية المطهرة، وهي المصدر الثاني من مصادر التلقي عند المسلمين، أصولاً علمية، وتوجيهات نبوية، قائمة على الوقاية والاحتراز، وتحارب المرض قبل وقوعه واستفحاله، مما يدل على إرادة قيام مجتمعٍ إسلاميٍ نظيفٍ سليمٍ معافى ولذلك فإن "المتتبع لخطوات النبوة عبر السيرة والسنة، يجدها زاخرة بالتدابير والتوجيهات والوصايا الوقائية(٢)،

---

(١) التربية الوقائية في الإسلام، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٧، سنة ١٩٩٧م، صـ٤٣.

(٢) مثل ١- أمره - ﷺ - بتغطية الإناء وعدم كشفه للذباب والتراب فعن جابر - ﷺ - أن النبي - ﷺ - قال: "غطوا الإناء وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاءً، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناءً، فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عوداً ويذكر اسم الله فليفعل فإن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم"، رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء، ٣/١٥٩٤، رقم ٢٠١٢.=

مما يؤكد أن عملية التربية في الإسلام تهدف إلى قطع الطريق على العلة قبل حدوثها، وتقى الأفراد والمجتمع منها قبل وقوعها، وبذلك تبقى البيئة الإسلامية سليمة من الأمراض والعلل والمشكلات والآفات التي تفتك بسائر البيئات الأخرى"(١)، فالإسلام بتعليماته وتوجيهاته الراشدة، شَرع الوقاية من المخاطر والعلل والأمراض سواء كانت حسية أو معنوية، وطلب من المسلم أن يحفظ نفسه وأهله ويجنبهم كل أسباب الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾(٢)، وقال أيضاً: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾(٣)، فالاحتراز من العلل والأمراض بأنواعها مبدأ إسلامي أصيل ومن مقاصد الإسلام سد كل ما يؤدى إلى الفساد والظلم.

فإذا خالف المسلم ذلك، ووجده الله حيث نهاه، أو افتقده حيث أمره، فهناك من العقوبات ما يزجره ويبعده حتى لا يتمادى في ضلاله وانحرافه، ليتحقق صلاح الفرد والمجتمع ويصان نظامه لأن "الغرض من العقوبة هو اصلاح الأفراد، وحماية الجماعة، وصيانة نظامها"(٤)، ولذلك فإن الإسلام حرم كل جريمة من شأنها إضاعة الإنسان، أو المجتمع، كالقتل أو الانتحار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(٥)، وقول النبي – ﷺ –: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب"(٦)،

= ٢- الأمر بغسل اليدين من زهومة اللحم وغيره من الطعام، فعن أبي هريرة – ﷺ – أن النبي – ﷺ – قال: "من بات وفي يده ريح غمر فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه"، رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في كراهية البيتوتة وفي يده ريح غمر، ٤/٢٨٩، رقم ١٨٦٠، وقال: هذا حديث حسن غريب.

٣- النهي عن التنفس في الإناء عند الشرب، لقول النبي – ﷺ –: "إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء"، رواه ابن حبان في صحيحه، باب الزجر عن التنفس في الإناء عند الشرب، ١٢/١٤٦، رقم ٥٣٢٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري ورجاله رجال الشيخين.

(١) التربية الوقائية في الإسلام، فتحي يكن، مرجع سابق، صــ٤٣.

(٢) سورة التحريم من الآية "٦".

(٣) سورة البقرة من الآية "١٩٥".

(٤) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عوده، مرجع سابق، ج١، صــ٦٠٩.

(٥) سورة النساء الآية "٢٩".

(٦) رواه البخاري، كتاب العلم، باب يبلغ العلم الشاهد الغائب، ١/٣٣، رقم ١٠٥، ورواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، ٣/١٣٠٦، رقم ١٦٧٩.

وعن ابن عباس – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "لا ضرر ولا ضرار"[١] أو فيها فساد للدين أو الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٣].

ثالثاً: التربية الوقائية في العقوبات الشرعية

١- معنى العقوبة لغة

العقوبة لغة: مأخوذة من العقاب، "والعقاب والمعاقبة: أن تجزى الرجل مما فعل سوءاً، والاسم: العقوبة، وعاقبه بذنبه معاقبة وعقاباً: أخذه به وتعقبت الرجل: إذا أخذته بذنبٍ كان منه، وتعقبت عن الخير: إذا شككت فيه، وعدت للسؤال عنه"[٤]، وتعقبت الخبر اتبعته، ويقال تعقبت الأمر: إذا تدبرته، والتعقب: التدبر، والنظر ثانية ومنه عقب: ما فيه كل شئ أخره"[٥]، ومنها **(العقبى)**: جزاء الأمور"[٦].

مما سبق يتبين أن للعقوبة معانى متعددة، فمنها العقاب، والجزاء، وتتبع الشئ.

٢- معنى العقوبة في الاصطلاح

أما عن معنى العقوبة في الاصطلاح فهي: "الجزاء المقرر لمصلحة الجماعة على عصيان أمر الشارع"[٧]، فالعقوبة جزاء يستحقه الجاني، أو المذنب، وذلك نظير جرمه وذنبه، لمخالفته لأمر الشارع أو نهيه، سواء كان هذا الجزاء مقدراً من قبل الله – عز وجل – وسواء كان حقاً له تعالى كالحدود، أو حقاً للعباد كالقصاص والدية، أو لم يكن مقدراً من قبل الله – عز وجل – ولكن من قبل ولى الأمر وذلك بما خول له الإسلام من سلطة: وهى جرائم التعزير.

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، أبواب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، ٤٣٢/٣، رقم ٢٣٤١، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره.

(٢) سورة البقرة الآية "٢٠٥".

(٣) سورة القصاص من الآية "٧٧".

(٤) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١، صـ ٦١٩.

(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، المتوفى سنة ٣٩٣هـ، تحقيق، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٧م، ج١، صـ ١٨٤.

(٦) مختار الصحاح، الرازى، مرجع سابق، ج١، صـ٢١٣.

(٧) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عبدالقادر عوده، مرجع سابق، ج١ صـ٦٠٩.

٣- العقوبات الشرعية تربية وقائية وعلاجية معاً:-

إن المتأمل في تشريع العقوبات في الإسلام يجدها لم تشرع للتشفي من الفاعل لها، أو للقضاء عليه، ولكنها تحتوى على تربية وقائية وعلاجية معاً، فالعقوبات الشرعية: وقاية، لأنها تردع الآخرين عن الوقوع في مثل الجرائم، والأفعال التي وقع فيها المخطئ، وهى أيضاً تحتوى على تربية علاجية، لأنها تعالج، وتصحح الخطأ والذنب الذى وقع فيه فاعله، وتنتشله من المستنقع الذى ركد فيه، أو لأخذ حقوق الآخرين منه، وذلك إذا كانت الجريمة متعلقة بحقوق الآخرين، وهذا يبين لنا "الغرض من العقوبة وهو اصلاح الأفراد، وحماية الجماعة وصيانة نظامها"(١)، ولذلك فإن الشارع حرص كل الحرص على أن لا تقام العقوبة إلا بعد أن تستنفد كافة الوسائل والأساليب التي من شأنها حد الجاني عن جنايته، من غير أن يقع ضرر على المجنى عليه، ولا الجاني قدر الإمكان، ولذلك فإن القاضي مأمور بأن يكون رؤوفاً بالمخطئين، إذا كانت هناك شبهة تمنع تطبيق العقوبة، فيخفف عنه العقاب، أو يمنعه، فعن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله – ﷺ -: "ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو، خير من أن يخطئ في العقوبة"(٢).

أما إذا لم تكن هناك شبهة فينبغي الشدة في إقامة الحد، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾(٣)، "فغاية العقوبات، تتفق مع غاية الشريعة الإسلامية في إصلاح البشر، وحمايتهم من المفاسد، وإرشادهم من الضلالة، وكفهم عن المعاصي"(٤).

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن موسى الضحاك الترمذي، المتوفى سنة ٢٧٩هـ، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، الناشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م، كتاب الحدود، باب ما جاء في درء الحدود، ٣٣/٤، حديث رقم ١٤٢٤، واللفظ له، وفي سنده يزيد بن زياد الدمشقي قال الإمام الترمذي: "ويزيد بن زياد الدمشقي ضعيف في الحديث"، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخرساني أبو بكر البيهقي، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، وفي السنن الكبرى، كتاب السير، باب الرجل من المسلمين قد شهد الحرب يقع على الجارية من السبي قبل القسم، ٢٠٧/٩، رقم ١٨٢٩٤.

(٣) سورة النور من الآية "٢".

(٤) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالتشريع الوضعي، عودة، مرجع سابق، ج١، صـ٦٠٩.

إن الحكمة من تشريع العقوبات في النظام الإسلامي، هي إشاعة الأمن والطمأنينة في المجتمع، وكذلك حماية أعضائه من عدوان المعتدين الظالمين، وحفظ الأمن من أعمق معانى الوقاية، لأنه جزء لا يتجزأ من الإيمان والتوحيد، فالله - ﷻ - قد قرن الإيمان وتحقيقه، بزوال الشرك، وعبر عنه بالظلم في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[١]، ليكون الإيمان والتوحيد شرطاً أساسياً لحصول الأمن والطمأنينة، مما يدل على الأهمية القصوى للأمن، وأنه لا يمكن للمجتمعات أن تحيا وتعيش وتتطور بدونه، فإنزال العقوبة الشرعية بالمخطئ والمستهتر بالأحكام الشرعية، تبعث روح الطمأنينة والأمن في النفوس، وفى ذلك حماية حاسمة وصادقة لكرامة الإنسان، "والمقصود من فرض عقوبة على عصيان أمر الشارع هو إصلاح حال البشر، وحمايتهم من المفاسد واستنقاذهم من الجهالة، وإرشادهم من الضلالة، وكفهم عن المعاصي وبعثهم على الطاعة"[٢].

هناك كثير من النفوس الضعيفة التي تتناسى العقوبة، في الآخرة مما يستدعى بأن تكون هناك عقوبة في الدنيا، زاجرة ورادعة لهم، يعملون له ألف حساب، وهذا يؤدى إلى الوقاية من التعرض للانحراف والفساد، حتى يعيش الناس في أمن وأمان وسعادة، وهذا يدلل ويؤكد على أن العقوبات فيها اصلاح للأفراد والمجتمعات، وفيها حماية للمصالح الإنسانية من الانحراف والعبث، وفيها حماية لمقومات الوجود الإنساني، الأمر الذى أدى إلى أن العقوبات في الإسلام تحمل جانبين، الجانب الأول الوقائي، والثاني العلاجي وهذا يدل على علم الخالق وقدرته، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[٣].

٤- أقسام العقوبات الشرعية:-

هناك ثلاث عقوبات في التشريع الجنائي كما ذكر العلماء "فإذا نظرنا إلى الجرائم من حيث جسامة العقوبة قسمناها إلى حدود، وقصاص أودية، وتعازير"[٤].

فالعقوبات تنقسم بحسب الجرائم التي وضعت عليها إلى ثلاثة أقسام وهى:-

١- الحد ٢- القصاص ٣- التعازير

---

(١) سورة الأنعام الآية "٨٢".

(٢) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالتشريع الوضعي، عودة، مرجع سابق، ج ١ صـ٦٠٩.

(٣) سورة الملك الآية "١٤".

(٤) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عودة، مرجع سابق، ج١ صـ٧٨.

وبيانها كالتالي:

١- الحدود الشرعية ودورها في التربية الوقائية

(أ) تعريف الحد لغة

جاء في معاجم اللغة "الحد: الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر، وجمعه حدود، وفصل ما بين كل شيئين حدٌ بينهما، ومنتهى كل شئ: حده، ومنه أحد حدود الأرضين، وحدود الحرم"[١]، فالحدود هي "محارم الله وعقوباته التي قرنها بالذنوب"[٢].

فالحد في اللغة: يطلق على الحاجز بين الشيئين، منعاً من اختلاط أحدهما بالآخر، كما يطلق على جرائم الحدود، وعلى عقوبتها.

والحدود التي شرعها الإسلام قد فصلت بين الحلال والحرام، وهى في الغالب تمنع المذنب والمعَاَقَب من المعاودة إلى جرمه مرة أخرى، وكذلك تمنع الآخرين من اتيانها: فأصل الحد، المنع، والفصل، ويطلق أيضاً على: الجرائم، وعقابها كما جاء في المعاجم اللغوية.

(ب) تعريف الحد في الاصطلاح:-

أما تعريف الحد في الاصطلاح فهو: "عقوبة مقدرة وجبت حقاً لله تعالى"[٣].

من خلال هذا التعريف يتضح أن الحد لابد وأن يتوفر فيه شرطان:

الشرط الأول: عقوبة مقدرة: أي محددة ومعينة، فليس لها حد أدنى أو أعلى، بل إن الشرع هو الذى عين نوعها، ومقدارها، ولم يترك تقديرها للحاكم أو ولى الأمر وغيرهما، ولا يجوز أن تستبدل بها عقوبة أخرى، لأنها شُرعت لمصلحة تعود إلى جميع الناس، وليست حقاً لأحد من الناس يملك العفو عنها.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٣ صـــ١٤٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو العادات المبارك من محمد بن عبدالكريم الشيبانى ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦هـــ - المكتبة العلمية، بدون ط، بيروت، سنة ١٣٩٩هـــ سنة ١٩٧٩م، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ج١، صـــ٣٥٢.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري، مرجع سابق، ج٢، صـــ١٥.

الشرط الثاني: أن تكون حقاً لله – تعالى –: وبناء على هذا فعقوبات القصاص والديات(١) لا تدخل في مدلول مصطلح الحد، لأنها وجبت لحق العبد، وكذلك عقوبة التعزير(٢)، لا تدخل لأنها ليست مقدرة شرعاً.

(ج) الحدود الشرعية تربية وقائية وعلاجية

إن الحدود في الإسلام ليست منهجاً علاجياً فقط، ولكنها في الوقت نفسه تحمل منهجاً وقائياً عظيماً قبل أن تكون منهجاً علاجياً، لأنها تمنع وتحفظ البشرية من الوقوع في الجرائم والمعاصي التي تستوجب بسببها العقوبة، "ومن ذلك سميت الحدود حدوداً، لأنها تمنع أصحابها من العود"(٣)، فالحدود تمنع المخطئ والعاصي من العودة إلى الخطأ والذنب مرة أخرى، وأن يفكر فيه ثانية، كما أنها تمنع الغير من اقتراف الخطأ الذى وقع فيه غيره. إذاً: فهي مانعة للشخص نفسه، ولذلك قال المولى – ﷻ –: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤)، وفي الآية "اشارة إلى أن الجريمة ينبغي أن يكون عقابها علناً بمحضر من الناس، ليكون ذلك فضحٌ للجاني، وتحذير لغيره من أن يأتي هذا المنكر، ويقع تحت سياط العذاب وعلى أعين الناس"(٥)، فحينما يرى المؤمن أخاه المؤمن قد وقعت عليه العقوبة على جريمة ما، ففي ذلك تحذيرٌ من ارتكاب الجرائم، وعليه أن يفكر ألف مرة قبل اقترافها، "لذلك يقولون الحدود زواجر وجوابر – زواجر لمن شاهدها، أي: تزجره عن ارتكاب ما يستوجب هذا الحد – وجوابر لصاحب الحد، تجبر ذنبه، وتسقط عنه عقوبة الآخرة"(٦)، فالحدود شرعها الله – ﷻ – لعباده زجراً ووقاية لهم من الوقوع في هذه المحرمات والمهلكات والموبقات، وهى صيانة وحماية للناس عما فيه انحراف

---

(١) الدية: فهي العوض المالي الواجب دفعه بدل النفس"، المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) التعزير هو التأديب بما يراه الحاكم زاجراً لمن يفعل فعلاً محرماً من العودة إلى هذا الفعل. (الفقه على المذاهب الأربعة)، عبدالرحمن بن محمد عوض الجزيرى المتوفى ١٣٦٠هـ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط٢، ١٤٢٤ . ٢٠٠٣، ح٥ صـ٣٤٩.

(٣) فتح القدير، محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمن، المتوفى سنة ١٢٥٠هـ، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ج١، صـ٢١٥.

(٤) سورة النور من الآية "٢".

(٥) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم يونس الخطيب، المتوفى بعد سنة ١٣٩٠هـ، دار الفكر العربي القاهرة، بدون ت، ج٩ صـ١٢٠٢.

(٦) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٦، صـ١٠٢٠٠.

وفساد لدينهم ودنياهم وآخرتهم، بدليل أن الله - ﷻ - أمر أن تقام هذه الحدود علانية لا سراً، ولا خفية بعيدة عن أعين الناس، ثم أمر أن يشهد هذه العقوبات طائفة من المؤمنين اتعاظاً واعتباراً، وهذا يدل على أنها زواجر، فالحدود التي شرعها الله - ﷻ - ليست إلا وقاية للمجتمع من تسلط بعضه على بعض، وفيها حماية للأفراد والأمة من أصحاب الجرائم، ولذلك فإن "مقاصد الإسلام الكبرى محصورة في خمسة أمور هي: حفظ الدين، وحفظ النفوس، وحفظ النسل، وحفظ المال، وحفظ العقل، فإذا حفظت الأمة هذه الأصول، سعدت في الدنيا والآخرة، وإذا ضيعت هذه الأصول شقيت في الدنيا والآخرة"(١)، والإسلام جاء ليحفظ هذه الضرورات، واعتبرها أهم مقاصد الشريعة، ولذلك شرع الحدود لحفظها، فحفظ للإنسان دينه الذى كلفه الله به دون غيره من المخلوقات عدا الجن، وذلك لأنه هو الأساس لباقي الضرورات، فلا يمكن أن تقوم الأربع إلا بالدين وحفظه، فجاء الإسلام بالأوامر والنواهي، ورتب عليها الثواب والعقاب، وإذا استقام الإنسان على الدين، وأقام حدوده: أمكن تحقيق الضرورات الأخرى بسهولة ويسر.

وحفظ للإنسان عقله، لأن العقل مناط التكليف، وهو مطالب باليقظة والوعى الدائم المستمر، حتى ينهض بهذه التكاليف، وفقدان العقل والوعى، لا يخل بأداء التكاليف فحسب، ولكن يجعله عبئاً على المجتمع ومصدر أذاهم.

واهتم الإسلام بحماية العرض والنسل، فنظم طريق مجئ الإنسان، وتناسله في الحياة الدنيا عن طريق الزواج الشرعي، وأقام الأسرة على أساسٍ متينٍ مترابطٍ، وحرم النيل من أعراض الناس ونهش لحومهم والاعتداء على أعراضهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(٢)، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: "اجتنبوا السبع

---

(١) موسوعة الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم بن عبدالله التويجري، الناشر بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، ج٥، صـ١٠٠ وما بعدها.

(٢) سورة النور الآيات "٢ - ٩".

الموبقات، قالوا يا رسول الله وما هن؟، قال: اجتنبوا الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"[١] لأن ذلك يؤدى إلى اختلاط الأنساب، وضياع الأسر، وحصول الفرقة، والعداوة.

وكذا حفظ للإنسان ماله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[٣]، وقول النبي – ﷺ –: "إن الله كره لكم ثلاثاً، قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال"[٤]، لأن المال هو قوام الحياة، وبه تدار الدفة، وهو وسيلة التبادل والحصول على مطالب الحياة، والإسلام جاء لحماية هذه الأشياء، والتي تسمى بالضرورات الخمس، لأنه لا يمكن بقاء الإنسان، ولا أن تتوفر له الحياة الإنسانية الكريمة، إلا بتوافرها، لأن "حياة الإنسان قوامها، حفظ الضرورات الخمس، وإقامة الحدود تحمى تلك الضرورات، وتحافظ عليها، فبالقصاص تُصان الأنفس، وبإقامة حد السرقة تصان الأموال، وبإقامة حد الزنى والقذف تصان الأعراض، وبإقامة حد الحرابة يصان الأمن والمال والأنفس والأعراض، وبجلد السكران تصان العقول، وبإقامة الحدود والتعزيرات يصان الدين كله، والحياة كلها[٥]، هذه هي الضرورات الخمس التي إذا لم تراع ترتب على ذلك فساد وخلل في أمر الدين والدنيا، وهذه هي أعلى معانى الوقاية:–

٢– عقوبة القصاص ودورها في تحقيق التربية الوقائية

(أ) المعنى اللغوي للقصاص:

القصاص في اللغة "القود وقد (أقصَّ) الأمير فلاناً من فلان: إذا (اقتص) له منه، فجرحه مثل جَرْحه، أو قتله قوداً"[٦].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب قول إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، ٤/١٠، رقم ٢٧٦٦، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ٩٢/١، رقم ٨٩.

(٢) سورة البقرة الآية "١٨٨".

(٣) سورة النساء الآية "٥".

(٤) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً، ١٢٤/٢، رقم ١٤٧٧، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، ١٣٤١/٣، رقم ٥٩٣.

(٥) مختصر الفقه الإسلامي في ضوء القرآن والسنة – محمد إبراهيم بن عبدالله التويجري دار اهداء المجتمع، المملكة العربية السعودية، ط ١١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م، صـ٩٥٥.

(٦) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٧، صـ٧٦.

"ويقال قصصت الشئ: إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شئ"[١]، من خلال ما سبق يتبين أن القصاص له معانى مختلفة وكلها تدور حول القص، أي: القطع، ذلك أن القاتل يقتص منه، بأن يُفعل به كما فُعل بالمقتول من قتل، أو ضرب، أو جرح، وهو القود، أو من قطع الطريق، لتتبع أثرٍ ما، فمعانى القص معظمها تدور حول القطع.

(ب) المعنى الاصطلاحي للقصاص:

أما القصاص في الشرع فهو "أن يعاقب الجاني بمثل جنايته على أرواح الناس، أو عضو من أعضائهم"[٢].

فالقصاص في الشرع يعنى: المماثلة، وهو: أن يُفعل بالجاني مثل ما فُعل به من الاعتداء، فإن قتله قُتل، وإن قطع منه عضواً أو جرحه، فُعل به مثل ذلك إن أمكن.

(ج) القصاص تربية وقائية وعلاجية معاً:

إن عقوبة القصاص في الإسلام، لهى عقوبة ناجحة، وهي تربية وقائية وعلاجية معاً، لأن "للقصاص في الإسلام حِكَماً عالية، فليس الهدف منه أن يضخم هذه الجريمة، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[٣]، فمن أراد أن يحافظ على حياته فلا يهدد حياة الآخرين"[٤]، فالقصاص يعتبر من أبرز الأحكام الشرعية التي تحفظ حياة الناس في المجتمعات من الاعتداء عليها، فالشخص إذا عرف أنه سوف يُقتل إذا قتل، فإنه لا يقدم على القتل، وإذا رأى غيره قد قُتل قصاصاً، فسيكون زاجراً ورادعاً له ولغيره عن القتل، بل يزجره عن مجرد التفكير فيه، ففي القصاص حكمة عظيمة "وهى: بقاء المُهَج[٥] وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يُقتل، انكف عن صنيعته، فكان في ذلك حياة للنفوس[٦]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾[٧].

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن الجزيري، مرجع سابق، ج٥، صـــ٢١٧.

(٣) سورة البقرة الآية "١٧٩".

(٤) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٣، صـــ٨١٦٢.

(٥) المهجة: دم القلب، ولا بقاء للنفس بعدما تراق مهجتها، وقيل: المهجة: الدم، "لسان العرب"، ابن منظور، مرجع سابق، ج٢، صـــ٢٧٠.

(٦) تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم"، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى البصرى المتوفى ٧٧٤هـــ تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد على بيضون بيروت، ط١ ١٤١٩هـــ، ج١ صـــ٣٦٠.

(٧) سورة البقرة، من الآية "١٧٩".

فمن ابتلاه الله بمرض خبيث – عافانا الله – ﷻ – وجميع الناس – في أحد أطرافه، فإن الأطباء يوصون بقطع وبتر هذا الطرف للمريض أو العضو، وذلك من أجل حمايته، وحفظ بقية أعضاء الجسد، حتى لا يسرى إليه المرض، وهذا هو الحال مع من فسد من أفراد المجتمع، فإن الإسلام يسعى إلى علاجه، ليقي الآخرين من شره وفساده، فإذا استفحل المرض ولم يكن العلاج مجدياً ونافعاً، كان لابد من بتره وقطعه، وذلك ضماناً لسلامة الآخرين، "فالله – ﷻ – يجعل بعض العذاب في الدنيا ليستقيم ميزان الأمور، حتى عند من لم يؤمن بالآخرة، فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذاباً دنيوياً يقع على ظالم، يخاف من الظلم ويبتعد عنه، حتى لا يصيبه عذاب الدنيا، ويعرف أن في الدنيا مقاييس في الثواب والعقاب، وحتى لا يُنشر في الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة، وضع الحق – تبارك وتعالى – قصاصاً في الدنيا"[١] وذلك صيانة للمجتمع من الفساد، بحماية الفضيلة ومحاربة الرذيلة.

فالإسلام يواجه الجريمة قبل وقوعها، وذلك بمعالجة أسبابها، والقضاء على دوافعها، حتى يتحقق إصلاح الحياة الإنسانية، سواء الاجتماعية منها، أو الأخلاقية، أو الاقتصادية، أو السياسية، أو الأمنية، وفي شتى ميادين الحياة، وبذلك يتحقق الأمن والسلام، والبناء الحضاري في المجتمعات.

فكم من إنسان قد هَمّ بفعل جريمة، ولولا خوفه من العقوبة لوقع فيها، وارتكبها، ولكن الله – ﷻ – قد حجزه عن جرمه بهذه العقوبة، فالذي يوقن بأنه يعاقب أو يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل فجدير به أن يفكر ويتروى كثيراً وكثيراً قبل الإقدام على فعلته، فالهدف من العقوبة أن تكون لها قوة المنع من الإقدام على الجريمة قبل وقوعها، فإذا وقعت، فلابد أن يكون فيها ما يردع عن الرجوع إليها مرة أخرى، من أجل ذلك كان في القصاص تربية وقائية وعلاجية.

٣- عقوبة التعزير ودورها في تحقيق التربية الوقائية:-

(أ) معنى التعزير في اللغة

"وأصل التعزير: التأديب، ولهذا يسمى الضرب دون الحد تعزيراً، إنما هو أدب"[٢]، "والتعزير: ضَرْبٌ دون الحد، أو هو أشد الضرب، والتفخيم والتعظيم ضد، والإعانة"[٣]، ويراد به التعظيم والتوقير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُعَـزِّرُوهُ وَتُوَقِّـرُوهُ﴾[٤]، وكذلك من معانيه الإعانة.

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١، صـ٤٥٨.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٤، صـ٥٦٢

(٣) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مرجع سابق، ج١، صـ٤٣٩.

(٤) سورة الفتح من الآية "٩".

من خلال ذلك، يتبين أن التعزير في اللغة، يطلق ويراد به: اللوم والتأديب، فهو يؤدب المعتدين والعصاة بعد لومهم، ويراد به الضرب ولكن فيما دون الحد.

(ب) معنى التعزير في الاصطلاح:-

التعزير هو "التأديب على ذنوب لم يُشرع فيها حد ولا كفارة. وهو عقوبة غير مقدرة، تختلف باختلاف (الجناية وأحوال الناس) فتقدر بقدر الجناية، ومقدار ما ينزجر به الجاني"(١).

من خلال هذا التعريف يتبين: أن المعنى الاصطلاحي لا يختلف كثيراً عن المعنى اللغوي الذى وضع له وهو التأديب، فالمعنى فيهما متقارب، وذللك لأن التعزير يقصد به تأديب الجاني، أو العاصي وردعه عن غيه وضلاله، إلا أن المعنى الشرعي زاد قيداً على المعنى اللغوي، وهو دون الحد الشرعي، وهذا القيد ميز التعزير عن غيره من العقوبات.

إذاً المقصود من التعزير هو تأديب القاضي المذنب أو الجاني بعقوبةٍ غير مقدرة من قِبل الشارع، يراها رادعة لهذا المجرم وأمثاله وزجراً للآخرين عن فعل مثلها، وقد ثبت أن النبي – ﷺ – "حبس رجلاً في تهمة"(٢)، ومن هنا يظهر دور التعزير في تربية الأفراد والجماعات تربية وقائية وعلاجية معاً، "فالله العليم بأحوال عباده، الخبير بما تقتضيه طبائعهم، ناط أمر تقدير العقوبات بأولى الأمر، ثم كلفهم السهر على مصالح رعاياهم، والاستمساك بكل الوسائل المفضية إلى تربيتهم تربية صالحة، والقيام بتأديب المجرمين بالعقوبات المناسبة، كي يعيش الناس في أمن، ودعة، وراحةَ، واطمئنان"(٣).

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف بالكويت، مرجع سابق، ج٤، صـــ١٩٣.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الأحكام، باب بدون ترجمة، ٤/١١٤، رقم ٧٠٦٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن الجزيري، مرجع سابق، ج٥، صـــ٢٥٤.

المبحث الثاني
خصائص التربية الوقائية

أولاً: تعريف مصطلح خصائص

أ- التعريف اللغوي لمصطلح خصائص:

إن كلمة خصائص جمع، مفردها خصيصة، وهى: "صفة تميز الشئ عن غيره وتحدده"(١).
ويقال "اختص فلان بالأمر، وتخصص له: إذا انفرد، وخص غيره، واختصه ببره"(٢)
و"الخصوص: التفرد ببعض الشئ مما لا يشاركه فيه الجملة"(٣).
من خلال ما سبق يتبين أن التعريف اللغوي للخصائص يدور حول الانفراد والتمييز والتفضيل، وعندما تضاف إلى التربية الوقائية فإنها تعنى كل وصف يميز التربية الوقائية عن غيرها من أنواع التربية.

ب- التعريف الاصطلاحي للخصائص

"الخصيصة هي الصفة التي تميز الشئ وتحدده"(٤)
فالخصائص هي الصفات التي تلازم الشئ وتحدده وتميزه عن غيره، والتربية الوقائية تشتمل على بعض الصفات والأمور التي انفردت بها وامتازت بها عن غيرها.

ثانياً: خصائص التربية الوقائية

التربية الوقائية لها خصائص تمييزها وتفضلها عن غيرها أهمها ما يلي:-

(أ) ربانية المصدر:-

مما لا شك فيه أن الإنسان من صنع الله - ﷻ -، فهو الذى خلقه ورزقه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(٥) وهو وحده الذى يعلم ما يسعده في الدنيا والآخرة، ومن سعادة المرء: وقايته من الأمراض والعلل الحسية والمعنوية، من أجل ذلك وضع الخالق - ﷻ - تعليمات من شأنها أن تحفظ الأفراد والجماعات من الوقوع في الانحراف والضلال، ليس ذلك فقط، بل اهتم الإسلام بتربية الموجودات كلها، بما فيها تربية الإنسان الذى خلق وكرم، واحتوى تصورات

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ج١، صـ٦٥٢.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج ٧، صـ٢٤.
(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، مرجع سابق، ج١٧، صـ٥٥١.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مرجع سابق، ج١، صـ٢٣٨.
(٥) سورة التين الآية "٤".

متكاملة من جوانب حياة الإنسان، لأنه يريد إعداد شخصية سوية، ومجتمع سليم معافى من خلال التربية الهادفة، لأن الإنسان من صنع الله – ﷻ – وهو أعلم بصنعته ودقتها وما يقيها وما يصلحها "إن الصانع من البشر يعلم صنعته، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الاداء، وأمن الاستعمال، فإذا ما استعملت الآلة حسب قانون صانعها أدت مهمتها بدقة، وسلمت من الأعطال، فالذي خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته، فيقول له افعل كذا ولا تفعل كذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1].

فالإسلام جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص فريد، جاءت لتتولى قيادة البشرية وتحقق منهج الله – ﷻ – في الأرض، لتكون أمةً ايجابيةً صالحةً بين المجتمعات الأخرى، ولكى تكون هكذا، فلابد لها من منهج تربوي وقائي، يعدها للقيام بوظيفتها ومهمتها على الوجه الأكمل، من عبادة واستخلاف في الأرض لتعميرها، ولكى تكون كذلك فلابد أن تكون تربيتها مستمدة من منهج الإسلام نفسه، سواء كانت وقائية أو علاجية، وذلك لأن الإسلام دين كامل شامل، مؤسس لمنهج الأمة في حياتها، فالتربية الوقائية في الإسلام منهجها منهج رباني في مصدره وغايته، ولذلك فهو يزود الإنسان بمجموعة من القيم والمبادئ التي تعينه وتساعده على العبادة والاستخلاف في الأرض لعمارتها ليعبد الله – ﷻ – عبادةً سليمةً صحيحةً كما يريدها الخالق سبحانه ويرتضيها، من أجل ذلك فقد استمدت التربية الوقائية خصائصها وأصولها، ومميزاتها من مميزات الإسلام نفسه وخصائصه، لأن العلاقة بين الإسلام والوقاية، علاقة وثيقة لأن الإسلام يدعو إلى عقيدة راسخة صادقة، ووضع لذلك الأصول الربانية التي تجعل الفرد يسير عليها ليهتدي بها، ومنها الأصول الوقائية التي تحفظ على المرء دينه وعقيدته.

فالإسلام هو الذى وضع أصولها، وحدد معالمها، من أجل مواجهة الانحرافات الفكرية، التي يعانى منها الكثير في المجتمعات، ومن أجل ضبط الأفراد والأمم في شتى المجالات الحياتية "وهكذا نجد المنهج الإلهي يرسم لنا الطريق الأقوم الذى يضمن لنا سلامة الحياة واستقامتها، فلو تدبرت هذا المنهج، لوجدته في أي جانب من جوانب الحياة، هو الأقوم والأنسب في العقائد – في العبادات – في الأخلاق الاجتماعية العامة – في العادات – والمعاملات، إنه منهج ينظم الحياة كلها، كما قال الحق – ﷻ –: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[2] هذا المنهج الإلهي هو أقوم

---

(١) سورة الملك الآية "١٤".

(٢) سورة الأنعام من الآية "٣٨".

المناهج وأصلحها، لأنه منهج الخالق – ﷻ – الذى يعلم مَنْ خلق ويعلم ما يصلحهم"(١) لأن تربية الإسلام تعلو كل تربية، لأنها تستمد مبادئها وأصولها من القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه منزل من قبل حكيم عليم بأحوال العباد ومصالحهم، ومن السنة المطهرة، المبينة والموضحة والمفصلة لما جاء في القرآن الكريم، فهي ليست من وضع البشر، فأصول العقيدة مثلاً، وأركانها جاء بها القرآن ورسم صورها، ولم يتركها للعقل البشرى حتى يستنتجها، وليس لأحد من البشر أن ينكر أصلاً من أصولها، ومن فعل ذلك فقد ضل وزاغ عن الطريق الصحيح، كل ذلك من أجل وقاية الإنسانية من الانحراف، وصيانة لها من الضلال والفساد، فلابد من "ضرورة التقيد بالمنهج الرباني في تقرير العقائد وتثبيتها"(٢) وذلك حماية للإنسانية من الزيغ والتيه والضلال، ففي الجانب التعبدي، بيَّن للإنسان كل ما يحتاجه من أمر العقيدة والتشريع "ليصل إلى مقطع الحق في تأسيس الإيمان بمعرفة جلال الله – ﷻ – وعظيم سلطانه، معرفة تطمئن بها القلوب، وتؤمن بها العقول"(٣)، ثم تأتى بعد ذلك الشرائع والعبادات الإسلامية، التي يتقرب بها العباد إلى خالقهم ورازقهم، لتكون هي الأخرى مثل سابقتها، ربانية المصدر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾(٤)، لأن الوحى بشقيه المتلو، وغير المتلو، هو الذى رسم صورها، وحدد أشكالها، وطرق تأديتها، وتفصيلها، وليس لأحد من البشر أن يبتكر شيئاً من العبادات ليتقرب بها إلى ربه – ﷿ –، وذلك يرجع إلى أن التشريعات – وهى تربية وقائية – ربانية المصدر، أساسها كتاب ربنا – ﷻ – وسنة من لا ينطق عن الهوى سيدنا محمد – ﷺ –، والله – ﷿ – هو المُشرِّع، فهو الذى يأمر وينهى، والتشريعات كما هو معلوم، مليئة بالإجراءات الوقائية، "ولاشك أن شريعة الإسلام المنزلة على سيدنا محمد – ﷺ – هي: أكمل شرائع الله – ﷿ – ففيها رفع الأصار، والأغلال، والتضييق الذى كان على الأمم السابقة، ولم يجعل سبحانه فيها علينا حرجاً بوجه من الوجوه، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(٥)، وقد أتمها الله لتشمل شئون حياتنا كلها، فلا

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج ١٤، صـ٨٣٨٩.

(٢) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـ٢٢٤.

(٣) القرآن الكريم هدايته واعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، دار العلم، دمشق، ط٢، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م، صـ١٧.

(٤) سورة الأنعام الآيتان "١٦٢ – ١٦٣"

(٥) سورة الحج الآية "٧٨".

تحتاج بعدها إلى غيرها، ولا تحتاج لمزيد عليها"[١] كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[٣].

ومما يؤكد ربانية مصدرها، وأنها مستمدة من الوحى الشريف: أن القرآن الكريم يُعقِّب على كثير من الأحكام أنها من عند الله – ﷻ – أو حكمه، أو حده، ففي سورة الطلاق: يعقب القرآن الكريم على الأحكام التي وردت فيها بقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[٤] ثم بعد ذلك يصدر أحكاماً، أخرى يعقبها قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾[٥]، ومرة بقوله تعالى: ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾[٦]، وفى النهاية تنتهي السورة، بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[٧]

وكذلك بعد آيات المواريث التي حددها الله – ﷻ – وبين مقدارها في سورة النساء، عقب بقوله تعالى: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾[٨] وفى آخر آية من سورة النساء، وهى تتحدث عن الميراث يختمها بقوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾[٩]، وكذلك الآية التي حددت مصارف الزكاة، ختمها بقوله تعالى: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[١٠].

هذه الآيات تؤكد على أن الأصل الذى تستمد منه هذه التشريعات رباني أساسه الوحى، ولا خيار للإنسان فيه، سواء جاءت التشريعات مفصلة، أو مجملة، كقواعد عامة، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) وجوب تطبيق الحدود الشرعية، عبدالرحمن بن عبد الخالق اليوسف، مكتبة ابن تيمية، الكويت، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، صـ١٠.

(٢) سورة المائدة الآية "٣".

(٣) سورة النحل الآية "٨٩".

(٤) سورة الطلاق من الآية "١".

(٥) سورة الطلاق من الآية "٥".

(٦) سورة الطلاق من الآية "١١".

(٧) سورة الطلاق من الآية "١٢".

(٨) سورة النساء من الآيات "١٢ – ١٣".

(٩) سورة النساء من الآية "٧٦".

(١٠) سورة التوبة من الآية "٦٠".

ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾[١]، أي: أن "القرآن الكريم تبيان لكل شئ من أصول التشريع والحلال والحرام، والشرائع والأحكام ومبادئ الحياة الإنسانية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾[٢]، وذلك يدل على أنه لا تكليف من الله إلا ما ورد في هذا القرآن، أي: إما جملة وتفصيلاً، وإما جملةً فقط"[٣].

فالشرائع وهى تربية وقائية تستمد أصولها، ومبادئها من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، إذاً فهي ربانية المصدر.

ثم تأتى بعد ذلك الأخلاق والآداب الإسلامية لتكون هي الأخرى أساسها من القرآن الكريم والسنة المطهرة، فالغاية من بعثة النبي – ﷺ – اتمام مكارم الأخلاق فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[٤].

من خلال ما سبق: يتضح أن مبادئ التربية الوقائية، وأصولها أساسها القرآن الكريم، والسنة المطهرة، إذاً فهي ربانية المصدر، سواء جاءت مفصلة أو مجملة، أو جاءت بطريقة الإشارة، أو صريح العبارة، وذلك حتى تتحقق الوقاية والصيانة للبشرية من الانحراف والضلال، "فالمنفذ لهذا المنهج الإلهي، يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها، وينعم بالأمن الإيماني، وهذه نعمة في الدنيا، وإن كانت وحدها لكانت كافية"[٥]، أما الذى حاد عنها وانحرف، وانزلقت رجله عن طريق الوقاية الرباني، وقع في الضلال والفساد، وذلك بحسب درجة انحرافه.

(ب) : اهتمام وحى الله – عز وجل – وشرعه بالعافية والسلامة:-

الأصل في حياة البشر الصحة والعافية، وليست الأمراض والعلل والأوبئة، ولذلك فقد أعطى الإسلام اهتماماً كبيراً، وعناية خاصة بالجانب الوقائي، والذى يضمن للناس السلامة والعافية، فما استقام أمر التربية على نهج سليم إلا بفضل كلام الله – عز وجل – وتأثيره، و "ليس هناك من هو أقدر من الله – سبحانه وتعالى – على تقديم الهداية الكاملة للبشر وليس هناك منهج واحد غير المنهج الإلهي

---

(١) سورة النحل من الآية "٨٩".

(٢) سورة الأنعام الآية "٣٨".

(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والتبليغ، د/ وهبة مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ، ج١٤، صـ٢١٠.

(٤) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن نعيم النيسابوري، المتوفى سنة ٤٠٥هـ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب ومن كتاب آيات رسول الله – ﷺ – التي هي دلائل النبوة، ٦٧٠/٢، رقم ٤٢٢١، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق، ٣٢٣/١٠ – رقم ٢٠٧٨٢، واللفظ له.

(٥) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٤، صـ٨٣٩٠.

يستطيع أن ينهض بحاجات النفوس البشرية، ويفي بمطالبها، ويغذى عواطفها ومشاعرها، ويتابع تطورها ونموها، ويستوعب قضاياها، ويلاحق أزماتها، ويلائمها في تطورها الصاعد، ويقودها على طريق الكمال بتؤدة ورفق"(١)، فالمتتبع لمنهج الإسلام التربوي، يجد أن التربية الوقائية قد أخذت منه حيزاً، ونصيباً كبيراً من أحكامه وهداياته، وذلك لحاجة الإنسانية إلى الوقاية أكثر، من حاجتها للعلاج، الأمر الذى أدى إلى تفوق المنهج التربوي الوقائي على المنهج العلاجي "حتى أصبح الاهتمام بالجانب الوقائي يفوق بشكل كبير اهتمامه بالجانب العلاجي، وهذا ما يجعل المنهج الاسلامي متفرداً على سائر المناهج ذات المعنى العلاجي المرضى"(٢).

فالإسلام لم يترك جزءاً من التربية الوقائية إلا وقد أشار إليه، إما على وجه التفصيل أو العموم، كقواعد عامة، ومبادئ أساسية، لتواكب متطلبات البشر في كل زمان ومكان، مما جعل المنهج الوقائي قد استولى على نصيب كبير من الأحكام والشرائع، فما من سورة من سور القرآن الكريم إلا ونجد فيها أمراً، أو نهياً، أو تحذيراً، أو إرشاداً، أو نداءً، من أجل حماية البشرية وهدايتها، وصيانتها من الوقوع في الضرر والأذى.

(ج) : السهولة واليسر

إن المتتبع لمبادئ التربية الوقائية في الإسلام يجدها تتسم بالسهولة واليسر في التنفيذ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(٣) لأن الوقاية تكون بالامتناع والكف، وليست بالعطاء والبذل، فهي لا تأخذا جهداً ولا مشقه، ولا وقتاً، ولا تستلزم كلفه مادية عالية تثقل كاهل صاحبها، ومهما كلفت مكافحة العلل والأوبئة من مال اتقاء شرها، فهي أيسر وأرخص بكثير مِنْ تَعَرُّض الأشخاص للإصابة بالمرض، ثم القيام بعلاجهم، وتعريضهم للهلاك في أغلب الأحيان، فكم هو الجهد والمال، والوقت المبذول من أجل تجفيف منابع، وأسباب العقوبات الشرعية مثلاً؟ إنها من البساطة واليسر، بحيث لا تحتاج إلى جهد كبير، ولا مال كثير، ولا وقت طويل، ولا اجراءات كثيرة ومعقدة، ولا تنتهى بصاحبها إلى التهلكة، بل إلى النجاة، والوصول إلى بر الأمان، بخلاف المريض فربما يحتاج إلى كثير من المعاناة، وكثير من الجهد والمال والوقت للتخلص من المرض، وربما لا يتخلص منه، أو يترك آثاراً سلبية تضر

---

(١) أصول التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل على، دار السلام القاهرة، بدون ط، ١٤٢٦ ٢٠٠٥، صـ ١١٨وما بعدها.

(٢) التربية الوقائية في الإسلام، فتحي يكن، مرجع سابق، صـ١٥.

(٣) سورة البقرة من الآية "١٨٥".

بصاحبها، فعملية الوقاية خير للإنسان من أن يقع في المرض، ثم يحاول التخلص منه، لأن "التربية الإسلامية تقضى على الفساد الأخلاقي، الذى يكبد الدولة أعباءً باهظة من المصروفات المالية، والجهد البشرى، الذى يصرف في التقصي والبحث عن المجرمين والمنحرفين أخلاقياً، فإذا سادت الأخلاق الإسلامية، انخفض معدل الإجرام والانحراف، فينخفض تبعاً لمعدل الإنفاق المالي على الأجهزة الأمنية، وبالتالي يمكن توزيعه في قنوات اقتصادية أخرى، حيث إن هناك توافقاً طردياً بين زيادة عدد الجرائم، وزيادة الانفاق على الأجهزة الأمنية"(١). هذا في البدن والروح معاً، لأن الروح يمكن أن تُعرَّض للمرض كالبدن، بل إن أمراض الروح أشد فتكاً، وأسوأ عاقبة، لأنها تستمر مع الإنسان حتى بعد الموت، بخلاف مرض الأبدان الذى ينتهى بزواله أو موته، أما الأمراض التي يمكن أن تصيب الروح، فربما يكون من نتائجها الدخول في النار – والعياذ بالله –، ولهذا فإن الوقاية من الأمراض الروحية، لابد وأن تحظى باهتمام كبير. فالوقاية أسهل وأيسر وأقل تعقيداً، من الآثار المترتبة على المرض إذا حل ووقع، وقد يجر ذلك إلى أضرار ومفاسد أخرى كثيرة الله – ﷻ – أعلم بها.

(د) الشمول والعموم

من أهم خصائص التربية الوقائية في المنهج الإسلامي، أنها تربية عامة وشاملة، تهتم ببناء شخصية الإنسان في جميع جوانبها في كل زمان ومكان، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾، فالله – ﷻ – في هذه الآية "لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال بل أضاف إليه تعليم الأفعال وهو أن يدعو لهما بالرحمة، فيقول رب ارحمهما، ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا"(٢) لأن الدعوة تستمد أصولها وقواعدها من الإسلام نفسه، الذى هو دين لجميع الناس في الأرض إلى يوم القيامة، فهو للعالم كله، وليس خاصاً بنوع معين، أو جنس دون آخر، بل للعرب والعجم، للأبيض والأسود، للحر والعبد، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(٣)، فالإسلام منهج متكامل، وتشريع شامل لكل مجالات الحياة فهو إيمان وعمل، عقيدة وشريعة، أخلاق وعمران، عبادة، وعادة، ومعاملة، "فما ترك الإسلام جانباً من جوانب الحياة إلا وقد تناولتها الشريعة، وأوضحت لنا فيها

---

(١) أصول التربية الإسلامية، خالد بن حامد الحازمي، مرجع سابق، صـ٤٢.
(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢٠، صـ٣٢٧.
(٣) سورة سبأ الآية "٢٨".

الخير من الشر، والطاهر من الخبيث، والصالح من الفاسد، وبهذا الشمول الذى تتسم به الشريعة الإسلامية، فإنها في غاية الكمال"[١]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٢]، من أجل هذا الكمال، وهذه الشمولية فقد وضع الإسلام القواعد الكلية والأصول العامة، التي من شأنها أن تستوعب كل زمان ومكان، ولم يتطرق لجميع جزئيات الحياة، وتركها لاجتهادات الناس حسب حاجاتهم في الزمان والمكان، ومن هنا اتسمت التربية الوقائية بالشمولية والعموم، فهي تنظم العلاقة بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان ونفسه وكذلك بينه وبين غيره، سواء في الأسرة، أو المجتمع، أو الدولة، أو العالم، أو الحاكم، أو المحكوم، وغيرها من العلاقات المختلفة، من خلال ذلك يتبين أن التربية الوقائية "تهتم بتربية جميع جوانب الإنسان الخُلقية، والجسمية، والعقلية، وتحقق التوازن بين مطالب الإنسان الجسدية والروحية، فلا يطغى جانب على جانب آخر"[٣].

إن التربية الوقائية ليست منحصرة في مرحلة معينة من العمر، بل تستمر مدى الحياة، وليست قاصرة على فئة معينة من الناس، بل للجميع فليس فيها شعب مختار، أو تحييز بسبب اللون أو الجنس، وكذلك لم تترك جزءً من التربية فيه الحماية والصيانة، إلا وقد أشارت إليه بتفصيل أو عموميات وقواعد كلية تصلح لكل زمان ومكان، فلم تفصل بين الدين والدنيا، بل شملت شئون الدنيا والآخرة، ومن هنا كان دعاء النبي – ﷺ – الجامع، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: كان رسول الله – ﷺ – يقول: "اللهم أصلح لي ديني الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادى، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر[٤]، ولم تفصل بين الروح والجسد، بل وفقت ما بين مطالب الروح والجسد معاً، مما يجدر القول بأن "التربية الإسلامية تشمل رعاية النمو من كل جوانبه، الجسمية، والعقلية، والخلقية، والاجتماعية، والذوقية، والروحية، والوجدانية، مع توجيه هذا النمو نحو تحقيق هدفها الأسمى"[٥]، فهي تربية شاملة وعامة، لا تختص بفئة دون أخرى، ولا بجانب دون آخر.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، الحازمي، مرجع سابق، صـ٤٨.

(٢) سورة المائدة الآية "٣".

(٣) أصول التربية الإسلامية، الحازمي، مرجع سابق، صـ٤٩.

(٤) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما لم يعمل، ٢٠٨٧/٤ – رقم ٢٧٢٠.

(٥) أصول التربية الإسلامية في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي، مرجع سابق، صـ٦٩.

المبحث الثالث

وسائل وأساليب التربية الوقائية في الإسلام

أولاً: تعريف الوسيلة والأسلوب والفرق بينهما

أ- تعريف الوسيلة لغة:

"**الوسيلة:** المنزلة عند الملك، والوسيلة: الدرجة، والوسيلة: القرابة، ووسل فلان إلى الله وسيلة: إذا عمل عملاً تقرب به إليه، والواسل: الراغب إلى الله"(١)، "وهي في الأصل: ما يتوصل به إلى الشئ، ويتقرب به"(٢).

من خلال هذه التعريفات اللغوية، يتبين أن: من معانى الوسيلة في اللغة الدرجة، والقرابة، والمنزلة، والأداة التي يتوصل بها إلى تحقيق هدف معين.

ب- تعريف الوسيلة اصطلاحاً:-

تعرف بعدة تعريفات لا تخرج عن المعنى اللغوي كثيراً فالوسيلة في الاصطلاح هي:- "التي يتوصل بها إلى تحقيق المقصود"(٣)، أو هي" ما يتقرب به إلى الغير"(٤).

فمن مجموع تعاريف الوسيلة في اللغة، والاصطلاح، يتضح: أن الوسيلة هي: الأداة المنضبطة بالشرع، المستخدمة للوصول إلى هدف معين، بحيث لا يمكن الوصول إلى المراد، وبلوغ الهدف إلا بها، فإذا أضيفت الوسيلة إلى التربية الوقائية كانت بمعنى، الأداة المستخدمة في التربية، للوصول إلى هدف معين، وهو الوقاية من الانحراف، بطريقة مشروعة وغير محرمة، والتي بدونها لا يستطيع المربى الوصول إلى مبتغاه، "فلابد للمرء في سبيل تحقيق أهدافه، والوصول إلى غايته، من استخدام الوسيلة التي تعينه على ذلك، فكيف يتصور الوصول إلى هدف معين دون استخدام الوسائل التي توصله إليه، فإن الله - ﷻ - قد ربط الأسباب بالمسببات، وأمر بالأخذ بالوسائل المؤدية إلى الغايات"(٥)، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾(٦)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾(٧)، وليس من الضروري

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١١، صـــ٧٢٤.

(٢) نفس المرجع السابق، ج١١، صـــ٧٢٥.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٣، صـــ٩٤.

(٤) التعريفات، الجرجاني، مرجع سابق، صـــ٢٥٢.

(٥) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـــ٢٨٢.

(٦) سورة المائدة آية "٣٥".

(٧) سورة الإسراء آية "٥٧".

أن ينص الإسلام على كل الوسائل، لأنها كثيرة لا حد لها، فطالما أنها غير محرمة، فلا بأس في استخدامها، كما أنها لا تنحصر في وسيلة محددة، وإنما جاءت الأدلة بالأمر بالتربية إما مطلقاً، وإما مقرونةً بالنص على الوسيلة المطلوبة، فالوسائل تختلف حسب الأشخاص، والزمان، والمكان، وهذا يعنى: أن "الإنسان من في كل زمن يحتاج إلى نوع من طرق التعليم، غير ما كان في الزمن الذى قبله، فالحقيقة الواحدة قد تختلف طرق العلم بها باختلاف الزمان والمكان[١].

ولابد من البحث والتدقيق في اختيار وسائل التربية، لأن الوسيلة إذا كانت فاسدة: فإنها تحيد بصاحبها عن الطريق الصحيح والهدف الصالح.

ج- تعريف الأساليب في اللغة:

الأساليب جمع: مفردها أسلوب، والأسلوب في اللغة معناه: "طريق الوصول إلى المطلوب"[٢] "ويقال للسطر من النخيل، أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب: الطريق، والوجه، والمذهب"[٣].

"والأسلوب بالضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب القول: أي أفانين منه"[٤].

من خلال ما سبق يمكن القول: بأن من معانى الأسلوب اللغوية، الطريق، أو الطريقة، والوجه، والمذهب، والفن.

د- تعريف الأساليب في الاصطلاح:

فقد وردت تعاريف كثيرة للأسلوب في الاصطلاح، وذلك لأن كل علم من العلوم، وكل فن من الفنون، طريقة خاصة في التعبير والتوضيح، وكذلك بالنسبة للمتكلم والكاتب، فلكل منهما أسلوب، وفهم خاص ومتميز عن الآخر في التعبير عن أهدافه ومقاصده.

فأساليب الدعوة هي: "الطرق التي يسلكها الداعي في دعوته، أو كيفيات تطبيق مناهج الدعوة"[٥].

وإذا أضيفت كلمة التربية الوقائية إليها فإنها تعنى: طرق اختيار الألفاظ الدعوية المشروعة، التي يلجأ إليها الداعية، وتأليفها من أجل تنشئة المدعوين تنشئة صالحة، بعيدة عن التطرف والانحلال، بطريقة واضحة.

---

(١) تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٤، صـ٣٤.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ج٢، صـ١٠٨٩.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١، صـ٤٧٣.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـ٤٧.

ه- الفرق بين الوسيلة والأسلوب

هناك بعض الباحثين لا يستطيع التمييز بين الوسائل والأساليب، لكون كل منهما يتوصل به إلى الغاية والهدف الدعوي المنشود، ولكن عند التدقيق يتضح أن الوسائل أعم، وتدخل فيها الأساليب، لأن الأساليب تختص بالطرق الكلامية والألفاظ، أما الوسيلة: فهي تشمل الطرق الكلامية، وغيرها، "فالأشبه في الأساليب أنها تختص بالبيان والكلام، يقال: أساليب الدعوة أي: الطرائق البيانية التي يوصل بها الداعية دعوته إلى المدعويين، وأما الوسائل فهي الأعم مدلولاً، وتشمل الطرائق البيانية، وغيرها، إذ هي: القنوات التي من خلالها يوصل الداعية كلمته إلى الآخرين كالمذياع، والرأي، والكتاب، والجريدة، والشريط، ومنبر الخطابة، ودار الأيتام، والمستشفى الخيري ... إلخ"[١]، فمما لا شك فيه أن هناك فرقاً واضحاً وجوهرياً بين هذه وتلك فالوسائل هي الأدوات والآليات الحسية والمعنوية التي يستخدمها الدعاة في تبليغ الدعوة حقائقها إلى المدعوين أما الأساليب فهي الطرق والكيفيات التي يستخدمها الدعاة في تبليغ الدعوة إلى المدعوين سواء كانت حسية أو معنوية، إذاً فعلاقة الأسلوب بالوسيلة، علاقة الفرد بالنوع، والجزء بالكل.

ثانياً: وسائل التربية الوقائية

التربية الوقائية لها وسائل لا حصر لها، للوصول إلى هدفها المنشود، ومن أهم هذه الوسائل ما يلي:-

الوسيلة الأولى: التعليم

أ- مفهوم التعليم في اللغة والاصطلاح

التعليم مصدر من تعلم، "وتعلمت الشئ إذا أخذت علمه، والعرب تقول: تعلم أنه كان كذا، بمعنى: اعلم"[٢]، "وعلمه الشئ تعليماً فتعلم، وليس التشديد هنا للتنكير، بل للتعدية، ويقال أيضاً: تعلم بمعنى اعلم"[٣]، "وعلمته العلم تعليماً، وأعلمته اعلاماً، إذ أشعرته شيئاً جهله"[٤]، "والعلم نقيض الجهل"[٥].

---

(١) أساليب دعوة العصاة، دكتور عبدالرحمن بن نواب الداين بن غريب، المتوفى سنة ١٤٢٤هـ، الناشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط السنة الثالثة والثلاثون، العدد ١٢٣، صـ١٤٤.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٤، صـ١٠٩.

(٣) مختار الصحاح، الرازي، مرجع سابق، صـ٢١٧.

(٤) الإبانة في اللغة العربية، سلمه بن مسلم العتبي الصحارى، المتوفى سنة ٥١١هـ، تحقيق د/ عبدالكريم خليفة، د/ نصرت عبد الرحمن، د/ صلاح جرار، د/ محمد حسن حواس، د/ جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط عمان، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ج٣، صـ٤٩٨.

(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٤، صـ ١٠٩.

من خلال هذه الإطلالة السريعة في معاجم اللغة. يتضح: أن معانى التعليم اللغوية، تدور حول المعرفة والفهم، والتدريب، لبيان حقيقة ما يجهله المدعوين أو يلتبس عليهم.

أما في الاصطلاح: فقد وردت عدة تعريفات للتعليم، وهى لا تختلف عن المعنى اللغوي كثيراً فمنها:-

"التعليم عبارة عن إلقاء المبادئ العلمية على المتعلم، وسوقها إلى ذهنه شيئاً فشيئاً"(١) فبعد هذه التعاريف اللغوية والاصطلاحية، يتضح أن التعليم يكون بإلقاء المبادئ، والقيم، أو المعلومات الموجودة في ذهن الداعية، من أجل تحصيل الأهداف الدعوية المنشودة في المتعلم.

الفائدة الدعوية لوسيلة التعليم

إن التعليم وسيلة هامة من وسائل التربية التي أرشدنا إليها الشارع الحكيم، وهذا واضح من خلال تعليم الله – ﷻ – لسيدنا آدم – عليه السلام – الأسماء كلها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾(٢)، فوسيلة التربية هنا: التعليم، ولقد أكد النبي – ﷺ – على هذه الوسيلة التربوية، ووجه الناس إليها، فعن عمرو بن شعيب(٣) عن أبيه عن جده، أن النبي – ﷺ – قال: "علموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعاً، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً وفرقوا بينهم في المضاجع"(٤)، وفى أمر النبي – ﷺ – باستخدام هذه الوسيلة: تعليم الصلاة في سن السبع – وقاية لهم من استثقالها وهم كبار، فالتعليم وسيلة من وسائل الدعوة التي يستخدمها الداعية في كل زمان ومكان، ولاسيما عند وجود الحاجة إليه،

---

(١) تفسير أبي السعود المسمى "ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، أبو السعود العماري محمد بن محمد بن مصطفى، المتوفي سنة ٩٨٢هـ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج١، صـ٢٧.

(٢) سورة البقرة الآية "٣١".

(٣) هو عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، وأمه حبيبة بنت مرة بن عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي، فولد عمرو بن شعيب، عبد الله، وأمه رملة بنت عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة، وإبراهيم بن عمرو وأمه: أم عاصم بنت عمر بن عاصم من ثقيف، وكنيته أبا إبراهيم، قال مالك بن أنس: رأيت عمرو بن شعيب وكان يطيل الصلاة بين الظهر والعصر، مات سنة ثماني عشرة ومائة. "الطبقات الكبرى"، أبو عبد الله بن محمد بن سعد الهاشمي، المعروف بابن سعد، المتوفي ٢٣٠هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج٥، صـ٣٣٤، وينظر أيضاً "الأعلام"، خير الدين بن محمود بن محمد بن فارس الزركلي المتوفي ١٣٩٦هـ، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ج٥، صـ٧٩.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الصلاة، باب التأمين، ٣٨٩/١، رقم ٩٤٨، واللفظ له، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب عورة الرجل، ٣٢٤/٢، رقم ٣٢٣٦.

ليصل إلى تحقيق هدفه، وقد بين الله - ﷻ - أ التعليم من وسائل الدعوة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[١].

ولقد أدرك العلماء الأجلاء قديماً، قيمة هذه الوسيلة، وعلاقتها بالتربية، فألفوا المؤلفات، وقرنوا بين العلم والتربية، مثل كتاب (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) لابن جماعة[٢]، فوسيلة التعليم في المنظور الإسلامي، لا تنفصل عن التربية، لأن العلم ما جاء إلا لتربية الإنسان المسلم، ولا تكون وسيلة التعليم نافعة، إلا إذا كانت منبثقه من الوحى الإلهي في الشكل والموضوع، وكما كان يتعلم النبي - ﷺ - من سيدنا جبريل - ﷺ -، وكما كان النبي - ﷺ - يعلم أصحابه الكرام، ولقد "علم إبراهيم وإسماعيل - ﷺ - أن تعليم الكتاب والحكمة، لا يكفى في إصلاح الأمم وإسعادها، بل لابد أن يُقترن التعليم بالتربية على الفضائل، والحث على الأعمال الصالحة، بحسن الأسوة والسياسة، فقال: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[٣]، "أي: يطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة، وينزع منها تلك العادات الرديئة، ويعودها الأعمال الحسنة التي تطبع في النفوس ملكات الخير، ويبغض إليها القبيحة التي تغريها بالشر"[٤]، والله - ﷻ - يقول رابطاً بين العلم والتربية ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[٥]، فالعلم وسيلة للتربية على الإيمان والتوحيد، ثم قرنه بالاستغفار، لبيان أهمية التعليم مع الدعوة، وأن صلاح المدعوين لا يستقيم إلا إذا صلح دعوتهم، لأنه هو المرتكز الأول الذى عليه المعول في عملية البناء ليستقيم، وبه يصير الإنسان شخصاً سوياً على الطريق الصحيح، لمعرفته الحق والعمل به، بعيداً كل البعد عن الضلال والغواية، حتى لا يكون عضواً فاسداً في المجتمع.

---

(١) سورة الجمعة الآية "٢".

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة قاضي القضاة بدر الدين أبو عبدالله الحموي، ولد بحماة سنة تسع وثلاثين وستمائة، وسمع سنة خمسين شيخ الشيوخ الأنصاري، وكان قوى المشاركة في علم الحديث والفقه والأصول والتفسير خطيباً تام الشكل ذا تعبد وأوراد، تولى القضاء بمصر ثم بالشام، وولى خطابة الجامع الأموي مع القضاء توفي سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة (فوات الوفيات) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن الملقب بصلاح الدين المتوفى سنة ٧٦٤هـ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط١، ١٩٧٤م، ج٣، صـ٢٩٨، وينظر أيضاً "الأعلام"، الزركلي، مرجع سابق، ج٥، صـ٢٩٧.

(٣) سورة البقرة من الآية "١٢٩".

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١، صـ٣٨٩.

(٥) سورة محمد من الآية "١٩".

فالتعليم كوسيلة، له مكانه كبرى في التربية الوقائية، "لأنه يتطرق إلى النفس الانسانية من مداخلها الحقيقية، ويجعل الناصح في نظر المنصوح شخصاً طيب النوايا، حريصاً على المصلحة، ومن هنا يكون لكلامه قبول حسن"(١)، كذلك الإنسان لا يستطيع أن يقي نفسه، ويجعل بينه وبين غضب الله – ﷻ – وعذابه وقاية، إلا بتعليمه ما يُتقى به، وكذلك الأمر بالنسبة للأهل، فلا يستطيع المربى أن يقيهم من النار وعذابها، إلا بتعليمهم ما ينفعهم، مصداقاً لقول الله – ﷻ –:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾(٢)، والتعليم له بيئات متعددة ومن أهمها ما يلي:-

(١) الأسرة

تعد الأسرة – وقوامها الأبوان، أو من يقوم مقامهما – هي: الخلية الأولى التي تقوم بعملية الدعوة والتوجيه، فيوضحوا لأبنائهم معالم التربية الصحيحة، وبيان الصالح من الضار، ولذلك فقد اهتم الإسلام ببناء الأسرة اهتماماً بالغاً، لأن الأسرة الصالحة هي: أساس الحياة السوية والمجتمع الصالح، فالأبناء أمانة في أعناق الآباء والأمهات، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾(٣)، أي: "احفظوا أنفسكم، وصونوا أزواجكم، وأولادكم من نار حامية مستعرة، وذلك بترك المعاصي، وفعل الطاعات، وبتأديبهم وبتعليمهم"(٤)، هذه المسؤولية الأسرية، أكدها النبي – ﷺ – في الحديث الذي رواه سيدنا أنس – رضي الله عنه –، أن رسول الله – ﷺ – قال: "إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته"(٥)، فعلى الأسرة تقع

(١) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسى، بدون ط، سنة ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م،عالم الكتب، القاهرة، صـ٨١.

(٢) سورة التحريم من الآية "٦".

(٣) سورة التحريم من الآية "٦".

(٤) تفسير الصابوني المسمى "صفوة التفاسير"، محمد على الصابوني، دار الصابوني للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، ج٣، صـ٣٨٦.

(٥) رواه الترمذي في سننه، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الإمام، ٣/٢٦٠، رقم ١٧٠٥، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرطهما"، والسنن الكبرى، أبو عبد الرحمن بن شعيب بن علي الخرساني النسائي، المتوفى سنة ٣٠٣هـ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، كتاب عشرة النساء، باب مسألة كل راع عما استرعى، ١٧/١٨٩، رقم ٩٨٢٣، صحيح ابن حبان "الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان"، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، المتوفى سنة ٣٥٤هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، كتاب السير، باب ذكر الأخبار بسؤال الله جل وعلا كل من استرعى رعية عن رعيته، ١٠/٣٤٤، رقم ٤٤٩٢.

مسؤولية تربية الأبناء، وتوجيههم، ووقايتهم من الانحراف، ويظهر ذلك جلياً في وصية سيدنا نوح - عليه السلام - لابنه، حينما ضل عن الطريق الصحيح طريق الإيمان فقال له كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[١]، ويجب أن تكون هذه الوصية الواقية من الشرك والضلال، أمام أعين الآباء في تعليم الأولاد لوقايتهم من الانحراف، وبذلك تكون التربية الإسلامية قد أصبحت فريضة على جميع الآباء، والأمهات، والمربين، ليربوا الناشئة بها، وتحت ظلالها، لتقودهم إلى النور والطمأنينة، وها هو سيدنا لقمان الحكيم، هذا الأب الرحيم، ينظر إلى ابنه نظرة شفقة، وعطف، وحنان، ليقيه من الوقوع في المهالك والضلال، وأخذ يعمل على إرساء القيم العقدية والتشريعية والأخلاقية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾[٢]، فهذه الوصية توضح علاقة الأب بأبنائه منذ صغرهم، فهو مسئول عن رعايتهم وإرشادهم، وكذلك المحافظة على فطرتهم السليمة، واعتبر الإسلام الأسرة مسئولة عن فطرة الطفل، ولذلك "اعتبر كل انحراف يصيبها، فإن مصدره الأول الأبوان، أو من يقوم مقامهما من المربين - فالطفل يولد صافى السريرة، سليم الفطرة"[٣] ويؤكد النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا المعنى، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرنه، أو يمجسانه"[٤]، فانحراف الأبناء عن الفطرة السوية مسؤولية الأبوين أو المربى من الدرجة الأولى وذلك لإهمالهم وعدم توجيههم، أو توجيههم الوجهة الخاطئة، "فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوها صغاراً فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كباراً"[٥]، لكن قد يبذل الوالدان جهدهما واداء ما عليهما من التربية والتوجيه والتعليم، ومع ذلك فقد ينشأ الأبناء منحرفين عن الطريق السوى مثلما فعل سيدنا نوح - عليه السلام - مع ولده، فقد اهتم به غاية الاهتمام، بالتوجيه

---

(١) سورة هود من الآية "٤٢".

(٢) سورة لقمان الآية "١٣".

(٣) أصول الدين الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي، مرجع سابق، صـ١١٥.

(٤) صحيح البخاري كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه؟، ٢/٩٤، رقم ١٣٥٨، ومسلم، كتاب القدر، باب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ٤/٢٠٤٧، رقم ٢٢ "متفق عليه".

(٥) تحفة المودود بأحكام المولود، محمد بن أبى بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١هـ، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ط١، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، صـ٢٢٩.

والتوصية، ومع ذلك فقد أبى الابن إلا الضلال، وبذلك يكون قد أدى الأبوان ما عليهما من الواجبات ليبرءا من أفعال أولادهما المنحرفة يوم القيامة ويعذرا الأبناء أمام الله - ﷻ - لقيامهما بما أُمراً، ولقد استشعر الصحابة مسؤولية التربية والرعاية، فتسارعوا إلى تأديبهم، هذه المسؤولية هي التي جعلت سيدنا عبدالله بن عمر - ﷺ - يقول: "أدب ابنك فإنك مسئول عنه، ماذا أدبته؟ وماذا علمته؟ وهو مسئول عن برك وطواعيته لك"(١)، وبذلك تكون الأسرة هي الدرع الحصين، فهي المسئولة عن إعداد الإنسان الصالح، وكذلك أيضاً عن الإنسان المنحرف.

(٢) المسجد

إن أول عمل قام به النبي - ﷺ - حينما وصل إلى المدينة المنورة هو: بناء المسجد، وذلك لبيان أهميته ومكانته في الإسلام، وأنه من المؤسسات الإسلامية التي لا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال، فهو بداية الانطلاقة الحقيقية، لأى تربية صحيحة ودعوة هادفة، وهو المركز الأول الذى انبثق منه نور الرسالة المحمدية إلى العالم أجمع، فكان وسيلة لخلق أنموذج فريد للمسلم الصالح، والمسجد لم يكن للصلاة والعبادة فقط، بل كان بجانب ذلك مكاناً للتعليم، ومدارسة القرآن والحديث الشريف والتفسير، وجميع أمور الدين، "فكان المسجد أول مدرسة جماعية منظمة، عرفها العرب لتعليم الكبار والصغار، والرجال والنساء"(٢)، وكان منطلق أنشطة كثيرة، حيث كان النبي - ﷺ - يقوم بتعليم الصحابة فيه وكانوا يتحلقون حوله حلقاً، ليتعلموا ويسمعوا منه - ﷺ - فعن أبي واقد الليثي(٣) - ﷺ - أن رسول الله - ﷺ - بينما هو جالس

---

(١) شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخرساني البيهقي، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، تحقيق د/ عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، باب حقوق الأولاد والأهلين، ١٣٥/١١، رقم ٨٢٩٥.

(٢) أصول التربية الإسلامية في البيت والمدرسة والمجتمع، مرجع سابق، النحلاوي، صـ١١٨.

(٣) من بني ليث بن بكر بن عبد مناه بن علي بن كنانة بن خزيمة، وقد اختلف في اسمه، فقيل: الحارث بن عوف، وقيل: عوف بن الحارث، وقيل: الحارث بن مالك، قيل: إنه شهد بدراً مع النبي - ﷺ -، وقيل: لم يشهدها، وكان قديم الإسلام، وقيل: إنه من مسلمة الفتح، ورجحه ابن الأثير، قال ابن عبد البر: والأول أصح، يعد من أهل المدينة، وجاور بمكة سنة، ومات بها، فدفن في مقبرة المهاجرين سنة ثمان وستين، وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقيل ابن خمس وثمانين سنة. "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، المتوفى ٤٦٣هـ، تحقيق على محمد البيجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ج٤، صـ١٧٧٤، و"أسد الغابة"، أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني بن الأثير، المتوفى ٦٣٠هـ، تحقيق على محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ج٦، صـ٣١٩.

في المسجد، والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله – ﷺ – وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله – ﷺ –، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله – ﷺ – قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم: فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر: فاعرض فأعرض الله عنه"[١].

فالمسجد كان أعظم معهد للتعليم، "ومما لا يختلف فيه اثنان أن المسجد كان، ولا يزال، جامعة إسلامية كبرى، تؤدى رسالتها على مر العصور وكر الدهور، ينتسب إليها الصالحون، ويتخرج فيها الأوفياء العاملون، وتقدم للمجتمع العناصر الصالحة التي تعرف واجبها المنوط بها، فتؤديه كاملاً، رغبة في رضوان الله، وأملاً في مثوبته"[٢]، وكان النبي – ﷺ – يعقد فيه الاجتماعات، ويستقبل فيه الوفود، وكان يبرم فيه كل أمر ذي بال في السلم والحرب، وكان إذا أراد السفر بدأ بالمسجد، ولقد اتخذ النبي – ﷺ – المنبر: ليعلم الناس من فوقه، وليشهدوه ليأتموا به، فعن سهل بن سعد[٣] – رضي الله عنه – قال: رأيت رسول الله – ﷺ –: "قام عليه فكبر، وكبر الناس وراءه، وهو على المنبر، ثم رفع، فنزل القهقري، حتى سجد في أصل المنبر ثم عاد، حتى فرغ من آخر صلاته، ثم أقبل على الناس، فقال: "يا أيها الناس: إنما صنعت هذا لتأتموا بي، ولتعلموا صلاتي"[٤] والمسجد بهذا الدور التربوي، ينمى الناحية الروحية لدى الناس، من حيث ارتباطهم بالله – عز وجل –، فالمسجد كان معهد ومدرسة للتعليم، بجانب كونه ساحة للعبادة والصلاة والذكر بل جعل النبي – ﷺ – التعليم في المسجد يعادل الجهاد في سبيل الله – عز وجل – والجهاد ذروة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهى به المجلس، ١/٢٤، رقم ٦٦، ومسلم، كتاب السلام، باب من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم، ٤/١٧١٣، رقم ٢٦ "متفق عليه".

(٢) مكانة المسجد ورسالته، منصور الرفاعي عبيد، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١ ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، صـ١٠.

(٣) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن خزرج بن ساعدة الأنصاري الساعدي، من مشاهير الصحابة، يكنى أبا عباس، وقيل أبو يحيى، مات النبي – ﷺ – وهو ابن خمس عشرة سنة، وهو آخر من مات من المدينة من الصحابة، سنة إحدى وتسعين، وقيل: قبل ذلك، عاش مائة سنة. "الإصابة في تمييز الصحابة"، أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، المتوفي سنة ٨٥٢هـ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلى أحمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ، ج٣، صـ١٦٧، وينظر أيضاً "الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٢، صـ٦٦٤.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، ٢/٩، رقم ٩١٧، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة، ١/٣٨٦، رقم ٥٤٤ واللفظ له.

سنام الإسلام، فعن أبي هريرة - ﷺ - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: "من جاء مسجدي هذا، ولم يأته إلا لخير يتعلمه، أو يُعلمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره"[١]، "وكان بعض المشركين يعرفون القراءة والكتابة، فوضع الرسول أسس هذا المشروع، وهو أن كل رجل متعلم أسير، يعّلم عشرة من المسلمين الأوائل، ويكون هذا فداء له، ويفك به الأسر، وتم هذا فعلاً في المسجد النبوي الذى كان بحق جامعة شعبية، اتسعت رحابة في الليل والنهار لطلاب العلم، وعشاق المعرفة صيفاً وشتاءً، لا يتقيد بسن، ولا يسدد أي رسم للالتحاق به، ولا تأمين لحصير، ولا يضع أي قيد أمام أي طالب، ولا يشترط الحصول على أي شهادة اللهم إلا الاعتراف بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد نبياً ورسولاً"[٢].

فأغلب الأحكام قد تعلمها الصحابة في المسجد، حتى أصبحوا قادة للأمم، بعد أن كانوا رعاة غنم، وبعد أن تخرجوا على يد سيدنا رسول الله - ﷺ - من المسجد، الذى كان يكتنفه جو عبادي، يشعر فيه الدارس بالطمأنينة، والسكينة، فعن أبي هريرة - ﷺ - أن رسول الله - ﷺ - قال: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"[٣]، وفى ذلك حث من النبي - ﷺ - على طلب العلم في بيوت الله - ﷻ -، والترغيب لحضور مجالس العلم فيها حتى أصبح الكثير من المساجد قديماً وحديثاً، مركزاً هاماً للتعليم والتوجيه، وانصرف كثير من الناس لطلب العلم في المساجد، مثل المسجد الحرام، والمسجد النبوي الشريف، والجامع الأزهر، الذي يظل مكاناً يأوي إليه الطلاب من كل حدب وصوب، ولا يخفى على أحد الدور الذى قام به الجامع الأزهر الشريف، في تعليم الناس وسطية الدين، وعدم الغلو والتطرف، حتى أصبح منارة للعلم والعلماء، ومن أشهر المساجد التي يدرس فيها العلم، فهو من أقدم الجامعات في العالم الإسلامي.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب فضل العلم وشرف مقداره، ٣/٢٢٢، رقم١٥٧٥، وسنن ابن ماجه، ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القروني، المتوفي سنة ٢٧٣هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، كتاب الإيمان، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١/١٥٤، رقم ٢٢٨، وقال الشيخ الأرنؤوط "حديث ضعيف".

(٢) مكانة المسجد ورسالته، منصور الرفاعي عبيد، مرجع سابق، صـ٥٤.

(٣) رواه مسلم كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر، ٤/٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩.

(٣) دور التعليم

إن دور التعليم كالمدارس والمعاهد والجامعات ومراكز البحوث وغيرها هي البيئة التي يتعلم فيها الأبناء، ويعبرون فيها عن رغباتهم وآرائهم، وهى تمثل عنصراً هاماً في بناء شخصية الأفراد، واتجاهاتهم، ودورها لا يقل أهمية عن دور الأسرة والمسجد، لأن عمل كل مؤسسة من هذه المؤسسات مكمل للآخر، فحينما تؤدى الأسرة دورها في التوجيه والنصح والتأديب، ويؤدى المسجد رسالته من التعليم والارشاد والفتاوى، يأتي دور المدرسة لتكتمل الأدوار في عملية الدعوة والتعليم، لأن المدارس كمؤسسات تعليمية يتلقى فيها الطلاب مختلف العلوم، لها دور أساسي في زرع القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة في نفوس المتعلمين والطلاب عن طريق المعلم، بالإضافة إلى أنها "تجعل التعليم والتربية حقاً لكل مسلم، وليست امتيازاً لطبقة أو فئة من الناس، وإن اتجاه الناس إلى التعليم يجعل المسئوليات التربوية للمدرسة أكبر من المسجد، إذ أن المدرسة قد انفصلت الآن كبيئة تربوية لا تكتفى بإعطاء المعلومات والمعارف، بل هي أداة للتربية المتكاملة، عقلية وجسدية وعاطفية ووجدانية"(١).

إن المدارس لها وظائف تعليمية وأخرى تربوية، والأمر نفسه ينطبق على المعلم، فهو إلى جانب كونه معلماً، لابد وأن يكون مربياً، ولا يقتصر عمله على التعليم، وتحصيل الدروس فقط، ولكن دوره أكبر من ذلك، ليصير الداعية معلماً يغرس القيم والسلوك في قلوب المدعوين المتعلمين، ويعد الأزهر الشريف في مصر من أكبر دور التعليم في العالم، وله دور هام وخطير في الدعوة والتعليم.

دور الأزهر الشريف في الدعوة والتعليم

الأزهر وهو "هيئة تعنى بدراسة ألوان المعرفة المختلفة التي تعين على ممارسة النشاط الإنساني في شتر جوانب حياة المجتمع كي يتزود بها الطالب الذي يتخرج في المعاهد الأزهرية الثانوية بجانب ما يتزود به من معرفة ذات مستوى خاص لتعاليم الإسلام ولقيمه، وكذلك بالدراسات العربية الخاصة التي تعينه على فهم التعاليم الإسلامية وأهداف رسالة الإسلام فهماً قوياً واضحاً يكون مصدر إشعاع سلوكي في حياة الفرد والمجتمع معاً"(٢)، فهو لا يكتفي بتعليم العلوم الدينية فحسب بل العلوم الدنيوية أيضاً حتى يتخرج منه الدعاة وقد تنوعت ثقافتهم "وربما أشار بعض

---

(١) بيئات التربية الإسلامية، عباس محجوب، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة – الطبعة الثانية عشر، العدد السادس والأربعون، ربيع الآخر – جمادى الأولى – جمادى الثاني ١٤٠٠هـ صـ١١٢.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، مكتبة وهبة، ط١٠، صـ٤١١.

الكاتبين في إصلاح الأزهر بقصر التعليم فيه على العلوم الدينية والعربية، وهو رأي لا يستقيم مع ما يقتضية حال العصر من أن يكون العالم الديني على جانب من العلوم الكونية والاجتماعية وبهذا يكون الأزهر كفيلاً بإخراج نشئ يمثلون القاضي العادل والمدرس النحرير، والمصلح الخطير، والمرشد الحكيم، والكاتب البارع، والمدير لبعض الشؤون العامة في حزم ونظام"(١)، هذا بالإضافة إلى إرساله البعثات الدعوية إلى كل بلدان العالم لتعليمهم أمور دينهم، فهو المؤسسة الأولى في العالم التي يقصدها الطلاب والدعاة من كل فج عميق، وهو المرجعية الأولى للمسلمين ومنارة العلوم الإسلامية، كما عرف عنه من نشر للوسطية والتسامح الديني وهذا يدل على أن "للأزهر بحكم زعامته أو رسالته لواء معقود، ومقام محمود في جميع الأزمان والعهود، له في الدفاع عن الدين والوطن فضل ظاهر وأثر ملموس، وله في توجيه الحياة مكانة لا تجحد، وهو في كل هذه المعاني مبرز بما هو له من قوة الملكة وفصاحة الأسلوب وحسن البيان، والهيمنة على السامعين في كل مجتمع وناد، وقد كان الأزهر ولا يزال عكاظ الأمة العربية، وميدان فرسان البلاغة، وقد تهيأ لكثير من الأزهريين من طول المراس واعتياد القول، ومعاطاة الحوار والوعظ والجدل رصانة في الأسلوب، ودقة في التعبير وسمو في البيان، وطلاقة في اللسان، وفيض في الخواطر، وتدفق في المشاعر"(٢)، فالأزهر يؤدي دوراً هاماً وفعالاً في التعليم والدعوة بل وفي كل شيء، حفظه الله تعالى والقائمين عليه إلى يوم الدين.

(٤) المجتمع

من المؤثرات التي تؤثر في تربية الإنسان وتعليمه، المجتمع الذى يعيش فيه بما يحتويه من عادات وتقاليد، لأن المجتمع حاضن للإنسان، مؤثر فيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾(٣)، "وهذه الآية توضح لنا أن التربية لا تتم إلا في اطار اجتماعي، وداخل مجتمع مسلم نظيف، لأن الطفل لا يمكن تربيته بعيداً عن المؤسسات الاجتماعية، مثل البيت، والمسجد والمدرسة ووسائل الإعلام وغيرها، ولما لهذه المؤسسات الاجتماعية من أثر تربوي فعال، ولما للعادات والتقاليد والأخلاقيات الاجتماعية من تأثير على

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، دار النوادر، سوريا، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م، ج١٢، صـ١٢٣.

(٢) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، محي كامل الفقي، المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف، ج٢، صـ٦.

(٣) سورة الأعراف الآية "٥٨".

العقل، والسلوك الانساني عبارة عن التفاؤل بين الظروف الاجتماعية البيئية، والطبيعة الإنسانية"[١].

والتربية الوقائية تعمل على إصلاح المجتمع والبيئة التي يعيش فيها المسلم، وتعمل على بناء العلاقات الإنسانية على أساس من المودة والرحمة، والتخلق بأخلاق الإسلام، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [٢]، فالبيئة لها دور هام في تربية الفرد ووقايته مما هو غير مرغوب فيه، ولذلك فقد أمرنا رسول الله – ﷺ – بمجالسة الأخيار والصالحين للاقتداء بهم، فعن أبي موسى الأشعري[٣] – رضي الله عنه – قال: رسول الله – ﷺ –: "مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة"[٤]، فمجالسة الأصدقاء الصالحين، والرفقة الصالحة من أهل الاستقامة، في المجتمع، من أهم دواعي التعلم، والاقتداء بهم، وهذا يقتضى اجتناب أهل الفسق والشر، وقد ذكر لنا النبي – ﷺ – في حديث الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفس: أثر المجتمع على الإنسان فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال: كان فيما كان قبلكم، رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ "انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء"[٥].

---

(١) بيئات التربية الإسلامية، عباس محجوب، مرجع سابق، صـ١١٦.

(٢) سورة الحجرات من الآية "١٠".

(٣) "هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن بكر بن عامر بن الأشعر مشهور باسمه وكنيته، أسلم وهاجر إلى الحبشة، وقيل بل رجع إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى الحبشة، قدم المدينة بعد فتح خيبر، واستعمله النبي – ﷺ – على بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالهما، استعمله عمر على البصرة، ثم استعمله عثمان على الكوفة، ثم كان أحد الحكمين بصفين، ثم اعتزل الفريقين، واختلف في وقت وفاته فقيل سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة أربع وأربعين وقيل سنة خمسين، وقيل سنة اثنتين وخمسين"، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، ج٤، صـ١٧٦٢.

(٤) رواه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، ٩٦/٧، رقم ٥٥٣٤، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، ٢٠٢٦/٤، رقم ٢٦٢٨.

(٥) رواه مسلم كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ٢١١٨/٤، رقم ٢٧٦٦.

إن هذا الحديث يبين أثر المجتمع على الإنسان، "وفيه فضل التحول من الأرض التى يصيب الإنسان فيها المعصية، لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك، إما لتذكره لأفعاله قبل ذلك والفتنة بها، وإما لوجود من كان يعينه على ذلك، ويحضه عليه، ولهذا قال له الأخير، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، ففيه اشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية، والتحول منها كلها"(١).

إن المجتمع وما يضمه من أفراد، ومؤسسات مختلفة، وسيلة للتعليم وتربية الإنسان، ووسيلة لوقايته من الأخطار التي يقع فيها، فتهوى به إلى الهاوية، فقد بين الله – ﷻ – في أمر الثلاثة(٢) الذين تخلفوا عن غزوة تبوك(٣)، فقال: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٤)، فلما رجع النبي – ﷺ – من الغزوة، أمر بمقاطعة هؤلاء الثلاثة، وكان هذا أسلوباً تربوياً للتعليم من خلال المجتمع، وامتثل الصحابة لذلك الأمر وهدف النبي – ﷺ – من الأمر بمقاطعتهم من قبل المجتمع، هو الندم على الخطأ الذى وقعوا فيه، والاستجابة لما أمر الله – ﷻ – ورسوله – ﷺ –، والعودة بهم إلى الطريق الصحيح.

"إن المجتمع المسلم، هو الذى يقوم بدوره في مساعدة الآباء على تربية أبنائهم على أخلاق الإسلام وتقاليده، بحيث إنهم إن خرجوا إليه، وجدوا فيه ما تعلموه من الوالدين، فلا يسمع كلمة نابية، أو لفظاً جارحاً، ولا يرى مظهراً للغش أو الخداع، وهو يبتاع ويتعامل في الخارج"(٥) ومن هنا يتضح أن

---

(١) **فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن على بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر دار المعرفة، بيروت سنة ١٣٧٩هـ، ج٦، صـ٥١٧.**

(٢) **وهم "كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع"، هؤلاء الثلاثة لم يتخلفوا لكفر ولا نفاق ولكن كسلاً مع استطاعتهم واعتذروا للنبي – ﷺ – وحلفوا له فقبل منهم، فأمر النبي – ﷺ – بمقاطعتهم وظلت هذه المقاطعة خمسين ليلة حتى تنكرت الأرض، فقضى الله فيهم.**

(٣) **"تبوك موضع بين وادي القرى والشام وقال ابن حجر كانت غزوة تبوك في شهر رجب منه سنة تسع قيل حجة الوداع بلا خلاف سميت بغزوة جيش العسرة لما كان عليه الصحابة من العسر الشديد في المال والزاد والركائب حتى مصوا النوى وشربوا عليه الماء، والمشهور والراجح أن جيش تبوك كان ثلاثين ألفاً ولكن الرسول – ﷺ – لم يلق حرباً من الأعداء فرجع إلى المدينة منتصراً بعد أن أقام بتبوك عشرين ليلة"، الموسوعة التاريخية، إعداد مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، ١٤٢٣هـ، ٩٧/١.**

(٤) **سورة التوبة الآيات "١١٧-١١٨"**

(٥) **بيئات التربية الإسلامية، عباس محجوب، مرجع سابق، صـ١١٧.**

المجتمع الصالح يقوم برسالة تربوية مهمة، وقد تكون هذه الوسيلة من أنجح وأبلغ الوسائل التربوية والتعليمية، إذا كان هذا المجتمع قائماً على التقوى ومراقبة الله – تعالى – في كل صغيرة وكبيرة، والنبي – ﷺ – قد استخدم هذه الوسيلة الدعوية، عن طريق المجتمع في تأديب رجل اشتكى منه أحد الجيران، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال رجل يا رسول الله إن لي جاراً يؤذيني، فقال النبي – ﷺ –: "انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق فانطلق الناس عليه فقالوا: ما شأنك؟ قال: لي جار يؤذيني، فذكرت ذلك للنبي – ﷺ – فقال: انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق، فجعلوا يقولون: "اللهم العنه، اللهم اخزه، فبلغه، فأتاه، فقال ارجع إلى منزلك فوالله لا أؤذيك"(١).

وهذا الحديث يدل على أن عدم رضا المجتمع الاسلامي على أفعال الجار المؤذية، كانت إحدى الوسائل التعليمية، والتربية في الامتناع عن الأذى، ووقاية الجيران منه ومن شره، ولقد حققت هذه الوسيلة ما أراد النبي – ﷺ – تعليمه وتربية أصحابه عليه، حيث امتنع هذا الرجل عن الأذية، فكان في ذلك وقاية للجيران من الأذى، ووقاية للإنسان عامة من ايذاء أحد من الجيران.

فالمجتمع عامل تربوي وتعليمي هام، ولكنه يحتاج إلى تضافر المؤسسات التعليمية جميعها حتى يتحقق الهدف المنشود من التربية الصالحة.

الوسيلة الثانية: العادة

أ- مفهومها لغة واصطلاحاً

(١) **لغة:**- "العادة: الديدن، والدُرَبَة، والتمادي في شئ حتى يصير سجية له"(٢).

"(العادة): كل ما اعتبر حتى صار يفعل من غير جهد، والحالة يتكرر على نهج واحدة، كعادة الحيض في المرأة"(٣)، "وسميت بذلك، لأن صاحبها يعاودها، أي: يرجع إليها مرة بعد أخرى"(٤).

إذاً فالمعنى اللغوي للعادة يدور حول التدريب والتكرار لشئ ما، حتى يُعوِّد نفسه عليه، ويصير سجية فيه.

---

(١) رواه البخارى في الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، المتوفي سنة ٢٥٦هـ، تحقيق سمير أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع بالرياض، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، باب شكاية الجار، ٦٧/١، رقم ١٢٤.

(٢) المخصص، أبو الحسن على ابن اسماعيل بن سيده المرسى المتوفى سنة ٤٥٨هـ، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧، ١٩٩٦م ج٣ صـ٣٢٦.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، القاهرة، ج٢، صـ٦٣٥.

(٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن على الفيومي الحموي أبو العباس، المتوفى سنة ٧٧٠هـ، المكتبة العلمية، بيروت، بدون ط، ت، ج٢، صـ٤٣٦.

(٢) اصطلاحاً

أما المعنى الاصطلاحي لمصطلح العادة لا يختلف كثيراً عن المعنى اللغوي، وهو التكرار فالعادة هي: "ما استمر الناس عليه على حكم المعقول، وعادوا إليه مرة بعد أخرى"[١]، وقد جاء في تعريفها أيضاً: "والعادة: اسم لتكرار الفعل، والانفعال، حتى يصير تعاطى ذلك سهلاً، كما لو أنه من داخل الطبع"[٢].

من خلال ذلك يتضح: أن العادة هي كل ما واظب الإنسان على فعله، وكرره في حياته، حتى أصبح هذا الشئ عادة ذاتية، ملازمة لصاحبها لا تنفك عنه دون الحاجة إلى التوجيه والإرشاد، وإنما أصبحت ملازمة له بالتكرار، والمعاودة مرة بعد أخرى.

ب- الفائدة التربوية لوسيلة العادة

إن التربية بالعادة، من أهم وسائل التربية الوقائية، التي اهتم الإسلام بها وحرص عليها، حيث كلف الآباء والأمهات بتمرين الأبناء على الطاعة والعبادة قبل بلوغ سن التكليف، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي - ﷺ - قال: "علموا أولادكم الصلاة، إذا بلغوا سبعاً، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً"[٣]، لأنهم إذا تركوا بدون تدريب ومران حتى إذا وصلوا إلى سن التكليف، فإنهم سيترددون في فعل الواجبات والطاعات، بل ربما فاتتهم بعض العبادات في أول الأمر، حتى يتقنوا أداءها بعد المران مدة كافية من الزمن، "فالصبى أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعُلِّمه، نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه، وكل معلم له ومؤدب، وإن عُوِّد الشر، وأهمل إهمال البهائم شقى، وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه، والوالي عليه، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فلأن يصونه عن نار الأخرة أولى، وصيانته: بأن يؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء"[٤]، فتعويد الأولاد على العبادة في الصغر، وقاية لهم من استثقالها أو تركها في الكبر، لأن التكرار الذى يداوم عليه الطفل في صغره، كفيل بغرس العبادة في نفسه، حتى تصير جزءاً

---

(١) التعريفات، الجرجاني، مرجع سابق، صـ١٤٦.

(٢) معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، سنة ١٤١١هـ، ١٩٩١م، بدون ط، ج١، صـ٥١٩.

(٣) سبق تخريجه، صـ٤٣.

(٤) احياء علوم الدين، الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، المتوفى سنة ٥٠٥هـ، دار المعرفة، بيروت، ج ٣، صـ٧٢.

من حياته، فيمارسها بلا عناء ولا مشقة، والنبي - ﷺ - كان حريصاً على استخدام هذه الوسيلة منذ الصغر حتى ينشأ الإنسان عليها، لتلازمه في كبره، فتعليم الصبى الصلاة، لا لوجوبها عليه، ولكن ليتعود عليها، حتى إذا بلغ سن المسؤولية، والحساب كانت الصلاة سهلة عليه، فالعادة: "تؤدى مهمة خطيرة في حياة البشرية، فهي توفر قسطاً كبيراً من الجهد البشرى، بتحويله إلى عادة سهلة وميسورة، لينطلق هذا الجهد في ميادين جديدة من العمل والإنتاج والإبداع، ولولا هذه الموهبة التي أودعها الله في فطرة البشر، لقضوا حياتهم كما قلنا يتعلمون المشي، أو الكلام أو الحساب"(١).

فالأولاد يحتاجون إلى لزوم العادة الطيبة في التربية، حتى يتشربوا المبادئ الإسلامية منذ نعومة أظفارهم، وهذا يوجب على المربى أن يكون بعيداً عن الشوائب والنقائص، التي تؤدى بهم إلى الانحراف والتطرف، فإذا عود الوالدان أبناءهما منذ الصغر على الأخلاق الحسنة والأفعال الحميدة، شب هؤلاء الأولاد على ذلك، حتى صارت جزءً من حياتهم اليومية، فالولد حينما يرى والده يتصدق مثلاً، أو يصلى، فإنه سيحاكيه في أفعاله، قبل أن يدرك حقيقة الصلاة أو الصدقة، فإذا ما شب وأدرك حقيقتها أصبحت جزءً من سلوكه، فيؤديها بإيمان عميق، لأن تعويد الطفل على الخير منذ صغره، يكسبه محبة له، فيصير عنده عادة لقول سيدنا عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -: "حافظوا على أبناءكم في الصلاة، عودهم الخير، فإن الخير عادة"(٢)، فالتدريب على الطاعة حتى يدمنها الإنسان أمر مطلوب، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان اقرأوا إن شئتم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر"(٣)، وهو لم يعتد المساجد في كبره، إلا لأنه نشأ على هذا الأمر في صغره، حتى صارت ملازمة له، وهذا لا يعنى أن تكون العبادة والطاعة بلا روح، ولا يستشعر قيمتها ومذاقها لكثرة اعتياده عليها، ولكنه التعود الذى يجعل الاستغناء عن هذه العبادة أمراً شاقاً وصعباً، فلم يستطع له مفارقة، ولا عنه نزوعاً فتتحول العادة إلى عمل بناء، وخلق فاضل كما يريده الله - عز وجل - ورسوله - ﷺ -، من أجل ذلك فإن "الإسلام يستخدم العادة وسيلة من وسائل

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب إبراهيم، ط١٦، دار الشروق، بدون ت، ج١، صـ٢٠٠.

(٢) مجمع الزوائد ومنع الفوائد، أبو الحسن نور الدين على بن أبى بكر سليمان الهيثمي، المتوفى سنة ٨٠٧هـ، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدس، القاهرة، ١٤١١هـ، ١٩٩٤م، ج١، صـ٢٩٥.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ٢٣٦/٩، رقم ٩١٥٥، والهيثمي في مجمع الزوائد، باب في ترك الصلاة، ٢٩٥/١ رقم ١٦٣١.

التربية، فيحول الخير كله إلى عادة، تقوم بها النفس بغير جهد وبغير كد وبغير مقاومة، وفى الوقت ذاته يحول دون الآلية الجامدة في الأداء، بالتذكير الدائم بالهدف المقصود من العادة، والربط الحى بين القلب البشرى وبين الله رابطاً تسرى فيه الإشعاعة المنيرة إلى القلب، فلا ترين عليه الظلمات"(١).

إن الغاية من العادة: ترسيخ أصول الإيمان في نفوس الأبناء، حتى تكون سهلة لديهم، فالمربى الناجح هو: الذى يسعى إلى تعليم الأولاد العبادة منذ الصغر، ليقيهم من تركها، أو استثقالها في الكبر، فينبغي أن يُعَلَّم الطفل، ويُرَوَّض على حب الفضائل، ويُدَرَّب عليها، ليُحفظ من المحرمات وإن كان غير مكلفٍ وصدق القائل:

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوده أبوه(٢)

الوسيلة الثالثة: الدعوة بوسيلة الوقائع والأحداث

أ- مفهوم الأحداث لغة واصطلاحاً

(١) **لغة:-** الأحداث: جمع مفردها (حدث)، "الحاء والدال والثاء أصل واحد، وهو كون الشئ لم يكن، يقال حدث أمر بعد أن لم يكن"(٣)، "وحدث أمر أي: وقع"(٤)، و"الحديث: نقيض القديم، "والحادث: ما يجد ويحدث، وضد القديم (ج) حوادث"(٥)، والحدوث: نقيض القُدمة"(٦)، فمن معانى الحدث في اللغة: وقوع الشئ ووجوده بعد أن لم يكن، ونقيض القديم"

(٢) **اصطلاحاً**

يعرف الحادث بأنه: "استثمار الفرصة المناسبة، لموقف معين، أو حدث طارئ، أو مشهد، في توجيه موعظة مؤثرة"(٧)، وعرف كذلك بأنه "استغلال حدث معين، لإعطاء توجيه معين"(٨).

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب إبراهيم، مرجع سابق، ج١، صـ٢٠٠.

(٢) من أبيات أبى العلاء المعرى في "ديوانه" "١٤٥٨".

(٣) مقاييس اللغة، القزويني، مرجع سابق، ج٢، صـ٣٦.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٢، صـ١٣١.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مرجع سابق، ج١، صـ١٦٠.

(٦) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٢، صـ١٣١.

(٧) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، زياد العاني، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، صـ٣٨٤.

(٨) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، مرجع سابق، ج٢، صـ٣٨٧.

من خلال هذه المعاني يتبين أن معنى التربية بالأحداث هي استغلال موقف، أو حدث معين، شديد الوقع على النفس، وتوظيفه لتوجيه السلوك، أو لتوصيل فكرة تحتاج إلى توضيح.

ب- الفائدة الدعوية لوسيلة الوقائع والأحداث

إن دراسة القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، دراسة استنباطية، للعمل بما يحتويانه من مبادئ وقيم ومضامين، يستفيد بها المربون للوقوف على كثير من الدروس التربوية، ليتعلموا كيف تكون التربية الصحيحة، فلن تجد الأمة الإسلامية سبيلاً إلى استعادة أمجادها الضائعة، وتحقيق وحدتها المنشودة، إلا إذا استلهم أبناؤها ماضيهم الاسلامي المشرق، فالتربية المستقاة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، لهى أعظم تربية للإنسان المسلم، لأن القرآن الكريم، والسنة المطهرة فهما منهج شامل يمكن الرجوع إليه للاقتباس منه في العملية التربوية قدر الإمكان، "وقد لا نملك – ونحن نطبق منهج التربية الإسلامية – أن نعيد شرط الأحداث، كما حدث أول مرة، لنتبع توجيهات القرآن في التربية بالأحداث، واحداً إثر واحد، بحسب ترتيب النزول – ليس بطبيعة الحال هو المقصود – إنما المقصود هو: حكمة التربية بالأحداث، المقصود هو: (الطرق والحديد ساخن) حتى لا تفلت الحادثة بلا عبرة مستفادة، ولا أثر ينطبع في النفس ويبقى"[١]، ولقد انبهر كثير من الناس اليوم بنظريات، ووسائل تربوية صاغها معاصرون غربيون، وقد غفلوا عن كون هذه النظريات، والوسائل التربوية موجودة في القرآن الكريم، والسنة الشريفة، فالتربية بالحادث ليست وليدة اليوم، أو العصر الحديث، بل عرفت منذ تاريخ الإسلام وبزوغ فجره، فكانت ركيزة أساسية من ركائز التربية الإسلامية، فكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية توجه الناس وتربيهم من خلال الحادث والمواقف التي تدور بين الناس في هذا الكون، لأن ارتباط المدعو بما يدور حوله من أحداث ومستجدات، أمر ضروري، لأنه فرد منه يؤثر فيه ويتأثر به وبما يجرى حوله، ويظل هذا الأثر منقوشاً في الذاكرة، فكلما مر بخاطره هذا الحدث فيعود إلى نفسه ويقوم خطأه، متعظاً بما رأى، أو تذكر من أحداث، "والداعية البارع لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة وبغير توجيه، وإنما يستغلها لإصلاح النفوس وصقلها وتهذيبها، فلا يكون أثرها موقوتاً، لا يلبث أن يضيع"[٢]، لأنها تكتسب المبادئ والقيم الجديدة التي وقعت تحت حاستي السمع والبصر، فيشترك في الدعوة بالتوجيه، معايشة الحدث، فيسمع المدعو بالأذن ويشاهد بالعين، فيشترك في ذلك عدة حواس،

---

(١) المرجع سابق، ج١، صـــ٢١٥.

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، مرجع سابق، ج١، صـــ٢١٥.

وهذه هي درجة اليقين، التي هي أعلى مراتب الإصلاح، فمثلاً ما حدث في معركة أحد[١] حينما عايش الصحابة هذه الأحداث المؤلمة التي أصابتهم بسبب مخالفة الرماة، أمر رسول الله – ﷺ –، فقد خرجوا من المعركة وهم في حالة محطمة، فنزلت الآيات الكريمة لتمسح جراحاتهم، بتلك التوجيهات الربانية التي لامست شغاف قلوبهم، واعطتهم درساً للمستقبل، ظل هذا الدرس عالقاً بالأذهان أمداً طويلاً، فكان درساً للأمة من بعدهم إلى يوم الدين، قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾[٢].

إنها فرصة الداعية والمصلح الناجح، الذى يستغل الحدث، وقد تهيأت بسببه القلوب لاستقبال التوجيه الذى ينفذ إلى القلب مباشرة، ليعلمهم حدثاً هم في أمس الحاجة إليه، ليقيهم من الأخطار التي تحدق بهم إذا لم يوجهوا الوجهة الصحيحة، وهذا هو ما فعله النبي – ﷺ – في هذا الحدث حينما جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال: أصحاب رسول الله – ﷺ – مه مه، قال: رسول الله – ﷺ – "لا تزرموه دعوه، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله – ﷺ – دعاه فقال له: "إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله، والصلاة وقراءة القرآن"، قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه – صبه – عليه"[٣]، فالأحداث والوقائع قد تكون بمثابة الوازع والرادع للنفس عندما تهم بالإقدام على ما لا ينبغي فعله، فالإنسان إذا ابتدأ شيئاً من أمور حياته وكان عنده تصور مسبق به فإنه يكون أقدر على تلاشى الوقوع في الأخطاء.

إن الأحداث والوقائع كانت تقع أمام النبي – ﷺ –، فيسخرها في مجال دعوتهم وإصلاحهم أحسن تسخير، فيكون له تعليق، أو إقرار، أو استنكار، ليربي في نفوسهم ما أراده، حتى صاروا أعزاء بدين الله – ﷻ –، فكانوا خير أمة أخرجت للناس كما شهد لهم خالقهم، قَالَ تَعَالَى:﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ

---

(١) "هي واقعة امتحن الله فيها عباده المؤمنين واختبرهم، وذلك أن قريشاً حين قتل الله سراتهم ببدر شرع أبو سفيان يجمع قريشاً ويؤلب على رسول الله والمسلمين، فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا ثم أقبل بهم نحو المدينة فنزل قريباً من جبل أحد، بمكان يقال له حنين وذلك في شوال منه السنة الثالثة، واستشهد يومئذ من المسلمين نحو السبعين، وقتل يومئذ من المشركين اثنان وعشرون، وقد جاء ذكرها في سورة آل عمران"، الفصول في السيرة، ابن كثير، مؤسسة علوم القرآن، ط٣، ١٤٠٣هـ، صـ١٤٤.

(٢) سورة آل عمران الآية "١٥٥".

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب طيب الكلام، ١٢/٨، رقم ٦٠٢٥، ورواه مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوه غسل البول وغيره من النجاسات، ٢٣٦/١، رقم ٢٨٥.

ﷺ[١]، بعد أن كانوا غارقين في ظلمات الجهل والشرك والوثنية كما صور ذلك سيدنا جعفر بن أبي طالب[٢] – رضي الله عنه – بقوله: "كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف"[٣]، فأخذوا العبرة والعظة من الأحداث الواقعة، والاقتداء بالجيد منها، واستبعاد السئ منها، "ومزية الدعوة بوسيلة الأحداث والوقائع على غيرها من الوسائل، أنها تحدث في النفس حالة خاصة هي أقرب للانصهار، إن الحادثة تثير النفس بكاملها، وترسل فيها قدراً من حرارة التفاعل والانفعال يكفى لصهرها أحياناً، أو الوصول بها إلى قرب الانصهار وتلك حالة لا تحدث كل يوم في النفس، وليس من اليسير الوصول إليها"[٤]، حتى تركت الأحداث والوقائع بصماتها في الصحابة – رضوان الله عليهم –، حيث كان الواحد منهم يستحضر موقف الرسول – ﷺ – في الواقعة، فيفعل مثلما فعل رسول الله – ﷺ – فيؤدى السنة بالألفاظ والحركات والسكنات والإشارات، كما رآها من رسول الله – ﷺ – فالدعوة بالأحداث والوقائع إحدى الوسائل المجدية والفعالة في التربية الوقائية، وأثرها ليس سريع الزوال أو موقوتاً.

ثالثاً: أساليب التربية الوقائية

التربية الوقائية لها عدة أساليب لتحقيق المراد منها، **وأهمها ما يلي:-**

الأسلوب الأول: أسلوب الحوار

أ- مفهوم الحوار لغة واصطلاحاً:-

(١) في اللغة:

"يقال: حاورت فلاناً محاورة، حواراً، وحويراً: إذا كلمك فأجبته"[٥]، "والمحاورة: المجاوبة، و(مراجعة النطق)، والكلام في المخاطبة، وقد حاوره، وتحاورا: تراجعوا الكلام بينهم، وهم يتراوحون

---

(١) سورة آل عمران من الآية "١١٠".

(٢) "هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي أبو عبد الله ابن عم النبي – ﷺ –، أخو علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –، وأحد السابقين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، استشهد بمؤتة في أرض الشام مقبلاً غير مدبر، مجاهد للروم في حياة النبي – ﷺ – سنة ثمان في جمادي الأولى وكان أسن من علي بعشر سنين، فاستوفى أربعين سنة وزاد عليها، وهو جعفر الطيار ذو الجناحين وكان أشبه الناس برسول الله خَلقاً وخُلقاً"، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، ج١، صـ٢٤٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، عبدالملك بن هشام بن أيوب الجميرى المعافرى أبو محمد جمال الدين، المتوفى سنة ٢١٣هـ، تحقيق مصطفى السقا إبراهيم الإبيارى، عبدالحفيظ السنى، شركة مكة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م، ج١، صـ٣٣٦.

(٤) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، مرجع سابق، ج١، صـ٢٠٧ وما بعدها.

(٥) جمهرة اللغة، الأزدي، مرجع سابق، ج١، صـ٥٥٢.

ويتحاورون"[١]، "والحَور: الرجوع عن الشئ، وإلى الشئ"[٢]، و(الحوار): "حديث يجرى بين شخصين أو أكثر، في العمل القصصي، أو بين ممثلين أو أكثر، على المسرح"[٣].

إذاً فمعانى الحوار في اللغة تفيد المراجعة، والمجاوبة في الكلام، الذى يجرى بين طرفين، أو أكثر لغرض ما.

(٢) في الاصطلاح:

إن معنى الحوار في الاصطلاح، لا يختلف عن المعنى اللغوي، فقد جاء في تعريفه: "تلك الطريقة التي تقوم على أساس الحوار، والنقاش بالأسئلة والأجوبة، للوصول إلى حقيقة من الحقائق، لا تتحمل الشك ولا النقد ولا الجدل"[٤][٥].

أو هو "نوع من الحديث بين شخصين، يتم فيه تداول الكلام بينهما، بطريقة ما، يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه، الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب"[٦].

([١]) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدى، المتوفى سنة ١٢٠٥هـ، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون ط، ت، ج١١، صـ١٠٨.

([٢]) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٤، صـ٢١٧.

([٣]) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ج١، صـ٢٠٥.

([٤]) "الجدل وهو شدة الفتل، وجدلت الحبل أجدله جدلاً، إذا شددت فتلة وفتلته فتلاً محكماً"، لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١١، صـ١٠٣، "والجدل اللدد في الخصومة والقدرة عليها"، المرجع السابق، ج١١، صـ١٠٥، إذاً فأصل مادة الجدل في اللغة تدور على الشدة والقوة، ويقصد بالجدل شدة الخصومة واللدد فيها مع القدرة عليها، وأما الجدل في الاصطلاح: "دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة"، التعريفات، الجرجاني، صـ٧٤، فالأصل في الجدال الخصومة والشدة، إما لعدم جدواه أو لفقده شرطاً أساسياً كطلب الحق، أو يكون بغير علم وفي هذه الحالة يكون مذموماً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ سورة الكهف الآية "٥٦"، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ سورة الحج الآية "٨"، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ سورة العنكبوت من الآية "٤٦"، فالجدل لم يؤمر به ولم يمدح على الإطلاق وإنما الممدوح منه ما قيد بالحسنى أو بالحق، ومن ذلك يتبين الفرق بين الجدل والحوار فهما يلتقيان في كونهما مراجعة للكلام بين طرفين وقد وردت نصوص أخرى أطلقت فيها المجادلة على المحاورة ونحوها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ سورة المجادلة الآية "١"، فأطلق الجدل والحوار على شيء واحد وهو مراجعة الكلام بين النبي – ﷺ – وخولة بنت ثعلبه – رضي الله عنها – ويفترقان في أن الجدل فيه لدد في الخصومة، وشدة في الكلام مع التمسك بالرأي والتعصب له أما الحوار فهو مراجعة الكلام بين الطرفين دون وجود خصومة بالضرورة بل الأغلب عليه البعد عن التعصب فالحوار أعم من الجدل من هذا الوجه.

([٥]) فلسفة التربية الإسلامية، عمر الشيباني، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ط٥، سنة ١٩٨٥م، صـ١٧.

([٦]) فنون الحوار والإقناع، محمد راشد دياس، دار ابن حزم، جده، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، صـ١١.

فمن خلال التعاريف اللغوية والاصطلاحية للحوار، يتضح أن الحوار لابد وأن تتوافر فيه بعض الأركان والشروط حتى يسمى حواراً، لكى يحقق الهدف المرجو منه، كالأطراف المتحاورة، فلابد أن يكون بين طرفين أو أكثر، وكالموضوع الذى يدور حوله الحوار، كالهدف والغاية التي يراد الوصول إليها من خلال الحوار والمناقشة، فالحوار فيه مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين والأخذ والرد فيه، بطريقة متساوية دون استئثار من أحد دون الآخر، وهو بعيد عن الخصومة.

ب- الفائدة التربوية لأسلوب الحوار

لقد اهتم القرآن الكريم اهتماماً بالغاً بأسلوب الحوار، وآياته مليئة بهذا الأسلوب، حتى لا تكاد تخلو منه سورة في القرآن الكريم، بألوان متعددة وقضايا متنوعة، وكذلك استعمله الأنبياء والرسل - عليهم السلام - مع أقوامهم، وهذا يدل على أن الحوار أسلوب دعوي مهم في وقاية المدعوين في التمادي في الباطل، فها هو سيدنا نوح - عليه السلام - لما دعا ابنه إلى عبادة الله - عز وجل - وحده قال له كما ذكر القرآن الكريم: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١) ولهذا يجب أن تكون وصية سيدنا نوح - عليه السلام - لابنه في هذا الحوار والتي تقيه من الشرك، نبراساً يستضئ به الدعاة في دعوة الناس وطريقاً يقيهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد والعبادة، إلا أن الابن أبى واستكبر وأصر على كفره وعناده، حينئذ دعا سيدنا نوح - عليه السلام - ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾(٢)، وحينما دعا سيدنا نوح - عليه السلام - ربه - عز وجل - بهذا الدعاء فأجابه المولى - عز وجل - بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾(٣)، وهذا حكم الله - عز وجل - جاء صريحاً وواضحاً ليبين له أن العبرة في النجاة تكون بالصالح من الأعمال، وليست بالقرابة والنسب أو العلاقة الرحيمة التي تربطه بالمدعو (وهو الابن هنا)، وفى ذلك تربية وتعليم له وللإنسانية بأن النجاة تكون بالأعمال الصالحة، ليحفظوا أنفسهم من مخاطر المعاصي والكفر، وليكونوا على درجة عالية من التقوى، والتي تكون سبباً في قبول الأعمال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾(٤)، الذين جعلوا أنفسهم في حصن حصين من الشيطان، ومكائده "لأن التقوى

---

(١) سورة هود من الآية "٤٢"

(٢) سورة هود من الآية "٤٥".

(٣) سورة هود من الآية "٤٦".

(٤) سورة "المائدة" من الآية "٢٧".

هي: الحصن الذى يحتمى فيه المؤمن، من أن يطوف الشيطان به، وكلما كان هذا الحصن متين الأركان، متماسك البنيان كلما ضاقت منافذ الشيطان، وسُدت دون كيده الأبواب"(١).

فالتقوى وسيلة للتزكية والتطهير، ووقاية للإنسان من المخاطر التي تنشأ عن مخالفة منهج الله – ﷻ – فإذا ضعفت وقع الإنسان في المحارم، وتعدى حدود الله – ﷻ –، وهذا ما جعل أحد ابنى آدم – عليه السلام – يقدم على قتل أخيه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(٢) والله – ﷻ – أمر نبيه – ﷺ – أن يتلو نبأ ابني آدم على أمته، هذا النبأ المتمثل في الحوار الذى دار بينهما، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(٣).

فهذا الحوار يجسد لنا صورة حية لشخصية الانسان الشرير، الذى لا يخاف الله – ﷻ –، وذلك بأسلوب يوحى للمستمع أو القارئ، فظاعة هذا الجرم الخالي من كل المبررات، فيترك أثراً في نفسية القارئ أو المستمع عن بشاعة هذا الجرم، ليصون نفسه عن الوقوع في مثله، وذلك في مقابل شخصية الإنسان الصالح الخائف من الله – ﷻ –، حتى نقتدى به وبأعماله الصالحة، فنقى أنفسنا من الخسران الذى وقع فيه الإنسان الطالح، قَالَ تَعَالَى:﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(٤).

فالحوار يؤدي دوراً أساسياً في التربية الوقائية، وله فوائده الكثيرة، حيث يساعد على النشأة السوية الصالحة البعيدة عن التطرف، لأنه يعمل على إزالة الشك من النفوس، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، فحينما نزل قول الله – تعالى –: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(٥)، شقَّ ذلك على صحابة رسول الله – ﷺ – وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله – ﷺ –: ليس كما

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، المتوفى بعد سنة ١٣٩٠هـ، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون ط، ت، ج٥، صـ٥٥٠.

(٢) سورة المائدة الآية "٣٠".

(٣) سورة المائدة الآيات من "٢٧ إلى ٣٠".

(٤) سورة المائدة من الآية "٣٠".

(٥) سورة الأنعام من الآية "٨٢".

تظنون، إنما هو ما قال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾(١)(٢) فالصحابة – ﷺ – ظنوا أنه الظلم المتبادر إلى الفهم، وحملوا الظلم على عمومه، وهو وضع الشئ في غير موضعه، وهو مخالفة شرع الله – ﷻ –، فشق عليهم ذلك، "وإنما شق عليهم، لأن ظاهر الظلم الافتيات بحقوق الناس، وما ظلموا به أنفسهم من ارتكاب المعاصي، فظنوا أن المراد معناه الظاهر وأصل الظلم: وضع الشئ في غير موضعه، ومن جعل العبادة لغير الله – تعالى – فهو أظلم الظالمين"(٣)، فعلمهم النبي – ﷺ – المراد بالظلم، وبين لهم الفهم الصحيح، مستدلاً بأية من كتاب الله – ﷻ – فقطع الشك وصحح الفهم، حتى فهم الصحابة – ﷺ – المراد، وزال عنهم الفهم المغلوط، وفى ذلك وقاية لهم من التمادي في هذا الفهم الخاطئ، وذلك بإقامة الحجة والمعرفة الحقيقية حتى يتوصل إليها.

فعلى الداعية الحصيف أن يتعلم من رسول الله – ﷺ – في استخدامه لأسلوب الحوار بكثرة في دعوة الآخرين، وأن يبين لهم ما يريد، فيكون ذلك ادعى لاستيعابهم له، والرسوخ في أذهانهم، فبين لهم الحق من أجل الوصول إليه، ويكتشف لهم ما يلتبس عليهم، ليقيهم من الزيغ والتمادي في الباطل.

الأسلوب الثاني: أسلوب القدوة

أ- مفهوم القدوة لغة واصطلاحاً:-

(١) اللغة

القدوة مأخوذة من مادة "قَدَوَ: القاف والدال والحرف المعتل، أصل صحيح: يدل على اقتباس بالشئ، واهتداء"(٤).

و"(القدوة): المثال الذى يتشبه به غيره فيعمل مثلما يعمل"(٥)، "و(القدوة): الأسوة، يقال فلان قدوة (يقتدي) به"(٦).

من خلال هذه التعريفات اللغوية يتضح: أن المعاني اللغوية للاقتداء أو القدوة تدور حول التأسي، والمتابعة، والتسنن، بمثال جيد يحتذى به، حتى يبرز في جميع الصفات.

---

(١) سورة لقمان من الآية "١٣".

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله – تعالى – "واتخذ الله إبراهيم خليلاً"، ١٤١/٤، رقم ٣٣٦٠، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان واخلاصه، ١١٤/١، رقم ١٢٤ "متفق عليه".

(٣) شرح النووي على مسلم المسمى (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، أبو زكريا محى بن شرف النووي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ، ج٢، صـ١٤٣.

(٤) معجم مقاييس اللغة، الرازي، مرجع سابق، ج٥، صـ٦٦.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، بالقاهرة، ج٢، صـ٧٢١.

(٦) مختار الصحاح، الرازي، مرجع سابق، صـ٢٤٩.

(٢) اصطلاحاً:

تعددت مفاهيم العلماء في تعريف القدوة، حيث جاء التعريف كما يلي:-

أولاً: الاقتداء هو: "اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة"(١).

ثانياً: "القدوة بالكسر والضم: الاقتداء بالغير، ومتابعته، والتأسي به"(٢).

ثالثاً: "الاقتداء: طلب موافقة الغير في فعله"(٣).

بعد النظر في التعريفات اللغوية والاصطلاحية للقدوة، يتبين أنه لا ثمة تباين أو اختلاف بين العلماء في تعريفها من حيث المعنى، بل كادت الألفاظ تتقارب في بعض الأحيان، والمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن اللغوي بل يزيد عليها معاني أخرى.

ب- الفائدة الدعوية لأسلوب القدوة

إن القدوة أسلوب هام في حياة البشر عامة، لأن الناس في كل زمان ومكان في أمس الحاجة إلى الاقتداء بنماذج حية تضئ لهم الطريق، وترشدهم إلى ما فيه صلاح أمرهم في الدين والدنيا، فمهما كان الأفراد صالحين فهم في حاجة ملحة إلى الاقتداء، وخاصة إذا بعد الناس عن القيم الإسلامية، وأحكام الإسلام، والله - ﷻ - حذر من مخالفة العمل للقول الذى ينفى كون الإنسان قدوة بين الناس، فقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾(٤)، لأن الداعية قدوة في مجتمعه، فعليه أن تكون أفعاله موافقة لأقواله، وأن ينتهى عما ينهى عنه غيره، كما فعل سيدنا شعيب - عليه السلام - فقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ ﴾(٥)، وهذا ما جعل النبي - ﷺ - يبين خطورة الكذب على الأطفال حتى ولو كان مزاحاً، حتى لا يقتدون بمن يفعل ذلك، فيصبح كذاباً، فعن عبدالله بن عامر(٦) - رضي الله عنه - قال:

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عقبة الأندلسي المحاربي، سنة ٥٤٢، تحقيق عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢، ج٢، صـ٣١٨.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، مرجع سابق، صـ٢٩٦.

(٣) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٢، صـ١٥٧.

(٤) سورة الصف الآية "٢، ٣".

(٥) سورة هود من الآية "٨٨".

(٦) هو عبد الله بن عامر بن ربيعة بن مالك بن عامر العنزي حليف الخطاب، يكنى أبا محمد وعنزة حيٌ من اليمن، ولد على عهد رسول الله ﷺ، قيل ولد سنة ست، وتوفى رسول الله وهو ابن أربع سنين وقيل ابن خمس وأمه ليلى بنت أبى جثمة بن عبدالله بن عويج، (أُسد الغابة)، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٣، صـ٢٨٧. وينظر أيضاً سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، ج٣، صـ٥٢١.

دعتني أمي يوماً، ورسول الله - ﷺ - قاعد في بيتنا، فقالت: ها أعطيك فقال لها رسول الله - ﷺ - "وما أردت أن تعطيه"؟ قالت تمراً، "قال لها رسول الله - ﷺ -: أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة"[١]، وفى هذا الحديث لفتة تربوية وقائية هامة، خاصة بقدوة الداعية أباً كان أم أماً للأبناء، لأن الناشئ الذى ينشأ على يد أم، أو أب كاذب، فإنه بالطبع سيصبح كاذباً، وقد جرت العادة عند بعض الناس باستهانة الكذب على الأطفال الصغار، وهم يحسبون أنهم غير مؤاخذين، وهذا أمرٌ له خطورته.

إن القدوة أسلوب دعوي مهم قديم قدم الزمان، تمتد جذوره مع جذور الإنسان نفسه، فبه تعلم ابن آدم - عليه السلام - عندما أرسل الله - عز وجل - له غراباً يعلمه كيف يوارى سوأة أخيه بعد ما قتله، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٢]، فأول قدوة جُسدَت للإنسان، كانت في الغراب الذى بعثه الله - عز وجل - في الأرض، يبحث فيها ليواري أخاه في التراب، فيراه أخوه فيقتدى به ويفعل مثله، فالقدوة أسلوب تربوي عملي، وواقع ملموس، يدعو الناس إلى العمل قبل القول، والإسلام نوه بهذا الأسلوب، ودعا إليه، ومن أجل ذلك فقد أرسل الله - عز وجل - الرسل - عليهم السلام - ليكونوا للناس قدوة، ولم يكتف بإنزال الكتب فقط، لأنه يعلم أن المنهج الدعوي لا يمكن أن يتحول إلى واقع عملي في حياة البشر إلا بالقدوة، ولذلك فقد أمر الله رسوله - ﷺ - بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل - عليهم السلام - فقال بعد أن ذكر ثمانية عشر نبياً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[٣]، ولما كان الرسل - عليهم السلام - يقدمون المثل الأعلى في الأسوة الحسنة، فقد أمر الله المؤمنين بالاقتداء بهم، والسير على منهجهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[٤]، خطاب للنبي - ﷺ -، "وأمرٌ القدوة أمر لاتباعه"[٥]، وعندما يكون الهدف وقاية

(١) سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن اسحاق الأزدي، المتوفى سنة ٢٧٥هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الناشر دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، كتاب الأدب، باب في الكذب، ٣٤١/٧، رقم ٤٩٩١، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث حسن لغيره"، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، ٤٦٣/٦، رقم ٤٤٨٢.

(٢) سورة المائدة الآية "٣١".

(٣) سورة الأنعام من الآية "٩٠".

(٤) سورة الأنعام من الآية "٩٠".

(٥) تفسير الشنقيطي المسمى "العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير"، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، المتوفى سنة ١٣٩٣هـ، تحقيق خالد بن عثمان، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٦هـ، ج١، صـ٤٨٣.

الإنسان من الانحراف، فإن أهم عنصر في ذلك هو القدوة، خاصة برسول الله – ﷺ – لأنه أسوة للبشرية كلها، فهو الداعية الأول والأعظم، وهو دعوة عملية للإسلام بكل ما يحمله من مبادئ وقيم تدعو إلى الإسلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١)، والرسول – ﷺ – بمثابة الأمن والأمان والحصن الواقي من الأضرار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾(٢)، فالنفس تدعو إلى الشهوات والوقوع في المحرمات التي تؤدى إلى البعد عن الله – ﷻ – أما رسول الله – ﷺ – يدعونا إلى كل خير ليقينا من جهنم، فهو القائل: "مثلى كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها، جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهنَّ ويغلبنه، فيقتحمن فيها، قال: "فذلك مثلى ومثلكم، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها"(٣)، "ومقصود الحديث أنه – ﷺ – شبه تساقط الجاهلين، والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم، في نار الآخرة، وحرصهم على الوقوع في ذلك، مع منعه إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم، بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه، وضعف تمييزه، وكلاهما حريص على هلاك نفسه، ساع في ذلك لجهله"(٤).

فالقدوة عامل كبير في صلاح الأجيال، ووقايتهم من الانحراف والفساد، فالولد الذى يرى والده مثلاً لا يصلى فإنه يصعب عليه اعتيادها، لأن الأب الذى يصبح متكاسلاً، ومضيعاً للصلاة فإن أتباعه وأبناءه يقلدونه، ويتعلمون منه الكسل وضياع الصلاة، "ومن هنا كانت القدوة عاملاً كبيراً في صلاح الولد أو فساده، فإن كان المربى صادقاً أميناً كريماً عفيفاً، نشأ الولد على الصدق والأمانة والخلق والكرم والشجاعة والعفة، وإن كان المربى كاذباً خائناً منحلاً بخيلاً جباناً نذلاً، نشأ الولد على الكذب والخيانة والتحلل والجبن والبخل والنذالة"(٥)، من أجل ذلك جاء الإسلام بتعليمات وتوجيهات وافية للقدوة، وذلك بإصلاح نفسه أولاً، لأن فاقد الشئ لا يعطيه، وأن يكون على درجة عالية من الاستقامة، فكثير من سلوك الأبناء يتلقونه من أفعال الوالدين، فصلاحهما

---

(١) سورة الأحزاب الآية "٢١".

(٢) سورة الأحزاب من الآية "٦".

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ١٠٢/٨، رقم ٦٤٨٣، رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب شفقة – ﷺ – على أمته، ١٧٨٩/٤، رقم ١٨، "واللفظ له".

(٤) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج١٥، صـ٥٠.

(٥) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٧٦.

صلاح للأولاد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا ﴾[١]، فصلاح رب الأسرة ينتقل إلى الأولاد عن طريق الاقتداء لأن الطفل يتشرب القيم الإسلامية من الجو الذى يحيط به، وبذلك تكون الوقاية لنفسه ولأهله من النار، فالقدوة لها دور كبير في الوقاية والإصلاح، وذلك إذا كانت حسنة، إلا أن التربية عن طريق القدوة لا يعنى أن يقوم الإنسان بتقليد كل ما يراه ويسمعه تقليداً أعمى، دون التمييز بين الخير والشر، فهذا تقليد أعمى عابه الإسلام، ونهى عنه القرآن، فقال تعالى في حق من اتبعه: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾[٢]، "وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل"[٣].

فالمسلم عليه أن يزن الأمور بميزان الإسلام قبل الإقدام عليها، وهذا بخلاف الاقتداء على بصيرة من الأمور المحمودة، أو كان الاقتداء برسول الله – ﷺ –، لأنه معصوم وهذا ما جعل سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقتدى برسول الله – ﷺ – في تقبيل الحجر الأسود ثم يقول: "انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي – ﷺ – يقبلك، ما قبلتك"[٤].

فهذا حرص الصحابة – رضوان الله عليهم – على التأسي برسول الله – ﷺ – في كل شئ، حتى ولو لم يعلموا الحكمة من فعل الشئ أو تركه".

إن أسلوب القدوة في التربية الوقائية يكتسب أهميته، من خلال تأثيره العميق في نفس المربَّى، لذا كان من الأهمية بمكان، أن يكون الداعية قدوة حسنة في كل شئ، وهذا لا يعنى أن يكون القدوة خالياً من كل عيب، سالماً من كل نقص، فإن هذا ليس بمستطاع، لمنافاته لطبيعة البشرية من النقص والوقوع في الذنب، فسيدنا إبراهيم – عليه السلام – جعله الله – عز وجل – أسوة للمؤمنين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٥]، فهو الموصوف بأعلى صفات الأسوة، ولكن استثنى الله – عز وجل – من ذلك ما وقع منه لما استغفر لأبيه،

---

(١) سورة التحريم من الآية "٦".

(٢) سورة الزخرف الآية "٢٣".

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدى، مرجع سابق، ج١، صـ٧٦٤.

(٤) رواه البخاري، كتاب الحج، باب مع ذكر في الحجر الأسود، ١٤٩/٢، رقم ١٥٩، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، ٩٢٥/٢، رقم ٢٤٨.

(٥) سورة الممتحنة من الآية "٤".

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[١]، لأن ذلك كان وعداً منه لأبيه، رجاء أن يهتدى إلى الحق حتى تبين له أنه عدو لله - ﷻ - تبرأ منه، وترك الاستغفار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[٢].

إن المدعو مهما كان استعداده للخير قوياً وعظيماً، ومهما تعلم أصول الأخلاق والمكارم، فإن هذه الأخلاق لا تؤتى ثمارها، إلا إذا وجد من يطبقها عملياً، بحيث يراها المدعو ماثلة أمام عينيه، وهذا ما فعله النبي - ﷺ - للصحابة حينما صد المشركون الصحابة - ﷺ - عن البيت الحرام، لأداء العمرة عام الحديبية[٣]، وكان وقع ذلك عظيماً على نفوس الصحابة، فأمر النبي - ﷺ - بنحر ما معهم من الهدى، وحلْق رؤوسهم، ليتحللوا من إحرامهم فلم يفعل أحد من الصحابة شيئاً، مع شدة حرصهم على الطاعة وهنا يتجلى الأثر العظيم، والدور الكبير للقدوة، فأشارت عليه أم المؤمنين السيدة أم سلمة[٤] - رضي الله عنها - أن يقوم فينحر هو أولاً ويحلق، لأن صحابته سيقتدون به، فقام رسول الله - ﷺ - فخرج، فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك ونحر بدنه، ودعا حالقه فحلق له، فلما رأى الصحابة ذلك، قاموا فنحروا وجعلوا يحلق بعضهم لبعض حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً"[٥]، ففي هذا الحديث دلالة

---

(١) سورة الممتحنة من الآية "٤".

(٢) سورة التوبة الآية "١١٤".

(٣) "كانت في شهر ذي القعدة آخر سنة ست للهجرة، حيث خرج النبي - ﷺ - بالمسلمين من المدينة قاصداً مكة لأداء العمرة فسمح القريشيون بذلك فغضبوا وثاروا وأقسموا على منعه من دخولها عليهم عنوة، ولما أصبح المسلمون على مقربة من مكة على بعد أميال منها في مكان يدعى بالحديبية نسبة إلى بئر كان هناك فتوقفوا لأن قريشاً أقسمت على الحرب والصد ثم جرت مفاوضات بين النبي - ﷺ - وقريش انتهت بتوقيع معاهدة عرفت بصلح الحديبية وكان من أهم بنودها أن يأتي النبي - ﷺ - إلى مكة في عام قابل ومعه المسلمون لا يحملون إلا سلاح السفر ليقيموا في مكة ثلاثة أيام يؤدون مناسكهم فيها ولا يزيدون على ذلك"، فقه السيرة مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٢٥، ١٤٢٦هـ، صـ٢٣٠.

(٤) "أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة، تزوجها أبو سلمة وهاجر بها إلى أرض الحبشة في الهجرتين فولدت له هناك زينب، وولدت له من ذلك سلمة وعمر ودرة بن أبي سلمة، بعث النبي أبي سلمة إلى إحدى الغزوات فغاب تسعاً وعشرين ليلة ثم رجع فدخل المدينة والجرح منقض فمات منه لثمان خلون من جمادي الآخرة سنة أربع من الهجرة فاعتدت منه أم سلمة، وتزوجت لعشرين بقين من شوال فتزوجها رسول الله - ﷺ - في ليال بقين من شوال سنة أربع، وتوفيت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين"، الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن الهاشمي المعروف بابن سعد المتوفي ٢٣٠هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ج٨، صـ٦٩.

(٥) رواه البخاري، كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم ٣/١٩٣، رقم ٢٧٣١.

ظاهرة على تأثير القدوة على الناس، ففي حين عدم تغلب القول على هموم الصحابة، وتألمهم لما حدث، فلم ينصاعوا للأمر، ولكنهم بادروا التنفيذ، اقتداء برسول الله - ﷺ -، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً من شدة المسارعة إلى فعل ما فعله قدوتهم - ﷺ - لم يقدم هذه القدوة للصحابة فقط، ولكنها للعالم كله لتظل خالدة أبد الأبدين.

إن المجتمع اليوم في أمس الحاجة إلى القدوة الحسنة، ليهتدي بها الناس إلى الطريق المستقيم، ولتأخذ بيدهم إلى بر الأمان، بعدما هوت بهم الريح في مكان سحيق، وذلك في ظل وجود نماذج ضالة انخدع بها كثير من الناس.

الأسلوب الثالث: أسلوب الترغيب والترهيب

أ- تعريف الترغيب لغة واصطلاحاً:-

(١) الترغيب لغةً

مصدر من (رغب) الراء والغين والباء أصلان، أحدهما طلب لشئ، والآخر سعة في شئ، فالأول رغبة في الشئ: الإرادة له: رغبت في الشئ، فإن لم ترده قلت رغبت عنه"[١] "ورغب عن الشئ: تركه تعمداً، وزهد فيه ولم يرده"[٢]، و"الرغائب ما يرغب فيه من الثواب العظيم"[٣]، و"الرغيبة" الأمر المرغوب فيه"[٤].

مما سبق يتضح أن من معانى الترغيب، الإرادة، والسؤال، والترك، والتحبيب في الشيء، وأن الفعل رغب يتعدى بإلى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[٥]، ويتعدى بفي، مثل: (رغبت في الأجر والثواب)، ويتعدى بعن، وهنا يكون عكس تعديه بحرف في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[٦].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، القزويني، مرجع سابق، ج٢، صـ٤١٥ وما بعدها.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١، صـ٤٢٣.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، مرجع سابق، ج٢، صـ٥١٠.

(٤) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مرجع سابق، صـ٩٠.

(٥) سورة التوبة من الآية "٥٩".

(٦) سورة البقرة من الآية "١٣٠".

(٢) الترغيب اصطلاحاً

تعددت التعاريف الاصطلاحية للترغيب في الكتب المعاصرة، ولكنها متقاربة من حيث المعنى، **ومن هذه التعاريف.**

الأول: "الترغيب هو: عملية دفع المدعو إلى ما نحببه فيه، وإن كان مخالفاً لهواه أحياناً، للفوز بالسعادة في الدارين"(١).

الثاني: "الترغيب: هو التشويق للحمل على فعل، أو اعتقاد، أو تصور، وترك خلافه"(٢).

الثالث: "الترغيب: هو وعد يصحبه تحبيب، وإغراء بمصلحة أو لذة، أو متعة آجلة، مؤكدة خيرة، خالصة من الشوائب ،مقابل القيام بعمل صالح، أو الامتناع عن لذة ضارة، أو عمل شئ ابتغاء مرضاة الله، رحمة من الله بعبادة"(٣).

من خلال هذه التعاريف الاصطلاحية يتبين أن المقصود بالترغيب في الميدان الدعوي هو: تحبيب المدعوين إلى كل ما هو مفيد، ونافع لهم في دينهم ودنياهم، وقبوله، والثبات عليه.

ب- تعريف الترهيب لغة واصطلاحاً

(١) الترهيب لغة:

مأخوذ من الفعل "(رهب) الراء والهاء والباء أصلان: أحدهما يدل على خوف، والآخر على دقة وخفة"(٤)، والرهبة: الخوف والفزع"(٥)، "وترهبه: توعده"(٦)، "والترهب: التعبد، وقيل: التعبد في صومعة، وقد ترهب الرجل: إذا صار راهباً، يخشى الله تعالى"(٧).

إذاً معانى الترهيب في اللغة، الخوف، والفزع، والخشية، وكلها معان متقاربة، لأن الفزع ثمرة من ثمار الخوف، فالإنسان إذا خاف فزع، وكذلك الخشية تحمل معنى الخوف، فالإنسان إذا خاف خشى، فالمعاني اللغوية كلها تصب في معين واحد.

---

(١) ضوابط العمل الدعوى في مجالات الموعظة والمجادلة والحكم على الآخرين، حسين مجد خطاب، ط٣، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، بدون دار نشر، صـ١٧.

(٢) أصول التربية الإسلامية، الحازمي، مرجع سابق، صـ٣٩١.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، عبدالرحمن النحلاوى، دار الفكر، ط٢٥، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، صـ٢٣٠.

(٤) معجم مقاييس اللغة، القذويني، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٤٧.

(٥) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١، صـ٤٣٦.

(٦) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مرجع سابق، صـ٩٢.

(٧) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، مرجع سابق، ج٢، صـ٥٣٨.

(٢) الترهيب اصطلاحاً

تعددت كذلك التعاريف الاصطلاحية للترهيب وكان من هذه التعاريف ما يلي:

الأول: "الترهيب هو: كل ما يخيف، ويحذر المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله"(١).

الثاني: "الترهيب هو: أسلوب قرآني، يعالج النفس البشرية، وحبها للأمن والسلامة، وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها"(٢).

الثالث: "الترهيب: وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب، مما نهى الله عنه، أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله، يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الالهية، ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي"(٣).

بعد هذه الاطلالة السريعة في المعاني الاصطلاحية للترهيب، يتبين أن الترهيب في العملية الدعوية يقصد به تحذير المدعوين، وإنذارهم من كل ما هو ضار لهم، سواء في الاستجابة، أو الثبات عليها بعدها.

ج- الفائدة الدعوية لأسلوب الترغيب والترهيب

لما كان الإنسان مجبولاً على حب المكاسب، وحب ما ينفعه وتطمئن إليه نفسه، وينفر من كل ما يخيفه ويفزعه، أو ما يعرضه للخسارة، كان لأسلوب الترغيب والترهيب أهمية كبرى في عملية الدعوة، لأنه يتفق مع طبيعة البشر، والتي إذا اشتاقت إلى شئ ما، زاد اهتمامها به، فسرعان ما تعمل من أجل الوصول إلى أسبابه، رغبة في الحصول عليه، وكذلك إذا خافت من شئ نفرت منه، وهابته، وابتعدت عنه، فالنفس البشرية بطبيعتها وفطرتها ترجو وتخاف، من أجل ذلك كان للترغيب أهمية كبرى في التربية على الطاعات، والاستقامة على أمر الله - ﷻ -، واتباع منهجه، والسير على تعاليمه، قَالَ تَعَالَىَ:﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٤) وهناك بعض المدعوين لا يجدى معهم الترغيب والوعد الجميل، وإنما ينفع معهم التقريع والتعنيف والتخويف لإعراضهم عن منهج الله

---

(١) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، الناشر مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، صـ٤٣٧.

(٢) فقه الدعوة إلى الله، على عبد الحليم محمود، مطابع دار الوفاء، ط٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، ج١، صـ٢٣٢.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي، مرجع سابق، ج١، صـ٢٣١.

(٤) سورة النحل الآية "٩٧".

- ﷻ - فتأتى أهمية الترهيب هنا لتحميهم من الإعراض عن منهج الله - ﷻ -، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾(١)، فالترغيب والترهيب من الأساليب المؤثرة تأثيراً فعالاً في تنشئة المسلم تنشئة صالحة، وذلك باستغلال ميوله الفطرية، ونوازع الخير فيه، بتوجيهها إلى ما ينفعها ويفيدها، ويحقق لها السعادة في الدنيا والآخرة، واجتنابها لما يؤذيها، ويكون مصدر آلامها وتعبها، من أجل ذلك "يحرص القرآن الكريم على اتباع منهج الجمع بين الترغيب والتخويف، سبباً في البعد عن الهدم والانهزام، وسلبيات الأمور والأوضاع، ويفهم الإنسان المؤمن العاقل حين اقتران الترغيب بالترهيب ضرورة الموازنة، والتفكير الجدى، والعمل الحاكم بتوجيه نفسه وغيره نحو الخير، واجتناب الشر والمنكر"(٢).

ولو نظرنا إلى آيات الترغيب والترهيب في القرآن الكريم، لوجدنا معظمها متلازماً في الغالب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾(٣)، وقال أيضاً: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾(٤)، فمن لا يؤثر فيه الترغيب وثوابه، يؤثر فيه الترهيب وعقابه.

وتأتى أهمية أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة، في كون كل منهما أسلوب تربوي وقائي، فالمدعو عندما يعلم أن له أجراً عظيماً إذا فعل كذا، فإنه يسعى لتحصيله لاشتياقه إلى ما أعده الله - ﷻ - له فيبادر إلى الطاعة، وعمل الخير، ويبتعد عن المعصية والشر والفساد بكل صوره، فينال هداية الله - ﷻ - لإخلاصه في الطاعة والعمل، فيعيش حياة آمنة مستقرة يسودها الحب والاخاء، لاستقامته على الهداية وما أمر الله - ﷻ - به فرب العالمين يقول: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾(٥) وقد أكد الله - ﷻ - في قرآنه الكريم كل الارتباط الوثيق بين الاستقامة على الايمان، وبين تيسير الأرزاق والرخاء في العيش، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾(٦)، فهناك علاقة وطيدة بين الترغيب والترهيب، والاستقامة على الهدى.

---

(١) سورة طه الآيات "١٢٤ - ١٢٦".
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، مرجع سابق، ج١، صـ٥٠٣.
(٣) سورة الحجر الآية "٤٩، ٥٠".
(٤) سورة غافر من الآية "٣".
(٥) سورة طه الآية "١٢٣".
(٦) سورة الجن الآية "١٦، ١٧".

إن أسلوب الترغيب والترهيب يدخل للنفس الإنسانية من بابها الذى لا يغلق، لأن النفس تريد دائماً المكاسب، وكم من داخل في الإسلام في بداية ظهوره ليجد المكاسب التي كانت تعطى للتأليف بين القلوب، ولكن سرعان ما يتحول إلى مؤمن صادق الإيمان، كما قال سيدنا أنس(١) – ﷺ –: "إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها"(٢).

فالترغيب يثير في النفس الرجاء، ويجدد الأمل لها، ويشوقها إلى التطلع إلى ما هو أفضل دائماً كما بين ذلك سيدنا نوح – عليه السلام – لقومه فقال الله – عز وجل – على لسانه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾(٣)، فرغبهم في الاستغفار ودخل إليهم من باب حب المكاسب التي يأملونها إذا لزموا الاستغفار، ففي الاستغفار علاج ووقاية، فهو علاج ناجح، لأنه يذلل العبد لربه – تبارك وتعالى – ويقربه منه، ويعود به إلى الطاعة وترك المعصية، ويعمل على تطهير نفسه، وانشراح صدره، من أدران الذنوب، وفى ذلك وقاية له من التمادي في المعصية، ووقاية للمجتمع من شره إذا تمادى، "هب أن الله لم يشرع التوبة وأذنب واحد ذنباً وبمجرد أن أذنب ذنباً خرج من رحمة الله، فماذا يصيب المجتمع منه، إن كل الشرور تصيب المجتمع من هذا الإنسان لأنه فقد الأمل في نفسه، أما حين يفتح الله له باب التوبة، فإن ارتكب العبد ذنباً ساهياً عن دينه فإنه يرجع إلى ربه"(٤)، لأن عدم الاستغفار من الذنب، حائل وحاجز بين العبد، وتوفيق الله – تبارك وتعالى – له.

إن بعض النفوس لا يصلحها ترغيب، فلابد إذاً لإصلاحها من الترهيب والتخويف، لأنها تتأثر بالمخاوف أكثر من المرغبات، ولذلك استعمل الاسلام بمنهجه التربوي الترهيب، فأكثر من ذكر النار، ووضع للانسان التدابير الواقية ليتجنب الإنسان سعيرها، وكل ما يؤدى إليها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن

---

(١) "هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن النجار واسمه تيم الله، الأنصاري الخزرجي النجاري من بني عدي بن النجاري يكنى أبا حمزة خادم رسول الله وأحد المكثرين من الرواية عنه، وأمه أم سليم بنت ملحان، قدم النبي المدينة وهو ابن عشر سنين كان آخر الصحابة موتاً بالبصرة، توفى سنة إحدى وتسعين وقيل سنة اثنين وقيل سنة ثلاث وقيل سنة تسعين، وكان عمره ستة وثلاثين سنة، وقيل وعشر سنين، وقيل وسبع سنين"، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج١، صـ١١٠.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئاً قط فقال لا: وكثرة عطائه، ٤/١٨٠٦، رقم ٢٣١٢.

(٣) سورة نوح الآيات "١٠ – ١٢"

(٤) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٣، صـ١٣٣٠.

دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[١]، من خلال ذلك يمكن القول: "بأن الترهيب: أسلوب تربوي وقائي، لأنه يقوم على جانب التحذير من المخالفة، مما يجعل له أهمية كبيرة في الدعوة والإصلاح"[٢]، فالترهيب له دور كبير في الوقاية، لاستقامة الإنسان على الطاعة، وبعده عن المعصية، فتكون النفوس أكثر استقامة، وصلاحاً لابتعادها عن الرذائل، فالترغيب والترهيب أسلوبان مهمان من أساليب التربية الوقائية.

الأسلوب الرابع: ضرب الأمثال

أ- ضرب الأمثال لغة واصطلاحاً

(١) ضرب الأمثال لغة:

المقصود بضرب الأمثال لغة: "اعتبار الشئ بغيره، وتمثيله به، والضرب: المثال"[٣]، "وضرب المثل: من ضرب الدرهم، وهو ذكر شئ أثره يظهر في غيره"[٤]، "والمثل: الشئ الذي يضرب بشئ مثلاً، فيجعل مثله"[٥]، و"(مثْل): كلمة تسوية، يقال: هذا (مثله)، كما يقال: شَبَهُهُ، والمثل ما يضرب به من الأمثال"[٦]، مما سبق يتضح أن من معانى ضرب المثل في اللغة المشابهة والمماثلة، والتسوية بين شيئين.

(٢) ضرب الأمثال اصطلاحاً

تعددت تعاريف ضرب المثل في الاصطلاح إلا أنها تتفق جميعها في المعنى فمن هذه التعاريف:-

الأول: "المثل: عبارة عن قول في شئ يشبه قولاً في شئ آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر، ويصوره"[٧]

الثاني: "ضرب المثل عبارة عن: إيراد حالة غريبة، ليعرف بها حالة أخرى، مشاكلة في الغرابة"[٨].

الثالث: "ضرب المثل: "تشبيه حال عجيبة بأخرى، وجعلها مثلاً لها"[٩].

---

(١) سورة الزمر الآية "١٥".

(٢) أصول التربية الإسلامية، مرجع سابق، الحازمي، صـ٣٩٣.

(٣) لسان العرب ابن منظور، مرجع سابق، ج١، صـ٥٥٠.

(٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي أبو البقاء الحنفي، المتوفي سنة ١٠٩٤هـ، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت، صـ ٥٧٣.

(٥) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١١، صـ٦١١.

(٦) المختار الصحاح، الرازي، مرجع سابق، صـ٢٩٠.

(٧) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٠٢هـ، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ، صـ٧٥٩.

(٨) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج٨، صـ٢٦٩.

(٩) تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٢٣، صـ١٦٣.

من خلال هذه التعاريف وغيرها يتبين: أن ضرب المثل يكون تشبيه شئ غريب، بشئ معروف، من أجل الإيضاح وإيصال المعنى، وعدم اللبس في الفهم.

ب- الفائدة الدعوية لأسلوب ضرب الأمثال

إن الدعوة بضرب الأمثال، من الأساليب التي انتهجها الإسلام في دعوة أتباعه وتوجيههم، لما لها من أثر فعال في النفوس، فهي تجسد المعاني وتوضحها، فتظل عالقة بالذهن، راسخة في الخيال، فالمعاني المعقولة لا تستقر في الأذهان إلا إذا صيغت في صورة حية قريبة الفهم، وكأنها محسوسة ملموسة لتصل إلى العقل والقلب عن طريق النظر والحس، فهى أكثر تأثيراً من الكلام المجرد، لأنها تقرب الصورة، وتجلب الانتباه، وترفع الحجاب عن القلوب الغافلة، ولقد جاءت الآيات القرآنية تنوه بشأن الأمثال، وتبين الحكمة من ضربها، كما في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١]، وفى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٢]، وجاء في آية أخرى، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[٣]، لقد دعانا القرآن الكريم إلى تدبر الأمثال، وتعقلها، وفهم مغازيها، ومراميها التربوية، من أجل ذلك، فقد "كان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه، يبكى ويقول لست من العالمين"[٤].

إن من أبرز الجوانب التي اعتنى بها القرآن الكريم جانب الأمثال، التي تقرب لنا أروع التوجيهات وأبلغها في تشكيل الشخصية الإسلامية، وتحصينها من العوامل الهدامة، لأن "الأمثال القرآنية تسهم في تربية الانسان على السلوك السليم الخير، وتهذيب أخلاقه وطباعه، فتستقيم حياة الافراد والمجتمعات"[٥]، لذا ينبغي على الداعية أن يستعمل هذا الأسلوب، وخاصة إذا واجهته بعض الصعوبات في التربية والتوجيه، ووصول المعلومة إلى ذهن المدعو "ولأهمية ضرب المثل في توضيح الغامض، يلجأ إليه الشعراء، ليقربوا المعنى من الأفهام، فقد يقف

---

(١) سورة الحشر الآية "٢١".

(٢) سورة الزمر الآية "٢٧".

(٣) سورة العنكبوت الآية "٤٣".

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون ت، ط، ص٥١.

(٥) التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، عاطف السيد، بدون ت، ط، صـ٣٠.

الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء، ويريد الشاعر الوصول بها إلى أفهام العامة"[١]، فيلجأ إلى ضرب الأمثال.

لقد اشتمل القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، على ضرب الأمثال لهداية الخلق، وتوجيههم الوجهة الصحيحة، فيستقيموا، ولا ينحرفوا عن طريق الجادة، فالله - ﷻ - يقول: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[٢]، "أي: لقد بينا للناس المطلوب فيه بضرب الأمثال، من كل مثل يحتاجون إليه في أمر دينهم، ومن أمثال القرون الخالية، تخويفاً لهم وتحذيراً"[٣] فالتذكر والتقوى، ينبغي أن يخرج بهما الإنسان من ضرب الأمثال، لذلك فهو من الأساليب الوقائية التي تحث على أخذ الحيطة والحذر من شئ ضار لتجنبه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[٤]، "(وكلاً) نصب بإضمار فعل تقديره وأنذرنا كلاً ضربنا له الأمثال، لأن ضرب الأمثال أعظم الإنذار، فجاز أن يكون تفسيراً لــ (أنذرنا)[٥].

والله - ﷻ - ضرب لنا مثلاً للحق والباطل، للحق حتى نتمسك به ونسير عليه، وللباطل حتى نعلمه فتجنبه، فقال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾[٦]، فقد مثل الله - ﷻ - الوحى الذى أنزله من السماء، بحياة القلوب، بالمطر، الذى أنزله على الجبال لحياة الأرض وما عليها، فيسيل الماء على الأودية بين الجبال، فيحمل زبداً وغثاء ورمالاً صغيرة وحصى لا ينتفع بها الناس، فالماء مثال للحق الذى ينتفع به الناس، أما الزبد فهو مثال للباطل الذى لا ينتفع به الناس، كذلك يضرب الله - ﷻ - الأمثال، "أي: ومثل ضربنا لهذه الأمثال البديعة التي توضح للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم، وتظهر الفوارق بين الحق والباطل والإيمان والكفر، يضرب لهم الأمثال في كل

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٣، صــ٨٠٩٤.

(٢) سورة الزمر الآية ٢٧، ٢٨.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي، مرجع سابق، ج ٢٣، صــ٢٨٤.

(٤) سورة الفرقان الآية ٣٩.

(٥) الموسوعة القرآنية، إبراهيم إسماعيل الابياري، المتوفى سنة ١٤١٤هــ، مؤسسة كل العرب، الطبعة ١٤٠٥، ج٤، صــ٣١٤.

(٦) سورة الرعد الآية "١٧".

باب، حتى تستبين لهم طرق الهدى فيسلكوها، وطرق الباطل فينحرفوا عنها، وتتم لهم سعادة المعاش والمعاد، ويكونوا المثل العليا بين الناس"[١].

ثم ضرب مثلاً آخر بالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها، فتخرج النار ما فيها من الخبث، وتفصله عن الجوهر الذى ينتفع به فيذهب جفاء، فكذلك المنكرات والشهوات يطرحها قلب المؤمن جانباً، كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث، وفى ذلك وقاية للإنسان، وصيانة له من الخبث ومن كل ما يضره ويؤذيه، كذلك يبين لنا النبي – ﷺ – خطورة النفاق عن طريق المثل حتى نتجنبه، فعن ابن عمر – رضي الله عنهما –، عن النبي – ﷺ – قال: "مثل المنافق، مثل الشاة العائرة بين الغنيمين، فتعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، لا تدرى أهذه تتبع، أم هذه"[٢]، فالنبي – ﷺ – ضرب هذا المثل، لبيان حال المنافق ويوضح حيرته وتردده في منهجه تبعاً لهواه ومراده وقصداً إلى شهوته بالشاة العائرة وهى: "المترددة الحائرة، لا تدرى أيهما تتبع، (وتعير) أي: تتردد وتذهب"[٣]، لا تدرى لأى القطيعين تتبع، فمرة تذهب إلى هذا القطيع، ومرة أخرى إلى ذاك، ولا تستقر على حال، فكذلك المنافق، لا يستقر مع المسلمين، ولا مع الكافرين، بل هو حائر بين الكفر والإيمان، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[٤]، "يعنى: محيرين بين الإيمان والكفر، فلاهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك"[٥]، وهذا يدل على الحيرة والقلق والخوف الدائم للمنافقين، لعدم استجابتهم لدعوة الحق، وهم يحاولون أن يجدوا طريقاً يسلكونه غير صراط الله – ﷻ –، ولا يجدون لهم فرجاً إلا صراط الله المستقيم، ليقضوا على هذه الحيرة، وفى ذلك تنبيه للمؤمنين بخطورة النفاق، والسير على غير شرع الله – ﷻ –، لينتج عن ذلك التنبيه، رد فعل تربوي وقائي في نفوس المؤمنين من النفاق، وكل ما يؤدى إليه.

إن ضرب الأمثال لكثيرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولها دورٌ أساسيٌ وهامٌ في إصلاح الأفراد والجماعات، ووقايتهم، وعلى الدعاة ألا يغفلوا هذا الأسلوب لأهميته.

---

(١) تفسير المراغي، أحمد المراغي، مرجع سابق، ج١٣، صـ٨٩ وما بعدها.

(٢) رواه مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب بدون ترجمة، ٢١٤٦/٤، رقم ٢٧٨٤.

(٣) شرح النووى، على مسلم، مرجع سابق، ج١٧ صـ١٢٨.

(٤) سورة النساء من الآية "١٤٣".

(٥) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، صـ٣٨٨.

المبحث الرابع
أهداف التربية الوقائية

أولاً: تعريف الأهداف لغة واصطلاحاً

(أ) الأهداف لغة:

جمع هدف "(هَدَفَ) الهاء والداء والفاء: أُصيلٌ يدل على انتصاب وارتفاع، والهدف كل شئ عظيم مرتفع، ولذلك سمى الرجل الشخيص الجافي هدفاً"(١)، و "الهَدَفُ: الغرض، والهدف من الرجال: الجسيم الطويل العنق، العريض الألواح، والهدف: كل شئ عريض مرتفع، وأَهْدَفَ الشئ: إذا انتصب"(٢).

فمعانى الهدف في اللغة تدور حول معنى الغرض.

(ب) معنى الهدف في الاصطلاح:-

الأهداف في الاصطلاح هي: "الأغراض والمقاصد النهائية التى يراد من التربية انجازها وتحقيقها على المستويات الفردية والاجتماعية والعالمية"(٣).

فالتربية الوقائية لها أغراض وغايات، يريد الداعية تحقيقها في الفرد والمجتمع والدولة، على حد سواء، فالمعنى اللغوي والاصطلاحي للهدف يدور حول معنى واحد وهو الغاية التى يَسعى إلى الوصول إليها فقط.

ثانياً: أهم أهداف التربية الوقائية في الإسلام

إن أي عمل لا يتجه نحو غاية معينة، لا يكتب له النجاح والدوام، وكذلك التربية إذا لم تتجه نحو هدف معين فهي تربية فاشلة غير ناجحة، ولقد بين القرآن الكريم، أن الله – ﷻ – خلق الكون بنظام دقيق وعجيب، يسير نحو هدف معين، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾(٤)، فالتربية الوقائية لا يمكن أن تكون عملية عشوائية، بل هي عملية بناءة هادفة، وهذا يوضح "أن لتعيين الهدف أهمية، تجعله ضرورياً لكل ضروب السلوك الواعي، فكيف بالنسبة

---

(١) مقاييس اللغة، القزويني، مرجع سابق، ج٦، صـ٣٩.

(٢) العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، المتوفى سنة ١٧٠هـ، تحقيق د/ مهدى المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، بيروت، بدون ط، ت، ج٤، صـ٢٨ وما بعدها.

(٣) أهداف التربية الإسلامية، د/ ماجد عرسان الكيلاني الأردني، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، بدون ط، ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨م، صـ١٥.

(٤) سورة الأنبياء الآية "١٦".

لعملية تربوية يراد منها توجيه الجيل، وبناء صرح الأمة، وتعيين أسلوب السلوك في حياة الفرد والجماعة، حتى يجتاز البشر هذه الحياة بسعادة، ونظام وتعاون، وانسجام ورغبة وإقدام ووعى وتدبر وإحكام"[١]، لأن العمل إذا كان خالياً من الهدف، كان ضرباً من العبث، والإسلام برئ منه وفيما يلي أهم أهداف التربية الوقائية.

الهدف الأول: تحقيق العبودية لله رب العالمين

لقد أخذ الله – ﷻ – العهد والميثاق على بني آدم وهم في عالم الذر قبل الوجود، حينما استخرج ذرية آدم من ظهور الآباء من لدن آدم إلى قيام الساعة، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾[٢]، فالخلق كلهم مكلفون بإقرار العبودية لله – ﷻ – تنفيذاً لأمره، ووفاء بعهده، ولقد صرح القرآن الكريم بهذا الهدف، فقال موضحاً الغاية من إيجاد الخلق: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[٣]، "وهذه هي الغاية الكبرى التي خلق الله – ﷻ – الناس من أجلها.

فالغاية من وجود الثقلين هي عبادة الله – ﷻ – ، وهذا هو الأصل والأساس الذى تبنى عليه التربية الوقائية، من أجل ذلك بعث الله الأنبياء والرسل – عليهم السلام –، وأنزل عليهم الأحكام والشرائع، التي تنادى بالعبودية لله وحده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[٤]، فعبادة الله وحده لا شريك له: هي أول شئ أمر الله – ﷻ – به الأنبياء والرسل – عليهم السلام – ليدعوا أتباعهم إليه، مهما كلفهم ذلك من جهد وتعب ومشقة.

ومقام العبودية هو المقام الأول الذى اختاره الله للثقلين الإنس والجن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾[٥]، وقد وصف الله – ﷻ – الملائكة بوصف العبودية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ﴾[٦]، "أي: إن ملائكة الرحمن المقربين عنده لا يستكبرون عن عبادته، كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون، وينزهونه عن كل

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوى، مرجع سابق، صـ٨٩.

(٢) سورة الأعراف من الآية "١٧٢".

(٣) سورة الذاريات الآية "٥٦".

(٤) سورة النحل من الآية "٣٦".

(٥) سورة مريم الآية "٩٣".

(٦) سورة الأعراف الآية "٢٠٦".

ما لا يليق بعظمته، وكبريائه وجلاله، وعن اتخاذ الند والشريك، كما يفعل الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأنداداً يحبونهم كحبه، وله وحده يصلون ويسجدون، فلا يشركون معه أحداً"(١).

إن العبودية لله – تعالى – تشريف للمرء، ولقد شرف الله سيدنا محمد – ﷺ – أعظم الخلق إليه بهذا المقام، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾(٢)، قالها في لحظة التكريم التى لم يبلغها أحد، وذلك حينما ارتقى إلى أشرف مقام وأعظم منزلة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾(٣)، وهذه مكانة لم يصل إليها نبى مرسل ولا ملك مقرب، "ومع هذا التفرد الذى للنبي – صلوات الله وسلامه عليه – بين خلق الله جميعاً، ومع هذا القرب الذى ليس لأحد غيره، من عباده فإنه – صلوات الله وسلامه عليه – لن يخرج عن قيد العبودية، ولن يكون إلا عبداً لله"(٤)، مع أنه سيد ولد آدم على الإطلاق.

إن العبودية اسم جامع لكل ما أراده الله – ﷻ – ورسوله – ﷺ – من الأقوال والأفعال والحركات والسكنات، وهذا هو ما فهمه صحابه رسول الله – ﷺ –، وتربوا عليه، حتى قال سيدنا معاذ – رضي الله عنه –: "إني لأحتسب نومتي، كما احتسب قومتي"(٥)، ومعناه: "أنه يطلب الثواب في الراحة، كما يطلبه في التعب، لأن الراحة إذا قصد بها الإعانة على الصلاة حصلت الثواب"(٦).

فتحقيق العبودية لله – ﷻ – هي أول الحقوق على العباد، وهى الغاية القصوى من خلقهم، ومما يدل على عناية الإسلام بغرس هذا الهدف في نفوس معتنقيه، أن الله أمرنا بقراءة أم القرآن وهى الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة سواء كانت فرضاً أم نفلاً، ومن بين آياتها، قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٧)، وقدم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ :"لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم، هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم"(٨).

---

(١) تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٩، صـ١٥٧.

(٢) سورة الإسراء من الآية "١".

(٣) سورة النجم آية "٨، ٩".

(٤) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج٩، صـ١٣٤٦.

(٥) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، ١٦١/٥، رقم ٤٣٤١.

(٦) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، أحمد بن على بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، سنة ١٣٧٩، ج٨، صـ٦٢.

(٧) سورة الفاتحة الآية "٥".

(٨) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج١، صـ١٣٥.

فتحقيق العبودية لله – ﷻ – هي أول وأهم أهداف التربية الوقائية، وهي لا تتحقق إلا بامتثال ما أمر الله – تعالى – به، واجتناب ما نهى عنه، من أجل ذلك بعث الله – ﷻ – الرسل – عليهم السلام – لترسيخها في القلوب.

الهدف الثاني: حفظ الفطرة وصيانتها من الانحراف

إن الإنسان يولد على الفطرة السوية السليمة التي لا تشوبها شائبة تعكر صفوها، وتطفئ نورها، أو تؤثر على جبلتها، فهي فطرة خيرة وطبيعة زكية، فقد روى سيدنا عياض بن حمار المجاشعي[١]، أن رسول الله – ﷺ –، قال ذات يوم في خطبته: "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي كلهم حنفاء، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً"[٢]، فالصلاح والنقاء أصل في الفطرة التي فطر الله الناس عليها وقد أكد النبي – ﷺ – هذا المعنى، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه –، أنه كان يقول، قال رسول الله– ﷺ –: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون بها من جدعاء؟"، ثم يقول أبو هريرة – رضي الله عنه –: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[٣][٤]، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الانحراف والفساد أمور طارئة عليها، وهذا يعود إلى التنشئة التي ينشأ فيها الإنسان، ولذلك فقد أولاها الإسلام عناية خاصة وصانها من الانحراف، حيث اعترف بما فيها من قوى وغرائز، ولبى احتياجاتها، وتعامل معها، ولم يكبتها ولكنه نظمها ووجهها، ووضع لها الضوابط والحواجز، حتى لا تنحرف عن الطريق الصحيح، فمثلاً غريزة الميل إلى حب بقاء النوع، لم يستقذرها الإسلام ولم يكبتها، ولكنه نظمها، فشرع الزواج من أجل إشباعها، وجعل في ممارسة هذا العمل مع الزوجة بالأساليب المشروعة عملاً من أعمال الخير، الذى يترتب عليه الأجر الكبير، فقد روى سيدنا

---

(١) هو عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي، كذا نسبه خليفة بن خباط، وقال أبو عبيدة: هو عياض بن حمار بن عرمجة بن ناجية، وكان صديقاً لرسول الله – ﷺ –، أهدى إلى النبي – ﷺ – قبل أن يسلم، فلم يقبل منه، فسكن البصرة، روى عن النبي – ﷺ – وروى عنه مطرف بن عبد الله، وأخوه يزيد بن عبد الله، وغيرهم. "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، ج٤، صــ٦٢٥، وينظر أيضاً "أسد الغابة في معرفة الصحابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٤، صــ٣١٠.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ١٢٩٧/٤ رقم ٢٨٦٥.

(٣) سورة الروم من الآية "٣٠".

(٤) سبق تخريجه، صــ٤٦.

أبي ذر – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "وفى بضع أحدكم صدقة، قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، يكون له فيها أجر؟، قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليها وزر؟ فكلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"[١]، ثم نهى عن الزنا، وجعله كبيرة من الكبائر، لأنه انحراف عن المنهج المستقيم الصحيح، الذى وضعه الله – عز وجل – ورسوله – صلى الله عليه وسلم –، وفيه مجاوزة للحدود والحواجز التي وضعها الإسلام، وغرض الإسلام من ذلك ليس الكبت والتعطيل ولكنه صيانة الأعراض.

وكذلك الحال بالنسبة لغريزة حب التملك والمال، فهو لم يكبح جماحها ويستقذرها، ولكنه اعترف بها، ووضع لها الحدود التي تصونها من الانحراف، وذلك من خلال التجارة والكسب الحلال، ثم نهى عن الربا وأكل أموال الناس بالباطل.

فالإسلام جاء معترفاً بالغرائز وضابطاً لها، وسهل الطرق السليمة التي تلبى رغبات الإنسان الفطرية، وحاجاته الجبلية، حتى لا تنحرف عن مسارها الصحيح، ومن أجل صيانة الفطرة أيضاً، نهى الإسلام عن الافراط والتفريط، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[٢]، والصراط المستقيم هو: الطريق الواضح الذى يقع بين طرفي الإفراط والتفريط، وكل انحراف عن الفطرة، فإنه يعود إلى أحد أمرين، إما انحراف بالإفراط والغلو ومجاوزة الحد، أو تفريط وتقصير، وكلاهما انحراف عن الصراط المستقيم والفطرة السليمة، "فكل من الإفراط والتفريط، ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم"[٣].

إن طريقة النبي – صلى الله عليه وسلم – في دعوة أصحابه، والتي ارتضاها لأتباعه، هي: دفع الاعوجاج، وتقويم الانحراف، وليست سلخ الفطرة من مقتضياتها، فعن سيدنا أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: دخل النبي – صلى الله عليه وسلم – فإذا حبلٌ ممدودٌ بين الساريتين، فقال: "ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "لا حلوه ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد"[٤]، لأن في ذلك وقاية للطاقات الانسانية من الإسراف، وقد يدفع بصاحبه إلى ترك العمل والعبادة المبالغ في آدائها، فيصاب بالعطب والتلف، وهذا ما يريد الشيطان الوصول إليه، لأنه إذا وجد في

---

(١) رواه مسلم، كتاب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ٦٩٧/٢، رقم ١٠٠٦.

(٢) سورة الأنعام من الآية "١٥٣".

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٢، صـ٤.

(٤) البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشدد في العبادة، ٥٣/٢، رقم ١١٥٠، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، وقصرها، باب أمر من نعث في صلاته، أو استعجم عليه القرآن، ٥٤١/١، رقم ٧٨٤.

المسلم رغبة وقوة على العبادة والطاعة، أوقعه في الإفراط والزيادة، فيضل عن الطريق المستقيم، ولكن تأتى التعاليم والتوجيهات الإسلامية لقطع الطريق على هذا الانحراف، "حيث إن الشريعة الإسلامية داعية أهلها إلى تقويم الفطرة، والحفاظ على أعمالها، وإحياء ما اندرس منها، وأن المقصد العام من التشريع، يتعين أن يكون مسايراً لها، سالماً من خرقها، أو اختلالها، وأن الوصف المترتب عليها وهو أكبر مقاصدها، هو السماحة، وهى سهولة المعاملة في اعتدال، وتظهر سهولتها المحمودة فيما يظن الناس التشديد فيه، ومن ثم كان من الفطرة النفور من الشدة والإعنات"[١].

وهكذا فإن دعوة الإسلام تعمل على حفظ الفطرة الإنسانية، وصيانتها من شوائب التطرف والانحراف.

الهدف الثالث: الاستقامة على أمر الله – ﷻ –

إن كثرة المغريات، وتوالى الفتن الواحدة تلو الأخرى، ربما أوقعت في نفس الإنسان شيئاً من الخلل والتقصير، والذى يكاد لا يخلو منها أحد، فمن لم تصبه لظي هذه الفتن، أصابه دخنها، ولكن الله – ﷻ – لم يترك عبادة هكذا دون توجيه، وإرشاد وتربية، فوجههم إلى ما يحفظهم من ذلك، فقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾[٢]، "والاستقامة حقيقتها: عدم الاعوجاج والميل، والسين والتاء فيها للمبالغة في التقوم، فحقيقة استقام: استقلَّ غير مائل ولا منحن"[٣].

ولا يفهم من ذلك أن الاستقامة تعنى عدم الوقوع في الذنب والمعصية، فهذا تعارض مع الطبيعة البشرية، فعن أنس – رضي الله عنهما –: قال: قال رسول الله – ﷺ – "كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"[٤].

والله – ﷻ – أمرنا بالاستغفار، والرجوع إليه بعد الاستقامة، مما يدل على أن الاستقامة قد يصيب صاحبها خلل، وهذا شئ وارد ولكنه يجبر بالاستغفار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾[٥]، "وهذه إشارة إلى أنه لابد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور، مرجع سابق، ج٢، صـ٥٦١.

(٢) سورة فصلت من الآية "٦".

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج٢٤، صـ٢٨٢.

(٤) رواه الترمذي في سننه، كتاب أبواب صفة القيامة، باب الرقائق والورع عن رسول الله – ﷺ –، ٦٥٩/٤، رقم ٢٤٩٩، وقال: "هذا حديث غريب".

(٥) سورة فصلت من الآية "٦".

بالاستغفار المقتضى للتوبة، والرجوع إلى الاستقامة"[١]، وقد أخبر النبي - ﷺ - أن الناس لن يطيقوا الاستقامة، حق الاستقامة، فعن ثوبان[٢] - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن"[٣].

وهذا يدل على أن الاستقامة التي تهدف إليها التربية، أمر شاق وعسير، وليست بالأمر الهين، والطريق المذلل، لوجود من يحاول الانحراف عن الدرب القويم من شياطين الإنس والجن، والنفس الإمارة بالسوء، وأنها تحتاج إلى عناء، ومشقة، وجهد متواصل من أجل الوصول إليها، ثم الثبات عليها، ولذلك فقد جاء بعد الأمر بالاستقامة قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٤]، وهذا يدل على أن الاستقامة تحتاج إلى جهد ومشقة وعناء.

فالاستقامة على أمر الله - تعالى - هدف أصيل، وغاية جليلة، تهدف إليها التربية الوقائية، وينبغي لكل مسلم أن يسعى إليها، تنفيذاً لأمر الله - عز وجل -، وأسوة برسول الله - ﷺ - والذى أحسَّ برهبتها وقوتها ووضعها أمام عينيه.

إن الاستقامة منهج تربوي وقائي، فهي مدعاة للاستقرار النفسي والاجتماعي، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾[٥]، وكثرة المعاصي والذنوب انحراف عن النهج الإلهي السوى، هذا الانحراف مدعاة للاضطراب النفسي والسلوكي والاجتماعي، لأن المنحرف سيظل في دوامة التعاسة والشقاء والضلال، إن لم

---

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامى البغدادي الدمشقي بن الحنبلي، المتوفى سنة ٧٩٥هـ، تحقيق شعيب الارناؤوط، إبراهيم ناصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ج١، صـ٥١٠ وما بعدها.

(٢) هو أبو عبد الله، وقيل: أبو عبد الرحمن، وأبو عبدالله أصح وهو ثوبان بن بجدد مولى رسول الله - ﷺ - من أهل السراة، وهي موضع بين مكة واليمن، وقيل: إنه من حميد، وقيل: إنه حكمي من حكم بن سعد العشيرة، أصابه سباء فاشتراه رسول الله فأعتقه، ولم يزل يكون معه في السفر والحضر، إلى أن توفى رسول الله - ﷺ - وكان ممن حفظ عن رسول الله، وأدى ما وعى، خرج إلى الشام فنزل الرملة ثم انتقل إلى حمص، وبنى بها داراً، وتوفى بها سنة أربع وخمسين. "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج١، صـ٢١٨، وينظر أيضاً "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج١، صـ٥٢٧.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء، ١/١٨٤، رقم ٢٧٧، ورواه الحاكم في مستدرك، كتاب الطهارة، ١/٦٢٠، رقم ٤٤٧، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

(٤) سورة هود، الآية "١١٥".

(٥) سورة فصلت من الآية "٣٠".

تتداركه رحمة الله – ﷻ – بالهداية والاستقامة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[١]، فالمعاصي والذنوب تؤثر في القلوب، وتضل بصاحبها عن الطريق المستقيم، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "إن المؤمن إذا أذنب، كانت نكتةٌ سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت"[٢] فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣]، فالمعاصي: وهى انحراف، سبب لهذا السواد الذى يغشى القلوب، حتى لا تعرف معروفاً، ولا تنكر منكراً، والقلب هو ملك الأعضاء، "فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه، والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهى جنوده فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه"[٤]، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه –: قال: قال رسول الله – ﷺ –: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه"[٥]، فاستقامة إيمان العبد من استقامة القلب واللسان.

إن هذه الوصية الجامعة، توضح هدف المسلم الذى ينبغي أن يحيا ويعيش عليه فيموت عليه، وهو استقامة القلب والجوارح دون عوج أو انحراف، أو تخاذل أو تراجع قولاً وعملاً، ولذلك فقد عاب الله على قوم ادعوا الاستقامة على الإيمان، وأنهم بلغوا مقاماً عالياً، فقال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٦]، فالاستقامة على دين الله – تعالى –، تكون بالقول والعمل، دون مجاوزة حد الاعتدال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٧]، فمن ركائز الاستقامة، عدم الركون إلى الظالمين، لأن

---

(١) سورة طه من الآية "١٢٢".

(٢) رواه ابن ماجه في السنن، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، ٣١٧/٥، رقم ٤٢٤٤، واللفظ له، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، ٤٥/١، رقم ٦، وقال: "هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين"، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الطبع على القلب أو الرين، ١٧٣/٩، رقم ٨٠٨.

(٣) سورة المطففين الآية "١٤".

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، مرجع سابق، ج١، صـــ٥١٢.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب الدليل على أن التصديق بالقلب والإقرار باللسان أصله الإيمان، ٩٧/١، رقم ٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده ضعيف".

(٦) سورة الحجرات من الآية "١٤".

(٧) سورة هود الآية "١١٢".

الركون ميل، والميل انحراف عن الاستقامة، والله – ﷻ – لا يرضى لعباده بأي ميل وانحراف عن طريقه المستقيم.

من خلال ما سبق يتبين أن الاستقامة على أمر الله – تعالى – ومنهجه، هدف أساسي من أهداف التربية الوقائية، ولذلك فقد أمر الله – ﷻ – بها سيدنا موسى وهارون – عليهما السلام –، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)، فمن لم يكن مستقيماً، فقد ضاع سعيه، وخاب جهده، وخسر الدنيا والآخرة، فعقاب الله – ﷻ – وسخطه الذى أصاب الأمم السابقة، كان سببه: عدم الاستقامة على دين الله – تعالى – ومنهجه.

الهدف الرابع: الوقاية من العلل قبل وقوعها

لقد خلق الله – تعالى – الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه على سائر المخلوقات، فقال في كتابه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٢)، ومن تكريم الله – ﷻ – للإنسان، أنه وضع قواعد وأصولاً، تضمن له الحياة الأمنة السوية والعافية، وتكفل له وللمجتمع السلامة من كل سوء، لأن العلل والأمراض، تنغص على الإنسان حياته، وتقض عليه مضجعه، وتهدد أمنه ومستقبله واستقراره، من أجل ذلك فقد اتخذ الإسلام الإجراءات والتدابير التي من شأنها الحيلولة دون وقوع الجريمة والذنب، وسد كل الأبواب والمنافذ التي تؤدى إلى اقتراف الجريمة، فالإسلام لا ينتظر وقوع الجريمة حتى يتصدى لها، فهناك فرق بين أن يترك الإنسان ليصاب بالعلل، ثم نسعى لمعالجته، وبين حمايته، وتوقيه من العلة أصلاً.

فالوقاية منذ البداية أمر ضروري وهام، يجب الانتباه إليه، وديننا الحنيف فيه كثير من الأحكام والتعليمات التي تحرص على اتقاء الشر قبل وقوعه، والابتعاد عن عوامل الخطر، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾(٣)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾(٤) والنبي – ﷺ – يرشدنا للوقاية في حديث سيدنا أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "إذا خرج الرجل من بيته، فقال بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذ هديت وكفيت، ووقيت، فتتنحى له الشياطين، فيقول شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدى وكفي

---

(١) سورة يونس من الآية "٨٩".

(٢) سورة الإسراء الآية "٧٠".

(٣) سورة النساء الآية "٧١".

(٤) سورة البقرة الآية "١٩٥".

ووقي"[١]، فالإسلام بأحكامه وتشريعاته، هو أول من حرص على مبدأ (الوقاية خير من العلاج)، ففي جانب العقيدة مثلاً، بين للإنسان كل ما يحتاجه من أمرها، سعياً إلى بناء عقيدة صحيحة في النفوس، "ليصل إلى مقطع الحق في تأسيس الإيمان بمعرفة جلال الله تعالى، وعظيم سلطانه، معرفة تطمئن بها القلوب، وتؤمن بها العقول[٢]، ونهى عن عبادة ما سواه، إلى غير ذلك من الأساليب الوقائية في جانب العقيدة، لوقايتها من الشرك والنفاق، "فالجانب الإيماني الاعتقادي من الدين يقدم لنا أساساً راسخاً من العقيدة الثابتة والتصورات الواضحة والمترابطة، والأهداف النيرة، والحوافز الدافعة إلى السعي، الباعثة على بعد الأمل والتفاؤل والجد والوعى[٣]، ثم جاء الإسلام وضمن العبادات التي أمرنا بها كثيراً من أنواع الوقاية، فالصلاة مثلاً: سبباً للابتعاد عن الرذائل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾[٤]، وجعل الغرض من الصيام التقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[٥]، وكذلك أيضاً الحج، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٦] "فإن تحصيل ملكه التقوى هي: الغرض من الحج، ومن كل عبادة"[٧].

ثم تأتى بعد ذلك الأخلاق: التي حرص الإسلام على غرس مكارمها في نفوس البشر، وحث المجتمع على الوقوف أمام كل أشكال الجرائم والانحراف ومحاربتها، للحيلولة دون وقوعها وحدوثها.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، ٤٢٥/٧، رقم ٥٠٩٥، واللفظ له، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث حسن بشواهده"، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو الرجل إذا خرج من بيته، ١٢٧٨/٢، رقم ٣٨٧٦، ورواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب ذكر الشئ الذي يهدي القائل به، ويوفي إذا قاله عند الخروج من منزله، ١٠٤/٣، رقم ٨٢٢.

(٢) القرآن العظيم هدايته واعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، ط٢، سنة١٤١٠هـ، ١٩٨٩م، دار القلم، دمشق، صـ١٧.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي، مرجع سابق، صـ٢٨.

(٤) سورة العنكبوت الآية "٤٥".

(٥) سورة البقرة آية "١٨٣".

(٦) سورة البقرة الآية "١٩٧".

(٧) تفسير القرآن الحكيم ، محمد رشيد على رضا محمد شمس الدين بن محمد بن بهاء الدين، المتوفى سنة ١٣٥٤هـ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٠م، ج٢، صـ١٩٤.

والفرق كبير بين أن يترك الإنسان ليصاب بالمرض والعلل، ثم نسعى لمعالجته، وبين وقايته من العلل أصلاً، فالوقاية خير من العلاج، لأن العلاج إما أن يكون ميؤوساً منه، وإما أن تكون نسبة النجاح منه قليلة، وهكذا يقرر الإسلام مبدأ (الوقاية خير من العلاج) ليقطع الطريق على العلل والأمراض والآفات قبل وقوعها ، للابتعاد عن عوامل الخطر، فلا يكون هناك جريمة، ولا عقاب.

الهدف الخامس: تزكية النفوس وتطهيرها

إن الانسان مزيج بين الخير والشر، والطيب والخبث، وأودع الله – تعالى – فيه من القوى، ما يجعله قادراً على التمييز بين الحق والباطل، والطيب والخبيث، فكرم الله – ﷻ – الإنسان بالعقل، الذى يبعده عن الفجور المؤدى إلى النار، ويمهد له الطريق المؤدى إلى الجنة، وما من إنسان إلا ويميز في نفسه بين الخير والشر، إلا إذا فقد العقل، أو أصابه خلل وانحراف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[١]،"فالله – تعالى – جعل كل إنسان متمكناً بقواه الفطرية من أعمال الفجور والشرور، ومن أعمال التقوى والخيرات، وهو الذى يذكى نفسه بهذه، أو يدنسها بتلك، فمن صحت عقيدته، وحسن علمه، صحت نفسه، وزكت، وكانت أهلاً للتنعيم في ذلك العالم العلوى"[٢]. وأما من ساء عمله، وفسدت عقيدته، فقد سعى في هلاك نفسه، وهذا هو ما وضحه النبي – ﷺ – فعن أبي مالك الأشعري[٣] – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "كل الناس يغدوا، فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها"[٤]، "ودل الحديث على أن كل إنسان فهو ساع في هلاك نفسه، أو في فكاكها، فمن سعى في طاعة الله، فقد باع نفسه لله، وأعتقها من عذابه، ومن سعى في معصية الله، فقد باع نفسه بالهوان، وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب الله وعقابه"[٥].

والله – ﷻ – في كثير من آيات القرآن يوجه النفس الإنسانية الوجهة الصحيحة، ليربيها على التزكية والتطهير، ويبعدها عن شؤم الانحراف الذى قد يصيبها، لأن النفس الإنسانية موضع لكثير من الصفات الذميمة التي حرص الإسلام على تهذيبها وتوجيهها، من هذه الصفات:

---

(١) سورة الشمس الآية "٧، ٨".

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٦، صـ٢٥.

(٣) "أبو مالك الأشعري ويقال: الأشجعي قيل: اسمه عمرو بن الحارث بن هانئ وقيل: كعب بن مالك وقيل: كعب بن عاصم، قدم في السفينة مع الأشعريين على النبي – ﷺ –، له صحبة ورواية، يعد في الشاميين، وتوفى في خلافة أبي بكر، وقيل في زمن عمر بن الخطاب"، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، ج٤، صـ١٧٤٥.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ١/٢٠٣، رقم ٢٢٣.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مرجع سابق، ج٢، صـ٢٨.

التكبر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾[١]، فتأتي التوجيهات الربانية للتطهير من الكبر، فتجعله محرماً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٢]، والنفس عندما تنحرف، فإنها تميل بصاحبها عن طبيعة الفطرة التي فطر الله – تعالى – الناس عليها، فتأمر صاحبها بالسوء والإقدام على ارتكاب المحرمات والآثام، فتحتاج إلى ما يطهرها من هذه الآثام والشرور، حتى تستقيم، فالله – ﷻ – يقول على لسان سيدنا يوسف: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾[٣]، والنفس الأمارة بالسوء إذا تركت وشأنها، أوقعت صاحبها في المفاسد، ولذلك فهي تحتاج إلى تطهير وتزكية "فالعمل على تزكية النفس وتطهيرها مما يخالطها من ذنوب وآثام، هو أمر مطلوب دائماً من كل إنسان يطلب الفلاح والنجاح، كما يقول سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[٤][٥].

والتزكية هي إحدى المهمات التي جاء بها الرسل والأنبياء – عليهم السلام – ليربوا البشر على تربية النفس، فتطهر من الرذائل والأخلاق السيئة، وهى المقصد الثاني من مقاصد بعثه النبي – ﷺ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٦]، من أجل ذلك فقد جاء الإسلام بالأسس والمبادئ التي بنى عليها تزكية النفس ومن أهمها العبودية لله تعالى، وهي الأساس الأول الذى تبنى عليه تزكية النفس، وهى الطريق المؤدى إلى استقامة السلوك، فهي تغرس في نفس الإنسان الرقابة الداخلية على أعماله، وكل حركاته وسكناته، وذلك لاعتقاده بأن الله – تعالى – معه، ومطلع عليه، فحينئذ يكون الإنسان شديد الحذر والبعد عن المعاصي والشهوات فتزكو بها نفسه، لاعتقادها بأن الله – تعالى – أقرب إليها من حبل الوريد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[٧]، وهذا يجعل الإنسان دائماً في سيطرة على نفسه فيمنعها من السيئات، فإذا

---

(١) سورة الفرقان من الآية "٢١".
(٢) سورة لقمان الآية "١٨".
(٣) سورة يوسف من الآية "٥٣".
(٤) سورة الأعلى الآية "١٤، ١٥".
(٥) التفسير القرآن للقرآن الخطيب، مرجع سابق، ج١٤، صـ٦١٤.
(٦) سورة الجمعة الآية "٢".
(٧) سورة ق الآية "١٦".

لاحت له معصية، تذكر رقابة الله – تعالى – عليه، فيتركها في الحال، ليصل إلى درجة الفلاح التي أخبرنا الله بها في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[١]، والمعنى "قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وخاب من دساها بالمعاصي، فالطاعة تزكى النفس وتطهرها، فترتفع، والمعاصي تُدّنس النفس، وتقمعها فتنخفض، وتصير كالذي يُدَّس في التراب"[٢]، فالنفس تزكوا بالعبودية، والطاعة لله وحده.

ومن الأمور التي تزكي النفس: غض البصر، وحفظ الفرج، وهناك في القرآن الكريم أمر عام رباني يشمل الرجال والنساء على حد سواء، لا فرق بينهما، وهو غض البصر عما حرم الله – تعالى – ثم ثنى ذلك بحفظ الفرج، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٣]، فغض البصر وحفظ الفرج، من وسائل تزكية النفوس، لأنه إما أن يرتكب الإنسان الحرام، ويهتك الأعراض، وإما أن يكدر نفسه ويؤلمها بالصبر على ما لا يطيق.

ولما كان النظر من أعظم وأهم المنافذ إلى القلب، وإطلاقه بغير قيد، قد يوقع صاحبه في الفتن والشبهات، فقد أمر الله – ﷻ – بغضه، ثم ثنى هذا الأمر بحفظ الفرج، لأن النظر يؤدى إليه، "ومسألة غض البصر التي يأمرنا بها ربنا – ﷻ – في هذه الآية، هي صمام الأمان الذى يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة، ويسد الطريق دونها"[٤]، لذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[٥]، والأمر لا يقتصر على غض البصر عما يحدث في القلب هوى للنفس فقط، بل يتعدى ذلك ليشمل الأموال والأولاد والملابس مما جعله الله – تعالى – زينة الحياة الدنيا، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[٦]، ويدخل تحت غض البصر، البيوت لأنها تستر أصحابها، فالبيوت جعلها الله – تعالى – سكناً يأوي الناس إليها، لتطمئن فيها النفوس على حرماتهم، ويستترون فيها، ولذلك فقد جاء الأمر بالغض وحفظ الفرج، بعد آية الاستئذان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا

(١) سورة الشمس الآيات "٩ – ١٠".
(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مرجع سابق، ج٢، صـ٢٨.
(٣) سورة النور الآيات "٣٠ – ٣١"
(٤) الشعراوي، مرجع سابق، ج١٦، صـ١٠٢٤٨.
(٥) سورة النور من الآية "٣٠".
(٦) سورة طه من الآية "١٣١".

وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾(١)، من أجل ذلك شرع الاستئذان قبل الدخول، حتى لا يقع البصر على عورة أهل البيت، وهو أسلوب وقائي، ليقطع الطريق على الفتنة قبل وقوعها، فإذا أَذِنَ صاحب البيت بالدخول، فلابد من الاستئناس والسلام، (حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)، وفي ذلك مراعاة لظروف أهل البيت وعوراتهم.

وهناك علاقة حميمة بين غض البصر، وحفظ الفرج، لأن حفظ الفرج: لا يتم إلا بغض البصر، من أجل ذلك بدأ الله – ﷻ – به ثم ثنى بحفظ الفرج، أما من أعطى فرصة لنفسه، وأطلق العنان لبصره، فقد فتح باباً عظيماً لخطر كبير، وتحركت مكامن الشهوة في نفسه، فيخضع لشهواته ونزواته، فتزكية النفوس لابد لها من حماية ووقاية، فهناك الكثير من الأمراض والمعوقات التي تعترض طريقها، ومنها السيئات والمعاصي، والله – ﷻ – حصن النفوس وأعطاها المناعة اللازمة لتطهيرها، ووضح وسائل تزكيتها وأعان عليها بفضله ورحمته، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ ﴾(٢).

إن عدم الإعجاب بالنفس وحب المدح من الأمور التي تزكي النفس وتطهرها، ولذلك فقد حذر الله – تعالى – من هذه الآفة، لأنها تجعل النفس تغتر، فتنحرف عن طريق الاستقامة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾(٣)، فالنفس لو تغلغل فيها حب الدنيا، والركون إلى الشهوات، فإنها تعشق المدح والتزكية، من أجل ذلك ذم النبي – ﷺ – مدح الإنسان صاحبه في وجهه حتى لا يغتر بنفسه، ويؤدي به العجب إلى الكبر، فعن أبي موسى الأشعري – ﷺ – قال: سمع رسول الله – ﷺ – رجلاً يثنى على رجل ويطريه في مدحه، فقال: "أهلكتم، أو قطعتم، ظهر الرجل"(٤).

وفي ذلك اشارة إلى هلاك الممدوح، لما قد يناله من الغرور، والعجب بنفسه، وغير ذلك من الآفات القلبية، فإذا انتفى ذلك فلا بأس لقول النبي – ﷺ – "إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الإيمان في قلبه"(٥)، ففي هذا النوع من المدح فوائد كثيرة منها استنهاض الهمم والشهادة الصادقة

---

(١) سورة النور الآية "٢٧".

(٢) سورة النور الآية "٢١".

(٣) سورة النجم من الآية ٣٢.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من الاطناب في المدح وليقل ما يعلم، ١٧٧/٣، رقم ٢٦٦٣، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب النهى عن المدح إذا كان فيه افراط وخيف منه فتنة على الممدوح، ٢٢٩٧/٤، رقم ٣٠٠١.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك، ٦٩٠/٣، رقم ٦١٣٥، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

من المؤمنين فعن أبي ذر قال: قيل لرسول الله – ﷺ – "أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن"(١)، وقد مدح النبي – ﷺ – في وجوههم أما النهى عن تزكية النفس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾(٢)، ليس المراد به الكف والبعد عن طلب التطهير والتزكية، لأن ذلك مطلوب في كل وقت، ولكن المراد بالتزكية: "هو النهى عن الاطمئنان إلى النفس، وعدها مزكاة مطهرة لا تحتاج إلى تزكية وتطهير، فإن النفس التي خالطت تراب الأرض، ولبست هذا الجسد الترابي، لن تكون أبداً على حال كاملة من النقاء والطهر بل هي دائماً في حاجة إلى زكاة وتطهير فلا تحسبوا أنفسكم مزكاة مطهرة، بل هي دائماً في حاجة إلى تزكية وتطهير، فالنهى عن تزكية النفس هنا، نهى عن إخلاء النفس من مشاعر الاتهام لها بالهوى، والنظر إليها نظرة لا ترفعها إلى درجة الكمال، وهذا من خداع النفس الذى يزين المرء بسوء عمله، ويريه من ذاته أنه أوفى على غاية الإحسان"(٣).

فإذا تتبع الإنسان هذه الأسس، التي وضعها الإسلام لتزكية النفس، أصبح مطمئن النفس طاهراً من الآثام والشرور، بعيداً عن الانحراف والتطرف، وهذا هو ما تهدف إليه التربية الوقائية، وتريد غرسه وتحقيقه في نفوس المسلمين.

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره، ٢٠٣٤/٤، رقم ٢٦٤٢.

(٢) سورة النجم من الآية ٣٢.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج١٤، صـــ ٤ وما بعدها

المبحث الخامس

دور التربية الوقائية في بناء الأفراد والمجتمعات

أولاً: دور التربية الوقائية في بناء الأفراد

لقد جاء الإسلام بالمنهج الوقائي المتكامل والمتميز عن بقية المناهج الأخرى، والإنسان إذا اتبع هذا المنهج الوقائي الذى جاء به الإسلام، فقد سار على المنهج المستقيم، الذى لا عوج فيه ولا انحراف، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١)، وهذا من عناية الإسلام ببناء الأفراد وصلاحهم، لأن صلاحهم صلاح للمجتمع كله، ليصل بهم إلى النعيم الدائم، ويصونهم من عذاب الله – تعالى –، وأهم هذه الأسس التربوية الوقائية لبناء الأفراد هي:–

الأساس الأول: بناء الأفراد وقائياً قبل الولادة

إن تربية الأولاد تبدأ منذ وقت مبكر جداً، عما يتخيله البعض الذين يجعلون التربية الوقائية مصاحبة للإنسان، أو الطفل منذ الميلاد والنشأة، ولكن في الحقيقة هذا تضييق لدور التربية الوقائية الواسع في بناء الأفراد، لأن الإسلام أرشدنا إلى أن التربية الوقائية تكون قبل ذلك، منذ لحظة اختيار الأم، وهذه هي البداية الحقيقية للتربية الوقائية.

أولاً: حسن الاختيار:–

لقد وضع التشريع الإسلامي أمام الرجل والمرأة قواعد تنظيمية لاختيار الزوجين، إذا سلكها الإنسان، كان هذا الزواج ميسراً، وكانت الحصيلة من هذا الزواج وهى الذرية، لبنة صالحة يصلح بها المجتمع الاسلامي، لأن الاختيار السليم، يضمن الاستقرار، والهدوء لذلك أرشد النبي – ﷺ – الرجال الذين يقدمون على الزواج، بأن يظفروا بذات الدين، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال: "تنكح المرأة لأربع، لمالها، ولحسبها، وجمالها، ودينها. فاظفر بذات الدين، تربت يداك"(٢)، و "الصحيح في معنى هذا الحديث أن النبي – ﷺ – أخبر بما يفعله الناس في العادة، فإنهم يقصدون هذه الخصال الأربع، وآخرها عندهم ذات الدين، فاظفر أنت أيها المسترشد بذات الدين، لا أنه أمر بذلك"(٣)، وهذا لا يعنى إهدار قيمة الصفات الأخرى، وذم من

---

(١) سورة الأنعام، الآية "١٥٣".

(٢) رواه البخاري في كتاب الزواج، باب الأكفاء في الدين، ٧/٧، رقم ٥٠٩٠، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، ١٠٨٦/٢، رقم ١٤٦٦.

(٣) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج١٠، صـ٥١.

يفعلها، ولكنها رعاية الأهم عند توزيع الصفات، إذا لم يقدر على الجمع بينها، فإذا اجتمعت كلها مع صفات الدين، فإن الإسلام يباركها، أما إذا لم تكن مصحوبة بالدين والخلق، فلا قيمة لها، فعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوا النساء لأموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن وأنكحوهن على الدين، فلأمة سوداء خرماء[١]، ذات دين أفضل"[٢].

إن لحسن اختيار الزوجة، أثراً بالغ الأهمية في بناء الأفراد، ولذلك فقد أمر الإسلام بحسن اختيارها، لدورها العظيم في بناء أفراد الأسرة، لتكون قوية متماسكة، والنبي– ﷺ – يأمرنا بأن ندقق النظر في الاختيار، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"[٣]، وإذا كان هذا في حق اختيار الصاحب والصديق، فمن باب أولى الزوجة، لأنها تلازمه أكثر من الصاحب، وتعينه على طاعة الله – سبحانه وتعالى – وتصونه وتحفظه من الانحراف والذلل، إذا كانت صالحة، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – "من رزقه الله امرأة صالحة، فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الثاني"[٤].

إن الأم هي المصنع، الذى سيصنع فيه الأبناء، وهى المدرسة التي سيتخرجون منها، فإن كانت صالحة: أرضعتهم الصلاح والتقوى، لأن المنبت الحسن يخرج نباته حسناً بإذن ربه – سبحانه وتعالى – أما المنبت السوء لا يخرج إلا سوءً، ومن هنا يتبين أن دور الأم في التربية للأبناء، سابق لدور الأب لكثرة ملازمتها للطفل منذ التكوين والنشأة في بطنها جنيناً، حتى يصل إلى الكبر، فهذا الاختيار سيكون له أثر عظيم في بناء الأفراد، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال

---

(١) أصل الخرم: قطع بعض وترة الأنف، يقال إذا قطع ذلك من الرجل أخرم، والمرآة خرماء ثم يستعمل ذلك فى كل منتقص منه، شرح صحيح البخاري لابن بطال تحقيق أبو تميم ياسر إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ج٢، صـ٣٧٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب تزويج ذات الدين، ٦٣/٣، رقم ١٨٥٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده ضعيف لضعف الإفريقي"، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب استحباب التزويج بذات الدين، ١٢٨/٧، رقم ١٣٤٦٩، واللفظ له.

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، ٢٥٩/٤، رقم ٤٨٣٣، ورواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب بدون ترجمة، ٥٨٩/٤، رقم ٢٣٧٨، وقال: "حديث حسن غريب"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب البر والصلة، باب وأما حديث عبد الله بن عمرو، ١٨٨/٤، رقم ٧٣١٩، واللفظ له.

(٤) رواه الحاكم في مستدرك، كتاب النكاح، ١٧٥/٢، رقم ٢٦٨١، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، باب الترغيب في النكاح لما فيه من العون على حفظ الفرج، ٣٤١/٧، رقم ٥١٠١.

رسول الله – ﷺ –: "تخيروا لنطفكم، فأنكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم"[١]، وذلك لأن "الولد ينزع إلى أصل أمه وطباعها"[٢]، وإذا كانت الشريعة قد حثت على طلب الزوجة الصالحة، لبناء أفراد الأسرة بناءً سليماً، فإنها حثت كذلك الآباء، أو من يقوم مقامهم، على تزويج بناتهم من الرجال الصالحين، فعن أبي هريرة – ﷺ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "إذا آتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوه، تكن فتنة في الأرض، وفساد عريض"[٣]. فقد أوضح النبي – ﷺ – ما سيحدث من الأخطار والمفاسد الجسيمة، التي تنتظر الأفراد والمجتمع، إذا لم يحسنوا الاختيار لبناتهم، "ومن هنا يجب على الولي أن يراعى خصال الزوج، ولينظر كريمته، فلا يزوجها من ساء خُلُقه أو خَلَقه، أو ضعف دينه، أو قصر عن القيام بحقها، أو كان لا يكافئها في نسبها، والاحتياط في حقها أهم، لأنها رقيقة بالنكاح، لا مخلص لها، والزوج قادر على الطلاق بكل حال، ومهما زوج ابنته ظالماً، أو فاسقاً، أو مبتدعاً، أو شارب خمر، فقد جنى على دينه وتعرض لسخط الله، لما قطع من حق الرحم، وسوء الاختيار"[٤].

وإذا كانت المرأة الصالحة خير متاع الدنيا، فيما يتعلق بالزوج، فعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما، أن رسول الله – ﷺ –، قال: "الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة"[٥]، فإن الزوج الصالح التقى، لا يقل عن ذلك بالنسبة للزوجة أيضاً.

إن حسن الاختيار، يساعد على استقرار الحياة الزوجية، ووقايتها من الاضطراب والانحلال، فهو حصن وسياج منيع، يمنع من الإيقاع في مهاوى الهلاك والمعاصي، لأن معظم مشكلات الزواج تنتج عن التسرع في الاختيار غالباً، دون معرفة أو بحث دقيق، ولذلك فقد "جاء رجل إلى عمر بن الخطاب – ﷺ – يشكو عقوق ابنه فأحضر عمر الولد وأنّبه على عقوقه لأبيه، ونسيانه لحقوقه عليه فقال الولد: يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال عمر: بلى، قال: فما هي يا أمير

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب الاكفاء، ١٤٢/٣، رقم ١٩٦٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث حسن بطرقه وشواهده"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ١٧٦/٢، رقم ٢٦٨٧، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب اعتبار الكفاءة، ٢١٤/٧، رقم ١٣٧٥٨.

(٢) فيض القدير، شرح الجامع الصغير، المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، سنة ١٣٥٦هـ، ج٣، صـ٢٣٧.

(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، ٣٨٦/٣، رقم ١٠٤٨، ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب الاكفاء، ١٤١/٣، رقم ١٩٦٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حسن لغيره"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ١٧٩/٢، رقم ٢٦٩٥، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، د، ت، ج٢، صـ٤١.

(٥) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، ١٠٩٠/٢٠، رقم ١٤٦٧.

المؤمنين؟ قال عمر: أن ينتقي أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب (القرآن) قال الولد يا أمير المؤمنين إن أبي لم يفعل شيئاً من ذلك، أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي، وقد سماني جعلاً (أي خنفساء)، ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً فالتفت عمر إلى الرجل وقال له جئت إلي تشكو عقوق ابنك قد عققته قبل أن يعقك، وأسأت إليه قبل أن يسئ إليك"[١] ولذلك يمكن القول بأن حسن الاختيار إجراء تربوي وقائي، يبدأ من وقت مبكر، ليعمل دوره في بناء الأفراد.

ثانياً: الدعاء بتحصين الولد من الشيطان عند طلب المعاشرة

إذا ما وفق كل واحد من الزوجين في حسن اختيار صاحبه كما أمرهما الإسلام، يأتي توجيه اسلامي آخر لبناء الأفراد، ووقايتهم من مكايد الشيطان، وذلك عند وضع النطفة في الرحم، ويكون بذكر الأدعية التي تحصن المولود، وهو نطفه من الشيطان الرجيم، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما –: قال رسول الله – ﷺ –: "لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله، قال: باسم الله، "اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك، لم يضره شيطان أبداً"[٢]، "أي: لم يضر الولد المذكور، بحيث يتمكن من اضراره في دينه، أو بدنه، وليس المراد، رفع الوسوسة من أصلها"[٣]، أو العصمة من المعصية، لأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم في العروق، ولكنه يسلم منه في الجملة، ومن مكايده بحيث لا يصير واحداً من أوليائه، لأنه صار في عصمة الله – ﷻ – وحفظه منه، وهذا جانب من جوانب التربية الوقائية المبكرة للطفل قبل ولادته، فما أعظم اهتمام الإسلام ببناء الأفراد، حتى في أشد اللحظات عند الإنسان وهى لحظة الجماع، وفوران الشهوة، فقد يرزق من هذا الجماع ولد، فمن حقه وواجبه عليه، أن يحميه من الشيطان، ويقيه من كيده، حتى وإن كان هذا الابن مستوراً في رحم الغيب، فإذا ترك الأب التسمية والدعاء وقت الجماع، فات الولد خيراً كثيراً بسبب إهمال الأب: "وقد يفوت الولد خير بسبب تفريط الأبوين، وإن لم يكن من كسبه، كما أنه عند الجماع إذا سمى أبوه

---

(١) من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، كمال الدين عبد الغني المرسي، دار المعرفة الجامعية، ط١، ١٤١٩هـ، ١٨٩٨م، صـ١٠٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب التسمية عند كل حال وعند الوقاع، ١/٤٠، رقم ١٤١، ورواه مسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، ١٠٥٨/٢، رقم ١٤٣٤، واللفظ له.

(٣) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، أحمد بن على بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون ط، ت، ١٣٧٩هـ، ج١١، صـ١٩١.

لم يضر الشيطان ولده، وإذا ترك التسمية لم يحصل للولد هذا الحفظ"[١]، ويكون الشيطان مشاركاً له فيه، كما قال ربنا – ﷻ –: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[٢]، "بأن تحثهم على أن ينشؤهم تنشئة تخالف تعاليم دينهم الحنيف، وبأن تيسر لهم الوقوع في الزنا الذى يترتب عليه ضياع الأنساب، وبأن تظاهرهم على أن يسموا أولادهم بأسماء يبغضها الله – ﷻ – إلى غير ذلك من وساوسك التي تغرى الآباء، بأن يربوا أبناءهم تربية، يألفون معها الشرور والآثام والفسوق والعصيان"[٣]، وبذلك تنحرف التربية الصالحة إلى تربية ضارة.

فالحاصل أن التسمية والدعاء، لهما من البركة والخير، ما تعصم الأولاد من مكائد الشيطان، وهذا يسهم بدوره في بناء الأفراد الصالحين.

الأساس الثاني: بناء الأفراد وقائياً بعد الولادة

كما وضع الإسلام أسساً لبناء الأفراد، ووقايتهم قبل الولادة، وضع كذلك أسساً متينة بعد ولادتهم، حتى لا يكون هذا البناء ضعيفاً، ومن هذه الأسس التربوية لبناء الأفراد بعد ولادتهم:-

أولاً: التأذين في أذن المولود

لقد وجه الإسلام الآباء إلى استقبال الأبناء بتكبير الله – ﷻ – وتوحيده، حيث وجههم إلى إلقاء الآذان في أذن المولود، ليكون أول ما يقرع سمع المولود هذه الكلمات العذبة الصافية، المتضمنة للتوحيد والشهادة، والدعوة إلى الصلاة والفلاح الحقيقي، فعن أبى رافع[٤] – ﷺ – قال: رأيت رسول الله – ﷺ – أذن في أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة بالصلاة"[٥]، وذلك لأن "الآذان

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد، محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن شمس الدين بن قيم، بن القيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥٠، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ج٢، صـ٢٩٧.

(٢) سورة الإسراء من الآية "٦٤".

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، الإمام الأكبر شيخ الأزهر السابق، مرجع سابق، ج٨، صـ٣٩٠.

(٤) هو إبراهيم أبو رافع مولى رسول الله – ﷺ – ، وقيل هرمز، وقيل أسلم، وقيل ثابت، وكان قبطياً وكان للعباس – ﷺ – فوهبه للنبي – ﷺ – وكان إسلامه في مكة، وشهد أحداً والخندق، لما بشر النبي بإسلام العباس أعتقه وزوجه مولاته سلمى، وشهد فتح مصر توفى سنة أربعين. "أُسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج١، صـ١٥٦، وينظر "الإصابة في معرفة الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٧، صـ١١٣.

(٥) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الصبي يولد فيؤذن في أذنه، ٤٣١/٧، رقم ٥١٠٥، قال الشيخ الأرنؤوط: "هذا حديث حسن"، والترمذي في سننه، كتاب الأضاحي، باب الأذان في أذن المولود، ٩٧/٤، رقم ١٥١٤، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبد الله الحسين بن علي، ١٩٧/٣، رقم ٤٨٢٧، وقال: "صحيح الاسناد ولم يخرجاه".

في أذن المولود له تأثير عجيب، وأمان من الجن والشيطان، كما للدعاء عند الوقاع، له تأثير بليغ، وحرز من الشيطان"[١]، فالأذان حرز وحفظ للولد من الشيطان، ووقايته من شر وسوسته، وتضليله وهذا من أشد ما يزلزل كيان الشيطان، ويفقده صوابه، حتى يفعل حركات السفهاء، فعن أبي هريرة – ﷺ – أن رسول الله – ﷺ – قال: "إذا نودى للصلاة، أدبر الشيطان وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر"[٢]، إن الطفل حينما يولد، يكون صفحة بيضاء، فجاء الإسلام بتعاليم راسخة من أجل بنائه، وذلك بسماع ذكر الله – ﷻ – أولاً وقبل كل شئ، حتى يطرد منه الشيطان الذى يتربص به منذ الولادة لإفساده، وعلى المربى أن يتولى رعاية هذه النبتة الغضة، وهذا البناء، لئلا تفسد فطرته بالمؤثرات الخارجية الخبيثة، إذاً "سر التأذين – والله أعلم – أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان، كلماته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا، كما يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها، وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه، وتأثيره به وإن لم يشعر، مع ما في ذلك من فائدة أخرى، وهى هروب الشيطان من كلمات الآذان، وهو كان يرصده حتى يولد فيقارنه للمحنة التي قدرها الله – ﷻ – وشاءها، فيسمع شيطانه ما يضعفه ويغيظه أول أوقات تعلقه به، وفيه معنى آخر، وهو أن تكون دعوته إلى الله وإلى دينه الإسلام، وإلى عبادته سابقة على دعوة الشيطان كما كانت فطرة الله التي فطر عليها سابقة على تغيير الشيطان لهما، ونقله عنها ولغير ذلك من الحكم"[٣].

فإلقاء الآذان في أذن المولود، له دور عظيم في بناء الأفراد، ووقايتهم من الشيطان الذى يفر عند سماع كلمات هذا الآذان، ولتربيتهم منذ البداية على العقيدة الصحيحة، لأن فيها وبها الفلاح الحقيقي الذى ينشده أي فرد.

---

(١) عون المعبود، شرح بن أبى داود، محمد أشرف بن أمير بن على بن حيدر أبو عبدالرحمن شرف الحق الصديقي العظيم آبادي، سنة ١٣٢٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥، ج١٤، صـ٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الآذان، باب فضل التأذين، ٤٨/٢، رقم ٦٠٨، واللفظ له، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان، ٢٩١/١، رقم ٣٨٩.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود، محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، ابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١هـ، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ط١، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م، صـ٣١.

ثانياً: الحث على اختيار أحسن الأسماء وتجنب قبيحها

من مظاهر اهتمام الإسلام ببناء الأفراد: أن حث على اختيار الأسماء الحسنة للأولاد، لأن الاسم هو الرمز اللفظي الذى يدل عليه، وقد يعطى الاسم نوعاً من التأثير، والانطباع الحسن أو السئ عن الشخص المتسمى به، من أجل ذلك جاءت الشريعة الإسلامية، ووضعت الأحكام والتشريعات التي تضبطها، وتضمن نفعها، وتحد من خطورتها، بل وغيرت القبيح منها، لأنها تبقى ملازمة لأصحابها خلال فترة حياتهم كلها، بل تبقى بعد مماتهم، حيث ينادون بها على رؤوس الخلائق والأشهاد يوم القيامة، فلابد أن يكون هذا الاسم حاملاً لمعنى محمود، أو صفة حسنة، تبعث الراحة في النفس، والطمأنينة في القلب، لذا فهو لا يرضى لأبنائه أن تطلق عليهم الأسماء السيئة، أو القبيحة، وقد اصطفى الله – ﷻ – أبلغ الأسماء وأحسنها للأنبياء والرسل – عليهم السلام –، فقال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴾(١)، وسمى من اعتنق دينه الحق: بالمسلمين، فقال تعالى:﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾(٢)، لأن للأسماء الحسنة أثر كبير في نفوس أصحابها، فهي تشرح صدورهم وتحفزهم للاتصاف ببعض دلالتها، ولذا كانت الأسماء المعبدة لله – ﷻ – أحب الأسماء إلى الله – ﷻ –، فعن ابن عمر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "إن أحب أسمائكم إلى الله: عبدالله، وعبدالرحمن"(٣)، "وإنما صار هذان الاسمان أحب إليه تعالى، لأن أحدهما إضافة إلى أغلى أسماء الله الذى خص التوحيد به في كلمة الشهادة، والآخر إضافة إلى اسم الرحمن، الدال على كمال رحمته العامة بكل خليقته"(٤)، فهذا الحديث وغيره، أصل في طلب الاسم الحسن للمولود، لأن الاسم عنوان للمسمى، ودليل عليه، وهو يثبت في نفس المولود معانى العزة والكرامة، والطهر والصلاح، "فهذه الأسماء وأمثالها، تضمنت وصفاً واجباً لله – ﷻ – وهو العبودية، وتضمنت وصفاً للإنسان وهو العبودية لله – ﷻ – والخضوع له والذل، فيشعر الشخص بتميزه، ويزداد ثقة بنفسه، لأن الإنسان متعلق بمعبوده واله، من أجل ذلك نهى النبي – ﷺ – عن التسمي بأسماء

---

(١) سورة مريم الآية "٧".

(٢) سورة الحج من الآية "٧٨".

(٣) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهى عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، ١٦٨٢/٢، رقم ٣١٣٢.

(٤) شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، محمد بن عز الدين عبد اللطيف بن عبدالعزيز بن أمين الدين بن غرشنا الرومي الكرواني الحنفي المشهور بابن الملك، المتوفى سنة ٨٥٤هـ، تحقيق لجنة مخصصة من المحققين إشراف نور الدين طالب، طبعة إدارة الثقافة الإسلامية، ط ١، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م، ج٥، صـ٢٠٧.

الله – ﷻ – أو صفاته، فعن أبي هريرة – ﷺ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "أخنع الأسماء عند الله: رجل تسمى بملك الأملاك[١]، لأن الملك الحق لله وحده.

إن للأسماء تأثير في المسميات، لأنها قوالب للمعاني، و "لما كانت الأسماء قوالب للمعاني، ودالة عليها، اقتضت الحكمة، أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحض، الذى لا تعلق له بها، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشهد بخلافه، بل للأسماء تأثير في المسميات، وللمسميات تأثرٌ عن أسمائها في الحسن والقبح، والخفة والثقل، والطاقة والكثافة"[٢]، من أجل ذلك نهانا النبي – ﷺ – عن التسمي بالأسماء التي تتصف بالانحلال، أو تدل على العصيان والظلم، وما شابهها، حتى يصان الأفراد من التسمي بها، أو أن تكون أعلاماً عليهم، وقاية لهم حتى لا تسرى إليهم بعض أوصافها، لأن للمرء نصيب من اسمه كما يقال: فقد روى سعيد بن المسيب – ﷺ – عن أبيه، أن أباه، جاء إلى النبي – ﷺ – فقال: ما "اسمك"؟ قال: حَزْن: قال أنت سهل: قال: لا أغير اسماً سمانيه أبى، قال ابن المسيب: فما زالت الحزونة فينا بعد"[٣]، وقد غير النبي – ﷺ – "اسم عاصية[٤]، فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – غير اسم عاصية، وقال: أنت جميلة"[٥]، لأن الأسماء التي لم يراع في اختيارها الضوابط الشرعية، تؤثر سلباً على نفسية المسمى، حين يشعر بالخجل من اسمه ويتوارى ويتحاشى ذكره، مما يسبب له الانطواء وغير ذلك من الأمراض النفسية، نتيجة لسخرية الآخرين، وقد يمتد أثرها السئ إلى أجيال متعددة، ولقد "اقتضت حكمة الشارع الرؤوف بأمته الرحيم بهم، أن يمنعهم من أسباب توجب لهم سماع المكروه أو وقوعه، وأن يعدل عنها إلى أسماء تُحَصِّلُ المقصود من غير مفسدة"[٦]، أما الأسماء التي روعي فيها الضوابط الشرعية،

---

(١) البخاري كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله، ٤٥/٨، رقم ٦٢٠٦، واللفظ له، ورواه مسلم،، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، ١٦٨٨/٣، رقم ٢١٤٣.

(٢) زاد المعاد في هدى خير العباد، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ج٢، صـ٣٠٧.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب اسم الحزن، ٤٣/٨، رقم ٦١٩٠.

(٤) هي جميلة بنت ثابت بن أبى الأفلح الأنصارية، أخت عاصم بن ثابت، امرأة عمر بن الخطاب، تكنى باسم ابنها وكان اسمها عاصية، فسماها رسول الله – ﷺ – جميلة، تزوجها عمر في سنة سبع من الهجرة، فولدت له عاصم ثم طلقها عمر، فتزوجها يزيد بن جارية فولدت له عبدالرحمن، "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٤، صـ١٨٠٣، وينظر "أُسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٧، صـ٥٣.

(٥) رواه مسلم، كتاب الآداب، استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، ١٦٨٦/٣، رقم ٢١٣٩.

(٦) زاد المعاد في هدى خير العباد، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ج٢، صـ٣٠٧.

وتوحى بمبادئ الإسلام وقيمه العظيمة، والتي يجب أن يظهر أثرها في كل مناحي الحياة، حتى تأخذ الأمة الإسلامية طابعها الخاص والمميز من أسمائها، لتحمل معنى العبودية والرحمة، أو تتشرف بالانتساب إلى رسل الله – عليهم السلام – للاقتداء بهم وبما قدموه من خير لأمتهم، فتستمر سلسلة الإصلاح في الأمة، فلا يستحوذ عليهم الأعداء.

من أجل ذلك نهى النبي – ﷺ – عن التسمية بالأسماء التي توجب سماع المكروه، فعن سمرة بن جندب[١] – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "لا تسم غلامك رباحاً، ولا يساراً، ولا أفلح، ولا نافعاً، فإنك تقول أثم هو؟ فيقول: لا"[٢]، لأنه قد يسمى يساراً، أو نجيباً، أو أفلح، وهو ليس كذلك فيكون ذماً.

ثالثاً: العقيقة

(أ) العقيقة في اللغة:-

"العقيقة والعقة بالكسر: الشعر الذي يولد عليه كل مولود من الناس والبهاء، ومنه سميت الشاة التي تذبح عن المولود يوم اسبوعه: عقيقة"[٣]، "وعق عن ابنه، يَعِق: حلق عقيقته، أو ذبح عنه شاه"[٤]، "ويقال: أعقَّت النعجة: إذا كثر صوفها، والاسم العقيقة، وعققت الشاة: جزرت عقيقتها، وكذلك الإبل، والعق: الجز الأول"[٥]، فالعقيقة معناها في اللغة يدور حول الشعر المحلوق، أو الشاة المذبوحة عن المولود.

(ب) العقيقة في الاصطلاح:-

العقيقة هي: "ذبح شاة عن المولود، سابع ولادته"[٦]، فالعقيقة هي: ما يذبح عن المولود في اليوم السابع من الشاة ونحوها.

---

(١) هو سمرة بن جندب بن هلال بن جريج بن مرة بن حزن بن عمرو بن جابر بن ذي الرئاستين، هكذا نسبه سليمان بن سيف، يكنى أبا عبد الرحمن، وقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو سليمان، وقيل: يكنى أبا سعيد، سكن البصرة، وكان يستخلف عليها ستة أشهر، وعلى الكوفة ستة أشهر بعد ذلك، ثم استخلف على البصرة وأقره معاوية عليها عاماً ثم عزله، وكان شديداً على الحرورية، مات سنة ثمان، وقيل: تسع وخمسين، وقيل: في أول سنة ستين، "الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٢، صـ٦٥٣، وينظر أيضاً، "الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، مرجع سابق، ج٣، صـ١٥٠.

(٢) رواه مسلم، كتاب الأدب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة، رقم ٢١٣٧.

(٣) مختار الصحاح، الرازي، مرجع سابق، صـ٢١٤.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٠، صـ٢٥٨.

(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٤، صـ٥.

(٦) إرشاد السالك إلى أشرف المسالك في فقه الإمام مالك، عبد الرحمن بن محمد بن عسكر البغدادي أبو زيد شهاب الدين المالكي، المتوفي سنة ٧٣٢هـ، الناشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٣، بدون ت، صـ٥٥.

(ج) دورها في بناء الافراد

لقد حرص الإسلام كل الحرص على تنشئة الأفراد تنشئة صالحة، وعمل على حماية الذرية من كل ما يؤذيها ويضرها لذا شرع العقيقة لتكون فدية، وفكاكاً للمولود من الشيطان الرجيم، الذى يحرص على أن يجعله واحداً من حزبه، ليكون من الخاسرين، فعن سمرة بن جندب - ﷺ - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "كل غلام رهينة بعقيقته، تذبح عنه يوم سابعه، ويحلق، ويسمى"(١)، ومعنى "كل غلام رهينة بعقيقته، أي: مرهون، والمعنى: أنه كالشئ المرهون، لا يتم الانتفاع والاستمتاع به دون فكه، والنعمة إنما تتم على المنعم عليه، بقيامه بالشكر، ووظيفة الشكر في هذه النعمة: ما سنه النبي - ﷺ - وهو أن يعق عن المولود شكراً لله تعالى"(٢)، ولذلك دعا إلى بذل المال، تعبيراً عن فك أسر المولود وافتدائه، فإذا عق عنه، فقد افتدى، وفك رهانه من الشيطان الذي يتربص بالأولاد ليقعوا في أسره وتحت قبضته.

لما كان للعقيقة هذا الدور الهام في بناء الأفراد، فإن النبي - ﷺ - لم يكتف بالحث عليها، ولكنه طبقها عملياً، فعن أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - "قالت: عق رسول الله - ﷺ - عن الحسن والحسين يوم السابع، وسماهما وأمر أن يماط عن رؤوسها الأذى"(٣)، لأن العقيقة تحمى المولود بإذن الله - ﷻ - من نزعات الشيطان، وتشكل داعياً من دواعي صلاح الذرية، وحاجزاً من غلبة الشيطان عليها، وتأثيره فيها، فتكون مانعاً من موانع الانحراف والعاهات والآفات.

الأساس الثالث: بناء الأفراد وقائياً في طفولتهم

لقد أولى الإسلام لمرحلة الطفولة عند الأفراد مكانة عالية، وعناية خاصة، حيث كرم الأطفال ونظر إليهم على أنهم جوهرة ثمينة نفيسة يجب العناية بها والمحافظة عليها، فهم شباب الغد ورجال المستقبل، وهم حملة الإسلام إلى البشرية، وبفضل التوجيه والتعليم، نحدد نوع الحياة

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الضحايا، باب في العقيقة، ١٠٦/٣، رقم ٢٨٣٨، والترمذي في سننه، كتاب الأضاحي، باب من العقيقة، ١٠١/٤، رقم ١٥٢٢، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في سننه، كتاب الذبائح، باب العقيقة، ٣٣٦/٤، رقم ٣١٦٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده صحيح".

(٢) إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبي بكر عبد الملك القسطلاني، المتوفى سنة ٩٢٣هـ، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط٦، ١٣٢٣هـ، ج٨، صـ٢٥٣.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ذكر اليوم الذي يعق فيه عن الصبي، ١٢٧/١٢، رقم ٥٣١١، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده حسن صحيح"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الذبائح، ٢٦٤/٤، رقم ٧٥٨٨، وقال "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

التي سنعيشها، فمن حقهم أن تُؤمَّن لهم الرعاية الكاملة، والتوجيه السليم القائم، على أساس راسخ من الإيمان، ولقد اهتمت الشريعة الإسلامية بتحديد مرحلة الطفولة، ووضعت لها الأحكام الخاصة التي تتناسب مع فترة الضعف التي يمر بها الطفل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٍ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلًا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ﴾[١]، فالطفولة هي: "فترة ما بين الميلاد والبلوغ"[٢]، وهي المرحلة الأولى للإنسان بعد ولادته، أي: "والطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله إلى البلوغ"[٣]، وهذا يعني أنها حجر الأساس في البناء والتكوين والتنشئة، وإذا أراد أحد البناء فعليه بإحكام الأساس، حتى يكون البناء قوياً راسخاً شامخاً، يستطيع الصمود أمام شدة الريح في اليوم العاصف، من أجل ذلك كفل الله - سبحانه وتعالى - للإنسان منذ صغره، حياة طيبة، وفق ضوابط وأصول شرعية، وقواعد تربوية منصوص عليها في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ثم أمر الآباء والمربين بتطبيقها، حتى ينشأوا على الخير والصلاح، فالطفل إذا تربى على الأخلاق الحميدة: صح حاله، وانضبط أمره على خير وأفضل ما تنتظم به الأمور، وهذا هو ما أراد النبي - صلى الله عليه وسلم - غرسه في نفوس الناشئة، وتربيتهم عليه فعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: كنت خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً: فقال: "يا غلام، إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ، لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشئ، لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف"[٤]، فهذه التوجيهات الإيمانية عليها تربى سيدنا ابن عباس - رضي الله عنه - تربية راسخة، جعلته قوة فعالة ثابتة ومثالاً واقعياً يفوق الخيال، فلا يكاد يفرق بينه وبين الرجل الكبير، حتى صار على ما كان عليه من العلم والفقه والورع، بعدما تخرج من مدرسة خاتم الأنبياء سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -. فكان لا يرجو ولا يخاف ولا يسأل إلا الله - سبحانه وتعالى -، ويحفظه في خلواته، وعند قوته، بتمام الاستقامة

---

(١) سورة الحج من الآية "٥".

(٢) مجمع اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، مرجع سابق، ج٢، صـ١٤٠٥.

(٣) فيض القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٣، صـ٥١٦.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، باب بدون ترجمة، ٦٦٧/٤، رقم ٢٥١٦، وقال: "حديث حسن صحيح"، والبيهقي في شعب الإيمان، باب القدر خيره وشره من الله - عز وجل -، ٣٧٤/١، رقم ١٩٢.

على منهجه فكان دائم المراقبة لله – ﷻ – في الرخاء والشدة، حتى صار حبر الأمة، والطفل إن تربى على الإيمان ومخافة الله – ﷻ – وحفظه، شب على ذلك، فتكون جميع حركاته وسكناته، موافقة لمنهج الله – ﷻ – فيضمن الاستقامة والسلامة من الانحراف، لأنه محفوظ بحفظ الله – ﷻ – له، فالجزاء من جنس العمل.

لقد اهتم الإسلام بتعويد الطفل على الآداب العامة التي تساعده على التعايش مع المجتمع الذى يعيش فيه، وقد حرص النبي – ﷺ – على هذا البناء التربوي للأطفال، من خلال تصحيحه لبعض المفاهيم الخاطئة عندهم فعن عمر بن أبى سلمة(١) – ﷺ – قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله – ﷺ – وكانت يدى تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله – ﷺ – يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك، فما زالت تلك طعمتي بعد"(٢).

وهنا يعلم النبي – ﷺ – الغلام عمر بن أبى سلمة أدب الطعام، حتى لا يكون مع غيره يُطعم فيتأذى من طريقته العشوائية في الأكل، فنبهه إلى أهمية التسمية عند بدأ الأكل، لطرد الشيطان، وأن الأكل يكون باليد اليمنى، لأن اليسرى تستخدم عادة في التنظيف والتطهير ونحو ذلك، ثم علمه أن الأكل من الجهة التي تليه حتى لا يؤذى من يأكل معه "وفى هذا الحديث، بيان ثلاث سنن من سنن الأكل، وهى التسمية والأكل باليمنى، وقد سبق بيانهما، والثالثة الأكل مما يليه، لأن أكله من موضع يد صاحبه سوء عشرة، وترك مروءة، فقد يتقذره صاحبه"(٣)، فشرعت هذه الآداب لبناء الفرد ووقايته من المخاطر، لينشأ على السلوك السوى، والتطبيق الصحيح للمعاني الأخلاقية، فعن رافع بن عمرو الغفاري(٤) – ﷺ – قال: كنت وأنا غلام أرمى نخلنا، أو قال نخل الأنصار، فأتى به النبي – ﷺ – فقال: يا غلام وفى رواية يا بنى لم ترم النخل؟ قال: قلت:

---

(١) هو عمر بن أبى سلمة بن عبد الأسد بن عمرو بن مخزوم المخزومي، وهو ربيب النبي – ﷺ – أمه أم سلمة أم المؤمنين، ولد بالحبشة، السنة الثانية، وقيل: قبل ذلك، ولى البحرين زمن على – ﷺ – وشهد معه الجمل، توفى بالمدينة سنة ثلاث وثمانين، في خلافة عبد الملك بن مروان بالمدينة. "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٣، صـ ١١٥٩، وينظر أيضاً "أُسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٤، صـ١٦٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، ٦٨/٧، رقم ٥٣٧٦، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها، ١٥٩٩/٣، رقم ٢٠٢٢.

(٣) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج١٣، صـ١٩٣.

(٤) هو رافع بن عمرو بن مجدع ويقال بن مخدج بن حاتم بن الحارس بن نفيلة بن حمزة من بنى كنانة ويعرف بالغفاري، وهو أخو الحكم بن عمرو الغفاري، وليس من غفار، وإنما من نعيلة أخي غفار، إلا أنهما نسبا إلى غفار سكن البصرة. "أُسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٢، صـ٢٣٩، وينظر أيضاً "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٨٢.

آكل، قال: فلا ترم النخل، وكل ما يسقط في أسافلها، ثم مسح رأسي، وقال: اللهم أشبع بطنه"[١]، ففي هذا التوجيه النبوي الرشيد الذي يدل على حرص الرسول - ﷺ - على بناء الغلام، وتعليمه أدباً عظيماً، وهو عدم التعدي على أموال الآخرين وإفسادها، ويعلمه الأمانة مع الأموال، وعندما سأله عن سبب رميه للنخل قال: آكل:- أي لست أعبث، وإنما الذى بعثني لهذا الفعل، هو: الجوع، فوضح له النبي - ﷺ - ولغيره من الأطفال فقال فلا ترم النخل، وكل ما يسقط من أسافلها.

ويوالى الإسلام كذلك عنايته بالطفل، حينما يطالب الأب بغرس آداب الاستئذان في نفوس الأولاد، حتى لا يرى الطفل ما لا يحب أن يراه من عورات النساء التي تحرق نار الشهوة عنده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[٢]، وسميت هذه الأوقات الثلاثة عورات، لأنها مظنة وضع الثياب وظهور العورة، "وهى الأوقات التي تقتضى عادة الناس الانكشاف فيها، وملازمة التعري في المضاجع، وهى عند الصباح، لأن الناس في ذلك الوقت عراة في مضاجعهم، وقد ينكشف النائم، فمن مشى ودخل وخرج، فحكمه أن يستأذن، لئلا يطلع على ما يجب ستره، وكذلك في وقت القائلة، وهى: الظهيرة، لأن النهار يظهر فيها إذا علا واشتد حره، وبعد العشاء، لأنه وقت التعري للنوم، والتبدل للفراش"[٣]، وهذه توجيهات لبناء الأفراد فهي تعلمهم أصول الآداب مع الأهل.

لقد حرص الإسلام أيضاً على بناء الطفل بناءً جسدياً، لأن الجسد إذا كان عليلاً، حَدَّ من الحركة والعمل، فيضعف الإنتاج فتتأخر الأمم، فالجسم هو الآلة التي يستعملها في الحركة والسعي، في الأرض، ولما كانت الرياضة البدنية ضرورة لبناء الجسم وتهذيب النفس، وسمو الخلق، فقد حث

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب من قال إنه يأكل ما سقط، ٣٩/٣، رقم ٢٦٢٢، ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب من مر على ماشية قوم أو حائط هل يصيب منه، ٣٩٨/٣، رقم ٢٣٠٠، واللفظ له، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث حسن".

(٢) سورة النور من الآية "٥٨".

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق ابن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المتوفى سنة ٥٤٢هـ، تحقيق عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ج٤، صـ١٩٤.

عليها الإسلام ودعا إليها، فعن أبي هريرة – ﷺ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "المؤمن القوى، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير"(١)، والإسلام دعا إلى الرياضة البدنية، كالسباحة والرماية، لأنها مقومات الشخص السليم، الذى يصلح أن يكون لبنة طيبة في أمة عظيمة لينهض بها، "والسباحة منجاة من الهلاك، والرماية دفع عن مهجته، وحريمه، وشرف له عند لقائه العدو"(٢)، قد يكون اليتيم عاملاً خطيراً في انحراف الطفل وإذا كان من بيئة لا ترعاه، ولا تهتم بتربيته، من أجل ذلك اهتم الإسلام ببناء اليتيم وتربيته اهتماماً بالغاً، حتى يكون عضواً نافعاً في المجتمع، ينهض بواجباته، ويقوم بمسئولياته، ويؤدى ماله وما عليه على أكمل وجه، وأنبل معنى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾(٣)، وقال أيضاً محذراً من ظلمه وقهره وعدم إعطائه حقه: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾(٤)، إننا لا نجد نظاماً تكفل برعاية اليتيم وبنائه، وحافظ على مصالحه مثلما فعل الإسلام، فعن سهل بن سعد – ﷺ – عن النبي – ﷺ –: قال: "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة هكذا، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى"(٥).

من خلال ذلك يمكن القول: بأن الإسلام جاء ليؤصل منهج بناء الأفراد في طفولتهم، وإعطائهم حقوقهم كاملة بما فيها الرحمة والشفقة عليهم، فعن أبي هريرة – ﷺ – قال: قبَّل النبي – ﷺ – الحسن بن على، وعنده الأقرع بن حابس التميمي(٦) جالس، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد، ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله – ﷺ – ثم قال: "من لا يرحم لا يرحم"(٧).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، ٢٠٥٢/٤، رقم ٢٦٦٤.

(٢) نوادر الأصول في أحاديث الرسول – ﷺ –، محمد بن على بن الحسين بن بشر أبو عبدالله الحكيم الترمذي، المتوفى نحو سنة ٣٢٠هـ، تحقيق عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ج٢، صـ٣٤٨.

(٣) سورة الضحى الآية "٩".

(٤) سورة الماعون الآية "١، ٢".

(٥) البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن العهد من الإيمان، ٩/٨، رقم ٦٠٠٥.

(٦) هو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي أحد المؤلفة قلوبهم وحسن إسلامه، وشهد فتح مكة وحنيناً وحضر الطائف، وشهد مع خالد بن الوليد حرب أهل العراق، وشهد معه فتح الأنبار، وإنما قيل له الأقرع: لقرعٍ كان برأسه، وكان شريفاً في الجاهلية والإسلام، قتل باليرموك في عشرة من بنيه. "أُسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج١، صـ٢٦٤، وينظر أيضاً "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج١، صـ٢٥٢.

(٧) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ٧/٨، رقم ٥٩٩٧، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته – ﷺ – بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، ١٨٠٨/٤، رقم ٢٣١٨.

لقد كان تشريع هذه الحقوق والواجبات في زمان ومكان تعد فيه رحمة الصغير وتقبيله ضعفاً عند بعضهم، بل هو من الممتلكات التي يفعل بها ما يشاء، فكان الواحد منهم يقوم بذبح أحد أبنائه، إذا رزق بعشرة من الأبناء تقرباً للآلهة، وذلك قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أعطاهم الحقوق كاملة، فنالوا منها ما لم يكن موجوداً في أي نظام آخر.

الأساس الرابع: بناء الأفراد وقائياً في مرحلة القوة

لقد ذكر الله – ﷻ – في قرآنه أن من مراحل عمر الإنسان: القوة وبلوغ الأشد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾(١)، "أي: تتكامل القوى وتتزايد ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المظهر"(٢).

فمرحلة الأشُد: هي مرحلة النضج والعقل والنماء والقوة، وحسن التصرف، وهى مرحلة الشباب، والله – ﷻ – قد سماها في القرآن الكريم بالفتوة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾(٣)، وسماها أيضاً القوة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾(٤)، وعلى ذلك، فهذه المرحلة يدخل فيه سن الأربعين، لقول الله – ﷻ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٥) فالله – ﷻ – بين في الآية أن سن الأربعين داخله في مرحلة الأشد، وعند تمامها بعث سيدنا محمد – ﷺ –.

تعد مرحلة الأشد في حياة الإنسان من أدق المراحل وأطولها مدة، وأشدها أثراً وخطورة، لأنها بداية التكليف الشرعي، ويجرى عليه القلم فيها بالحسنات والسيئات، فلابد لهذا الشاب من بناء ورعاية خاصة، تعينه على السير في الطريق الصحيح المستقيم، وتوضح له معالمه، وتذلل له مصاعبه، وتيسر له زاده، حتى يسير إلى ربه آمناً مطمئناً على هدى وبصيرة، وتقيه من الأزمات التي تؤدى إلى إغراقه، ولذلك فقد اهتم الإسلام بالتربية الصحيحة للفرد في هذه

---

(١) سورة غافر من الآية "٦٧".

(٢) تفسير ابن كثير، ج٥، صـ٤٣٨.

(٣) سورة الكهف من الآية "١٣".

(٤) سورة الروم من الآية "٥٤".

(٥) سورة الأحقاف الآية "١٥".

المرحلة – وكل المراحل – وذلك في جميع النواحي، حتى تكون شخصية رجل المستقبل شخصية متكاملة، من أجل ذلك رغب النبي – ﷺ – الشباب في عبادة الله – سبحانه وتعالى – وطاعته بأن يكونوا في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، الامام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه..."[١]، إن هذا الحديث يحمل توجيهات كثيرة لبناء الأفراد في مرحلة الشباب، أظهرها، وشاب نشأ في عبادة ربه، كما أن الذى تدعوه امرأة يكون غالباً شاباً، وباقي الصفات المذكورة في الحديث تنطبق على الشباب كما تنطبق على غيرهم، "وخص الشاب: لكونه مظنة غلبة الشهوة، كما فيه من قوة الباعث على متابعة الهوى، فإن ملازمة العبادة مع ذلك أشد وأدل على غلبة التقوى"[٢]، فالحديث الشريف فيه: حث للشباب للإقبال على الله – سبحانه وتعالى –، والنشأة على عبادته، في ريعان شبابهم، وبذلك يستحقون هذه المكانة العظيمة، ولما كانت مرحلة الشباب هي الطور الحاسم في حياة الإنسان غالباً، فإن التدين ضروري في هذه المرحلة، ليضبط اتجاه الشباب، ويوجههم الوجهة الصحيحة، فإذا خالط الإيمان بشاشة القلوب، كان له دور بارز في تثبيت المؤمن على إيمانه، فلا يتركه ولا يحيد عنه، فها هو سيدنا إبراهيم – عليه السلام –، ذلك الفتى الذى دحر الأصنام، حتى قالوا كما ذكر القرآن الكريم: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[٣]، فتعرض للحرق بالنار، فثبت على عقيدته، وصدق في دعوته، فصدقه الله – سبحانه وتعالى – ونجاه من النار فقال – عز وجل –: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

إن من خصائص الشباب في هذه المرحلة: تكوين الصداقات، ولما للصديق من أثر كبير، فهو في أمس الحاجة إلى التوجيه إلى حسن اختيار الصديق، مع تزويده بالمبادئ والتوجيهات التي تعينه على ذلك، لذا فقد أوجب الإسلام عليه التأكد من صلاح الصحبة التي يلتقى بها، ويخرج معها، لأن الشاب سريع التأثر بأصحابه، شديد الرغبة في أن ينسجم معهم، ولا يشذ عنهم، فإن كانوا أخياراً، انسجم مع الأخيار وتطبع بطبعهم، وإن كانوا غير ذلك، فهو أيضاً مثلهم، فعن أبي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الآذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ١/١٣٣، رقم ٦٦٠، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل اخفاء الصدقة، ٢/٧١٥، رقم ١٠٣١.

(٢) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ابن حجر، ج٢، صـ١٤٥.

(٣) سورة الأنبياء الآية "٦٠".

(٤) سورة الأنبياء الآيات "٦٩ – ٧١".

موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "مثل الجليس الصالح والجليس السوء: كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة"[١]، وهذا يحتم على الإنسان مجانبة الأشرار، وقرناء السوء حتى لا يتأثر بهم، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"[٢]، إن في ذلك تنبيه للشباب بأن يتحروا غاية جهدهم مصاحبة الأخيار ومجالستهم، وأن يبتعدوا عن مصاحبة الفجار، حتى لا يتأثروا بهم في الانحراف والانحلال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[٣].

من خصائص هذه المرحلة أيضاً توهج الشهوة الجنسية وقوتها، لذا كان لابد من توجيهات شرعية مناسبة تتلاءم مع الواقع، فهي غريزة خلقها الله – تبارك وتعالى – في الإنسان يصعب عليه كبتها، ولا يمكن الاستسلام لها بلا قيود، لأن في كلتا الحالتين ضرر عليه، فشرع الإسلام ممارسة هذه الشهوة، ولكن وفق ضوابط محددة، حتى لا تشيع الفاحشة بين الناس فأحل ممارستها مع الزوجة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾[٤]، ولقد حرص النبي – صلى الله عليه وسلم – على تحصين الشباب، ووقايتهم من كل ما يثير الشهوة، عندهم ويوقعهم فيما حرم الله – تعالى –، فعن أبى هريرة – رضي الله عنه – أن رجلاً سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن المباشرة للصائم، فرخص له، وأتاه آخر فسأله فنهاه، فإذا الذى رخص له شيخ، والذى نهاه شاب"[٥].

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، ٦٣/٣، رقم ٢١٠١، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، ٢٠٢٦/٤، رقم ٢٦٢٨.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب بدون ترجمة، ٥٨٨/٤، رقم ٢٣٧٦، وقال: " هذا حديث حسن صحيح"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب البر والصلة، ١٨٨/٤، رقم ٧٣١٩.

(٣) سورة الفرقان الآيات "٢٧ – ٢٩".

(٤) سورة المؤمنون الآيات "٥-٧".

(٥) أبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب كراهيته للشباب، ٦٢/٤، رقم ٢٣٨٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب ما جاء في المباشرة للصائم، ٥٩٠/٢، رقم ١٦٨٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: "هذا حديث صحيح".

ومن هنا يتأكد الاهتمام ببناء الأفراد في شبابهم – كبقية المراحل – وذلك لوقايتهم من كل ما من شأنه إثارة شهواتهم.

الأساس الخامس: الزواج

إن المتأمل في كتاب الله – ﷻ – وسنة نبيه – ﷺ – يجد تلك المكانة العظيمة، والمنزلة الرفيعة، التي أولاها الإسلام للزواج وأحكامه وشروطه، التي تضبط الحياة الزوجية، فالله – ﷻ – وصفه في قرآنه بالميثاق الغليظ، فقال – سبحانه وتعالى –: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾(١)، هذه الأحكام والشروط، اذا التزم بها الفرد المسلم سعد في دنياه وآخرته، بإذن الله – سبحانه وتعالى –، ولذلك فقد أمر الله – ﷻ – بالزواج فقال: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾(٢)، والفرد إذا امتثل أمر الله – سبحانه وتعالى – فهو محقق للعبودية، ومأجور على هذه الاستجابة، كذلك إذا وضع الزوج اللقمة في فم زوجته، فله بها صدقة، وإذا أتى زوجته فله بذلك صدقة، ويكفى أن الله – ﷻ – جعل ارتباط الزوجين آية من آياته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾(٣).

إن في الزواج تحصيناً من الشيطان، فالمتأمل في وصية النبي – ﷺ – لمن يقع نظره على امرأة فأعجبته، فليأت أهله ليرد ما وقع في نفسه، وهذه حكمة بالغة في النكاح والوقاية، وصد النفس عما حرم الله – ﷻ – فعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – ﷺ –: "إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت في قلبه، فليعمد إلى امرأته فليواقعها، فإن ذلك يرد ما في نفسه"(٤)، ولذلك عبر الله – سبحانه وتعالى – في قرآنه عن الزواج بلفظ الإحصان، فقال: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾(٥)، والمتزوج يقال له: محصن: أي: أنهما دخلاً في حماية هذا الحصن المعد لحماية أخلاقهما، وصون أنفسهما عن اتباع الشيطان، والوقوع في المحظور، فعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: كنا مع النبي –ﷺ– شباباً لا نجد شيئاً، فقال لنا رسول الله –ﷺ–: "يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له

---

(١) سورة النساء الآية "٢١".

(٢) سورة النور من الآية "٣٢".

(٣) سورة الروم من الآية "٢١".

(٤) أخرجه مسلم، في كتاب النكاح، باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريته فليواقعها، ١٠٢١/٢، رقم ١٤٠٣.

(٥) سورة النساء من الآية "٢٤".

وجاء"[١]، فالزواج: هو السبيل الذى يؤدى إلى غض البصر، وحفظ الفرج، فيتحصن الإنسان به من الشيطان، ويصون نفسه عن الوقوع في الزنا والفواحش، وهو كذلك ينظم الغريزة الجنسية، فليس من اللائق بكرامة الإنسان وتكريمه، تركه كالحيوان، ليشبع غريزته الجنسية دون ضابط ولا نظام.

إن في الزواج حصول السكنى والمودة والرحمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢]، وتعبير القرآن أجمل بيان في وصف هذا السكن، الذى جعله الله – ﷻ – للزوج، فحين يفزع آخر النهار من عمله ويركن إلى بيته ويجتمع بأهله، ينسى همومه وتعبه، ويتلاشى ذلك الجهد الذى بذله، وكذلك المرأة، وهكذا يجعل كل واحد في ظل الآخر سكنه، فتحصل المودة والرحمة، بينهما فالإنسان يحتاج لمن يحدثه ويؤانسه، ويخفف عنه من آلامه، فتحصل المؤانسة الحقيقية التي تجعل السكينة والطمأنينة والرحمة، هي الأساس الأعظم في استقرار البيت للحفاظ عليه مدة طويلة، وتحصل السكنى والراحة، كذلك عندما يأنس الوالد بصلاح ولده، وما يناله من نفعه، ومعاونته في الدنيا، وبعد الممات يسعد بدعائه له، حتى ترفع درجته في الجنة بالاستغفار، فيعمل جاهداً على صلاحه لينفعه، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "إن الرجل لترفع درجته في الجنة، فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك"[٣].

إن في الزواج كذلك: محافظة على النوع الانساني، لإقامة الشرائع، وعمارة الأرض، ولذلك فهو من المقاصد الضرورية الخمسة، التي تحفظ، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، والإنسان جعل مطبوعاً على حب البقاء، والاستمرار في الحياة، وهذا هو الذى أغرى به سيدنا آدم – عليه السلام – وزوجه ليأكلا من الشجرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[٤]، فالزواج يعطى الإنسان حظاً من الخلود الذى يحبه، عن طريق التكاثر وبقاء النسل، وبه تقوى الأمم وتحفظ من الزوال، ومن هنا يتضح دور الزواج في بناء الأفراد، ووقايتهم من الشيطان والمعاصي.

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي – ﷺ – من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ٣/٧ رقم ٥٠٦٦، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه، ١٠١٨/٢، رقم ١٤٠٠.

(٢) سورة الروم الآية "٢١".

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالدين، ٦٣١/٤، رقم ٣٦٦٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: "اسناده حسن".

(٤) سورة الأعراف الآية "٢٠".

الأساس السادس: بناء الأفراد وقائياً في مرحلة الشيب

من المراحل التي يمر بها الإنسان، والتي اهتم الإسلام ببنائها: مرحلة الشيب ولقد سماها القرآن الكريم بالشيخوخة في معرض حديثه عن مراحل عمر الإنسان، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾[١]، بل ذكرها الله – ﷻ – في معرض تعريف المخاطبين بسن المتكلم عنه، كما في قول المرأتين لسيدنا موسى – عليه السلام –، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[٢]، وكذلك قول زوج سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾[٣]، وقول أخوه سيدنا يوسف – عليه السلام – ﴿ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾[٤]، والشيخ هو: "الذى استبانت فيه السن، وظهر عليه الشيب"[٥]، والشيخوخة "مرحلة أخيرة، أو آخر طور من حياة الإنسان"[٦].

والعرب استعملت كلمة شيخ: للدلالة على من كبر سنه، وعُمِّر في الحياة الدنيا، إلا أنها أخذت بعداً أوسع من ذلك، وهو ما ينبغي للكبير من توقير واحترام، وما يتميز به من المراحل السابقة، بكثرة التجارب والمعارف والخبرات، "وقد يعبر به فيما بيننا ممن يكثر علمه، لما كان من شأن الشيخ أن يكثر تجاربه ومعارفه"[٧]، وعلى هذا صارت كلمة الشيخ لها بعد أوسع، للتعبير عن كبير القوم في كل مجال وحرفة، وعند ورودها في القرآن الكريم، فإنها تدل على كبر السن والطعن فيه، وهذه المرحلة من العمر قد أخذت في القرآن الكريم أسماء عديدة، إلا أن هذه الأسماء في الحقيقة أقرب إلى الوصف منه إلى التسمية، فمن هذه المسميات (الكبر) لقول الله تعالى: ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ ﴾[٨]، ومنها (العجز) والذى يطلق على المسن من النساء، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾[٩]، ومن أسمائها أيضاً، (الضعف والشيبة)، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ

---

(١) سورة غافر من الآية "٦٧".

(٢) سورة القصص من الآية "٢٣".

(٣) سورة هود من الآية "٧٢".

(٤) سورة يوسف من الآية ٧٨.

(٥) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٣، صـ٣١.

(٦) معجم اللغة العربية المعاصرة، مرجع سابق، ج٢، صـ١٢٥٤.

(٧) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٠٢هـ، تحقيق صفوان عدنان الراوي، دار القلم، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ج١، صـ٤٦٩.

(٨) سورة البقرة من الآية ٢٦٦.

(٩) سورة الذاريات من الآية "٢٩".

ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾[١]، ومن أسمائها كذلك، (أرذل العمر)، لقوله تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾[٢].

إذا كان الإسلام قد اعتنى ببناء الفرد في جميع مراحل حياته، إلا أن المتأمل يجد عناية خاصة بالمرحلة الأخيرة من حياته عند كبر سنه، حيث جعلها مرحلة تكريم ورعاية، فعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، وإكرام ذي السلطان المقسط"[٣]، وأوصى بأهلها مزيداً من العناية والتوقير والاحترام، وذلك لما يتصف به من الضعف والحاجة إلى الغير لخدمته، ومن محاسن التشريع الاسلامي، أنه اعتنى بكل أحوال الضعف البشرى، سواء كان ضعفاً طبيعياً من أصل الخلقة البشرية، كضعف الطفولة والشيخوخة، أو كان ضعفاً بسبب ظروف ما، كالفقر وغيره، فشرع لهما التشريعات التي تكفل رعايتهما وحمايتهما والمحافظة على حقوقهما في جميع الجوانب، ومن حكمة الله – عز وجل – أنه جعل قوة الشباب محفوفة بضعفين، ضعف أول نشأ منه، وهو ضعف الطفولة، وضعف ثان يصير إليه، وهو ضعف الشيخوخة.

ولقد بين القرآن الكريم أوجه الضعف في هذه المرحلة، لتكون نذيراً للإنسان، فيعود إلى ربه – تعالى – وتقيه من الوقوع في الشبهات، أو الاستمرار فيها، ومن هذا الضعف: ضعف العظام، قَالَ تَعَالَىٰ: على لسان سيدنا زكريا – عليه السلام –: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[٤]، "وإنما ذكر العظم: لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أهون منه"[٥]، ومنه كذلك ضعف القدرة على الإنجاب، ولذلك تعجب سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وزوجه عند البشارة بالولد في حال الكبر: فقالت زوجه: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾[٦]، وكان

---

(١) سورة الروم من الآية "٥٤".

(٢) سورة النحل من الآية ٧٠، سورة الحج من الآية "٥".

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، ٢١٢/٧، رقم ٤٨٤٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: "اسناده حسن"، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب قتال أهل البغي، باب النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ٢٨٢/٨، رقم ١٦٦٥٨.

(٤) سورة مريم من الآية "٤".

(٥) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج١١، صـ٧٦ وما بعدها.

(٦) سورة هود من الآية "٧٢".

موطن العجب، أن كلاً منهما قد طعنا في السن، وكان إنجابها في هذه المرحلة من الخوارق والمنح الربانية، وليست قاعدة عامة، وفيها تضعف كذلك أسباب الشهوة، فعن أبى هريرة - ﷺ - قال النبي - ﷺ -: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر"(١)، لأنه ليست عنده قوة الشهوة التي تجبره على هذا الفعل، "فإن الشيخ لكمال عقله، وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء واختلال دواعيه لذلك عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا، ويخلى سره منه فكيف بالزنى الحرام"(٢)، وأوجب علينا كذلك احترام الكبير، والسعي في خدمته، فعن أنس بن مالك - ﷺ - قال: جاء شيخ يريد النبي - ﷺ - فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له، فقال النبي - ﷺ -: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر"(٣).

لقد جاء الإسلام وحث على رعايته، والكلام معه بطريقة حسنة، والبعد عن أي كلمة أو فعل يدل على التذمر والضيق، وقاية له من ضعف الحالة النفسية وانهزامها، لأن وقع هذه الأشياء على الكبير أعظم أثراً منه على الشباب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾(٤)، "فخص حالة الكبر: لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بر لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلاًّ، عليه فيحتاجان أن يلى منهما، في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه فلذلك خص هذه الحالة بالذكر"(٥).

ولعل قلة التحمل من الكبير، هي السبب في الاقتراح المقدم من أخوة سيدنا يوسف - ﷺ - لما أراد أن يأخذ أخاهم بسبب وجود صواع الملك في رحله، لأن مقدرة المسن ليست كمقدرة الشاب

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم اسبال الازار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف، ١٠٢/١، رقم ١٠٧.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، ج٢، صـ١١٥.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر، باب ما جاء في رحمة الصبيان، ٣٢١/٤، رقم ١٩١٨، وقال: "هذا حديث حسن غريب".

(٤) سورة الإسراء الآيات "٢٣، ٢٤".

(٥) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج١٠، صـ٢٤١.

في احتمال المفاجئات والأحزان ولذلك قالوا كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾[١]، حيث حاولوا استدرار العطف، بذكر شيخوخة أبيهم وما يعتريها من ضعف، وعندما لم تفلح محاولاتهم في استنقاذ أخيهم، رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بما حصل، فكانت نتيجة هذه الصدمة: ابيضاض عينه حزناً على ابنيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[٢]، لذلك أوصى الإسلام بعنايته، وهذه العناية تتلخص في قوله: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[٣]، فالضجر من الأبناء وارد إذا لم يتحلوا بأخلاق الإسلام من أجل ذلك نهى عنه الشرع، مستخدماً أقل وأشهر أسلوب قد يحصل في مثل هذا الموقف، فالله – ﷻ – حفظ حق الوالدين في هذا السن بالذات عن كل ما يسبب التضجر، وأمر بمحاولة ضبط النفس، عما يصدر عنهما من أي شئ قد يؤدى إليه.

ولم يكتف الاسلام برحمتهم بالطريقة العملية أثناء خدمتهم ورعايتهم، بل تعدى ذلك إلى الأمر بالدعاء لهما برحمة الله – ﷻ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[٤]، إن هذا الدعاء مقرون ببعض الأسباب الجالبة للرعاية، وهي تذكر معروف الأبوين، والتربية له حال عجزه وضعفه، وحاجته إليهما، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[٥]، "وخص التربية بالذكر: ليتذكر العبد شفقة الأبوين، وتعبهما في التربية فيزيده ذلك إشفاقاً لهما، وحناناً عليهما"[٦].

إن من كمال رحمة الإسلام بكبار السن، أنه راعى في أحكامه الضعف الذى يعيشونه، ورتب على ذلك أحكاماً خاصة بهم، تتصف باليسر والتخفيف، مراعاة لصحتهم وظروفهم، فنجد في بعض العبادات أحكاماً ومعاملة خاصة، بهم مثل الرخصة بالإفطار في شهر رمضان حين عجزه، والإطعام عن كل يوم مسكيناً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾[٧]، "نزلت هذه الآية: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾، في الشيخ الكبير، الذى لا يطيق

---

(١) سورة يوسف من الآية "٧٨".
(٢) سورة يوسف من الآية "٨٤".
(٣) سورة الإسراء من الآية "٢٣، ٢٤".
(٤) سورة الإسراء من الآية "٢٤".
(٥) سورة الإسراء من الآية "٢٤".
(٦) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج١٠، صـــ٢٤٤.
(٧) سورة البقرة من الآية "١٨٤".

الصوم، ثم ضُعف، فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً"(١)، ورخص كذلك لكبير السن في انابة من يحج عنه، لكبر سنه وعجزه عن ذلك، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع، وقالت يا رسول الله: إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبى شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يستوى على الراحلة، فهل يقضى عنه أن أحج عنه؟ قال نعم"(٢)، فهذه رخصة خاصة بكبير السن دون الصغير.

إن حرص الإسلام على الاهتمام والرعاية بكبير السن ليست خاصاً بالمسلم فقط ولكن للكبير أياً كان معتقده، بشرط عدم محاربته للإسلام، فعن على بن أبي طالب – ﷺ – قال: كان النبي – ﷺ – إذا بعث جيشاً من المسلمين إلى المشركين قال: "انطلقوا بسم الله، ثم قال: "لا تقتلوا وليداً، ولا طفلاً، ولا امرأة، ولا شيخاً كبيراً"(٣)، كانت هذه تعاليم النبي – ﷺ – في كل غزوة أو سرية، واللفظ يدل على تكرار ذلك من النبي – ﷺ –.

فمن محاسن الإسلام أنه حين توجد فئة مستضعفة ككبار السن فإنه يكفل لها من يسدد هذا الضعف ويرعاه ويكرمه أياً كان معتقد هذه الفئة، وجعل هذه الرعاية، وهذا التكريم: مسؤولية دينية كنوع من رد الجميل.

ثانياً: دور التربية الوقائية في بناء المجتمعات

كما اهتم الإسلام ببناء الأفراد، اهتم كذلك ببناء المجتمعات، ولذلك فقد جاء الإسلام العظيم بتشريعاته الحكيمة، ليضع الأسس والدعامات التي تعمل على تنظيم العلاقات والمعاملات القائمة في الحياة الاجتماعية، والتي تهدف إلى بناء مجتمع قوى متماسك البنيان، مترابط الأجزاء، وذلك بعد أن اكتوت بعض المجتمعات البشرية بويلات النظم الاجتماعية الجائرة، والتي جعلت المجتمعات أشبه بالغابات، حيث يأكل صغيرها كبيرها، ويلتهم قوِّيها ضعيفها، لخلوها من الروابط التي تعمل على تماسك أفرادها، لقد كان من أبرز صفات بعض العرب قبل مجئ الإسلام، الأخذ بالثأر على أتفه الأسباب، والقوة في الانتقام، وكان لكل قبيلة صنم خاص، فإذا أراد أحدهم السفر: تمسح به، ولقد بلغ ببعضهم الظلم إلى حرمان المرأة من الميراث، بل كانت

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج١، صـ٣٦٦، وقد نسب هذا القول إلى ابن عباس – ﷺ –.

(٢) رواه البخاري في الحج، باب الحج عمن لا يستطيع الثبوت على الراحلة، ١٨/٣، رقم ١٨٥٣، واللفظ له، ورواه مسلم في الحج، باب الحج عن العاجز لزمانه وهرم ونحوهم أو للموت، ٩٧٣/٢، رقم ١٣٣٤.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب ترك قتل من لا قتل له فيه من الرهبان والكبير وغيرهما، ١٥٤/٩، رقم ١٨١٥٥، وقال: "في هذا الإسناد إرسال وضعف وهو بشواهده مع ما فيه من الآثار يقوى".

تورث كما يورث المال والمتاع، بل لقد وصل الظلم إلى أبعد من ذلك، حيث وأد البنات، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[١] وقتلهن أحياء، خوفاً من لحوق العار، ومنهم من كان يقتل الأولاد خشية الفقر، وقلة المال، وكانت الحروب تدور بينهم بالشهور، العديدة لأتفه الأسباب وأحقرها، لذلك عمل الإسلام على بناء المجتمع السوى، من خلال الحث على التمسك بالقيم الاجتماعية الفاضلة والتي تؤدى إلى استقراره وازدهاره، ولقد عدد سيدنا جعفر بن أبى طالب – ﷺ – للنجاشي، ما كان عليه بعض العرب قبل الإسلام، فقال: "أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام"[٢]، وعدد عليه أمور الإسلام.

إن المجتمع الذى ينشأ في ظل هذا الإسلام، لاشك أنه مجتمع يشع بالأمان، وينشر الطمأنينة، فهو مجتمع آمن على العرض، حتى ولو بكلمة بسيطة تخدش الحياء، لأنه جعل الزنا والقذف كبيرة يستحق فاعلها أشد العقاب، وهو آمن على النفس والمال، لأن القتل والسرقة جرمها، وجعلها كبيرة أيضاً، ووضع حداً لعقاب فاعلهما.

ومن أجل إشاعة الأمن والسلام: جاء الإسلام أيضاً مقراً بحرية الإيمان لما له من شأن كبير في حياة الأمم والشعوب، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٣]، فكم من أناس تعرضوا للظلم والطغيان، من أجل مطالبتهم بحقهم في حرية ما يعتقدون؟، وكم من اضطهاد وتعذيب تعرضت له المجتمعات، لإكراهها على ايمان لا يريدونه؟، وكم من معارك دارت رحاها من أجل إبادة مجتمعات تمسكوا بعقيدتهم، فالإنسان إذا آمن عن اقتناع وبغير قهر وقوة: كان هذا الإيمان راسخاً في القلب رسوخ الجبال على الأرض.

---

(١) سورة الإسراء الآية "٣١".

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، ابو محمد جمال الدين، المتوفي سنة ٢١٣هـ، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ج١، صـ٢٩٠.

(٣) سورة الكهف من الآية "٢٩".

فالإسلام هو دين الله - ﷻ - الذى رضيه للعباد، ليستقيموا به على صراطه المستقيم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(١)، فكل ابتعاد عن منهج الله القويم وصراطه المستقيم، وحبله المتين، هو انحراف عن طريق الجادة إلى طرق أخرى مملوءة بالمخاطر والعقبات.

إن العالم لا يحترم إلا الأقوياء، ولا يمكن أن تصان المقدسات والحريات، إلا بالقوة القادرة على دفع العدوان، ورفع الظلم وكف الأذى، وأكبر معالم القوة ومقوماتها اتحاد الصف، واجتماع الكلمة، لأن الأمة المتحدة قوية في نفسها، ومهابة من قبل أعدائها، مصانة حرماتها وممتلكاتها، فلا يقدر مستعمر على مهاجمتها، ولا يفكر ظالم في احتلال أرضها وبلادها، فوحدة الصف والترابط والتماسك بين أجزاء المجتمع، من أكثر الأمور إسهاماً في بناء المجتمع، ولعل سر الانتصارات التي حققها المسلمون عبر تاريخهم الطويل، يكمن في توحيد كلمتهم وصفهم، واستقامتهم على صراط ربهم المستقيم، لقوله تعالى في قرآنه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢).

وجعل النبي - ﷺ - التفرق من الشيطان، فعن أبى ثعلبة الخشني(٣) - رضي الله عنه - قال: "كان الناس إذا نزلوا منزلاً: تفرقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله - ﷺ -: إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان، قال: فلم ينزلوا بعدُ منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض، حتى لو بسط عليهم ثوب لعمهم"(٤)، فجعل النبي - ﷺ - تفرق المؤمنين في الشعاب والأودية، واختلافهم في الصف رغم بساطتها الظاهرية عند البعض، سبباً لاختلاف القلوب، فالتفرق بشتى أشكاله، حتى ولو كان صغيراً: مذموم شرعاً، لأن المنتفع من هذه الفرقة هو الشيطان، ومعه أولياؤه في كل زمان ومكان، وهذا هو ما أكده النبي - ﷺ - فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -

---

(١) سورة آل عمران الآية "٨٥".

(٢) سورة الأنعام الآية "١٥٣".

(٣) هو أبو ثعلبة الخشني، اختلف في اسمه واسما أبيه اختلافاً كثيراً، وقيل: جرهم، وقيل جرثوم، وجرثومة بن ناشب، وقيل بن ناشم، غلبت عليه كنيته، وكان ممن بايع تحت الشجرة بيعة الرضوان، ثم نزل بالشام، ومات أيام معاوية، وقيل توفى سنة خمس وسبعين، أيام عبد الملك بن مروان، "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٤، صـ١٦١٨، وينظر أيضاً: "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٧، صـ٥٠.

(٤) رواه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الطاعة، ٢٦٧/٤، رقم ٢٦٢٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: "اسناده صحيح"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب البيوع، باب بدون ترجمة، ١٢٦/٢، رقم ٢٥٤٠، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: "إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم"[١]، ومعناه: "أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات، والشحناء، والحروب، والفتن، ونحوها"[٢]، لذلك حذرنا الإسلام من الآفات التي تقف في طريق الوحدة والأخوة – وهى كثيرة لا حد لها – مهما كانت الأسباب، وعمل على إزالة هذه الأسباب التي تؤدى إلى ذلك، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً"[٣]، لأن هذه المنهيات، من شأنها تمزيق شمل الصف، وإثارة الفتنة، والفرقة بين المسلمين.

إن الله – عز وجل – أمرنا باليقظة والحذر الشديدين من الأخبار التي يروجها الفسقة، وأمرنا بالتثبت منها، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[٤]، ففي هذا النداء بين الله – عز وجل – لنا كيف نتلقى الأخبار، وكيف نتصرف بها، وأنه لابد من ضرورة التثبت من مصدرها، حتى نضمن سلامة المجتمع وأمنه، وأي تفريط في هذه المبادئ والأخلاق، سيعرض المجتمعات المسلمة للصراعات والفتن والنزاعات، ولذلك فقد ذكر الله – عز وجل – بعدها بآيتين: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[٥]، فالنزاع والاقتتال: نتيجة حاصلة من نبأ الفاسق "بعد أن حذر الله – تعالى – المؤمنين من نبأ الفاسق، أبان هنا ما يترتب على خبره من الفتنة والنزاع، وربما الاقتتال، فطلب – تعالى – الإصلاح بالوسائل السلمية بين المتنازعين، كالنصيحة والوعظ والإرشاد والتحكيم، فإن بغت إحدى الفئتين على الأخرى، فتُقاتل الباغية الظالمة، ثم علل الأمر بالصلح، بوجود رباط الأخوة بين الفريقين، ثم أمر الوسطاء والأطراف المتنازعة، بتقوى الله وطاعة أوامره"[٦].

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، ٢١٦٦/٤، رقم ٢٨١٢.

(٢) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج١٧، صـ١٥٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، ١٩/٨، رقم ٦٠٦٤.

(٤) سورة الحجرات الآية "٦".

(٥) سورة الحجرات الآيات "٩ – ١٠".

(٦) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي، مرجع سابق، ج٢٦، صـ٢٣٧.

لقد أمر الله – ﷻ – رسوله – ﷺ – والمؤمنين بأن يصلحوا بين الطوائف المتناحرة وذلك لوحدة الصف، وصيانة المجتمع من الخصام والتفكك، والآية تمثل قاعدة عامة لصيانة وحدة الصف من التفكك والتفرق، وهذا هو ما زاد عليه النبي – ﷺ – تأكيداً، فعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال: "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه"(١)، وهذا يدل على أهمية الأخوة وتماسك المؤمنين مع بعضهم، فكل فرد منهم لبنة متماسكة في بناء هيكل المجتمع وقوته وشموخه، فلا يستطيع الفرد أن ينأى بنفسه ولا يستقل عن إخوانه، لأنه ضعيف بنفسه كثير وقوى بإخوانه، ولهذا جعل النبي – ﷺ – المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد، فعن النعمان بن بشير(٢) –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله – ﷺ –: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو: تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(٣)، "إنما جعل المؤمنين كجسد واحد، لأن الإيمان يجمعهم كما يجمع الجسد الأعضاء، فلموضع اجتماع الأعضاء يتأذى الكل بتأذي البعض، وكذلك أهل الإيمان، يتأذى بعضهم بتأذي البعض"(٤)، فالمؤاخاة من أروع القيم الإنسانية التي أرساها الإسلام للمحافظة على تعاضد المجتمع وتماسكه، وقد ربطها الله – ﷻ – بالإيمان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(٥)، دون النظر لاعتبارات أخرى كاللون والجنس والنسب.

ولقد وضح النبي – ﷺ – الحقوق التي لو طبقها المسلمون لعاشوا في مجتمعاتهم آمنين مطمئنين متحابين، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: "حق المسلم على المسلم خمس، رد السلام، وعيادة المريض، وإتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس"(٦)، وهذه الآداب وحدها، لو طبقها المسلمون في مجتمعاتهم، ما تخاصم منهم أحد، ولا وقف أمام قاضى

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ١٠٣/١، رقم ٤٨١.

(٢) هو النعمان بن بشير بن مسعد بن ثعلبة من بني كعب بن الحارث بن الخزرج، أمه عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة، ولد قبل وفاة الرسول – ﷺ – بثمان سنين، وقيل: بست سنين، والأول أصح، لأن الأكثر يقولون: إنه ولد هو وعبد الله بن الزبير عام اثنتين من الهجرة في ربيع الآخر على رأس أربعة عشر شهراً من مقدم رسول الله= =– ﷺ – المدينة، وهو أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة، يكنى أبا عبد الله، سكن الشام، ثم ولي امرة الكوفة، ثم قتل بحمص سنة خمس وستين، وله أربع وستون سنة، "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٤، ١٤٩٦هـ، وينظر أيضاً: "أسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٥، صـ٣١٠.

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ١٩٩٩/٤، رقم ٢٥٨٦.

(٤) كشف المشكل من حديث الصحيحين، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن على بن محمد الجوزي، المتوفى سنة ٥٩٧هـ، تحقيق على حسين البواب، دار الوطن الرياض ، بدون ط، ت، ج٢، صـ٢١٢.

(٥) سورة الحجرات من الآية "١٠".

(٦) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز، ٧١/٢، رقم ١٢٤٠، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، ١٧٠٤/٤، رقم ٢١٦٢.

ليفصل بينهم، فلو عرف كل واحد ما له من حقوق فلم يطلب أكثر منها، وما عليه من واجبات فلم يقصر في أدائها وأحب كل واحد منهم أخاه كما يحب نفسه، فإذا مرض عادوه، وإذا غاب تفقدوه، وإذا احتاج ساعدوه وإذا مات شيعوه، وبذلك يصيرون جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

إن واقع المسلمين اليوم على مستوى الأفراد والجماعات، يؤكد أنهم في أمس الحاجة لهذه الآداب والأخلاق، التي ابتعد عنها الكثير منهم إلا ما رحم ربى، فهذه الأمور مجتمعه، تشكل برنامجاً وقائياً، يحمى المجتمع من التفرق والانحرافات الأخلاقية والسلوكية، التي تؤدى إلى الانحطاط والتمزق والضعف والهوان، ولا خلاص من هذه الانحرافات، إلا بالعودة لهذه الآداب والأخلاق.

إن من المقومات الأساسية لبناء المجتمعات، أن يكون لديها اقتصاد قوى، يحقق لها كفايتها ويحافظ على استقلالها، ويعينها على أداء رسالتها، وبدون ذلك، لا يستقم للمجتمعات حال، ولا يستقر لها شأن، ولن تستطيع المجتمعات تكوين ذلك الاقتصاد المطلوب، ما لم تستمد أصوله وفروعه من شريعتها، فهي العاصم الوحيد للمجتمعات، إذا تمسكت به سلمت من التردي في هاوية النظم الاقتصادية الهدامة، ويضمن لها التقدم والتنمية والاستقلال الاقتصادي المنشود، ولكى يتم هذا البناء على أسس سليمة قوية، فلابد من القيام بعملية هدم لكل ما يتعارض مع البناء الجديد، فالإسلام حينما ظهر في الجزيرة العربية، ظهر في مجتمع جاهلي بلغ فيه الوضع الاقتصادي – كسائر أوضاعه – الأخرى – حداً خطيراً من الفساد والانتهازية والاستقلال فأثرى القوى على حساب الضعيف، وأصبح التعاون بين الأغنياء والفقراء يهدد المجتمع بالانهيار والدمار، وكان التعامل بالربا والزيادة الفاحشة من أهم ما يميز الاقتصاد في العصر الجاهلي[١]، فعن زيد بن أسلم[٢] – رضي الله عنه – قال: "كان الربا في الجاهلية: أن يكون للرجل على الرجل الحق لأجل، فإذا حل الحق، قال: أتقضي أم تربي؟ فإن قضاه أخذ، وإلا زاده في حقه،

---

(١) "العصر الجاهلي: عصر ما قبل الإسلام"، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر، ج١، صـ٤١٤.

(٢) هو زيد بن أسلم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان العجلاني ثم البلوى ثم الأنصاري، حليف لبني عمرو بن عوف، شهد بدراً فيما ذكر موسى بن عقبة، وشهد أحداً، وهو ابن عم ثابت بن أقرم، وزعم ابن الكلبي أن طليحة قتله، وذكره ضرار بن صرض أحد الضعفاء بسنده عن عبد الله بن أبي رافع فيمن شهد صفين مع علي. "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٢، صـ٥٣٦، وينظر أيضاً، "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٨٩.

وزاده الآخر في الأجل"[١]، وهذا ما يعرف بربا النسيئة وهناك ربا الفضل: "وهو أن تكون الزيادة المذكورة مجردة عن التأخير فلم يقابلها شيء، وذلك كما إذا اشترى إردباً من القمح بإردب وكيلة من جنسه مقايضة بأن استلم كل من البائع والمشتري ما له، وكما إذا اشترى ذهباً مصنوعاً زنته عشرة مثاقيل من ذهب مثله قدره مثقالاً"[٢] وكان الربا مصدر ربح ووسيلة لتنمية الثروة، ولم تكن هناك رقابة على ضبط المكيال والميزان، وحماية الأفراد من الوقوع في أيدى المفسدين المحتالين، ومع هذا الفساد الاقتصادي فقد سخروا عقائدهم للإكثار من جمع المال، حتى اتبعوا أموراً لذلك، وجعلوها مبادئ لعقيدتهم حتى قالت قريش: "لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم، إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً، ولا يطوفون بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس[٣] فإن لم يجدوا، منها شيئاً: طافوا بالبيت عراة"[٤].

ومع أن التاريخ بين لنا أن الطواف على هذه الحالة كان مبالغة في التطهر والقداسة، إلا أن قريشاً استغلت تلك العادة المنحرفة عن الفطرة لصالحها اقتصادياً، حتى أصبح ديناً لديهم متبعاً، وكانت الأموال في يد قلة من الأفراد، يستأثرون بها دون معرفة حق الله – ﷻ – أو المجتمع، في هذا الوسط استطاع الإسلام أن يربى مجتمعاً جديداً، لم يكن له مثيل في التاريخ كله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[٥].

إن النظام الاقتصادي في الإسلام[٦]، يعتمد على الدين والأخلاق المستمدة من تعاليمه، والدين ينصف الضعيف من القوى، ويحمى الفقير من الغنى، وليس معنى ذلك أن المجتمع الاسلامي لا وجود فيه للأقوياء والأغنياء، ولكن المعنى أن الأقوياء لا يستطيعون فيه اضطهاد الضعفاء والأغنياء لا يستطيعون فيه بخس الفقراء، وهو يغنى الفقير، ويقوى الضعيف بما أوجبه لهم من

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب البيوع، باب تحريم الربا، وأنه موضوع مردود إلى رأس المال، ٤٥١/٥، رقم ١٠٤٦٧.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري، مرجع سابق، ج٢، صـ٢٢١.

(٣) الحمس: سكان الحرم، قريش ومن ولدت، لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٦، صـ٥٨.

(٤) سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ج١، صـ ١٨٥ وما بعدها.

(٥) سورة آل عمران من الآية "١١٠".

(٦) "هو مجموعة الأصول العامة الاقتصادية التي نستخرجها من القرآن والسنة والبناء الاقتصادي الذي نقيمه على أساس تلك الأصول بحسب كل بيئة وكل عصر". النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه، د/ أحمد محمد العسال، فتحي أحمد عبد الكريم، مكتبة وهبة، ط٧، ١٤٠٥هـ، صـ١٥.

الحقوق، فهو يحقق مصالح الناس جميعاً قويهم وضعيفهم، يجد فيه الضعيف أماناً من بعض الأقوياء، وظلمهم، كما يجد فيه الفقير حماية له من طغيان بعض الأغنياء وتطاولهم، فالأقوياء ليسوا كلهم على الجادة، وكذلك الأغنياء ليسوا كلهم على الحق، "يقوم هذا الاقتصاد على أساسين أولاً (ضمان حد الكفاية) لا (الكفاف) لكل فرد يعيش في مجتمع إسلامي أياً كانت جنسيته أو ديانته كحق إلهي مقدس له، كإنسان تضمنه له الدولة الإسلامية، ثم على أساس العمل والملكية، ومن ثم فإن أساس التوزيع الإسلامي هو ضمان حد الكفاية أولاً ثم الكسب بحسب العمل والملكية: تلك الملكية التي هي نتيجة عمل سابق ولو كانت موروثة، وفي مثل هذا الاقتصاد الإسلامي لا يمكن أن يوجد محروم أو مانع واحد بسبب خارج عن إرادته، كما تتفاوت الدخول بسبب التفاوت في المواهب والقدرات ممثلة في العمل والملكية"(١)، وهذا بخلاف النظم الاقتصادية الأخرى(٢) التي يعتدى فيها القوى على الضعيف، ويظلم فيها الغنى الفقير، لأن التشريعات البشرية يضعها في أغلب الأحوال الأغنياء والأقوياء، وقلما يراعى فيها الضعفاء والفقراء، فالغنى قد يستعبد الفقير، ويفرض عليه أن يعمل عنده بثمن بخس، وربما بلا أجر، والغنى يتهرب من التكاليف والضرائب المالية، وإذا وقع الضعيف مع القوى في نزاع فغالباً يحكم للغنى، وإذا أجرم الفقير أقاموا عليه الحد أما الغنى فلا، وهذا هو سبب هلاك الأمم السابقة على الإسلام كما أخبرنا النبي – ﷺ – فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله – ﷺ –: "أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"(٣)، فالشريعة الإسلامية: تحرص على أن تكون المعاملات قائمة على أساس من الرحمة والعدل

---

(١) الإسلام والتوازن الاقتصادي بين الأفراد والدول، محمد شوقي الفنجري، وزارة الأوقاف، صـــ٣٢.

(٢) "مثل:- ١- الاقتصاد الرأسمالي الذي يقوم أساساً على الملكية الخاصة، والذي يترتب عليه التفاوت الشديد في الدخول بحبس التفاوت الشديد في ملكه وأدوات ووسائل الإنتاج، ويعمل على زيادة التضخم ومعاناة الكثير في المعايشة وحرمانهم. ٢- النظام الاشتراكي الذي يقوم أساساً على الملكية العامة في صورة ملكية الدولة والذي يترتب عليه التفاوت والطبقات بسبب اختلاف القدرات والمواهب. ٣- ومنها النظام الشيوعي القائم على أساس تحقيق الوفرة في الإنتاج بحيث يكفي حاجات الناس وفيه تختفي ظاهرة التفاوت في الملكية ولا توجد منه طبقات ولكن ستظل فكرة هذا الاقتصاد الشيوعي ضمناً ماركسياً أو وهماً لن يتحقق لمخالفته طبيعة الأشياء ونظام الحياة كما أرادها الله"، المرجع السابق، بتصرف كبير، صـــ٢٩

(٣) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ١٧٤/٤، رقم ٣٤٧٥، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، ١٣١٥/٣، رقم ١٦٨٨.

والمساواة فالشرع هو الضمان الوحيد لتحقيق عبوديتهم من كل مظاهر الحياة، والالتزام بالشرع هو الضمان الوحيد لتحقيق مصالح الناس، ودرء المفاسد عنهم، وفق ما يراه، فلو ترك الناس دون ضابط للمعاملات ضبطاً شرعياً، لوقع كثير من الناس في الفتن والمفاسد، وضاعت الحقوق، وارتكب الحرام ووقع الغبن عليهم.

لقد جعل الله – ﷻ – المال قواماً للحياة وسبباً لاستمرارها، فقال: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾[١]، وفى ذلك "إشارة إلى ما للمال من شأن في الإسلام، وإلى النظرة التي ينظر بها إليه، وأنه قوام الحياة وملاك عمرانها، ومبعث سلامة المجتمع وقوته"[٢]، ولذلك فقد اهتم الإسلام في أحكامه بتنظيم الشئون المالية للأفراد والجماعات، فأحل الكسب المباح الطيب الذى ليس فيه اعتداء على مال أحد، ونهى عن الكسب غير المشروع بمختلف مظاهره ووسائله، لأن فيه مضره مفسدة تعود على المجتمعات في الأموال، وتحدث أزمات في معاشهم وحياتهم، ومن ثم تحصل العداوة والبغضاء والقطيعة، ولذلك فقد نهى الله – ﷻ – في قرآنه عن أكل أموال الناس بالباطل فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾[٣]، ثم إن الشريعة لم تنه فقط عن المفسدات، بل نهت عن كل وسيلة مؤدية إليها، فمثلاً: إخفاء الطعام من السوق رغم حاجة الناس إليه، أو التطفيف في الكيل والميزان، أو اتخاذ أى وسائل غير مشروعة من أجل كسب المال، هي حيل فاسدة منهى عنها، لما فيها من المضرة والمفسدة، وحرمان الناس من حقوقهم، وحماية لهم من التعامل الخالي من كل مظاهر الفساد والحرام، "وهذه توجيهات ليست مجرد مواعظ أخلاقية، ولكنها ضوابط وقواعد اقتصادية تحدد بوضوح ما ينبغي للإنسان الفرد، أن يأخذ من المال، لأن ما يزيد على الحاجات يدخله مع المسرفين، والمسرفون ومعهم المترفون، يلقون من سرفهم وترفهم، كأنه سرقة حق لفقير ومحتاج، على نحو ما روى عن الإمام على – رضي الله عنه – أنه قال: "ما أتخم غنى إلا بعدوان على حق فقير"[٤].

---

(١) سورة النساء من الآية "٥".

(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج٢، صـ٧٠١.

(٣) سورة النساء من الآية "٢٩".

(٤) الإسلام والفوارق الاقتصادية بين الأفراد والدول، محمد شوقي الفنجري، وزارة الأوقاف، بدون ط، ١٤٣١هـ، صـ٧.

فالإسلام نهى عن كل كسب يثير الأحقاد، ويفسد العلاقات، لأن صلاح المجتمع من صلاح العلاقات التي تنظم سلوك أفراده، ثم هو يربى الإنسان على أن يكون أداة لحفظ المال وتنميته، وتكوينه، لا أن يكون أداة إضاعة وتبديد للثروات، فلا إسراف، ولا تبزير، ولكن اقتصاد وتدبير فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من والله أمركم ويكره لكم قيل، وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال"[١]، "وليس للإنسان أن يبعثر الأموال كيفما شاء له هواه فذلك هو الإسراف الذى يفسد الحياة، ويهلك المجتمعات وينذر بالخطر، ولذلك شن القرآن حملة على الإسراف والمسرفين والمترفين، فجعلهم إخوان الشياطين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[٢][٣].

إن المعاملات المالية: أساس بناء الاقتصاد وتطوره، فلا اقتصاد بدون مال، ولا مال بدون اقتصاد، فبصلاحها يصلح الاقتصاد، ويفسد بفسادها، ومن أجل سلامة التعامل المالي، ودورانه بشكل سليم، تكفلت الشريعة الإسلامية ببيان الأحكام الفاسدة، حتى يكون المجتمع في وقاية من ضررها، ومن هذه البيوع المنهى عنها.

(أ) **الربا** وهو: "زيادة أحد البدلين المتجانسين، من غير أن يقابل هذه الزيادة عوض"[٤]، وهو من الأعمال التي تعمق في الإنسان الانحراف عن منهج الله السوى، لأن المرابى يسيطر عليه حب المال، فهو يسعى للحصول عليه بكل وسيلة، وفيه تعدى على الحرمات، لأن المرابى يريد من الآخرين أن يعملوا ثم يحصل على ثمرة جهدهم، ولعل القرآن الكريم أشار إلى ذلك، في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٥]، والربا يجعل صاحبه قلقاً متوجساً خوفاً على الفائدة المزعومة، ولقد وصف القرآن الكريم الحالة النفسية التي يكون عليها المرابى بقوله - ﷻ -: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة، ٣/١٣٤٠، رقم ١٧١٥.

(٢) سورة الإسراء من لآية "٢٧".

(٣) منهج القرآن في تربية المجتمع، عبدالفتاح عاشور، دار الجيل للطباعة، مصر، ط١، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٩م، صـ٤٢٧ وما بعدها.

(٤) الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن محمد عوض الجزيري، سنة ١٣٦٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ج٢، صـ٢٢١.

(٥) سورة الروم من الآية "٣٩".

ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾[١]، ومن مفاسده أيضاً، أنه يجعل المال يُستأثر به فئة قليلة من الناس، فيزداد الغنى غنى فاحشاً، ويزداد الفقير فقراً وحرماناً، فيقسم المجتمع إلى طبقات، فيتولد الصراع والكره بينهم، بدل التعاون والمساعدة، ولذلك فهو يفضى إلى انقطاع الخير والمعروف بين أفراد المجتمع، المتمثل في القرض الحسن، والذى هو من باب المواساة والمعروف والإحسان بين الناس، لذلك جعل الله – ﷻ – هذا النوع من العدوان محاربة له ولرسوله – ﷺ –، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٢]، ولقد لعنه النبي – ﷺ – وكل من شارك فيه وأسهم، فعن جابر – رضي الله عنه – قال: "لعن رسول الله – ﷺ – أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء"[٣]، إن الله – ﷻ – أخبرنا بسننه في التعامل مع المجتمعات والاقتصاديات القائمة على الربا، وسننه مع الاقتصاديات المبنية على الزكوات والانفاق في سبيل الله – تعالى –، فقال – تعالى –: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٤]، فالربا فيه: محق للمجتمعات والاقتصاديات الربوية، أما المجتمعات والاقتصاديات القائمة على الزكوات، والإنفاق، ففيها مضاعفة ونماء، وهو توجيه إلى ما ينبغي أن تكون عليه، حتى يتحقق النماء والبركة، ولذلك فإن "تحريم الربا تنظيم اقتصادي، لقيام بناء اقتصادي سليم، لا تكون فيه أزمات، ولا تؤكل فيه أموال الناس بالباطل، ولا يؤدى إلى التعطل والكسل، ولا أن يكون ربح من غير تحمل للخسارة"[٥].

(ب) **ومن هذه البيوع المحرمة أيضاً (تلقى الركبان)** وهو: "أن يقدم ركب بتجارة، فيتلقاه رجل قبل أن يدخلوا البلد، ويعرفوا السعر، فيشترى منهم بأرخص من سعر البلد"[٦]، حتى يستحوذ على السلعة كلها، أو يتحكم في سعرها، وهو منهى عنه لما فيه من الضرر، فعن ابن عمر – رضي الله عنه – أن رسول

(١) سورة البقرة من الآية "٢٧٥".
(٢) سورة البقرة الآيات "٢٧٨ – ٢٧٩".
(٣) مسلم، كتاب المساقاة، باب لعن الله أكل الربا ومؤكله، ١٢١٩/٣، رقم ١٥٩٨.
(٤) سورة البقرة الآية "٢٧٦".
(٥) زهرة التفاسير، محمد بن أحمد مصطفى بن أحمد المعروف بأبى زهرة، المتوفي سنة ١٣٩٤هـ، دار الفكر العربي، بيروت، ج١، صـ٨٩.
(٦) حجة الله البالغة، أحمد بن عبدالرحمن بن الشهيد وجيه الدين من معظم بن منصور المعروف بالشاة ولى الله الدهلوي، سنة ١١٧٦، تحقيق سيد سابق، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ج٢، صـ١٧١.

الله – ﷺ –: "لا يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا تلقّوا السلع حتى يهبط بها إلى السوق"(١)، فالأصل في البيوع أنها جائزة ومباحة، لكن ثبت النهى عن هذه الممارسة في البيع لما يترتب عليها من ضرر بالمجتمعات وأسواقها، لأنها من الخديعة، وفيها "ضرر بالعامة، لأنه يوجد في تلك التجارة حق أهل البلد جميعاً"(٢)، والنهى عنها من أجل الحفاظ على استقرار الأسعار، وعدم ارتفاعها ارتفاعاً فاحشاً، وبالتالي لا يتضرر أهل البلد من الارتفاع، ويستقر المجتمع.

(ج)**ومن هذه البيوع المحرمة أيضاً (الاحتكار)**: "وهو شراء الشئ وحبسه، ليقلَّ بين الناس، فيغلوا سعره ويصيبهم بسبب ذلك الضرر"(٣)، وهو من أخطر المعاملات المالية الفاسدة التي تربك الاقتصاد، وتفسد حركة تداول المال فيه بطريقة غير سليمة، وهو يشمل كل ما يحتاج الناس إليه، بحيث إذا حبس عنهم كانوا في حرج، فعن معمر بن عبد الله(٤) – رضي الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – قال: "لا يحتكر الا خاطئ"(٥)، فالاحتكار أمر مذموم، يجب اجتنابه والبعد عن ممارسته، لأنه يضر بالمجتمع، ففيه "تضييق على الناس، وإعنات لهم، أو هدم لقاعدة التنافس الشريف في التجارة، وقد يكون غير ذلك، عن طريق شراء السلعة من السوق والتحكم في سعرها، أو تخفيض السعر مضارة في تاجر ناشئ، ليخلوا الطريق أمام المحتكر، فيفرض ما شاء له هواه على الناس من أسعار .. وفى كلتا الحالتين يبتعد أمثال هؤلاء عن ركب جماعة المؤمنين، ليكونوا أداة قسر تلهب ظهر المجتمع وتستغله أسوأ استغلال"(٦).

(د) **ومن هذه البيوع أيضاً (الغش)** وهو: "أن يشتمل المبيع على وصفٍ نقصٍ، لو علم به المشترى امتنع عن شرائه"(٧)، من أجل ذلك فقد أقامت الشريعة الإسلامية المعاملات المالية على أساس

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب النهى عن تلقاء الركبان، ٣/٧٢، رقم ٢١٦٥.

(٢) حجة الله البالغة، الدهلوي، مرجع سابق، ج٢، صــ١٧١.

(٣) فقه السنة، السيد سابق، المتوفي سنة ١٤٢٠هــ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٣٩٧هــ، ١٩٩٧م، ج٣، صــ١٠٦ وما بعدها.

(٤) هو معمر بن عبد الله بن نافع بن نضلة بن عبد العزى بن عوف القرشي العدوي، كان شيخ من شيوخ بني عدي، وأسلم قديماً، وتأخرت هجرته إلى المدينة لأنه كان هاجر الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة وعاش عمراً طويلاً، كان قديم الإسلام ولكنه هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة، فأقام بها، ثم قدم المدينة بعد ذلك، فهو معدود في أهل المدينة. "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٣، صــ١٤٣٤، وينظر أيضاً: "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٦، صــ١٤٨.

(٥) رواه مسلم، كتاب البيوع، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، ٣/١٢٢٨، رقم ١٦٠٥.

(٦) منهج القرآن في تربية المجتمع، عبد الفتاح عاشور، صــ٤١٦.

(٧) البحر الرائق، شرح كنز الرقائق، زين الدين بن إبراهيم بن محمد المعروف بابن نجيم المصري، المتوفي سنة ٩٧٠هــ، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، بدون ت، ج٦، صــ٣٨.

العدل والصدق، وتبادل المنافع دون غبن أو غش، ليحصل التعاون بين الناس، ويستفيد بعضهم من بعض، فعن أبي هريرة – ﷺ – أن النبي – ﷺ –: مر على صُبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: "ما هذا يا صاحب الطعام؟ فقال أصابته السماء يا رسول الله: قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشَّ فليس منى"[١]. ومن الأشياء التي حرمها الإسلام أيضاً التطفيف والبخث في الميزان إما بالزيادة إذا أخذ من الناس أو النقصان إن قضاهم وقد توعد الله من فعل ذلك من الناس بالويل والعذاب الشديد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٢] سيدنا شعيب – عليه السلام – قومه عن التلاعب بالكيل والميزان، فقال كما جاء في القرآن الكريم: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[٣].

فهذه الأشياء لها أثر سئ على المجتمع بأسره، "لذلك حرم الإسلام الغش، واعتبر من غش خارجاً عن جماعة المسلمين (من غشنا فليس منا) وذلك لأنه قوض بناء الإخلاص والتقوى والإخاء التي يقوم عليها مجتمع الإسلام، وتنبثق منها علاقات أفراده"[٤]، إن الغش فيه نقص للحقوق، وهو أساس لزعزعة الثقة في المجتمعات، فيقطع المودة ويكون سبباً في إثارة الفتن، والأحقاد بين المجتمعات، فينتشر الفساد في الأرض، وبالجملة فقد حرم الإسلام كل كسب فيه إضرار بالفرد والمجتمع، في حين انه لم يمنع أحداً من امتلاك المال بالطرق الشرعية، التي أباحها الإسلام وحث عليها كالزراعة والصناعة والتجارة وغيرها، وأوجب المشي في مناكب الأرض فقال – تعالى – :﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[٥]، فالإسلام لم يتجاهل غريزة حب التملك عند الإنسان بل أقرها، ونظمها في الحدود المشروعة، التي تركز على عدم الضرر والضرار، ثم جعل للفقراء ومن هم على شاكلتهم كالسائل والمحروم، حق في هذا المال، فقال تعالى في أوصاف المؤمنين الذين سيفوزون بالجنة والخلد والنعيم المقيم، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[٦]، وبذلك يشعرون أنهم أخوة لهم فيعيش المجتمع المسلم حياة كلها، وئام وصفاء وتعاون.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي – ﷺ – من غشنا فليس منا، ٩٩/١، رقم ١٠٢.

(٢) سورة المطففين الآيات "١ – ٥".

(٣) سورة الشعراء الآيات "١٨١ – ١٨٣".

(٤) منهج القرآن في تربية المجتمع، عاشور، مرجع سابق، صـ٤١٥.

(٥) سورة الملك من الآية "١٥".

(٦) سورة الذاريات الآية "١٩".

الفصل الثاني
التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الجانب العقدي

ويشتمل على ستة مباحث:-

المبحث الأول: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالله

المبحث الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالملائكة

المبحث الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالكتب

المبحث الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالرسل

المبحث الخامس: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر

المبحث السادس: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالقضاء والقدر

تمهيد:

إن العقيدة هي الأساس العظيم الذي يقوم عليه الإسلام، ولقد كانت مهمة الأنبياء والرسل – عليهم السلام – ترسيخ العقيدة الصحيحة في نفوس أتباعهم، وتصحيح ما طرأ عليها من التغير والانحراف، وهذه هي مهمة ورثة الأنبياء من العلماء، والعقيدة هي الأساس الذي إذا صلح، صلح البناء، وإذا فسد، فسد البناء كله.

أ- تعريف العقيدة في اللغة

والعقيدة في اللغة مأخوذة من الفعل عقد، "العين والقاف والدال: أصل واحد يدل على شد، وشدة وثوق، وإليه يرجع فروع الباب كلها"[١]، ويقال: "اعتقدت كذا: عقدت عليه القلب، والضمير، حتى قيل: العقيدة ما يدين الإنسان به، وله عقيدة حسنة: سالمة من الشك، واعتقدت مالاً: جمعته"[٢]، "وعقد قلبه على الشئ، أي: لزمه"[٣]، فالعقيدة في اللغة تفيد الثبوت على الشئ والالتزام به، والتأكد منه، وما يدين به الإنسان وعقد عليه قلبه، فلا يخالطه شك ولا ريبة.

ب- تعريف العقيدة في الاصطلاح

أما في الاصطلاح فهي "مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثني عليها صدره، جازماً بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدا"[٤]، وجاء في تعريفها أيضاً إنها: "ما يدين به الانسان ربه، وجمعها: عقائد، والعقيدة الإسلامية: مجموعة الأمور الدينية التي تجب على المسلم أن يصدق بها قلبه، وتطمئن إليها نفسه، وتكون يقيناً عنده لا يمازجه شك، ولا يخالطه ريب، فإن كان فيها ريب أو شك كان ظناً لا عقيدة"[٥].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٤، صـ٨٦.

(٢) المصباح المنير في غريب شرح الكبير، أحمد بن محمد بن على الفيومي أبو العباس، المتوفى سنة ٧٧٠هـ، المكتبة العلمية، بيروت، ج٢، صـ٤٢١.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٣، صـ٢٩٨.

(٤) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، دار الكتب المصرية، ط١، ٢٠٠٧م، صـ١٥.

(٥) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد أحمد عبد القادر مكاوي، مكتبة دار الزمان، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، صـ٢٠.

فالعقيدة تعني الإيمان بمجموعة من الأمور التي يجب على المؤمن الإيمان بها والتصديق، فتطمئن نفسه بها إيماناً كاملاً، لا يخالطه شك ولا ريبة، وهذه الأمور والأركان بينها الله – ﷻ – في قرآنه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[١]، وبينها رسول الله – ﷺ – في حديثه، حينما سأله سيدنا جبريل – عليه السلام – عن الإيمان في حديث سيدنا ابن عمر – رضي الله عنهما –، فقال له أخبرني عن الإيمان؟ قال: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال صدقت"[٢]، وهذه الأصول ثابتة ومقررة عند الأنبياء جميعاً، ولذلك فقد بعث الله – ﷻ – الرسل، وأنزل الكتب عليهم لبيان العقيدة الصحيحة، ودعوة الناس إليها، وليحذروا من كل انحراف يشوبها، حتى يتحقق الصلاح والسعادة، لأن العقيدة الصحيحة التي جاءوا بها، لها أثر كبير في توجيه الإنسان وتصرفاته، ولذلك فهي خالية عن كل شائبة، ولذلك فهي تؤثر تأثيراً إيجابياً على استقامة العبد، وهذا ما سيتضح من خلال هذا الفصل إن شاء الله – سبحانه وتعالى –.

---

(١) سورة البقرة من الآية "١٧٧".

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، ١/٣٦، رقم ٨.

المبحث الأول

التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالله

أولاً: مفهوم الإيمان بالله - ﷻ -

أ- تعريف الإيمان بالله لغة

الإيمان في اللغة: "مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه: التصديق"(١)، ومن مادته الأمن وهو: "عدم توقع مكروه في الزمن الآتي، وأصله طمأنينة النفس، وزوال الخوف"(٢)، فمعاني الإيمان تدور في اللغة حول الطمأنينة، والأمن والإقرار وإظهار الخضوع، وكلها تؤدي إلى التصديق.

ب- تعريف الإيمان بالله في الاصطلاح

الإيمان هو: "التصديق بجميع ما جاء به النبي - ﷺ - مما علم من الدين بالضرورة إجمالاً في الإجمالي وتفصيلاً في التفصيلي"(٣)، فالإيمان هو مطلق التصديق بكل ما أخبر الله - ﷻ - في كتابه ورسوله - ﷺ -، فالله - ﷻ - موصوف بكل كمال يليق بذاته المقدسة ومنزه عن كل ما لا يليق به سبحانه.

ثانياً: الأسس والأساليب الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الإيمان بالله

إن الإيمان بالله - ﷻ - هو أساس الدين، وأول الواجبات علي الإنسان، ولذلك فهو مقدم علي جميع أركان الإيمان، لأنه أساس لها، فلا يصح إيمان عبد بشئ من أركان الإيمان، إلا بعد الإيمان بالله - ﷻ -، ولذلك يذكر الإيمان بالله - ﷻ - مقدماً عليها إذا ذكرت معه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾(٤)، وقد قدمه النبي - ﷺ - علي بقية الأركان، حينما سأله أحد الصحابة عن الإيمان، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله - ﷺ - يوماً بارزاً للناس، فأتاه رجل، فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ فقال: "أن

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري، مرجع سابق، ج١٥، صـ٣٦٨.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، مرجع سابق، ج٢، صـ٦٣.

(٣) تحفة المريد على جوهرة التوحيد، البيجوري، مرجع سابق، صـ٩٢.

(٤) سورة النساء الآية "١٣٦".

تؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورسله، واليوم الأخر، وتؤمن بالبعث الآخر، قال: صدقت"[١].

وقد جعله الله – ﷻ – شرطاً لقبول الأعمال الصالحة، لقوله تعالي: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾[٢]، أي فلا يضيع الله – ﷻ – عمله ولا يبطله، بل يضاعفه له أضعافا كثيرة، أما إذا فقد الإيمان بالله – ﷻ – فلو استغرق الانسان بعده ليله ونهاره في عمل فلن يقبل الله – ﷻ – منه، قال تعالى مؤكداً هذه الحقيقة: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[٣]، مثل الغبار المنثور في الجو وهذا "عبارة عن عدم قبول ما عملوا من الحسنات كإطعام المساكين وصلة الأرحام، وغير ذلك، وأنها لا تنفعهم"[٤]، فلا يرون لها في الآخرة ثواباً وأجراً، لأنها أسست علي غير إيمان بالله – ﷻ – ورسوله – ﷺ –.

وقد ينتفع الكافر بعمله الصالح في الدنيا ولكن لاحظ له فيه في الآخرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٥]، وقد أكد ذلك النبي – ﷺ – فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطي بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعن بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتي إذا أفضي إلي الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها"[٦]، فالإيمان بالله – ﷻ – هو أساس الدين، وشرط لقبول الأعمال، من أجل ذلك فقد بعث الله – ﷻ – الرسل – عليهم السلام – وأنزل عليهم الكتب والتشريعات، هداية للناس الى الصراط المستقيم، وحماية لهم من الضلال والانحراف عن المنهج القويم، فجاءوا بعقيدة صافية من عند الله – ﷻ –، خاليه من كل شوائب الانحراف التي

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، ٣٩/١، رقم ٩.

(٢) سورة الأنبياء من الآية "٩٤".

(٣) سورة الفرقان الآية "٢٣".

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابو القاسم محمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الكلبي الغرناطي، المتوفى سنة٧٤١هـ، تحقيق د/عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، سنة ١٤١٦هـ، ج٢، صـ ٨١.

(٥) سورة هود الآيات "١٥، ١٦"

(٦) رواه مسلم، كتاب صفة الجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، ١٢٦٢/٤، رقم ٢٨٠٨.

تعكر صفوها، وقاموا بسد كل طريق يؤدي إلي الانحراف، عن طريق الإيمان بالله - ﷻ -، وبينوا وهن الأسباب، وضعف العلل التي تمسك بها الكافرون، لتبرير ما هم عليه من الضلال والتيه، ليكون ذلك دفعاً لكل إنسان أراد تحقيق الإيمان بالله - ﷻ - علي أكمل وجه، بعيدا عن الكفر والشرك وكل ما يناقضه، ليكون على بصيرة من دين الله - ﷻ -، والمتتبع لدعوات أولي العزم من الرسل يتضح له المناهج[١] التي تمسكوا بها، وسلكوها لوقاية الناس من خطورة الانحراف عن طريق الإيمان بالله - ﷻ -، وكان من أهم هذه المناهج اتباع الأساليب الآتية:-

١- أسلوب الدعوة إلي عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه

إن من أعظم ما امتن به الله - ﷻ - على عباده، أن أرسل إليهم رسلاً من أنفسهم، يدعونهم الي طريق الخير والصلاح والاستقامة، ويصرفونهم عن طريق الشر والغواية، وسد كل طريق يؤدي الي الضلال والانحراف، ولقد كانت مهمة الأنبياء والرسل - عليهم السلام - عامة وأولي العزم منهم خاصة، أن يوجهوا الناس الوجهة الصحيحة السليمة إلي الله – تعالي - وأن يحفظوا فطرتهم من الانحراف، حتي لا يعبد الانسان إلا الله - ﷻ -، ولا يشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعض المخلوقات أربابا من دون الله - ﷻ -، ولذلك "اتجه الرسل - عليهم السلام – جميعاً إلى دعوة الناس إلى توحيد الله - ﷻ - وترك تأليه ما سواه"[٢]، ولقد جاء أولو العزم من الرسل بهذه الحقيقة التي جاء بها كل رسول من عند الله - ﷻ -، وهي حقيقة عبودية العالم أجمع لله - ﷻ -، عبودية شاملة، فهذه حقيقة واحدة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وهي تعني أول ما تعني تنحية كل طاغوت[٣]، عن تعبيد الناس له من دون الله - ﷻ - بإخضاعهم لرأيه وأوامره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[٤]، فقد أخبر الله - ﷻ - أنه بعث في كل طائفة من الأمم، رسولاً يدعوهم الي عبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما زينه الشيطان لهم وأوقعهم فيه من عبادة ما سواه،

---

(١) المناهج الدعوية: "هي نظم الدعوة، وخططها المرسومة لها"، المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـــ١٩٥.

(٢) دعوة الرسل عليهم السلام، غلوش، مرجع سابق، صـــ٥٠٩.

(٣) جاء في معني الطاغوت: أنه كل ذي طغيان علي الله فعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعةٍ ممن عبده له، وانساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شئ"، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج ٥، صـــ٤١٩ .

(٤) سورة النحل من الآية "٣٦".

فمنهم من هدي الله – تعالي – للعبادة، ومنهم من حقت عليه الضلالة فأشرك مع الله – ﷻ – غيره بعبادته، ولم يقبل هدي الله الذي أرسل به الرسل – عليهم السلام – فتحقيق العبادة لله – ﷻ – لا تتحقق إلا بشقين، نفي وإثبات، نفي استحقاق العبادة عن غير الله – ﷻ –، ثم إثبات استحقاقها لله وحده، فلا يصح إيمان بالله مع إيمان بشئ من الطواغيت، كما لا يكفي البراءة من الطاغوت، دون الإيمان بالله، فلابد من التزكية والتطهير معاً، وقد قيل: إن عبادة الله – ﷻ – هي الأساس الأهم للإيمان بالله – ﷻ – والكفر بالطاغوت شرط لها، وهذا هو ما بعث الله به الأنبياء والرسل – عليهم السلام –، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[١]، فكلمة (لا إله إلا الله) تشمل علي جزئين – نفي واثبات – النفي (لا إله) فهي نافية لكل ما يعبد من دون الله – ﷻ –، فلا يستحق أحد العبادة سواه، والنكرة تفيد العموم، فهي عامة وشاملة لكل ما يمكن أن يتوجه إليه بالعبادة غير الله – ﷻ – سواء كان بشراً أو حجراً أو كوكباً وما شابه ذلك والشق الثاني الإثبات – (إلا الله) فهو يثبت العبادة لله – ﷻ – فهو الإله الحق، والمستحق للعبادة فهو المنفرد بالعبادة المستحق لها دون سواه فلا يشاركه فيها أحد من خلقه.

لقد جاء الرسل – عليهم السلام – لإنقاذ الانسانية من وحل العبودية لغير الله – ﷻ –، ولولاهم لظلوا غارقين فيها إلي الأذقان، وحاجة المؤمنين إلى الاقتداء بهم كحاجتهم الي الطعام والشراب بل أشد.

- ولقد كانت مهمتهم الأولي دعوة الناس الي عبادة الله وحده لا شريك له، وبذلك أمر كل واحد منهم أن يدعو قومه وهكذا "قامت دعوة نوح – عليه السلام – على دعوة الناس إلى توحيد الله – ﷻ – وقصد العبادة له، وترك ما عدا ذلك من شرك وضلال، يوضح الله – ﷻ – هذه الحقيقة في آيات متعددة"[٢]، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾[٣]، وقوله تعالي: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴾[٤]، وكذلك قوله تعالي: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا

(١) سورة الأنبياء الآية "٢٥".

(٢) دعوة الرسل، غلوش، مرجع سابق، صـــ٦٦

(٣) سورة الأعراف الآية "٥٩".

(٤) سورة هود الآيات "٢٥-٢٦".

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[١]، وغير ذلك من الآيات التي إذا نظرنا فيها، لوجدناها تقرر أن الله – ﷻ – ارسل سيدنا نوحاً – عليه السلام – يدعو قومه الي عبادة الله وحده، هذه العبودية تعني نزع السلطان كله لله وحده، وهذا هو أول ما بدأ به سيدنا نوح – عليه السلام – بعدما انحرف الناس عن الطريق المستقيم، وظهر فيهم الشرك، ليجدد لهم معالم العقيدة، ويردهم الي الصراط المستقيم، وينقذهم من خطر الانحراف عنه، فأعاد إلى العقيدة نقاءها الذي تقرر في الأرض منذ أن خلق الله سيدنا آدم – عليه السلام –.

- كذلك فعل سيدنا إبراهيم – عليه السلام – حينما بعثه الله – تعالى – في فترة من الرسل ساد فيها الشرك والوثنية، واستحكم فيها الجهل والضلال، ولهذا جاءت دعوته لقومه بعبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأصنام والأوثان والكواكب وغيرها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢]، ثم بين لهم أن الإله الحق الذي هو أحق بالعبادة، لابد وأن يتصف بصفات الألوهية من الخلق والإيجاد والنفع، فقال – ﷻ –: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٣]، وهذا يبين بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأوثان وغيرها مما لا يستحق العبادة، "فسمى الآلهة إفكاً على المبالغة، فإن الإفك هو الكذب"[٤].

- كذلك جاء سيدنا موسي – عليه السلام – بهذه الحقيقة، وهي حقيقة عبودية العوالم جميعها لله وحده، عبودية شاملة، فحينما اختاره الله – ﷻ – واصطفاه لرسالته، خاطبه في بداية الأمر برسالة التوحيد فعرفه بنفسه وأنه لا إله غيره في الأرض ولا في السماء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[٥]، فقوله: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾، يعني: "إنني أنا المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له (لا إله إلا أنا) فلا تعبد غيري، فإنه لا معبود يجوز أو تصلح له العبادة سواي، (فاعبدني) يقول: فأخلص العبادة لي دون كل ما عبد من

(١) سورة المؤمنون الآية "٢٣".

(٢) سورة العنكبوت الآية "١٦".

(٣) سورة العنكبوت الآية "١٧".

(٤) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٥٩.

(٥) سورة طه الآية "١٣ – ١٤".

دوني"[١] إنها المواجهة القوية الصريحة بحقيقة العبودية والوحدانية منذ اللحظة الأولي، وهذا يدل على أن: "تقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى"[٢] حتي يتعلم المربون والدعاة أن أول شئ يجب علي المكلفين هو علمهم بوحدانية الله – سبحانه وتعالى – وإخلاص العبادة له، حتي يتحرر الناس من الخضوع والطاعة والعبودية لغير الله – عز وجل –.

ولقد أخذ الله – عز وجل – الميثاق علي بني اسرائيل بعبادة الله وحده، فقال تعالي: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٣]، وعلي الرغم من ذلك وما لاقاه سيدنا موسي – عليه السلام – في سبيل دعوتهم إلي عبادة الله – سبحانه وتعالى – إلا أن رواسب الوثنية لعبادتهم لغير الله التي ألفوها بقيت تعاودهم من وقت لأخر، فمثلا عندما جاوزوا البحر بعد غرق فرعون، مروا علي قوم يعبدون الأصنام، فطلبوا من سيدنا موسي – عليه السلام – أن يتخذ لهم أصناماً يعبدونها مثلهم ولكنه لامهم علي ذلك وعابهم علي هذا الجهل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

- ثم يأتي سيدنا عيسي – عليه السلام – ليجدد دعوة الأنبياء قبله من حيث عبودية الناس جميعا لله الواحد، ودعوتهم إلي التوحيد الخالص بكل شعبه، ودعاهم إلي نبذ الشرك والشركاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٥]، وقال لهم مبينا أن العبودية لا تكون إلا لله – سبحانه وتعالى – وهذا هو الطريق السوي الذي لا عوج فيه ولا التواء، كما ذكر القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٦]، "أي: إني وإياكم عبيد الله، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره، وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، يقول: هذا الذي أوصيتكم به، وأخبرتكم أن الله أمرني به هو: الطريق المستقيم الذي من سلكه نجا ومن ركبه اهتدي، لأنه دين الله الذي أمر به انبياءه"[٧]

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج ١٨، صـــ ٢٨٣.

(٢) عظات وعبر في قصص الأنبياء، سعيد عبد العظيم، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، صـــ١٧.

(٣) سورة البقرة من الآية "٨٣".

(٤) سورة الأعراف الآيات "١٣٨ – ١٤٠".

(٥) سورة المائدة من الآية "٧٢".

(٦) سورة آل عمران الآية "٥١".

(٧) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج ١٨، صـــ ١٩٧.

إن أول شئ نطق به سيدنا عيسي – عليه السلام – حينما تكلم في المهد، اعترافه بالعبودية لله وحده، قال تعالى على لسانه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾(١)، ثم يعلن براءته في المشهد يوم القيامة من اتخاذه وأمه إلهين من دون الله – سبحانه وتعالى –، فيقول: ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾(٢)، فالأمر الذي أمر به سيدنا عيسي – عليه السلام – قومه هو: عبادة الله وحده لا شريك له، ولم يقل لهم اعبدوني من دون الله – سبحانه وتعالى –.

- وسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ليس بدعاً من الرسل، ولكنه جاء بما جاء به الأنبياء والرسل – عليهم السلام – قبله من عبادة الله – عز وجل – وحده لينقذ البشرية من التردي في مخاطر الانحطاط البشري، وأرشدهم الي السبيل السوي للحياة، والمتمثل في هذا النداء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٣)، فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعلم الناس أول ما يعلمهم إخلاص العبادة لله وحده ونبذ عبادة ما سواه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾(٤)، فكان هذا هو أول ما دعا الناس إليه كما فعل إخوانه من الأنبياء والرسل – عليهم السلام – وهذا ما يبايع عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كل من أعتنق دينه، وهو أول ما دعا إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ملوك الأرض، وهذا يؤكد أن أولي العزم من الرسل كان همهم الأول هو بناء النفوس علي معاني الإيمان بالله – سبحانه وتعالى – والعبودية له وحده، وهذا منهج تربوي وقائي إيماني جاءوا به لصيانة البشر من التعبد لغير الله – عز وجل –.

٢- إعلانهم التبرؤ من الكفر

لقد كان من أساسيات منهج أولي العزم من الرسل – عليهم السلام – في الوقاية من الانحراف العقدي عن الطريق الصحيح للإيمان بالله – سبحانه وتعالى –، اعلانهم التبرؤ من مظاهر الشرك، وأعمال الكافرين، لينشأ الإنسان نشأة دينية صحيحة، بعيدة عن كل ما ينافى هذه العقيدة الصافية، فهي

---

(١) سورة مريم من الآية "٣٠".

(٢) سورة المائدة من الآية ١١٦ ، ١١٧.

(٣) سورة البقرة الآية ٢١.

(٤) سورة هود الآيات "١-٢".

تحمي الناس من الانجرار وراء هذه الأعمال التي تصيب الإنسان في إيمانه، أو تقضي علي بوادرها عند بداية ظهورها.

- إن الإنسان لا يستقيم إيمانه إلا بالبراءة من الكفر فهذا نبي الله سيدنا نوح – عليه السلام –، يعلن في مواجهة قومه الذين كفروا واستكبروا، توجهه الي الله – تعالى – وموالاته له فيقول: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١)، ثم يعلن بعد ذلك براءته صراحة من إجرام قومه وما يكتسبونه من الذنوب من الكفر والتكذيب، فيقول كما جاء في القرآن الكريم:﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾(٢)، إنه مشهد عظيم يتجسد فيه ولاء سيدنا نوح – عليه السلام – لربه، وإعلان براءته مما يكتسبه قومه من المعاصي والتكذيب والكفر.
- ثم يأتي سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ليؤكد أيضاً في مواجهة قومه، أن الرابطة الوحيدة التي يلتزم بها هي رابطة الإيمان بالله – عز وجل –، وما عدا ذلك من الروابط فلا قيمة لها، وحبالها كلها مقطوعة، وهو برئ من كل ما عبد من دون الله – تعالى – ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾(٣)،إنه إعلان للبراءة من الكفر ومعاداته، "وليس المراد أننا نعادي كل من يخالفنا في الدين، وإن لم يقاتلنا فيه، ولم يخرجنا من الديار، ولم يظاهر الناس على إخراجنا، ولو كان ذلك هو المراد لناقض القرآن بعضه بعضا، ولكان ذلك العمل مخالفاً للحكمة والمنطق، ومخالفة لسيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – العملية، وسيرة خلفاءه الراشدين، للتأسي بنبي الله إبراهيم في كراهة المشركين وإعلان عداوتهم وبغضائهم لم يكن لحجر شركهم، بل لدفاعهم عن الشرك، وإيذاء أنصار التوحيد، وفتنة الناس في عقائدهم حتى لا يكونوا آمنين على دينهم، أما الشرك الذي لا يحارب توحيداً، ولا يصد أصحابه عن الإيمان، ولا يعرضون لهم بشئ من الأذى فلا معنى لعداوة أصحابه ومحاربتهم"(٤)، وفي موضع آخر من القرآن الكريم يصرح سيدنا إبراهيم – عليه السلام – بالبراءة من الشرك في قوة ووضوح، وذلك حينما سلك قومه طريقاً آخر

(١) سورة يونس الآية "٧٢".

(٢) سورة هود من الآية "٣٥".

(٣) سورة الممتحنة الآية "٤".

(٤) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـــ٦٣.

غير طريق الاستقامة والهداية، فبين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة الكواكب والأصنام، فقال معلنا براءته الحاسمة من شركهم وضلالهم: ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾[١]، ثم أعلن ولاءه المطلق لله – ﷻ – الذي فطر السموات والأرض فقال – ﷻ –: ﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[٢]، وبذلك يكون قد أعلن أساس منهجه بتبرأته من كل الآلهة الباطلة وعداوته للشرك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٣]، إنه جعل البراءة من الشرك باقية في ذريته، يتواصى بها النبيون والمرسلون – عليهم السلام –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[٤]،"أي: جعل البراءة من الشرك ونزعاته وتقاليده والاعتصام بالتوحيد الخالص كلمة باقية في عقبه يدعوا إليها النبيون والمرسلون منهم"[٥]، "لعل الكفرة من قومه يرجعون تائبين إلى الله – ﷻ – مؤمنين به فيعبدونه ولا يشركون به، شيئا وبذلك يظهر المنهج الوقائي في التبرئة من كل صور الكفر وما يفضي إليه.

- ويسير سيدنا موسي – عليه السلام – علي منهج من سبقه من الأنبياء والرسل – عليهم السلام – فيتبرأ من صنيع الكافرين الباطل، وذلك بعد أن رفض بنو اسرائيل الجهاد ودخول الارض المقدسة التي أمرهم الله – ﷻ – بدخولها لتحقيق النصر لهم، وبعد أن نكلوا عن طاعة الله – ﷻ – ورسوله – ﷺ – فأعلن البراءة من ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[٦]، لقد شعر سيدنا موسي – عليه السلام – بأن هذا الجيل لا خير فيه، ولم تنفع معه كل أساليب التربية والتوجيه، فيتبرأ من صنيعهم، ودعا الله – ﷻ – أن يفرق بينه وأخيه وبينهم لأن هذه البراءة من لوازم تحقيق الإيمان بالله – ﷻ – فالظالم اذا شعر ببعد الناس عنه رجع عن ظلمه غالباً.

---

(١) سورة الأنعام من الآية "٧٨".
(٢) سورة الأنعام الآية "٧٩".
(٣) سورة الشعراء الآيات "٧٥ – ٧٧".
(٤) سورة الزخرف الآيات "٢٦ – ٢٨".
(٥) تفسير المنار، محمد رضا، مرجع سابق، ج٥، صـ٣٥٧.
(٦) سورة المائدة الآية "٢٤".

ومن خلال دعوة سيدنا موسي – عليه السلام – ضرب الله – عز وجل – لنا مثلاً عالياً في الإيمان بالله – سبحانه وتعالى –والبراءة من الكفر من قبل امرأة فرعون التي كانت تعيش مع عدو من أعداء الله وطاغية من أعتي الطغاة في الأرض وهو فرعون، فلم يضرها كفره، وطلبت من ربها النجاة منه وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله الضال شئ، وهو ألصق الناس بها، وتبرأت كذلك من قوم فرعون وهي تعيش بين أظهرهم، واعتبرت ما صنعه فرعون وقومه شراً محضاً لا خير فيه، ولا هدي، فتبرأت من ذلك كله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، كل ذلك من أجل تمسكها بالإيمان، وبراءتها من الكفر، وهذا هو الدور الوقائي الايماني المتمثل في إعلان التبرؤ من الكفر وعمله فكانت النتيجة أن أراها الله – عز وجل – لبيتها في الجنة "وجعل الله إيمان آسية مثلاً يضربه للمؤمنين الذين تنكشف أمام بصائرهم الحقائق، فيتمسكون بها، ولا تغرهم الدنيا، ولا يلعب بعقولهم ابليس وجنوده"[2].

- وسيدنا عيسي – عليه السلام – يعلن هو أيضاً براءته مما نسبه إليه، قومه من ألوهيته وأمه، وذلك في مشهد من مشاهد يوم القيامة، كما يصور ذلك القرآن الكريم هذا اليوم الذي يُكشف فيه كل شئ علي مرأي ومسمع من الناس جميعاً، فيسأله الله – عز وجل –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3].
- لقد تلقي سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – توجيهات من ربه، بأن يعلن البراءة من الشرك، وعبادة الأنداد من دون الله – سبحانه وتعالى – ومن كل عمل من شأنه يفضي إلى ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[4]، ومنه قوله تعالي: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا

---

(1) سورة التحريم الآية "١١".
(2) دعوة الرسل عليهم السلام، غلوش، مرجع سابق، صـــ٣١٤.
(3) سورة المائدة الآية "١١٦".
(4) سورة الشعراء الآية "٢١٦".

ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾(١)، وغير ذلك من الآيات التي تآمر النبي – ﷺ – بإعلان البراءة من كل مظاهر الشرك وعمل الكافرين، حتي جعل النبي – ﷺ – هذه التوجيهات واقعاً ملموساً، فتبرأ من الشرك وكل ما يعبد من دون الله – ﷻ –، ثم أمر من أخذ مضجعه للنوم أن يقرأ سورة الكافرون – لأنها إعلان بالبراءة من الشرك، وهذا هو عين التوحيد، فمن قرأها عن اعتقاد صحيح فقد برئ من الشرك، وهذا منهج دعوي وقائي من النبي – ﷺ – لأمته حتي لا يضلوا الطريق، فعن فروة بن نوفل(٢) – رضي الله عنه – عن أبيه أنه قال لرسول الله – ﷺ –: جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: "اذا أخذت مضجعك من النوم فاقرأ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٣)، ثم نم علي خاتمتها، فإنها براءة من الشرك"(٤)، "والمراد أنها تبرى قائلها من الشرك، لأنها اشتملت علي نفي عبادة ما يعبده المشركون بأبلغ عبارة وأوفي تأكيد، فإنه نفى عبادته لما يعبدونه بالجملة الفعلية المضارعية، ليفيد الحال والاستقبال، فقال: (لا أعبد) أي: في الحال والاستقبال، ثم نفاه بالجملة الاسمية لما عبدوه فيما مضى، فقال: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾(٥)، كما نفى عبادتهم لما يعبده بالجملة الاسمية في الطرفين، ما يعبدونه في الحال والاستقبال"(٦).

---

(١) سورة الأنعام الآية "١٩".

(٢) هو فروة بن نوفل الأشجعي الكوفي، ذكره ابن حبان في الصحابة، ثم توقف فيه، وقال: يقال: إن له صحبة، وقال أبو حاتم ليست له صحبة، وإنما الصحبة لأبيه، وقال المزرباني في معجم الشعراء: كان رئيس السراة، وأنشد له شعراً في ذلك. "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق ج٥، صـ٣٠٣.

(٣) سورة الكافرون الآية "١".

(٤) رواه ابو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقال عند النوم، ٣٩٥/٧، رقم ٥٠٥٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث حسن"، والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء فيما يقرأ عند المنام، ٤٧٤/٥، رقم ٣٤٠٣، والحاكم فى مستدركه، كتاب فضائل القرآن، باب ذكر فضائل سور، وأي متفرقه، ٧٥٤/١، رقم ٢٠٧٧، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٥) سورة الكافرون الآية "٤".

(٦) التنوير شرح الجامع الصغير، محمد اسماعيل بن صلاح بن محمد الحسنى الصنعاني، المتوفى سنة ١١٨٢هـ، تحقيق د/ محمد اسحاق محمد إبراهيم، الناشر مكتبة دار السلام، الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١، ج١، صـ٥١١.

إن إعلان البراءة من الشرك بمثابة الإعلان ببطلانه، وأنه لا يؤدي بصاحبه إلا إلي الخسران المبين، والهلاك المحتوم، فيكون هذا التبرؤ حصناً قوياً للمسلمين من الانجرار وراء أعمال المشركين المضلة، لأن: "من حقائق الحياة أن الاقتراب من الفساد يفسد، ومن حام حول الحمي يوشك أن يقع فيه، ومن أعان ظالما فهو مثله، ومن والي ظالما فهو معين له علي الظلم، ولذلك عد جنود فرعون من الظالمين، لأنهم ساعدوه وأطاعوه وكانوا معه، ولولاهم لما استطاع أن يفعل شيئا"(١)، فالإيمان بالله – ﷻ – والعبودية له لا تتحقق إلا بإعلان البراءة من الكفر وهذا هو منهج أولي العزم من الرسل – عليهم السلام –.

٣- الاستدلال على وحدانية الله تعالى بمظاهر القدرة الإلهية في الأنفس والآثار:

إن الاستدلال بمظاهر عظمة الله – ﷻ – وقدرته لهى طريقة تربوية وقائية، انتهجها أولو العزم من الرسل، حتى تكون باباً للإيمان بالله وحده، ووقاية من الوقوع في التيه والضلال، فهي تجدد صلة الإنسان بالله – ﷻ – الذى خلقه ورزقه، ليستقيم أمره على الجادة، فلا يتطرق الشك إليه، ولذلك فقد استنكر الرسل – عليهم السلام – وجود الشك عند أقوامهم، مع أن السموات والأرض تنطقان بأن الله – ﷻ – أبدعهما، فقالوا كما أخبرنا القرآن الكريم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(٢)، "والاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: أفي وحدانيته سبحانه شك؟، وهى في غاية الوضوح والجلاء، ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار، ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه، ووحدانيته فقالوا: (فاطر السموات والأرض) أي: خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما بعد العدم، يدعوكم إلى الإيمان به وتوحيده، ليغفر لكم من ذنوبكم"(٣).

إن قضية الوحدانية واضحة لكل متأمل في هذا الكون العظيم، فالشك غير وارد أصلاً، لأن الاستدلال بمظاهر عظمة الله – ﷻ – وقدرته، تصل بصاحبها إلى قناعة تامة أن لهذا الكون خالقاً ومدبراً، أحسن الخلق والتدبير، ولذلك فقد أيد الله – ﷻ – رسله الكرام الذين اصطفاهم رحمة للعالمين بإنقاذهم من الضلال والانحلال، أيدهم بدلائل تدل على صدقهم فيما يدعون إليه من التوحيد والإيمان بالله وحده، والسير في طريق الحق المستقيم، لذلك كانت هناك وقفة من

---

(١) دعوة الرسل عليهم السلام، غلوش، مرجع سابق، صـــ٣٨٥.

(٢) سورة إبراهيم من الآية "١٠".

(٣) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٣، صـــ١١٧.

أولى العزم من الرسل، أراهم الله – ﷻ – فيها من آياته، ومظاهر قدرته، لدعوة أقوامهم للنظر فيها، لوقايتهم من الدوام على الانحراف الذى هم فيه، أو لتعميق إيمان من أمن منهم.

- ففي دعوة سيدنا نوح – عليه السلام – يُلاحظ أنه ذكر قومه بدلائل القدرة الإلهية، ومظاهر الكمال الرباني، والتي تجعل العبد يذعن لخالقه، ويقر له بالألوهية والإيمان به، وكان أول استدلال استدل به على وحدانية الله – سبحانه وتعالى – وتعظيمه رجاء إيمانهم أن "لفت أنظارهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق يهتدوا بها إلى أن الخالق لهذه العوالم كلها، علويها وسفليها، هو المستحق للعبادة وحده، دون ما عداه من هذه الآلهة المزعومة، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك لعابديها شيئاً"[١]، فقال كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[٢]، إن سيدنا نوحاً – عليه السلام – ينكر على قومه عدم تعظيمهم لله – سبحانه وتعالى – وتوحيده مع أن الدلائل والشواهد على صدق ما جاء به كثيرة ومتوالية، توجب لمن تأمل فيها أن يؤمن بالله – ﷻ – ولا يشرك به شيئاً، وهذا هو أول دليل ساقه سيدنا نوح – عليه السلام – للفت أنظار قومه إليه، للتأمل والإيمان بالله – سبحانه وتعالى –، "ثم انتقل من ذكر دلائل القدرة في النفس إلى الحديث عن دلائل قدرته – سبحانه وتعالى – في السماء، فبين لهم أن الله خلق سبع سماوات طباق، على سبع أراضين، بين كل أرض وأرض، وسماء وسماء، خلق وأمر، فالذي أنبت الإنسان من تراب هو القادر على إعادته، والذي خلق الكون على هذا النحو، وسخر الشمس والقمر هو الذي يجب أن يعبد، فلا يخلق هو ويعبد غيره، ولا يرزق هو ويشكر سواه"[٣]، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[٤]، إن هذه الأشياء تستوجب عليكم الإيمان، وليس الاستكبار، لأنها تحمل في ثناياها الإشارة الواضحة والحجة البالغة والدليل الساطع على قدرة الله – ﷻ – ومن ثم فهي توجب الإيمان به، ثم يعود بهم مرة أخرى ليبين لهم منشأ الاستدلال بخلق الأنفس، حيث خلق الله – ﷻ – أصل البشر من الأرض، ثم يعودون إليها مرة أخرى، فقال: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ

---

(١) عظات وعبر في قصص الأنبياء، سعيد عبد العظيم، مرجع سابق، صـ٢٦.
(٢) سورة نوح الآيات "١٣ – ١٤".
(٣) عظات وعبر في قصص الأنبياء، سعيد عبد العظيم، مرجع سابق، صـ٢٧.
(٤) سورة نوح الآيات "١٥ – ١٦".

إِخۡرَاجٗا ﴾[١]، "أي: والله أوجد أباكم آدم من التراب وجعله ينمو ويكبر كالنبات، وجعل نموكم معتمداً على الغذاء من نتاج الأرض، وتحولها إلى نبات أو حيوان، ثم يعيدكم في الأرض تموتون، وتتحلل أجزاؤكم حتى تعود تراباً مندمجاً في الأرض، ثم يخرجكم أحياء منها بالبعث يوم القيامة، إخراجاً دفعة واحدة لا إنباتاً بالتدرج كالمرة الأولى"[٢]، إن في هذه الأشياء دلالة واضحة على عظمة الله - ﷻ - والتي توجب عليكم الإيمان به وحده، ثم وجه أنظارهم إلى الأرض، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴾[٣]، أي: مهدها وبسطها، لتسلكوا فيها الطرق، وتمشوا في مناكبها، لتؤمنوا، لا لتتكبروا، لأن "الكبر يصرف الإنسان عادة عن النظر في الحق، ويؤدى إلى التكذيب به، ويجعل المتكبر غافلاً عن آيات الله الدالة عليها"[٤].

- أما سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فقد أراه الله - ﷻ - ملكوت السموات والأرض، وكشف له الدلائل والبراهين القاطعة التي توحى بالإيمان بالله وحده، وبيان ما عليه قومه من الضلال في عبادتهم للأصنام والأوثان والكواكب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[٥]، حتى كانت هذه الرؤيا لملكوت السموات والأرض سبباً في الاهتداء "إلى طريق عجيب، فيه إبكات لقومه، ملجئ إياهم للاعتراف بفساد معتقدهم"[٦]، فسيدنا إبراهيم - عليه السلام - كان مناظراً[٧] لقومه - كإخوانه من الأنبياء والرسل عليهم السلام-، مبيناً لهم بطلان ما هم فيه من الضلال والزيغ وهذا هو ما يتفق مع عصمة الرسل - عليهم السلام - الذين عرفوا ربهم معرفة لا يداينها أي شك، ولكنه قال ذلك جرياً على معتقداتهم،

---

(١) سورة نوح الآيات "١٧ - ١٨".
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، مرجع سابق، ج٢٩، صـ١٤٤.
(٣) سورة نوح الآيات "١٩ - ٢٠".
(٤) التفسير المنير، الزحيلى، مرجع سابق، ج٩، صـ٩١.
(٥) سورة الأنعام الآية "٧٥".
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج٧، صـ٣٤٧.
(٧) المناظرة مأخوذة من النظر وهو: "تأمل الشئ بالعين"، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الفارابي، ج٢، صـ٨٣٠، والنظر هو: "تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشئ ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الرواية"، المفردات في غريب القرآن، الأصبهاني، صـ٨١٢، فالمناظرة تفيد النظر للتفكر والبحث عن الحق للوصول إليه.

ليصل بهم إلى دحضها، ولذلك فإن الله – ﷻ – مدحه في هذا الموقف الناجح فقال: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[١]، لقد بدأ تدريجياً مع قومه في الاستدلال لهم بمظاهر قدرة الله – ﷻ – وعظمته، فبدأ بالكواكب وأراد أن يثبت لهم بطلان ربوبيتها لهذا الكون عن طريق النظر والاستدلال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾[٢]، في زعمكم، أو "على سبيل التنزل إلى قول الخصم وإن كان فاسداً، فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم، ثم يكر عليه بالفساد، لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأقرب إلى رجوع الخصم"[٣]، فهو لم يحقر معبوداتهم، ويسفه معتقداتهم من بداية الأمر، ولكنه جاراهم لينال ثقتهم، حتى لا ينفروا، فيكون لكلامه وقع في نفوسهم، "وهي مهارة من نبي الله إبراهيم، واستدراجه للقوم حتى أقام عليهم الحجة، ووضع أيديهم على مواطن الضعف فيهم، انتقل بهم من كوكب إلى كوكب وأراهم أن موقفه منهم موقف الباحث، حتى لا ينفروا من مجادلته، وأراهم أن الكواكب على اختلافها قوة وضعفاً لا يصلح واحد منها أن يكون إلهاً معبوداً، لأنها تغيب وتحضر"[٤]، فيستطع من خلاله بيان خطئهم، ثم قدم لهم الدليل على بطلان ما هم عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾[٥]، فهي بذلك لا تستحق التأليه لأنها تغيب، والإله من شأنه عدم الغياب، وربي لا يغيب ولا يذهب فهو رب الكون وهو أحق بالعبادة وحده، ثم انتقل إلى القمر حينما رآه طالعاً فهو أشد نوراً من الكواكب، ولكنه غاب هو الآخر، وهو الأكبر منظراً، والأبهى جمالاً ونوراً، وبذلك يعتريه نقص، والإله منزه عن النقص، ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٦]، ثم انتقل بهم إلى الشمس "لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك، وهو رب الأرباب

---

(١) سورة الأنعام من الآية "٨٣".
(٢) سورة الأنعام من الآية "٧٦".
(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد المهدى بن عجيبة الحسنى الأنجرى الفاسى، المتوفى سنة ١٢٢٤، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر د/ حسن عباس زكى، القاهرة، ط١، سنة ١٤١٩هـ، ج١، صـ١٣٦.
(٤) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٤٤.
(٥) سورة الأنعام من الآية "٧٦".
(٦) سورة الأنعام الآية "٧٧".

الذى يقتبسون منه الأنوار، ويقبلون منه الآثار"(١)، فلما غابت الشمس هي الأخرى وأفلت، والرب لا يمكن أن يغيب ويأفل، أعلن براءته منها معلناً وجهته لله الواحد الذى فطر السموات والأرض، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢)، فهو الذى خلق الكواكب والشمس والقمر، والله - ﷻ - بخلقه وفطره للسموات والأرض ينبغي أن يخص وحده بالربوبية والعبادة، وإنكار ذلك أو جعله لأحد غيره، إنما هو شرك، وخروج عن الطريق المستقيم، وبذلك يكون قد لفت انتباههم إلى ما هم عليه من الخطأ والضلال في عبادتهم للأصنام والتماثيل من خلال حثهم على النظر الصحيح في هذا الكون وما يدور فيه، لأنه لابد له من صانع حكيم مدبر عليم، وهو الله رب العالمين والذى لا تصرف العبادة إلا له سبحانه.

- أما في دعوة سيدنا موسى - عليه السلام -، فقد أظهر لفرعون أن التفرد بالربوبية مرتبط بخلق الكون وما فيه، وهذا أمر لا ينسب إلا لله الواحد الذى خلق السموات والأرض وما بينهما، وينظم شؤون العباد، ويدبر أمرهم بحكمة بالغة، وذلك عندما سأله فرعون متعالياً مستنكراً متهكماً، مَن رب العالمين؟ فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٣)، فيجيبه سيدنا موسى - عليه السلام - بالصفة المشتملة على ربوبية الله - ﷻ - للسموات والأرض وما بينهما، فقال: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾(٤)، "وهو جواب يكافئ ذلك التجاهل ... إنه رب هذا الكون الهائل الذى لا يبلغ إليه سلطانك، يا فرعون، ولا علمك، وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب، وهذا الجزء بوادي النيل، وهو ملك صغير ضئيل كالذرة في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما، وكذلك كان جواب موسى - عليه السلام - يحمل استصغار ما يدعيه فرعون مع بطلانه، وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل والتفكير فيمن يكون ربه .. فهو رب العالمين"(٥)، وبعد أن استمع فرعون لهذه الإجابة الرائعة التي تدل على قوة الحجة،

---

(١) الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحد الشهرستانى، المتوفى سنة ٥٤٨، مؤسسة الحلبى، بدون ط ت، ج٢، صـ١١١.

(٢) سورة الأنعام الآية "٧٩".

(٣) سورة الشعراء الآية "٢٣".

(٤) سورة الشعراء الآية "٢٤".

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، صـ٢٥٩٢.

والتي تثبت ربوبية الله - ﷻ - لكل الخلق، نظر مستغرباً لمن حوله حتى يصرفهم عن التأثر بهذا الاستدلال، فقال: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾[١]، إنه يريد بذلك إثارة اتباعه على سيدنا موسى - عليه السلام - لأنه رأى منهم استئناساً لكلامه، فأردفها سيدنا موسى - عليه السلام - بإجابة أخرى، فقال: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[٢]، فبين له بالدليل والبرهان، أنه بشر مخلوق من رب العالمين، ولذلك فهو المستحق وحده للعبادة، فَجُنَّ جنون فرعون فأخذ يتهكم عليه، ويرميه بالتهم جزافاً بلا دليل، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[٣]، اتهمه بالجنون، لأنه يعتقد أن الله رب الأولين والآخرين، لكن سيدنا موسى - عليه السلام - لم يتوقف بسبب هذا الاستهزاء والسخرية، وعاد إلى تأكيد الحجج بدليل أوضح: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤]، لقد بين أن الله - ﷻ - هو المسير لحركتي الشروق والغروب، وهذا أمر مرئي ظاهر له ولغيره، فهل تستطيع أنت يا فرعون أن تسير حركتي الشروق والغروب؟ إنه دليل آخر على عجزه وعجزهم، لأنه إذا كان فرعون - وهو المدعى للربوبية والألوهية عاجزاً عن ذلك - فهم من باب أولى، وبذلك يكون قد اتهمهم في عقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ولكن انتقل فرعون من مرحلة السخرية والاتهام بالجنون إلى مرحلة التهديد، فقال: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[٥]، "وكان سجنه شديداً، يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده، لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً حتى يموت، ولهذا لم يقل: (لأسجننك) وإنما قال: (لأجعلنك من المسجونين) لأن سجنه كان أشد من القتل"[٦]، ولكن سيدنا موسى - عليه السلام - لم يخف من سجنه وتهديده، ورأى أنه لابد من الإمعان في الاستدلال بمظاهر قدرة الله - ﷻ -، قال: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾[٧]، فوافق فرعون على هذا الطلب: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ

(١) سورة الشعراء الآية "٢٥".
(٢) سورة الشعراء الآية "٢٦".
(٣) سورة الشعراء الآية "٢٧".
(٤) سورة الشعراء الآية "٢٨".
(٥) سورة الشعراء الآية "٢٩".
(٦) صفوة التفاسير، الصابوني، مرجع سابق، ج٢، صـــ٣٤٦ وما بعدها.
(٧) سورة الشعراء الآية "٣٠".

مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[١]، وهنا انتقل سيدنا موسى - عليه السلام - إلى استخدام السلاح المادي، والآية الكبرى، والدلالة القاهرة، قال: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[٢]، ولكن بالرغم من رؤية فرعون معجزة انقلاب العصا إلى ثعبان مبين، واليد إلى اللون الأبيض من غير مرض ولا سوء، إلا أنه تكبر واتهمه بالسحر حتى:﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[٣]، لقد كان سيدنا موسى - عليه السلام - يعرض القضية على فرعون ثم يتبعها بالأدلة والبراهين حتى يكون الإقناع هو السبيل، لأن في إقامة الأدلة قبول للحق بأبسط الطرق المناسبة، وإزالة الغموض، ولذلك فقد كثرت المعجزات والآيات التي تدل على صدقه، قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾[٤]، "وهى الآيات التي أرسل بها إلى فرعون وقومه وهى العصا التي انقلبت حية، واليد التي أخرجها من جيبه بيضاء منورة، وأخذ آل فرعون بالسنين، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، ثم لما كذبوا أنزل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، هذه هي تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون، قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٥] أما المعجزات الأخرى مثل العصا التي ضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، وإنزال المن والسلوى عليهم، فهذه آيات خاصة ببنى إسرائيل"[٦]، قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٧]، وفى موضع آخر يسأل فرعون سيدنا موسى -

---

(١) سورة الشعراء الآية "٣١".
(٢) سورة الشعراء الآيات "٣٢ - ٣٣".
(٣) سورة الشعراء الآية "٣٤".
(٤) سورة الإسراء الآية "١٠١".
(٥) سورة الأعراف الآية "١٣٠".
(٦) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٤، صـ٨٧٧٦.
(٧) سورة الأعراف الآية "١٦٠".

عليه السلام - مرة أخرى عن ربه، ورب أخيه هارون - عليهما السلام -: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾[١]، لقد خاطبهما فرعون ولكنه وجه النداء إلى سيدنا موسى - عليه السلام - "لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه"[٢]، لقد أراد فرعون من هذا السؤال إظهار عجز سيدنا موسى - عليه السلام - لأنه يعلم أن سيدنا هارون - عليه السلام - هو الأفصح لساناً، ولكنه لم يعجز، فيرد رداً يُعجز فرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٣]، فهو الذى خلق كل شئ، وأعطى الحياة لمخلوقاته ثم هداها إلى المحافظة على حياتها، وهنا قد أجاب سيدنا موسى - عليه السلام - بصفات الله المبدعة المنشئة المدبرة لكل الخلق، ولم يبين حقيقة الرب، لأن ذات الله أكبر من أن تحيط بها العقول، أو تدركها الأفكار لأنها محدودة القدرة والقوة مهما بلغت من العلو، وفى ذلك وقاية للعقل وصيانة له من التردي في مهاوى الضلالة، فيسأل فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾[٤]، أي: فما شأن القرون الأولى التي مضت من الناس، أين ذهبت، ومن ربها؟ فأجاب سيدنا موسى - عليه السلام -: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾[٥]، وبذلك يكون قد فوض علم القرون الأولى إلى علم الله - عز وجل -، ثم استطرد في الحديث عن آيات الله - عز وجل -، وآلائه المبثوثة في الكون، وبيان نعم الله - عز وجل - على البشر، إذ جعل الأرض مهيأة للمعيشة، وإنزال المطر الذى فيه حياة البشرية، فضلاً عن إخراج الزرع والنبات الذى يُرزق به الإنسان والحيوان، "كل هذه تقوي عقيدة التوحيد، وتزيد إيمان المؤمنين، لأنها تكشف عن دقة نظام الكون، وعجائب خلق الله، ولطائف صنعه الدالة على عظمته، وواسع قدرته وعلمه، فإن دقة المصنوع تدل على عظمة الصانع، وأن وراء هذه الصنعة البديعة والنظام الدقيق خالق عظيم"[٦]، هو الذي يجب أن يعبد وحده.

---

(١) سورة طه الآية "٤٩".
(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢٢، صـ٥٩.
(٣) سورة طه الآية "٥٠".
(٤) سورة طه الآية "٥١".
(٥) سورة طه الآيات "٥٢ - ٥٤".
(٦) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٢٤.

- أما في دعوة سيدنا عيسى – عليه السلام – فقد ذكر الله – عز وجل – أنه أيده بدلائل وآيات بينات، ومعجزات خارقات، تقود الناس إلى الإيمان به وحده، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[١].

لقد قيد الله – عز وجل – حدوث هذه الآيات بإذنه وإرادته، فهو الخالق والمصور الأصلي لكل شئ، وهذه الآيات شاهد صدق بأن المسيح – عليه السلام – مبعوث من قبل الله – عز وجل – لذلك يجب تصديقه فيما أخبر به، وكان مما أخبر به عبوديته لله تعالى.

وفى دعوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – نجد كتاب الله – عز وجل – مليئاً بالآيات التي توجه الناس، وتلفت أنظارهم إلى آيات الله الإنسانية والكونية في دعوة خاتم الرسل – عليه السلام – وأثرها في الدعوة ترسيخ الإيمان، والتي توحى لمن يتأمل فيها ويتدبرها، بعظمة الله – سبحانه وتعالى – وقدرته، ومن ثم فهو المستحق للعبادة وحده، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾[٢]، أي: "سنطلع الناس على دلائل وحدانيتنا وقدرتنا في أقطار السموات والأرض، من شمس، وقمر، ونجوم، وليل ونهار، ورياح، وأمطار، وزروع، وثمار، ورعد، وبرق، وصواعق، وجبال، وبحار، سنطلعهم على مظاهر قدرتنا في هذه الأشياء الخارجية التي يرونها بأعينهم، كما سنطلعهم على أثار قدرتنا في أنفسهم، عن طريق ما أودعنا فيهم من حواس وقوى وعقل وروح، وعن طريق ما يصيبهم من خير وشر ونعمة ونقمة"[٣] وقد ربط الله – عز وجل – بين مظاهر الطبيعة وبين الإيمان، وهو ربط لا يتحقق إلا لمن يتأمل في هذه الدلائل، ويوقن بوجودها، فأصحاب العقول هم الذين ينتقلون من المشاهدة إلى التفكر، ليصلوا إلى اليقين وزيادة الإيمان و "عمق تأثيره في النفوس البشرية، لمعاينتها الشئ المحسوس، ومن هنا قيل: ليس

(١) سورة آل عمران الآية "٤٩".
(٢) سورة فصلت من الآية "٥٣".
(٣) التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر السابق رحمه الله، مرجع سابق، ج١٢، صـ٣٦٦.

الخبر كالعيان[١]"[٢] فالاستدلال بمظاهر قدرة الله – ﷻ – له دور هام وفعال فهو يحرر العقل من الغفلة والجهل والعصيان.

ولقد ذكر الله – ﷻ – خمس آيات متتاليات تتحدث عن الدلائل التي تفرد بها وحده، ولذلك يجب أن يخص بالعبادة دون سواه، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣]، فالله – ﷻ – يعلم من أحوال العباد، أنهم يحتاجون إلى تكرار التذكير مرة بعد أخرى، لذلك كرر قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، في كل آية من الآيات السابقة، وأن من تفرد بهذه الأفعال وجب أن يخص بالعبادة دون غيره.

ومن الاستدلال على مظاهر قدرة الله – ﷻ – التي توجب على الإنسان التأمل فيها ليزداد إيماناً، النظر إلى نفسه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٤]، فالإنسان كان نطفة خلقها الله – ﷻ – وأخرجها من بين الصلب والترائب، وخلق الجنين فيها وأمره بالغذاء في بطن أمه، ثم تقلب إلى مضغة ومن طور إلى طور آخر حتى تصير إنساناً فتبارك الله أحسن الخالقين، ومع كثرة الناس فإنه لا يماثل واحد واحداً آخر، وكل ذلك مما يتذكر به أولو الألباب.

إن مناهج أولى العزم من الرسل في الاستدلال على وحدانية الله – ﷻ – بمظاهر القدرة الإلهية في الأنفس والآثار، فيه دعوة للمؤمنين أن ينتهجوا نهجهم، فهم أسوة لنا نقتدى بهم، لنصل إلى

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٢، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م، ج٥، صـ٣٥٠.

(٢) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، صـ٢١٨.

(٣) سورة النمل الآيات "٥٩ – ٦٤".

(٤) سورة الذاريات الآية "٢١".

عقيدة راسخة، فنزداد إيماناً مع إيماننا، وينبئنا أن لهذا الكون خالقا متفرداً بالخلق والإبداع، وأن ما في هذا الكون هو مسخر لنا، وهذا يحتم إخلاص العبادة لله وحده.

ثالثاً: أثر الإيمان بالله في الوقاية من الانحراف

إن قضية الإيمان بالله وحده، هي القضية الأولى والأساسية في دعوة كل نبي ورسول جاء من قبل الله – ﷻ –، فالخلق إذا ما عرفوا أن المعبود بحق هو الله وحده لا شريك له، واستقر ذلك في نفوسهم، كان وقاية لهم من التعلق بكل ما عُبد من دون الله – ﷻ –، وكان من اليسير بعد ذلك التدرج معهم في أمور الشريعة الأخرى، وسائر الأحكام، فالإيمان له تأثيره على القلوب، وبه تكون مستعدة لتحمل المشاق في سبيل رضوان الله – ﷻ –.

إن الإيمان بالله – ﷻ – يجعل صاحبه في حفظ الله – سبحانه وتعالى – فلا يصل إليه سلطان الشيطان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾(١)، فكلما كان العبد أكثر إيماناً واتباعاً للحق، كان أكثر حفظاً، ووقاية من ضلالات الشيطان، وهذا "إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾، أي: حافظاً ومؤيداً ونصيراً"(٢)، فلا سلطان للشيطان على المؤمنين إيماناً حقاً، لأنهم يُهزمون بقوة إيمانهم بالله – ﷻ – ما يلقيه الشيطان من الأباطيل، فيضعف كيده أمام قوة هذا الإيمان.

لقد حكم الله – ﷻ – بأن الشيطان ولى لمن لا يؤمن، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٣)، "وهذه إشارة إلى أن الإيمان بالله هو القلعة التي يتحصن فيها الإنسان من الشيطان، وليس عليه بعد ذلك إلا إغلاق أبوابها وإحكام غلقها، حتى لا يكون للشيطان سبيل إليه"(٤)، ولذلك كان من النصائح التي قدمها سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لأبيه، عدم طاعة الشيطان فيما يزين له من عبادة غير الله – سبحانه وتعالى –، فقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ

(١) سورة الإسراء الآية "٦٥".
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٥، صــ٨٧.
(٣) سورة الأعراف الآية "٢٧".
(٤) التفسير القرآني للقرآن، مرجع سابق، الخطيب، ج٤، صــ٣٨٦ وما بعدها.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾[١]، لأنه هو الذي يغرى بعبادة غير الله – ﷻ –، ومن أطاعه فإنه يعبده، لأنه هو الذي أغرى وزين، ومن أطاع الشيطان فقد عصى.

إن الإيمان بالله يقطع الشكوك التي تُعرض لبعض الناس لتضر بدينهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[٢]، وقد بين الرسول – ﷺ – أن الإيمان الصحيح هو الذي يقاوم الشكوك التي يلقيها شياطين الإنس والجن، فعن أبي هريرة – ؓ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "لا يزال الناس يتساءلون، حتى يُقال: هذا خلق الله، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله"[٣]، كما بين النبي – ﷺ – أنه ليس لهذه العلل المهلكة وقاية إلا بتحقيق الإيمان، فعن أبي هريرة – ؓ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: ".. لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر، حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق، حين يسرق وهو مؤمن"[٤]، فالنبي – ﷺ – بين أن الاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح، يجعل الإنسان في وقاية من الهلاك والوقوع في الموبقات، ومن وقع في ذلك فلضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء عنده من الله – ﷻ – "فالإيمان بالله هو المعتصم، ولا معتصم غيره، إذا استمسك به الإنسان، فقد ضمن النجاح والفلاح"[٥]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٦].

هذا الإيمان وهذا الاعتصام، هما اللذان مكنَّا امرأة فرعون من التغلب على سائر الإغراءات الدنيوية التي تحول بين المرء وإدراك الحقائق، فلم تشغل قلبها بقصور، ولا نعيم، ولا سائر زينة الحياة الدنيا، والتي ربما تبعدها عن منهج الله – ﷻ – القويم، فتضل الطريق فتكون من الخاسرين، ولكنها طلبت من ربها أن يبني لها بيتاً في الجنة، وأن يكتب لها النجاة من فرعون وضلاله، حتى لا تحاسب على شيء يصرف قلبها عن رضوان الله – ﷻ – إلى غضبه

---

(١) سورة مريم الآيات "٤٤–٤٥".

(٢) سورة الحجرات الآية "١٥".

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، ١/١١٩، رقم ١٣٤.

(٤) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه، ٣/١٣٦، رقم ٢٤٧٥، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، ١/٧٦، رقم ٥٧.

(٥) التفسير القرآني للقرآن، مرجع سابق، الخطيب، ج٩، صـ١١٥٠.

(٦) سورة آل عمران الآية "١٠١".

وسخطه، ثم طلبت من الله - ﷻ - أن ينجيها من القوم الظالمين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١)، فبهذا الإيمان العميق، عرفت الطريق المستقيم الذي يوصل إلى معالم الحق والصواب، فكتب الله - سبحانه وتعالى - لها النجاة، وصبرت على أذى فرعون لإيمانها بالله - ﷻ -، فجعلها مثلاً يُحتذى به في قوة الإيمان، وكذلك سحرة فرعون حينما رأوا برهان سيدنا موسى - عليه السلام - سجدوا لله رب العالمين، وأمنوا برب موسى وهارون - عليهما السلام -، فما كان من فرعون إلا أنه توعدهم وهددهم بالعذاب والعقاب، فما كان قولهم إلا أن قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(٢)، مع أنهم كانوا قبل ذلك بوقت قصير من أنصاره وأتباعه المخلصين، الذين لا يعصون له أمراً، ولا يرفضون له طلباً، ويتمنون رضاه عليهم، ولكنه الإيمان الذي يجعل المؤمن لا ينظر إلى هذا العقاب الدنيوي، بجوار ما أعده الله - ﷻ- لهم في الآخرة من الأجر العظيم والثواب الجزيل، ولكنه الإيمان الذي يجعل الإنسان يتحمل المشاق والمصاعب من أجل رضوان الله - سبحانه وتعالى -، إذا الإيمان بالله حارس يحمي الإنسان من الخوف والفزع والاضطراب.

إن القلق يشكل عائقاً أمام تقدم الإنسان في حياته، لكن السكينة والطمأنينة، هما: اللذان يدفعان بالإنسان نحو التقدم ومواجهة الصعاب، بثباتٍ وصبرٍ وتوكلٍ على الله - ﷻ -، وهما من مقومات السعادة والاستقرار، "وأصل السكينة هي: الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات"(٣)، هذه الطمأنينة هي صفة المؤمنين إيماناً حقاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٤)، وقوله تعالى أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ

---

(١) سورة التحريم الآية "١١".

(٢) سورة طه، الآيات "٧٢-٧٣".

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ج٢، صـ٤٧١.

(٤) سورة الرعد الآية "٢٨".

ﵟٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡﵞ(١)، هذه السكينة هي التي جعلت السيدة مريم – عليها السلام – تواجه الصعاب بثباتٍ وصدقٍ، حتى صممت بإيمانها القوى على ملاقاة مصيرها فحملت صبيها، وذهبت به إلى قومها، وهي تعلم علم اليقين من براءة الله – ﷻ – لها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﵟفَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗاﵞ(٢)، وكون السيدة مريم تحمل وليدها "وتذهب به، وتبادر به قومها، وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها في الحجة التي معها، والتي ستوافيها على يد وليدها"(٣)، وهذا هو حال الواثق في الله – ﷻ –، حينما يقذف الله – ﷻ – في قلبه نور الإيمان، فتحصل الطمأنينة والراحة النفسية التي تباعد بين المؤمن وبين القلق والحيرة.

من خلال ما سبق يتضح أن التربية الإيمانية قد عنيت منذ البداية، بأن تخط للإنسانية طريقاً يهديها إلى طريقها المستقيم، ويقيها من الانحراف، لينشأ الإنسان نشأة تتوآم مع مهمته في الحياة، من الاستخلاف في الأرض، والعبودية لله – ﷻ – وحده.

---

(١) سورة الفتح من الآية "٤".

(٢) سورة مريم الآيات "٢٧-٢٨".

(٣) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٥، صـ٩٠٧٢.

المبحث الثاني
التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالملائكة

أولاً: تعريف الإيمان بالملائكة

أ- الملائكة في اللغة:

الملائكة جمع ملك "والملك واحد الملائكة، إنما هو تخفيف الملأك، والأصل مألك، فقدم اللام وأخروا الهمزة، فقالوا: ملأك، وهو مَفْعَلْ من الألوك وهو الرسالة"(١)، و "يقال: جاء فلان إلى فلان وقد استألك مألكته: أي حمل رسالته"(٢)، "والملائكة: جمع ملأكة ثم ترك الهمز فقيل ملك في الوُحْدَانِ وأصله مَلأَك كما ترى، ويقال: جاء فلان قد استألك مألكته: أي حمل رسالته"(٣).

وعلى ذلك فمعنى الملائكة في اللغة يدور حول معنى الإرسال من الألوكة وهي رسالة، فالملائكة هم رسل الله – ﷻ – بما يريد إلى خلقه، وقد سماهم الله – ﷻ – بذلك في قرآنه، فقال على لسان سيدنا إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾(٤).

ب- الملائكة في الاصطلاح:

الملائكة "أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، في أشكال حسنة شأنها الطاعة، ومسكنها السماوات غالباً، ومنهم من يسكن الأرض، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة، فمن وصفهم بذكورة فسق، ومن وصفهم بأنوثة كفر"(٥)، فالملائكة مخلوقات غيبية خلقهم الله – ﷻ – من النور لعبادته ، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله – ﷺ –: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم"(٦)، فهم يعبدون الله – ﷻ – حق العبادة، ويقومون بتنفيذ أمر الله – تعالى – في خلقه، ويسارعون في تنفيذ ذلك، فهم طائعون، مقربون إلى الله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا

---

(١) العين، الفراهيدي، مرجع سابق، ج٥، صـــ٣٨٠.
(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، مرجع سابق، ج٢٧، صـــ٥١.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٠، صـــ٣٩٤.
(٤) سورة الحجر الآية "٥٧"، سورة الذاريات الآية "٣١".
(٥) تحفة المريد على جوهرة التوحيد، البيجوري، مرجع سابق، صـــ٢١٧.
(٦) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة، ٤/٣٢٩٤، رقم ٢٩٩٦.

يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[١]، ولقد وصفهم الله – عَجَّل – بأنهم عباد مكرمون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[٢]، وأوجب علينا الإيمان بهم، والإيمان بهم "ينتظم في عدة معاني، أحدها التصديق بوجودهم، والآخر إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن، مأمورون ومكلفون، لا يقدرون إلا على ما قدرهم الله تعالى عليه، والموت عليهم جائز، ولكن الله – تعالى – جعل لهم أمداً بعيداً، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه، ولا يوصفون بشئ يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى جده، ولا يدعون آلهة كما ادعتهم الأوائل، والثالث: الاعتراف بأن منهم رسل الله، يرسلهم إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض"[٣].

ثانياً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في جانب الإيمان بالملائكة

لقد أوجب الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – على المسلم الإيمان بالملائكة، وجعله أصلاً من الأصول التي لا يصح إيمان عبد إلا بها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٤]، وقد ذكر النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الإيمان بالملائكة بعد الإيمان بالله – عَجَّل – فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حينما سأله جبريل – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عن الإيمان: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر كله خيره وشره، قال: صدقت"[٥]، فقد قرن الله – عَجَّل – ورسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الإيمان بالملائكة بالإيمان بالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ –، لأهمية هذا الركن، والإيمان بهم ركن هام من أركان الايمان، ولأهمية هذا الركن فقد وضع الإسلام بعض التوجيهات الوقائية للإيمان بهم من خلال دعوات أولى العزم من الرسل، حتى يكون هذا الإيمان إيماناً صحيحاً كاملاً خالياً من أدران الضلالات، وواقياً من شوائب الانحراف التي تصيب الإنسان في إيمانه بالملائكة الكرام.

---

(١) سورة الأنبياء الآيات "١٩ – ٢٠"

(٢) سورة الأنبياء الآية "٢٦".

(٣) شعب الإيمان، البيهقي، مرجع سابق، ج١، صـ٢٩٦.

(٤) سورة البقرة الآية "٢٥٨".

(٥) سبق تخريجه، صـ ١٣١.

١- الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان:-

إن الإيمان بالله - ﷻ - هو الأساس الذى تبنى عليه بقية الأركان الأخرى، وهي وحدة متماسكة تماسكاً تاماً، ومن أخل بجزءٍ منها، فقد أخل بواحدة من الأشياء التي يجب الإيمان بها، فينتقض الإيمان، ولذلك فإن أكثر الأمم السابقة قد أقروا بوجود الملائكة، إلا أنهم لم يؤمنوا إيماناً حقيقياً، لعدم الإيمان ببقية الأركان الأخرى، فقد كذبوا بما جاء به الأنبياء والرسل - عليهم السلام -، ووقعوا في الكفر، فلم ينفعهم هذا الإيمان في شئ.

- فسيدنا نوح - عليه السلام - لما أمر قومه بالعبادة والتقوى، كان رد قومه عليه: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(١)، "وهذا يدل على أنهم: كانوا مُقرِّين بالملائكة، وهذه شنشنة قريش ودأبها في استبعاد ارسال الله البشر"(٢)، فالكفار من الملأ من قوم نوح - عليه السلام - قد عرفوا الله - ﷻ -، وعرفوا الملائكة، ولكنها معرفة مطموسة بتصورات فاسدة كالشريك، ولم يؤمنوا كذلك بما جاء به سيدنا نوح - عليه السلام -، وما أمرهم به من عبادة الله - ﷻ -، فلم تنفعهم هذه المعرفة، وهذا الإيمان، لأنهم كفروا برسالة سيدنا نوح - عليه السلام -، والإيمان بالملائكة يستلزم الإيمان بالرسل، وما جاءوا به من قبل ربهم، فَحَكَمَ الله - ﷻ - عليه بالكفر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (٣)، فالاعتراف بالملائكة أجراه الله - ﷻ - على ألسنة قوم سيدنا نوح - عليه السلام -، ولم ينكروه، إلا أن هذا الاعتراف ناقص ومشوه، لنقصه الإيمان ببقية الأركان الأخرى، فالإيمان لا يستقيم إلا إذا أقرَّ صاحبه بجميع الأركان، التي تجعله يسير وفق ما أراد الله - ﷻ -، ويتجنب الأمور التي توقع صاحبها في الضلال.
- ويصور لنا القرآن الكريم الحوار الذى دار بين سيدنا إبراهيم - عليه السلام -، وبين الملائكة الكرام الذين أرسلهم الله - ﷻ - إليه وبشروه بالولد الصالح، وإعلامه بإرسال العذاب على قوم سيدنا لوط - عليه السلام -، فجاؤا إليه ضيوفاً في صورة بشرية، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾

(١) سورة المؤمنون الآية "٢٤".

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، المتوفى سنة ٧٤٥هـ، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت، ط ١٤٢٠هـ، ج٧، صـ٥٥٧.

(٣) سورة المؤمنون من الآية "٢٤".

فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾[١]، وهذا يؤكد ويثبت وجود الملائكة، وأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - دعا قومه إلى الإيمان بهم، بعد الإيمان بالله - عز وجل -، ويؤكد ذلك أيضاً الوحى الذى أوحاه الله - تعالى - إليه، ونزول الكتب عليه، وقد سماها صحفاً فقال - عز وجل -: ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٢]، وهذه الصحف التي نزلت عليه من الله - تعالى - تدل على "إثبات الملائكة، لأن الوحي يتم في أغلبه بواسطة ملك يحمل وحي الله إلى الرسول المختار - عليه السلام -"[٣].

- والله - عز وجل - أنزل الكتب كذلك على سيدنا موسى - عليه السلام - وأعطاه التوراة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[٤]، ومما يدل على أن سيدنا موسى - عليه السلام - قد أمر قومه بالإيمان بهم قول الله - عز وجل - على لسان فرعون: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾[٥]، يُفهم من ذلك: أن فرعون كان يؤمن بوجود الملائكة، إلا أن هذا الإيمان لا ينفعه في شئ ولا يعد إيماناً كاملاً لأنه لا يؤمن بالله - عز وجل -، وما ذكر فرعون الملائكة، إلا لسماعه بها من سيدنا موسى - عليه السلام - وهو يدعو إلى الإيمان بهم، "فلعل فرعون ذكر الملائكة مجاراة لموسى، إذ لعله سمع منه أن لله ملائكة، أو نحو ذلك في مقام الدعوة، فأراد إفحامه بأن يأتي معه بالملائكة الذين يظهرون له"[٦]، وكان كلامه ليس عن عقيدة يؤمن بها.
- ولقد بين الله - عز وجل - نزول سيدنا جبريل - عليه السلام - على السيدة مريم - عليها السلام - حينما انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فتمثل لها بشراً سوياً، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[٧].

---

(١) سورة الذاريات من الآيات "٢٤ - ٢٨".
(٢) سورة الأعلى الآية "١٩".
(٣) دعوة الرسل عليهم السلام، غلوش، مرجع سابق، صـ٥٣٣.
(٤) سورة المؤمنون الآية "٤٩".
(٥) سورة الزخرف الآية "٥٣".
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج٢٥، صـ٢٣٣.
(٧) سورة مريم الآيات "١٦ إلى ٢١".

ولقد زال الخوف عن مريم - عليها السلام - حينما قال لها جبريل: (أنا رسول ربك) لأنها ربما عرفت صفة الملائكة من سيدنا زكريا - عليه السلام -.

- وقد عرفها سيدنا عيسى - عليه السلام - فبلغ قومه بها، فحينما تكلم في المهد صبياً ليبرئ أمه، معلناً عبوديته لله - عز وجل -، واتيان الكتاب وجعله من الأنبياء، باعتبار ما سيكون، فإنه بذلك قد أعلن التوحيد المطلق، "ومن الحقائق المسلمة أن الدعوة إلى التوحيد تتضمن بالضرورة الإيمان بالرسل والملائكة وبالكتاب ... لأن الملائكة هي: حاملة الكتاب المنزل على الرسول، والرسول هو مبلغ الوحى للناس"(١)، ولقد كان - عليه السلام - مؤيداً بالروح القدس سيدنا جبريل - عليه السلام -، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾(٢)، و"لقد ذكر هنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح ستشيع في كل أمر له، ميلاداً ومعجزة وموتاً، والروح القدس هو جبريل - عليه السلام - لم يكن يفارقه أبداً"(٣)، وهذا يستلزم علم بنى إسرائيل بالملائكة، وأن المسيح - عليه السلام - قد أمرهم بوجوب الإيمان ببقية الأركان الأخرى.

ولقد بين الله - عز وجل - أن الإيمان بالملائكة مع بقية أركان الإيمان الأخرى، من الأمور التي أنزلها الله - عز وجل - على رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وأوجب عليه وعلى الأمة الإيمان والتصديق بهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾(٤)، فلا يصح إيمان من أي إنسان إلا إذا آمن بما آمن به الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وما آمن به صحابته الكرام، ومن ذلك الإيمان بالملائكة، والإيمان بهم يكون إجمالاً وتفصيلاً، إجمالاً بأن لله - سبحانه وتعالى - ملائكة لا يعلم عددهم إلا هو، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(٥)، وهم أصناف كثيرة منهم حملة العرش، ومنهم الموكلون بالأرزاق، ومنهم الموكلون بالسموات، وبالجبال، والسحاب، والمطر، وغير ذلك، ونؤمن تفصيلاً بمن سماه الله - عز وجل - منهم كسيدنا جبريل وميكائيل، ومالك خازن الجنة ورضوان خازن النار وإسرافيل وملك الموت، ومن أنكر واحداً من هؤلاء الذين سماهم الله - عز وجل - فقد أنكر الكل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ

(١) دعوة الرسل، أحمد غلوش، مرجع سابق، صـ٦٧.
(٢) سورة البقرة من الآية "٢٥٣".
(٣) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١، صـ٤٤٦.
(٤) سورة البقرة من الآية "١٧٧".
(٥) سورة المدثر من الآية "٣١".

فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]، وهذا يؤكد "على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر، واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع، إذ الموجب لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد"[2].

إذاً فأولى العزم من الرسل قد أعلموا قومهم وجوب الإيمان بالملائكة مع بقية الأركان، وأن هذه الأركان الستة وحدة واحدة، لا يقبل أحدها إلا بالأخرى، فمن آمن بالملائكة فقد حقق ركناً واجباً من أركان الإيمان، وعليه الإيمان ببقية الأركان.

٢- الإيمان بهم يستلزم إكرامهم وتعظيمهم

لقد وصف الله - ﷻ - الملائكة في كتابه الكريم، بالأوصاف الحميدة، والأخلاق الكريمة، والتي تدل على علو مكانتهم وسمو منزلتهم، فهم جنده في تنفيذ أوامره في خلقه، ولقد منحهم الله - ﷻ - الانقياد التام لأمره، وأعطاهم القدرة على تنفيذه، وجبلهم على طاعته، وعدم عصيانه، فهم عباد الله المكرمون، المتصفون بكل صفات العبودية الخالصة، والعبودية من أشرف المقامات وأعلى المرتبات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾[3]، فلا يوجد شئ أشرف من العبودية لله - ﷻ - "لأنهم عرفوا العبودية لله، وهي عبودية ليست لمن يستذل، لكنها لمن يعز، وليست عبودية للذي يأخذ، ولكنها للذي يعطي، والذي يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله"[4]، وهذا تعظيم وتكريم من الله - ﷻ - لهم، ولهذا فقد وجب لهم إثبات المقامات العالية والمنازل السامية.

- وإذا تتبعنا دعوات أولى العزم من الرسل، وجدناها تنطق بوجوب إكرامهم، وإعلاء منزلتهم، وقاية من الانحراف الذى وقع فيه الأمم السابقة، ففي دعوة سيدنا نوح - ﷺ - نجد أن الملأ الكافرين من قومه حينما اتخذوا بشريته - ﷺ - ذريعة لعدم إيمانهم، قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

---

(١) سورة البقرة الآيات "٩٧ – ٩٨".

(٢) تفسير البيضاوي المسمى "بأنوار التنزيل وأسرار التأويل"، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المتوفى سنة ٦٨٥هـ، تحقيق محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، سنة ١٤١٨هـ، ج١، صـ٩٦.

(٣) سورة الأعراف الآية "٢٠٦".

(٤) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٥، صـ٢٨٧٣.

﴿مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾(١)، وهذا دليل على علوهم ورفعة شأنهم حتى عند الكافرين لأن الإنزال لا يكون إلا من العلو والارتفاع إلى الأدنى، ولذلك – والله أعلم – جاء التعبير بالإنزال، ولم يأت بالإرسال، أو الانبعاث.

- أما في دعوة سيدنا إبراهيم – عليه السلام –، فقد أثبت الله – عز وجل – إكرام الملائكة، ووجوب تعظيمهم، فقال – عز وجل –: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾(٢)، وتعظيمهم جاء من عدة وجوه:–

(أ) استهلال الكلام بالاستفهام (هل آتاك) وهو "استفهام تقريري لتفخيم الحديث، ولتجميع نفس المخاطب"(٣)، فهذا تشويق إلى الاستماع، وهذا لا يكون إلا فيما فيه فخامة، وعظيم شأن.

(ب) تسميتهم بالضيف (ضيف إبراهيم) فالله – عز وجل – سماهم ضيفاً وهم ملائكة، وكأن ذلك ترسيخ وإقرار لما وقر عند الناس من الحقوق والواجبات التي يقدمها المضيف للضيف شرعاً وعادة، "فالضيف من انضاف على البيت، وله حق والتزامات، لابد أن يقدمها المضيف"(٤)، وعلى رأس هذه الالتزامات والحقوق الإكرام، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"(٥)، وفيه أيضاً تمهيد لما سيأتي من نعتهم بالإكرام.

(ج) وصفهم بأنهم (مكرمون)، فهم مكرمون مقربون معظمون عند الله – عز وجل – يرفع درجتهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾(٦)، وهذا نعت للملائكة بأنهم مكرمون أصلاً، كذلك أيضاً هم مكرمون عارضاً، لأنهم ضيوف سيدنا إبراهيم – عليه السلام – حيث باشر هذا الإكرام بنفسه، فقدم لهم الطعام وهو لا يعلم أنهم ملائكة لأنهم جاءوا في صورة بشرية، فالملائكة لا تأكل ولا تشرب.

---

(١) سورة المؤمنون من الآية "٢٤".

(٢) سورة الذاريات الآيات "٢٤ إلى ٢٧"

(٣) إعراب القرآن وبيانه، محى الدين بن أحمد مصطفى درويش، المتوفى سنة ١٤٠٣هـ، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط٤، سنة ١٤١٥، ج٩، صـ٣١٥.

(٤) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٦، صـ١٠٢٥٩.

(٥) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ١١/٨ رقم ٦٠١٨، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ٦٨/١ رقم ٤٧، "متفق عليه".

(٦) سورة الأنبياء الآية "٢٦".

(د) رد التحية بأحسن منها (قال سلامٌ) بالرفع للدلالة على الدوام والثبات و"معناه: عليكم سلام للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، أخذاً بأدب الله تعالى، وهذا أيضاً من إكرامه لهم"[١]، ولقد أضاف الله ﷻ هؤلاء الملائكة إلى نفسه في موضع آخر من القرآن الكريم فقال – ﷻ – : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾[٢]، والإضافة هنا للتشريف والتكريم والتعظيم.

- أما في دعوة سيدنا موسى – عليه السلام –، فقد ظهر تعظيم أمر الملائكة وشأنهم في قلب فرعون ومن معه من الملأ الكافرين، فقالوا: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾[٣]، ولذلك فلم يتجرأ فرعون على قتل سيدنا موسى – عليه السلام –، ولكنه التهديد فقط، التهديد المصحوب بالخوف من قوة خافية تكون سبباً في تعجيل هلاكه وعذابه، ولذلك قال كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾[٤]، فمن الذى كان يمنع فرعون من قتل سيدنا موسى – عليه السلام –؟! مع أنه كان يقتل لأوهى الأسباب، كان يقتل الأطفال دون ذنب اقترفوه، وبدون أدنى ذرة من الرحمة والشفقة، لقد كان يهدد كل من خالفه في رأيه بالقتل أو السجن، فكيف لا يقتل سيدنا موسى – عليه السلام –، وقد أحس منه بأنه يريد هدم ملكه، وزلزلة عرشه وكيانه؟، فليس هناك من الأسباب المانعة من البطش به، فكيف يقول (ذروني)، وخاصة أنه لم يكن ليأخذ على يديه أحد، و"هذا القول من فرعون يكشف عن خوف كان مستولياً عليه من موسى، ومن أن خطراً داهماً يتهدده من جهته، فلقد كان يعلم بعد أن رأى ما رأى من المعجزات، أن موسى يستند إلى قوة لا قبل لأحد بها، وأنه لو أراد بموسى شراً لما استطاع، ولأصابه هو بلاء عظيم، إنه كان على يقين بأن موسى على حق، ولكن الغطرسة والكبر، وحب التسلط، والسلطان، كل أولئك قد جعله يؤثر ما هو فيه من ضلال على هذا الحق الذى يدعى إليه، فقال فرعون (ذروني أقتل موسى) يشير إلى أن شيئاً ما بداخله يمسك به، وأن مشاعر خفية تلقاه بالتخويف والتحذير كلما هم أن يبطش بموسى"[٥]، إن هذه الكلمة ليست من ألفاظ الجبارين كفرعون الذى ادعى الربوبية والألوهية لنفسه، وكان لا يسمح برأي يخالف رأيه، ولا مشورة تخالف مشورته، فهو القائل: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[٦]، حتى حجر على الناس أن يفكروا أو يقولوا.

---

(١) تفسير الزمخشري، مرجع سابق، ج٤، صـ٤٠١.

(٢) سورة هود الآية "٦٩".

(٣) سورة الزخرف الآية "٥٣".

(٤) سورة غافر من الآية "٢٦".

(٥) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج١٢، صـ١٢٢٢ وما بعدها.

(٦) سورة غافر من الآية "٢٩"

- وفى دعوة سيدنا عيسى – عليه السلام – يظهر تعظيم الملائكة وإكرامهم، من خلال تأييد الله – عز وجل – لنبيه عيسى – عليه السلام – بالروح القدس وهو جبريل – عليه السلام –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[١]، ويتأكد هذا التشريف والتعظيم بالإضافة (روح القدس) لأن "الروح جبريل، والقدس هو الله تعالى، كأنه إضافة إلى نفسه تعظيماً له"[٢] كما أضافه إلى نفسه حينما أرسله إلى السيدة مريم – عليها السلام – ليبشرها، بالمسيح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[٣]، فالإضافة هنا تدل على التشريف والتعظيم.
- أما في دعوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فيزداد الأمر بوجوب إكرامهم، وتعظيم شأنهم، ولقد أكرم الله – عز وجل – الملائكة بالأخلاق الكريمة الطاهرة فقال – عز وجل –: ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾[٤] فالله – عز وجل – وصفهم بالإكرام، ورزقهم هذا الشرف العظيم، فهم يقومون بمهام عظيمة، ومما يدل على وجوب إكرامهم، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – نهى عن دخول المساجد لمن أكل ما يؤذى الملائكة، كالثوم والبصل والكرات ونحوها "فعن جابر[٥] – رضي الله عنه – قال: "نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن أكل البصل والكراث، فغلبتنا الحاجة فأكلنا منها، فقال: "من أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس"[٦]، وهذا دليل على وجوب تعظيم الملائكة بالبعد عن الأشياء التي يكرهونها، سواء من الأعمال أو الأقوال التي تبعدهم عنا.

---

(١) سورة المائدة من الآية "١١٠".

(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج١٢، صـ٤٥٩.

(٣) سورة مريم الآية "١٧".

(٤) سورة عبس الآية "١٦".

(٥) جابر بن عبدالله: بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي، وقيل في نسبه غير هذا، وهذا أشهرها، يكنى أبا عبد الله، وقيل: أبو عبدالرحمن والأول أصح، شهد العقبة الثانية مع أبيه، وهو صبي، وقال بعضهم: شهد بدراً، وقيل: لم يشهدها، وكذلك غزوة أحد، يقول عن نفسه، غزوت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سبع عشرة غزوة، ولم أشهد بدراً، ولا أحداً، منعني أبي، فلما قتل يوم أحد لم أتخلف عن رسول الله في غزوة قط، وقيل شهد مع النبي – صلى الله عليه وسلم – ثمان عشرة غزوة، وعمى في آخر عمرة "أسد الغابة في تمييز الصحابة، أبو الحسن على بن أبي الكرم، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، ابن الأثير، المتوفي سنة ٦٣٠هـ، تحقيق محمد على معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٥هـ، سنة ١٩٩٤م، ج١، صـ٤٩٢، وينظر "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر العسقلاني مرجع سابق، ج١، صـ٥٤٦.

(٦) رواه البخاري في الآذان، باب ما جاء في النوم، ٢/٣٣٩، رقم ٨٥٤، ورقم ٨٥٥، وفى الأطعمة، باب ما يكره من الثوم والبقول، ٩/٥٧٥، رقم ٥٤٥٢، وفى الاعتصام، باب الأحكام التي تعرف بالدلائل، ١٣/٣٣٠، رقم ٣٧٥٩، ورواه مسلم في المساجد، باب نهى عن أكل ثوماً وبصلاً أو كراتاً أو نحوها، ١/٣٩٤، رقم ٥٦٤، "متفق عليه".

كذلك نهى النبي - ﷺ - عن البصاق عن اليمين في الصلاة، من أجل الملائكة وعدم أذيتهم، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: "إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه، فإنما يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه، فإن عن يمينه ملكاً، وليبصق عن يساره، أو تحت قدمه فيدفنها"[١]، وهذا يوجب على العبد تعظيمهم حتى يتحقق الإيمان بهم إيماناً صحيحاً.

ثالثاً: أثر الإيمان بالملائكة في الوقاية من الانحراف

إن الإيمان بالملائكة له دوره الهام، وآثاره الايجابية، في حياة المؤمن، ووقايته من الانحراف، فحينما يؤمن الإنسان بوجود هؤلاء الملائكة المكرمين، الذين وكَّلهم الله - عز وجل -، ليحصوا عليه أقواله وأعماله، قلت أم كثرت، فإنه يرى في نفسه خجلاً وحياءً، يمنعه من ارتكاب المعاصي والسيئات، لما يرى من حضور الملائكة معه، وتسجيلها لما يعمل، فضلاً عن مراقبة الله - عز وجل - له، وحيائه منه قبل كل شئ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٢]، وقال أيضاً في محكم تنزيله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٣]، فإذا هَمَّ المؤمن بارتكاب المعاصي، والوقوع في المحرمات، فإنه يتذكر أن الله -عز وجل- جعل عليه مَنْ يُراقِبه طيلة حياته حتى الممات، فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -ﷺ-: "إياكم والتعرِّي فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يُفضى الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم"[٤]، فيظل المؤمن بعد ذلك دائم الاستقامة على منهج الله - عز وجل -، لأنه يعلم أن كل شئ مكتوب ومحاسب عليه، وسوف يقرأه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، فيجتهد في طاعة الله - عز وجل - حتى لا يجد ما يسوؤه، ويخزيه حينما يقرأ كتابه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٥]، كما أن دعاء الملائكة واستغفارهم للمؤمن، له أثر كبير في هدايته ووقايته من ظلمات الذنوب والمعاصي، فيخرج منها إلى النور والهداية إلى صراط الله المستقيم، قال تعالى مبيناً نعم الله -تبارك وتعالى- على المؤمن: ﴿يَا أَيُّهَا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب دفن التاق في المسجد، ٥١٢/١، رقم ٤١٦، ورواه مسلم في كتاب المساجد، باب النهى عن البصاق في المسجد، ٧٦/٢، رقم ٥٥٠.

(٢) سورة ق الآية "١٨".

(٣) سورة الانفطار الآيات "٩ - ١٢"

(٤) رواه الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في الاستغفار عند الجماع، ١١٢/٥، رقم ٢٨٠٠، وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

(٥) سورة الإسراء الآيات "١٣-١٤".

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(١)، وفي ذلك: "إشارة إلى أن ذكر المؤمن ربه، وتسبيحه بحمده، يدنيه من ربه، ويقربه من منازل رحمته، ويصله بعباده المقربين من ملائكته، وبهذا يستقيم على طريق الله، ويخرج من عالم الظلام والضلال، إلى عالم النور والهدى"(٢)، وهذا دليل على اعتناء الله – ﷻ – وملائكته بالمؤمنين الذاكرين المسبحيين، وأن رحمة الله – ﷻ – ودعاء الملائكة واستغفارهم، سبب اخراجهم من الظلمات إلى النور، حينما يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، كما أنه سبب لاستقامة الإنسان على طريق الخير والهدى، ولذلك فقد كافأ النبي – ﷺ – من أطعمه بالدعاء له، بأن تصلى عليه الملائكة فقال – ﷺ – لمن أطعمه، في الحديث الذي رواه سيدنا أنس – ﷺ –: "أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة"(٣)، ولقد رغب النبي – ﷺ – في كثير من الأعمال الصالحة التي توجب الحصول على دعاء الملائكة واستغفارهم، ليندفع المؤمن إلى التحرك نحو الطريق الصحيح المستقيم، فعن أبى هريرة – ﷺ – أن رسول الله – ﷺ – قال: "الملائكة تصلى على أحدكم ما دام في مصلاه الذى صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه"(٤)، ولقد ذكر الله – ﷻ – أن حملة العرش من الملائكة، يستغفرون للذين آمنوا، وأن يجعل بينهم وبين السيئات والمعاصي وقاية، حتى لا يقعوا فيها، وإذا أغراهم شيطانهم ففعلوها، فيحفظهم الله – ﷻ – من آثامها ووبالها، قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ

---

(١) سورة الأحزاب الآيات "٤١ – ٤٣".

(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج١١، صـــ٧٢٩.

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الدعاء لرب الطعام إذا أكل عنده، ٦٦١/٥، رقم ٣٨٥٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده صحيح"، ورواه ابن ماجه في سننه، أبواب الصيام، باب من فطر صائماً، ٦٣٣/٢، رقم ١٧٤٧، ورواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ذكر إباحة الضيف للمضيف بغير ما وصفنا عند فراغه من الطعام، ١٠٧/١٢، رقم ٥٢٩٦.

(٤) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الحدث في المسجد، ٩٦/١، رقم ٤٤٥، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، ٤٩٥/١، رقم ٦٤٩.

وَذُرِّيَّتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[١]، فمجرد الوقاية من السيئات فوز عظيم، وهذا من دعاء الملائكة للمؤمنين.

لقد سخر الله – ﷻ – الملائكة لإصلاح حال الانسان، حيث جعل منهم سفراء بينه وبين رسله وأنبيائه – عليهم السلام –، فجاءوا بالوحى والذى يحمل مشاعل الهداية والنور، يحيون به حياة حقيقية طيبة خالية من كل شقاء وكدر، لأنها على هدى ونور من الله – ﷻ –، فيسير الإنسان عليه ليصل إلى أقوم الطرق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾[٢]، "فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله، بما فيه حياة أرقى من الحياة التي نعيش بها، ونتحرك على الأرض، وهكذا تكون هناك روحان، لا روح واحدة، روح للحس والحركة، وروح تعطى القيم التي تقودنا إلى حياة أخرى، أرقى من الحياة التي نحياها، حياة لا فناء فيها، ولذلك يسمى الحق سبحانه القرآن روحاً"[٣].

كما أن من أعمال الملائكة الحفظ من المكروه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾[٤]، وكذلك الوقاية من الهلاك والفرار من الزحف والهزيمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾[٥]، وتستمر أعمالهم، وتتوالى لحفظ الإنسان من هذا الوقت حتى وقت الاحتضار، فيبشرونه بإقبال رب كريم، يقبل الحسنات ويضاعفها، ويعفو عن السيئات ويتجاوز عنها بمغفرتها، بل تظل أعمالهم المؤدية إلى حفظ المؤمن وصيانته إلى ما بعد الموت، فيرى المؤمن مقعده من الجنة، فإذا دخل الجنة، استقبلته الملائكة على أبوابها يهنئونه بسلامة الوصول بعد الذى شاهده من الأهوال والكربات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[٦]، فأول شئ تستقبلهم

---

(١) سورة غافر الآيات "٧ – ٩".

(٢) سورة الشورى الآيات "٥٢ – ٥٣.

(٣) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٣، صـ٧٨٠٤.

(٤) سورة الرعد من الآية "١١".

(٥) سورة الأنفال الآية "١٢".

(٦) سورة الزمر الآية "٧٣".

الملائكة به وهم على أبواب الجنة، البشارة بالسلامة من كل الآفات والشرور، وطهارتهم من دنس الذنوب والمعاصي، ثم الدخول في الجنة خالدين في هذا النعيم، فعندما يعلم المؤمن كل ذلك عن الملائكة، يكون دافعاً له إلى الاستقامة على أمر الله - ﷻ - وطاعته والسعي إلى مرضاته، بأن يجعل حاجزاً بينه وبين غضب الله وعقابه وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، فيكون بذلك من المتقين الذين يفوزون بدخول الجنة وسلام الملائكة عليهم فيها.

إن الإيمان بالملائكة يجعل الإنسان على درجة عالية من الإيمان والتقوى، لأن الملائكة أمر من أمور الغيب التي لا يراها، ومع ذلك فهو يؤمن بها، لأن الله - ﷻ - هو الذى أخبره بذلك "والقمة العقدية أن تؤمن بالله، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات، لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها"(١).

كذلك أيضاً يجعل الإنسان في وقاية من التصورات الفاسدة، والأوهام الباطلة، التي تحيط بعقول أولئك المنحرفين عن طريق الجادة والصواب، "ومن ثم شاءت رحمة الله بالإنسان – وهو فاطره، وهو العليم بتكوينه وأشواقه وما يصلح له وما يصلحه – أن يمده بطرف من الحقائق الغيبية، هذه ويعينه على تمثلها، ولو كانت أدواته الذاتية قاصرة عن الوصول إليه، وبذلك يريحه العناء، ومن تبديد الطاقة في محاولة الوصول إلى تلك الحقائق التي لا يصلح كيانه وفطرته بدون معرفتها، ولا يطمئن باله، ولا يقر قراره قبل الحصول عليها، بدليل أن الذين أرادوا أن يتمردوا على فطرتهم، فينفوا حقائق الغيب من حياتهم، استبدت ببعضهم خرافات، وأوهام مضحكة، أو اضطربت عقولهم وأعصابهم، وامتلأت بالعقد والانحرافات"(٢).

إن الإيمان بالملائكة يعمق في النفس معنى الطاعة والالتزام، فيجعل المؤمن يؤدى العبادات، والأوامر بنشاط وهمة دون استثقالها، وذلك حينما يعلم أن الملائكة وهم عباد مكرمون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، مع قوتهم وشدتهم، وأنهم خائفون وجلون مع عظمتهم وإكرامهم ومنزلتهم السامية وأنهم لا يستكبرون عن عبادته، وهم له ساجدون، وهم المبرؤون من المعاصي والذنوب، فإن ذلك يجعل العبد المؤمن وهو الضعيف، المحمل بالذنوب والأوزار، تجعله يؤدى العبادات وكل ما فرضه الله - ﷻ - عليه بقوة دون فتور، أو تراخى، اقتداءً بالملائكة الكرام، لما يعلم عن حالهم وعبادتهم.

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٢، صـ٧٣٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، صـ٣٤١ وما بعدها.

المبحث الثالث

التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالكتب

أولاً: معنى الإيمان بالكتب

الكتب جمع كتاب، "والكتاب: الصحيفة يكتب فيها"(١)، "الكاف والتاء والباء: أصل صحيح واحد يدل على جمع شئ إلى شئ من ذلك الكتاب والكتابة"(٢)، و"كتب الشئ يكتبه كتباً وكتاباً وكتبة: خطه"(٣)، إذاً فمن معاني الكتاب الصحيفة التي يكتب فيها وما هو مكتوب، والجمع والضم، ومعنى الإيمان بالكتب، وكذلك معناه "التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله – عليهم السلام –، فَجُمِعَ ودُوِّن، فكان صحفاً مطهرة وكتباً قيمة، فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلاً وما لم يعرف آمن به إجمالاً"(٤)، فالإيمان بالكتب معناه تصديق العبد بها فهي كلام الله مشتملة على الهدى والنور لوقاية البشرية من الانحراف،

ثانياً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في جانب الإيمان بالكتب

إن من أصول الإيمان الإيمان بالكتب التي أنزلها الله – ﷻ – على رسله – عليهم السلام –، والمشتملة على الأوامر والنواهي حتى يبلغوها للناس، ليصلوا إلى سعادة الدارين، ويجب الإيمان إجمالاً بالكتب التي أنزلها الله على رسله، وتفصيلاً بما سمى منها وهي صحف إبراهيم وموسى، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن الكريم، الذي أنزله الله – ﷻ – ليكون منهج حياة للأمة يهديها إلى الصراط المستقيم، وهناك بعض التوجيهات الوقائية المستنبطة من دعوة أولى العزم من الرسل في جانب الإيمان بالملائكة، وأهمها ما يلي:-

١- إنزال الكتب الإلهية رحمة وهداية للبشرية

لقد خلق الله – ﷻ – الخلق لعبادته وطاعته، وعبادة الله – ﷻ – على الوجه الأكمل، لا يمكن للعقول البشرية المجردة أن تستقل بمعرفة تفاصيلها، فعقل الإنسان قاصر ومحدود، لا يعرف وحده الأحكام والأوامر والنواهي على التفصيل، دون الرجوع إلى مصدر يقتبس منه ما يريد، ولكن من رحمة الله – ﷻ – بعباده أن أنزل الكتب على المرسلين، لبيان مراده من خلقه،

---

(١) تاج العروس، الزبيدي، مرجع سابق، ج٤، صـ١٠١.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٥، صـ١٥٨.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيدة المرسي، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ج٦، صـ٧٧٥.

(٤) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، مرجع سابق، صـ١٤٣.

وتفصيله لهم، حتى يعبدوه على بصيرة، وتنضبط حياتهم وفق منهج الله – ﷻ –، فتخرجهم بذلك من ظلمات الجهل والمعاصي، إلى نور العلم والطاعة، ومن طاعة الشيطان والهوى إلى طاعة الله – ﷻ – ورسوله – ﷺ –، فتتحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة، ولقد أخبر الله – ﷻ – سيدنا آدم – عليه السلام – عندما هبط إلى الأرض، أنه سينزل عليه وعلى ذريته من بعده هدى، من اتبع هذا الهدى كان في وقاية وحفظ من الضلال والشقاء والتيه، أما من أعرض عنه، كان في ضلال وشقاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾(١)، "وإرسال الهدى لآدم، هو مجيئ الوحى إليه"(٢)، ولقد ظل الناس على هذا الهدى والحق منذ سيدنا آدم – عليه السلام – حتى وقع الشرك في قوم سيدنا نوح – عليه السلام – ، فاختلفوا فيما بينهم، وما يجب عليهم من حقوق الله – ﷻ – فأرسل سيدنا نوحاً – عليه السلام – ومن بعده الرسل – عليهم السلام –، وأنزل عليهم وحيه هداية للناس، ولإنقاذهم من الضلال والانحراف الذى وقعوا فيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣)، و"ظاهر هذه الآية يدل على أنه لا نبي إلا معه كتاب منزل فيه بيان الحق، طال ذلك الكتاب أم قصر، ودُوِّن ذلك الكتاب أو لم يدون، وكان ذلك الكتاب معجزاً، أولم يكن كذلك، لأن كون الكتاب منزلاً معهم، لا يقتضى شيئاً من ذلك"(٤)، فالله – ﷻ – أنزل الكتب على رسله – عليهم السلام – لبيان حكمه فيما اختلف فيه الناس، ولبيان شرعه، والالتزام به، والوقوف عند حدوده.

ولقد كان كل رسول يدعو قومه إلى طريق الهداية والرشاد، وذلك بإتباع ما أوحاه الله – سبحانه وتعالى – إليه من الشرع لإنقاذهم من الضلال والانحراف إلى الهدى والاستقامة.

---

(١) سورة طه الآيات "١٢٣ – ١٢٦".

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٥، صـ٢٨٢٨.

(٣) سورة البقرة الآية "٢١٣".

(٤) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٦، صـ٣٧٥.

- ولقد وصف الله – ﷻ – ما أوحاه إلى سيدنا نوح ﷺ بأنه ذكر، قال تعالى على لسان سيدنا نوح – ﷺ –: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١)، والذكر له معان متعددة من هذه المعاني "الكتاب الذى فيه تفصيل الدين ووضع الملل، وكل كتاب مع الأنبياء عليهم السلام ذكراً"(٢)، وفى هذه الآية "المراد بالذكر الكتاب الذى أنزله الله تعالى على سيدنا نوح – ﷺ –، سماه ذكراً، كما سمى القرآن ذكراً"(٣)، لأن الرسل – عليهم السلام – جاءوا ليذكروا الناس بربهم، ويضعوا أمام ذاكرتهم المبادئ التي تحكم حياتهم، وتقودهم إلى الطريق القويم، وكأن الوحى تذكير لقوم سيدنا نوح – ﷺ – لتسمو به حياتهم، وموعظة لهم لترشدهم إلى الصلاح والاستقامة، فوحى الله – ﷻ – إلى أنبيائه – عليهم السلام – رحمة من الخالق للخلق ولذلك قال سيدنا نوح – ﷺ –: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ومن رحمة الله – ﷻ – أن لا يتركهم هملاً وسدى دون وحى وكتاب، يعرفهم بالله ربهم وخالقهم، حتى لا تتخطفهم الشياطين، فتضلهم عن الطريق السوى، ولكن النفوس التي تحرص على الانشغال بالدنيا، وتستكبر، عادة ما تكون بعيدة كل البعد عن الطاعة وسماع الذكر، ولذلك فقد تعجب سيدنا نوح – ﷺ –، وأنكر على قومه رفضهم هذا الخير والهدى الذى جاءهم من قبل الله – ﷻ –، لإنذارهم، وتخويفهم من عقاب الله – ﷻ – إن أعرضوا، ولكنهم أعرضوا، وكذبوا لعمى في البصيرة، حيث أصابهم عمى في قلوبهم، فلم يهتدوا إلى معرفة الله – ﷻ –، وإدراك الحقائق، فكان الهلاك مصيرهم، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾(٤)، لأنه لم يتبع الهدى والنور الذى أنزله الله – ﷻ – على رسله الكرام، وهذا هو مصير كل من أعرض عن سبيل الهداية.
- لقد أخبر الله – ﷻ – عن الصحف الأولى، وذكر منها صحف إبراهيم وموسى – عليهما السلام – والتي اشتملت على الهداية والفلاح، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ

---

(١) سورة الأعراف الآية "٦٣".

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٤، صـ٣١٠.

(٣) لباب التأويل في معانى التنزيل، علاء الدين، على بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيمي أبو الحسن المعروف بالخازن، المتوفى سنة ٧٤١هـ، تحقيق محمد على شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج٢، صـ٢١٥.

(٤) سورة الأعراف الآية "٦٤".

تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾(١)، هذه الصحف فيها حث على تزكية النفس، وبيان أن الفلاح الحقيقي لا يمكن أن يتحقق إلا بالتطهير من الأوجاس والرذائل، وقمة التزكية هي الإيمان بالله - ﷻ -، كذلك اشتملت هذه الصحف على قواعد ومبادئ عامة لإصلاح الانسان وهدايته، مثل قاعدة الثواب والعقاب، فالإنسان يحاسب بعمله هو، ولا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾(٢)، إنها المسؤولية الفردية والتي تربط كل إنسان بعمله، إن أحسن فلنفسه، وإن ضل فعليها، وليس في مقدور أحد أن يخفف حمل أحد آخر، فيؤاخذ بذنب غيره، فالأعمال كلها محفوظة في كتب سطرتها الملائكة الكرام، وسيراها حتماً حينما يصير إلى ربه ليجازيه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٣).

فصحف سيدنا إبراهيم وموسى - عليهما السلام -، حملت رسالات الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - إلى الناس لهدايتهم، ووضعت لهم المبادئ العامة التي فيها صلاحهم.

- إن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - من الرسل الذين أنزل الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - عليهم وحيه، مشتملاً على الأحكام والتعاليم التي فيها هداية قومه، عند الالتزام بها ولذلك كان "يطلع إبراهيم اباه آزر على ما حباه الله به واختاره، واصطفاه له من الحكمة والرسالة التي كلفه الله - ﷻ - بتبليغها لقومه، لتخلصهم من الوثنية الزائفة، وأن اباه أحق ببواكير هذا الخير الذى تلقاه إبراهيم من الله تعالى، دون أن يعلم بذلك أبوه آزر ويأمر اباه باتباعه، وعدم عصيانه حتى يهتدى إلى الطريق السوى - طريق الله الذى لا اعوجاج فيه ولا التواء، طريق الإيمان"(٤)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾(٥)، لقد جاءه من العلم

---

(١) سورة الأعلى الآيات "١٤ - ١٩".
(٢) سورة النجم الآيات "٣٦ - ٤٢".
(٣) سورة الإسراء الآيات "١٣ - ١٤".
(٤) مناهج أولى العزم من الرسل في تبليغ الدعوة على ضوء ما جاء في القرآن الكريم، د/عبد الوهاب عبد العاطي عبد الله، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، دار الطباعة المحمدية ودرب الأتراك بالأزهر، صـ٨٧.
(٥) سورة مريم الآية "٤٣".

والمعرفة، عن طريق الوحى، ما لم يعرفه ويطلع عليه هو، وأن هذا الاتباع هو طريق الاستقامة، لأنه جاءه من علم الوحى، ولقد كان من دعاء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – أن يبعث الله في ذريته رسولاً، يكون هذا الرسول صاحب كتاب منزل، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وليقودهم إلى طريق الصلاح، قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾(١)، والتزكية تكون بالتطهير من الأوجاس.

- إن التوراة التي أنزلها الله – عز وجل – على سيدنا موسى – عليه السلام – كانت تحمل الهدى والنور الذى يستضاء به في ظلمات الجهل والشرك، وفيها كافة التكاليف التي يحتاج إليها بنوا إسرائيل، وتعصمهم من الضلالة والزيغ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾(٢)، "أي: إنا أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى وإرشاد للناس إلى الحق، ونور وضياء، يكشف به ما يتشابه عليهم وأظلم، وبهذا الهدى خرج بنوا إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم، وبذلك النور أبصروا طريقة الاستقلال في أمر دينهم ودنياهم"(٣)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾(٤)، وقال أيضاً: ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾(٥)، و"الكتاب هنا: هو ما يحتوي على شريعة الله وأوامره وكلامه وهديه الذي ينير للبشر سبل الحياة، ويجدد لهم ما كلفهم الله به من حرام وحلال، وأوامر ونواه، وعبادات ونسك، وغير ذلك مما أراد الله"(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية "١٢٩".
(٢) سورة المائدة الآية "١١٥".
(٣) تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٩، صـ١٢٣.
(٤) سورة الأنعام الآية "١٥٤".
(٥) سورة الإسراء الآية "٢".
(٦) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي، مرجع سابق، صـ٧٦.

وقوله عن سيدنا موسى وهارون – عليهما السلام –: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾[١]، الذى يبين لهم الحق، ويهديهم من الضلالة، وينقذهم من الجهالة، لسلوك طريق الهداية والنجاة، وفرقاناً بين الحق والباطل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٢]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٣]، "أي: أعطيناه ألواحاً، كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة، من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيباً وترهيباً، وتفصيلاً لكل نوع من أصول التشريع، وهى أصول العقائد والآداب، وأحكام الحلال والحرام، فخذها بقوة، تقبلها بجد وعزيمة وحزم، لأن المراد بها تكوين شعب جديد بتربية جديدة"[٤]، فهذه الألواح مشتملة على الهدى والرحمة، لأنها تحتوى على المبادئ العامة التي تعتبر أساساً لشريعة سيدنا موسى – عليه السلام –، ليسير عليها الإسرائيليون.

- كذلك أيضاً أنزل الله – عز وجل – على سيدنا عيسى – عليه السلام – الإنجيل، مشتملاً على الهداية والنور الذى يستضاء به من مشكلات الأمور، وزاجراً من ارتكاب المعاصي، وهو مصدق للتوراة، ومتمم لها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٥]، فالإنجيل في أصله يشتمل على الهدى من الضلالة، والنور من الظلام وإن أول شئ نطق به سيدنا المسيح – عليه السلام – في المهد بعد عبوديته لله – عز وجل – هو إتيانه الكتاب، وليكون مرجعاً يرجع إليه عند اختلافهم في بعض الأمور الدينية والدنيوية، ولقد بين الله – عز وجل – أنهم لو أقاموا الإنجيل، وعملوا بما جاء فيه، لاهتدوا وسعدوا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن

---

(١) سورة الصافات الآية "١١٧".
(٢) سورة الأنبياء الآية "٤٨".
(٣) سورة الأعراف الآية "١٤٥".
(٤) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوى، مرجع سابق، صـ١٣٥.
(٥) سورة المائدة الآيات "٤٦ – ٤٧".

فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴾(١)، فالإنجيل أنزل من عند الله – ﷻ – ليضبط حياة الناس وقتها وفق منهجه – ﷻ –.

- كذلك أنزل الله – ﷻ – القرآن الكريم، وهو أعظم الكتب الإلهية على سيدنا رسول الله – ﷺ – وهو أعظم الخلق، ليكون امتداداً، ومتمماً للنور الذى منحه الله – ﷻ – للبشرية من يوم أن خلق الله سيدنا آدم – عليه السلام – إلى أن تقوم الساعة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾(٢)، فالهداية كل الهداية فيه، "فكل من تدبر القرآن بوعي كامل غير مشغول بزخارف الدنيا، وتذكر بهذا التدبير عناصر الخير في نفسه، وفيما حوله: توفرت له رؤية واضحة للكون والحياة، ورأى الحق حقاً والباطل باطلاً، دون لبث أو خفاء، وانتهى به مطافه إلى الثبات على قيم الحق والخير، بعيداً عن كل ما يحول دونها"(٣)، وهذه نعمة كبرى تستوجب من الإنسان أن يحمد الله عليها، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴾(٤)، فهذا توجيه للناس أن يحمدوا الله على نزول القرآن لأنه طريق السعادة والاستقامة، ولذلك فقد وصفه الله – ﷻ – بالروح والحياة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾(٥)، والروح بها الحياة، فتحيا به القلوب، والنور به الإبصار والاهتداء، ليستضاء به في الظلمات، ووصفه أيضاً بالفرقان، فقال – ﷻ –:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(٦)، لتفريقه بين الحق والباطل، وقد جعله الله – ﷻ – بياناً لكل ما يحتاج إليه الناس من معرفة الحلال والحرام، والثواب والعقاب، وحكماً يحتكمون إليه، فيهتدون به إلى الطريق المستقيم،

---

(١) سورة المائدة الآية "٦٦".
(٢) سورة الإسراء الآية "٩".
(٣) نوح أول داع إلى الله، د. عمارة، مرجع سابق، صــ٩٣.
(٤) سورة الكهف الآيات "١ – ٢".
(٥) سورة الشورى الآيات "٥٢ – ٥٣".
(٦) سورة الفرقان الآية "١".

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[١]، "فالقرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم، لتبليغهم مراد الله منهم، والمقصد الأعلى من ذلك صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية"[٢].

إذاً فالكتب الإلهية كلها أنزلت لتكون منهج حياة للبشرية ولتكون روحاً تحيا نفوسهم به، ونوراً لهم في طريق الظلام للاهتداء.

٢- استمداد تعاليمها من نبع واحد

إن الكتب التي جاء بها الرسل – عليهم السلام – يوافق بعضها بعضاً، لأنها تخرج من مشكاة واحدة، فلا تناقض بينها، ولا اختلاف في الأصول والأسس التي جاءوا بها، والتي تدل على وحدة مصدرها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣] وإذا نسب إليها ما يخالف ذلك فإنما هي من صنع البشر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٤]، فهي تخرج من مصدر واحد، ويصدق بعضها بعضاً ولذلك فقد جُعِل الإيمان بها طريق الهداية والفلاح، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٥]، فجميع الكتب المنزلة على الرسل مصدرها واحد من عند الله – ﷻ –، فالذي يؤمن بكتاب، ويجحد آخر هو جاحد بجميع الكتب المنزلة، حتى بالكتاب الذى يزعم أنه آمن به، ولذلك فإن الرسول – ﷺ – دعا أهل الكتاب إلى الإيمان بكل ما أنزل الله – ﷻ – من الكتب الإلهية،

---

(١) سورة النساء الآية "١٠٥".

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور، مرجع سابق، ج٢، صـ١٢٥.

(٣) سورة البقرة الآية "٢١٣".

(٤) سورة يوسف الآية "١١١".

(٥) سورة البقرة الآيات "١٣٦ – ١٣٧".

ولكنهم آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، ومن كفر بالبعض كفر بالكل لأنها جاءت من منبع واحد، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١]، لأن الذى أنزل الكتاب على سيدنا محمد – ﷺ – هو الذى أنزل الكتاب على غيره من الرسل – عليهم السلام –.

- فسيدنا نوح – عليه السلام – بين لقومه أنه جاء ليبلغ رسالات الله – سبحانه وتعالى – المنزلة عليه من عنده، فهو لا يخترع كلاماً من تلقاء نفسه، يريد أن يحملهم عليه، ولكنه يبلغ رسالات ربه فقال كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢]، "وأضاف الرسالات إلى ربه – سبحانه وتعالى – لأنه منزلها، ولأنه القائم على الوجود، والمربى له، والعالم بكل ما يصلحه"[٣]، فسيدنا نوح – عليه السلام – بين لقومه أن الذى جاء به وما جاء به غيره من الرسل الكرام، إنما هو من عند الله – سبحانه وتعالى – فالجميع يخرج من نبع واحد، ولذلك قال (رسالات ربى) بالجمع والإضافة، لأنه يحمل ما جاء به الرسل – عليهم السلام – من الأصول، وليس بينها تعارض ولا تناقض، ولا تخرج إلا من مصدر واحد، وأن كل قضية يبلغها لقومه إنما هي من رب العالمين – سبحانه وتعالى –، فهو الذى أرسله بها، وليست من أهوائه، ومن كذبه فهو مكذب لجميع الرسل، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٤]، "ومع أنهم لم يعاصروا سوى رسول واحد وهو نوح – عليه السلام –، إلا أنهم عدوا مكذبين لكل الرسل، من حيث اجتماع الرسل على الحق الذي يدعوهم إليه رسولهم نوح، فأي إنكار للحق المجمع عليه، إزراء بالكل، وقد ضرب قوم نوح مثلاً"[٥]، يؤكد ذلك المعنى قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٦].

---

(١) سورة البقرة الآية "٩١".

(٢) سورة الأعراف الآية "٦٢".

(٣) زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة المتوفى سنة ١٣٩٤هـ، دار الفكر العربي، دون ط ت، ج٦، صـ٢٨٨٠.

(٤) سورة الشعراء الآية "١٠٥".

(٥) نوح أول داع إلى الله، د. عمارة، مرجع سابق، صـ١٤.

(٦) سورة الفرقان الآية "٣٧".

- ولقد أخبر الله – ﷻ – أنه أوحى إلى سيدنا إبراهيم وموسى – عليهما السلام – وأنزل عليهما وحياً سماه صحفاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾(١)، وهذه الصحف احتوت على عقائد ومبادئ تعتبر تراثاً خالداً مشتركاً بين الرسل الكرام، لأن أصول الدين كلها مذكورة في الكتب الإلهية، وورود ذكر هذه الصحف في دعوة سيدنا رسول الله – ﷺ – مما يدل على وحدة مصدرها، لأن هذه الصحف لم تكن موجودة لدى العرب، ولم يأخذها النبي – ﷺ – من مصادر أصحابها، لأنهم لم يكونوا على علم كامل بما جاء فيها "وذكر صحف إبراهيم وموسى في مقام عرض الدعوة وأهدافها يلهم أنه بسبيل تقرير كون الدعوة المحمدية، وما يبشر وينذر به النبي – ﷺ – مما هو متطابق مع دعوة الأنبياء السابقين، وما أنزل عليهم، واستمرار له، وهذا ما تكرر تقريره في القرآن كثيراً من ذلك أية سورة الشورى هذه، قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٢)(٣)، ولقد أكد النبي – ﷺ – على وحدة مصدرها وإنزالها من عند الله – ﷻ –، فعن واثلة بن الأسقع – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، والقرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان"(٤).
- إن التوراة والإنجيل كتابان أنزلهما الله – ﷻ – على سيدنا موسى وعيسى – عليهما السلام – عصمة للناس من الضلالة إذا عملوا بما جاء فيها، قَالَ تَعَالَى: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(٥)،

---

(١) سورة النجم الآيات "٣٦ – ٣٧".

(٢) سورة الشورى الآية "١٣".

(٣) التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١٣٨٣ هـ، بدون ت، ج١، صـ٥٢٢.

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب ذكر كتب أنزلها الله قبل نزول القرآن، ٣١٧/٩، رقم ١٨٦٤٩.

(٥) سورة آل عمران الآيات "١ – ٤".

فالتوراة والإنجيل والقرآن في الأصل منبعهم واحد، وسيدنا عيسى - عليه السلام - جاء امتداداً لرسالة سيدنا موسى - عليه السلام - ومصدقاً لها، وأحل بعض ما حرم على بنى إسرائيل، ومهد لرسالة رسول الله - ﷺ -، وهذا يدل على وحدة المصدر والهدف، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[١]، فالإنجيل جاء مصدقاً لما قبله من كتب الله - تعالى - والله - عز وجل - أخبر أن بنى إسرائيل لم يحفظوا التوراة والإنجيل، وأنهم قاموا بتحريف الكلم عن مواضعه، قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾[٢].

- والقرآن الكريم نزل على رسول الله - ﷺ - وجعله الله - تعالى - شاهداً على ما سبق من هذه الكتب، يشهد لها إما بالصحة والموافقة للحق، أو يكشف ما طرأ عليها من التحريف والتبديل والتغير، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[٣]، ومن هنا: "يتفرد القرآن بخاصية الهيمنة على كل ما سبقه من كتاب، فيصدق في حالة الاتفاق، وفي حالة الاختلاف تصبح كلمته هي العليا في تصحيح الوقائع، وردها إلى الحق الثابت"[٤].

إن هذا القرآن الكريم يحتوى على كثير من أنباء الأمم السابقة، والتي تتطابق تماماً مع ما في الكتب المنزلة الأولى، والنبي -ﷺ- لم يكن على علم بهذه الأنباء، من قبل كما أنه -عليه الصلاة والسلام- لم يكن يجالس أحداً من أهل الكتاب ليتعلمها، وهذا دليل على صدق نزوله من عند الله -عز وجل- عليه، ولم تكن سحراً، ولا شعراً، من تلقاء نفسه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٥]، فالقرآن يحتوى على أنباء الأمم الماضية من غير تعلم من أحد من البشر، وإنما من قبل الله -عز وجل-، لأنه لا يوجد تفاوت بينها، واحتوى كذلك على المبادئ والأهداف التي تتطابق مع ما في الكتب المنزلة الأولى من عند الله - تعالى - وبما

---

(١) سورة الصف الآية "٦".

(٢) سورة المائدة الآية "١٣".

(٣) سورة المائدة الآية "٤٨".

(٤) نوح أول داع إلى الله، د. عمارة، مرجع سابق، صـ٨٦.

(٥) سورة الشعراء الآيات "١٩٢ - ١٩٦".

"أن محمداً – صلوات الله وسلامه عليه – لم يتعلم علماً ولا استفاد من أستاذ، فلما أتى بالحكايات والقصص موافقة لما في التوراة من غير تفاوت أصلاً، علمنا أنه – عليه الصلاة والسلام – إنما استفادها من الوحى والتنزيل"(١)، وتأييد القرآن الكريم والنبي – ﷺ – لأنباء الرسل دليل على وحدة المصدر الذى صدرت منه هذه الكتب، وأن النبي – ﷺ – امتداد للأنبياء قبله، وأنه يسير على دربهم، ولا يوجد بينها تعارض ولا تناقض في الأصول، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٢)، فهي توافق بعضها بعضاً في أصولها وأسسها، لأنها من عند رب العالمين في علاه.

ثالثاً: أثر الإيمان بالكتب الإلهية في الوقاية من الانحراف

إن الإيمان بالكتب المنزلة له دور هام وخطير في وقاية الإنسان من الانحراف، لأن الله – ﷻ – أنزل الكتب لتكون منهج حياة متكامل، يهدى بها الله – ﷻ – البشرية للتي هي أقوم، وترشدهم إلى ما فيه نفعهم وصلاحهم، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٣)، فالله – ﷻ – أنزل عليهم كتباً من عنده، يستمدون منها ما يحتاجون إليه في المعاد والمعاش بما يناسب أحوالهم، ويحقق لهم حاجتهم، ويهديهم لما فيه صلاح أمرهم حسبما أراده الله – ﷻ –، فيكونوا على بصيرة من أمرهم، في جميع عباداتهم وأعمالهم، "والإيمان بالكتب الإلهية استهدف استيقان المؤمنين بأهمية الاستنارة بهذه الكتب في ميادين الحياة المختلفة، وتحصينهم من سحرة الفكر والثقافة الذين يزيفون الحق، ويزينون الباطل في النشاطات اليومية الجارية"(٤)، ولذلك فقد أمر الله – ﷻ – رسوله – ﷺ – وأمته بالاستمساك بهذا القرآن، لأن فيه الهداية والوقاية، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٥)، أي: "خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدى إليه هو الحق، المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم"(٦)، فالتمسك بالقرآن الكريم وتعاليمه، هو طريق الاستقامة الذى لا انحراف فيه ولا اعوجاج، ولذلك لما كانت حياة الناس لا تستقيم ولا تصلح إلا بإنزال الكتب الإلهية، والتي تشتمل على الشرائع والمبادئ التي تحيا بها القلوب، فتكون منهج حياة لهم، فقد ذكر الله – ﷻ – اسم (الحى) قبل إنزال الكتب، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٣، صـ٦٠٣.
(٢) سورة النساء الآية "٩١".
(٣) سورة النحل من الآية "٨٩".
(٤) أهداف التربية الإسلامية، ماجد الكيلاني، مرجع سابق، صـ٢٣٠.
(٥) سورة الزخرف الآية "٤٣".
(٦) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٧، صـ٢١٠.

كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[١]، ذكر اسم (الحى) وكأنه تمهيد لمهمة القرآن والكتب، وهى حياة قلوب البشر، ثم أردفه كذلك باسم آخر وهو (القيوم) القائم على كل شئ بما يصلحه بالرعاية والحفظ والتدبير، فكان مقتضى هذا الاسم أن نزل الكتاب بالحق، فلا تصلح أحوال الخلق إلا بإتباع ما جاء فيه.

إن نزول القرآن على رسول الله – ﷺ – منة عظيمة من الله – ﷻ – على البشر، لأنه سبيل هدايتهم وطريق سلامتهم من الضلال والزيغ، وعندما يتأمل الإنسان في أنباء القرآن الكريم عن الأمم السابقة، وحال الأنبياء الكرام معهم، فإن ذلك يقي الإنسان من الوقوع في الانحراف الذى وقع فيه هؤلاء، "ففي قصص السابقين من أمم الأرض، وما جرى عليهم، وما جرى لأنبيائهم معهم عبرة وموعظة لأصحاب العقول السليمة، وهداية ورحمة للمؤمنين بالله ورسوله، فهم الذين يعتبرون بما قصه الله عن الماضين ويتعظون به، لأن الإيمان قد فتح قلوبهم للحق، وأرهف حسهم لمواضع العبرة ومعاني الموعظة"[٢]، فالله – ﷻ – قص نبأهم، وبين سبب هلاكهم، والإنسان متى علم أسباب الهلاك والخسران فعادة ما يعمل على توقيها، والاحتراز منها قدر الإمكان، حتى لا يقع فيما وقع فيه السابقون من الأمم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[٣]، وكذلك تصل به أيضاً إلى درجة اليقين، بأن هذا الكلام من عند الله – ﷻ – محفوظ من التغير والتبديل والتحريف، لأن الأخبار التي جاءت من القرآن الكريم في مواضع متعددة، لا يناقض بعضها بعضاً، لأن الذى أنزلها هو من أحاط بكل شئ علماً، ولذلك فقد أمرنا الله – ﷻ – بالتدبر في آيات القرآن الكريم، وأخذ العبرة والعظة منه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[٤].

وهذا بيان من الله – ﷻ – لمن أراد أن يلتمس الوقاية والنجاة من المضلات، وأسباب الخسران، أن يتدبر القرآن الكريم، وأن يتعظ بما جاء فيه، لأن: "تلاوة القرآن بتدبر وإمعان: تعرف المسلم بالرب الذي يدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما للمستجيب من الكرامة، إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان وحزبه، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوة الشيطان من الإهانة والعذاب، إن هذه المعرفة ضرورية للداعي، إذ بها تجعله كأنه في الآخرة وإن

---

(١) سورة آل عمران الآيات "١ – ٤".

(٢) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٤١٤.

(٣) سورة يوسف الآية "١١١".

(٤) سورة ص الآية "٢٩".

كان هو في الدنيا، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه الناس فتريه الحق حقاً والباطل باطلاً"[١] فهو حصن حصين، يمنع من الزيغ والضلالات التى تصبب البشرية في مختلف عصورها.

إن التمسك بكتاب الله – ﷻ – طريق صحيح إلى النجاة من عواقب الافتراق وخطورة التشرذم التي تؤدى بصاحبها إلى أسفل الدركات، وإلى تعصب كل فريق لمذهبه ومعاداة من خالفه، لذلك فقد أمر الله – ﷻ – أن يكون التحاكم عند الاختلاف والتنازع، لوحيه وكتابه، ورسوله – ﷺ – حال حياته، وإلى سنته بعد مماته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[٢]، والله هو العليم بأحوال العباد، ويعلم ما يصلحهم ويسعدهم، وهو منزه عن العجز والجهل، ومن تمام رحمة الله – ﷻ – بعباده، أن تولى الفصل بينهم في المنازعات والخصومات وشئون الحياة، حتى يتحقق العدل والمحبة، والإنسان إذا علم أن الحاكم في خصومته، والفاصل في منازعته مع غيره هو الله – ﷻ – الموصوف بالعدل، رضى بذلك حتى ولو كان على خلاف ما يتمناه ويشتهيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾[٣]، أما إذا علم أن الذى تولى الفصل في أمره، إنسان مثله، والإنسان بفكره قاصر مشوب بالأهواء، فربما لا يرضى بهذا الحكم، ويستمر في المخاصمة، ويدوم النزاع الذى هو مدعاة لحصول الفشل وتبديد القوة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤]، و"ليس هناك في السياسة العامة أسوأ من تفرق الأمة، وتمزق صفوفها، وانقسامها فرقاً وأحزاباً، لذا حرص الإسلام على وحدة الصف، واجتماع الكلمة، وتحقيق الألفة وإشاعة المحبة، والسبل التي وحد الله – ﷻ – بها الأمة هو اتحاد دستورها، واعتصامها بكتاب الله وسنة نبيه"[٥]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[٦]، فبأحكام القرآن يكون الاتحاد الذى يجعل الأمة كالفرد الواحد، والعمل بآيات القرآن الكريم تكون الوقاية من الفشل وضعف القوة، الناجمين عن التنازع والافتراق.

---

(١) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٣٢٨.
(٢) سورة النساء الآية "٥٩".
(٣) سورة الأحزاب الآية "٣٦".
(٤) سورة الأنفال الآية "٤٦".
(٥) التفسير الوسيط، الزحيلي، مرجع سابق، ج١، صـ٢٢١.
(٦) سورة آل عمران الآية "١٠٣".

المبحث الرابع

التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالرسل

أولاً: معنى الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل يكون جملة وتفصيلاً، ومعنى الإيمان بهم إجمالاً: "أن يؤمن المرء بكل ما نبأ الله من نبي، وبكل ما أرسل من رسول، ممن عرف نبوتهم ورسالتهم، وممن لم يعرف فيؤمن إيماناً إجمالياً"(١)، بأن الله - ﷻ - أرسل في كل أمة رسولاً من أنفسهم ليدعوهم إلى الهدى والرشاد، ويقوِّم ما وقعوا فيه من الضلالة، فهناك من الرسل - عليهم السلام - من لم يخبرنا الله - ﷻ - بخبرهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾(٢)، فنؤمن جملة بجميع رسل الله - ﷻ -، ومعنى الإيمان بهم تفصيلاً "أن يؤمن المرء بكل نبي ورسول عرف نبوته ورسالته عن طريق الوحي إيماناً تفصيلياً، فمن عرفهم من طريق الوحي الإلهي بأسمائهم آمن بهم واحداً واحداً على التفصيل"(٣)، وقد سمى الله - ﷻ - في كتابه من الرسل والأنبياء خمسة وعشرين نبياً وهم: آدم، ونوح، وإدريس، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، وأيوب، ويونس، ولوط، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد - عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام -، فيجب الإيمان بهم إيماناً تفصيلياً.

ثانياً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في جانب الإيمان بالرسل

لقد اختار الله - ﷻ - من الناس واصطفى، فاصطفى الأفضل والأكمل منهم، وهذا الاختيار بعلمه وحكمته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾، فالله - ﷻ - فضلهم على الناس أجمعين، وخصهم بخصائص دون غيرهم، فأوحى إليهم شرعه، ليبلغوه للناس، ليهتدوا به، فقاموا بذلك على أكمل وجه، وهناك في دعوة أولى العزم من الرسل التوجيهات الوقائية في جانب الإيمان بالرسل وهي:

---

(١) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، مرجع سابق، صـ١٦٧.

(٢) سورة غافر من الآية "٧٨".

(٣) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، مرجع سابق، صـ١٦٧.

١- بشرية الرسل - عليهم السلام -

لقد شاء الله - ﷻ - أن يكون الرسل والأنبياء - عليهم السلام - من جنس المرسل إليهم وبلسانهم ليبينوا شرع الله - ﷻ -، ولقد بين الله - ﷻ - في كثير من آيات القرآن الكريم، أنه ما أرسل لبنى آدم إلا رسلاً من البشر، وهم رجال مثلهم(١)، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وجعل لهم الأزواج والذرية، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾(٣)، فهذا بيان من الله - ﷻ - أكد فيه أن الرسل من البشر، لهم خصائص البشر وصفاتهم، ولكنهم فضلوا بالوحى والرسالات وقبل الوحي كانت العصمة والصدق والأمانة والتبليغ والفطانة، فالله - ﷻ - رباهم تربية خاصة وأعدهم إعداداً جيداً، يتمثل فيه الكمال الإنساني، حتى يتناسب مع المهمة التى أرسلوا من أجلها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾(٤)، فمن حكمة الله - ﷻ - وتمام منته على البشر، أن جعل الرسل والأنبياء - عليهم السلام - من أنفسهم، يعلمون تاريخهم وسلوكهم، ولتقوم بهم الحجة عليهم، وتنقطع المعاذير، فلا يكون للناس حجة في عدم اتباعهم، أنهم ليسوا من جنسهم، وطبيعتهم تختلف عن طبيعتهم، فالله - ﷻ - جعلهم من جنس البشر لا الملائكة، لأن المثلية في الجنس أقرب لحصول الألفة والمؤانسة وفهم المراد، وحصول التأثير والتأثر، فيسهل الاتباع، ولما كان سكان الأرض بشراً، اقتضت الحكمة أن يرسل إليهم رسولاً منهم، لأنه لو كان ملكاً ما استطاع الناس الكلام معهم، والأخذ منهم: لبعد ما بينهم وبين الملائكة، فلا تتحقق الغاية من الرسالة، وإذا أرسل الله - ﷻ - إليهم ملكاً رسولاً على هيئة بشر، لحدث الالتباس بينهم، ووقعوا في حيرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ

---

(١) فالرسالة لا تكون لامرأة لأنها لا تستطيع القيام بحق الرسالة لضعفها، فالمرأة يطرأ عليها الحيض والنفاس مما تجعلها غير قادرة على القيام بعبء الدعوة، والرجل قوام عليها ومن طبيعة البشر أنهم في الغالب لا يتبعون من هم قوامون عليهم.

(٢) سورة الأنبياء الآيات "٧ – ٨".

(٣) سورة الفرقان من الآية "٢٠".

(٤) سورة الحج الآية "٧٥".

رَجُلًا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾[١]، "وقد أجرى الله مشيئته في إرسال الرسل على طبيعة البشر، حيث اختارهم من أرقى الناس عنصراً، وأفضلهم خلقاً، وأحسنهم طاعةً وتوكلاً، وأمدهم بالوحي مشتملاً على منهج الله لإصلاح الناس، فيحفظون ويبلغون، ويناقشون ويتابعون"[٢]، ألم يقل الحق تبارك وتعالى في قرآنه الكريم: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾[٣].

إن المكذبين من كل أمة في تاريخ الرسل – عليهم السلام – يحتجون على كفرهم: بأن الرسل بشر، ليسوا من الملائكة وأنه "لا يصح أن يكون الرسول بشراً لما يتصف به البشر من عجز وطبع، فهو مكون من مادة وروح، ولذلك تتملكه غريزتا الشهوة والغضب، ويأتي منه الفساد والاختلاف، ويشغله إشباع نفسه، فهو يأكل الطعام ويمشى في الأسواق، وتشغله الحياة بمشاكلها وحاجاتها"[٤]، فهم يستبعدون لذلك أن يدلهم على طريق الهداية رسول من البشر.

- إن هذه الشبهة كانت في مقدمة الشبهات التي أثارها الملأ من قوم سيدنا نوح – عليه السلام – حيث قالوا كما ذكر القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[٥]، فسيدنا نوح – عليه السلام – لا يختلف عنهم في الجنس، ومن ثم فلا يصح أن يكون رسولاً في زعمهم الفاسد، "إنهم ينظرون إليه على أنه بشر مثلهم، والتفاوت بين البشر لا يصل إلى حد أن يكون واحد منهم رسولاً يجب على الجميع طاعته، لأن المفروض أننا متساوون في البشرية، ومما ينافي هذه المساواة أن يكون بشراً رسولاً، لأن ذلك ترجيح بلا مرجح"[٦]، ثم يؤكدون ذلك بأن الله –عز وجل– لو أراد هداية البشرية وإصلاحها، لأرسل رسولاً من الملائكة، ولكن سيدنا نوحاً –عليه السلام– أنكر عليهم تعجبهم واستبعادهم لهذا الخير الذى جاءهم على لسان رجل منهم، يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، فإن ذلك موجب للإيمان والقبول، وليس موضع تعجب، بل هو عين الحكمة، قَالَ

---

(١) سورة الأنعام الآية "٩".

(٢) دعوة الرسل عليهم السلام، غلوش، مرجع سابق، صــ٥٢٨.

(٣) سورة آل عمران الآية "١٦٤".

(٤) دعوة الرسل، غلوش، مرجع سابق، صــ٥٢٤.

(٥) سورة المؤمنون الآية "٢٤".

(٦) نوح عليه السلام، أول داع إلى الله، د. عمارة، مرجع سابق، صــ٧٥.

تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١)، "ووصف رجل بأنه منهم، أي من جنسهم البشرى، فضح لشبهتهم، ومع ما في هذا الكلام من فضح شبهتهم، فيه أيضاً رد لها، بأنهم جديرون بأن يكون ما جعلوه موجب استبعاد واستحالة، هو موجب القبول والإيمان، إذ الشأن أن ينظروا في الذكر الذى جاءهم من ربهم، وأن لا يسرعوا إلى تكذيب المرسل به، وأن يعلموا أن كون المذكر رجلاً منهم أقرب إلى التعقل من كون مذكرهم من جنس آخر، من ملك أو جن"(٢)، ثم أكد لهم بشريته بنفي الملكية عنه، حتى يبطل اعتقاد الملأ في أن الأنبياء والرسل – عليهم السلام – لابد وأن يكونوا من الملائكة فقال: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾(٣)، وهذا رد بليغ جازم بأن البشرية لا تمنع من النبوة بل هي من متطلباتها ومقتضياتها وقاية للناس من اللبس والحيرة.

- ولقد ذكر سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في دعوة قومه إلى الإيمان بالله – سبحانه وتعالى – وحده بعض الصفات والخصائص التي تؤكد بشريته، وأنه يعتريه ما يعترى البشر من الأكل والشرب والصحة والمرض، فحينما استنكر على قومه عبادة الأصنام، وبين لهم أنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد، لأنها لا تسمع ولا تضر، ولا تغنى من الحق شيئاً، ثم يتبرأ من كل المعبودات وأعلن عبوديته لله – سبحانه وتعالى – وحده، فقال: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾(٤).
- لقد وصف سيدنا إبراهيم – عليه السلام – بالصفات التي تخص البشر، فالطعام والشراب رزق من الله – سبحانه وتعالى – يسوقه إلى البشر، والصحة والمرض، بتقدير الله – سبحانه وتعالى – فهذه الصفات تدل على أنه بشر مثلهم مع أفضليته.
- وهذا ما أكده سيدنا موسى – عليه السلام – حينما كان يسير مع فتاه إلى مجمع البحرين، بحثاً عن العبد الصالح، فلما جاوزا المجمع وأجهدهما السير، وأصابها التعب والإعياء، وكانا بحاجة إلى الطعام والراحة، حتى يقوا على مواصلة السير، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ

---

(١) سورة الأعراف الآية "٦٣".
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج٨، صـ١٩٦.
(٣) سورة هود الآية "٣١".
(٤) سورة الشعراء الآيات "٧٥ – ٨٠".

حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴾[١]، وهذه من مقتضيات الطبيعة البشرية، وحينما التقى بالعبد الصالح أخذ عليه العهد، بأن لا يسأله عن شئ حتى يخبره، ولكنه نسى ذلك، واعتذر عن هذا النسيان، فقال: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴾[٢]، لقد تعزز فرعون وقومه، وأنكروا على سيدنا موسى وهارون – عليهما السلام – دعوتهما إلى الإيمان بالله – ﷻ – وحده لكونهما بشرين مثل سائر الناس في ظنهم حتى وقعوا في ظلمات الكفر، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴾[٣]، فاستهانوا بهما، وكذبوهما، لبشريتهما ولكن فاتهم أن الناس يتفاوتون في الأفكار، والمواهب والاستعدادات النفسية والتربية الصالحة، فالأنبياء والرسل من أخص البشر الذين اصطفاهم الله – ﷻ – لنفسه.

- لقد أكد الله – ﷻ – أن سيدنا عيسى – عليه السلام – رسول كغيره من الرسل، وله كل صفات البشرية وعوارضها في الاحتياج إلى ما يحتاج إليه كل فرد من البشر، وهذا دليل واضح وصريح على بطلان دعوى ألوهيته عند النصارى، وقد استدل على بشريته بإثبات صفة من صفات البشر، وهى أكل الطعام، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾[٤]، وهذا "خبر من الله تعالى ذكره عن المسيح وأمه، أنهما كانا أهل حاجة إلى ما يغذوهما، وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب، كسائر البشر من بنى آدم"[٥]، إن أكل المسيح – عليه السلام – للطعام دليل يوضح بشريته، وإن كان من المصطفين الأخيار.

(١) سورة الكهف الآيات "٦٠ – ٦٢".
(٢) سورة الكهف الآية "٧٣".
(٣) سورة المؤمنون الآيات "٤٥ – ٤٨".
(٤) سورة المائدة الآية "٧٥".
(٥) تفسير الطبرى، مرجع سابق، ج٨، صـ٥٨٢.

- وسيدنا محمد - ﷺ - لم يكن بدعاً من الرسل، بل كان بشراً هو أفضلهم، ولقد هيأه الله - ﷻ - تهيئة خاصة تتناسب مع المهمة التي اصطفاها الله - ﷻ - لها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾[١]، وهذا تأكيد لصفة البشرية التي أرادها الله - ﷻ - لرسله وأنبيائه - عليهم السلام - مع أفضليتهم على الخلق، ويؤكد النبي - ﷺ - ذلك فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: صلى بنا رسول الله - ﷺ - خمساً، فقلنا: يا رسول الله أزيد في الصلاة؟ قال: وما ذاك؟ قالوا صليت خمساً، قال: "إنما أنا بشر، أذكر كما تذكرون، وأنسى كما تنسون"[٢]، ولقد جعل الكفار وجود الرسول - ﷺ - من البشر من الأمور التي يتعجب منها، لظنهم أنهم لا يقدرون على الاتصال بالله - ﷻ - فأنكر عليهم هذا التعجب، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾[٣].

ولكن من رحمة الله - ﷻ - وحكمته أن جعل الرسل والأنبياء - عليهم السلام - من البشر، وليسوا من الملائكة، حتى لا يقع الناس في اللبس والحيرة، فلا تتحقق الهداية المطلوبة من إرسالهم:-

٢- تبليغهم رسالات ربهم

لقد أرسل الله - ﷻ - الرسل - عليهم السلام - لتبليغ ما أوحاه الله - ﷻ - إليهم من الأوامر والنواهي وجميع التكاليف الشرعية ببراهينها وحججها حتى تكون واضحة "وحيث إن الإنسان بنفسه لا يستطيع أن يعرف هذه الأمور على وجه صحيح سالم من الخطأ، لأنها فوق قدرة العقل، فقد اقتضت حكمة الرب ورحمته بالإنسان أن يرسل بالبشر رسلاً من جنسهم، يكلمونهم بلغتهم، ويبلغونهم رسالات ربهم، ويعرفونهم به، ويبينون لهم طرق الوصول إليه، وما يسعدون به في حياتهم وأخراهم"[٤]، ليقطع الحجة عليهم بهذا البلاغ المبين، فإذا ضل الناس عن الطريق المستقيم، وركبوا طريق الضلالة بعد ذلك، فلا حجة عندهم ولا معذرة لديهم، فالله - ﷻ - بين في قرآنه، أنه ما خلت أمة من الأمم إلا جاءها رسول من عنده ليهديها سواء السبيل، وليبين لها سبل نجاتها، ويحذرها من طرق الغواية والهلاك، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾[٥]،

---

(١) سورة فصلت الآية "٦".

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ٤٠٢/١، رقم ٥٧٢.

(٣) سورة ص الآية "٤".

(٤) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٢٦.

(٥) سورة فاطر من الآية "٢٤".

فمهمة الرسل جميعاً هي: القيام بالبلاغ الواضح المبين لأحكام الله – ﷻ –، وأنهم ما جاءوا بشئ من عند أنفسهم، بل يؤدون ما حملوا من الأمانة، وبلغوا ما أرسلوا به من قبل ربهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾(١)، "إنه الإبلاغ الموضح للحق، فمن تمسك بما جاءوا به فهو على صواب، ومن أعرض عنه فهو على ضلال، ولا ينفعه تمسكه بالحقيقة من غير اتباع الشريعة"(٢)، ولقد قام هؤلاء الأنبياء – عليهم السلام – بتبليغ رسالات ربهم على الوجه الأكمل، ووقفوا حياتهم للدعوة والبلاغ، وما فرطوا في شئ من ذلك، ولقد أثنى الله – ﷿ – على الرسل في تبليغهم رسالات ربهم رغم استهزاء الناس بهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾(٣).

- وكان الرسل الكرام يعلنون لأقوامهم أنهم جاءوا ليبلغوهم رسالات ربهم، والتي تحمل الأحكام والمبادئ التي تؤدى إلى سلامتهم من الضلال والانحراف، ولقد بذل الرسل – عليهم السلام – كل المستطاع في سبيل هدايتهم إلى الطريق السوى، فسيدنا نوح – ﵇ – لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يبلغهم رسالات ربه، ويدعوهم إلى النجاة والهداية، حتى إنه أعلنها صريحة لهم فاتهموه بالضلال فقال – ﷿ –: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٤)، "أي: أبلغكم كل ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة"(٥)، ولكن المانع لهم من الدخول في دعوته، ليس لقصور في التبليغ، وأداء الرسالة، ولكنه التعنت والإصرار والاستكبار الذى بلغ مداه، فهو لم يتوان في تبليغهم وحى الله – ﷻ – وكل ما جاء من عنده، أما هداية القلوب إلى الحق وتوفيقها لقبوله، فهذا ليس بعمل الأنبياء لأن مهمتهم هي البلاغ فقط، ولقد أكد سيدنا إبراهيم – ﵇ – لقومه أنه لا يستطيع هدايتهم إلا بإذن الله – ﷻ –، لأن مهمته هي البلاغ

---

(١) سورة المائدة الآية "٩٩".

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد المهدى، بن عجيبة الحسنى الأنجري الفاسي الصوفي، المتوفى سنة ١٢٢٤هـ، تحقيق أحمد بن عبدالله القرشي رسلان، الناشر د/ حسن عباس زكى، القاهرة، ط ١٤١٩هـ، ج٣، صـ١٢٦.

(٣) سورة الأحزاب الآية "٣٩".

(٤) سورة الأعراف الآيات "٦١ – ٦٢".

(٥) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٧، صـ٤١٩٤.

فقط، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(١)، وسواء أكان هذا الكلام مخاطباً به قوم سيدنا إبراهيم – عليه السلام –، أو أمة رسول الله – ﷺ –، فهو بيان لوظيفة الرسل والأنبياء جميعاً – عليهم السلام – وهي: البلاغ الذى لا غموض فيه ولا لبس لهداية الناس إلى منهج الله – سبحانه وتعالى – وإرشادهم إلى الحق والهدى، وهذا يتضح أيضاً في أمر الله – عز وجل – له بأن يؤذن في الناس بالحج، فقال – عز وجل – : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾(٢).

- إن الله – عز وجل – أمر سيدنا موسى – عليه السلام – بالذهاب إلى فرعون ليبلغه رسالة ربه، ولعظم هذه المهمة، فقد طلب من ربه شرح الصدر حتى يبلغ ما أُمر به على أكمل وجه، ولأن من شرح الله – سبحانه وتعالى – له صدره فهو على نور من ربه، ثم طلب منه تيسير الأمر لضمان نجاح المهمة، وأن يحلل له عقدة من لسانه حتى يفقه بنوا إسرائيل كلامه، ثم طلب من الله – سبحانه وتعالى – أن يعينه بأخيه هارون – عليه السلام – فيكون معيناً له ومثبتاً ومصدقاً، كل ذلك لعظم مهمة البلاغ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾(٣)، فبهذه الأمور يقوم بتنفيذ مهمته على أكمل وجه، ويكون قد "استعد موسى – عليه السلام – للبلاغ، وأحل الله له عقدة من لسانه، وأرسل معه أخاه، وذلك حتى تصل دعوته إلى الناس بينة واضحة، مفهومة، كما قال – عليه السلام –، وهو يطلب من ربه المعونة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱجْعَل لِّي ﴾، ذلك أن غاية الرسالة البلاغ، والبلاغ يعنى الوصول إلى المراد، وبذل ما يكفى لتحقق المطلوب في صورة عادية يقال: بلغ الغلام إذا وصل إلى زمن التكليف والمسؤولية"(٤)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾(٥).

---

(١) سورة العنكبوت الآيات "١٦ – ١٨".

(٢) سورة الحج من الآية "٢٧".

(٣) سورة طه الآيات "٢٤ – ٣٦".

(٤) دعوة الرسل، غلوش، مرجع سابق، صـ٣٧٦.

(٥) سورة الأحقاف من الآية "١٥".

- ولقد بلغ المسيح – عليه السلام – ما أمره الله – عز وجل – بتبليغه على أكمل وجه، دون زيادة أو نقصان، وأنه عبد من عباد الله – تعالى – الذين أرسلهم إلى الناس للقيام بمهمة التبليغ لما أمره الله بتبليغه، فقال: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١]، وفي هذا الجواب من سيدنا المسيح – عليه السلام – "إشارة إلى أن المسيح مأمور، وأنه لا يقول شيئاً من عنده، وإنما هو رسول يبلغ ما أمره به ربه، وقد بلغ رسالة ربه كما أمره بها"[٢]، ولم يتجاوز حد التبليغ لما أمر به من الله.
- ولقد بين الله – عز وجل – ان مهمة النبي – صلى الله عليه وسلم – هي البلاغ والبيان، وليس عليه إلا أن يؤدى الرسالة، وبعد ذلك يكون كل واحد مسئولاً عن نفسه، وأما الهداية فلا يملكها إلا الله – تعالى –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾[٣]، فمهمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يكشف للناس الطريق إلى الله – تعالى – من أجل صلاح الناس، وليس قهرهم وجبرهم على الخير الذى يحمله إليهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[٤]، وذلك لصيانة حركة الحياة بمنهج الله – عز وجل – والذى فيه صلاح البشرية، ووقايتها من الخسران والضلال.

٣- الأمر باتباعهم وطاعتهم فيما جاءوا به

لقد اصطفى الله – عز وجل – الرسل – عليهم السلام –، وأنزل عليهم وحيه وشرعه، وأمرهم بتبليغه للناس فقاموا به على أكمل وجه، وأحسن صورة، فالرسل – عليهم السلام – هم الهداة إلى الصراط المستقيم – ولأجل هذا أمر الله – عز وجل – العباد بطاعتهم، وأوجب عليهم اتباعهم فيما أمروا به، أو نهوا عنه، وتصديقهم فيما جاءوا به من قبل ربهم، وحذر من مخالفتهم وعصيانهم، وجعل طاعتهم لازمةً لكل من آمن بالله – عز وجل –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٥]، فطاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – واجبة على المؤمنين بمقتضى هذا النداء الايماني، وهذا من

---

(١) سورة المائدة الآية "١١٧".

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، مرجع سابق، ج٤، صـ٨٣ وما بعدها.

(٣) سورة الرعد الآية "٤٠".

(٤) سورة النور الآية "٥٤".

(٥) سورة النساء الآية "٥٩".

مقتضيات الإيمان، لأن المؤمن لا يستحق أن ينادى بهذا الوصف إلا بعد أن يطيعه فيما جاء بعده، من طاعة الله – ﷻ –، وطاعة رسوله – ﷺ –، ومما يزيد الأمر تأكيداً، تكرار كلمة (أطيعوا) مع الله – ﷻ –، ومع رسوله – ﷺ –، فطاعة الرسول – ﷺ – مطلوبة تماماً، كطاعة الله – ﷻ –، بينما لم تكرر مع أولى الأمر، لارتباطها بطاعتهما، ثم علق الإيمان بالله – سبحانه وتعالى – على طاعته وطاعة رسوله – ﷺ – وأولى الأمر، ورد التنازع إلى الله – سبحانه وتعالى – ورسوله – ﷺ –، ثم بين أن هذه الأمور هي الخير والأفضل للبشرية، لأنها جماع كل خير، ومصدر كل سعادة، فلا تستقيم أمور الحياة بدونها، ولذلك فقد أوجب الله – سبحانه وتعالى – طاعة الرسل – عليهم السلام – واتباعهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾(١)، "أي: وما أرسلنا رسولاً من الرسل لشئ من الأشياء، إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى، في طاعته وأمره المرسل إليهم، بأن يطيعوه، ويتبعوه لأنه مؤد عنه تعالى، فطاعته طاعة الله – تعالى –، ومعصيته معصيته – تعالى –، (من يطع الرسول فقد أطاع الله)، أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه في طاعته"(٢)، فالله – ﷻ – ما أرسل رسولاً من الرسل لا لشئ من الأشياء إلا للإتباع والطاعة بأمر الله – ﷻ –، لأن الطاعة في الحقيقة هي طاعة لله – سبحانه وتعالى –، وإذا تأملنا دعوة أولى العزم من الرسل فضلاً عن دعوة الرسل والأنبياء جميعاً، لوجدناها تدعوا صراحة إلى طاعة الله ورسوله وذلك بامتثال الأوامر، واجتناب المنهيات فدعوتهم واحدة إلى طاعة الله ورسوله – ﷺ – لوقايتهم من عذاب الله.

- فها هو سيدنا نوح – عليه السلام – يدعو قومه صراحه إلى إتباعه فيما جاء به من قبل الله – سبحانه وتعالى – على سبيل الرشاد، وطاعته فيما دعاهم إليه حتى يستقيموا ويعتدلوا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٣)، "أي: اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه، وأطيعوه فيما أمركم به عن الله من الإيمان به، وترك الشرك، والقيام بفرائض الدين"(٤)، ثم كرر عليهم الأمر بالتقوى والطاعة لأمره، ثانية للتأكيد على وجوب طاعتهم، ولقد اتفقت

---

(١) سورة النساء من الآية "٦٤".
(٢) تفسير أبى السعود، مرجع سابق، ج٢، صـ١٩٦.
(٣) سورة الشعراء الآيات "١٠٥ – ١١١".
(٤) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٤، صـ١٢٦.

دعوتهم جميعاً في دعوة الناس إلى التقوى وطاعة الرسول، ولقد جعل الله – ﷻ – الطاعة واجبة لسيدنا نوح – ﷺ –، ثم علق على ذلك مغفرة الذنوب، لأن طاعته طاعة لله – ﷻ – فهو المبلغ عن ربه، فقال – ﷻ –: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[١]، فقد جعل الله – ﷻ – عبادته وحده وتقواه، وطاعة رسوله – ﷺ – سبباً لنجاتهم ومغفرة ذنوبهم، ليكونوا في وقاية من المهالك.

- لقد ذكر سيدنا إبراهيم – ﷺ – أباه أنه جاءه من علم الله – ﷻ – ووحيه ما لم يأته، ولذلك فهو جدير بالإتباع والطاعة، لأن العبرة بإتباع من جاءه وحى الله – ﷻ –، والذى فيه استقامة الإنسانية، قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾[٢]، لأنه جاءه بالحق من عند الله – ﷻ – الهادي إلى سواء السبيل.
- إن سيدنا موسى وهارون – عليهما السلام – حينما ذهبا إلى فرعون بأمر الله – ﷻ – ليرسل معهما بنى إسرائيل، بيَّنا له أن السلامة والاستقامة حاصلة لمن اتبع رسل الله –ﷻ–، وصدق بالآيات التي جاءوا بها من عند الله – ﷻ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[٣]، "فلقد أرسل الله الرسل لإرشاد الناس إلى المنهج الصحيح في العقيدة والعبادة والخلق، وأوجب على الناس طاعتهم، والخضوع إلى الله رب العالمين"[٤]، وهذا يقتضى حصول السلامة والاهتداء لمن اتبع هدى الله – ﷻ – الذى جاء به سيدنا موسى وهارون – عليهما السلام –، وهذا ما بينه مؤمن آل فرعون لقومه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٥]، وهو متبع لسيدنا موسى وهارون – عليهما السلام – وأمرهما باتباعه في الإيمان بهما وطاعتهما لأن في ذلك الهداية والرشاد.

---

(١) سورة نوح الآيات "١ – ٤".
(٢) سورة مريم الآية "٤٣".
(٣) سورة طه الآيات "٤٧ – ٤٨".
(٤) دعوة الرسل إلى الله تعالى، غلوش، مرجع سابق، صـ٥٣٣.
(٥) سورة غافر الآية "٣٨".

- إن دعوة سيدنا عيسى – عليه السلام – كانت تتجه إلى تقوى الله – سبحانه وتعالى – وإتباعه وطاعته – عليه السلام – في المنهج الذى رسمه لهم ووجههم إليه، فقال – عز وجل – على لسانه: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(١)، لقد أمرهم بتقوى الله – سبحانه وتعالى – واتباعه وطاعته فيما يبلغهم به من الشرائع والتكاليف، ومنها عبادة الله – عز وجل –، وحده لأن ذلك هو الطريق القويم الذى لا اعوجاج فيه.
- وفى دعوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – جاءت آيات كثيرة تأمر باتباعه وطاعته، ففيهما الخروج من الضلال إلى الهدى، لأنه يدعو إلى صراط الله المستقيم، فلا سبيل لهداية البشرية إلا باتباعه، وطاعته فيما جاء به عن ربه – عز وجل –، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(٢)، أي: "وان تطيعوا – أيها الناس – رسول الله – فيما يأمركم وينهاكم – ترشدوا وتصيبوا الحق في أموركم"(٣)، ومن أصاب الحق فقد فاز، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٤)، فسعادة الناس ونجاتهم متعلقة بطاعة الله – عز وجل – ورسوله – صلى الله عليه وسلم –، لأن طاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – طاعة لله – عز وجل – وهذا هو ما أكده النبي – صلى الله عليه وسلم –، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني"(٥)، إن قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: "(من أطاعني فقد أطاع الله)، هذه الجملة منتزعة من قوله تعالى: (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله)، أي: إني لا آمر إلا بما أمر الله به، فمن فعل ما آمره به فإنما أطاع من أمرني أن آمره، ويحتمل أن يكون المعنى، لأن الله أمر بطاعتي، فمن أطاعني فقد أطاع أمر الله له بطاعتي، وفى المعصية كذلك، والطاعة هي الإتيان بالمأمور به، والانتهاء عن المنهى عنه، والعصيان بخلافه"(٦).

---

(١) سورة آل عمران الآيات "٥٠ – ٥١".

(٢) سورة النور الآية "٥٤".

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج١٩، صـــ٢٠٧.

(٤) سورة الأحزاب الآية "٧١".

(٥) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم"، ٩/٦١، رقم ٧١٣٧، ورواه مسلم، كتاب الامارة، باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ٣/١٤٦٦، رقم ١٨٣٥، "متفق عليه".

(٦) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج١٣، صـــ١١٢.

ومن هنا يتضح أن دعوة أولى العزم من الرسل، جاءت مشتملة على الأمر بطاعتهم واتباعهم، وقاية لهم من الضلال والزيغ المؤدى إلى عذاب الله – ﷻ –.

ثالثاً: أثر الإيمان بالرسل في الوقاية من الانحراف

إن الإيمان برسل الله – ﷻ – وأنبيائه – عليهم السلام – يهدف إلى: تربية الإنسان على الاستجابة لهم، وأهمية الاقتداء بهم، صيانة لهم من الضلال والانحراف، فالإنسان ليس في مقدوره معرفة الخير ليعمل به، والشر لاجتنابه، معرفة صحيحة كاملة، إلا عن طريق الرسل عليهم السلام، لأن معانى الخير والشر قد تختلف من عقل لآخر، حسب ميوله وقدراته، وقد تختلف من زمن لآخر، حسب التطورات والتعليمات، "ومن ها هنا نعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح، لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدى الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البته إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال، والأقوال ليس إلا هديهم، وما جاءوا، فهم الميزان الراجح الذى على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير"(١)، وقاية له من التقصير في عبادة ربه – ﷻ –، وحماية له من التشتت، وعدم تنظيم أمور حياته، أما إذا خالفوا ما جاء به الرسل – عليهم السلام – من قبل ربهم فإن الضعف والهزيمة سيحلان بهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾(٢)، وخير دليل على ذلك ما كان من أمر الرماة في غزوة أحد، حينما خالفوا أمر رسول الله – ﷺ –، حتى كان لهذه المخالفة أثرٌ سئ عليهم فكانت سبباً لهزيمتهم وضعفهم في بداية الأمر، ليعلموا أن الطاعة والانقياد لأمر رسول الله – ﷺ – "هو سبب للفوز والفلاح، فهو مبلغ عن ربه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾(٣)، وهذا

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ج١، ص٦٨ وما بعدها.

(٢) سورة الأحزاب من الآية "٧١".

(٣) سورة طه الآيات "١٢٣ – ١٢٦".

درس لتربية النفوس البشرية على وجوب طاعة الله – ﷻ – ورسله – عليهم السلام – فيما جاءوا به من قبل ربهم لتحظى بالفلاح والنجاح والهداية، وتكون في أمن من الهزيمة والضعف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[١]، إن الإيمان بالرسل – عليهم السلام – وطاعتهم فيما جاءوا به، وقاية للإنسان من خسران الأعمال وبطلانها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[٢]، أي: "ولا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول، كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه"[٣]، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[٤].

حينما رجع سيدنا موسى – ﷺ – من الميقات وجد بني إسرائيل عاكفين على عبادة العجل، الذى صنعه السامري[٥] من حلى المصريين، وجعلوه إلهاً يعبد من دون الله – ﷻ –، فضلوا وفتنوا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾[٦]، ولقد بين لهم سيدنا هارون – ﷺ – أن هذه فتنة وقعوا فيها، وأنهم ضلوا عن الطريق الصحيح، ولا مخرج ولا منجى لهم منها إلا بإتباعه وطاعته فيما جاء به عن الله – ﷻ –، فهو الإله الحقيقي المستحق للعبادة وحده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن

([١]) سورة الصافات الآيات "١٧١ – ١٧٣".
([٢]) سورة محمد الآية "٣٣".
([٣]) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢٨، صـ٦١.
([٤]) سورة الحجرات الآية "٢".
([٥]) "كان رجلاً صالحاً من أهل باجرمي واسمه ميخا، وقال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان، وقال ابن عباس: اسمه موسى بن ظفر، وقال قتادة: كان من بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة، ورأى موضع قدم الفرس تحضر من ذلك، وكان منافقاً أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر، فلما رأى جبريل على ذلك الفرس، فقال: إن لهذا لشأناً وأخذ قبضة من تربة حافر فرس جبريل – ﷺ –"، تفسير البغوي، مرجع سابق، ج١، صـ١١٦.
([٦]) سورة طه الآيات "٨٦ – ٨٨".

قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴾[١]، لأن "الإيمان بالرسل يستهدف تنمية اليقين عند الإنسان بأهمية الاستجابة لرسالاتهم، وأهمية الاقتداء بهم، وأثر هذا في حفظ النوع البشري ورقيه، وصيانة المؤمنين من ضلالات شياطين الإنس الذين ينتهون بالإنسان إلى الكفر والفسوق والتخلف، والانحلال والهلاك"[٢].

وسيدنا إبراهيم – عليه السلام – سماه الله – عز وجل – صديقاً، فقال: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾[٣]، وقد سماه الله – عز وجل – صديقاً من "فرط صدقه، وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل، أي: كان مصدقاً بجميع الأنبياء، وكتبهم، وكان نبياً في نفسه"[٤]، كقوله تعالى: ﴿ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[٥]، من أجل هذا الصدق نجاه الله – عز وجل – من المهالك، فقد نجاه من النيران حينما ألقى فيها مقيداً مكتوفاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾[٦]، لأنه كان في معية الله – تعالى – ومن كان في معية مولاه كان في وقاية من المهالك، فالإيمان بالرسل – عليهم السلام – له دور كبير في الوقاية الحسية والمعنوية.

---

(١) سورة طه الآية "٨٦".

(٢) أهداف التربية الإسلامية، ماجد الكيلاني، مرجع سابق، صـ٢٣٠.

(٣) سورة مريم الآية "٤١".

(٤) تفسير الزمخشري، مرجع سابق، ج٣، صـ١٨.

(٥) سورة الصافات الآية "٣٧".

(٦) سورة الأنبياء الآيات "٦٨ – ٧٠".

المبحث الخامس

التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر

أولاً: المراد باليوم الآخر

اليوم في اللغة معناه: "الياء والواو والميم كلمة واحدة هي اليوم الواحد من الأيام، ثم يستعيرونه في الأمر العظيم"(١).

والآخر "الهمز والخاء والراء أصل واحد إليه ترجع فروعه وهو خلاف التقدم"(٢).

واليوم الآخر هو: "يوم القيامة وأوله من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى على الصحيح، وقيل: إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار"(٣)، فهو متأخر عن أيام الدنيا، ويأتي بعد الموت، وليس بعده يوم آخر "وسمي باليوم الآخر لأنه آخر أيام الدنيا بمعنى: أنه متصل بآخر أيام الدنيا، لأنه ليس منها حتى يكون آخرها، وسمي بيوم القيامة: لقيام الناس فيه من قبورهم، وقيامهم بين يدي خالقهم، وقيام الحجة لهم وعليهم، وله نحو ثلاثمائة اسم"(٤)، منها يوم القيامة، اليوم الآخر، يوم الصاعقة، يوم الخلود، يوم التناد، وغيرها من الأسماء.

والمراد بالإيمان باليوم الآخر هنا: "التصديق بأخبار الله – تعالى – بفناء هذه الحياة الدنيا، وبما يسبقه من أمارات، وما يتم فيها من أهوال واختلاف أحوال، كما هو مقتض كذلك لتصديق الله – تعالى – في إخباره عن الحياة الآخرة، وما فيها من نعيم وعذاب، وما يجري فيها من أمور عظام، كبعث الخلائق، وحشرهم، وحسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية والاختيارية التي قاموا بها في الحياة الدنيا"(٥).

وعلى ذلك فيدخل في الإيمان باليوم الآخر كل ما يسبقه من علامات، وكل ما يكون بعد الموت كعذاب القبر ونعيمه، وأهوال القيامة، وما فيها من بعث وحشر وصحف، وميزان وحسنات وجنة ونار.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٦، صـ١٥٩.

(٢) المرجع سابق، ج١، صـ٧٠.

(٣) تحفة المريد على جوهرة التوحيد، البيجوري، مرجع سابق، صـ٢٨٨.

(٤) نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، مرجع سابق، صـ١٩١.

ثانياً: التوجيهات الوقائية المستفادة من دعوة أولى العزم من الرسل في جانب الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر من القضايا العقدية، والتي لا يكمل إيمان العبد إلا بها، والقرآن الكريم اعتنى بمشاهد يوم القيامة، وصورها لنا تصويراً دقيقاً رائعاً، كأننا نراه ونشاهده، فأخبر الله – ﷻ – أنه سيأتي يومٌ لابد وأن ينتهي فيه الوجود، ليأتي يوم آخر للحساب فيه والجزاء، وهذا أمر يجعل الانسان مستقيماً حق الاستقامة، ولذلك قد كان هناك بعض التوجيهات الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في جانب هذا اليوم وهي:-

١- حرصهم على الإنذار بيوم القيامة

لقد أرسل الله – ﷻ – الرسل مبشرين ومنذرين، يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة، والعزة والتمكين في الحياة الدنيا، وبجنات رب العالمين في الآخرة، وينذرون العصاة من عذاب الدنيا والآخرة، إذا ظلوا على ما هم عليه من الضلال، والإعراض عما جاء به الرسل – عليهم السلام – من قبل الله – ﷻ – لهدايتهم، ولقد اقتضت حكمة الله – ﷻ – أن يكون هناك يوم آخر بعد انتهاء حياة الإنسان في الدنيا، ليرى ما قدم في الأيام الخالية، فمن آمن بالله – ﷻ – وعمل صالحاً فله الجنة خالداً فيها، ومن كفر وأعرض عن هديه الذى جاء به الرسل – عليهم السلام – من عند الله – ﷻ –، فله النار، ولذلك فقد جاء جميع الرسل لينذروا أقوامهم من عذاب يوم القيامة، ليلتزم الإنسان بالعمل الصالح ويبتعد عن العمل الطالح الذى يعرضه لهذا العذاب، ولقد أخبر الله – ﷻ – عن أهل النار، أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١)، ولقد شاء الله – ﷻ – أن يجعل هذا اليوم من الأمور الغيبية التي استأثر بها علمه – ﷻ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) فلا يطلع عليها أحد من البشر، حتى يكون الناس على حذر دائم، وتوقع مستمر لهذا اليوم، ولكى ينزجر الظالم عن ظلمه، فلا ينتهك حقوق الآخرين، لذلك فقد بعث الله – ﷻ – الرسل – عليهم السلام – مبشرين ومنذرين، حتى تنقطع المعاذير بعد إيضاح المنهج الحق، وبيان السلوك المستقيم للبشرية،

---

(١) سورة الزمر الآية "٧١".

(٢) سورة الأعراف الآية "١٨٧".

فيستعد الناس لذلك اليوم، فيبتعدوا عن الأمور السيئة التي تعرضهم لسخط الله – ﷻ – وعذابه في اليوم الآخر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١]، فالإنذار باليوم الآخر له أثر عظيم في توجيه الإنسان الوجهة الصحيحة، والتزامه بالمداومة على العمل الصالح، أو وضع حد لما يقع الناس فيه من الانحراف الذى يؤدى بهم إلى غضب الله – ﷻ – وعذابه في الدنيا والآخرة "وهكذا يكون التبشر والإنذار لتتقي الشرور، وتأخذ الخير، وبذلك يحيا الإنسان في التقوى التي تؤدى إلى الرحمة"[٢]، ولقد أكثر الرسل – عليهم السلام – من إنذار أقوامهم من عذاب يوم القيامة، وعاقبة ما هم عليه من الأمور السيئة حتى يبتعدوا عنها، ويلتزموا طريق الجادة والاستقامة، وقد كثر التذكير به، لكثرة نسيان الناس له، وغفلتهم عنه بسبب ركونهم إلى الدنيا، وتثاقلهم إلى الأرض وغفلتهم عن عذابه، وما يحدث فيه من الأهوال، فوقعوا في الانحراف والضلال.

- فها هو سيدنا نوح – عليه السلام – يحذر قومه وينذرهم من عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة، منذ اللحظة الأولى من دعوته، إذا هم لم يستجيبوا لما جاء به من الهدى، ليستقيموا على الطريقة التي يوجههم إليها، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، ولقد أكد هذا التخويف بأكثر من أداة توكيد (إن)، و (عليكم) وتنكير العذاب، ووصفه بالعظم، والتخويف لأجل المصلحة والاستقامة عادة لا يكون إلا من إنسان محب يرجو الخير لمن يخاف عليه، فالأمر الثاني الذى دعاهم إليه سيدنا نوح – عليه السلام – هو الإيمان باليوم الآخر، بعد الإيمان بالله – ﷻ –، بطريقة فذة توقظ القلب والعقل لتؤمن به وذلك عن طريق إنذارهم بعذاب هذا اليوم "وكون المراد هو عذاب يوم القيامة، لا يمنع حدوث العذاب الذى أنذرهم به سيدنا نوح – عليه السلام – وخاف عليهم من وقوعه"[٤]، ولكن أعظم العذاب ما يكون يوم القيامة قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٥]، فالخسارة في الآخرة هي الخسارة الحقة، والعذاب فيها لا يعدله عذاب، والقرآن الكريم، كثيراً ما يربط بين دعوة

---

(١) سورة الأنعام الآية "٤٨".

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٧، صـ٤٢٠٣.

(٣) سورة الأعراف الآية "٥٩".

(٤) دعوة الرسل، غلوش، مرجع سابق، صـ٥٣٥.

(٥) سورة طه من الآية "١٢٧".

البشر إلى عبودية الله - ﷻ - وحده، وبين الإيمان بيوم القيامة، والتحذير من أهواله، وكذلك الإشارة إلى عذاب يوم عظيم في القرآن، إذا أطلقت، فعادة ما ينصرف إلى يوم القيامة، لأنه أعظم وأشد، ولقد ذكر لهم سيدنا نوح - عليه السلام - ما سيلاقونه من العذاب الدنيوي الدائم الذى يخزى الكافرين، قال تعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - حينما سخر الملأ منه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[1]، "وهنا ينبغي أن نقف وقفة لها مغزاها عند قوله: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾، لننبه القارئ إلى أن من العذاب ما هو مشرف لذات المعذب، رافع له فوق الهامات، كالعذاب الذى يحل بالرسل عند قيامهم بواجبهم، وعذاب المصلحين وأرباب المبادئ الحقة، حينما يدعون الناس إلى عقائدهم، فأولئك عذابهم مُرٌّ على الأجسام، حلو على القلوب، عذابهم رفع لدرجاتهم، وتمحيص لنفوسهم، وهو عذاب المجاهدين في سبيل الله والمقاتلين لإعلاء كلمته، يتقدم إليهم المؤمنون، ويسارع إليه المخلصون، لا لأنه حلو المذاق، لذيذ الطعم، بل لأن من ورائه من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذاك هو العذاب الذى يجعل صاحبه مثلاً كاملاً في الفضيلة، ونكران الذات، أما عذاب أعداء الحق، وحزب الشيطان، وأنصار الشهوة والهوى فذلك هو العذاب الذى يخزى صاحبه، ويفضح من وقع به، ذلك هو عذاب أعداء الرسل وخصوم الحق"[2].

- إن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - كان يخشى على أبيه آزر مغبة الشرك، فخوفه تخويف المشفق عليه، وأنذره بعذاب الله - ﷻ - إنذار المتلطف معه، فيقول - عز وجل -: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾[3]، فسيدنا إبراهيم - عليه السلام - يخشى عاقبة ما كان عليه الأب من عبادة غير الله - ﷻ - "ويبين لأبيه أن الله هو الرحمن، ولذلك فطاعة الشيطان الداعي إلى الشرك عصيان لله، وقد تؤدى المعصية إلى عذاب من الله، وهو أمر يخافه إبراهيم على أبيه ولو كان مَسًّا خفيفاً، ولذلك فهو ينصحه"[4]، ولقد أنذر سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قومه أيضاً بعذاب يوم القيامة، حينما دعا ربه أن يجعل البلد الحرام بلد أمنٍ واستقرارٍ، وأن يرزق أهله المؤمنين بالله واليوم الآخر من الثمرات، فبين الله - عز وجل - له أن الرزق يعم المؤمن والكافر، ولكن متاع الكافر محدود وقليل،

---

(1) سورة هود الآية "٣٩".

(2) دعوة الرسل، العدوى، مرجع سابق، صـــ٩.

(3) سورة مريم الآية "٤٥".

(4) دعوة الرسل، غلوش، مرجع سابق، صـــ١٢١.

لأنه سيساق إلى النار بعد الممات سوقاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[١]، "أي: أن الله – ﷻ – يحذر الكافرين بأن لهم النار والعذاب في الآخرة، ليس على اختيار منهم، ولكن وهم مقهورون"[٢].

- وفى دعوة سيدنا موسى – عليه السلام – يذكر الله – ﷻ – أن السحرة حذروا فرعون، وأنذروه بعذاب الله – ﷻ – ونقمته يوم القيامة، حتى يرجع عن ظلمه وجبروته، فقالوا له حينما هددهم بالقتل والصلب: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[٣]، إن هذه الآيات التي تتحدث عن الحوار الذى دار بين المؤمنين بسيدنا موسى – عليه السلام – وبدعوته، وبين فرعون، إن دلت على شئ فإنما تدل على أن الإيمان باليوم الآخر قد وقر في نفوسهم، وتغلغل في قلوبهم، لدرجة أنهم لا يخشون فرعون وعذابه، وهذا ناتج عن إيمانهم بربهم وإنذارهم من عذاب يوم القيامة، ولذلك فقد خوفوه به فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[٤]، وسواء أكان هذا الكلام من تتمة كلام السحرة لفرعون، أو هو كلام مستأنف فإنه يدل على الإنذار بعذاب اليوم الآخر، ليقي المؤمن من الإجرام والظلم.

إن مؤمن آل فرعون حذر كذلك قومه من عذاب يوم القيامة بعد أن حذرهم من العذاب الدنيوي فيقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٥]، إن لشدة اليقين والإيمان بيوم القيامة "يوضح الرجل لقومه أنه يخاف عليهم من عذاب يوم القيامة، حيث لا قوة إلا لله، وحيث لا يرى الظالمون نصيراً، أو معيناً، ينادى بعضهم بعضاً ولا مجيب، ويفرون من العذاب، لكن إلى عذاب آخر أشد وأنكى، لأن يوم الآخرة، يوم شديد، لا

---

(١) سورة البقرة الآية "١٢٦".

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١، صـ٥٨٤.

(٣) سورة طه الآيات "٧٢ – ٧٤".

(٤) سورة طه الآية "٧٤".

(٥) سورة غافر الآيات "٣٢ – ٣٣".

ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم[١]"[٢]، وهذا تحذير من بأس الله – ﷻ –، وتخويف من أهوال يوم القيامة.

- إن القرآن الكريم يخبر عن سيدنا عيسى – عليه السلام – أنه عبد أنعم الله – سبحانه وتعالى – عليه بالرسالة والاصطفاء، كما أنعم على أمه الصديقة بالطهارة والاجتباء، وجعله وأمه آية للناس، ودليلاً على كمال القدرة، وسعة السلطان، ثم توعد الذين كفروا برسالته بما ينالهم عند شهود يوم الجزاء، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٣].

لقد سأل الحواريون سيدنا عيسى – عليه السلام – أن يسأل ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء لتكون لهم آية، فسأل ربه تعالى، فأخبره أنه سيرسلها عليهم ثم أخبر بما يفعله إن لم يؤمنوا، فقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٤]، وهذا على سبيل الوعيد والتهديد والتخويف.

- وفى دعوة سيدنا محمد – ﷺ – يحذر القرآن الكفار من عذاب يوم القيامة ويخوفهم منه، فهو قريب منهم، وكل إنسان سيرى ما عملت يداه في الدنيا، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً، وسوف يجازيهم على أعمالهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾[٥]، إن هذا الإنذار بعذاب يوم القيامة للحث على فعل الخيرات وطلب النجاة من هول العذاب وذلك بإتباع ما جاء به النبي – ﷺ –، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[٦]، "أي: حذرتكم وخوفتكم ناراً تتوقد وتتوهج"[٧]، وأن الله – ﷻ – أنذر الناس بالنار، التي تلتهب بمن يكذب رسول الله – ﷺ –، وأعرض عن اتباع هدية، وأصر على فجوره وكفره، ولكن يستبعد من هذه النار، الأتقى الذى بالغ في وقاية نفسه من كل ما يغصب الله – سبحانه وتعالى – عليه، وهذا الإنذار جاء بعد أن بين الله – ﷻ – للخلق طرق الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فالله – ﷻ – أنذر عباده من عذاب يوم القيامة، على يد رسله الكرام، لكى يتوجه الناس إلى طريق الاستقامة، والتزام العمل الصالح.

---

(١) سورة الشعراء الآية "٨٨".

(٢) دعوة الرسل، غلوش، مرجع سابق، صـ٣١١.

(٣) دعوة الرسل، العدوى، مرجع سابق، صـ٣٥٧.

(٤) سورة المائدة الآيات "١١٩".

(٥) سورة النبأ الآية "٤٠".

(٦) سورة الليل الآيات "١٤ – ١٦".

(٧) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٥، صـ٥٥٢.

٢- التأكيد على حتمية ترك الدنيا والخروج منها للعرض والمؤاخذة

إن الإنسان مهما طال عمره في الدنيا فلابد أن يتركها بالموت، ليرى ما قدمت يداه فيها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[١]، ومن علم أنه سيرجع إلى ربه، ليقف بين يديه للحساب والمؤاخذة، فإن ذلك سيجعله يستقيم على طريق الجادة، ويبتعد عن الرذائل، ويتربى على الفضائل والخيرات، والمتأمل في دعوات أولى العزم من الرسل – عليهم السلام –، سيجد أنهم بينوا لأقوامهم أنه لابد من ترك الدنيا والخروج منها للعرض والمؤاخذة.

- ففي دعوة سيدنا نوح – عليه السلام –، اشترط الملأ من قومه لكى يتبعوه، ويجالسوه، أن يطرد الفقراء من حوله، إلا إنه – عليه السلام – رفض ذلك، ونبههم إلى أنهم إلى الله صائرون، فيجازيهم على إيمانهم، فقال: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾[٢]، "أي: لا أطردهم، فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم، فهو يجازيهم على إيمانهم، لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه"[٣]، وقد أكد لهم سيدنا نوح – عليه السلام – حتمية هذا الرجوع، والوقوف بين يدى الله – عز وجل – مرة أخرى، حينما استدل بمظاهر قدرة الله – عز وجل – من أجل إيمانهم، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾[٤]، فالإنسان يخرج من قبره بعد الممات إلى الحياة الأخرى، والحساب والجزاء على ما قدمت يداه في الحياة الدنيا.
- ولقد ذَكَّر سيدنا إبراهيم – عليه السلام – قومه بالحياة الآخرة، والامتثال بين يدى علام الغيوب يوم القيامة، حتى يحيى في نفوسهم عقيدة البعث والجزاء، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسئ بإساءته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[٥]، أي: "إلى الله تردون من بعد مماتكم، فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره، وأنتم عباده وخلقه، ومن نعمته تتقلبون،

---

(١) سورة البقرة الآية "٢٨١".

(٢) سورة هود من الآية "٢٩".

(٣) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٢، صـ٥٦١.

(٤) سورة نوح الآيات "١٧ – ١٨".

(٥) سورة العنكبوت الآيات "١٦ – ١٧".

ورزقه تأكلون"(١)، فسيدنا إبراهيم - عليه السلام - قد كشف لقومه، أنه لا مفر من ترك الدنيا والخروج منها ليحاسبهم على ما قدموا، فجدير بهم أن يعبدوا الله - سبحانه وتعالى -، ويتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان والكواكب، ولذلك فقد كان من دعائه وأصحابه، كما أخبر القرآن الكريم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢)، فالمرجع والمصير إلى الله - سبحانه وتعالى - ومهما طالت الدنيا فهي قصيرة.

- إن تذكير القوم بحتمية الوقوف بين يدى الله - سبحانه وتعالى - للحساب والمؤاخذة، كان من ضمن نصائح مؤمن آل فرعون، وهو يدعو قومه إلى الإيمان بما جاء به سيدنا موسى - عليه السلام - فقال كما أخبر القرآن الكريم: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾(٣)، "أي: مرجع جميع المخلوقات إلى الله، فهو المالك لها وحده، يبسطها ويعطيها، وينشرها ويطويها، وأن الناس جميعاً سيرجعون إلى الله للحساب والجزاء في الآخرة"(٤)، فيجازى كل واحد بما يستحقه، ولقد عاب الله - عز وجل - على فرعون وقومه وتوعدهم بالعذاب، حينما طغوا وتجبروا في الأرض، فتوهموا أنه لا قيامة ولا حساب ولا رجعة، فركبوا أهواءهم فعاثوا في الأرض فساداً وظنوا الخلود، وعدم الرجعة، قال تعالى عن فرعون وجنوده: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٥)، ولقد أكد الله - عز وجل - أن الساعة التي سيبعث فيها الخلائق للجزاء آتية لا محالة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾(٦).

- وفى دعوة سيدنا عيسى - عليه السلام - بين الله - عز وجل - أن المرجع والمصير إليه بعد الممات، ليحاسب الناس على ما فعلوا في الدنيا، وما اختلفوا فيه من أمور الدين، قال تعالى مخاطباً سيدنا عيسى - عليه السلام -: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج٢٠، صـ٢٠.
(٢) سورة الممتحنة من الآية "٤".
(٣) سورة غافر الآية "٤٣".
(٤) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج١٢، صـ١٢٣٩.
(٥) سورة القصص الآيات "٣٩ – ٤٠".
(٦) سورة طه الآية "١٥".

فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١]، "أي: ثم مصيركم إليَّ يوم البعث، فأحكم بينكم حينئذ فيما اختلفتم فيه من أمور الدين، وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به"[٢]، إن هذا بيان من الله – ﷻ – عن حتمية ترك الدنيا للجزاء، فيجازى على الخير، ويعاقب على الشر.

- ولقد قررت دعوة خاتم المرسلين سيدنا محمد – ﷺ – حقيقة ترك الدنيا للحساب والجزاء في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[٣]، وكذلك قوله – ﷻ –: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾[٤]، وقوله:﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾[٥]، "فهذه الآيات الكريمة تبين مصير الإنسان بعد موته وهو رجوعه إلى خالقه لمجازاته على أعماله في الدنيا، وإدخاله الدار التي تلائمه، فإن كان قد زكى نفسه بعبادة الله وصار من الطيبين فنزله في دار الطيبين – الجنة – وإن كان قد دنس نفسه بأقذار المعصية وأبقى خبثها فنزلها في دار الخبيثين – جهنم"[٦].

فترك الدنيا الخروج منها حتم لازم لا مفر منه، ليعرف الناس أعمالهم التي فعلوها في الدنيا ليحاسبوا عليها، وهذا هو ما أكد عليهم أولوا العزم من الرسل – عليهم السلام –

٣- الاهتمام بتقرير أن الدار الآخرة هي دار القرار

كل إنسان سيرحل عن هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية، فإن أحسن استغلال عمره فما ينفعه في دار القرار، فقد ربحت تجارته، وإن أساء استغلاله، فقد خاب وخسر، وإن من أعظم ما يتنعم به أهل الجنة، الدوام والاستقرار فيها، فالجنة دار نعيم لا ينفد ولا ينقطع، ومن حظى بذلك، فقد فاز فوزاً عظيماً، لا فوزاً سطحياً "والفوز السطحي: هو ما يعطيه الإنسان لنفسه في دار التكليف من متعة قصيرة العمر والاجل، فيبدوا ظاهرياً، وكأنه قد فاز، وفى الحقيقة ليس هو الفوز العظيم، لأن الندم سيعقبه، وأي لذة يعقبها الندم، ليست فوزاً، لأن الدنيا بكل ما فيها من نعيم، هو نعيم

---

(١) سورة آل عمران الآيات "٥٥ – ٥٧".

(٢) تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٣، صـ١٧٠.

(٣) سورة الروم الآية "١١".

(٤) سورة النجم الآية "٤٢".

(٥) سورة العلق الآية "٨".

(٦) أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان، مرجع سابق، صـ١٣.

على قدر إمكانات الإنسان وتصوره، وهو نعيم مهدد بشيئين، أن يزول النعيم عن الإنسان، وكثيراً ما رأينا منعمين زال عنهم النعيم، أو أن يترك هذا النعيم بالموت، ونرى ذلك كثيراً، أما النعيم الذى هو الفوز العظيم: فهو النعيم الموصول، الذى لا يمنعه أحد، ولا يقطعه شئ"[١].

- ولقد جاءت دعوات أولى العزم من الرسل مبينة أن الآخرة هي دار البقاء والخلود، فها هو سيدنا نوح – عليه السلام – يبين للملأ من قومه حينما استهزأوا به، وهو يصنع السفينة بأمر الله – عز وجل – لنجاته ومن معه من المؤمنين، بين لهم أنه سيسخر منهم هو ومن معه من المؤمنين، كما سخروا منهم، جزاء وفاقاً، وأعلمهم أنه سينزل بهم عذاب الدنيا وهو عذاب الطوفان، وعذاب الآخرة، وهو دائم ومقيم لا ينقطع عنهم، فقال كما ذكر القرآن الكريم: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[٢]، فهو لا ينقطع عنهم دائماً وأبداً "والعذاب المقيم: هو عذاب الآخرة، وإقامته خلوده، وتنوين (عذاب) في الموضعين للتعظيم، المراد به التهويل، وأسند فعل (يأتيه) إلى العذاب المخزي، لأن الإتيان مشعر بأن يفاجئهم كما يأتي الطارق، وكذلك إسناد فعل (يحل) إلى العذاب المقيم، لأن الحلول مشعر بالملازمة، والإقامة معهم، وهو عذاب الخلود"[٣]، الذى يخلد فيه أهل الكفر والضلال، وإذا كان الكافرون سيخلدون في النار، ويقيمون فيها إقامة تامة، فإن المؤمنين أيضاً سيخلدون في جنات النعيم التي أعدها الله لهم.
- إن من الحقائق الكبرى الثابتة التي جاء بها كل رسول في دعوته، أن الدار الآخرة خير وأفضل وأدوم من الدنيا، إنها دعوة لا تختلف باختلاف الشرائع، بل هي ثابتة، وتمتد جذورها إلى أمد بعيد، فقد ورد في صحف سيدنا إبراهيم وموسى – عليهما السلام – كما جاء في القرآن الكريم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٤]، فمن عجب العجاب أن يؤثر الإنسان دنياه على آخرته وهى خير وأبقى، ولذلك كان "ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دَنِيَّة فانية، والآخرة شريفه باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً،

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٦، صـ٣٤٨١.

(٢) سورة هود الآية "٣٩".

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج٤، صـ٢١.

(٤) سورة الأعلى الآيات "١٦ – ١٩".

ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد"[١]، فإيثار الدنيا وهى فانية سبب لكل المشكلات التي تحيط بالإنسان، ولقد بين الله – ﷻ – لسيدنا إبراهيم – ﷺ – أن الكافر بالله واليوم الآخر متاعه قليل في الدنيا، ولكنه يصير بعد ذلك إلى عاقبة سيئة وهى النار، ليخلد فيها ولا ينفك عنها، فبئس المستقر والمقام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢]، "والمصير ما ينتهى إليه الأمر"[٣]، ولقد بين مؤمن آل فرعون لقومه أن الآخرة هي الحياة الثابتة، وهى دار الاستقرار، إما إلى الجنة، وإما إلى النار، فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[٤]، التي لا زوال عنها، ولا انفكاك منها، وكون الآخرة دار استقرار، يقتضى من الإنسان أن يحرص على عمل الخير الذى يؤدى بصاحبه إلى النعيم المقيم، ويبتعد عن كل ما يؤدى إلى العذاب الدائم، ولذلك فقد بين السحرة لفرعون عندما هددهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، والقتل بعد الصلب على جذوع النخل، أن الثواب من عند الله هو خير وأبقى فقالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٥]، "أي: جزاؤه في الخير والشر أبقى من جزائك، فلا يهولنا قولك"[٦]، لأن ما عند الله – ﷻ – خير وأبقى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[٧].

- لقد بين الله – ﷻ – لسيدنا عيسى – ﷺ – حال الصادقين المخلصين له في العبادة، من الخلود والدوام في جنات نعيم، فقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٨].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٨، صـ٣٧٤.
(٢) سورة البقرة الآية "١٢٦".
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، القاهرة، ج١، صـ٥٣١.
(٤) سورة غافر الآية "٣٩".
(٥) سورة طه الآية "٧٣".
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج١٦، صـ٢٦٧.
(٧) سورة طه الآيات "٧٥ – ٧٦".
(٨) سورة المائدة الآية "١١٩".

- إن سيدنا محمداً – ﷺ – ليس بدعاً من الرسل، فدعوته جاءت مؤكدة لما جاء به إخوانه أولى العزم من الرسل، من بيان حقيقة الآخرة، وأنها حياة لا موت فيها، لأنها باقية، ولذلك فقد وصفها الله – ﷻ – بالحيوان في قرآنه، فقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(١)، "أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول، ولا ينغصها موت ولا مرض ولا هم، ولا غم، لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم، لما آثروا عليها الدار الفانية المنغصة"(٢). فالله – ﷻ – في هذه الآية بين أن الدنيا زائلة لا دوام لها، ولهو يتلهى به، ولعب يتسلى به إذا كانت لغير وجهه تعالى، وفى ذلك موعظة لمن يعقل قيمة الحياة الدنيا، ونقصها وكدرها "أما الآخرة فهي دار مقر وخلود، متاعها كثير وخيرها عميم، خالية من الكدر والمنغصات، وليس فيها ضرر البته، ويكفى أن الانسان يتمتع فيها بحرية مطلقة، ما يريده يكون، وما يأمله يتحقق، أزواج حسان، وصحب كرام، وغلمان مخلدون، وحياة متجددة، ومقام جميل تحيطه الخضرة، وتمر تحته الأنهار، إن المؤمن في الآخرة يعيش في سعادة أبدية، تحيط النعم به من كل جانب، يلمس فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يقول الله – ﷻ – مشيراً إلى نعيم الآخرة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٣)، هذا التصوير الصحيح للدنيا والآخرة، لو صدق به إنسان، ما تصديقاً يقيناً لاعتدل عمله وسلوكه وخلقه على منهج الله مالك الدنيا والآخرة"(٤)، فالآخرة هي دار الاستقرار والبقاء والمتاع الحقيقي وينبغي علي الإنسان أن يحرص عليها بالاستعداد والتأهب لها، بعمل المأمورات واجتناب المنهيات والمحظورات، وهذا هو ما أكده أولوا العزم من الرسل – عليهم السلام –.

---

(١) سورة العنكبوت الآية "٦٤".

(٢) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٤٤.

(٣) سورة البقرة الآية "٢٥".

(٤) دعوة الرسل عليهم السلام، غلوش، مرجع سابق، صـ٣٨١ وما بعدها.

ثالثاً: أثر الإيمان باليوم الآخر في الوقاية من الانحراف

إن الايمان باليوم الآخر له الأثر الطيب في وقاية الانسان من الانحراف، واستقامته على منهج الله – ﷻ – الذى أراده من الخلق، وذلك حينما يثق الإنسان بأن له حياة أخرى سيحاسب فيها على كل صغيرة وكبيرة من الخير والشر، فإن ذلك يجعل الإنسان يسيطر على تصرفاته، فلا يَتَّبِع الهوى، وينطلق خلف أهوائه ونزواته، وملذاته المادية، فلا يسعى جاهداً لإشباعها إلا بما أحل الله – ﷻ –، فإن استهوت نفسه الشهوات المحرمة، والملذات الباطلة، رجعت فتذكرت الآخرة، وربطت العمل بالجزاء في الآخرة، وتذكرت أنها لم تخلق عبثاً، وأن الله – ﷻ – لن يتركها سدى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾(١)، وبذلك يطمئن القلب، وتهدأ الجوارح، فتبتعد عن المعاصي "لأن الإيمان باليوم الآخر هو الميزان العقدي، فإن استقر في القلب، فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأفعال التي تسير على ضوء منهج الله – ﷻ – لينال الإنسان الجزاء الأوفى"(٢)، وهذا يجعل المسلم دائم اليقظة تجاه الشهوات والمفسدات.

إن الإسلام وجه الغرائز التوجيه الأمثل، فوضع الضوابط والقيود التي تضبطها، حتى لا تنطلق دون اعتبار لأى قيم، ودون رادع يردع، فأقام الإسلام العلاقة المقدسة بين الرجل والمرأة، وحرم على الإنسان إشباع غريزته فيما حرم الله – ﷻ –،قال تعالى مبيناً صفات عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٣)، فالإيمان بالآخرة من أقوى الدواعي إلى طلب الحق والاهتداء به، وسلوك سبيله، أما الذى لا يؤمن باليوم الآخر إيماناً صادقاً فإنه يتحرك في الأرض بلا قيد ولا رقيب، لأنه يعتقد أن الدنيا هي البداية والنهاية، فلا ينتظر حياة أخرى، ولا بعثاً ولا حساباً ولا جزاءً، وبالتالي فلا هَمَّ له إلا أن يفعل ما يريد دون ضابط أو قيد، فينطلق ولا يحد من الأعمال الخبيثة، ويجعل همه محصوراً في الاستمتاع بملذات الدنيا وشهواتها، كالجاه والرياسة مثل فرعون الذي استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق،

---

(١) سورة المؤمنون الآيات "١١٥ – ١١٦".

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٢، صـ١١٤٣.

(٣) سورة الفرقان الآيات "٦٨ – ٧٠".

وتوهموا أنهم لا يرجعون إلى الله – ﷻ –، فلا يبعثون، فتمردوا وطغوا حتى عتوا عتواً كبيراً، قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾[١]، "فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله – ﷻ – إلا أنهم كانوا ينكرون البعث، فلأجل ذلك تمردوا وطغوا"[٢]، فأطلقوا نفوسهم كما تشاء لاهية عابثة، وراء المتع الزائفة، وزالت من قلوبهم حرمة الأمر والنهى، فأقدموا على ارتكاب الفواحش بلا مبالاة، ولا تهاون، حتى صاروا أئمة في الضلال والكفر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾[٣]، فهم يتقدمون الناس إلى العذاب في النار، كما قادوهم في الدنيا إلى الكفر، فالجزاء من جنس العمل، قال تعالى عن فرعون: ﴿ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴾[٤].

إن الإيمان باليوم الآخر يجعل الإنسان يخشى الله – ﷻ – في كل عمل يقوم به، ويدفعه ذلك إلى الصلاح والفلاح، حتى ولو كان ذلك على حساب راحته ولذته الفانية، فالإنسان بطبيعته تستهويه الشهوة والراحة والهدوء ، ومع ذلك فقد يكون الانسان في فراشه يتلذذ بالنوم والدفء، وراحة البدن، ولكنه حينما يسمع النداء إلى الصلاة فإنه، يستيقظ ويترك هذه اللذة العاجلة، لأجل الراحة والنعيم الدائم يوم القيامة، لأنه يخاف يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، فينقاد مطاعاً دون قسر أو قهر، ولذلك فإن ميزة التشريع الاسلامي تكمن في قبول الناس له، دون حاجة إلى استعمال سياط أو عقاب، لحمل الناس على العمل به، وهذا عند الكثير من الناس، وذلك لخوفهم من الوقوف بين يدى الله – ﷻ – للحساب يوم القيامة، ولذلك فحينما نزلت آية تحريم الخمر تحريماً باتاً، استجاب الصحابة الكرام لهذا التحريم طواعية، حتى قالوا: انتهينا يا ربنا، ووصل الأمر إلى أن من كان في فمه شئ منها أخرجها ولم يبتلعها، ومن كان في بيته أو يده شئ منها سكبها في شوارع المدينة، وابتعدوا عن تناولها امتثالاً لأمر الله – ﷻ – ورسوله – ﷺ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا

---

(١) سورة القصص الآية "٣٩".

(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢٤، صـ٦٠٠.

(٣) سورة القصص الآية "٤١".

(٤) سورة هود الآيات "٩٨ – ٩٩".

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[1]، "إنكم إذا تذكرتم ذلك اليوم وفكرتم فيما أعد الله لعباده من الجزاء على قدر أعمالهم، خفف ذلك من غلوائكم، واطمأنت نفوسكم إلى ملاقاة ربكم، فتجدون برداً وسلاماً لطيب هذه المعاملة"[2]، إنه الالتزام بحدود الله – ﷻ –، بتنفيذ أوامره ونواهيه، ومن أخلَّ بشئ منها فقد ظلم نفسه، لأن التكاليف الشرعية إنما وضعت للمصلحة، ومخالفتها يعرض الإنسان للمساءلة يوم القيامة.

لقد بين الله – ﷻ – في قرآنه أن الإيمان باليوم الآخر سبب لوقاية الإنسان من الخسران، ودخول النيران، فحينما سأل أصحاب اليمين عن أسباب دخول المجرمين في سقر، ذكروا من هذه الأسباب، تكذيبهم بيوم الدين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾[3]، فالتكذيب بيوم القيامة سبب لدخول النيران، فهم لم يخافوا عذاب الله – ﷻ –، ولم يصدقوا بيوم القيامة، فأعرضوا عن التذكرة والاتعاظ، فلم يهتدوا إلى المنهج القويم.

فالإيمان باليوم الآخر له أثر كبير في سلوك الإنسان وانضباطه، فإذا هَمَّ بسوء أو معصية تذكر أنه مجزي به فامتنع عن ذلك، وإذا أقدم على ظلم أحد، تذكر أنه سيقتص منه يوم القيامة، فرجع عن ظلمه وغيه، إلى الطريق القويم.

---

(١) سورة المائدة الآيات "٩٠ – ٩١".

(٢) تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٣، صـ٦٩.

(٣) سورة المدثر الآيات "٤٢ – ٤٧".

المبحث السادس

التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالقضاء والقدر

أولاً: تعريف القضاء

أ- تعريف القضاء لغة واصطلاحاً

(١) تعريف القضاء لغة:

القضاء مصدر الفعل قضى "القاف والضاد والحرف المعتل: أصل صحيح يدل على إحكام أمر، وإتقانه، وإنفاذه بجهته"[١]، "ويقال: القضاء: الفصل في الحكم"[٢]، "وقضاء الشئ: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق"[٣]، مما تقدم يتبين أن معنى القضاء في اللغة إحكام الشيء، وإتمام الأمر، والفصل، والخلق.

(٢) تعريف القضاء في الاصطلاح:

ويقصد به اصطلاحاً "إرادة الله الأشياء في الأزل على ما هي عليه فيما لا يزال"[٤]، فهو يرجع إلى علم الله – ﷻ – السابق الذي حكم به في الأزل، وإنه لا يوجد في العالم شئ يخرج عن قضائه وتدبيره.

ثانياً: تعريف القدر

ب- تعريف القدر لغة واصطلاحاً:

(١) تعريف القدر لغة:

القدر: "القاف والدال والراء: أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه، ونهايته، فالقدر مبلغ كل شيء"[٥]، والقدر "محركة: القضاء والحكم، ومبلغ الشيء"[٦]، فالقدر في اللغة يفيد: مبلغ الشئ، وخلق الله – ﷻ – له على ما أراد، ويفيد الحكم.

(٢) تعريف القدر في الاصطلاح:

يراد بالقدر اصطلاحاً "إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص، ووجه معين أراده الله تعالى"[٧].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٥، صـ٩٩.

(٢) تاج العروس، الزبيدى، مرجع سابق، ج٣٩، صـ٣١٠.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٥، صـ١٨٦.

(٤) تحفة المريد على جوهرة التوحيد، البيجوري، مرجع سابق، صـ١٨٩.

(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٥، صـ٦٢.

(٦) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مرجع سابق، ج١، صـ٤٦٠.

(٧) تحفة المريد على جوهرة التوحيد، البيجوري، مرجع سابق، صـ١٨٨.

من خلال عرض تعريف كل من القضاء والقدر في اللغة والاصطلاح تتضح الصلة الوثيقة، والرابط القوى بينهما، وأن كلاً منهما يأتي بالمعنى الآخر: "فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء، وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هدم البناء ونقضه"(١)، وإذا أطلق أحدهما فإنه يشمل الآخر، مما يدل على تلازمهما وعدم انفكاكهما.

ثالثاً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في جانب الإيمان بالقضاء والقدر

إن الإيمان بالقضاء والقدر يعد ركناً من أركان الإيمان، التي لا يتم إيمان عبد إلا بها، فواجب على كل مسلم أن يؤمن إيماناً صادقاً، بأن كل ما يقع في هذا الكون لا يخرج عن مراد الله – ﷻ – وقدره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(٢)، فكل ما يقع في هذا الكون إنما هو بقدر الله – ﷻ – في الأزل، وهناك بعض التوجيهات الوقائية التي تحفظ الإنسان من الانحراف في جانب الإيمان بالقضاء والقدر من خلال دعوة أولى العزم من الرسل **وأهمها ما يلي:**

١- الدعوة الصريحة إلى وجوب الإيمان بالقضاء والقدر

إن الإيمان بالقضاء والقدر له مكانة عليا، في حياة الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام –، فهو ركن من أركان الإيمان، فلا يقع شئ في هذا الكون إلا بعلم الله – ﷿ – وتقديره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣)، ولقد نادى أولو العزم من الرسل – عليهم السلام – بهذه الحقيقة الكبرى، حقيقة أن كل شئ في هذا الكون بقضاء الله – ﷿ – وتقديره، فحثوا أقوامهم على وجوب الإيمان به حتى يكون إيمانهم به صحيحاً.

- فسيدنا نوح – عليه السلام – لفت أنظار قومه إلى وجوب الإيمان بالقضاء والقدر في أكثر من موضع، فمثلاً حينما احتج الملأ من قومه على كفرهم بأن اتباعه من الأراذل، وأنهم لا ثواب لهم عند الله – ﷿ – على أعمالهم، لضعفهم وفقرهم ورثاثة حالهم، وهوانهم على الله – ﷿ –، فأخبرهم سيدنا نوح – عليه السلام – بأن ذلك من أمور الغيب التى لا يعلمها إلا الله – ﷻ – فقال – ﷿ –: ﴿ وَلَآ أَقُولُ

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٤، صـ٧٨.
(٢) سورة الحديد الآيات "٢٢ – ٢٣".
(٣) سورة التغابن الآية "١١".

لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١]، أي: "إني لا أقول ذلك لأنه من باب الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، فربما كان باطنهم كظاهرهم، فيؤتيهم الله ملك الآخرة، فأكون كاذباً فيما أخبرت به، فإني إن فعلت ذلك كنت من الظالمين لنفسي، ومن الظالمين لهم في وصفهم بأنهم لا خير لهم، مع أن الله تعالى آتاهم الخير في الآخرة"[٢]، وفى هذا إشارة إلى وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وربط علم الله – ﷻ – السابق بمقادير الخلائق، ثم يلفت انتباههم مرة أخرى إلى الإيمان بالقضاء والقدر، وذلك حينما طالبوه بتعجيل ما أنذر به من العذاب إن كان صادقاً فيما يقول، فيجيبهم مرة أخرى، بأن هذا الأمر موكول إلى الله – ﷻ – وتحت قدرته ومشيئته، فهو الذى يأتيهم بالعذاب إن شاء، قَالَ تَعَالَى:﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٣]، "فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره"[٤]، وفى هذا تقرير لحقيقة الإيمان بالقضاء والقدر، فما من شئ إلا وسبق به علم الله – ﷻ – ، وكتبه عنده في كتاب المقادير، فإذا شاء الله – ﷻ – شيئاً كان، وإذا لم يشأ لم يكن.

- وفى دعوة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – أيضاً، إشارة إلى وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، فحينما جاءته الملائكة وأخبرته بأنهم أرسلوا لعذاب قوم قوط، بشروا امرأته بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب – عليهم جميعاً الصلاة والسلام –، ولكنها تعجبت لوجود مانع على المعهود عند البشر، فهي عجوز لا تلد، وزوجها شيخ لا تلد من مثله النساء، ولكن أخبرتها الملائكة بألا تتعجب مما قضاه الله – ﷻ – وقدره، على خلاف ما جرت به العادة بين الناس "فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم، لا يتصور إلا من عالم، قد سبق علمه على إيجادها"[٥]، والله – ﷻ – لا يستحيل عليه شئ، ولا يعجزه شئ، إذا قال للشئ كن

---

(١) سورة هود الآية "٣١".

(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج١٧، صــ٣٤٠.

(٣) سورة هود الآيات "٣٢ – ٣٤".

(٤) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٢، صــ٥٦٢.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين محمد بن علاء الدين على بن محمد بن أبي العز الحنفي الدمشقي، المتوفى سنة ٧٩٢هــ، تحقيق جماعة من العلماء، الناشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هــ، ٢٠٠٥م، صــ٢٧١.

فيكون: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾[١]، "أي: كيف تعجبين من قضاء الله وقدره، وهو لا يستحيل عليه شئ"[٢]، ثم بعد ذلك خاف سيدنا إبراهيم – عليه السلام – أن يمس سيدنا لوط – عليه السلام – بأذى، ولكنهم أخبروه بنجاته ومن معه، وأن وقوع العذاب بالقوم هو حكم الله – سبحانه وتعالى – وقضاؤه الأزلي، ولا راد لقضائه، فبأس الله – سبحانه وتعالى – لا يرد عن القوم المجرمين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾[٣]، "أي: قالت الملائكة يا إبراهيم: أعرض عن هذا الجدال، إنه قد جاء أمر ربك، قُدر بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم، وهو أعلم بحالهم"[٤]، ثم وجه سيدنا إبراهيم – عليه السلام – قومه إلى الإيمان بمشيئة الله – سبحانه وتعالى – النافذة، وقدرته الشاملة وذلك حينما خوفوه ألهتهم، وأنها ستنتقم لنفسها، لأنه أعلن براءته منها، فبين لهم أنه لا يخاف هذه الآلهة، لأنها لا تنفع ولا تضر، ثم رد المشيئة لأمر الله – عز وجل – ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[٥]، لقد رد الأمر إلى مشيئة الله – عز وجل – المطلقة، وإلى علمه الشامل الذى يسع كل شئ، وهذا من عمق الإيمان بقضاء الله – سبحانه وتعالى – وقدره.

- لقد بين الله – عز وجل – أن ما حصل لسيدنا موسى – عليه السلام – من اصطفائه وجعله نبياً، كان من تقدير الله – سبحانه وتعالى – قدرها وحددها كما سبق في قضائه الأزلي، وأنه ما جاء إلا على ذلك القدر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴾[٦]، ولقد علق سيدنا موسى – عليه السلام – إيجاد الأمور على قدر الله – سبحانه وتعالى – ومشيئته، فقرن الصبر بمشيئة الله – عز وجل – حينما التقى بالعبد الصالح ليتعلم منه لأن أفعال الخلق مرتبطة بقدر الله – عز وجل – ومشيئته، فقال له: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

---

(١) سورة هود الآية "٧٣".
(٢) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٢، صـ٥٨٠.
(٣) سورة هود الآيات "٧٤ – ٧٦".
(٤) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج٣، صـ١٤٢.
(٥) سورة الأنعام الآية "٨٠".
(٦) سورة طه من الآية "٤٠".

صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِى لَكَ أَمۡرًا ﴾(١)، وفى ذلك دلالة على أن أي شئ لا يكون إلا بمشيئة الله – سبحانه وتعالى – وقدره، ولذلك فقد رد على فرعون حينما سأله عن القرون الأولى ما شأنها؟ فقال: ﴿ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾(٢)، فالله – عز وجل – لم تخف عليه خافية في الأرض ولا في السماء في الماضي والحاضر والمستقبل.

- لقد أيد الله المسيح – عليه السلام – بمعجزات كثيرة، منها خلقه من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيصير طيراً بإذن الله، ومنها إبراء الأسقام، وإحياء الموتى، والإخبار ببعض المغنيات ومما يدخرون في بيوتهم – مما أطلعه الله عليه – ولكن كل هذه المعجزات مقيدة بإذن الله ومشيئته، فهذه المعجزات منشؤها ومقدرها، هو الله رب العالمين بأمره ومشيئته، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ ۖ أَنِّىٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرًۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمۡ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾(٣)، وهذا صريح في "أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله، وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلاً وتحديداً، ولم يدع القول يتم ليذكر في نهايته إذن الله، زيادة في الاحتياط"(٤)، ويلفت الأنظار إلى وجوب الإيمان بقضاء الله – سبحانه وتعالى – وقدره، لأن هذه المعجزات راجعة إلى مشيئته وحده وخلقه لها، ولكنه أجراها على يد سيدنا عيسى – عليه السلام –.

- ولقد أشار القرآن الكريم وسنة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾(٥)، فهذه الآية وغيرها كثير، تشير إلى وجوب الإيمان الجازم بأن كل شئ في هذا الوجود يكون بقضاء الله وقدره السابق، وأنه لا يوجد شئ إلا بإرادته ولا يخرج شئ عن مشيئته "وفى هذا بيان أن الإله – جل ثناؤه – توعد هؤلاء المجرمين على تكذيبهم في القدر، مع كفرهم به"(٦)، فالله – عز وجل – هو الذي يدبر أمور الخلق ويصرفها، حسب تقديره الذى اقتضته حكمته – سبحانه وتعالى –.

---

(١) سورة الكهف الآية "٦٩".

(٢) سورة طه الآية "٥٢".

(٣) سورة آل عمران الآية "٤٩".

(٤) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ج١، صــ٣٩٩.

(٥) سورة القمر الآية "٤٩".

(٦) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج٢٢، صــ٦٠٤.

من خلال ذلك يتضح أن أولى العزم من الرسل – عليهم السلام – قد أشاروا إلى وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، ودعوتهم مليئة بالآيات التي تبين أن الأمور جميعها تجرى بقضاء الله – ﷻ – وقدره وأن الله – ﷻ – علم الأشياء وقدرها في الأزل، وأنها ستقع على وفق ما قدره الله تعالى.

٢- الإيمان بالقدر لا ينفى اختيار الإنسان وكسبه للعمل[١]

لقد خلق الله – ﷻ – الإنسان وبين له طريق الخير والهداية، وطريق الشر والغواية، وجعله قابلاً للتقوى والفجور، ومستعداً للخير والشر، ثم أرسل الله – ﷻ – الرسل – عليهم السلام – وأنزل عليهم الكتب، لبيان الحق من الباطل، والخير من الشر، فأمرهم بالطاعات، ونهاهم عن المعاصي، وأودع فيهم القدرة على فعل الأولى واجتناب الثانية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٢]، فالطاعة والمعصية تقع من العبد باختياره وكسبه، وأن الله – ﷻ – هو الذى أقدرهم على ذلك، لأن كل ما في هذا الكون واقع بمشيئة الله – ﷻ –، ومن عدله – ﷻ – وحكمته أن جعل للعباد إرادة وقدرة على الأعمال، وإن كانت تحت مشيئة الله وقدرته، والله – ﷻ – علمه واسع يشمل السابق واللاحق، ويشمل كل شئ في هذا الوجود، فهو الذى خلق الإنسان، وهو الذى يعلم ما سيعمله في حياته ومستقبله، فخلق أفعاله، ويسر له السبل، وفوض له الاختيار أن يعمل هذا أو ذاك، وأرشده إلى حسن هذا أو قبح ذاك، عن طريق الرسل وإنزال الكتب، فالإنسان له إرادة واختيار ولكن لا يخرج ذلك عما قدره الله له، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾[٣]، وهذا "يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد له، مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على إنه غير مقدور لله تعالى، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته"[٤]، فالإيمان بالقضاء والقدر لا يعنى نفى الاختيار عن الإنسان في أفعاله، وإلا لاحتج على معاصيه وذنوبه بالقدر، ولقد جاء أولوا العزم من الرسل وبينوا أن للإنسان اختياراً، ولكنه مرتبط بإرادة الله – ﷻ – واختياره، وكل ما يفعله العباد ووقع منهم بإرادته – ﷻ –، وهناك آيات كثيرة في دعوتهم تبين أن للعبد اختياراً وكسباً،

---

(١) هذا عند أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن قال غير ذلك من المعتزلة والجبرية الذين قال قائلهم: ما حيلت العبد والأقدار جارية؛ عليه في كل حين أيها الرائي؛ ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له؛ إياك إياك أن تبتل.

(٢) سورة المائدة الآية "٩٢".

(٣) سورة النبأ الآية "٣٩".

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، مرجع سابق، صــ٤٣٧.

ولذلك فإن الفعل ينسب إليه حقيقة وصار مؤاخذاً، ومعاقباً عليه، لأنه يفعله باختياره، أو يتركه باختياره، مع عدم مخالفته لمشيئة الله – ﷻ –.

- إن سيدنا نوحاً – عليه السلام – بين لقومه أن الإيمان والهداية لا يكون جبراً وقسراً، ولكن بالاختيار، لأن الشأن في أفعال العباد وقبول الهداية والدعوة، الاختيار والقبول لا الإكراه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[١]، وفى هذا "إشارة إلى أن المعتقد الديني لا يكون عن قهر وإكراه وإنما هو أمر لا يتم إلا عن اقتناع وقبول ورضا"[٢]، .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [٣]، وهذا تقرير لمبدأ الاختيار في العقيدة، فالله – ﷻ – لا يكره أحداً على الهداية والإيمان، وهذا دليل على أن الكفر وقع باختيارهم وفعلهم، فالله – ﷻ – لم يوفقهم لقبول الهداية، لما علمه من حالهم.

لقد بين الله – ﷻ – أن للعباد أفعالاً، ولم ينفها عنهم، كما يعتقد بعض من انحرف عن الطريق الصحيح، حينما قالوا: إن الله خالق كل شئ دون إرادة واختيار من الإنسان[٤]، وهذا يعني: "أن العبد ليس له كسب بل هو مجبور: أي مقهور كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيف شاءت"[٥]، ولكن بيَّنَ الله – ﷻ – أن للعبد فعلاً وإرادة حينما أوحى إلى سيدنا نوح – عليه السلام – أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال – ﷻ –: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٦]، لأنهم سيهلكون بسبب أفعالهم التي فعلوها بإرادتهم واختيارهم، فالإنسان لا يؤاخذ بما اسُتكره عليه.

ولقد أثبت الملأ من قوم سيدنا نوح – عليه السلام – أن للإنسان إرادة، ولكنهم في نفس الوقت علقوا كفرهم على قدر الله – ﷻ – ومشيئته وهذا تعنت وجهل فاضح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٧]، "أي: ولو شاء الله عبادته وحده لأرسل ملائكة، ليأمرونا بذلك، فلما لم يفعل، علمنا أنه ما أرسل رسولاً"[٨].

---

(١) سورة هود الآية "٢٨".
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج٦، صـ١١٣٢.
(٣) سورة البقرة من الآية "٢٥٦".
(٤) هذا هو مذهب الجبرية الذين نفوا كسب الإنسان لأعماله، وقالوا: إن أفعال الخلق كلها اضطرارية.
(٥) تحفة المريد على جوهرة التوحيد، البيجوري، صـ١٧٥.
(٦) سورة هود الآية "٣٦"
(٧) سورة المؤمنون الآية "٢٤".
(٨) تفسير الوسيط، طنطاوي، مرجع سابق، ج١٠، صـ٢٦.

- لقد أنكر سيدنا إبراهيم – عليه السلام – عبادة قومه للأصنام والأوثان، وبكتهم عليها، وبين لهم أن عبادتهم لها وقع عن إرادة واختيار منهم، فقال لهم: ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾[١]، "والإرادة بمعنى: الاختيار والمحبة"[٢]، وهذا استنكار لما كان عليه قومه من الضلال والانحراف، لأن هذا الضلال كان بإرادتهم واختيارهم دون جبر وقهر من أحد، ولكن هذه الإرادة مرتبطة بإرادة الله – تعالى –، ولقد بين ذلك الله – عز وجل – في موضع آخر حينما قال عن سيدنا إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق – عليهم جميعاً السلام –"، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[٣]، لقد "دلت هذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله – تعالى – لأن قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ يدل على أن الصلاح من قبله"[٤]، فاختيار العبد وكسبه لأعماله مرتبط بإرادة الله ومشيئته.
- ولقد أثبت سيدنا موسى – عليه السلام – أن للإنسان فعلاً، فقال: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾[٥]، ثم أكد أن هذا الفعل مرتبط بمشيئة الله – عز وجل –، فقال: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾[٦] و"هذا القول يعنى أنك يارب قد جعلت الاختيار لأنك خلقتهم مختارين، فيصح أن يطيعوا ويصح أن يعصوا، والله – تعالى – هو من يضل ويهدى، لأنه ما دام قد جعل الإنسان مختاراً، فقد جعل فيه القدرة على الضلال، والقدرة على الهدى"[٧]، فيهدى الله من كان أهلاً للهداية فيعمل لها، ويضل من كان أهلاً للضلالة فيعمل لها، وينتج عن ذلك الثواب والعقاب، وهذا هو ما بينه سيدنا موسى – عليه السلام – لقومه حينما رجع إليهم غضبان أسفاً، فقال: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾[٨]، وليس هناك أحد يريد أن يحل عليه غضب الله – تعالى –، ولكن غضبه ناتج عن العمل الذى عملوه بإرادة واختيار منهم "إذن فقد جعل

---

(١) سورة الصافات الآية "٨٦".
(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢٨، صـ٢٢٢.
(٣) سورة الأنبياء الآيات "٧٢ – ٧٣".
(٤) اللباب في علوم الكتاب، مرجع سابق، ج١٣، صـ٥٤٥.
(٥) سورة الأعراف من الآية "١٥٥".
(٦) سورة الأعراف من الآية "١٥٥".
(٧) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٧، صـ٤٣٧٦.
(٨) سورة طه من الآية "٨٦".

الله للعبد أن يختار الهدى، أو أن يختار الضلال، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قهراً عن الله، لأنه - ﷻ - لو لم يخلق كلاً منا مختاراً، لما استطاع الإنسان أن يفعل غير مراد الله، ولكنه خلق الإنسان مختاراً وساعة ما تختار أيها الإنسان الهداية، أو تختار الضلال، فهذا ما منحه الله لك، وسبحانه قد بين أن الذى يظلم، والذى يفسق، هو أهل لأن يعينه الله على ضلاله تماماً، كما يعين من يختار الهداية، لأنه أهل أن يعينه الله على الهداية"(١)، فإرادة العبد ومشيئته راجعة إلى إرادة الله - ﷻ - ومشيئته.

- إن السيدة مريم - عليها السلام - حينما حملت ولدها وأتت به إلى قومها من بنى إسرائيل، أنكروا عليها ثم أثبتوا الإرادة والاختيار للإنسان، وهذا واضح من تعبيرهم بلفظ (جئت)، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾(٢) "وفى التعبير عن الإقدام على الفواحش بهذه العبارات، معنى دقيق وهو أن الفاعل لها ذهب إليها بنفسه واختارها

إن حوارى المسيح - عليه السلام - اتجهوا إلى الله - ﷻ - وطلبوا منه أن يكتبهم مع الشاهدين، فإيمانهم إيمان صادق منبعث من القلوب، فقالوا: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٤)، لقد ربطت هذه الآية بين أفعال العباد، ومشيئة الله - ﷻ - وأمره، لأن الإيمان أمر يعود إليهم وعليهم، أما كتابتهم مع الشاهدين وجعلهم منهم، أمر الله - ﷻ - وليس إليهم، فالله - ﷻ - قد كتب مقادير الخلائق في الأزل، وهذا هو ما أكده النبي - ﷺ - فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء"(٥)، وهذا يقتضى أن لا حركة ولا سكون في السماء والأرض إلا بمشيئة الله - ﷻ -، فلا يخرج عن إرادته شئ، ولا يكون من ملكه إلا ما يريد.

- ولقد بين القرآن الكريم أن إرادة الإنسان ومشيئته هي التي تقرر تبعته للخير والشر، وأن ذلك رهنٌ بمشيئة الله - ﷻ - وإرادته، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(٦)، ولقد بين النبي - ﷺ - أن إرادة الإنسان واختياره، ومشيئته، لا تخرج

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٧، صـ٤٣٧٦.
(٢) سورة مريم الآية "٢٧".
(٣) تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٠٥.
(٤) سورة آل عمران الآية "٥٣".
(٥) رواه مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٤/٢٠٤٤، رقم ٢٦٥٣،.
(٦) سورة فصلت الآية "٤٦".

عن قدر الله – ﷻ – فعن علي – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار، فقالوا يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له"[١]، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[٢]، وهذا دليل على أن للإنسان اختياراً وكسباً لقوله (اعملوا)، هذا الاختيار والكسب لا يخرج عن قدر الله – سبحانه وتعالى – لقوله، (فكل ميسر لما خلق له) فالإنسان له مشيئة يختار بها، وقدرة يفعل بها، وقدرته ومشيئته تابعتان لقدرة الله ومشيئته واقعتان بها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٣]، "أي: أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرون على ذلك، إلا بمشيئة الله – سبحانه وتعالى –، وفيه إعلام أن أحداً لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله، ولا شراً إلا بخذلانه"[٤]، وهذا هو ما أكدت عليه دعوة أولى العزم من الرسل كما سبق.

ثالثاً: وجوب الرضا بالقضاء والقدر

إن ما قدره الله – ﷻ – وقضاه واقع لا محالة، والاعتراض والسخط، لا يغير من قدر الله – ﷻ – شيئاً، ولكن يجعل الإنسان ينحرف عن طريق الحق والاستقامة، مما يوجب غضب الله – سبحانه وتعالى – وعقابه، فكل ما يصيب الإنسان من مصائب في الأرض من الأمراض والأوجاع وغيرها، ما هو إلا مقدر في كتاب المقادير من قبل أن يخلقها الله – سبحانه وتعالى – فلا يحزن الإنسان على ما فاته، ولا يفرح بما هو آت، ولكن عليه الرضا بما يصيبه من الخير والشر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٥]، ولذلك فإن وجوب الرضا بالقضاء والقدر هو منهج جميع الأنبياء والمرسلين، ومنهم أولوا العزم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله فأما من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، ١٧٠/٦، رقم ٤٩٤٥، واللفظ له، ورواه مسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، ٢٠٤٠/٤، رقم ٢٦٤٧.

(٢) سورة الليل الآيات "٥ – ١٠".

(٣) سورة التكوير الآية "٢٩".

(٤) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج٥، صـ٢١٨.

(٥) سورة الحديد الآيات "٢٢ – ٢٣".

- ففي دعوة سيدنا نوح – عليه السلام – نجد أن الله – تعالى – قد غضب على ابن سيدنا نوح – عليه السلام – وحكم عليه بالغرق لأنه ظن أن الجبال تعصمه من قضاء الله – تعالى – وقدره، وتحول بينه وبين الغرق، فلم يؤمن، ولكن قضى الله أمره بغرق الكافرين، فغرقوا، وكان ابن سيدنا نوح – عليه السلام – واحداً منهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾[1]، "فقد كان سيدنا نوح – عليه السلام – يعلم أن من أهله من حق عليه القول بأنه من المغرقين، ولكن عاطفة الأبوة قد حجبت عنه رؤية ابنه أن يكون في هؤلاء الغرقى، ولهذا ظل ممسكاً به إلى أن حال بينهما الموج فكان من المغرقين"[2]، وقد رضى سيدنا نوح – عليه السلام – بقدر الله – تعالى – وقضائه، في إهلاك ابنه بالغرق فنادى ربه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾[3]، وقد يفهم البعض عند قراءة هذه الآية أنها مراجعة من سيدنا نوح – عليه السلام – في قضائه، وهذا انحراف في الفهم لأن سيدنا نوحاً – عليه السلام – رسول من قبل الله – تعالى – اصطفاه ورباه، وجعله أحد أولى العزم من الرسل، ولكن هذا القول ليس فيه مراجعة من سيدنا نوح – عليه السلام – لقضاء الله وقدره، فهو على يقين بأنه لا راد لما حكم به الله وقضاه، وكان هذا النداء لربه بعد ندائه لابنه، الذى تخلف عن السفينة ودعاه إليها، فلم يستجب، فأراد سيدنا نوح – عليه السلام – التعزية من الله – تعالى – على فقد ابنه "ومع أن سيدنا نوحاً – عليه السلام – على يقين بأن ابنه قد هلك، ولا سبيل إلى أن يلقاه حياً في هذه الدنيا، فإن ما به من لذعة الألم، وحرقة الأسى، قد حمله على أن يشكو إلى ربه هذا الذى يجده، ليسمع من ربه كلمة يبرد بها صدره، ويطفئ لهيب النار المشتعلة فيه، وقد عاد الله – تعالى – على نوح بفضله، فناجاه وواساه، ووقف به على الحد الذى يجب أن يلتزمه نوح مع أمر ربه وعلمه وحكمته"[4]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[5] وكان هذا هو العزاء الذى عزى به الله – عز وجل – سيدنا نوحاً – عليه السلام –، لأن فقد الأولاد من أشد المصائب التي يبتلى بها الإنسان حتى ولو كانوا عصاة ومخالفين، فحنان الأبوة وما فيه من الرحمة لا يطفئ حرارته، ما يكون من الأبناء من انحراف وعقوق، ثم بين الله – تعالى – له سبب كون ابنه ليس من أهله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ

([1]) سورة هود الآية "٤٠".

([2]) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج٦، صـ١١٤٧.

([3]) سورة هود الآية "٤٥".

([4]) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج٦، صـ١١٤٧.

([5]) سورة هود الآية "٤٦".

صَٰلِحٖ﴾(١)، ثم يؤكد سيدنا نوح - عليه السلام - رضاه بقضاء الله في هلاك ابنه، فيقول: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(٢)، إن "هذه الآية فيها إنابة سيدنا نوح - عليه السلام - وتسليمه الأمر لله تعالى، واستغفاره بالسؤال الذى وقع النهى عليه"(٣)، فلم يكن هذا السؤال اعتراضاً على قدر الله - سبحانه وتعالى -، أو مراجعة له، لأنه يعلم أن وعد الله حق، لا خلف فيه، ولذلك فقد ختم دعاءه بقوله - عز وجل -: ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

- ولقد أكد القرآن الكريم رضا سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - بقضاء الله - سبحانه وتعالى - فالاثنان أخذا أمر الله - عز وجل - بالقبول والرضا في عملية الذبح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٤).
- كذلك يظهر الرضا بقضاء الله - سبحانه وتعالى - وقدره في دعوة سيدنا موسى - عليه السلام - من قوم قارون "لما شاهدوا ما نزل به من الخسف، صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا، ومخالفة موسى - عليه السلام -، وداعياً إلى الرضا بقضاء الله وقسمته، وإلى إظهار الطاعة، والانقياد لأنبياء الله ورسله"(٥)، فحمدوا الله - عز وجل -، وعرفوا أن الدنيا يبسطها لمن يشاء من عباده ويقدرها حسب مشيئته وقدرته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾(٦)، لقد جهروا بالندامة على ما تمنوه ورضوا بقضاء الله - سبحانه وتعالى -.
- إن مما ينافى الرضا بالقضاء تمنى الموت لضر نزل بالإنسان، أو فاقة حلت به، أو غير ذلك من المصائب التى تصيب الإنسان في حياته، لما في ذلك من الجزع وعدم الصبر على المقدر، وعدم الرضا بالقضاء والقدر، وهذا بخلاف من تمنى الموت خوفاً على نفسه من التهم والظنون السيئة، ولقد فعلت ذلك السيدة مريم - عليها السلام - لما علمت أن الناس سيقذفونها بالفاحشة عندما جاءها المخاض إلى جذع النخلة لتلد وهى لم تكن ذات زوج، ولم تكن باغية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ

---

(١) سورة هود من الآية "٤٦".
(٢) سورة هود الآية "٤٧".
(٣) تفسير ابن عطية، مرجع سابق، ج٣، صـ١٧٨.
(٤) سورة الصافات الآيات "١٠٣ - ١٠٥".
(٥) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢٥، صـ١٨.
(٦) سورة القصص الآية "٨٢".

إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾[١]، إن سياق الآيات يدل على أنه: "لا كراهة منها لحكم الله – تعالى – بل لما لحقها من فرط الحياء من الناس على حكم العادة في البشرية"[٢]، وحتى لا يظن الناس بها شراً، بعد أن كانت تقية عابدة.

- لقد نهى سيدنا محمد – ﷺ – عن تمنى الموت عند الإصابة بالبلاء، أو المصيبة، لمخالفته للرضا بالقضاء والقدر، فعن أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ -: "لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لابد متمنياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي"[٣]، "وهذا يدل على أن النهى عن تمنى الموت مقيد بما إذا لم يكن غير هذه الصيغة، لأن في التمني المطلق نوع اعتراض ومراغمة للقدر المحتوم، وفى هذه الصورة المأمور بها نوع تفويض وتسليم للقضاء"[٤].
- لقد نهى الإسلام عن التسخط، وعدم الرضا بالقدر، لأن فيه اعتراض على حكم الله – سبحانه وتعالى – وقضائه، وهو مما ينافى الإيمان، ومن الأشياء التي تنافى الرضا بالقضاء والقدر التسخط بكلمة (لو) على أقدار الله – سبحانه وتعالى –، فعن أبى هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان"[٥]، إن عدم الرضا بالقضاء فيه تمرد على أمر الخالق، ولهذا فقد أوجب الإسلام على المؤمن التزام أمر الله – سبحانه وتعالى – حتى ولو كان هذا الأمر شاقاً على النفوس، وأوجب كذلك الرضا بالقدر حتى ولو كرهته النفوس، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[٦].

من خلال ذلك يتضح أن دعوة أولى العزم من الرسل فيها ما يدل على وجوب الرضا بقضاء الله – سبحانه وتعالى – وقدره لوقاية، الإنسان من البطر والطغيان أو الجزع والحزن.

---

(١) سورة مريم الآية "٢٣".

(٢) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـــ٣٥٥.

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء بالموت والحياة، ٧٦/٨، رقم ٦٣٥١، ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب كراهية تمنى الموت، ٢٠٦٤/٤، رقم ٢٦٨٠، واللفظ له.

(٤) فتح الباري، مرجع سابق، ابن حجر، ج١٠، ص١٢٨.

(٥) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض الأمر إليه، ٢٠٥٢/٤، رقم ٣٤، ٢٦٦٤.

(٦) سورة البقرة الآية "٢١٦".

رابعاً: أثر الإيمان بالقضاء والقدر في الوقاية من الانحراف

لقد خلق الله – ﷻ – الإنسان في هذه الحياة الدنيا، من أجل عبادته وحده، وشرع له التكاليف التي تصلح دينه ودنياه، وترشده إلى الخير العميم، وجعل هذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وفطره على حبها، والرغبة في متاعها، كارهاً الآلام والمصائب التي تحل به، يحب الخير، ويجزع من الشر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[1]، ولا يعصم الإنسان من البطر والطغيان إذا أصابه الخير، أو الحزن إذا أصابه الشر، إلا الإيمان بالقضاء والقدر، وأن ما وقع فقد جرت به المقادير، وسبق به علم الله – ﷻ –، وبهذا تهدأ نفس الإنسان، فلا ينكسر أمام المصائب، ولا تذهب نفسه حسرات على ما أصابه فيظل يشتكى، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا يحزن على ما فات، ولا يفرح بما هو آت، فيعيش آمناً مطمئناً، بعيداً عن القلق والاضطراب، لإيمانه بالقضاء والقدر، فعندما يتعرض الإنسان لمشاق الحياة فإنه يكون مطمئن القلب لأنه على علم أن ما يصيبه، إنما هو مقدر لابد منه ولا راد له، فتسكن النفس عندئذ ويطمئن البال، فهو يؤمن بأن الله – سبحانه وتعالى – لم يبتليه ليهلكه، ولا لأنه يبغضه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره، ويرى صدق عبوديته، فيدفعه ذلك إلى إخلاص العبادة والعمل لله – سبحانه وتعالى –، فيكون الباعث له في جميع أعماله امتثال أمر الله – سبحانه وتعالى – حتى يحاول الخلاص من الدنيا وربما قتل نفسه منتحراً.

لقد اهتم الإسلام بالوقاية من الأمراض أكثر من اهتمامه بالتداوي للعلاج، لأن الأصل في الدين الوقاية، فإذا كان التداوي واجباً، فإن الوقاية من المرض أوجب منه، ومن هنا كان لعقيدة القضاء والقدر، دور بارز في بلورة أفهام الناس، ودفعهم إلى المحافظة على أجسامهم وصحتهم، من الأمراض، وهذا ما حدث مع سيدنا عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح – رضي الله عنهما – عندما سمع الصحابة بمرض الطاعون المفتك، فَهَمَّ سيدنا عمر بالرجوع بالجيش، فقال له سيدنا أبو عبيدة – رضي الله عنه – أفراراً من قدر الله؟ فقال: عمر لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ قال: نعم، نفر من قدر الله، إلى قدر الله، أرأيت إن كان لك ابل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: نعم، قال: فجاء عبدالرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت

([1]) سورة المعارج الآيات "١٩ – ٢١".

رسول الله – ﷺ – يقول: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، قال: فحمد الله عمر بن الخطاب، ثم انصرف"(١)

إن الرضا بالقضاء والقدر يمنع الإنسان من كل تصرف ينافى الرضا، ولا يدل على الصبر من لطم للخدود وشق للجيوب، والدعوى بدعوى الجاهلية فعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"(٢).

إن المؤمن بالقدر يبتعد عن الأخلاق الرذيلة، مثل الحسد الذى يوغر الصدور، ويبعث على الشر والفساد، لأنه يعلم أن حسد الناس على ما آتاهم الله – سبحانه وتعالى – من فضله، سخط على المقدور، فالله – سبحانه وتعالى – هو الذى يقسم الأرزاق، ويعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، فرضى بنصيبه، وسكت عن التعرض للناس بالحقد والحسد، أما الذى لا يؤمن بذلك فإنه ينظر إلى أخيه نظرة حقد وغيظ، لأن الله – سبحانه وتعالى – قد أعطى غيره أكثر مما أعطاه، وكأن المحسود قد أخذ شيئاً من نصيب الحاسد، فيتمنى زوال النعمة عنه، وتؤول إليه، هو بدلاً منه فيؤدى ذلك إلى نشوء الخصام بين الأفراد والجماعات.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ١٣٠/٧، رقم ٥٧٢٩، واللفظ له، ورواه مسلم في السلام، باب الطاعون والطيره والكهانة ونحوها، ١٧٣٧/٤، رقم ٢٢١٨.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، ٨١/٢، رقم ١٢٩٤، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب، ٩٩/١، رقم ١٠٣.

الفصل الثالث
التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الجانب التشريعي

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث:

المبحث الأول: التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في فريضة الصلاة

المبحث الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في فريضة الزكاة

المبحث الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في فريضة الصيام

المبحث الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في فريضة الحج

تمهيد:

إن الشريعة هي الوحي الذي أوحاه الله – ﷻ – إلى أنبيائه ورسله – عليهم السلام –، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، فالشريعة منجاة للناس من الهلاك إذا تمسكوا بها.

الشريعة في اللغة

"الشريعة والشرائع: ما شرع الله للعباد من أمر الدين، وأمرهم بالتمسك به من الصلاة والصوم والحج وشبهه"[١]، "والشريعة والشرعة: ما سن الله من الدين، وأمر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر أعمال البر، مشتق من شاطئ البحر"[٢].

"ومنه يقال: شرع فلان في كذا وكذا: إذا أخذ فيه، ومنه مشارع الماء وهى الفُرُض التي تشرع فيها الواردة"[٣].

فالشريعة في اللغة: بمعنى شرع الله – ﷻ – لعباده أو ما سنَّه لهم، أو البدء في شروع شئ، أو موضع على شاطئ البحر، والمعنى المراد هنا: ما سنَّه الله – ﷻ – لعباده من الشرع.

الشريعة في الاصطلاح

والشريعة في الاصطلاح هي: "الائتمار بالتزام العبودية وقيل: الشريعة هي: الطريقة في الدين"[٤]، فالشريعة هي ما شرعه الله – ﷻ – لعباده من العقائد والشرائع والأخلاق، وأمرهم أن يلتزموا بها، ولم يحيدوا عنها شرعها الله – ﷻ – لاستقامتهم، والمقصود بالشريعة هنا: هو ما يقابل العقيدة ومن أبرز أركانها وقواعدها الفرائض الأربعة، من الصلاة والزكاة والصيام والحج وهذه الأصول موجودة في شرائع الأنبياء والرسل جميعاً، وإن اختلفت في الكيفية والأداء، كلٌ على حسب حاله وظروفه، وهذه الأصول فيها من التوجيهات والمبادئ التي تقي الإنسان من الانحراف والضلال، وهذا ما سيتضح في هذا الفصل إن شاء الله – ﷻ –.

---

(١) مختار الصحاح، الرازي، مرجع سابق، ج١، صـــ١٦٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٨، صـــ١٧٦.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) التعريفات الفقهية، البركتي، مرجع سابق، صـــ١٢٣.

المبحث الأول

التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في فريضة الصلاة

أولاً: تعريف الصلاة

(١) الصلاة في اللغة

جاء في معاجم اللغة والصلاة: الدعاء والاستغفار"[١]، "والصلاة هي التي جاء بها الشرع من الركوع والسجود وسائر حدود الصلاة"[٢]، "والصلاة: عبادة فيها ركوع وسجود"[٣]، "وقيل: الصلاة في اللغة: مشتركة بين الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة"[٤].

فأصل الصلاة في المعنى اللغوي يدور حول الدعاء والاستغفار والرحمة والبركة، لأن الصلاة اسم لكل دعاء واستغفار.

(٢) الصلاة شرعاً

هي: "أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم، بشرائط مخصوصة"[٥]، وهذا التعريف ينطبق على الصلاة في دعوة سيدنا محمد - ﷺ - بالنظر إلى التعريف اللغوي والاصطلاحي للصلاة يتبين: أن هناك صلة وثيقة بين المعنيين، لأن الدعاء والاستغفار موجود في الصلاة بالمعنى الشرعي.

ثانياً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الصلاة

إن الصلاة مفروضة في كل الشرائع الإلهية، إلا أن الصلاة عند كل قوم أو في كل شريعة سابقة ليست معلومة لدينا على وجه التحديد، ولقد أوصى الأنبياء والرسل - عليهم السلام - أقوامهم وأهليهم بها، فهي القاعدة التي تقوم عليها كل شريعة، وقد جعلها الله - ﷻ - زاداً للمسلم، يجد فيها راحته وأمنه، واستقامته إذا أداها كما أراد الله - ﷻ -، لأنها تورث الانقياد لله - ﷻ - وتُقَوِّم السلوك، وتورث في قلب العبد مراقبة الله - ﷻ - ولذلك فإن في دعوة أولى العزم من الرسل في فريضة الصلاة بعض التوجيهات الوقائية وهي كما يلي

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٤، صـ٤٦٤.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٠٠.

(٣) تاج العروس، مرتضى الزبيدي، ج٣٨، صـ٤٣٨.

(٤) نفس المرجع السابق ونفس الجزء، صـ٩٣٤.

(٥) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيرى، مرجع سابق، ج١، صـ١٦٠.

١- الحث على أداء الصلاة

تحتل الصلاة مكانة كبيرة في الإسلام، لما فيها من الفضائل، ولما تشتمل عليه من الخير والنفع، وهى عبادة قديمة لم تخل منها أي شريعة من الشرائع التي جاء بها الأنبياء والرسل – عليهم السلام – فهي مفتاح شرائعهم، ومن مستلزمات الإيمان الذى جاءوا به من قبل ربهم، ولذلك فقد جاء الحث على أدائها، وبيان فرضيتها على ألسنة جميع الرسل – عليهم السلام –، لما لها من أثر عظيم في تهذيب النفوس، والقرب من الله – ﷻ –.

- ولو نظرنا في دعوتهم لوجدناهم قد كلفوا بإقامة الصلاة، وبلغوا هذا التكليف لأممهم، وهى موجودة في شريعة سيدنا نوح – عليه السلام – كغيره من الرسل لقول مجاهد(١): "لم يبعث الله نبياً قط إلا وصاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذى شرع لهم"(٢)، ولقد جاء سيدنا نوح – عليه السلام – قومه بعبادة الله – ﷻ –، والصلاة من أكبر العبادات، وأظهرها وأعظمها، وهى الأساس الذى يقوم عليه الإسلام، وهى أم العبادات الدينية والقلبية.
- إن الله – ﷻ – شرع فعل الطاعات، ومن أعظم هذه الطاعات التي شرعها، إقامة الصلاة، فلقد أوحى الله إلى سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وابنائه، إقامة الصلاة وأن يدعو الناس إليها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٣)، ولقد خص الله – ﷻ – الصلاة – وهى من جملة فعل الخيرات – لبيان فضلها، وعلو منزلتها، ففيها صلاح للنفس، وصلاح للمجتمع، فالله – ﷻ – جعلهم أئمة ورؤساء في الدين، وأوجب علينا الاقتداء بهم فيما فعلوا وأمروا به، ومما أمروا به إقامة الصلاة، فالله أوحى إليهم إقامة الصلاة وأن يأمروا الناس بها، وقد امتثلوا لأمر ربهم، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي: "فاعلين لما يأمرون الناس به"(٤).

---

(١) هو مجاهد بن جبر ويكنى أبا الحجاج بن السائب شيخ القراء والمفسرين، قال قتادة: أعلم من بقى بالتفسير مجاهد، وكان مجاهد يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث كما قال ابن سعد: وقال الحافظ في التقريب "ثقة"، إمام في التفسير، وفى العلم، مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة وله ثلاث وثمانون" ..هـ، "تهذيب التهذيب"، ابن حجر، مرجع سابق، ج١، صـ٤٢، وينظر أيضاً: "الطبقات الكبرى"، ابن سعد، مرجع سابق، ج٦، صـ٦٩.

(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج١٦، صـ١١.

(٣) سورة الأنبياء الآية "٧٣".

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٥، صـ٣١٠.

- ولقد بين الله – ﷻ – في كلامه لسيدنا موسى – عليه السلام –، أن أول واجب على الإنسان، أن يعلم أنه لا إله إلا الله وحده، وأن يُخص وحده بالعبادة، ثم أُمر بإقامة الصلاة، قال تعالى لسيدنا موسى – عليه السلام –: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(١)، والأمر بإقامة الصلاة، يقتضى الوجوب والإلزام، ولقد بين الله – ﷻ – أن إقامة الصلاة من جملة الميثاق الذى أخذه على بنى إسرائيل، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾(٢).
- ولقد أمر الله – ﷻ – سيدنا موسى وهارون – عليهما السلام – بإقامة الصلاة، وأن يأمروا الناس بها، فقال – ﷻ –: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، فالله – تعالى – قد "أمر موسى وهارون، أن يتبوءا لقومهما بيوتاً للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاماً لهما ولقومهما، باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الكل"(٤)، ومما يدل على الصلاة في كتبهم المعتمدة لديهم ما جاء في قولهم "فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بني إسرائيل"(٥)، وجاء أيضاً: "اسمع يارب صلاتنا وتضرعنا، وانقذنا لأجلك"(٦).
- إن الله – ﷻ – أمر الملائكة أن يخبروا السيدة مريم –عليها السلام– باصطفاء الله – ﷻ – لها واختيارها، لكثرة عبادتها وزهدها، ثم أمروها بالعبادة والسجود والركوع، وهما من أركان الصلاة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(٧)، وكذلك سيدنا عيسى – عليه السلام –

(١) سورة طه الآيات "١٣، ١٤".
(٢) سورة البقرة الآية "٨٣".
(٣) سورة يونس الآية "٨٧".
(٤) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج١٧، صـ٢٩١.
(٥) سفر العدد ١٤: ٥.
(٦) سفر باروخ ٢: ١٤.
(٧) سورة آل عمران الآيات "٤٢ – ٤٣".

قد وصاه الله – ﷻ – بالصلاة، وأمره بها، وقد صرح بذلك حينما تكلم في المهد صبياً، فقال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾(١)، فالله – ﷻ – قد أوصى سيدنا عيسى – عليه السلام – بالصلاة و "الإيصاء: الأمر المؤكد الواجب الإتباع"(٢)، فامتثل لذلك، ومما يدل على الصلاة ما جاء في أناجيلهم "وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم"(٣)، وقد جاء أيضاً: "وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك، وصل إلى أبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية"(٤).

- إن الله – ﷻ – أمر رسوله سيدنا محمداً – ﷺ – أن يأمر أهله والتابعين له من أمته بالصلاة بعد أن أُمر بها – ﷺ –، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٥)، إن هذا الأمر "هو دعوة للنبي الكريم أن يدعو أهله من زوج وولد وكل مؤمن ومؤمنه، إذ كانوا جميعاً أهله، وهو القيم عليهم والمدبر لأمرهم، أن يدعوهم جميعاً للصلاة، إذ هي الصورة المثلى الكاملة لذكر الله، وحمده، وشكره"(٦)، ولقد أمر النبي – ﷺ – أهل بيته وقرابته وغيرهم من المؤمنين، لأنهم في عداد الأهل، بإقامة الصلاة، ثم وجه الآباء والأمهات، وكل ولى أمر، أن يأمروا أولادهم بالصلاة في سن السابعة، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي – ﷺ – قال: "مروا أولادكم بالصلاة لسبع، وأضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع"(٧).

إن الصلاة هي أول ما يجب على الداعي أن يدعو إليها بعد الشهادة، وهى أول ما يجب على العبد بعد الدخول في الإسلام، فعن ابن عباس – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال لمعاذ – رضي الله عنه – حينما بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله

(١) سورة مريم الآيات "٣٠، ٣١".
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ج٣١، صـ٤٦٣٤.
(٣) انجيل متى "٦: ٧"
(٤) انجيل متى "٦: ٦"
(٥) سورة طه الآية "١٣٢".
(٦) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج٨، صـ٨٤١.
(٧) سبق تخريجه، صـ٤٣.

إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب"(١).

فجميع الشرائع تضمنت فرضية الصلاة وإيجابها، فهي عبادة قديمة، لم تخل منها شريعة من الشرائع، فجميع الرسل – عليهم السلام – بعثوا وأُمروا بها، وأمروا بها غيرهم.

٢- الحث على المداومة على الصلاة، وعدم إضاعتها

إن المحافظة على الصلاة من أبرز صفات المؤمنين إيماناً صادقاً، فلقد ذكر الله – ﷻ – أن من صفات المؤمنين بالآخرة والقرآن، المحافظة على صلواتهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٢)، فهم يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها ووقتها وآدابها، ولقد جاءت هذه الآية بعد أن ذكر الله – ﷻ – ثمانية عشر نبياً، وأمر النبي – ﷺ – بالاقتداء بهم، لأنهم على هدى من الله– ﷻ – ، وجاءت بعد أن أنكر الله – ﷻ – على من زعم أنه ما أنزل على بشر من شئ، فذكر أنه أنزل الكتاب على سيدنا موسى – عليه السلام –، وأنزل القرآن على سيدنا محمد – ﷺ – وفى ذلك إشارة إلى أن من صفات المؤمنين بالله – سبحانه وتعالى – إيماناً حقاً، المحافظة على الصلاة، اقتداءً بهدى الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام –.

ولقد ذكر الله – ﷻ – عدداً من الرسل – عليهم السلام – ومن اتبعهم من المؤمنين القائمين بحدود الله – سبحانه وتعالى – المحافظين عليها، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(٣)، ولكن خلف من بعدهم خلف، بدلوا ما أمروا به، وضيعوا ما حافظ عليه الأنبياء – عليهم السلام –، فلم يسيروا على هديهم، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها ولم يؤدوها كما طلبت منهم،

(١) رواه البخاري كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، ١٢٨/٢، رقم ١٤٩٦، واللفظ له، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ٥٠/١، رقم ١٩.

(٢) سورة الأنعام الآية "٩٢".

(٣) سورة مريم الآية "٥٨".

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾(١)، ومعنى أضاعوا الصلاة: "أنهم أخروها عن وقتها، وقيل أضاعوا الوقت، وقيل: كفروا بها وجحدوا وجوبها، وقيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع، والظاهر أن من آخر الصلاة عن وقتها، أو ترك فرضاً من فروضها، أو شرطاً من شروطها، أو ركناً من أركانها، فقد أضاعها، ويدخل تحت الإضاعة، من تركها بالمرة، أو جحد دخولها أولياً"(٢).

- ولقد كان في ذرية سيدنا نوح – عليه السلام – قوم مؤمنون صالحون، يحافظون على الصلاة، ويداومون عليها فلم يضيعوها، وهذا ما يستنبط من قوله – تعالى –: ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾.
- إن الله – عز وجل – أوحى إلى سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وولديه سيدنا إسماعيل وإسحاق – عليهما السلام – المحافظة على الصلاة والمداومة عليها، وهذا ما نفهمه من الأمر بإقامة الصلاة، ولقد دعا سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ربه أن يجعله ممن يقيم الصلاة بأركانها وحدودها، وأن يحافظ عليها، وكذلك من ذريته، قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾(٣)، ولقد "دعا إبراهيم – عليه السلام – في أمر كان مثابراً عليه، متمسكاً به، ومتى دعا الإنسان في مثل هذا، فإنما القصد إدامة ذلك الأمر واستمراره"(٤)، والدليل على ذلك تعبيره باسم الفاعل (مقيم) من أقام، للدلالة على المبالغة في الدوام والاستمرار الذى لا ينقطع، ولو عبر بالفعل فقال (أقيم) لم يكن فيه من المبالغة ما في اسم الفاعل (مقيم).
- إن المداومة والمحافظة على الصلاة أمر واجب، ولذلك فإن الصلاة لا تسقط بحال من الأحوال في الصحة والمرض، إلا المجنون أو من في حكمه، والمرأة وقت عذرها، حتى في وقت الخوف والحرب، ولأجل إدامة الصلاة، والاستمرار عليها، أمر الله – عز وجل – سيدنا موسى وهارون – عليهما السلام – أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، وأن يجعلوها مستقبلة القبلة، للصلاة فيها سراً، حتى لا يصيبهم أذى فرعون وقومه بسبب صلاتهم، قَالَ تَعَالَىٰ:

---

(١) سورة مريم الآية "٥٩".
(٢) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٣، صـ٤٠٠.
(٣) سورة إبراهيم الآية "٤٠".
(٤) تفسير ابن عطية، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٤٣.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١)، ومعنى أقيموا الصلاة "أي: أدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل"(٢)، وهذا لا يتحقق عند الخوف من الأذى والضرر، ولذلك فقد أمروا بالصلاة في البيوت حتى لا يؤذيهم الكفرة.

إن الملائكة الكرام أمرت السيدة مريم – عليها السلام – بلزوم الطاعة، والاستمرار عليها، وعلى رأس هذه الطاعات التي أمرت بالاستمرار عليها – الصلاة –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(٣)، وهذا أمرٌ لها بالمحافظة على الصلاة مع جماعة واستمرارها على ذلك.

ولقد بين سيدنا عيسى – عليه السلام – أن الله – عز وجل – أوصاه بالصلاة، والمحافظة على أدائها، والاستمرار عليها طيلة حياته، فلا ينفك عن هذه المحافظة، والمداومة عليها طيلة بقائه حياً، وقوله ما دمت حياً: "يفيد أن: هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته"(٤)، لا ينفك ذلك عنه في أي حال من الأحوال.

وفى دعوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – يأمر الله – عز وجل – المؤمنين بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، والمداومة عليها، وإتمام أركانها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾(٥)، وحفظ الصلاة يكون بالاستمرارية والمداومة عليها، فلا يضيعها ولا يتغافل عنها، ولقد مدح الله – عز وجل – المحافظين على صلواتهم، الدائمين على إقامتها ووصفهم بالفلاح، وجعلهم خالدين في الجنة أبداً جزاءً وفاقاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٦)، ومعنى "المحافظة على الشئ: المداومة

---

(١) سورة يونس الآية "٨٧".

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، مرجع سابق، ج١، ص٥٥٣.

(٣) سورة آل عمران الآية "٤٣".

(٤) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين، عمر بن على بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، المتوفى سنة ٧٧٥هـ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ج١٣، صـ٥٩.

(٥) سورة البقرة الآية "٢٣٨".

(٦) سورة المؤمنون الآيات "٩ – ١١".

والمواظبة عليه"(١)، ويدل على ذلك التعبير بالفعل المضارع (يحافظون) الدال على التجدد والاستمرار.

ولقد كانت المحافظة على الصلاة آخر وصية أوصى بها النبي - ﷺ - وهو يجود بنفسه الشريفة فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كانت عامة وصية رسول الله - ﷺ - حين حضرته الوفاة، وهو يغرغر بنفسه: "الصلاة، وما ملكت أيمانكم"(٢)، فهذه الوصية أوصى بها الرسول - ﷺ - أمته، وهو في اللحظات الأخيرة من حياته، والتي تعد من أصعب الحالات العصبية التي يمر بها كل إنسان، ويكون فيها مشغولاً بنفسه، وما سيكون له من الحساب والجزاء على ما فعل في الدنيا، ولكن لشدة حرص النبي - ﷺ - على أمته، وأهمية ومكانة هذه الشعيرة، كل ذلك دفع النبي - ﷺ - أن يودع أمته بأعظم وصية وأبلغها، بأن يلتزموا الصلاة أبداً، مدة حياتهم.

فالمداومة على الصلاة، والمحافظة عليها أمر جاء في دعوات أولى العزم من الرسل - عليهم السلام - لوقاية الناس من خطورة انحرافهم عن الطريق الصحيح، بسبب تضييع الصلاة والتغافل عنها:-

٣- من تمام الصلاة الخشوع فيها

إن الخشوع مطلوب في الصلاة، كما هو مطلوب من المؤمن في كل شئونه، ومعناه: "الانقياد للحق، وقيل: هو الخوف الدائم في القلب، وقيل: من علامات الخشوع: أن العبد إذا غضب أو خولف، أورد عليه، استقبل ذلك بالقبول"(٣)، لأن الصلاة التي يريدها المولى - عز وجل -، ليست أقوالا ينطق بها اللسان، أو أفعالاً تؤديها الأعضاء والجوارح فقط، بلا تدبر أو تعقل وخشوع، ولكن الصلاة لابد وأن تأخذ حقها من التأمل والخشية، واستحضار القلب، فالمقصد الأول من الصلاة، هو تذكير الإنسان بربه، فلابد فيها من حضور القلب حتى يستحضر عظمة الله - عز وجل -، ويتأمل فيما يتلو، فتسكن الجوارح فيتم الخشوع.

---

(١) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج١، صـ٢٩١.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الوصايا، باب هل أوصى رسول الله - ﷺ -؟، ٧/٤، رقم ٢٦٩٧، واللفظ له، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب المغازي والسرايا، ٥٩/٣، رقم ٤٣٨٨، وقال: "قد اتفقا على إخراج هذا الحديث".

(٣) التعريفات، الجرجاني، مرجع سابق، ج١، صـ٩٨.

إن من دأب الأنبياء جميعاً – عليهم السلام –، الخشوع لله – سبحانه وتعالى – في جميع أحوالهم، فقد أثنى الله – عز وجل – عليهم، بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(١).

- فمن مظاهر كمال معرفة الرسل – عليهم السلام– لربهم أنهم كانوا يسارعون إلى فعل الخيرات، ومن هذه الخيرات، تأديتهم الصلاة على الوجه اللائق بها، لما في ذلك من الخضوع والخشوع والتذلل، ولقد أثنى الله – عز وجل – على الرسل – عليهم السلام – بأنهم إذا سمعوا آيات الله – سبحانه وتعالى – تتلي عليهم خشعوا، فخروا سجداً وبكياً، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(٢)، إن هذه الآية جاءت بعد الثناء على جملة الأنبياء والرسل الذين فصل نبأهم في سورة مريم، حتى أمر الله – عز وجل – رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يذكر لقومه صفة هؤلاء الأنبياء – عليهم السلام –، ومنهم سيدنا نوح – عليه السلام –، لأنه من ذرية آدم، حتى يعلموا ما اتصف به هؤلاء من العبادة والخشوع، فكانوا إذا سمعوا آيات الله – عز وجل –، فاضت عيونهم بالدمع وخشعت قلوبهم لذكر الله – سبحانه وتعالى –، فلم يجدوا ما يعبرون به عما يخالج مشاعرهم من شدة التأثير، فيخروا سجداً وبكياً، خشوعاً وخضوعاً لربهم، فكانوا يعرفون السجود الذى فيه وضع الجبهة على الأرض، والسجود من أعظم أركان الصلاة.
- إن عدم الأمن يذهب الخضوع والخشوع، لانشغال البال، ولذلك كان من دعاء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لربه، أن يجعل قلوب الناس تميل إلى بيت الله – سبحانه وتعالى –، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(٣)، إن هذا "تعليل كاشف عن أن إقامة الصلاة، وما معها من واجبات، مفترضة على المؤمن، إنما تجئ بعد أن يجد الإنسان وجوده على هذه الأرض، ويضمن لهذا الوجود بقاء واطمئناناً، فالإنسان مع الحرمان الشديد، ومع الجوع المهدد بالهلاك، لا يجد العقل الذى يعقل، ولا القلب الذى يخفق خفقات الوجد والشوق، فإذا عبد الله

---

(١) سورة الأنبياء من الآية "٩٠".

(٢) سورة مريم الآية "٥٨".

(٣) سورة إبراهيم من الآية "٣٧".

في تلك الحال عبده وهو شارد اللب، خامد الشعور"(١)، وفى مثل هذه الحالة لا يستحضر الإنسان في قلبه عظمة الله – سبحانه وتعالى –، على الوجه الأكمل، فالإنسان إذا تذكر ربه، وخاف منه، امتلأت نفسه خشية منه ورهبة، ولا يحدث ذلك إلا في حالة الأمن والاطمئنان، ولذلك لم يصف القرآن الكريم من نقصت صلاته بسبب الخوف، بأنه أقام الصلاة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾(٢)، فلم يعبر بالإقامة مع الصلاة، إلا للإمام، لأنه هو الذى أتمها، أما المأمومين، فلم يعبر بالإقامة معهم ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، ولم يأت التعبير (بالإقامة) لأن في صلاتهم قصراً، ولكن بعد زوال الخوف وحصول الأمن والطمأنينة وإتمام الصلاة، عبر بالإقامة، ولم يعبر بها قبل حصول الأمن، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾(٣)، فذكر الإقامة عند الطمأنينة، لتأديتها كاملة، عدداً وثناء وخضوعاً وخشوعاً، فالخشوع هو روح الصلاة، ولا يكون إلا بحضور القلب، كذلك الصلاة، تشتمل على أذكار، ومناجاة ودعاء، وقراءة، وأفعال الجوارح، ومع عدم حضور القلب، وإقبال العبد على الله – سبحانه وتعالى – بكليته، لا يحصل المقصود بالأذكار.

- لقد أمر الله –عز وجل– سيدنا موسى – عليه السلام –، بإقامة الصلاة التي لا تكون إلا بذكر الله – سبحانه وتعالى –، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾(٤)، فالله – عز وجل – أمره بإقامة الصلاة "وعلل الأمر بإقامة الصلاة بقوله: ﴿لِذِكْرِيٓ﴾ أي: لتذكرني، فإن الذكر الكامل، لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة، أو المعنى لتذكرني فيهما، لاشتمالهما على الأذكار، أو المعنى أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة"(٥)، ففي إقامة الصلاة إقامة حقيقية تامة، تحقيق لكل فضائل الذكر، ومزاياه، ولذلك فإن المؤمن يفزع إليها عند الكرب، فيطمئن قلبه فيها ويكشف الله بها الغم والهم.

---

(١) التفسير القرآني، الخطيب، مرجع سابق، ج٧، صـ١٩٣.
(٢) سورة النساء من الآية "١٠٢".
(٣) سورة النساء من الآية "١٠٣".
(٤) سورة طه من الآية "١٤".
(٥) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٣، صـ٤٢٣ وما بعدها.

إن السجود من مظاهر الخشوع "وهو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه – ﷻ – حيث جعل العبد، أشرف أعضائه، وأعزها عليه، وأعلاها حقيقة، أوضع ما يمكنه، فيضعه في التراب متعفراً، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله – ﷻ –"(١)، ولذلك فقد أمرت الملائكة السيدة مريم – عليها السلام – بالسجود، لأنه أفضل أركان الصلاة وأقصى درجات الخضوع والخشوع لله – تعالى –، قال تعالى حاكياً قول الملائكة لمريم: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(٢)، والسجود من أعظم دلائل الخشوع والخضوع، ولذلك فقد جعله الله – ﷻ – قرباً منه، قَالَ تَعَالَى:﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾(٣)، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء"(٤)، وكان سيدنا عيسى – عليه السلام – خاشعاً عابداً لله تعالى.

- ولقد أمر الله – ﷻ – سيدنا محمد – ﷺ – وأتباعه بإقامة الصلاة، فقال: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾(٥)، والمقصود بالإقامة حضور القلب، وتوفية شروطها بما في ذلك الخشوع، وإقامة الصلاة أمر زائد على مجرد الفعل من حركات وقيام وركوع وسجود، وتكبير وغيره، أما الإقامة فهي تمام الصلاة بحضور القلب فيها، وبذلك يحصل التفاوت بين المصلين في الثواب، مع أن الهيئة واحدة، ولكنها تختلف في الخشوع والخضوع، فعن عمار بن ياسر – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – ﷺ –:"إن الرجل لينصرف، وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها"(٦)، فالأجر والثواب يختلف باختلاف الأشخاص حسب خشوعهم في الصلاة، لأن الأعمال واحدة، مما يؤكد أن الخشوع

(١) الخشوع في الصلاة، لأبى الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، المتوفى سنة ٧٩٥هـ، مطبعة العباسية الحديثة، مصر، بدون ط، ت، صـ١٠.
(٢) سورة آل عمران الآية "٤٣".
(٣) سورة العلق من الآية "١٩".
(٤) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ٣٥٠/١، رقم ٤٨٢.
(٥) سورة العنكبوت الآية "٤٥".
(٦) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة، ٩٧/٢، رقم ٧٩٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث صحيح"، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السهو، باب تخفيف الصلاة في تمام، ٣١٦/١، رقم ٦١٥.

هو روح الصلاة، فإذا تجردت الصلاة من الخشوع والتدبر، لم تقرن في القرآن بلفظ الإقامة، وذلك مثل صلاة السكران، فإنه يقدر على الصلاة، ولكن لا يقدر على الإقامة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾(١)، فنهى عن قرب الصلاة للسكران، لأن الإقامة تحتاج إلى حضور القلب، وهذا لا يدركه السكران الذى ربما يستطيع أن يؤدى الحركات والهيئات، لكن لا يستطيع أن يحضر قلبه.

إن الخشوع لا يكون إلا بإقبال العبد على الله - ﷻ - بكليته فيها، فلا ينبغي له أن يصرف وجهه عن القبلة أو مواضع السجود إلى غيرها، لأن ذلك ينافي الخشوع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾(٢)، ولقد نهى النبي - ﷺ - عن رفع الأبصار في الصلاة، لأنه يذهب الخشوع فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ -: "ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، فاشتد قوله في ذلك، فقال: "لينتهن عن ذلك، أو لتخطف أبصارهم"(٣)، فدل ذلك على وجوب الخشوع في الصلاة "ورفع البصر في الصلاة مطلقاً ينافى الخشوع الذى أصله السكون"(٤).

- إن من مظاهر الخشوع في الصلاة، الركوع، لأنه خضوع ويظهر ذلك على جسد الإنسان، والناس قديماً كانوا يأنفون منه، فلا يفعلونه، ولذلك كان النبي - ﷺ - يقول في ركوعه: في الحديث الذي رواه سيدنا على بن أبي طالب - رضي الله عنه -: "اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي"(٥)، وهذا "إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها القلب، الذى هو ملك الجوارح والأعضاء، فإذا خشع، خشعت الجوارح والأعضاء، كلها تبعاً لها ولخشوعه"(٦).

---

(١) سورة النساء من الآية "٤٣".

(٢) سورة المؤمنون الآيات "١-٢".

(٣) رواه البخاري، كتاب الآذان، باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة، ١/١٥٠، رقم ٧٥٠، ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهى عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة، ١/٣٢١، رقم ٤٢٨، "متفق عليه".

(٤) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي، بدر الدين العيني، المتوفى سنة ٨٥٥هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ط، ت، ج٥، صـ٣٠٩.

(٥) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/٥٣٤، رقم ٧٧١.

(٦) الخشوع في الصلاة، ابن رجب الحنبلي، مرجع سابق، صـ١٠.

فالخشوع في الصلاة من تمامها، ولن توصف الصلاة بأنها تامة، وصاحبها بأنه أقامها، إلا إذا خشعت جوارحه، مع خشوع قلبه، مع توفية شروطها، وأركانها، وهيئاتها.

ثالثاً: أثر الصلاة في الوقاية من الانحراف

تساهم الصلاة بدور فعال وكبير، في حماية الإنسان من الأمراض الحسية والمعنوية، التي تفتك به، وتعوقه عن العمل لدنياه وأخراه، وذلك لما فيها من الحث على النظافة، فالإسلام جعل مفتاح الصلاة طهارة البدن، والثوب، والمكان، وهذا له أثر كبير في تقويم الجسم، والمحافظة عليه من الأمراض والأوساخ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ ﴾[١]، ولقد بين الله – ﷻ –، الحكمة من الوضوء والطهارة، قَالَ تَعَالَى:﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[٢]، وإذا تأملنا الحكمة من التطهر للصلاة، وجدنا أنها تجمع بين الطهارتين، الحسية، كالنظافة من الأدران المادية، والتطهر للأعضاء الخارجية، والطهارة المعنوية، كتطهير القلوب من أدران السيئات، وأوحال الذنوب، والمعاصي، فعن أبى هريرة – ﷺ – أن النبي – ﷺ – قال: "إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه، خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، أو نحو هذا، فإذا غسل يديه، خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب"[٣]، فالوضوء الذى شرع للصلاة، ليس الغرض منه نظافة الأبدان فقط، ولكن مع ذلك طهارة القلوب.

إن الصلاة تربى الإنسان وتدربه على السير في الطريق المستقيم الذى رسمه له خالقه، وتهذب له غرائزه وشهواته، وتوجهه إلى الطريق الأقوم، فالمواظب على أداء الصلوات في أوقاتها، والمقيم لها على الوجه الأكمل، لابد وأن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، وذلك إذا راقب الله – ﷻ –، وتدبر ما يتلي فيها من الآيات، وما يقال فيها من أذكار ودعاء وثناء، كل هذا من

---

(١) سورة المائدة من الآية "٦".

(٢) سورة المائدة من الآية "٦".

(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء، ٢١٥/١، رقم ٢٤٤.

شأنه أن يحمل الإنسان على تجنب أنواع الفحشاء والمنكر، فمن يصلى صلاة خاشعة، يستشعر فيها مراقبة الله – ﷻ – في جميع أحواله، وأن الله هو القادر عليه، وأنه سيعطيه الثواب، إذا أطاعه، والعقاب إذا عصاه، كما أنه يستشعر أنه قريب من الله – ﷻ –، فهو حريص على أن لا يرتكب ما يضيع هذا القرب الذى ناله، فيظهر أثر ذلك واضحاً على السلوك، ولذلك جاء الأمر بإقامة الصلاة معللاً، قَالَ تَعَالَى:﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(١)، فالصلاة سياج منيع، يقي الإنسان من الوقوع في المعاصي، وتبعده عن الانحراف، وتساعده على التغلب على نوازع الهوى، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء.

فالصلاة هي التي تكسب المرء سكينة النفس، وتطبعه بطابع خلقي جميل، وهذا يجعل المصلي عضواً نافعاً في المجتمع، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قيل يا رسول الله – ﷺ – إن فلاناً يصلي الليل كله، فإذا أصبح سرق، قال – ﷺ –:"سينهاه ما يقول"(٢)، لأن الصلاة إذا كانت على الوجه الأكمل، نهت صاحبها عن الفحشاء، وتزيده قرباً من الله – ﷻ –، وبعداً عن المعاصي والمنكرات، ولذلك فقد قدم الله – ﷻ – الأمر بالتقوى على إقامة الصلاة، في قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣)، لأن التقوى هي التي تجعل للصلاة ثمرتها، وهى خوف الله – ﷻ – وخشيته، وهذا يقوده إلى "أن يتحرى كل ما هو نقي طاهر، وكل ما هو صالح وواضح فيبتعد عن مواطن الشبهات، وعن كل ما يقرب إلى المحرمات، وعن كل ما قد يلطخ أعماله، أو يصم أخلاقه، أو يمس عقيدته من شوائب"(٤).

إن الصلاة وقاية للإنسان من الكِبْر والأنانية، لأنها تغرس في نفس صاحبها ذل العبودية لله – ﷻ – وحده، فلا يتكبر على أحد، ولا يحقد على غيره، فهي تعارف وتآلف، تجعل المسلم يقف

---

(١) سورة العنكبوت من الآية "٤٥".

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ذكر استحباب الإكثار للمرء من قيامه الليل، رجاء ترك المحظورات، ٢/٣٠٠، رقم ٢٥٦٠.

(٣) سورة الروم من الآية "٣١".

(٤) وفى الصلاة صحة ووقاية، فارس علوان، مرجع سابق، ج٢، صـ١٤٣.

بجانب أخيه في صفوف متراصة، حيث يقف الغنى بجوار الفقير، والشاب بجوار الشيخ الكبير، وهذا تدريب على تطهير النفس من أنانيتها، ونزع آفة الكبر والعجب منها، فالكل عبد ذليل لإله واحد يستحق العبادة "ثم إن تراص الصفوف في الصلاة، وتلاحم المناكب، وتزاحم الأقدام، ثم إن الخطب الموجهة، والكلمات الهادفة في الجمع والعيدين، كل هذا يجعل المسلم يعيش وكأنه قطعة حية من هذا الجسد المؤمن، أو لبنة صالحة من بناء الإسلام الشامخ، يشعر بالقوة معهم، وبالسعادة يقربهم، وبالارتياح عند لقائهم"(١).

إن الملتزم بأداء الصلاة في جماعة، يستشعر أهمية الحفاظ على كيان المجتمع والوطن، فهو مع إخوانه كالجسد الواحد، حتى في الصلاة، فالأفعال واحدة، وبذلك يخلو قلبه من الضغائن على إخوانه، فهم كالنفس الواحدة، تربط بينهم رابطة الحب في الله، ولله، هذه الرابطة التي لا تنقطع، ولا تتغير، إلا إذا زاحمتها روابط دنيوية أخرى، فتختفى حينئذ كل أسباب الفرقة بين أفراد المجتمع، لأنهم يشعرون أنهم أمام الله تعالى سواسية، لا تفضيل لأحدهم على غيره، إلا بمقدار الإكثار من الأعمال الصالحة، وبذلك تكون قد أدت الصلاة دورها في وقاية الأفراد والمجتمعات من كل خطر يهدد وحدة المجتمع.

---

(١) المرجع السابق، صـ٥٩.

المبحث الثاني

التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في فريضة الزكاة

أولاً: تعريف الزكاة

(١) الزكاة في اللغة

أصلها من الجذر الثلاثي زكا "الزاء والكاف والحرف المعتل: أصل يدل على نماء، وزيادة"[١]، "وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء، والبركة والمدح"[٢].

إن كل هذه المعاني مجتمعة في الزكاة، لأنها تطهر مؤديها من الذنوب والبخل، وهي تطهير للمال من الآفة والهلاك، وهي سبب لفلاح صاحبه.

(٢) الزكاة في الشرع

تعني: "تمليك مال مخصوص لمستحقه بشرائط مخصوصة"[٣]، وعلى ذلك فإن الزكاة لا تجب في كل مال يمتلكه الإنسان، ولكنها تجب في مال مخصوص "والأموال التي تجب فيها الزكاة نوعان: ما هو نام في نفسه كالحبوب والثمار، أو غير نام كالمعادن، فهذه تجب الزكاة فيها عند الجني والحصاد إذا بلغت النصاب، الثاني: ما يرصد للنماء والتجارة كالذهب والفضة والأوراق النقدية والمواشي وعروض التجارة فهذه لا زكاة في نصابها حتى يحول عليه الحول"[٤]، هذه الأموال التي تجب فيها الزكاة يؤخذ منها قدر معين بطريق التمليك، لمن يستحقه كما جاء في الآية الكريمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[٥]، و"يشترط لوجوب الزكاة شروط منها، البلوغ فلا تجب على الصبي التي له ما يلي، ومنها العقل، فلا تجب على المجنون، ولكن تجب في مال كل منهما، ويجب على الوالي إخراجها"[٦]، بالإضافة إلى بلوغ النصاب، وحولان الحول.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، مرجع سابق، ج٣، صــ١٧.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٤، صــ٣٥٨.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري، مرجع سابق، ج١، صــ٥٣٦.

(٤) موسوعة الفقه الإسلامي، التويجري، مرجع سابق، ج٣، صــ٦٣.

(٥) سورة التوبة الآية "٦٠".

(٦) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري، مرجع سابق، ج١، صــ٥٣٦.

ثانياً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الزكاة

لقد اهتم الإسلام بسلامة الأفراد والمجتمعات من كل العلل والآفات التي توضع الفرقة والبغضاء بينهم، حتى يحيا الناس حياة طيبة، ويتنعم فيها بعيش كريم، وتربط بينهم بروابط الأخوة السابقة، والمحبة الخالصة، وذلك من خلال تعليماته وتوجيهاته السديدة، ولقد كان في دعوة أولي العزم من الرسل التوجيهات الوقائية من الانحراف في فريضة الزكاة وهي كالتالي

١- الاهتمام بتقرير فرضية الزكاة

لقد أرسل الله -ﷻ- الرسل الكرام، وأنزل عليهم الكتب التي تحمل من الشرائع والأحكام، والتوجيهات ما تنتظم به شؤون الحياة، لتسعد الإنسانية بالهداية والإرشاد، وإقامة العدل بين العباد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾(١)، فالله -ﷻ- أرسل الرسل بالبينات "أي: بالمعجزات البينة، والشرائع الظاهرة، وقيل: الإخلاص لله تعالى في العبادة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بذلك دعت الرسل: نوح فمن دونه إلى محمد -ﷺ-"(٢)، ومن الشرائع التي أنزلها في كتبه على أنبيائه الكرام، الزكاة، وهى تلى الصلاة مباشرة في الأهمية، ولذلك فقد جمع الله - ﷻ - في آيات كثيرة من قرآنه بين الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، "ليرينا أن الصلاة من شأنها أن تحمل على الزكاة مادامت قد أديت على وجهها الكامل في صورتها ومعناها"(٣)، لأنهما من أهم شرائع الدين، ومظهرين هامين من مظاهره، وركيزة من الركائز الأساسية التي بنى عليها الإسلام، ومن هنا جاءت مقترنة بالصلاة، ومقوماً أساسياً من المقومات التي أُسس عليها بناء المجتمعات في دعوات الرسل - عليهم السلام -.

- إن الناظر في دعوات أولى العزم من الرسل - عليهم السلام - يجد أن: "الصلاة دائماً ما تقرن بالزكاة، فالعلاقة بينهما قوية، فالزكاة تضحية بجزء من المال، والمال في الحقيقة نتيجة العمل، والعمل فرق الوقت، أما الصلاة فهي تضحية بالوقت ذاته"(٤)، ولقد بين القرآن الكريم أن الله - ﷻ - أوحى إلى سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل وإسحاق - عليهم السلام – فعل الخيرات التي تسعد البشرية بها، ومن أعظم هذه الخيرات، الزكاة التي تأخذ بالأيدي إلى ما

---

(١) سورة الحديد الآية "٢٥".
(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج١٧، صـ٢٦٠.
(٣) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٤٩٢.
(٤) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٥، صـ٩٥٩٣.

فيه الصلاح والفوز، فقاموا بما أمروا الناس به، ولم يستكبروا عن عبادته سبحانه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[١]، فالله – ﷻ – أمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولذلك فقد فرضها الله – ﷻ –، وأكد على فرضيتهما، ولم يفرق بينهما، حتى لا يفرق العبد بين فرضيتهما، لأن هذا الترتيب يدل على كمال الاتصال بينهما، فالله – ﷻ – لم يرض بإحداها دون الأخرى، ولقد أدرك الصحابة الكرام هذه الوحدة الكاملة بين العقيدة والشريعة، وبين كل ما جاء به الإسلام، حتى قال سيدنا أبو بكر الصديق: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً[٢]، كانوا يؤدونها إلى رسول الله – ﷺ – لقاتلتهم على منعها"[٣].

- لقد أخذ الله – ﷻ – على بنى إسرائيل ميثاقاً، وحكماً غليظاً، وأمرهم بأن يأخذوا ما آتاهم في هذا الميثاق من التكليفات، والأوامر، وأوجب عليهم تنفيذها، وكان مما جاء في هذا الميثاق أمرهم بأن يؤدوا بإخلاص ما أوجبه عليهم، في أموالهم من الزكاة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[٤]، إن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، من جملة ما أمر الله به بني إسرائيل و "أراد الله – سبحانه – بهما ما فرض عليهم في ملتهم، لأنه حكاية لما وقع في زمان موسى – عليه السلام –"[٥].
- لقد أعلن سيدنا عيسى – عليه السلام –، عبوديته لله – ﷻ –، حينما تكلم في المهد صبياً، وبين أن الله – ﷻ –، جعله نبياً، ثم أمره بالصلاة حتى يقيمها، وبالزكاة حتى يؤديها لأنها تطهر من دنس الذنوب، "وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى

---

(١) سورة الأنبياء الآية "٧٣".

(٢) العناق: بفتح العين وتخفيف النون، "الأنثى من ولد المعز عند أهل اللغة". فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج١٠، صـ١٣.

(٣) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ١٠٥/٢، رقم ١٣٩٩، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ٥١/١، رقم ٢٠.

(٤) سورة البقرة الآية "٨٣".

(٥) تفسير الألوسي، مرجع سابق، ج١، صـ٣٠٩.

الخليقة بالزكاة، وهى تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج، على اختلاف الأصناف، وقَرْى الأضياف، والنفقات على الزوجات، والأرقاء والقرابات، وسائر وجوه الطاعات، وأنواع القربات"(١).

- لقد وردت في دعوة سيدنا محمد – ﷺ –، آيات وأحاديث كثيرة، تبين فرضية الزكاة، وتجعل العبد المسلم يلتزم بأداء هذه الفريضة، طيبة بها نفسه، لأن الأمر بها جاء بأسلوب أخَّاذ، يستهوى القلوب والعقول، ويثير في النفس معانى الخير والإحسان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾(٢)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾(٣)، فالتعبير بلفظ (الحق) في الآيتين يدل على أن الزكاة فرض، وأنها تمثل حقاً يجب على صاحب المال أن يعطيه لمستحقيه، طيبة بها نفسه، وتشعر بأن الإنسان لو ترك هذه الفريضة، فإنه يكون قد ترك شيئاً من أساسيات الدين، سيحاسبه الله – سبحانه وتعالى – عليه، والإسلام قد ارتفع بالزكاة إلى أعلى درجات الإيجاب والإلزام على المسلم، فهي ليست إحساناً اختيارياً، ولا صدقة تطوعية، ولكنها فريضة أمر الله – عز وجل – ورسوله – ﷺ – بها، وحذرهم من تركها والتهاون في شأنها، "والزكاة أمر مقطوع به في الشرع، يستغنى عن تكلف الاحتجاج له، وإنما وقع الاختلاف في بعض فروعه، وأما أصل فرضية الزكاة، فمن جحدها كفر"(٤)، وهى في الإسلام تلى الصلاة في الأهمية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(٥)، وأكد النبي – ﷺ – على ذلك، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن أعرابياً أتى إلى رسول الله – ﷺ – فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة قال: "تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: والذى نفسي بيده لا أزيد على هذا، فلما ولى، قال رسول الله – ﷺ –: "من سره أن

(١) قصص الأنبياء، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصرى ثم الدمشقي، المتوفى سنة ٧٧٤هـ، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف، القاهرة، ط١، سنة ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م، ج٢، صـ٣٩٦.
(٢) سورة الأنعام من الآية "١٤١".
(٣) سورة المعارج الآيات "٢٤-٢٥".
(٤) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٣، صـ٢٦٢.
(٥) سورة البقرة الآية "٤٣".

ينظر إلى رجل من أهل الجنة فينظرا إلى هذا"[١]، ولقد جعل الإسلام حقاً آخر في المال غير الزكاة، وهو الإنفاق في سبيل الله – ﷻ –، والصدقة التطوعية، لسد ما لم تسده الزكاة، فالإسلام أوصى بالبذل والإنفاق، ونهى عن الشح والإمساك، ولقد رغب الإسلام في ذلك أيما ترغيب، بما يسير في النفس معانى الإحسان والعطاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾[٢]، وقد زاد النبي – ﷺ – هذا المعنى تأكيداً حينما سئل يا رسول الله في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، ثم قرأ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾[٣][٤]، وفى هذا تشجيع على المبادرة إلى العطاء، والمسابقة إليه، فالمسلم حينما يستشعر هذه المعاني، ويتدبر ذلك، فلابد وأن يسارع إلى أعمال البر والإحسان، والصدقة، لأن الله – ﷻ – يضاعف لمن يشاء بحسب الإخلاص في العمل.

من خلال ما سبق يتضح وجوب الزكاة وأنها: "مقترنة بالصلاة في مواضع كثيرة من كتاب الله – ﷻ –، مرتباً عليها – ﷻ –، عواقب وأهدافاً واحدة، مما يبين أن ارتباطهما ببعض وثيق ومؤكد، ولا شك أن ارتباط الصلاة بالزكاة في القرآن الكريم على هذا النحو يدل على قوة الرابطة النفسية بينهما، هذه الرابطة التي تشبه رابطة الجذور بالثمر، فالزكاة في الحقيقة أمر لا روح فيه، إن لم تنبع من نفس تهتز بالصلاة، وتتخلص من كل آثار الأنانية، والصلاة لا فائدة منها، إن لم تهئ نفس المؤمن للاستجابة عن طواعية لما تفرضه المصلحة الحقيقية للمجتمع على الفرد"[٥].

فهذه دعوة أولى العزم من الرسل، جاءت ناطقة ببيان فرضية الزكاة، والعناية بالفقراء وذوى الاحتياجات.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ٢/١٠٥، رقم ١٣٩٧، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذى يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة، ١/٤٤، رقم ١٥.

(٢) سورة الذاريات الآية "١٩".

(٣) سورة البقرة من الآية "١٧٧".

(٤) رواه الدارقطني في السنن، كتاب الزكاة، باب زكاة الحلي، ٢/٤٩٩، رقم ١٩٥٣.

(٥) أركان الإسلام الخمسة، أحكامها وأثرها في بناء الفرد والمجتمع، أ.د/ رفعت فوزى عبد المطلب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط٣، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م، صـ١٠٢.

٢- الحث على أدائها، والتحذير من التهاون في شأنها

عادة ما يميل الإنسان بطبعه إلى حب المال، والإكثار من جمعه، فهو زينة الحياة الدنيا، وهو عصب الحياة، ووسيلة من الوسائل الهامة للتعامل، وقضاء الحوائج، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾(١)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾(٢)، فالناس جبلوا على حب المال، ولقد وصف الله - ﷻ - حب الناس للمال بأنه حب كبير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾(٣)، ومِنْ ثَمَّ فإن إخراجه، أو إخراج بعضه شاق على صاحبه، عسير على النفوس، ولا يخرجه إلا صادق الإيمان، كما أنها تدل على صدق طلب صاحبها لرضا الله - ﷻ -، فعن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك"(٤)، و"معناه الصدقة حجة على إيمان فاعلها، فإن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقدها، فمن تصدق، استدل بصدقته على صدق إيمانه"(٥)، لأنه معتقد بهما وبفرضيتهما امتثالاً لأمر الله - تعالى - وأمر رسوله - ﷺ - ولقد بين الله - ﷻ - أن الذى ينجو من هذا الشح فقد فاز برضوان الله - ﷻ -، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(٦).

ولذلك فقد حذر منه النبي - ﷺ - تحذيراً شديداً، وبين أنه كان سبباً من أسباب هلاك الأمم السابقة، فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم"(٧)،

---

(١) سورة آل عمران الآية "١٤".

(٢) سورة الكهف الآية "٤٦".

(٣) سورة الفجر الآية "٢٠".

(٤) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ٢٠٣/١، رقم ٢٢٣.

(٥) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج٣ ، صـ ١٠١.

(٦) سورة الحشر الآية "٩".

(٧) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ١٩٩٦/٤، رقم ٢٥٧٨.

و"الشح: أشد البخل، وهو أبلغ في المنع من البخل، وقيل: هو البخل مع الحرص، وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها، والشح عام: وقيل: البخل بالمال، والشح بالمال والمعروف"[١].

- لقد ذكر الله – عز وجل – أن إيتاء الزكاة من جملة ما أوحاه إلى سيدنا إبراهيم وولديه – عليهم جميعاً السلام –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[٢]، إن في ذلك حثٌ للناس، وترغيبٌ لهم على إخراج الزكاة بنفسه طيبه، وهذا يفهم من التعبير بلفظ الإيتاء دون العطاء، لأن "بينهما فرق ينبئ عن بلاغة كتاب الله، وهو أن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله، لأن الإعطاء له مطاوع بخلاف الإيتاء، تقول: أعطاني فعطوت، ولا يقال: آتاني فأتيت، وإنما يقال آتاني فأخذت، والفعل الذى له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله مما لا مطاوع له"[٣]، ولذلك فقد جاء التعبير عن الزكاة بالإتيان، ليقبل فاعلها على إخراجها بحب وقوة وعزيمة، لعلمه أنها مغنم وليست مغرماً، وهذا بخلاف الإعطاء فإنه يكون غالباً عن كره، ولذلك فقد جاء التعبير به عن دفع الجزية[٤] قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٥]، لأن دفع الجزية قد يترك أثراً في النفس من دفعها، لنظره إليها على أنها مغرم وليست مغنماً.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٤٨.

(٢) سورة الأنبياء الآية "٧٣".

(٣) تاج العروس، مرتضى الزبيدي، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٤ وما بعدها.

(٤) الجزية هي: "المال الذي يدفعه الكتابي ومن في حكمه لبيت مال المسلمين جزاء كف اليد عنهم ودخولهم تحت الحماية والرعاية والتزام الدولة الإسلامية النظر في شؤونهم وذلك ضمن ضوابط وشروط معينة"، الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، د/ مصطفى الخن، د/ مصطفى البغا، على الشربجي، دار العلم للطباعة والتوزيع، دمشق، ط٤، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ج٨، صـ١٣٨، ويشترط لعقد الجزية:- ١- أن يكون أصحابها من أهل الكتاب، ٢- أن يجري بذلك عقد إيجاب وقبول بينهم وبين إمام المسلمين. ٣- أن يذكر قدر الجزية محددة؛ ومصنفة بالنسبة لأغنيائهم وفقرائهم وأن يتم القبول على ذلك. ٤- أن لا يؤقت عقد الجزية بفترة زمنية محددة، المرجع السابق، صـ١٣٨.

(٥) سورة التوبة من الآية "٢٩".

- إن مما جاء في صحف سيدنا إبراهيم وموسى - عليهما السلام -، قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[١]، ومما قيل في تفسير هذه التزكية "تزكى رجل من ماله، وأرضى خالقه، وقال آخرون: بل عنى بذلك زكاة الفطر"[٢]، فإذا كان الفلاح لمن أدى الزكاة، فإن الخيبة والخسران، لمن امتنع عن ذلك، حتى أصبح شحيح النفس بخيلاً.
- ولقد وعد الله - ﷻ - بنى إسرائيل وعداً مؤكداً، بأن يكون معهم يكلأهم وينصرهم، إذا وفوا بعهده وميثاقه الذى أخذه عليهم، وإذا استقاموا على منهجه الذى وضعه لهم، وكانت الزكاة من نصوص هذا الميثاق، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٣]، إن هذا الوعد يتضمن غفران الذنوب وتكفيرها، ودخولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وقبل ذلك معية الله لهم بالنصر والمعونة.

إن قارون طغى على قومه، بحرمانهم من حق الله في هذا المال الذى آتاه إياه، واستخدم النعمة في غير موضعها، وكانت وبالاً عليه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[٤]، فقدم قومه له النصيحة "ومرادهم من هذه النصيحة: أن يجعل في ماله نصيباً للفقراء والمحتاجين، وأن يحسن إليهم، فإن المال مال الله، أحسن الله به إلى الإنسان، وواجب على الإنسان أن يستفيد من هذا الدرس، وهو يتصرف في المال فيحسن إلى غيره كما أحسن الله له"[٥]، إلا أنه لم يمتثل لهذه النصيحة،

---

(١) سورة الأعلى الآية "١٤".
(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج٢٤، صـــ٣٧٤.
(٣) سورة المائدة الآية "١٢".
(٤) سورة القصص الآيات "٧٦ – ٧٨".
(٥) دعوة الرسل إلى الله تعالى، غلوش، مرجع سابق، صـــ٣٥٥.

فخسف الله به وبماله الأرض، وقد سمى الله – ﷻ – أمواله كنوزاً لامتناعه عن أداء الزكاة، فجعله الله – ﷻ – عبرة لغيره، حتى أصبح الذين تمنوا مكانته ومنزلته بالأمس، يندمون على ذلك، لما شاهدوا ما حل بقارون من العذاب والخسف، فصار زاجراً لهم عن حب الدنيا، بعد أن علموا خطأهم في تمنيهم، فرجعوا إلى رشدهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[١]، ولذلك قال ابن عباس – ﷺ –: "كل مال لا تؤدى زكاته، كان على ظهر الأرض، أو في بطنها، فهو كنز، وكل مال تؤدى زكاته، فليس بكنز، كان على ظهر الأرض، أو في باطنها"[٢].

- ولقد عاب الله – ﷻ – على الرهبان والأحبار[٣] من أهل الكتاب الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويكنزونها فتتكدس عندهم، ولا ينفقونها في سبيل الله – ﷻ – حتى استحقوا العذاب الشديد في نار جهنم، وحذر الله – ﷻ – المؤمنين من أن يكونوا مثلهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٤]، "والمقصود بهم أولئك الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، مبالغة في وصفهم بالحرص على المال، والاهتمام بكنزه وجمعه بأي صورة، ويجوز أن يراد بهم أهل الكتاب والمسلمون الذين لا يزكون، فالمراد بعدم انفاقهم في سبيل الله، أنهم لا يخرجون زكاتها"[٥]، ثم صور القرآن الكريم بعد ذلك عذاب هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة، تصويراً مرعباً، يخيف كل من يقدم على كنز الذهب والفضة، إن كان له قلب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ

---

(١) سورة القصص الآيات "٨١-٨٢".

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج١٤، صـــ٢٢٥.

(٣) الأحبار جمع حبر "ومعناه: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه"، لسان العرب، ابن منظور، ج٤، صـــ١٥٧.
وعلى هذا فالأحبار هم: العلماء والفقهاء من اليهود
أما الرهبان فهم: "العباد أصحاب الصوامع من النصارى"، تفسير البغوي، ج٢، صـــ٧٥.

(٤) سورة التوبة الآية "٣٤".

(٥) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط١، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م، ج٣، صـــ١٦٩٦.

جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾(١)، إن هذا وعيد شديد، في حق مانع الزكاة، جاء بأسلوب تهتز له القلوب، لو خوطب به الجبل لخشع وتصدع، ولقد أكد النبي - ﷺ - ذلك، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان، يُطَوَّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه – يعنى: شدقيه، ويقول: "أنا مالك أنا كنزك"(٢)، ثم تلا هذه الآية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٣) ، ثم بين الله - عز وجل -، أن عدم إخراج الزكاة من خصال المشركين، قال تعالى مخاطباً نبيه - ﷺ -: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾(٤)، إن هذا ترهيب شديد من منع الزكاة، لأن الله - عز وجل - وسَّط مانع الزكاة بين الكفر به أولاً والكفر باليوم الآخر، "لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة، حيث جعل من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة حيث قيل: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾، وهو عطف على لا يؤتون، داخل في حيز الصلة واختلافهما بالفعلية والإسمية، كما أن عدم إتيانها متجدد، والكفر أمر مستمر"(٥).

حتى يحذر المؤمنون من الاتصاف بصفات المشركين، وليعلموا أن من صفات الشرك، عدم رحمة الفقراء والمساكين وذوى الحاجة.

إن إيتاء الزكاة التي فرضها الله - عز وجل - على أصحاب الأموال، ليست آخر المطاف في الإنفاق، بل رغب الله - عز وجل - وحث على الإنفاق في سبيله، في شتى أبواب الخير، وهناك كثير من الآيات التي تحث على الإنفاق في سبيل الله، وقدمت الجهاد بالمال، على الجهاد بالنفس، لأهميته وخطورته، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي

---

(١) سورة التوبة الآية "٣٥".

(٢) رواه البخاري، مرجع سابق، كتاب الزكاة، باب اثم مانع الزكاة، رقم ١٤٠٣.

(٣) سورة آل عمران الآية "١٨٠".

(٤) سورة فصلت الآيات "٦-٧".

(٥) تفسير أبى السعود، مرجع سابق، ج٨، صـ٣.

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[١]، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[٢]، "ولعل تقديم الأموال على الأنفس: لما أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً، وأتم دفعاً للحاجة، حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس، بلا مجاهدة بالمال"[٣]، فمن سماحة الإسلام ورحمته، أن أقر فريضة الزكاة ثم حض على الزيادة عليها، بسائر صدقات التطوع، تقرباً إلى الله – ﷻ – حتى يجد الفقراء والضعفاء، ما يسدون حاجتهم، وحاجة أولادهم.

ثالثاً: أثر الزكاة في الوقاية من الانحراف

لقد شرعت الزكاة لأهداف سامية، وغايات إنسانية، تهدف إلى وقاية الأفراد والمجتمعات من الانحرافات، فالزكاة تطهر قلب الآخذ من الحقد والحسد[٤] والضغينة، لأن من شأن الإحسان استمالة القلوب، والنفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، فالفقراء وأصحاب الحاجة إذا عاشوا في مجتمع يرون فيه الأغنياء من حولهم يعيشون حياة الترف والرخاء، ويتمتعون بالأموال من حولهم، ولا يمدون لهم يد العون والطاء، فقلما تسلم قلوبهم من الحسد والحقد، بل تمتلئ بالغضب والضغينة على هؤلاء الأغنياء، وقد يتمنون نزول المصائب بأموالهم، وينتشر الفساد في المجتمع كله، فإن من أعظم أسباب سفك الدماء، وقطع الطرق، وسرقة الأموال، الحاجة والفقر، الذى قد يدفع صاحبه إلى ارتكاب هذه الانحرافات التي تضر بالمجتمع بأسره، ولذلك فقد حذر النبي – ﷺ – من الحسد، فعن أبى هريرة – ؓ – قال: أن النبي – ﷺ – قال: "إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال: العشب"[٥]، والإسلام عمل على اقتلاع جذور الحسد والضغينة، وانتشار الفساد، واستئصال جذورها من المجتمع، فلم يحارب هذه الآفات بالوعظ والإرشاد فقط، لأن الفقير المحروم لا

---

(١) سورة الأنفال من الآية "٧٢".

(٢) سورة الحجرات الآية "١٥".

(٣) تفسير أبى السعود، مرجع سابق، ج٤، صـ٣٧.

(٤) الحسد هو: تمني زوال نعمة المحسود، وإن لم يصر الحاسد مثلها، والمنافسة هي: تمني مثلها، وإن لم تزل من المحسود وهي الغبطة، فالحسد شر مزموم، والمنافسة مباحة لقول النبي – ﷺ –: "المؤمن يغبط والمنافق يحسد"، "اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ج٢٠، صـ٥٧٤".

(٥) رواه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الحسد، ٧/٢٦٤، رقم ٤٩٠٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث حسن الغاية"، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، باب الحث على ترك الغل والحسد، ٩/١٠، رقم ٦١٨٤.

يكفى أن تلقى عليه مواعظ تبين خطر هذه الآفات فقط، من أجل ذلك فرضت الزكاة، وبذلك يصان المجتمع كله من عوامل التفرق والهدم والصدع، "وعلى هذا فقد وقف الإسلام بعبادة الزكاة بالمسلمين في المشكلة المادية شأنه في كل شرائعه، عند الحد الأوسط الذى يقيهم شر الطغيان المالي المفسد، الذى يتكدس به الأموال عند بضعة أفراد من الأمة مع حرمان كثرتها الغالبة، ويقيهم كذلك شر الفوضى الماكرة المخربة التي تضيع بها جهود الأفراد، وتكدس الأموال في اليد الحاكمة باسم المجتمع، فهي تشريع يحفظ للفرد استقلاله وحريته في العمل والكسب، ويحفظ للمجتمع حقه على الفرد في المعونة والتضامن، وبذلك يبرز المبدأ الإسلامي العام وهو: تحميل الفرد من حقوق الجماعة، وتحميل الجماعة من حقوق الفرد"(١).

وإذا كان أفراد المجتمع على هذه الصورة من التراحم، والتلاحم، فلن تتصدع هذه الوحدة، ولن يجد الانفكاك إليها طريقاً، فكل واحد يؤدى الحق الذى عليه، ويحرص على نموه دون نقصانه، فالزكاة تنمى روح الأخوة بين المجتمع، وتقيه من الانشقاق، فإذا أعطى الأغنياء ما يسد حاجة إخوانهم الفقراء، قويت رابطة الأخوة بينهم، وصاروا إخواناً متحابين في الله – ﷻ –، فالبذل والعطاء يكسر الحواجز الاجتماعية والنفسية بينهم، وعندها يكون الرفق، لإحساسه بهم، فتمتلأ القلوب بالشفقة والرحمة والمودة، ويتحقق هدف الإسلام في نشر قيمة الرفق والتعاطف والتراحم، وخير دليل على ذلك عندما آخى النبي – ﷺ – بين المهاجرين والأنصار، وواسى الأنصار إخوانهم المهاجرين بأموالهم، وبكل ما يملكون، فاستحقوا الثناء، والمدح من المولى – ﷻ – في قرآن يتلى إلى يوم القيامة، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢)، لقد كانت هذه المواساة من أعظم روافد الأخوة والمحبة، فالإنفاق في سبيل الله – ﷻ – ومنه الزكاة وسيلة تربوية يعيش بها المسلم روح التعاون، والتكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وهى تطهر المنفق من الحرص والبخل والأنانية، وتدريب لها على العطاء، والسخاء والتعاون "ولعل من آثار الشح في زمننا هذا امتلاء دور الحكومة بقضايا المواريث والنزاع على

---

(١) أركان الإسلام الخمسة أحكامها وأثرها في بناء الفرد والمجتمع، مرجع سابق، أ.د/ رفعت فوزى عبد المطلب، صـ١٠٤.

(٢) سورة الحشر الآيات "٨ – ٩".

الحقوق المدنية، ولاسيما بين الأقارب، ولعل الإحصاء يرينا أن أكثر هذه القضايا بين ذوي الأرحام بعضهم مع بعض، فكان من حكمة الله أن يمرن المؤمن على بذل شئ من ماله لمصالح المسلمين ليجتث الله بذلك البذل عرق الشح من نفسه، ويصبح رجلاً صالحاً للحياة إذا دعي إلى بذل ماله في سبيل الخير، أجاب داعي المصلحة"[١]، فهي غرس لمشاعر الحنان وتوطيد العلاقات، وفى ذلك تقليل للفجوة بين الغنى والفقير، والقوى والضعيف، وعدم جعل المال يتكدس في يد مجموعة قليلة من المجتمع، على حساب مجموعة أخرى، ربما لا تجد ضروريات الحياة، فالفقر داء عضال، وخطر عظيم، يهدد كيان المجتمعات بالفساد، فلو ترك الإنسان أسيراً للفقر، فلربما أدى به إلى التفكير في الاعتداء على الأموال والأعراض، من أجل الحصول على ما يسد جوعته، ولكن الزكاة تؤثر إيجاباً في سد حاجة الفقراء، والمحتاجين، وإخراجهم من الفقر، فيبتعدون عن كل ما حرم الله – ﷻ –، وعن التفكير فيه، فينتشر الأمن بين الناس، وتقل الفواحش، فقد روى أبو هريرة – ﵁ – أن رسول الله – ﷺ – قال: "قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون – تصدق الليلة على زانية – قال اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون – تصدق الليلة على سارق، قال: اللهم لك الحمد على السارق، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غنى، فأصبحوا يتحدثون، تصدق الليلة على غنى، قال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى سارق، وعلى غنى، فأتى فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، أما الزانية، فلعلها تستعف عن زناها، ولعل السارق أن يتعفف عن سرقته، ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله"[٢]، وبذلك يتخلص المجتمع من الأوبئة التي تنتشر من خلالها الانحرافات والجرائم.

ولقد وصى النبي – ﷺ –، بعلاج الأسقام، والأمراض بالصدقة، فعن عبد الله بن مسعود – ﵁ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "داووا مرضاكم بالصدقة"[٣]، فهذا بيان نبوي للطب الروحاني، فيه أمر "بمداواة المرضى بالصدقة، ونبه على بقية أخواتها من القرب، كإغاثة ملهوف، وإغاثة مكروب، وقد جرب ذلك الموفقون، فوجدوا الأدوية الروحانية، تفعل ما لا تفعله الأدوية الحسية،

([١]) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـــ٤٩٢.

([٢]) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق الغنى وهو لا يعلم أنه غنى، ١١٠/٢، رقم ١٤٢١، ومسلم، كتاب الزكاة، باب، ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت الصدقة من يد غير أهلها، ٧٠٩/٢، رقم ١٠٢٢، "واللفظ له".

([٣]) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجنائز، باب وضع اليد على المريض والدعاء له بالشفاء، ٣٥٦/٣، رقم ٦٥٩٣، وقال الهيثمي: "وفيه موسى بن عمير الكوفي وهو متروك"، مجمع الزوائد، ج٣، صـــ٦٤.

ولا ينكر ذلك إلا من كشف حجابه، والنبي - ﷺ - طبيب القلوب، فمن وجد عنده كمال استعداد إلى الإقبال على رب العباد، أمره بالطب الروحاني، ومن رآه على خلاف ذلك، وصف له ما يليق من الأدوية الحسية"(١).

إن الزكاة تدعو المسلم إلى تقوى الله - ﷻ -، والتي تدفعه إلى الحرص على كسب ماله من الوجوه المشروعة، كالتجارة والصناعة وغيرها، وألا يختلط ذلك بالمال الحرام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(٢)، إن هذا أمر من الله - ﷻ - لعباده المؤمنين بالتصدق من طيبات ما رزقوا، من التجارة، والزروع، والثمار، ونهاهم عن التصدق بالمال الخبيث، لأن الله - ﷻ - طيب لا يقبل إلا طيباً، والصدقات تغرس روح التعامل بالحلال في الكسب والإنفاق، وتبعد الإنسان أشد البعد عن الاعتداء على أموال غيره، حتى تقبل منه نفقته، فعن عبد الله بن عمرو - ؓ - سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: "لا يقبل الله صدقه من غلول، ولا صلاة بغير طهور"(٣)، فالنبي - ﷺ - وضح لنا أنه لا تقبل صدقة جاءت من طريق غير مشروع، كالغش، والخيانة، والسرقة، والربا، وهذا يجعل المسلم دائماً حريصاً على الكسب الطيب، بعيداً كل البعد عن أكل أموال الناس بالباطل.

ولقد بين النبي - ﷺ - أن الزكاة وقاية للإنسان من هلاك الأموال وضياعها، بسبب قلة الأمطار، لأن منع الزكاة يؤدى إلى قلة الأمطار، وعندها يصاب المجتمع بالمجاعة والقحط والجدب، فعن عبد الله بن عمرو - ؓ - قال: أقبل علينا رسول الله - ﷺ - فقال: "...... ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا"(٤)، فالزكاة تحفظ أموال المسلم من الهلاك والتلف، وتجعل الخير والبركة فيه، إلى جانب تهذيبها للروح، وهى تحرر النفس من الخضوع لغير الله.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للإمام زين الدين محمد بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن على بن زين الدين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، المتوفى سنة ١٠٣١هـ، الناشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، سنة ١٣٦٥هـ، ج٣، صـ٥١٥.

(٢) سورة البقرة الآية "٢٦٧".

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، ١/٢٠٤، رقم ٢٢٤.

(٤) رواه البيهقي في الشعب، باب التشديد على منع زكاة المال، ٥/٢٢، رقم ٣٠٤٢، ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب أبواب الفتن، باب العقوبات، ٥/١٥٠، رقم ٤٠١٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حسن لغيره".

المبحث الثالث

التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في فريضة الصيام

أولاً: تعريف الصيام

(١) الصوم في اللغة

يقصد به: "الإمساك عن الشئ، والترك له، وقيل: للصائم صائم: لإمساكه عن المطعم والمشرب والمنكح، وقيل: للصامت صائم لإمساكه عن الكلام، وقيل: للفرس صائم لإمساكه عن العلف مع قيامه"(١)، و"الصوم: ترك الطعام والشراب والنكاح والكلام"(٢).

يتضح مما سبق: أن الصوم في اللغة يراد به: مطلق الإمساك عن الشئ وتركه، والكف عنه.

(٢) الصوم في الشرع

هو: "الإمساك عن المفطرات يوماً كاملاً من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس"(٣).

من خلال ذلك يتضح أن المراد بالصوم في اصطلاح الفقهاء هو: الامتناع عن شهوتي البطن والفرج، في زمن معين من طلوع الفجر الصادق، إلى غروب الشمس، بنية التعبد لله – ﷻ –.

ثانياً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الصيام

إن الصيام ليس مجرد شعيرة تعبدية ليس لها أثر وقائي على الأفراد، ولكن الصيام شرع لإصلاح النفوس وتوجيه الأخلاق، فإذا أحسن المسلم أداءها على الوجه الأكمل، لعاش الناس حياة فاضلة، ولترقوا في سلم الكمالات، ومن أمعن النظر في آيات الصيام يدرك: أن الصيام لم يشرع لإزهاق النفس وتعبها، ولكنه يقود صاحبه إلى التقوى والمراقبة، فيحرس القلب من المعاصي حتى لا يفسد الصوم، وفي دعوة أولي العزم من الرسل بعض التوجيهات الوقائية التربوية في فريضة الصيام، وهي كما يلي.

١- الصيام عبادة مشروعة لله – ﷻ – في كل الأمم

إن الصيام من القواسم المشتركة، والركائز الأساسية، التي جاءت بها شرائع الرسل – عليهم السلام –، فهو ركن ركين في شرائعهم جميعاً، ولقد أخبر الله – ﷻ – أنه فرضه علينا، كما فرضه على الأمم من قبلنا، إشعاراً بوحدة أصول الشرائع الإلهية، وإيذانا بعظمة هذا الركن،

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري، مرجع سابق، ج١٢، صـ١٨٢.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٢، صـ٣٥٠.

(٣) الفقه عن المذاهب الأربعة، الجزيري، مرجع سابق، ج١، صـ٤٩٢.

لأن الشرائع الإلهية إذا اتفقت على أمر، دل ذلك على عظمته، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾(١)، فهذه دعوة قرآنية إلى الاعتبار بالأمم السابقة، والاقتداء بهم، حتى يكونوا قدوة تهون علينا مشقة الصيام، فالسابقون قد صاموا، وبإمكاننا أن نصوم كما صاموا، لأن "هذه العبادة كانت مكتوبة واجبة على الأنبياء والأمم، من لدن آدم إلى عهدكم، ما أخلى الله أمة من إيجابها عليهم، لا يفرضها عليكم وحدكم، وفائدة هذا الكلام، أن الصوم عبادة شاقة، والشئ الشاق، إذا عم سهل تحمله"(٢)، وهذا يدل على التشجيع والتحفيز على الامتثال للقيام بهذا الفرض العظيم، لأن الصيام فيه مشقة مغالبة النفس في ترك شهواتها وملذاتها، فإذا علمت النفس أنها كلفت بما كلف به غيرها، هان عليها ذلك، وسارعت إلى فعل الخيرات، وأداء ما كلفت به، وفي ذلك ترويض للنفس على تقبل الأحكام والتكاليف.

وإذا كان الصيام عبادة مشروعة لله – ﷻ – في كل الأمم، فإن تفاصيله وهيئته وما يتصل بذلك من تفاريع، تختلف فيها الشرائع اختلافاً يتناسب مع أحوال الناس ومصالحهم في كل زمان ومكان، فما يصلح لزمان، قد لا يصلح لزمان آخر، وما يلائم طبيعة أناس قد لا يلائم طبيعة غيرهم، وذلك حسب استعداد المكلفين وقدرتهم وأحوالهم، وخاصة أن الآية القرآنية السابقة مجملة، لم يرد فيها ما يفصلها، من تعيين مَنْ هم الذين من قبلنا.

- إن أصول العقائد والعبادات التي جاء بها سيدنا نوح – عليه السلام – هي نفسها الأصول التي جاء بها من تلاه من الرسل – عليهم السلام –، قَالَ تَعَالَى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾(٣) ومن هذه العبادات التي جاءوا بها، الصيام، كما يفهم من آية الصيام السابقة، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: أن النبي – ﷺ – مر بأناس من اليهود، قد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا من الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذى نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصامه نوح، وموسى شكراً لله – تعالى –، فقال النبي – ﷺ –: "أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا

---

(١) سورة البقرة الآية "١٨٣".
(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٥، صـ٣٨.
(٣) سورة الشورى من الآية "١٣".

اليوم، فأمر أصحابه بالصوم"[١]، إن هذا الحديث يؤكد العموم الذى جاء في الآية الكريمة، من صيام الأمم السابقة دون تخصيص، لأن سيدنا نوحاً وسيدنا موسى – عليهما السلام – قد صاما لله – ﷻ – "وكأن ذكر موسى دون غيره هنا، لمشاركته لنوح في النجاة، وغرق أعدائهما"[٢].

- وإذا كان الصيام قد تقرر في شريعة سيدنا نوح – ﵇ –، فلا غرو أن يكون الصيام في شريعة سيدنا إبراهيم – ﵇ –، وخاصة أن شريعته كانت تالية لشريعة سيدنا نوح – ﵇ – "لأن من بعد إبراهيم – ﷺ –، كان مأموراً باتباع إبراهيم، وذلك أن الله جل ثناؤه، كان جعله للناس إماماً، وقد أخبر الله – ﷻ – أن دينه كان الحنيفة السمحة، فأمر نبينا – ﷺ – بمثل ما أمر به من قبله من الأنبياء"[٣]، ومما يدل على صيام سيدنا نوح وإبراهيم – عليهما السلام –، ما جاء عن عبد الله بن عمرو – ﵁ – سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: "صام نوح الدهر إلا يوم الفطر، ويوم الأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر، وأفطر الدهر"[٤]، والمراد أنه صام ثلاثة أيام من كل شهر فكأنه صام الدهر لأن الحسنة بعشرة أمثالها، وثلاثة أيام بثلاثين يوماً، إذاً فهو كالصائم في الشهر كله، فهذا صيام الدهر، وأفطر الدهر لأنه لم يصم بالفعل إلا ثلاثة أيام من كل شهر، فهو في الحقيقة أفطر الدهر إلا ما يصومه منه.
- إن الله – ﷻ – قد أذن لسيدنا موسى – ﵇ – فتلقى ألواح التوراة، وأقام من أجلها أربعين يوماً صائماً، فلما انتهى الموعد، عاد إلى قومه بالألواح المشتملة على التكاليف والشرائع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[٥]، لقد "قال المفسرون: فصامها موسى – ﵇ – وطواها[٦]"[٧]، ولقد صام سيدنا موسى – ﵇ – يوم عاشوراء كما تقدم في الحديث.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣٩٧/٨، رقم ٨٧٠٢، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الصيام، باب في صوم يوم عاشوراء، ١٨٤/٣، رقم ٥١٠٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٤٨.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج٣، صـ٤١٢ وما بعدها.

(٤) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب صيام نوح، ٦١١/٢، رقم ١٧١٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة"، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، باب صوم ثلاثة أيام من كل شهر وما جاء في صوم داود عليه السلام، ٣٦٧/٥، رقم ٣٥٦٣.

(٥) سورة الأعراف من الآية "١٤٢".

(٦) "يقال: طوى بطنه: أي أجاع نفسه، أو تعمد الجوع وقصده، ومنه الحديث كان يطوي بطنه عن جاره: يجيع نفسه ويؤثر جاره بطعامه"، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٢، صـ٥٧٢.

(٧) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٣، صـ٤٢٠.

- والصيام كذلك من الأمور التي أوصى بها سيدنا عيسى – عليه السلام – أمه، حينما أنطقه الله – عز وجل – في المهد، لقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾(١)، إن "هذا من بقية ما ناداها به عيسى، وهو وحى من الله إلى مريم، أجراه على لسان الطفل، تلقيناً من الله لمريم، وإرشاداً لقطع المراجعة، مع من يريد مجادلتها، فعلمها أن تنذر صوماً يقارنه انقطاع عن الكلام، فتكون في عبادة، وتستريح من سؤال السائلين، ومجادلة الجهلة"(٢)، فالصوم كان مألوفاً وقتها، بدليل أنها لما أشارت إلى سيدنا عيسى – عليه السلام – في مهده، لم يحتج القوم لصمتها، بل احتجوا من إحالتها الجواب عليه، ومما يدل على وجود الصيام في النصرانية ما جاء في أناجيلهم الحاضرة "ومتى صمتم فلا تكونوا عابثين كالمرائين، فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين، الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجورهم"(٣).

إن سيدنا محمداً – صلى الله عليه وسلم – جعل الصيام ركناً من أركان هذا الدين العظيم، فلا يستقيم إسلام العبد إلا به، فعن ابن عمر – رضي الله عنه – قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان"(٤)، فالصيام ركن عظيم من أركان الإسلام، وركيزة من الركائز التي تعبدت بها الأمم السابقة على ألسنة رسلهم – عليهم السلام –، في مختلف شرائعهم، وهو قاسم مشترك بين شرائعهم، وهذا "أسلوب من أساليب إيناس النفوس، وترغيبها في قبول التكاليف"(٥)، وفى ذلك وقاية للأمة من استثقال الصيام، ومشقته على النفس، لأن الشئ الشاق، تهون مشقته، وتخف على الإنسان عندما يعلم أن غيره قد أداه من قبله، فيكون ذلك حافزاً إلى الإقبال عليه بهمة ونشاط، وترغيباً في الامتثال والخضوع المطلق لله رب العالمين، وإثارة الهمم والعزائم، حتى لا يكونوا مقصرين في أدائها، بل يجب عليهم أن يؤدوها بقوة ونشاط، تفوق من سبقهم من الأمم، فأمة الإسلام هي خير أمة أخرجت للناس، وهذه الخيرية تقتضى، القوة والنشاط فيما كلفوا به من العبادات.

---

(١) سورة مريم من الآية "٢٦".

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج١٦، صـ٨٩ وما بعدها.

(٣) إنجيل متى "٦: ١٦"

(٤) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس، ١١/١، رقم٨، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أركان الإسلام ودعائمه العظام، ٥٤/١، رقم ١٦.

(٥) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٤٩٦.

٢- التقوى الهدف الأصيل من أهداف الصيام

إن العبادات كلها باختلاف أوقاتها وهيئاتها، تلتقى عند هدف واحد، وغاية واحدة، وهى التقوى، قَالَ تَعَالَى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]، هذه التقوى جعلها الله – ﷻ – هدفاً من أهداف الصيام، بل أخذ الصيام منها قدراً كبيراً، وحظاً وافراً، لأنه امتناع عما أحله الله – ﷻ – وأباحه، من الطعام والشراب، وإتيان الأهل: بخلاف العبادات الأخرى، فهى كف عن المحرمات، قَالَ تَعَالَى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2]، إن "هذا تعليل لكتابة الصيام، ببيان فائدته الكبرى، وحكمته العليا، وهو أنه يعد نفس الصائم لتقوى الله تعالى، بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة، امتثالاً لأمره، واحتساباً للأجر عنده، فتتربى بذلك إرادته على ملكة ترك الشهوات المحرمة، والصبر عنها، فيكون اجتنابها أيسر عليه، وتقوى على النهوض بالطاعات والمصالح، والاصطبار عليها، فيكون الثبات عليها أهون عليه"[3]، وهو بذلك يربى الإنسان على ضبط نفسه، والاستيلاء على شهواتها وملذاتها.

إن أولى العزم من الرسل – عليهم السلام – علموا مكانة التقوى عند الله – ﷻ –، وقوة تأثيرها، وحسن نتائجها في الأعمال، والتي تكون سبباً في سعادة الإنسانية في الدارين، لأنها تصون النفس من نوازع الشر والسوء، فدعا كل واحد منهم قومه إلى التقوى، قَالَ تَعَالَى:﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[4]، ولقد وصى بها سيدنا إبراهيم – عليه السلام – قومه، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[5]، ولقد بين سيدنا موسى – عليه السلام – لقومه أن الخاتمة المحمودة لمن اتقى غضب الله – ﷻ – بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، قَالَ تَعَالَى:﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ

---

(١) سورة البقرة الآية "٢١".

(٢) سورة البقرة الآية "١٨٣".

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٢، صـ١١٦.

(٤) سورة الشعراء الآيات "١٠٥ – ١٠٨".

(٥) سورة العنكبوت الآية "١٦".

﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾(١)، وكذلك أمر سيدنا عيسى - عليه السلام - أتباعه بالتقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٢)، ودعوة سيدنا محمد - ﷺ - مليئة بالأمر بتقوى الله - عز وجل -، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٣)، بل إن القرآن الكريم كله جاء ليدعو الناس، ويهديهم إلى التقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾(٤)، ولقد أمرنا سيدنا محمد - ﷺ - بتقوى الله - سبحانه وتعالى - في كل آن وحين، فعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسن تمحها وخالق الناس بخلق حسن"(٥)، فإذا كان أولوا العزم من الرسل قد دعوا أقوامهم إلى التقوى، فإن الصيام أكبر حافز لتحصيلها، وأحسن طريق يوصل إليها، لأنه يكف صاحبه عن كثير مما تطمح إليه نفسه من ارتكاب المعاصي.

٣- تعجيل الفطر وتأخير السحور

لم يعرف في تاريخ البشرية كلها، تشريع أرأف وأرحم بها، من تشريعات الله - عز وجل - التي جاء بها الأنبياء - عليهم السلام - من عند ربهم، حيث جاءت هذه التشريعات لتراعى في أحكامها مصلحة العباد، وتحقيق مقاصدهم، بعيداً عن كل ما يسبب إلحاق الأذى والضرر بهم، أو تعطيل مصالحهم، فمن التوجيهات التي جاء بها أولو العزم من الرسل، من عند ربهم لأممهم الصائمين، حثهم على المسارعة إلى الإفطار، والمبادرة إليه، دون تأخير أو تأجيل عند حلول وقت الإفطار، وذلك لأن النفس في الصيام تقطع ساعات النهار المتوالية، ممتنعة عن المأكل والمشرب وهى تشتهى ذلك، والصائم أمام هذه المغريات والشهوات يكبح جماح نفسه، ويحميها من اقتراف هذه الموانع ابتغاء مرضاة الله - عز وجل -، وقد كان تعجيل الإفطار سنة الأنبياء جميعاً

---

(١) سورة الأعراف الآية "١٣٨".
(٢) سورة الزخرف الآية "٦٣".
(٣) سورة التوبة الآية "١١٩".
(٤) سورة البقرة الآية "٢".
(٥) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، ٣٥٥/٤، رقم ١٩٨٧، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، باب بدون ترجمة، ١٢١/١، رقم ١٧٨، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

– عليهم السلام – وخاصة أولى العزم منهم، ونحن قد أمرنا باتباع هديهم، والتأسي بهم، فعن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "إنا معشر الأنبياء أمرنا أن نعجل إفطارنا، ونؤخر سحورنا، ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة"(١).

فهذا هو دأب الأنبياء – عليهم السلام – وتعجيل الفطر أفضل للبشر، لأنه يجعل الإنسان مصاحباً للخير، مقترناً به، فعن سهل بن سعد – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر"(٢)، "أي: ما داوموا على هذه السنة، لأن تعجيله بعد تيقن الغروب من سنن المرسلين، فمن حافظ عليه، تخلق بأخلاقهم، ولأن فيه مخالفة أهل الكتاب في تأخيرهم إلى اشتباك النجوم، وفى ملتنا شعار أهل البدع، فمن خالفهم واتبع السنة لم يزل بخير فإن أخره غير معتقد وجوب التأخير ولا ندبه فلا خير"(٣)، فتعجيل الإفطار فيه عدم انهماك النفس واتعابها، وعدم المشقة بطول المكث في الصيام، والذى قد يكون معه مشقة، فيعود الجسم إلى حيويته ونضارته، واسترداد كامل قوته، وفيه مخالفة أهل البدع، الذين يؤخرون الإفطار، وفى ذلك تمسك بالدين، والتزام بأحكامه، والأخذ بشريعته، وإظهاراً للسنة، فالخير يكون في التمسك بها، ومتابعتها حتى تكون الأمة قوة فعالة، ظاهرة على عدوها – متبعة دين الله وما جاء فيه، فعن أبى هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرون"(٤).

كذلك جاء أولوا العزم من الرسل بالتوجيهات التي ترشد أممهم إلى تأخير السحور لقول السيدة عائشة – رضى الله عنها –: "ثلاثة من النبوة، تعجيل الفطر، وتأخير السحور، ووضع اليمين على الشمال في الصلاة"(٥)، لأن في تأخير السحور فائدة، حتى يأتي النهار، والمعدة فيها من

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة، ٦٧/٥، رقم ١٧٧، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الطهارة، باب ما يستحب من تعجيل الفطر وتأخير السحور، ٤٠١/٤، رقم ٨١٢٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب ما جاء في تعجيل الإفطار، ٣٦/٣، رقم ١٩٥٧، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحباب تأخيره وتعجيل الفطر، ٧٧١/٢، رقم ١٠٩٨، "متفق عليه".

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، ج٦، صـ٤٥٠.

(٤) رواه أبو داود في سننه، كتاب الصيام، باب ما يستحب من تعجيل الفطر، ٣٧/٤، رقم ٢٣٥٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث صحيح لغيره"، ورواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الصوم، باب الإفطار وتعجيله، ٢٧٤/٨، رقم ٣٥٠٣.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان، مرجع سابق، كتاب تعجيل الفطر، ٨٥/٦، رقم ٨٧٥٢.

الغذاء ما يتقوى به على العبادة، وطاعة الله – ﷻ –، فلا يقعده الصيام عن العبادة، حتى يؤدى عمله بنشاط وهمة، وحتى لا تطيل فترة الصيام الزمنية، فيؤدى ذلك إلى إرهاق الجسد واتعابه، وإلحاق الأذى والضرر به، لاستقباله وجبتين من الطعام في أوقات متقاربة، قبل هضم الطعام الأول، فتأخير السحور يعطى الإنسان فترة زمنية كافية، لهضم أنواع الطعام التي تناولها عند الإفطار دون أن يكون هناك ثقل وعبء على أجهزة الإنسان الداخلية، وقبل ذلك كله التأسي برسل الله – عليهم السلام –، ولا شك في أن هذا تعويد للنفس على الامتثال الدقيق لأمر الله – ﷻ – والانقياد له، فإذا دخل وقت الإفطار بادر الصائم على شئ من الطعام أو الشراب دون تأخير أو تراخ، لأنه يطيع أمر الله – ﷻ –، بإفطاره كما أطاعه بالصيام، لينال محبته والقرب من الله – ﷻ –.

من خلال ذلك يتضح أن تعجيل الإفطار وتأخير السحور كان من هدى الأنبياء جميعاً – عليهم السلام – ونحن مأمورون بالاقتداء والتأسي بهم.

ثالثاً: أثر الصيام في الوقاية من الانحراف

مما لا شك فيه أن العبادات في الإسلام لها أثر كبير في تهذيب النفوس، وتطهيرها، وتزكيتها من الأدران والمعاصي، فيستقيم سلوك الإنسان، والصيام شعيرة من الشعائر الإسلامية الكبرى، وعبادة من العبادات التي لها أكبر الأثر في حياة المسلم، فهو يزود الإنسان بالتقوى والاستقامة فيتغلب على أهوائه وشهواته، لأن حقيقة التقوى أن يمتنع الإنسان عن الوقوع في المعصية، لأن من أهم آثار التقوى، قوة المراقبة لله – ﷻ –، والتي تمنع صاحبها من الوقوع في أدران المعاصي، ولذلك فقد جاءت آية الصيام مختتمة بالتقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾(١)، "فالمعنى: أنه فرض علينا الصوم ليعدنا بذلك لتقوى الله، والبعد عن محارمه، والرغبة في طاعاته، وبذلك يسعد المكلف، ويقوم بنصيبه في الحياة ويعمل لسعادة الدارين"(٢)، فالمقصود من الصيام كما وضحت الآية، تحقيق التقوى، بترك المحرمات، وفعل الطاعات، ويربي في الإنسان السيطرة على إرادته وضبطها، وعدم الانسياق وراء الرغبات الجسدية، وتحرره من أسر الشهوات، والملذات،

(١) سورة البقرة الآية "١٨٣".

(٢) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٤٩٦.

فالمسلم الذى يترك الحلال من المطعم والمشرب في نهار الصيام، فمن باب أولى يمتنع عن الرذائل والمحرمات، فإذا كان تركه للحلال في هذه العبادة واجباً، فإن تركه للحرام يكون أشد وجوباً وإلزاماً، وإن لم يفعل ذلك فلا خير له من هذا الصيام، فعن أبي هريرة – ﷺ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"(١)، إن النبي – ﷺ – في هذا الحديث "أخبر أن الصيام ترك ما ينهى الله – تعالى – عنه من قول، وعمل، وليس هو بترك الطعام والشراب فقط، فالصيام جنة تستره، وتحول بينه وبين المعاصي، وهو جنة في الآخرة من النار"(٢)، لأن الصيام يصون صاحبه من أن ينغمس في الشهوات، أو أن يتمادى في المعاصي والمنكرات، فهو يجعل بين صاحبه وبين الوقوع في المحرمات حاجزاً لا يتعداه، لأنه يراقب الله – ﷻ – في كل سلوك يصدر عنه، سواء قولاً أو عملاً، فيستحضر عظمة الله – ﷻ – حتى يعبد الله كأنه يراه، وعندما يبلغ هذه المنزلة، فلن يقصر في عمل الخير، ولن يجرؤ على عمل الشر، والفساد، استحياء من الله – ﷻ – وخوفاً منه ومن عقابه، لأنه يراه ويعلم ما يعمل به، فالصيام الذى أمر الله – ﷻ – به هو مانع النفس، وحاجز لها عن تسلط الهوى والشهوات، فإذا كان لا يتورع عن الحرام، ولا يبتعد عنه، ولم يغير الصيام شيئاً من سلوكه، فإن هذا الصيام لا يعدو، أن يكون أمراً تقليدياً، وعادة، لا يرجى له أن يثمر، أو يحقق فوائده وأهدافه.

- إن الصيام يهدف إلى وقاية الإنسان من الانحراف، وذلك من خلال تطهير قلبه، وتزكية نفسه، وتنقية ضميره، ولذلك وصفه النبي – ﷺ – بالجُنَّة، فعن أبي هريرة – ﷺ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "الصوم جنة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني امرؤ صائم"(٣)، أي: "وقاية في الدنيا من المعاصي بكسر الشهوة وحفظ الجوارح، وفى الآخرة من النار، لأنه يقمع الهوى، ويردع الشهوات التي هي من أسلحة الشيطان، فإن الشبع

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، ٣/٢٦، رقم ١٩٠٣.

(٢) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، أبو بكر محمد بن أبى إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي، المتوفى سنة ٣٨٠هـ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص٦٩.

(٣) رواه البخاري، كتاب الصيام، باب فضل الصوم، ٣/٢٤، رقم ١٨٩٤، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب الصوم، باب حفظ لسان الصائم، ٢/٨٠٦، رقم ١١٥١.

مجبلة الآثام، منقصة للإيمان"(١)، كذلك إذا لم يجد الإنسان المقدرة على الزواج فعليه أن يقي نفسه بالصوم، فإذا لم يحرص على هذه التدابير الوقائية، ولم يلتزم بها، فقد يكون ذلك سبباً للوقوع في حمأة الرذيلة، ولذلك فقد جعله النبي - ﷺ - وقاية للشباب الذين لم يستطيعوا الزواج، لأنه يعلمهم الهيمنة على أنفسهم، ويبعث فيهم روح الخشية، ومراقبة المولى - ﷻ - في سلوكهم، فإذا كانوا أقدر على حرمان أنفسهم من الحلال الطيب مع شدة حاجتهم إليه، فهم أقدر على كفها عن الحرام الخبيث "وبعيد أن يعف الرجل عن امرأته وهي حلال له، لأن الله أمره أن يعف عنها في نهار رمضان، ثم يتطلع إلى امرأة غيره، وكذلك يبعد أن يعف الإنسان عن طعامه الذي هو حلال له، لأن الله طالبه بذلك، ثم يأكل من مال غيره بالباطل، كأكله من طريق الرشوة، أو من طريق الربا، أو السرقة، أو غير ذلك"(٢)، فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء"(٣)، ووقاية، لأن فيه تقوية للإرادة، وتربية للعزيمة، فيملك الإنسان أمره، ويسيطر على هوى نفسه، فيوجهها إلى ما فيه صلاحها، ويمنعها، إذا دعته إلى حرام، أو زينت له محظوراً وباطلاً، فيزن الأمور كلها بميزان الشرع، فما كان موافقاً له استمر عليه، وما كان مخالفاً له تركه وابتعد عنه، لأن النفس امتلأت بالخوف من الله - سبحانه وتعالى - ورجائه، فعفت عن الحرام، ولذلك يضاعف الله له الأجر بغير حساب، فعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: "كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله – ﷻ – "إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزى به، يدع طعامه وشهوته من أجلى"(٤)، وهذا "معناه: أن الصوم عبادة خالصة لي، لا يستولى عليه الرياء والسمعة، وليس كسائر الأعمال التي يطلع عليها

---

(١) فيض القدير، المناوي، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٤٢.

(٢) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٤٩٦.

(٣) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من خاف على نفسه العزوبة، ٢٦/٣، رقم ١٩٠٥، ورواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، ١٠١٨/٢، رقم ١٤٠٠، "واللفظ له".

(٤) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم، ٢٤/٢، رقم ١٨٩٤، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، ٨٠٧/٢، رقم ١١٥١١، "واللفظ له".

الخلق"[١]، فإذا تركت النفس ما تشتهيه وهى في أشد التوقان إليه مع قدرتها عليه، فهذا دليل على قوة الإيمان، وشدة المراقبة لله – ﷻ –، فلا أحد يطلع على ذلك إلا هو – ﷻ –.

إن الله – ﷻ – غنى عن صيام العبد من أن يدع الطعام والشراب والشهوة، ولكنه جعل الصيام وسيلة من الوسائل التي يضبط بها الإنسان نفسه وجوارحه، فيصون الإنسان يده عن البطش بالضعفاء والمساكين، ومن أن تمتد إلى ما هو محرم، ويصون رجله من أن تمشى إلى أماكن اللهو والفجور، وكل ما هو محرم، ويصون أذنه عن سماع كل ما يغضب الله – تعالى – عليه، ويصون عينه عن النظر إلى ما حرم الله، ولقد بين النبي – ﷺ – أن هناك طائفة من الناس يصومون لكن لا يكتب لهم أجر هذا الصيام، فنصيبه منه الجوع والعطش، وتعذيب أنفسهم، وذلك لأن الأعضاء والجوارح، لم تمتنع عن فعل ما يغضب الله – ﷻ –، فعن أبي هريرة – ﵁ – قال رسول الله – ﷺ –: "رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر"[٢].

فالصيام تطهير للجوارح من أعمال السوء والمكدرات الحسية والمعنوية، وهو يحمى عرض الإنسان من أي اعتداء، أو إساءة، فعن أبي هريرة – ﵁ – قال: قال: رسول الله – ﷺ –: "إذا أصبح أحدكم يوماً صائماً فلا يرفث[٣]، ولا يجهل[٤]، فإذا امرؤ شاتمه[٥]، أو قاتله[٦]، فليقل إني صائم، إني صائم"[٧]، إن هذا توجيه لما يجب أن يكون عليه الصائم من طيب النفس، وصفاء

([١]) شرح السنة، محيى السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المتوفى سنة ٥١٦هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – محمد زهير الشاويش، الناشر، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط٢، سنة ١٤٠٣هـ، سنة ١٩٨٣م، ج٦، صـ٢٢٤.

([٢]) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة، والرفث للصائم، ٥٩١/٢، رقم ١٦٩٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده صحيح"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الصوم، باب بدون ترجمة، ٥٩٦/١، رقم ١٥٧١، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه".

([٣]) الرفث: وهو السُخفُ وفاحش الكلام، شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج٨، ص٢٨.

([٤]) الجهل: قريب من الرفث، وهو خلاف الحكمة، وخلاف الصواب من القول والفعل، المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

([٥]) شاتمه – شتمه، متعرضاً لمشاتمته، المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

([٦]) قاتله: نارعه ودافعه، المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

([٧]) رواه البخاري، كتاب الصيام، باب فضل الصوم، ٢٤/٣، رقم ١٨٩٤، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب حفظ لسان الصائم، ٨٠٦/٢، رقم ١١٥١، "واللفظ له".

الروح، واختلف في القول هنا، هل هو سر أم جهر؟ "فقيل: يقوله بلسانه جهراً يسمعه الشاتم والمقاتل، فيزجر غالباً، وقيل: لا يقوله بلسانه، بل يحدث به نفسه، ليمنعها من مشاتمته، ومقاتلته ومقابلته، ويحرص صومه عن المكدرات، ولو جمع بين الأمرين كان حسناً، واعلم أن نهى الصائم عن الرفث والجهل، والمخاصمة، والمشاتمة، ليس مختصاً به، بل كل أحد مثله في أصل النهى عن ذلك، لكن الصائم أكد، والله أعلم"(١).

- إن من خصائص شهر الصيام الذى امتن الله به على خلقه، تصفيد الشياطين، حتى لا يبقى لها تسلط، أو أثر على المسلم، وبذلك يكون في وقاية من خطر أكبر عدو يترصد له، ليوقعه في المهالك، وليصده عن ذكر الله، فعن أبى هريرة - ﷺ - أن النبي - ﷺ - قال: "إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين"(٢)، وعندما تسلسل الشياطين وتصفد، فلا يعنى أن أسباب المعاصي قد زالت، ولكن هناك النفس الأمارة بالسوء، فإذا لم يقم صاحبهما بمجاهدتها، فإنها تكون أشد خطراً من الشياطين، فعليه أن يجاهد نفسه حتى تقلع عن المهلكات، وتقبل على الطاعات، فإذا تعود على ذلك في الصيام، سهل عليه أن يستمر على الصلاح والاستقامة بعد الصيام، فيكون العمر كله كالصيام في الالتزام بالأوامر، واجتناب المحرمات، فالصيام لم يشرع لإزهاق النفس، وحل المشقة والإرهاق، ولكن شرع لإصلاح النفوس، والتغلب على الشرور، والآثام، ولينمي في الإنسان ملكة التقوى، والمراقبة لله - ﷻ - فيستقيم سلوك الإنسان.

---

(١) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج٨، صـ٢٨ وما بعدها.

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان، ٢٥/٣، رقم ١٨٩٩، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، ٧٥٨/٢، رقم ١٠٧٩.

المبحث الرابع

التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في فريضة الحج

أولاً: تعريف الحج

أ) الحج في اللغة

يقصد بالحج في اللغة: "كثرة القصد إلى من يعظم"(١)، هذا في الأصل، "ثم تعورف استعماله في القصد إلى مكة للنسك والحج إلى البيت خاصة، تقول حج يحج حجاً، والحج: قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضاً وسنة"(٢)، و"الحج: القدوم، يقال: حج علينا فلان: أي قدم"(٣)، و"حاجه محاجة وحجاجاً. جادله"(٤)، فالحج في اللغة يفيد القصد، والقدوم، والجدال، ثم شاع استخدامه لقصد بيت الله الحرام لأداء المناسك.

ب) الحج في الشرع

أما تعريف الحج في الشرع فهو: "أعمال مخصوصة، تؤدى في زمان مخصوص، ومكان مخصوص، على وجه مخصوص"(٥)، وهذا التعريف عام، لأنه لم يقيد قصد المكان المعظم، بنية أداء المناسك، وعلى ذلك فقد يدخل فيه من قصد مكة المكرمة للعمل والتجارة ونحوهما، دون قصد أداء المناسك، وعلى ذلك فلابد من تقييده بنية أداء المناسك، ولذلك فقد عرف بأنه: "القصد إلى مكة للنسك"(٦)، وبذلك يخرج مَنْ قصدها لغير النسك.

ثانياً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولي العزم في فريضة الحج

إن الحج عبادة عظيمة من العبادات التي فرضها الله – ﷻ – على عباده، ومنحها مكانة عالية، ومنزلة رفيعة، لما لها من دور هام في إعداد الأفراد الصالحين، وحمايتهم من الزلل والانحراف، لأن الحج في الإسلام ليس مجرد سفر، وانتقال من مكان إلى آخر على وجه التعظيم والتقديس فحسب، دون أن يكون له أثر في توجيه فاعله، ووقايته من الزلل، وهناك بعض التوجيهات التربوية الوقائية المستنبطة من دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الحج، حتى لا تؤدى المناسك بالأبدان فقط دون أن يكون لها أثر في تربيته، وهذه هي بعض المبادئ الوقائية في فريضة الحج في دعوتهم.

---

(١) العين، الفراهيدي، مرجع سابق، ج٣، صـ٩.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٢، صـ٢٢٦.

(٣) تاج العروس، الزبيدي، مرجع سابق، ج٥، صـ٤٥٩.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مرجع سابق، ج١، صـ١٥٦.

(٥) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري، مرجع سابق، ج١، صـ٥٧١.

(٦) إرشاد السالك إلى أشرف المسالك في فقه الإمام مالك، عبدالرحمن بن محمد بن عسكر البغدادي أبو زيد شهاب الدين المالكي، المتوفى سنة ٧٣٢هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٣، بدون ت، صـ٤١.

(١) تعظيم أولي العزم من الرسل لشعائر الله - ﷻ -

إن الحج عبادة قديمة، موجودة في شرائع الرسل والأنبياء السابقين - عليهم السلام - من لدن سيدنا آدم - عليه السلام - إلى خاتم الأنبياء سيدنا محمد - ﷺ -، فهم أول من امتثل أمر الله - ﷻ -، بالحج، لأنهم ما دعوا إلى شئ، إلا كانوا أسبق الناس إلى فعله، وتطبيقه، فحجوا بيت الله الحرام، ودعوا أقوامهم إلى أداء هذه الشعيرة، حتى كانت مكة مقصد الحجاج منذ سيدنا آدم - عليه السلام - إلى يومنا هذا، وهناك جملة من الآثار، والأدلة التي تبرز تعظيم أولى العزم من الرسل - عليهم السلام - لبيت الله - ﷻ - وشعائره، فهم يقضون المناسك، ويطوفون بالبيت، خالعين نعالهم، تكريماً لشعائر الله - ﷻ -، فعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: "كانت الأنبياء تدخل الحرم مشاة، حفاة، ويطوفون بالبيت، ويقضون المناسك. حفاة مشاة"(١).

وعنه أيضاً - قال: "لقد سلك فج الروحاء(٢)، سبعون نبياً، حجاجاً، عليهم ثياب الصوف، ولقد صلى في مسجد الخيف(٣)، سبعون نبياً"(٤)، إن هذه الآثار، تدل في مجملها على أن الأنبياء عامة، وأولي العزم منهم خاصة، قد عظموا بيت الله الحرام بحجهم إليه، فحجهم إليه، تعظيماً له، ولمن دعا إلى حجه، لأن من عظم الله - ﷻ - عظم شعائره، ومن أحبه زار أحب البقاع إليه، ليلتمس الرحمة والمغفرة، وهم يرتدون أفضل ثيابهم، وهناك بعض الآثار التي تفيد بأن أولى العزم من الرسل - عليهم السلام -، قد حجوا بيت الله الحرام، وعظموه.

- لقد جاء حديث يربط بين حج سيدنا آدم وسيدنا نوحاً - عليهما السلام - فعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال النبي - ﷺ -: "بعث الله جبريل إلى آدم، وحواء، فقال لهما،

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب دخول الحرم، ١٧٠/٤، رقم ٢٩٣٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده ضعيف من أجل مبارك بن حسان".

(٢) فج الروحاء: محطة على الطريق بين المدينة، وبدر، على مسافة أربعة وسبعين ميلاً من المدينة. وكان طريق رسول الله - ﷺ - إلى بدر وإلى مكة، عام الفتح، وعام الحج، "المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد بن محمد حسن شراب، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، سنة ١٤١١هـ، صـ١٣١، وينظر "معجم البلدان، الحموي، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٣٦.

(٣) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل، وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمى مسجد الخيف في منى، وهو خيف بنى كنانة، وخيف نوح أعلى طريق بدر من المدينة، "المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، مرجع سابق، شراب، صـ١١٠، ومعجم البلدان، مرجع سابق، الحموي، ج٣، صـ٣٨٧.

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب دخول مكة بغير إرادة حج ولا عمرة، ٢٨٨/٥، رقم ٩٨٣٧، "إسناده ضعيف".

ابنيا لي بيتاً، فخط لهما جبريل، فجعل آدم يحفر، وحواء تنقل، حتى أجابه الماء، فنودى من تحته، حسبك يا آدم – فلما بنيا، أوحى الله إليه أن يطوف به، وقيل له أنت أول الناس، وهذا أول بيت، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه"(١)، فإنه يدل على تعظيم سيدنا آدم وسيدنا نوح – عليهما السلام – لبيت الله – ﷻ –، وأنهما قد حجوا بيت الله وطافوا حوله، وقد ورد عن عروة بن الزبير – رضي الله عنه – قال: "بلغني أن البيت وضع لآدم – عليه السلام – يطوف به، ويعبد الله عنده، وأن نوحاً قد حجه، وجاءه وعظمه قبل الغرق"(٢).

ولقد أمر الله – ﷻ – سيدنا إبراهيم – عليه السلام – برفع قواعد البيت، وإعادة بنائه بعد أن هيأ له موقعه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾(٣)، فظاهر الآية يشير إلى أن موضع البيت كان موجوداً، لأن الرفع لا يكون إلا لشيء موجود، ومعروف، ومما يزيد الأمر تأكيداً، قول الله – ﷻ –: ﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾(٤)، ومعنى بوأنا "أي: هيأناه له، وعرفناه إياه، ليبنيه بأمرنا على قواعده الأصلية المندرسة، حين أمرنا ببنائه، كما يهيأ المكان لمن يريد النزول فيه"(٥)، وقد ذهب إليه الأنبياء قبل سيدنا إبراهيم – عليه السلام – كسيدنا آدم ونوحاً – عليهم جميعاً السلام – وقد جاء عن سيدنا ابن عباس – رضي الله عنه – في حديث بناء سيدنا إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – للكعبة "قال: يعني – سيدنا إبراهيم – عليه السلام – يا إسماعيل: إن الله أمرني أن ابنى ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها"(٦)، وفي أثناء بنائهما للبيت توجهاً – عليهما

---

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن على بن موسى الخرساني أبو بكر البيهقي، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٥٨هـ، باب ما جاء في بناء الكعبة على طريقة الاختصار وما ظهر فيه على رسول الله – ﷺ – من الآثار، ٥٤/٢، وقال: "انفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً".

(٢) رواه الأزرقي: في أخبار مكة، باب ذكر حج إبراهيم – عليه السلام – وآذانه، ٧٢/١، والبيهقي في السنن الكبرى، باب دخول مكة بغير إرادة حج ولا عمرة، ٢٨٨/٥، رقم ٩٨٣٧.

(٣) سورة البقرة الآية "١٢٧".

(٤) سورة الحج الآية "٢٦".

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٩٦.

(٦) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله – تعالى – "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى"، رقم ٣٣٦٤.

السلام – إلى الله – تعالى – يسألانه الهداية للمناسك، فقالا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[١] ، فهما يطلبان من الله – ﷻ – أن يريهما المناسك، لأنه لا سبيل إلى معرفة تفاصيل العبادات، وكيفية أدائها إلا بطريق الإعلام من الله – ﷻ –، فجعل له الله تعالى – ما سأل، حيث بعث إليه سيدنا جبريل – عليه السلام – ليريه كيفية أداء المناسك، فعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – قال: "أتى جبريل إبراهيم – عليه السلام – يريه المناسك، فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمني[٢]، ثم ذهب معه إلى عرفة[٣]، فصلى به الظهر والعصر بمزدلفة[٤]، ثم أبات ليلته، ثم دفع به حتى رمى الجمرة، فقال له: اعرف الآن، فأراه المناسك كلها، وفعل ذلك بالنبي – ﷺ –"[٥]، ثم يأتي سيدنا موسى – عليه السلام – معلناً استجابته لربه، فيؤدي الحج، رافعاً صوته بالتلبية، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – مر بوادي الأزرق[٦]، فقال: "أي واد هذا"؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق، قال: "كأني أنظر إلى

---

(١) سورة البقرة من الآية "١٢٨".

(٢) منى: بالكسر والتنوين، في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الحجار من الحرم، سمى بذلك لما يمنى به من الدماء، أي: يراق، وقيل: لأن آدم – عليه السلام – تمنى فيها الجنة، وقيل – منى – من مهبط العقبة إلى محسر، وموقف المزدلفة من محسر إلى أنصاب الحرم، قال ابن عينية: هي بليدة على فرسخ من مكة طولها ميلان، ترمي عليها الجمرة يوم النحر، "معجم البلدان"، الحموي، مرجع سابق، ج٥، صـ١٩٨.

(٣) عرفة: عرفة وعرفات واحد عند أكثر أهل العلم، وعرفة حدها من الجبل المشرف على بطن عرفة إلى جبال عرفة، وقال ابن عباس: حد عرفة من الجبل المشرف، على بطن عرفة إلى جبالها إلى قصر آل مالك، ووادي عرفة، وقيل هي تل مرتفع في قبل مسجد قباء، سمى بذلك، لأن النبي – ﷺ – كان يقف يوم عرفة عليه، فيرى منه عرفات "معجم البلدان"، مرجع سابق، ج٤، صـ١٠٤، وينظر أيضاً وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، على عبد الله بن أحمد الحسنى الشافعي أبو الحسن السمهودي، المتوفى سنة ٩١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ج٤، صـ١١٤.

(٤) المزدلفة: مبيت للحجاج، ومجمع الصلاة إذا حرروا من عرفات، وهو مكان بين بطن محسر والمأزمين، وهي فرسخ من منى، بها مصلى وسقاية، ومنارة، ومسجد المزدلفة، أسفل من المسجد الحرام عن يسارك، إذا مضيت إلى عرفات، طول المسجد ثلاث وستون ذراعاً، وعرضه خمسون ذراعاً، وارتفاع حائطه عشرة أذرع. "معجم البلدان، الحموي، مرجع سابق، ج٥، صـ١٢١، وينظر أيضاً "الروض المعطار في خير الأقطار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري، المتوفي سنة ٩١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ج٤، صـ١١٤.

(٥) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب ذكر العلة التي من أجلها سميت عرفة، ٢٦٤/٤، رقم ٢٨٤٢، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه، س ٣٣٢/٣، رقم ١٤٧٠٠.

(٦) الأزرق: واد بالحجاز، والأزرق ماء في طريق حاج الشام دون تيماء، وهو موضع خلف أمج، إلى مكة بميل، معجم البلدان، الحموي، مرجع سابق، ج١، صـ١٦٨، وينظر أيضاً: "الروض المعطار في خير الأقطار"، الحميري، مرجع سابق، صـ٦٠٤.

موسى عليه السلام هابطاً من الثنية، وله جؤار[١]، إلى الله بالتلبية"[٢]، فهذا سيدنا موسى – عليه السلام – قد هبط من ثنية وادي الأرزق لحج بيت الله الحرام.

وهذا سيدنا عيسى – عليه السلام – يرد ذكره في حديث، بأنه سَيَهِلّ ملبياً بالتوحيد لله – عز وجل – ليحج بيت الله – عز وجل – فعن أبى هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "والذي نفسي بيده لَيُهِلَّنَّ ابن مريم بفج الروحاء حاجاً أو معتمراً، أو لَيُثَنِّيهِمَا"[٣]، ولقد بين سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – أن الحج ركنٌ من أركان الإسلام التي بنى عليها، وبه يطالب كل مسلم استطاع إليه سبيلاً، فعن ابن عمر – رضي الله عنه –: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان"[٤]، ولقد مهد النبي – صلى الله عليه وسلم – لحجته بالآذان في الناس، أنه حاج، ليقدموا عليه، فَيُعلِّمَهُم مناسكهم، ويقتدوا به فعن جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – قال: إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : مكث تسع سنين ولم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حاج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ويعمل مثل عمله"[٥].

فهذه سلسلة أولى العزم من الرسل، لم ينقطع ورودها إلى بيت الله – عز وجل – وإذا كانوا قد حجوا، فلا شك، أنهم كان معهم من أقوامهم المؤمنين، وفي تذكير النبي – صلى الله عليه وسلم – أمته بهذا، بيان بأن الله – عز وجل – أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فأولوا العزم قد حجوا بيت الله – سبحانه وتعالى –، وأدوا المناسك، ودعوا أقوامهم إلى حجه، وهذا تعظيم لهذا البيت، ولمن دعا إلى حجه، وأنهم بمجيئهم إليه لحجهم، قد استجابوا الله – عز وجل –.

---

(١) "الجؤار: وهو رفع الصوت في الدعاء، يقال: جأر إلى الله تعالى: إذا تضرع"، مجمل اللغة، ابن فارس، ج١، صـ٢٠٥.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفرض الصلوات ١٥٢/١ رقم ١٦٦.

(٣) رواه مسلم، كتاب الحج، باب إهلاك النبي – صلى الله عليه وسلم – وهديه معه، ٩١٥/٢، رقم ١٢٥٢.

(٤) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي بني الإسلام على خمس، ١٠/١، رقم ٨، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي بني الإسلام على خمس، ٥٤/١، رقم ١٦.

(٥) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي – صلى الله عليه وسلم – ٨٨٦/٢، رقم ١٢١٨.

(٢) الحج تخلي وتحلي وذكر لله – تعالى –

لقد أمر الله – ﷻ – عباده أن يذكروه ذكراً كثيراً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾(١)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الذكر من أحب الأعمال إلى الله – ﷻ – فهو ثمرة العبادات، والله – ﷻ – دعا الناس لحج بيته تعالى، لإقامة ذكره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ ﴾(٢)، ولقد بين النبي – ﷺ – أن مناسك الحج إنما شرعت لإقامة ذكر الله – ﷻ –، فعن عائشة – رضى الله عنها – أن النبي – ﷺ – قال: "إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمى الحجار، لإقامة ذكر الله"(٣).

ولقد أشار القرآن الكريم، أن الله – ﷻ – جعل لكل أمة من الأمم، مكاناً يألفونه ويعتادونه، كل ذلك لأجل ذكر الله – ﷻ – ثم بين أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الذبح، وهو منسك من مناسك الحج، وبين الذكر، فقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ ﴾(٤)، "والمعنى: وجعلنا لكل أهل دين من الأديان ذبحاً يذبحونه، ودماً يريقونه، أو متعبداً، أو طاعة، أو عيداً، أو حجاً يحجونه، ليذكروا اسم الله وحده، ويجعلوا نسكهم خاصاً به على ما رزقهم من بهيمة الأنعام"(٥)، ولا يوجد ما يمنع أن يكون المراد هنا، جميعها، لأن الآية، وما قبلها وما بعدها، مسوقة لبيان أعمال الحج وزمانه، ومكانه، خاصة، وأن أفعال الحج كلها تسمى مناسك، فذكر الله – ﷻ – هو المقصد الأسنى من مقاصد الحج عند كل أمة من أمم الأنبياء والمرسلين، وقد أشارت بقية الآية بعدها، إلى وحدة الدين الذي جاء به الأنبياء جميعاً، وأنهم قد اتفقوا على الدعوة إلى الأصول المشتركة التي اتفقوا عليها، والتي تمثل الإسلام العام، الذي لا يقبل الله من أحد ديناً غيره، قَالَ تَعَالَىٰ:

---

(١) سورة الأحزاب الآيات "٤١ – ٤٢"

(٢) سورة الحج الآيات "٢٧-٢٨"

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب في الرمل، ٢٧١/٣، رقم ١٨٨٨، ورواه الترمذي، أبواب الحج، باب ما جاء في كيف رمى الحجار، ١٧٣٧/٧، رقم ٩٠٢، وقال: "حديث حسن صحيح"، ورواه الحاكم في مستدركه، كتاب المناسك، باب بدون ترجمة، ٦٣٠/١، رقم ١٦٨٥، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٤) سورة البقرة من الآية "٢٠٣".

(٥) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٣، صـــ٥٣٥.

﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾[١]، إن الآية فيها "إشارة إلى أن المناسك والشعائر، والعبادات التي تعبد الله بها عباده، على لسان رسله – وإن اختلفت صوراً وأشكالاً – هي من دين الله، وهي طريق عباده إلى طاعته ورضاه، وأن هذا الاختلاف في صورها، وأشكالها، لا يجعل منها سبباً إلى الاختلاف بين المؤمنين بالله، فكلهم يعبدون إلهاً واحداً، ومن شأنهم أن يكونوا أمة واحدة"[٢]، وإذا تأملنا الآيات التي تتحدث عن الحج، وأحكامه، وجدنا أن إقامة ذكر الله – ﷻ –، واضحتاً فيها، فقبل كل منسك، ذكرٌ لله – ﷻ – وبعده، وفي أثنائه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾[٣]، وبعد أداء المناسك أمر الله – ﷻ – بالذكر، فقال: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[٤]، ثم بين الله – ﷻ – أن الذكر ليس قولاً باللسان فقط، مع غفلة القلب، بل إن الذكر المطلوب من العبد، هو الذي يؤثر في القلب، فيزكيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[٥]، فإذا ذكر الإنسان الله – ﷻ –، ظهر عليه الخوف منه ومن عقابه، فيبتعد عن كل ما حرم، لأن الشيطان لا يتسلط على العبد إلا إذا غفل عن ذكر الله – ﷻ –، ولذلك كان الذكر سلاحاً يطرد وساوس الشياطين، ويقي الإنسان من مكائده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[٦]، فمن لازم ذكر الله – ﷻ – كان في حصن من الشيطان، وفي حرز من شره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[٧]، فذكر الله سببٌ لتبصير الإنسان بمكائد الشيطان، فيحذر منها، بل إن نسيان ذكر الله – ﷻ – هو

---

(١) سورة الحج من الآية "٣٤".

(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج٩، صـ١٠٣٧.

(٣) سورة البقرة من الآية "٢٠٣".

(٤) سورة البقرة من الآية "٢٠٠".

(٥) سورة الحج الآيات "٣٤-٣٥".

(٦) سورة الأعراف الآية "٢٠١".

(٧) سورة الزخرف الآية "٣٦".

سبب استحواذ الشيطان على الإنسان، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[١].

ولذلك كان الذكر علاجاً حاسماً ينجو به الإنسان من استحواذ الشيطان، وسيطرته عليه، فكان أمر الله – ﷻ – للمؤمنين الحجاج، "إذا فعلتم منسكاً من مناسك الحج فاذكروا الله تعالى، كالتلبية عند الإحرام، والتكبير عند الرمي، والتسمية عند الذبح"[٢]، ويوم عرفة في الحج من أفضل المواسم التي يستحب فيها الدعاء، فعن عمرو بن شعيب – ﷺ – عن أبيه عن جده أن النبي – ﷺ – قال: "أفضل الدعاء: دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير"[٣].

من خلال ذلك يتضح أن ذكر الله – ﷻ – من أكبر مقاصد الحج وغاياته، ولذلك فإنه لا يخلو نسك من مناسك الحج من ذكر الله – ﷻ –.

(٣) التلبية شعار حج أولى العزم من الرسل وأتباعهم

إن الحج من الفرائض التي تحقق معاني العبودية، والذل، والخضوع، لله – ﷻ –، والاستسلام له، وذلك كانت التلبية شعار الحج، لأن معنى التلبية: "الإجابة: تقول، لبيك، معناه: قرباً منك وطاعة لأن الإلباب القرب[٤]، فالتلبية تتضمن الإجابة لمناد ناد، "وقال جماعة من أهل العلم: معنى التلبية: إجابة نداء إبراهيم – عليه السلام – حين نادى بالحج"[٥]، وتتضمن كذلك معنى الخضوع والتذلل لله وحده ولذلك عرفت بأنها: "الإجابة والقصد والإخلاص، وتكون بالقلب واللسان، ولا تتم إلا باجتماع الكل"[٦]، وذلك لأن الحج يشتمل على أعمال ومناسك، قد لا تهتدي العقول إلى

---

(١) سورة المجادلة الآية "١٩".

(٢) أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله، أبو بكر بن العربي، المتوفي سنة ٥٤٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ج١، صـ١٩٧.

(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة، ٥٧٢/٥، رقم ٣٥٨٥، وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه"، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج، باب أفضل الدعاء، دعاء يوم عرفة، ١٩٠/٥، رقم ٩٤٧٣، وقال: "هذا مرسل".

(٤) التلبية: "العين، الفراهيدي، مرجع سابق، ج٨، صـ٣٤١.

(٥) المغني لابن قدامة، مرجع سابق، ج٣، صـ٢٧١.

(٦) مواهب الجليل في شرح مختصر الخليل، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المعروف بالحطاب الرعيني، المتوفي سنة ٩٥٤هـ، دار الفكر، ط٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ج٣، صـ١٠٦.

إدراك معانيها، وفيه ينتقل الحاج من منسك إلى آخر، وليس له خيار في فعله أو تركه، حتى لا يفسد حجه، استسلاماً، وانقياداً لأمر الله – ﷻ –، واقتداء برسول الله – ﷺ –، وقد لا يدرك العقل المراد منها، فسيدنا عمر بن الخطاب – ﷺ – يقول عند تقبيل الحجر الأسود "إني لأقبلك، وإني أعلم أنك حجر لا تضر، ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك"(١)، إن هذا الحديث فيه "بيان الحث على الاقتداء برسول الله – ﷺ – في تقبيله، ونبه على أنه يجب أولاً الاقتداء به لما فعله، وإنما قال وإنك لا تضر ولا تنفع، لئلا يغتر بعض قريبي العهد بالإسلام، الذين كانوا ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها، ورجاء نفعها، وخوف الضر بالتقصير في تعظيمها، وكان العهد قريباً بذلك فخاف عمر – ﷺ – أن يراه بعضهم يقبله، ويعتني به، فيشتبه عليه، فبين أنه لا يضر ولا ينفع بذاته، وإن كان امتثال ما شرع فيه ينفع بالجزاء والثواب، فمعناه: أنه لا قدرة له على نفع، ولا ضر، وأنه حجر مخلوق، كباقي المخلوقات التي لا تضر ولا تنفع"(٢)، وما دام العقل لا يدرك معانيها، فإن تأديته لها امتثالاً لأمر الله – ﷻ – واقتداءً برسول الله – ﷺ – وبذلك يظهر كمال عبودية المسلم لخالقه، وترويض نفسه على الطاعات، ولذلك فإن الحاج يردد التلبية، ويرفع بها صوته معلناً استجابته لأمر الله – ﷻ – والتزامه به، حتى جعلت التلبية شعار الحج، وهي مظهر عظيم من مظاهر الاستسلام، فالحاج يؤدي هذه الفريضة طاعة لله – ﷻ –، وانقياداً له، ولذلك، فإن أولي العزم من الرسل اتفقوا على التلبية في الحج، معلنين استجابتهم لربهم، وإخلاصهم له، ولذلك فقد ورد في تاريخ مكة أن رسول الله – ﷺ – قال: "لقد مر بفج الروحاء، أو قال: "لقد مر بهذا الفج – سبعون نبياً على نوق حمر – خطمها الليف، ولبوسهم العباد، وتلبيتهم شتى، منهم يونس بن متى – فكان يونس يقول: "لبيك فراج الكرب لبيك، وكان موسى يقول – لبيك أنا عبدك، لبيك لبيك، فقال وتلبية عيسى، لبيك أنا عبدك، ابن أمتك، بنت عبديك لبيك"(٣)، إن هذا تأكيد على أن شعار الرسل – عليهم السلام – في الحج، هو التلبية، وإذا كان الرسل – عليهم السلام – قد استجابوا لله – ﷻ – وانقادوا لأمره، فإن الواجب

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، ٢/١٤٩ رقم ١٥٩٧، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ٢/٩٢٥، رقم ١٢٧٠.

(٢) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج٩، صـ ١٦ وما بعدها.

(٣) أخبار مكة للأزرقي، مرجع سابق، باب ذكر حج إبراهيم عليه السلام، وآذانه، ١/٧٣، وقال الإمام القسطلاني: "إسناده معضل"، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج٣، صـ١١٥.

على المسلم في كل شأنه، أن يكون ملبياً نداء الله – ﷻ – مستجيباً لأوامره، منقاداً لحكمه، بحب وتعظيم، اقتداءً بالأنبياء – عليهم السلام.

وحقيقة التلبية: سرعة الاستجابة لله – ﷻ – مع الخضوع والتذلل له، ومعاهدته على لزوم طاعته، ومعنى لبيك "أي: أنا مقيم على طاعتك، إلباباً بعد إلباب، وإجابة، أو معناه: اتجاهي وقصدي لك"(١).

- وإذا كان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – قد أَذَّن في الناس بالحج "فصاح صيحة عباد الله، أطيعوا داعي الله، فاستجاب له حتى مَنْ في أصلاب الرجال، وأرحام النساء، فمن حج البيت بعد دعوته، فهو ممن أجاب دعوته، ووفاه من وافاه، يقولون: لبيك داعي ربنا لبيك"(٢)، وإذا كان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – قد نادى في الناس بذلك فأجابوا، فليس من المعقول أن ينادي في الناس بذلك ولم يلبي، بل لبى هو الآخر نداء الله – ﷻ – لأن الله – سبحانه وتعالى – شهد له في القرآن، بأنه وفي بكل ما أُمر به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾(٣)، "أي: قام بجميع ما أمره الله – تعالى – به"(٤)، ومن أشد هذه الأمور التي وفاها على أكمل وجه، أنه أمر بذبح ولده(٥)، فامتثل لأمر الله – ﷻ – ففداه الله بذبح عظيم، لصدقه، ومدى ثباته على طاعة الله – ﷻ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾(٦) فصار ذبح الهدي(٧) من مناسك الحج، اقتداءً بفعل سيدنا إبراهيم – عليه السلام –.

---

(١) القاموس المحيط، الفيروز أبادى، مرجع سابق، ج١، صـ١٣٣.

(٢) الام، الشافعي أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب، المتوفي سنة ٢٠٤هـ، دار المعرفة، بيروت، بدون ط، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ج٢، صـ١٥٤.

(٣) سورة النجم الآية "٣٧".

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٤، صـ٥٢٥.

(٥) وهو سيدنا إسماعيل – عليه السلام –

(٦) سورة الصافات الآيات "١٠٢ – ١٠٧"

(٧) الهدي هو: "ما يهدى من العلم للحرم، ويكون من الإبل والبقر والغنم، والهدي منه ما هو واجب كهدي التمتع والقران والهدي اللازم لترك واجب من الواجبات، ومنه ما هو منذور وهو واجب أيضاً لكن بالنذر، ومنه ما هو تطوع وهو ما تبرع به المحرم"، الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري، ج١، صـ٦٢٦.

إن سيدنا موسى – عليه السلام – يأتي هو الآخر، ليرفع صوته بالتلبية، أقصى ما يستطيع، وقد شهد له النبي – صلى الله عليه وسلم – بذلك، حينما مر ومن معه من الصحابة، بوادي الأزرق، فعن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: كنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين مكة والمدينة فمررنا بوادٍ فقال: "أي واد هذا؟ فقالوا: وادي الأزرق، قال: كأنى انظر إلى موسى – عليه السلام – هابطاً من الثنية[١]، وله جؤار إلى الله بالتلبية"[٢]. فسيدنا موسى – عليه السلام – له جؤار، وصوت عال مرتفع بالتلبية، لما فيها من إعلان التوحيد لله – عز وجل – فهي شعار الحج، وروى عن سيدنا – عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: "حج موسى بن عمران – عليه السلام – في خمسين ألفاً من بني إسرائيل، وعليه عباءتان قطوانيتان، وهو يلبي "لبيك اللهم لبيك، لبيك تعبداً ورقاً، لبيك أنا عبدك أنا لَدَيْك لَدَيْك، يا كشاف الكرب، قال: فجاوبته الجبال"[٣].

- ولقد أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن سيدنا عيسى – عليه السلام – سيأتي في آخر الزمان إما أن يحج، أو يعتمر، أو يجمع بينهما، رافعاً صوته بالتلبية، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "والذي نفسي بيده ليهلّنّ ابن مريم بفج الروحاء، حاجاً أو معتمراً، أو ليثنيهما"[٤]، ولقد أكد سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – رفع صوت سيدنا عيسى – عليه السلام – بالتلبية بالقَسَم وهو الصادق المصدق، ولام التوكيد الداخلة على (ليهلّنّ) والإهلال يعنى: "رفع الصوت بالتلبية"[٥]، والتي تشتمل على نبذ الشرك، وإعلان التوحيد، والإخلاص لله – تعالى – وحده، لأن فريضة الحج من أكثر العبادات ظهوراً للآخرين، سواء في الملبس، أو الأفعال، التي توحي أن صاحبها في عباده، ولذلك فقد أراد النبي – صلى الله عليه وسلم – تربية أمته على إخلاص العبادة لله وحده حينما دعا أن يجعل حجته خالصة لله – تعالى –، مبرورة متقبلة، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة"[٦]، فالتلبية: إهلال بتوحيد الله – عز وجل – وإخلاص العبادة له وحده،

---

(١) الثنية في الجبل كالعقبة فيه، وقيل: هي الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه، لسان العرب، ابن منظور، ج١٤، صـ١٢٤.

(٢) سبق تخريجه، صـ٢٧١.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب دخول مكة بغير إرادة حج ولا عمرة، ٢٨٨/٥، رقم ٩٨٣٨.

(٤) سبق تخريجه، صـ٢٩٢.

(٥) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١١، صـ٧٠١.

(٦) رواه ابن ماجة في سننه، كتاب المناسك، باب الحج على الرحل، ١٣٨/٤، رقم ٢٨٩٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده ضعيف".

وهذا يدل على أن لها معنى عظيماً، ولذلك فقد أمرنا رسول الله - ﷺ - برفع الأصوات بها، فعن زيد بن خالد الجهني -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - ﷺ -: "جاءني جبريل، فقال: يا محمد مر أصحابك، فليرفعوا صياحهم بالتلبية، فإنها شعار الحج"[١]، ولذلك فقد جعلها النبي - ﷺ - من أفضل أعمال الحج، فعن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - سئل، أي الحج أفضل؟ قال: "العج[٢] والثج[٣]" لأنها رفع الصوت بإجابة دعوة الله - تعالى -، إلى الحج، على لسان الأنبياء، والرسل - عليهم السلام - ولقد علم النبي - ﷺ - أصحابه التلبية، فأخذوها عنه، فعن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: "تلقفت[٤]، التلبية من رسول الله - ﷺ - وهو يقول لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك"، وكان ابن عمر يزيد فيها، لبيك لبيك لبيك وسعديك[٥]، والخير في يديك، لبيك والرغباء[٦] إليك والعمل"[٧]، ويظل الحاج يكرر التلبية مرة بعد أخرى، حتى يستحضر المسلم ما دلت عليه من المعاني، وأن يعرف ما تضمنته، فيتربى على معانيها من الانقياد، والاستسلام والذل، والخضوع، والإخلاص لله - عز وجل - ولذلك فقد جُعلت شعار الحج، وامتثل أولو العزم من الرسل، هذا الشعار، فلبوا، ورفعوا أصواتهم بالتلبية، حتى صار الحج من الفرائض التي تعمق الصلة بين رسول الله - ﷺ - وأتباعه، وبين إخوانه من الأنبياء والرسل السابقين، وأممهم، لأن الجميع أُمروا أن يقيموا ديناً واحداً وهو الإسلام.

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب البيان أن رفع الصوت بالإهلال من شعائر الحج، ١٧٤/٤، رقم ٢٦٢٨، وقال الأعظمي: "إسناده ضعيف"، ورواه الحاكم في مستدركه، كتاب المناسك، باب مناسك الحج، ٦١٩/١، رقم ١٦٥٣.

(٢) العج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: صب الدماء يعني: الذبائح، "العين"، الفراهيدي، مرجع سابق، ج١، صـ٦٧.

(٣) رواه الترمذي في سننه، أبواب الخير، باب ما جاء في فضل التلبية والنحر، ١٨٠/٣، رقم ٨٢٧، ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب رفع الصوت بالتلبية، ٦١/٤، رقم ٢٩٢٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حسن لغيره"، ورواه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب ذكر البيان أن رفع الصوت بالإهلال من أفضل الأعمال، ١٧٥/٤، رقم ٢٦٣١، ورواه الحاكم في مستدركه، كتاب المناسك، باب أي الحج أفضل، ٦٢٠/١، رقم ١٦٥٥.

(٤) تلقفت: أي تلقفتها، وحفظتها بسرعة، لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٩، صـ٣٢٠.

(٥) وسعديك: أي مساعدة لأمرك بعد مساعدة، لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٣، صـ٢١٤.

(٦) الرغباء: الطلب والمساعدة: أي إنه تعالى هو المطلوب المسئول منه فبيره جميع الأمور، "طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين العرب، مرجع سابق، ج٥، صـ٩٢.

(٧) رواه البخاري، كتاب الحج، باب التلبية، ١٣٨/٢، رقم ١٥٤٩، ورواه مسلم، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها، ووقتها، ٨٤١/٢، رقم ١٩، ١١٨٤، وابن ماجة في سننه، كتاب المناسك، باب التلبية، ٩٧٤/٢، رقم ٢٩١٨، واللفظ له.

ثالثاً: أثر الحج في الوقاية من الانحراف

إن الحج باب عظيم من أبواب الوقاية للنفس البشرية، لإصلاحها، وتهذيبها، ولذلك فقد كثر تكرار الوصية بالتقوى في الآيات التي تتحدث عن الحج وشعائره، لما للحج من دور عظيمٍ فعالٍ في الوقاية والحفظ، ففي أول آية من الآيات التي تتحدث عن الحج في سورة البقرة، تختم هذه الآية بالأمر بالتقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (١)، ثم يكرر الله – ﷻ – في الآية التي تليها الوصية بالتقوى، والتزود منها، لأنها خير زاد للإنسان، فقال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢)، وفي ذلك دعوة للإنسان بأن يأخذ استعداده، للتزود ليوم القيامة، كالمسافر الذي يأخذ زاده معه في سفره، فيبتعد عن كل ما حرم الله – ﷻ –، ثم تختم هذه الآيات التي تتحدث عن شعائر الحج، بالأمر بالتقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(٣)، إن تكرار الوصية بالتقوى في بداية هذه الآيات، ونهايتها، وأوسطها، لهو خير دليل على أن الحج بابٌ كبيرٌ من أبواب التقوى، والتزود بزادها العظيم، وذلك بفعل ما أمر الله – ﷻ – به، واجتناب ما نهى عنه، وكأن التقوى لابد وأن تكون ملازمة للإنسان في أموره عامة، وفي أفعال الحج خاصة، فعندما يعقد الإنسان النية على حج بيت الله الحرام، فلابد وأن تكون النية خالصة لوجه الله – تعالى –، حتى يكون الحج مقبولاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾(٤)، وهذا يتطلب من الإنسان أن يكون كل شيء من حركاته، وسكناته، لله تبارك وتعالى – وأن ينقي عمله من الخلل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٥)، والنبي – ﷺ – قد دعا الله تبارك وتعالى – أن تكون حجته خالصة له – تعالى – فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال:

---

(١) سورة البقرة الآية "١٩٦".

(٢) سورة البقرة الآية "١٩٧".

(٣) سورة البقرة من الآية "٢٠٣".

(٤) سورة البقرة من الآية "١٩٦".

(٥) سورة الأنعام الآيات "١٦٢ – ١٦٣".

قال رسول الله – ﷺ –: "اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة"[١]، وهذه تربية للأمة كلها، لتتعلم وتقتدي برسول الله – ﷺ – في إخلاص العمل لوجه الله – تبارك وتعالى –، فالإخلاص في العبادة له دور هام في استقامة العبد، وعدم انحرافه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[٢]، "فينبغي للمؤمن أن يوطن نفسه على أن تكون حياته لله، ومماته لله، فيتحرى الخير والصلاح، والإصلاح في كل عمل من أعماله، ويطلب الكمال في ذلك لنفسه، رجاء أن يموت ميتة ترضي ربه، ولا يحرص على الحياة لذاتها، فلا يرهب الموت، فيمتنع عن الجهاد في سبيل الله، كما أن عليه أن يقيم ميزان العدل، فيأخذ على أيدى أهل الجور، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر"[٣]، وإذا تحرى الإنسان الخير، والصلاح، والأصلح، في كل أعماله، وطلب الكمال في ذلك، ابتعد عن كل ما يغضب الله – تعالى – عليه، ويعمل على رضاه، فيستقيم على المنهج الذي رسمه له الإسلام، خاصة وأن الحجاج والعمار هم ضيوف الرحمن[٤]، ووفد الله الذي يحلون بيته، ولا يليق بالضيف، والوافد، أن يقبل على الله – ﷻ –، وهو مُصِرٌ على معصيته، مضيع لحدوده، ظالم نفسه، ولغيره من الناس، ولذلك جعل الإسلام من آداب الحج قبل الدخول في مناسكه، قطع العلائق التي تمنع من قبوله، وجَعْلِهِ مردوداً على صاحبه، "وأما قطع العلائق فمعناه: رد المظالم، والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، فكل مظلمة علاقة، وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه، ينادي عليه، ويقول: أين تتوجه؟ أتقصد بيت ملك الملوك، وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستهين به؟ ومهمل له؟ أو لا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي، فيردك ولا يقبلك؟ فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فنفذ أوامره، ورد المظالم، وتب إليه أولاً من جميع المعاصي، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك – لتكون متوجهاً إليه بِوَجْهِ قلبك، كما أنك متوجه إلى بيته بِوَجْهِ ظاهرك، فإن لم تفعل ذلك، لم يكن لك من سفرك أولاً: إلا النصب، والشقاء، وآخراً، إلا الطرد، والرد"[٥]، فعن أبي هريرة – ﷺ – أن النبي – ﷺ – قال:

---

(١) سبق تخريجه، صــ٢٧٨.

(٢) سورة البينة الآية "٥".

(٣) تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٨، صــ٩٠.

(٤) عن أبي هريرة – ﷺ – أن النبي – ﷺ – قال: "الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم"، رواه ابن ماجه في سننه، كتاب أبواب المناسك، باب فضل دعاء الحاج، ٤/١٣٩، رقم ٢٨٩٢.

(٥) إحياء علوم الدين، الغزالي، مرجع سابق، ج١، صــ٢٦٧.

"إذا خرج الرجل حاجاً بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز[١]، فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء، لبيك وسعديك، زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنادى لبيك، ناداه مناد من السماء، لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور"[٢]، إن هذا يجعل الإنسان يجاهد في إعداد نفقات الحج من السعي الحلال، والمصدر الطيب، لأن الله - ﷻ - لا يقبل إلا ما كان طيباً، حتى تفتح له أبواب السماء بالرحمة والغفران، حينما يردد التلبية، وكل إنسان يطمع في أن يكون حجه مبروراً، وسعيه مشكوراً، لذلك فهو يحرص أشد الحرص على أن تكون نفقته من الحلال، وليست من الحرام.

لقد اهتم الإسلام بالمحافظة على جسد الإنسان، وأمر برعايته، وتعهده، ليكون عوناً للعبد على الطاعة، ولذلك وجه الإسلام إلى حفظ الصحة، والابتعاد عن كل ما فيه هلاك للجسد، والحج له دور عظيم في وقاية الجسد من الأمراض التي تهلكه، حيث شرع الإسلام الغسل لمن أراد الإحرام للحج، فقد روى زيد بن ثابت[٣] عن أبيه أن رسول الله - ﷺ - "تجرد لإهلاله واغتسل"[٤]، والغسل له دور هام في المحافظة على صحة الجسد ونشاطه، ووقايته من الأمراض التي تنمو عند عدم غسل الإنسان مدة طويلة.

---

(١) الغرز: ركاب الرَّحلِ، وكل ما كان مِساكاً للرِجْلَيْنِ في المركب يُسمى غرزاً، العين، الفراهيدي، مرجع سابق، ج٤، صـ٣٢٨.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، ٢٥١/٥، رقم ٥٢٢٨، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد، باب النفقة من الحلال والحرام، ٢٩٢/١٠، رقم ١٨١٠٣، وقال: "فيه سليمان بن داوود اليمامي وهو ضعيف".

(٣) زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذاذ بن عمرو بن عوف الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، وقيل: أبو ثابت، وقيل: غير ذلك في كنيته، استصغر يوم بدر، ويقال: إنه شهد أحداً، ويقال: أول مشاهده الخندق، وكانت معه راية بني النجار يوم تبوك، وكان من علماء الصحابة، وهو الذي تولى قسم غنائم اليرموك، وكان يكتب لرسول الله - ﷺ - الوحي، وكان من أعلم الصحابة بالفرائض، توفى سنة ٤٥هـ، وقيل: ثلاث وأربعون، وقيل: إحدى وخمسين، وقيل: خمس وخمسون، "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٢، صـ٥٣٧، "الإصابة في تمييز الأصحاب"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٩٠.

(٤) رواه الترمذي، كتاب الحج، باب ما جاء في الاغتسال عند الإحرام، ١٨٣/٣، رقم ٨٣٠، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج، جماع أبواب الإحرام والتلبية، باب الغسل للإهلال، ٤٩/٥، رقم ٨٩٤٤، ورواه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب استحباب الاغتسال للإحرام، ١٦١/٤، رقم ٢٥٩٥.

إن فريضة الحج تتطلب من المسلم أن يصبر على مشتهيات نفسه، بحبسها عما تشتهيه، وتميل إليه من بعض المتاع في فترة الإحرام، وهذا نوع من جهاد النفس، الذي يكبح جماحها فيتمكن من أن يسيطر على رغباته وشهواته، ولذلك فقد جعل النبي - ﷺ - الحج جهاداً في سبيل الله، ولاسيما في حق المرأة، والضعيف، فعن عائشة – رضى الله عنها – قالت: "يا رسول الله ترى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: لا، لكن أفضل الجهاد: حج مبرور"[١]، "وسماه جهاداً: لما فيه من مجاهدة النفس"[٢]، فالحج جهاد، لأنه يحمل النفس على أداء أعمال، قد لا ترغب فيها النفوس، كمفارقة الأهل، والولد، وفعل المناسك مع شدة الزحام، التي تزهق فيها بعض النفوس، ولكنه يتحمل ذلك باذلاً نفسه في سبيل الله - ﷻ -.

إن الحج يربي في نفس صاحبه الامتناع عن الحرام، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾[٣]، "وقوله فلا رفث: أي من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾[٤]، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة، والتقبيل، ونحو ذلك، كذلك التكلم به بحضرة النساء"[٥]، فإذا كان الحاج يكف نفسه عن ضبط الغرائز المحببة لديه حال الإحرام، فإن ذلك سيربى فيه ضبط غرائزه، فيمنعها عن مواقعه الحرام، لأنه امتنع عما أحل الله له، فمن باب أولى أن يمنعها عما حرم الله في غير وقت الحج.

إن الحج يجعل المسلم صابراً عن المعاصي بكل أنواعها، فلا يهم بالمعصية، تعظيماً لحرمة بيت الله - ﷻ - وطمعاً في حج المبرور، ولقد "اختلف أهل التأويل في معنى الفسوق التي نهى الله عنها في هذا الموضع، فقال بعضهم: هي المعاصي كلها"[٦]، ولقد أكد النبي - ﷺ - النهي عن ذلك، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: "من حج لله فلم يرفث ولم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ١٣٢/٢، رقم ١٥١٢، ٢٧٨٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٨٢.

(٣) سورة البقرة من الآية "١٩٧".

(٤) سورة البقرة الآية "١٨٧".

(٥) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج١، صـ٤٠٤.

(٦) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج٤، صـ١٣٥.

يفسق رجع كيوم ولدته أمه"[١]، والله - ﷻ - قد توعد كل من هَمَّ بفعل معصية في البيت الحرام، قاصداً لها، وإن لم يفعلها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢]، وهذا يجعل العبد يجاهد نفسه للإقلاع عن المعاصي، فيبادر إلى الطاعات، خاصة وأن أفعال الحج يستوي فيها الرجال، والنساء، في الزمان، والمكان، فالمرأة تؤدي أفعال الحج، بالقرب من الرجل، ولا ينظر إليها نظرة محرمة، حتى لا يفسد حجه، وينال غضب الله - ﷻ - وهذا يربي في نفسه الصبر عن معصية الله – تعالى –، فيبتعد عن كل ما يفسد حجة، وكل ما يغضب الله – تعالى – عليه.

إن تأدية مناسك الحج، لا خلاف بين المسلمين في فعلها، فهم متحدون في ذلك، وهذا مقصد عظيم من مقاصد الإسلام التي يريد أن يغرسها في نفوس أتباعه، فالحج يأتيه الناس من كل فج عميق، وهو فرصة عظيمة لتربية المسلمين على الاتحاد، والتحذير من الاختلاف، الذي يؤدى إلى الفرقة، والتنازع، ولذلك فقد نهى الله - ﷻ - في آيات الحج عن كل ما يكون سبباً في الخصام والمنازعة التي تورث الضغائن والفرقة، إن هذا "بيان للآداب التي يجب على الحاج أن يلتزمها في هذه الأشهر، فيصون نفسه فيها عن كل لغو، ويجنبها كل معصية، وينأى بها عن الجدال المفضي إلى الخصام والخلاف"[٣]، فحينما يلتقي الحجاج على طاعة الله - ﷻ - ومحبته في صعيد واحد، ونداؤهم واحد، ولباسهم واحد، يتجهون إلى رب واحد، فالحج مدرسة عظيمة يتعلم فيها الحاج كريم الأخلاق فيبتعد عن السباب، والشتائم، والسخرية، وفحش الأقوال والأفعال، "وكما يستفيد المسلمون من اتصال بعضهم ببعض في نفوسهم وأخلاقهم، كذلك يستفيدون من جهة اقتصادهم ومتاجرهم، وكذلك يستفيد المؤمن من ذلك المؤتمر الذي يجتمع إليه الناس طائعين في كل عام، قوة إيمانهم، وارتباط غنيهم بفقيرهم، وشرقيهم بغربيهم، وشماليهم بجنوبيهم، حتى يشعر المؤمن بأن كل أولئك المؤمنين هم إخوانٌ في السراء والضراء، وأعوان

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ٢/١٣٣، رقم ١٥٢١، "واللفظ له"، وأخرجه مسلم، كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة، ٢/٩٨٣، رقم ٤٣٨.

(٢) سورة الحج من الآية "٢٥".

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج١، صـ٢٢٢.

له على الشدائد التي تنتابه، وبذلك يقوى عنده الأمل في الإصلاح، والرغبة في العمل الجد النافع، الذي يعود على المسلمين في الدين والدنيا"(١).

إن الله – ﷻ – وجه عباده إلى الربط بين رحلة الحج، والرحلة إلى الدار الآخرة، حتى يستعد الإنسان للوقوف بأرض المحشر، فيعمل من أجل الآخرة، ولذلك فقد بدأت سورة الحج بالحديث عن يوم القيامة، وأهواله، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾(٢)، وفي ذلك دعوة للإنسان بأن يعمل فكره في أفعال الحج، والتي تذكر الإنسان بأهوال يوم القيامة، فيتزود له، وتجعله يفكر لما يُستأنف من حياته، لأن من علم أنه محاسب، اجتهد في الطاعة، ولذلك فقد ختمت الآيات التي تتحدث عن مناسك الحج، بالتذكير بيوم القيامة، وما يحدث فيه من الجمع، والسوق إليه، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(٣).

عندما يخرج الحاج من بيته قاصداً بيت الله الحرام، لأداء مناسك الحج، وهو مفارق الأهل، والأولاد، والأوطان، فإن ذلك يذكره برحلته إلى الدار الآخرة، حينما يخرج من الدنيا، ليقبل على الله – ﷻ –، مفارقاً أهله "وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج، قطع العلائق لسفر الآخرة، فإن ذلك بين يديه على القرب، وما قدمه من هذا السفر، طمع في تيسير ذلك السفر، فهو المستقر، وإليه المصير، فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك السفر، عند الاستعداد بهذا السفر"(٤)، فإذا تجرد الحاج من ملابسه المعتادة، ليغتسل، فإن ذلك مرآة لما سيأتي عليه، من تغسيله، وتجهيزه بعد موته على خشبة الغسل، فإذا تجهز، ولبس ملابس الإحرام، فإن ذلك يذكره بلفه في الأكفان بعد الموت، حيث يُجرد من ملابسه، ويلف بلفائف بيض، يلقى بها خالقه سبحانه، وحينما يقف الحجاج في صعيد واحد، بقلوب ضارعة، وعين دامعة، في اجتماع كبير مهيب، هذا الاجتماع يذكر المسلم بالموقف الأكبر يوم القيامة، الذي يلتقي فيه الأولون والآخرون، وإذا تذكر الإنسان يوم القيامة، كان ذلك رادعاً له عن اقتراف المعاصي، ولم تكن الدنيا أكبر همه.

---

(١) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـــ٥٠٣.

(٢) سورة الحج الآيات "١-٢".

(٣) سورة البقرة من الآية "٢٠٣".

(٤) إحياء علوم الدين، الغزالي، مرجع سابق، ج١، صـــ٢٦٧.

لقد حذر الله - ﷻ - عباده من الشيطان، تحذيراً شديداً، لأن الشيطان لا غاية له إلا الغواية والفساد، والإنسان لا وقاية له منه، إلا بالالتجاء إلى الله - ﷻ -، والتعوذ به من شره، وملازمة ذكره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[٢]، والحج شرع لإقامة ذكر الله - ﷻ -، فهو باب عظيم من أبواب الاحتراز منه، لأن "المهم في العبادة، هو ذكر الله الذي يصلح النفس، ويوجه القلب إلى عمل الخير، ويبعدها عن الشرور، والمعاصي، فيكون فاعلها من المتقين"[٣]، فمن لازم ذكر الله - ﷻ - كان في حصن حصين من الشيطان الرجيم، وفي حرز من شره، وفي رمي الجمرات في الحج، إرغام الشيطان، وإعلانه برجمه، وعدم الاستسلام لوساوسه، حتى يسير على الطريق المستقيم.

(١) سورة الإسراء الآية "٥٣".
(٢) سورة فاطر الآية "٦".
(٣) تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٨

الفصل الرابع

التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في الجانب الخلقي

ويشتمل على أربعة مباحث

المبحث الأول: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع الله

المبحث الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع النفس

المبحث الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع الناس

المبحث الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع البيئة

تمهيد

لقد جاء الإسلام حاثاً أتباعه على التخلق بالأخلاق الحميدة، والبعد عن الأخلاق الرذيلة، فأعطاهم قدراً كبيراً من الأساليب الوقائية ليطهر نفوسهم من نزاعات الشر، والأخلاق في اللغة جمع خُلُق و "الخلق بضم اللام وسكونها، وهو: الدين، والطبع، والسجية"(١)، "والخلق: العادة"(٢)، من خلال ذلك يتضح أن من معاني الأخلاق: السجية، والطبع، والعادة، والمروءة، والدين.

أما في الاصطلاح فهي: "عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تُصدِرُ الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت تلك الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً"(٣).

ومعلوم أن الإسلام شمل بأخلاقه جميع تصرفات الإنسان وسلوكياته، فنظم علاقة الفرد بربه، وعلاقته مع الآخرين، وعلاقته مع نفسه، فهذه الدائرة تتسع لتشمل كل ما حول الإنسان، حتى تعم الإنسانية جمعاء، بل إنها تشمل الأحياء غير العاقلة، كالحيوان، والنبات.

إن تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، هدف رئيس، وغاية معتبرة في دعوة أولى العزم من الرسل، وتشغل حيزاً كبيراً في ذلك، ولقد بين سيدنا محمد - ﷺ - هذا الغرض العظيم، فعن

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٠، صـ٨٦.
(٢) تاج العروس، الزبيدي، مرجع سابق، ج٢٥، صـ٢٣٦.
(٣) إحياء علوم الدين، الغزالي، مرجع سابق، ج٣، صـ٥٣.

أبي هريرة – ﷺ – قال، قال النبي – ﷺ –: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"[١]، ولقد حقق النبي – ﷺ – هذا الهدف على أرض الواقع، حيث ربى صحابته الكرام على مكارم الأخلاق، وأفضلها، وحثهم على التمسك بها، فلم يترك فضيلة من الفضائل إلا ودعا إليها، ونهاهم عن قبيحها، ولم يترك رذيلة من الرذائل إلا ونبههم للابتعاد عنها، وكان هذا الإعداد لا يستقيم، إلا إذا أُسس على بناءٍ أخلاقيٍ وقائيٍ متينٍ، وهذا يؤكد على الحاجة الملحة إلى الجانب الوقائي في عملية الأخلاق، فهي مهمة أساسية من مهمات القائمين على التربية والدعوة، وبناءً على ذلك: فإنه يجب على المسلم التحلي بمحاسن الأخلاق، والبعد عن مساوئها، لأن ذلك من مقاصد بعثة الرسل – عليهم السلام – لهداية البشرية إلى صراط الله المستقيم، فتتمكن الأخلاق الحميدة من سويداء قلوبهم، حتى تصير جزءً لا يتجرأ من سلوكهم، ثم ينقي نفوسهم من الأخلاق الرذيلة، لأن سلامة المجتمعات، وقوة بنيانها مرهون بتمسكها بفضائل الأخلاق، والابتعاد عن رذائلها، فإن لم نفعل ذلك، ساد الانحراف والانحلال بين أفرادها، وهذا ما سيتضح في دراسة هذا الفصل إن شاء الله – سبحانه وتعالى –.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في حسن الخلق، ٣٥٢/١٠، رقم ٧٦٠٩، والحاكم في مستدركه، كتاب آيات رسول الله ﷺ، التي هي دلائل النبوة، باب بدون ترجمة، ٦٧٠/٢، رقم ٤٢٢١، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".

المبحث الأول

التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع الله

التعامل مع الله – ﷻ – له سمة خاصة يجب على المسلم ألا يخرج عنها، وأن يتخلق بها مع الله – ﷻ – حتى يكون مصاناً من الوقوع في الانحراف السلوكي، ومتصفاً بحسن الخلق مع الله "وتحسينه منك: أن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذراً، وأن كل ما يأتي من الحق يوجب شكراً، وأن لا ترى له من الوفاء بداً"[١]، فإذا وضع الإنسان هذه المبادئ أمام عينيه فإنه يكون متأدباً مع الله – ﷻ –، ويمكن القول بأن "شكر المسلم ربه على نعمه، وحياؤه منه – ﷻ – عند الميل إلى معصيته، وصدق الإنابة إليه، والتوكل عليه، ورجاء رحمته، والخوف من نقمته، وحسن الظن به في إنجاز وعده، وإنفاذ وعيده فيمن شاء من عباده هو أدبه مع الله"[٢]، وهو الصلة بين الإنسان وخالقه، إن تمسك بذلك فقد أحسن الأدب معه.

ويقصد الباحث بالأخلاق مع الله، الأخلاق التي تحكم علاقة الإنسان مع الله – ﷻ – فيدين بها له وحده، دون غيره.

أولاً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع الله

هناك بعض التوجيهات الوقائية، والمبادئ المستنبطة من دعوة أولي العزم من الرسل والتي عند تطبيقها تصون الإنسان من الانحراف في جانب الأخلاق مع الله – تعالى –، وأهم هذه التوجيهات الوقائية هي:–

١– الإكثار من شكر الله تعالى

إن نعم الله – ﷻ – على عباده كثيرة ومستمرة، تتجدد بتجدد أنفاس العبد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[٣]، وشكر الله – ﷻ – على النعم من أوجب الواجبات على العباد، ومن أعظم استمرار النعم ودوامها، بل والزيادة عليها، أما جحود النعمة، والكفر بها، فمن أعظم أسباب زوالها عنه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن

---

(١) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ج٢، صـ٣٠٨.

(٢) منهاج المسلم، أبو بكر الجزائري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، بدون ط.ت، صـ٦٢.

(٣) سورة النحل الآية "١٨"

كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾(١)، فالشكر من أجلِّ الأخلاق التي يجب على المسلم أن يتحلى بها في كل أحواله وأوقاته، لما فيه من الاعتراف بإسداء النعم إلى المنعم الحقيقي، وهو الله – ﷻ – حتى فيما يكره الإنسان، لأنه لا يعلم من أين يأتيه الخير، هل فيما يحب، أو يكره؟ فإذا شكر، فإنه بذلك يكون قد برهن على أنه صاحب خلق كريم، يعترف بنعم الله – ﷻ – المتجددة عليه، والمنهمرة ليل نهار، ويكون كذلك من الذين تخلقوا بهذا الخلق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾(٢)، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الخلق عزيز، لم يتصف به إلا قليل من عباد الله – تعالى –، ولذلك كانت عناية الأنبياء – عليهم السلام – بهذا الخلق عظيمة وفائقة، كيف لا؟ وهو خُلق يحبه الله – ﷻ – ويتصف به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾(٣)، ثم هو وثيقة تأمين ربانية، لوقاية النعم من الزوال.

- إن الشكر من أعظم أخلاق الرسل – عليهم السلام – مع الله – ﷻ – فهو خلق تعبدي يعمق مفهوم الإيمان في قلب المسلم، ويجعله يقر بفضل الله – ﷻ – عليه، ولقد مدح الله – ﷻ – سيدنا نوحاً – عليه السلام –، فوصفه بأنه كثير الشكر له، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾(٤)، وصفه بكثرة الشكر في جميع أحواله، لأنه ما فعل شيئاً إلا حمد الله – سبحانه وتعالى – عليه، ولذلك فقد جاء التعبير عن الشكر بصيغة المبالغة (شكور) "والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية، والقولية، والعملية، فإن الشكر يكون بهذا أو بهذا"(٥)، حتى أصبح الشكر صفة مميزة لخُلق سيدنا نوح – عليه السلام – فعندما يأتي الخلائق يوم القيامة، ويذهب الناس إلى الأنبياء، ليشفعوا لهم في فصل القضاء فيتوجهون إلى سيدنا نوح – عليه السلام – يسألونه الشفاعة العظمى، فيحتجون بأن الله – ﷻ – سماه عبداً شكوراً، فقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – في حديث الشفاعة الطويل: "..... فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح؟ أنت أول الرسل

---

(١) سورة إبراهيم الآية "٧".
(٢) سورة سبأ الآية "١٣".
(٣) سورة التغابن الآية "١٧".
(٤) سورة الإسراء الآية "٣".
(٥) قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، صـــ١١٦.

إلى الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ...."[١]، ولقد أمر الله – عز وجل – سيدنا نوحاً، ومن معه من المؤمنين، بحمده عند استوائهم على الفلك، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢]، وهذا تعليم من الله – عز وجل – لسيدنا نوح، ومن معه، أن يقولوا ذلك شكراً لله – عز وجل – وحمداً له على نجاتهم "ولما كان الحمد من شعب الشكر، كان أشيع للنعمة، وأدل على مكانها، لخفاء الاعتقاد، وما في آداب الجوارح من الاحتمال، جُعل رأس الشكر، والعمرة فيه"[٣]، فقد روى عبد الله بن عمرو أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "الحمد رأس الشكر، وما شكر الله من لم يحمده"[٤]، ولقد امتثل سيدنا نوح – عليه السلام – لأنه نبيٌ من قِبَل الله، ينفذ أوامره، فشكره، وكان من ضمن شكره، صيام اليوم الذي نجا فيه ومن معَه من السفينة حينما خرجوا منها سالمين، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – مر بأناس من اليهود قد صاموا يوم عاشوراء، فقال: "ما هذا من الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي نجا الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت في السفينة على الجودي، فصامه نوح وموسى شكراً لله – سبحانه وتعالى – فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا اليوم، فأمر أصحابه بالصوم"[٥]، وهكذا يتميز سيدنا نوح – عليه السلام – بكثرة الشكر، فهو يشكر الله – عز وجل – في كل أحايينه، كما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن هنا سماه الله – عز وجل – عبداً شكوراً.

- كذلك مدح الله – عز وجل – سيدنا إبراهيم – عليه السلام – بأنه كان شاكراً لأنعم الله – عز وجل – على أكمل وجه، ولذلك اجتباه، واصطفاه، وجعله قدوة يقتدي به في صفاته، وأخلاقه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله – عز وجل – (ذرية من حملنا مع نوح)، ١٤٣/٤، رقم ٤٧١٢، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١٨٤/١، رقم ١٩٤، "واللفظ له".

(٢) سورة المؤمنون الآية "٢٨".

(٣) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج١، صـ٢٧.

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب تعديد نعم الله عز وجل وما يجب من شكرها، ١١٦/١، رقم ٢٠، وقال الشيخ المناوي: "رجاله ثقات لكنه منقطع بين قتادة وابن عمرو"، الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، تحقيق أحمد مجتبي، دار العاصمة رياض، ١٠٠/١.

(٥) سبق تخريجه، صـ٢٥٨.

مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١]، فمن الصفات التي اتصف بها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أنه شاكر لأنعم الله "وهي كلمة جامعة لأنواع الشكر الذي يقابله الكفر، ومن الغض من شكر إبراهيم لربه أن يفسره بعض العلماء بأنه - عليه السلام - كان لا يتغذى إلا مع ضيف، إلا أن يكون ذكر ذلك على سبيل المثال، وإلا فالشكر لأنعم الله - تعالى - أعم من شكره على نعمة المال، والولد، والصحة، وغير ذلك من أنواع النعم التي لا يحصيها العد، وما أحسن قول: ﴿ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٢]، فإن الاجتباه هو أن تأخذ الشي جميعه"[٣] فسيدنا إبراهيم - عليه السلام - كان شاكراً لأنْعُمِ الله عليه قولاً وعملاً، لذلك فقد بدأ كلامه بالحمد شكراً لله - تعالى - حينما أعطاه الولد في حال الكبر، وهو غير مظنة الإنجاب فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٤]، فقد بدأ كلامه بالحمد "والحمد لله: كلمة كل شاكر له"[٥] فهو يشكر الله - عز وجل - على نعمه، ثم يأمر قومه كذلك بالشكر لله - وحده - فهو المنعم الحقيقي، وهو الرازق، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٦].

فالله - عز وجل - هو الذي يجب أن يعبد وحده ، ويطلب منه الرزق، ولذلك فهو المستحق للشكر وحده.

- لقد أنعم الله - عز وجل - على سيدنا موسى - عليه السلام - بنعم عظيمة، وامتن عليه بمنن لا تحصي ولا تعد، من أبرزها النبوة، والرسالة، وجعله كليمه، فأمره الله - عز وجل - أن يتلقى ما آتاه بالشكر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٧]، فاجتهد سيدنا موسى - عليه السلام - وشكر الله بالإقبال على طاعته، والمزيد من رضائه، حتى كان من الشاكرين لله - عز وجل - فصام يوم عاشوراء شكراً لله، على نجاة بني

(١) سورة النحل الآيات "١٢٠ - ١٢١".
(٢) سورة النحل الآية "١٢١".
(٣) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٤٨.
(٤) سورة إبراهيم الآية "٣٩".
(٥) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج١٢، صـ١١٩.
(٦) سورة العنكبوت الآية "١٧".
(٧) سورة الأعراف الآية "١٤٤".

إسرائيل من فرعون، وكان يربي قومه على الشكر (لله) ويحثهم على الإكثار من ذلك ، فذكرهم بنعم الله - ﷻ -، وإحسانه، وأن من شكره زاده من فضله، فذكرهم بنعم الله - ﷻ - عليهم وحدهم، ويجب عليهم ألا يغفلوا عنها، لأنها توقظ فيهم الإحساس بفضل الله - ﷻ - عليهم، وليقابلوا ذلك بشكره، لأن نفعه يعود عليهم وحدهم، فهو تطهير لنفوسهم وتقريب لهم من ربهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[١]، أما من كفر بنعم الله وجحدها، فهي عرضة للزوال، وتجعل صاحبها في عذاب شديد، "وما تأذن به موسى قومه، ليس خاصاً بهم، وإنما هو شأن عام لله - ﷻ - مع خلقه في كل الأزمان، سنته معهم، أنهم إن شكروه زادهم، وإن كفروه عاقبهم"[٢]، فشكر النعمة دليل على استقامة الناس، فإذا اختل ذلك عندهم فهو دليل على انحرافهم.

- إن الله - ﷻ - يذكِّر سيدنا عيسى - عليه السلام - بالنعم المنهمرة عليه، وعلى والدته، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٣].
- مما لا شك فيه أن الإنعام يستوجب الشكر، لأن "الشكر والنعمة كفتان ككفتي الميزان، أيهما رجح بصاحبه، احتاج الأخف، إلا أن يزاد فيه حتى يعادل صاحبه، فإذا كانت النعم كثيرة، والشكر قليلاً، انقطع الحمد، فكثير النعم يحتاج إلى كثير من الشكر، وكلما زيد في الشكر ازدادت النعم وجاوزته"[٤]، وفي موضع آخر يبين الله - ﷻ - أن سيدنا عيسى - عليه السلام - عبد أنعم عليه بالنعم الكثيرة، منها النبوة، وقبلها ولادته، والنعم تستوجب الشكر، قَالَ تَعَالَى:

---

(١) سورة لقمان من الآية "١٢".

(٢) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٢٣٢.

(٣) سورة المائدة الآية "١١٠".

(٤) الكامل في التاريخ ، أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، ابن الأثير، المتوفي سنة ٦٣٠هـ، تحقيق عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، ج١، صـ٤١٤.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(١)، والمسيح – عليه السلام – لن يتكبر، ولن يأنف من شكر الله – تعالى – لأنه من أعلم خلق الله – تعالى – بعظمته، وما يجب له من العبودية والشكر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾(٢)، فإذا كان استنكاف المسيح – عليه السلام – أن يكون عبداً لله – تعالى – محالاً، فمن باب أولى أن يكون استنكافه عن الشكر على النعم محالاً.

- والله – عز وجل – أمر سيدنا محمداً – صلى الله عليه وسلم – وجميع المؤمنين بالاستقامة على عبادته وتوحيده وشكره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٣)، وهذا توجيه رباني لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – للثبات على خلق الشكر، مع أنه كان من أعظم الناس شكراً له، وهو خطاب لجميع المؤمنين أيضاً، حتى يشكروا الله على ما أنعم عليهم، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – كان يقوم من الليل حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً"(٤)، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – كان يكثر من الشكر لله – تعالى – فأراد أن يكون عبداً شكوراً، أي كثير الشكر لله – تعالى – وحينما طلب منه الصحابة أن يخفف عن نفسه، ظناً منهم أن طول هذا العناء في القيام للصلاة إنما يكون لطلب المغفرة، والنبي – صلى الله عليه وسلم – قد غفر له ما تقدم من ذنبه، فهو غير محتاج إلى هذا الجهد في العبادة – على ظنهم – فبين لهم أن هناك طريقاً آخر للعبادة وهو: الشكر، وهذا دليل على مكانة هذا الخلق العظيم في نفسه، حتى أصبح الإكثار من الشكر لله – تعالى – مطلباً له ، وغاية ، شأنه في ذلك شأن إخوانه من الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام –.

٢- دوام اللجوء إلى الله تعالى

إن الإنسان بطبيعته يتسم بالضعف والافتقار، فهو عاجز عن جلب الخير لنفسه، ودفع الضر عنها، ولذلك فهو في حاجة إلى قوة يتوجه إليها ويلوذ بها، لكشف ما أَلَمَّ به، ففرعون حينما

---

(١) سورة الزخرف الآية "٥٩".

(٢) سورة النساء الآية "١٧٢".

(٣) سورة الزمر الآية "٦٦".

(٤) **رواه البخاري، كتاب التمهيد، باب قيام النبي – صلى الله عليه وسلم – الليل، ٢/٥٠، رقم ١١٣٠، ورواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، ٢١٧١/٤، رقم ٢٨١٩، "واللفظ له".**

أدركه الغرق، قال كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[١]، فاللجوء إلى الله – ﷻ – في وقت الشدائد أمر فطري في النفس، لأنها توقن بأنه وحده هو الذي يكشف الضر، ويعطي السائل، ويجيب المضطر، لذلك فإن الناس دائماً في أشد الاحتياج إلى اللجوء إليه، في جميع حركاتهم وسكناتهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾[٢]، فالإنسان ضعيف بطبعه، هذا الضعف يجعله في شعور دائم، وحاجة ملحة إلى قوة تسنده في حالة السراء والضراء، والناس أشد لجوءً إلى الله – ﷻ – حينما تحيط بهم المكارة، وتنزل عليهم الابتلاءات، وذلك لافتقارهم إليه، ولقدرته المطلقة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ ﴾[٣]، ولكن هذا "عتاب في ضمنه نهى لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية"[٤]، لأن الواجب على الإنسان أن يلجأ إلى ربه في أمره كله، في السراء والضراء، فهو الأقدر على تحقيق مآربه، وحال الإنسان في الدنيا لا يخلو من أمرين، حال الرخاء والسعة، وحال الشدة والضيق، وهو في كلتا الحالتين يحتاج إلى رحمة الله – ﷻ – حتى لا تبطره السعة والرخاء، ولا يقنطه الضيق والشدة، فاللجوء إلى الله – ﷻ – حال الرخاء والسعة، لا يقل أهمية عن اللجوء إليه – ﷻ – في حال الضراء والضيق "فمن ذكر الله في حال صحته ورخائه، واستعد حينئذ للقاء الله – ﷻ – بالموت وما بعده، ذكره الله عند هذه الشدائد، فكان معه فيها، ولطف به، وأعانه وتولاه، وثبته عند التوحيد، فلقيه وهو راض عنه، ومن نسى الله في حال صحته، ورخائه، ولم يستعد حينئذٍ للقائه، نسيه الله في هذه الشدائد"[٥]، ولذلك فإن الأنبياء – عليهم السلام – قد جدوا في دوام اللجوء إلى الله – ﷻ – لعلمهم بأهميته، ليس فقط في وقت الضيق والشدة، ولكن في كل وقت وحين، ليصلوا نفوسهم بخالقهم، وليكونوا أنموذجاً يتأس بهم في دوام اللجوء

---

(١) سورة يونس الآية "٩٠".
(٢) سورة فاطر الآية "١٥".
(٣) سورة يونس الآية "١٢".
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد ابن جزي الغرناطي، المتوفي سنة ٧٤١هـ، تحقيق د/ عبد الله الخالدي، الناشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، سنة ١٤١٦هـ، ج١، صـ٣٥٣.
(٥) عظات وعبر في قصص الأنبياء، سعيد عبد العظيم، مرجع سابق، صـ٢٠٢.

إلى الله – ﷻ – فهم أشد الناس بلاءً، لذلك كان افتقارهم ولجؤهم إليه أشد وأدوم، فكلما دهمهم أمر، لجأوا إليه في كل صغيرة وكبيرة، حتى يستمدوا العون منه، كذلك هم أكثر الناس معرفة بربهم، وكلما كان الإنسان أكثر معرفة بالله – ﷻ – كان لجوؤه إليه أكثر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[١]، وهذا وصف لحال الأنبياء – عليهم السلام – وهم يلجأون إلى الله – ﷻ – متذللين، خاشعين له في الدعاء، والدعاء في ذاته شعور بالفقر والاحتياج، وفي الوقت نفسه، شعور بقدرة الله – ﷻ – على تحقيق ما عجزوا عنه، ومما يدل على دوام لجوئهم إلى الله – ﷻ – تكرار الدعاء مهم – حتى إننا لا نكاد نجد دعوة من دعوات الرسل – عليهم السلام – إلا وفيها لجوء إلى الله – ﷻ – وابتهال إليه، وهذا يدل على أن ذلك كان هدفاً أساسياً من أهداف رسالتهم، وأحد المعاني الكبرى وأهمها في حياتهم.

- إن المتأمل في آيات القرآن الكريم، يجد أن أكثر الناس طلباً للنصرة، هم الرسل، وذلك لما يلقونه من تكذيب أقوامهم، وإعراضهم عن الحق، فها هو سيدنا نوح – عليه السلام – قد قام بجهدٍ عظيمٍ بَذَلَهُ مع قومه في دعوتهم إلى الهداية، على مدار ألف سنة إلا خمسين عاماً، وبعد أن استنفذت كل الوسائل والأساليب لاستقامتهم، وكل ذلك لم يغير من إعراضهم، وصدهم عن الحق شيئاً، حتى كانت النتيجة كما قال ربنا – ﷻ – قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٢]، فكان لابد من اللجوء إلى الركن الشديد، فتوجه إلى الله – ﷻ – ليشكوا عنادهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾[٣]، ثم دعا عليهم بالهلاك، لما أيس من إيمانهم، بعد أن قضى دهراً طويلاً في دعوتهم، وبعد أن أعلمه الله – ﷻ – قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٤]، "لم يكن من نبي الله نوح بعد أن أعذر إلى قومه، وبشر وأنذر، إلا أن يرجع إلى ربه، ويطلب منه أن يفتح بينه وبينهم فتحاً لا استغلاق بعده، ويحكم له حكماً يكون فيه

---

(١) سورة الأنبياء من الآية "٩٠".
(٢) سورة هود من الآية "٤٠".
(٣) سورة نوح الآيات "٢١ – ٢٢".
(٤) سورة هود الآية "٣٦".

النصر لعباد الله الصالحين، والخزي لأعدائه المستكبرين"[١]، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢]، والآيات في ذلك كثيرة، مما يدل على استمراره في اللجوء إلى الله – ﷻ – ثم لجأ إلى الله – ﷻ – وطلب منه الرحمة والمغفرة فقال: ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾[٣]، وفي هذا الدعاء أظهر فيه سيدنا نوح – عليه السلام – حاجته إلى الله ، فما أروع أن نتأسى به وبمنهجه في دوام اللجوء إلى الله – ﷻ –.

- كذلك لجأ سيدنا إبراهيم – عليه السلام – إلى الله – ﷻ – لإصلاح نفوس المؤمنين، وتزكيتها، لأن إخراج الناس من الظلمات إلى النور، لا يتحقق إلا بتعليمهم كتاب ربهم، وإتباع تعاليمه، فتوجه إلى الله ومعه سيدنا إسماعيل – عليهما السلام – بعد بناء الكعبة، بأن يتقبل عملهما، وأن يجعلهما مسلمين، ومن ذريتهما، وأن يهيئ من ذريته رسولاً يعلمهم الكتابة والحكمة ويطهرهم من الشرك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٤]، وقبل ذلك لجأ إلى ربه، ودعاه أن يرزقه غلاماً صالحاً، فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[٥]، كذلك أيضاً "طلب من الله – ﷻ – أن يجعل مكة حرماً آمناً من اعتداء الناس عليه، أو قصده بسوء، وأن يجنبه وذريته عبادة الأصنام التي كان يبغضها بغضاً شديداً"[٦]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٧]،

---

(١) دعوة الرسل إلى الله تعالى ، العدوي، مرجع سابق، صـ١٥.
(٢) سورة الشعراء الآيات "١١٧– ١١٨".
(٣) سورة نوح الآية "٢٨".
(٤) سورة البقرة الآيات "١٢٧ – ١٢٩".
(٥) سورة الصافات الآية "١٠٠".
(٦) دعوة الرسل إلى الله تعالى ، العدوي، مرجع سابق، صـ٤٦.
(٧) سورة إبراهيم الآيات "٣٥ – ٣٦".

هاتان الآيتان وما بعدهما يدلان على أن سيدنا إبراهيم كان كثير اللجوء إلى الله - سبحانه وتعالى - والإقبال عليه في كل أحواله وشؤونه، حتى امتدحه الله - عز وجل - بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[1]، فهو كثير الرجوع إلى الله - سبحانه وتعالى -.

- لابد للإنسان أن يتحصن من أذى الظالمين، باللجوء إلى الله - سبحانه وتعالى - لأن الظالمين في كل زمان ومكان يقفون في وجه الحق، ويحاولون طمس الحقائق، وإجهاض الحق، وصرف الناس عن اتباعه، وطلب النجاة في هذا الوقت، أمر لا مندوحة عنه، ولذلك فإن سيدنا موسى - عليه السلام - حينما كلفه الله - عز وجل - بمواجهة جبار من جبابرة الأرض، وهو فرعون الطاغية، ليدعوه إلى الإيمان، عندها أحس بعظم هذا الأمر، فلجأ إلى الله - سبحانه وتعالى - وطلب منه أن يشرك معه أخاه سيدنا هارون - عليه السلام -، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾[2]، وحينما أمرهما الله - سبحانه وتعالى - بالذهاب إلى فرعون، وخشيا لقائه بسبب بطشه وجبروته، توجها إلى الله - سبحانه وتعالى - كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾[3]، فرغم اعتقادهما أن الله - سبحانه وتعالى - معهما، ويسمع ويرى، إلا أنهما شعرا بالحاجة واللجوء إليه، وعندما بلغ فرعون الغاية في الكفر، والإعراض عن سبيل الله، لجأ سيدنا موسى - عليه السلام - إلى الله - سبحانه وتعالى -، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4]، وهذه الدعوة كانت غضباً لله - سبحانه وتعالى - ولدينه، لأن النبي لا يدعو على قومه إلا بعد أن يصل إلى ذروة صبره، واستنفاذ كل الوسائل والأساليب من أجل هدايتهم.

- إن المؤمن يجب عليه أن يحافظ على نفسه من الضلال والانحراف، فيفر إلى الله - سبحانه وتعالى - متضرعاً إليه طالباً منه النجاة من هذا الضلال، والخلاص من الظلم والظالمين، وهذا ما

---

(١) سورة هود الآية "٧٥".

(٢) سورة طه الآيات "٢٥ – ٣٥".

(٣) سورة طه الآية "٤٥".

(٤) سورة يونس الآيات "٨٨ – ٨٩".

فعلته امرأة فرعون عندما عذبها بعد علمه بإيمانها، فلجأت إلى الله – ﷻ – متضرعة، قائلة: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، وهذا أيضاً ما فعله السحرة حينما آمنوا بسيدنا موسى – عليه السلام –، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]، فهم يتضرعون لله – ﷻ – بأن يعصمهم من تسلط الظالمين، وسوء صنيعهم، بعد النجاة من ظلمهم.

- إن السيدة مريم – عليها السلام – كانت دائمة اللجوء إلى الله – ﷻ – فمثلاً حينما رأت الملك الذي تمثل لها في صورة بشر، قد دخل عليها خلوتها، فخافت منه، لأنها ظنت أنه يريدها بسوء، أو يريدها على نفسها، فلجأت إلى الله – ﷻ – واستجارت به ليحفظها ويحميها، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾[3]، "أي ألجأ واعتصم بالله منك، لأنني أخاف أن تفتك بي، أو تعتدي عليَّ، وأنا ضعيفة، لا حول لي ولا قوة إلا بالله، فاستعيذ به منك، والمؤمن هو الذي يحترم الاستعاذة بالله ويقدرها، فإن استعذت بالله أعاذك، وإن استجرت بالله أجارك"[4]، ولذلك ذكرته بصفة التقوي، والخوف من الله – ﷻ – وهذا دليل على عفتها وورعها، كذلك لجأ سيدنا عيسى – عليه السلام – إلى الله – ﷻ – لأنه يعلم أهمية ذلك في حياة المؤمن الذي هو في حاجة وافتقار دائمين إلى ربه ومولاه، ولقد فوض أمره كله إلى علم الله المحيط، الذي أحاط بكل شيء علماً، فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[5]، فقد تبرأ من الحول والقوة إلا بالله، وأسند القدرة المطلقة، والإرادة والتصرف لله – ﷻ –.
- لقد علم الله – ﷻ – سيدنا محمداً – ﷺ – كيفية اللجوء إليه فأمره بالاستعاذة به من همزات الشياطين، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾[6]،

---

(١) سورة التحريم من الآية "١١".

(٢) سورة يونس الآيات "٨٥ – ٨٦".

(٣) سورة مريم الآية "١٨"

(٤) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٥، صـ٩٠٥٥.

(٥) سورة المائدة الآية "١١٦".

(٦) سورة المؤمنون الآيات "٩٦ – ٩٧"

"وهمزات الشياطين: خطراتها التي تخطرها بقلب الإنسان"[١]، فالشيطان هو العدو الأول للإنسان، فهو يسعى لإغرائه، ويجري منه مجرى الدم، فيجب على المسلم أن يحذر منه، ويتعوذ بالله من وساوسه وهمزاته، فامتثل النبي - ﷺ - لما أمره ربه به، فوصفه أبلغ وصف حينما لجأ إليه واستجار به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[٢]، فالنبي - ﷺ - يلجأ إلى الله - ﷻ - واستعان به، وهناك كلمات عذبة رقراقة، تصور لنا صدق اللجوء إلى الله - ﷻ - والرسول - ﷺ - يعرض نفسه على القبائل للدعوة والإيمان، فيكذب ويُؤذي، فيقول: "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وهواني على الناس، أرحم الراحمين أنت، أرحم الراحمين إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني؟، أم إلى قريب ملكته أمرى؟، إن لم تكن غضبان عليَّ فلا أبالي؟ غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضي، ولا حول ولا قوة إلا بالله"[٣]، "بهذه الكلمات المشحونة بالإيمان الوثيق بالله، المُخلقة بأنفاس النبوة الطاهرة، اتجه الرسول إلى ربه... متضرعاً، متوجعاً، طالباً رضا ربه، ورحمته في صبر وحمد، على السراء والضراء، مدد غير منتظر"[٤].

من خلال ذلك يتضح أن أولي العزم من الرسل، قد داوموا اللجوء إلى الله - ﷻ - واستمدوا العون منه، حتى صار ذلك من أعظم الأخلاق التي تخلقوا بها مع ربهم، وخالقهم.

---

(١) بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز، مجد الدين، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، المتوفي سنة ٨١٧ هـ، تحقيق محمد على النجار، الناشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ج٥، صـ٣٤٣.

(٢) سورة الأنفال الآية "٩".

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي أبي بكر بن سليمان الهيثمي، المتوفى سنة ٨٠٧هـ، تحقيق حسام الدين القدسي، القاهرة، بدون ط، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، كتاب الجهاد، باب خروج النبي - ﷺ - إلى الطائف وعرض نفسه على القبائل، ٣٥/٦، رقم ٩٨٥١، وقال: "فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات"

(٤) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج٨، صـ٤١٩.

٣- حسن التوكل على الله - ﷻ -

إن الإسلام يغرس في نفوس أتباعه، التوكل على الله - ﷻ -، والاستعانة به، وتفويض الأمر إليه في كل أمور حياتهم، ولذلك فإن المسلم يسأل الله - عز وجل - الاستعانة به في كل يوم حينما يقف العبد بين يدي ربه - سبحانه وتعالى - في صلاته، فهو يردد في كل ركعة قوله - تعالى -: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[١]، "وحقيقة التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله - عز وجل - في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها"[٢]، ولذلك فإن التوكل على الله - سبحانه وتعالى - من الأخلاق الإسلامية التي لا ينبغي توجيهها إلا لله - سبحانه وتعالى - فهو خلق تعبدي، يصل الإنسان بخالقه ورازقه، حتى جعل التوكل شرطاً لكمال الإيمان، ومن السمات الأساسية لكل مؤمن صادق الإيمان، وهو من أعلى مقامات الإيمان، ولذلك فقد قرنه الله - عز وجل - بالإيمان في آيات كثيرة، ويكفي أن الله - عز وجل - ختم سبع آيات في القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٣]، مما يدل على كمال الاتصال والتلازم بينهما، وقد عرض القرآن الكريم في آياته صفات أهل الإيمان، ودعت المؤمنين للتخلي بها، وجعلت التوكل صفة أساسية من صفاتهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[٤]، فالتوكل على الله من الأخلاق التي تجعل إيمان العبد إيماناً حقيقياً صادقاً كاملاً، ولقد ذكر الله - عز وجل - نبأ الرسل والأنبياء السابقين، وذكر أخلاقهم، فكان التوكل من أهم هذه الأخلاق التي اتصفوا بها، وحثوا أقوامهم عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ

---

(١) سورة الفاتحة الآية "٥".

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٩٧.

(٣) سورة آل عمران من الآية "١٢٢، ١٦٠"، وسورة المائدة من الآية "١١"، وسورة التوبة من الآية "٥١"، وسورة إبراهيم من الآية "١١"، وسورة المجادلة من الآية "١٠"، وسورة التغابن من الآية "١٣".

(٤) سورة الأنفال الآيات "٢ – ٤".

ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[١]، فالرسل – عليهم السلام – يؤكدون اعتمادهم الكامل على الله، وأن التوكل هذا هو من مقتضيات الإيمان بالله – ﷻ – وهناك بعض الآيات التي وصفت خلق التوكل على الله في دعوة أولي العزم من الرسل.

- إن سيدنا نوح – عليه السلام – قد بلغ الغاية في التوكل، وبين للكافرين من قومه، أنه لا يصل إليه من مكرهم شيء إلا بإذن الله – ﷻ –، لأنه متوكل عليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[٢]، فسيدنا نوح – عليه السلام – قد أعلن اعتماده على الله، وتوكله عليه في دفع كل شر وسوء يُراد به، وهذا يبين فضل التوكل" واعتماد الداعي في دعوته على ربه، لأن ذلك يملأ قلبه شجاعة وأملاً، واستهانة بكل ما يلاقي في سبيل الدعوة، ويمحص قلبه ويرفع منزلته، فهذا نبي الله نوح لا يبالي بتجمع قومه عليه، واستعانتهم بشركائهم، ويأمرهم بأن يجمعوا أمرهم، وينفذوا قضاءهم فيه، لأنه واثق بأن النصر حليفه، والعاقبة له ولأنصاره"[٣]، ولأنه يعلم أن الله وحده هو الكافي، فلا يحتاج معه إلى أحد، ولذلك قال: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولم يقل (توكلت على الله) حيث قصر التوكل عليه فقط، لأن الله وحده هو الذي ينصر من يتوكل عليه.
- إن التوكل على الله – ﷻ – سبب للوقاية من المكروه، والحفظ من الأذى، ولذلك فإن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – حينما ألقى في النار بعد تحطيم الأصنام، اعتمد على الله، توكل عليه، وفوض أمره إليه، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم – عليه السلام – حين ألقى في النار، وقالها محمد – ﷺ – حين قالوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[٤][٥]، فقطع سيدنا إبراهيم الأمل إلا في الله، فوجد رحمته وسط النار فنجاه حتى كانت النار عليه برداً

([١]) سورة إبراهيم الآيات "١١ – ١٢".

([٢]) سورة يونس الآية "٧١".

([٣]) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صــ٤.

([٤]) سورة آل عمران من الآية "١٧٣".

([٥]) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ٦/٣٩، رقم ٤٥٦٣.

وسلاماً، لتوكله على الله – ﷻ – في حال الرخاء، فنجاه وقت الشدة، ولذلك كان من دعاء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١]، وعندما أخذ زوجته السيدة هاجر وولده سيدنا إسماعيل – عليه السلام – وهو طفل رضيع، وسار بهما في الصحراء حتى وصلوا إلى بيت الله الحرام، فوضعهما في هذا المكان، وليس معهما إلا القليل من الزاد والماء، ثم تركها حيث لا أنيس ولا جليس، فأسرعت وراءه، وقالت له: "يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شئ؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آالله أمرك بهذا؟ فقال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت"[٢]، وهكذا توكلت زوجته على الله – ﷻ – فكانت مع ولدها في معية الله – ﷻ – وحفظه.

- إن التوكل على الله له مقام عظيم، فهو من أقوى الأسباب التي تدفع المسلم إلى تحمل أقدار الله – ﷻ – ، وخاصة عند شدة المصاب وهوله، والمؤمن إذا أصابه شيء فزع إلى الله وتوكل عليه، وهذا هو ما أمر به سيدنا موسى – عليه السلام – قومه حينما توعدهم فرعون، فهددهم بقتل الأبناء، واستبقاء النساء، واتخاذهم خدماً وسراري، ففزعوا وضجروا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٣]، فحث قومه على التوكل والاستعانة بالله، والصبر، والتحمل "وإنما أمرهم أولاً بالاستعانة بالله، وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله – ﷻ – انشرح صدره بنور معرفة الله – ﷻ – وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله – ﷻ – وبقدره"[٤]، ولذلك فقد ربط سيدنا موسى – عليه السلام – بين التوكل والإسلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٥]، فالتوكل على الله هو خلق المؤمنين الذين ملأ الإيمان قلوبهم، فكانوا واثقين من نصر الله لهم، وتأييده، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، لأنهم يعلمون أن لهم رباً يسمع ويعلم ويحيط بكل أمورهم، فلا يخشون بذلك ظلم الظالم، ولا

---

(١) سورة الممتحنة من الآية "٤".

(٢) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلاً، ١٤٢/٤، رقم ٣٣٦٤.

(٣) سورة الأعراف الآية "١٢٨".

(٤) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج١٤، صـ٣٤٢.

(٥) سورة يونس الآيات "٨٤ – ٨٥".

بطشه، فهم يستشعرون معية الله، والمؤمن حينما يستشعر معية الله، والخوف منه، فإن ذلك ينشئ له استهانة بالجبارين، ويرزقهما الثبات في وجه هذا الخطر، وهذا ما حدث حينما تقاعس قوم موسى - عليه السلام - عن دخول الأرض المقدسة، واعتذروا عن مجرد الدخول لضعف إيمانهم، وتوكلهم على ربهم، فجاء رجلان من الذين يخافون الله، يحثان على تنفيذ الأمر بالاستعانة بالله - وحده - والتوكل عليه، فإنهم إذا فعلوا ذلك، تحقق لهم الغلبة والانتصار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]، لقد بينت الآية أن هناك: "رجلين قد أنعم الله عليهما بالطاعة والتوفيق، حتى في حال الخوف من الجبابرة، يقولان للشعب ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ ويعدانهم بالغلب إذا هم دخلوه، ويأمرون الشعب أن يتوكل على الله إن كان مؤمناً به، فلا يعمل حساباً للجبابرة، ولا يخشى بأساً للأقوياء بعد بذل الوسع فيما يصل إليه كسبهم من وسائل القوة، وأسباب القهر، وقد وعدوا الشعب بالغلب كما يعلمون من سنة الله مع الرسل، وعادته مع المصلحين"[2]، فالحث على التوكل، والاستعانة بالله - سبحانه وتعالى - ليس قاصراً فقط على الأنبياء والمرسلين، ولكن من المصلحين والدعاة والمربين وغيرهم.

- إن الله - سبحانه وتعالى - قد كفل الرزق لعباده، فهو مقسوم ومكتوب، فمن توكل على الله لطلب الرزق، فقد جعل التوكل سبباً، لأن التوكل لا يتحقق إلا بالأخذ بالأسباب، وَمِنْ ثَمَّ فينبغي للمسلم ألا يهمل السعي، ويتقاعس عن العمل، والأخذ بالأسباب، فالله - عز وجل - أمر السيدة مريم - عليها السلام - بأن تهز جذع النخل، وتأخذ بالأسباب حتى يتساقط الرطب، حتى نعلم أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، ولو شاء الله لأنزل عليها الرطب بدون تعب، فهي امرأة، وفي حالة المخاض والتعب، ولكن أمرها الله بالأخذ بالأسباب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[3]، فعلى الإنسان ألا يركن إلى الراحة والخمول، بحجة أن الله تكفل بالأرزاق، ومقدر الأقوات، فإذا أخذ الإنسان بالأسباب في التوكل على الله فلا ينبغي التعلق بها، والركون إليها، والثقة فيها، بل لابد من تعلق القلب بالله - سبحانه وتعالى -، والاعتماد عليه، فهو مسبب الأسباب، فالسيدة

(1) سورة المائدة الآية "٢٣".

(2) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ١٧٨.

(3) سورة مريم الآية "٢٥".

مريم تعلق قلبها بالله – ﷻ – وركن إليه ولذلك فعندما سألها سيدنا زكريا – عليه السلام – عن الرزق الذي يجده عندها دون أن يأتي به أحد: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]، وسيدنا عيسى – عليه السلام – قد اتخذ الله – ﷻ – وكيلاً، ولم يتوكل على أحد غيره، ولذلك أفرده بالتوجه إليه وحده، وتقرب إليه بدوام التوكل عليه في كل شيء وهو على يقين بأن الله هو الرزاق، ولذلك كان من دعائه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٢]، فالله هو الرازق، وهو المتكلف بالرزق لعباده، ولذلك وجب إفراده بالتوجه إليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[٣]، "والوكيل: من يتوكل عليه فتفوض الأمور إليه، ليأتي بالخير، ويرفع الشر وهذا لا يصح إلا لله – وحده – ولهذا حذر من اتخاذ وكيل من دونه، لأنه لا نافع ولا ضار، ولا كافي إلا هو وحده – جلا وعلا –"[٤] فالمسيح – عليه السلام – لم يتوكل إلا على الله وحده.

- لقد أمر الله – ﷻ – سيدنا محمداً – ﷺ – بالتوكل عليه في كثير من آيات القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[٥]، ومنها قوله: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٦]، وقوله: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[٧]، والآيات في ذلك كثيرة، وفيها أمر الله – ﷻ – لرسوله – ﷺ – بالتوكل، فهو أكبر أسوة للبشرية، وقد أحسن الله تأديبه، حتى بلغ المثل الأعلى في الكمال البشري، فكان متوكلاً على الله في جميع أموره، فإذا أراد الخروج من البيت للعمل والدعوة، أعلن توكله على الله وصدع به، فعن أنس بن مالك، أن النبي – ﷺ – قال إذا خرج من بيته: "بسم الله توكلت على الله ، لا حول

---

(١) سورة آل عمران من الآية "٣٧".
(٢) سورة المائدة من الآية "١١٤".
(٣) سورة النساء الآية "١٧١".
(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، مرجع سابق، ج٣، صـ١٢.
(٥) سورة الفرقان الآية "٥٨".
(٦) سورة الشعراء الآية "٢٠٧".
(٧) سورة الأحزاب الآية "٣".

ولا قوة إلا بالله، فيقال: حسبك قد كفيت وهديت، ووقيت، فيلقى الشيطان شيطاناً آخر فيقول له: كيف لك برجل قد كُفِي وهُدِى وَوُقِي"[١]، فإذا رجع إلى بيته، صرَّح كذلك بكلمات تفيض بالتوكل على الله، فعن أبي مالك الأشعري – ﷺ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "إذا ولج الرجل في بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج، وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله"[٢]، وكذلك إذا آوى إلى الفراش للنوم أعلن توكله، فعن البراء بن عازب قال: كان النبي – ﷺ – يقول: إذا آوى إلى الفراش للنوم يقول: "اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك"[٣]، ولقد فرض النبي – ﷺ – على تربية أصحابه وأمته على هذا الخلق العظيم، فقال: "لو أنتم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً وتروح بطاناً"[٤]، فالتوكل سمة من سمات المنهج النبوي في التوجيه، والتربية للأمة، وهو خلق عظيم من أخلاق أولي العزم من الرسل.

٤- وجوب التأدب مع الله – ﷻ –

إذا كان التأدب مع أصحاب الفضل والنعم واجباً، فإن التأدب مع الله – ﷻ – هو أوجب الواجبات، فهو صاحب الفضل الأكبر على الإنسان، لأن الإنسان محفوف بنعم الله – ﷻ – الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى من قبل المولد إلى الوفاة، بل بعد الممات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[٥]، فنعم الله – ﷻ – كثيرة وكثيرة، وتقديراً لهذه النعم التي أنعم الله – ﷻ – بها على الناس أن يعرفوا حقه، ويتأدبوا معه، فالإنسان بحاجة إلى أن يحسن الأدب مع الله، والمقصود بالأدب مع الله "هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأذكار، ١٠٤/٣، رقم ٨٢٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: "رجاله ثقات".

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، ٤٢٦/٧، رقم ٥٠٩٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده ضعيف".

(٣) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، ٥٨/١، رقم ٢٤٧، ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ٢٠٨١/٤، رقم ٢٧١٠،

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب التوكل بالله ﷻ، والتسليم لأمره في كل شيء، ٤٠٤/٢، رقم ١١٣٩، ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، ١٣٩٤/٢، رقم ٤١٦٤.

(٥) سورة النحل الآية "١٨".

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء، معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره، ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً"[١]، فمن باب الأدب مع الله – ﷻ –، أن يتوجه الإنسان إليه بالعبادة وحده، وترك عبادة ما سواه، وكمال التسليم له والانقياد لأمره، وتلقي شرعه بالقبول والتصديق، دون شك وارتياب، فإذا لم يؤد الإنسان العبادة كما شرعها الله – ﷻ –، فقد أساء الأدب معه، وهذا ما يعرف بالأدب القلبي" وأدب القلب هو الأصل والأساس لغيره، فمقتضاه: أن يتوجه إلى الله وحده محبة وخوفاً، ورجاء وتوكلاً واستعانة إلى غير ذلك، وفي المقابل فإن أعظم الإساءة: أن يلتفت إلى غيره، أو يقصد سواه، وهو المتفرد بالخلق والرزق والملك والتدبير، وبيده وحده النفع والضر، وإليه وحده مرجع الأمر"[٢]، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأدب القلبي المتمثل في إخلاص العبادة لله وحده، لأنه هو الخالق والرازق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[٣]، كذلك اهتم الإسلام بالأدب القولي مع الله – ﷻ – ومعناه "أن لا يقول إلا ما فيه تعظيم إلهه ومولاه، وأن لا ينطق إلا بما يحبه ويرضاه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾[٤]،ومن ذلك ذكره وتلاوة كتابه، والتسبيح بآلائه، وفي المقابل فإن أعظم إساءة: الاستهزاء بآيات الله خوضاً ولعباً، وسب الله العظيم، وسب آياته وشريعته، وهذا هو أعظم الجرم"[٥]، من أجل ذلك نهى الإسلام عن سبِّ الذين يدعون من دون الله – ﷻ –، حتى لا يسبوا الله – ﷻ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[٦]، ولقد حظى النبيون بحسن الأدب مع الله – ﷻ – في كل شئ، ومن تأمل أحوالهم، ونظر في دعوتهم عرف

---

(١) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية ، مرجع سابق، ج٢، صـ٣٦٥.

(٢) موسوعة الأخلاق، خالد بن جمعة بن عثمان الخراز، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، صـ١٢١.

(٣) سورة البقرة الآيات "٢١ – ٢٢"..

(٤) سورة الأحزاب الآية "٧٠".

(٥) موسوعة الأخلاق، الخراز، مرجع سابق، صـ١٢١.

(٦) سورة الأنعام الآية "١٠٨".

ذلك، فعندما يجمع الله – ﷻ – الرسل وأممهم يوم القيامة، فيسألهم – وهو أعلم – فيفوضوا العلم إلى الله – ﷻ – وينفوا عن أنفسهم العلم بالكلية، تأدباً مع الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾(١)، "فإن قيل: لماذا نفوا عن أنفسهم العلم من أن عندهم بعض العلم؟ فالجواب على ذلك: أن هذا من باب التأدب مع الله – ﷻ – فكأنهم يقولون: لا علم لنا يذكر بجانب علمك المحيط بكل شيء ونحن وإن كنا قد عرفنا ما أجابنا به قومنا، إلا أن معرفتنا هذه لا تتعدى الظواهر، أما علمك أنت يا ربنا فشامل للظواهر والبواطن"(٢)، فهو علام الغيوب.

- إن سيدنا نوحاً – عليه السلام – قد أحسن التأدب مع الله – ﷻ – فحينما استعجل قومه نزول العذاب الذي توعدهم به، قال لهم كما أخبر القرآن الكريم: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾(٣)، لأن إنزال العذاب ليس من شأنه، بل مرد ذلك إلى الله – ﷻ –، فهو مالك الأمور ومصرفها، فلم يقطع بنزول العذاب عليهم بل رده إلى مشيئة الله – ﷻ – ويظهر الأدب كذلك حينما طلب من الله – ﷻ – نجاة ابنه من الغرق فقال كما أخبر القرآن الكريم: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾(٤)، فلم يصرح بطلب النجاة، فلم يقل: يارب لا تخلف وعدك معي بإنجاء أهلي، تأدباً مع الله – ﷻ –.
- لقد علمنا الإسلام الأدب في نسبة الشر إلى الله – ﷻ – فلا ينبغي أن يُنْسَب الشر إليه، بل يُنسب للمخلوق وهذا ما فعله سيدنا إبراهيم – عليه السلام – حينما تكلم عن الشر فنسبه إلى نفسه مع أنه يقع عليه من الله – ﷻ –، فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾(٥)، "وقد أضاف المرض إلى نفسه، لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه، ووسائل حياته، وقد نسب الشفاء إلى ربه، لأنه خلق لكل داء دواء، وهدى الناس إلى علاج

(١) سورة المائدة الآية "١٠٩".
(٢) تفسير الوسيط، طنطاوي، مرجع سابق، ج٤، صـــ٣٣١.
(٣) سورة هود الآية "٣٣".
(٤) سورة هود الآية "٤٥".
(٥) سورة الشعراء الآية "٨٠".

أمراضهم عن طريق البحث في العقاقير ووسائل الأدوية"[١]، ويظهر كذلك الأدب مع الله – ﷻ –، حينما قال لأبيه: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾[٢]، فلم يصرح بأن العذاب لاحق بأبيه عن طريق اليقين، لأن هذه الأمور لا يعلمها إلا الله وحده، ولذلك فقد علمنا الإسلام عند فعل أمر سيفعله الإنسان في المستقبل أن يقدم المشيئة، لأنه لا يدرى هل يفعله أم لا؟ وهذا ما فعله سيدنا موسى – عليه السلام – حينما أخبره العبد الصالح بأنه لن يستطيع الصبر معه، فقال له: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾[٣]، وعلق الصبر على مشيئة الله – ﷻ –، فهو لم يدَّع حصوله في نفسه، تأدباً مع الله – سبحانه وتعالى –، كذلك يظهر أدبه مع الله – سبحانه وتعالى –، حينما نسب العيب إلى نفسه في خرق السفينة، فقال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾[٤]، فنسب العيب لنفسه لأن الشر يكون بأسباب من الإنسان، والله – ﷻ – يتفضل على عباده بالخير.

- إن الحديث عن الله – ﷻ – يجب أن يُحاط بسياج من الأدب الرفيع، فيتحرى الإنسان الألفاظ والتراكيب، فلا ينطق إلا بما فيه إجلال وتعظيم وتقدير لله – سبحانه وتعالى – فسيدنا عيسى – عليه السلام – حينما يسأله ربه يوم القيامة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾[٥]، فلم يجب المسيح – عليه السلام – بقوله: (لم أقل ذلك يارب)، ولكن نفى عن نفسه أي مقالة، بعد تنزيه الله – ﷻ –.
- ولقد علم سيدنا محمد – ﷺ – أمته أن يتأدبوا مع الله – سبحانه وتعالى – فلا ينسبوا مساوئ الأفعال وشرها إليه، مع أن كل المحدثات هي من فعل الله وخلقه، فقال – ﷺ – مرشداً أمته إلى حسن الأدب مع الله، فعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: "..... والشر ليس إليك

---

(١) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٥٦.
(٢) سورة مريم الآية "٤٥".
(٣) سورة الكهف الآية "٦٩".
(٤) سورة الكهف من الآية "٧٩".
(٥) سورة المائدة الآية "١١٦".

....."[1]، إن هذا الحديث "فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على الله - ﷻ - ومدحه، بأن يضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها على جهة الأدب"[2]، وهذا ما فعله مؤمنوا الجن، حينما ذكروا الشر، فلم ينسبوه إلى الله، ولكن نسبوه إلى ما لم يسم فاعله وبعدها نسبوا الرشد إلى الله - ﷻ -، فقالوا: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾[3].

من خلال هذا العرض السريع يتضح أن أولي العزم من الرسل – عليهم السلام – قد التزموا طريق الأدب مع الله – ﷻ – فسلموا من زلة القدم والتقصير، وفي ذلك أسوة حسنة للمؤمنين بأن يتأدبوا مع ربهم أعظم الأدب، حتى يسلكوا في سلك الأنبياء – عليهم السلام –.

ثانياً: أثر الأخلاق مع الله في الوقاية من الانحراف

إن الإنسان إذا التزم منهج الله – ﷻ – وعبده حق عبادته، كان ذلك سبباً في إحساسه الدائم بمعية الله له، فالنفس الإنسانية فقيرة بذاتها، قوية وعزيزة بالله – ﷻ – خالقها ورازقها، فهو مع الإنسان دائماً، وتحت رعايته، يهديه ويرشده، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[4]، فمن استشعر معية الله – ﷻ –، وإطلاعه عليه، انكف عن الظلم والعدوان، وانزجر عن الفواحش والموبقات، ولم يلتفت إلى غيره، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[5]، كذلك حفظ حدوده وحقوقه، ومن حفظ حدود الله، حفظه الله، فالجزاء من جنس العمل، وعندما يتعرض لشدة فإن الله – ﷻ – حافظه حتى لا يقع في الضلال والسوء، وهذا ما فعله سيدنا يوسف – عليه السلام – حينما راودته امرأة العزيز، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[6]، إن

---

(1) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ٥٣٤/١، رقم ٧٧١.

(2) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج٦، صـ٥٩.

(3) سورة الجن الآية "١٠".

(4) سورة البقرة الآية "٢٥٧".

(5) سورة البقرة من الآية "٢٣٥".

(6) سورة يوسف الآيات "٢٣ – ٢٤".

هذا الحفظ الإلهي للإنسان، جزاء حفظه لحدود الله – ﷻ –، وقد أكد النبي – ﷺ – هذا المعنى، فعن ابن عباس – رضي الله عنه – أنه ركب خلف رسول الله – ﷺ – يوماً فقال له" يا غلام إني معلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"(١)، إن "قوله – ﷺ – (احفظ الله) يعني: احفظ حدوده وحقوقه، وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به، وأذن فيه إلى ما نهى عنه، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه"(٢)، ألم يقل ربنا – ﷻ – في قرآنه الكريم: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾(٣)، هذا الحافظ لحدود الله وحقوقه، إذا وقع في الذنب، فإنه يتبعه بالاعتراف بالخطأ والاستغفار، والرجوع مرة أخرى إلى الله – ﷻ –، ولم يتمادى في الانحراف، لأنه يعلم أن له رباً يأخذ بيده، ويغفر له، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعت النبي – ﷺ – يقول: "إن عبداً أصاب ذنباً، وربما قال أذنب ذنباً – فقال رب إني أذنبت – وربما قال: أصبت – فاغفر لي، فقال ربه: أَعَلِمَ عبدي أنه له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً أو أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت، أو – أصبت – آخر فاغفره؟، فقال: أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً، وربما قال: أصاب ذنباً، قال: رب أصبت، أو قال: أذنبت آخر فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثلاثاً، فليعمل ما شاء"(٤).

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٦٦٧/٤، رقم ٢٥١٦، وقال: "حديث حسن صحيح".

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، مرجع سابق، ج١، صـ٤٦٢.

(٣) سورة ق الآيات "٣٢ – ٣٣".

(٤) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى، يريدون أن يبدلوا كلام الله ٤٥/٩، رقم ٧٥٠٧، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، ٢١١٢/٤، رقم ٢٧٥٨،

إن الواجب على الإنسان الاستقامة على الصراط المستقيم، والصبر على امتثال الأوامر، والنواهي الشرعية، لكنه مقصر في ذلك لا محالة، والعبد حينما تتراكم عليه الذنوب بأثقالها، فإن الظلام يسكن قلبه، وليس لهذا الظلام من جلاء إلا باللجوء إلى الله - ﷻ - والعودة إليه بالاستغفار والتوبة، وهذا أيضاً يذكر العبد بأنه خطاء، وأن الخلل واقع في عمله لا محالة، فحينئذ لا يدخله الكبر والعجب، لأنه مقصر.

إن العبد حينما يعلم أن له رباً، هو قادر على كل شيء، فإنه يلجأ إليه، ويفوض أمره إليه، ويخشاه فلا يطغي ولا يتجبر على أحد، لأن "المسلم إذا ما استشعر خوف الله ، انكف وانزجر عن المخالفات، واندفع إلى ما يقي نفسه من المؤذيات والمؤلمات في الآخرة، وعلى رأس الوقاية تقوى الله"(١)، فإذا اتقى الله – ﷻ –، امتلأ قلبه بالأمن والطمأنينة، وانتزع منه الخوف والفزع، لعلمه أنه في معية القوى القادر الذي لا يخذل من لجأ إليه، ولذلك عندما أدرك فرعون سيدنا موسى - عليه السلام - ومن معه من المؤمنين به، شعروا بالخطر، وأيقنوا بالهلاك، لأنهم بين خطرين، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم فقالوا: إنا لمدركون، ولكن سيدنا موسى - عليه السلام - واثق في أن الله لا يخذله مهما كانت الأمور، فلم ينتابه خوف ولا فزع، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾(٢)، إن بني إسرائيل فقدوا هذا الإحساس، أما سيدنا موسى - عليه السلام - فلم يفقده لأنه على يقين بأن الله سينصره، ولذلك قال (معي) ولم يقل (معنا)، وقد تحقق ما كان يوقنه، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾(٣)، "لأن من توكل على الله في كل المهمات كفاه الله كل الملمات"(٤)، فرب العالمين

---

(١) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٣٤١.
(٢) سورة الشعراء الآيات "٦١ – ٦٢".
(٣) سورة الشعراء الآيات "٦٣ – ٦٦".
(٤) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج١٧، صـ٢٩٠.

يقول: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[١]، فاللجوء إلى الله وقاية للإنسان مما يكره ويحذر، لأنه يضفي سكينة على النفس، تطرد الشك والارتياب، ليحل محلها الأمن والسلام، فها هو سيدنا نوح – عليه السلام – حينما لاذ بالله – عز وجل –، وتوكل عليه، كانت النتيجة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾[٢]، "والمقصود بالسلام: هو الأمن والاطمئنان، فلم يعد هناك ما ينغص على نوح – عليه السلام – أمره[٣]، كذلك فوض مؤمن آل فرعون أمره لله – سبحانه وتعالى – فوقاه الله مكرهم، قال تعالى عنه: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[٤]، في هذه الآية "دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله، وتفويض الأمور إليه سبب للحفظ والوقاية من كل سوء"[٥]، فإذا حقق الإنسان الآداب والحقوق التي أوجبها عليه تجاهه، استقام له دينه، وكان في معيته وحفظه، فإذا قصر في ذلك فقد وقع في الانحراف.

---

(١) سورة الطلاق من الآية "٣".
(٢) سورة هود، الآية "٤٨".
(٣) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١١، صـ٦٤٨٧.
(٤) سورة غافر الآيات "٤٤ – ٤٥".
(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، مرجع سابق، ج٦، صـ٣٨٨.

المبحث الثاني

التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع النفس

يُقصد بالأخلاق مع النفس: الأخلاق التي تحكم علاقة الإنسان مع نفسه، لصلاحها، وتهذيبها، وتطهيرها من شوائب الانحراف، حتى يصير الإنسان زكي النفس، بعيداً عن المهلكات.

أولاً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع النفس

من أهم أهداف الإسلام تربية النفس البشرية، وتقويم سلوكها، لأن الفرد هو المحور الأساسي الذي يقوم عليه المجتمع، فصلاحه: صلاحٌ للمجتمع، وانحرافه وفساده: انحرافٌ وفسادٌ للمجتمع، ولذلك فقد وضع الإسلام العديد من التوجيهات التربوية، والأسس الإسلامية، وحرص على غرسها داخل النفوس، لكي ينال الإنسان الفلاح، فبدونها ينحرف الإنسان، ويصاب بالخيبة والخسران، والتوجيهات التربوية الوقائية المتعلقة بالأخلاق مع النفس، في دعوة أولي العزم من الرسل يصعب على الباحث حصرها وعدها في هذا الحيز، ولذلك فسأقتصر على أهمها، وهي كالتالي:-

١- التحلي بخلق الصبر فهو خير مطايا الاستقامة

إن الإنسان في هذه الحياة الدنيا معرض للابتلاء والاختبار، وهذه سنة من السنن الإلهية في هذا الكون، وذلك ليميز الله - سبحانه وتعالى - الخبيث من الطيب، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[١]، فالله - عز وجل - يبتلي عباده ليتبين الصادق من الكاذب، والصابر من الجازع، والطريق إلى الاستقامة مليء بالعوائق والعقبات، والنفس بطبيعتها تحب النفور من القيود، والاستقامة فيها قيدٌ للنفس من شهواتها، وملذاتها، ولذلك فإن النفس لا تستقيم على الطاعة بيسرٍ وسهولةٍ، وخاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه المغريات، وانتشرت الابتلاءات والمحن، فالنفس في أَمَسِّ الحاجة إلى ترويضها، وهذا يحتاج إلى صبر واصطبار، لأنه يحبس النفس عن فعل السوء والشر ودواعي الهوى، ويزجرها عن الوقوع في المحرمات، ولذلك فقد جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - الصبر ضياء، فعن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "..... والصبر ضياء ....."[٢]، وهذا يدل على أنه "إذا استحكمت الأزمات، وتعقدت حبالها، وترادفت الضوائق وطال ليلها، فالصبر وحده هو الذي يشع للمسلم النور العاصم من التخبط،

---

(١) سورة محمد الآية "٣١"

(٢) سبق تخريجه، صـ٢٤٨.

والهداية الواقية من القنوط"[١]، وهو الذي يمده بقوة العزيمة والإرادة، فالصبر من عزائم الأمور، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[٢]، فهو يقوى العزيمة على المثابرة، ولذلك كان من الواجب على الدعاة والمربين: أن يتمسكوا بخلق الصبر في مختلف المواقف، فرسالتهم هي الدعوة والتربية، "وحاجة الدعاة إلى الصبر ضرورة، لأنهم دائماً يجابهون أعداء الله في الأرض، وكثيراً ما يتمكن الأعداء منهم، وحينئذ يكون الصبر ملاذهم، ومأواهم، وهو الأسلوب الأمثل لإثبات قوة الحق، وإظهار صلابة الإيمان وعزته"[٣]، ولذلك فإن الله – ﷻ – قد أثبته لكثير من الأنبياء والرسل – عليهم السلام – على سبيل الإشادة بهم، والثناء عليهم، لتخلقهم بهذا الخلق العظيم، كأولى العزم منهم، فالله – ﷻ – أثنى عليهم، وخص خلق الصبر منهم بالثناء – مع مالهم من الأخلاق الكثيرة الفاضلة – ليدل على بروزه فيهم، وعلى أهميته وعظيم منزلته، فهو شعارهم وحالهم الدائم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾[٤]، وهذا هو حال أنبياء الله – عليهم السلام –، وصفوته من خلقه، وخص منهم أولي العزم، فقال آمراً سيدنا محمداً – ﷺ – ومن تبعه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾[٥]، وهذا يوضح مدى ما وصل إليه صبر الأنبياء – عليهم السلام – واحتمالهم أذى قومهم، وسفاهتهم وجهلهم، "ونبي الله نوح – عليه السلام – أحد أولئك الذين أُمر رسول الله – ﷺ – بالتأسي بهم، ولقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، ويصبر على أذاهم، كل ذلك وهم لا يرفعون بدين الله رأساً، ولا يرتدعون عن غيهم وضلالهم، وعبادتهم الأصنام من دون الله، لذلك فإن الصبر واجب حتم على المؤمنين، وهو من أهم أسلحة الدعاة إلى الله –سبحانه وتعالى–"[٦].

---

(١) خلق المسلم، الغزالي، مرجع سابق، صـ١٣١
(٢) سورة لقمان الآية "١٧"
(٣) دعوة الرسل، غلوش، مرجع سابق، صـ٢٤٨
(٤) سورة الأنعام من الآية "٣٤"
(٥) سورة الأحقاف من الآية "٣٥"
(٦) عظات وعبر في قصص الأنبياء، سعيد عبد العظيم، مرجع سابق، صـ٣٥ وما بعدها

- لقد تسلح به سيدنا نوح – عليه السلام – في دعوة قومه طيلة هذه المدة، بهمةٍ عاليةٍ، من غير كللٍ ولا مللٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾(1)، وصبر على أذى قومه، وطغيانهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾(2)، وصبر على سفاهتهم، وسخريتهم به، وتهديدهم له بالقتل والرجم، ووصفوه بالجنون، فلم يزده ذلك إلا صلابة وقوة، وصبر كذلك على فجيعته في ولده وزوجته "فكانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون، وإذا آمن به أحد أخبرت به الجبابرة"(3)، فكانت دعوته – عليه السلام – متسمة بالصبر والمجاهدة والثبات "فليعتبر بذلك الدعاة الذين تغلب على نفوسهم اليأس، ليعتبروا بذلك الصبر الخارق، وتلك الإرادة الحديدية، ولو لم يكن لنوح من الآيات الخلقية سوى هذه الآية لكفته دليلاً على تأييده من ربه، وصدقه في دعوته"(4)، فاستحق أن يكون من أولي العزم من الرسل.
- إن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – أيضاً، كان الصبر سمة من سماته، ومعلماً من معالم شخصيته، فصبر على شدة الأب الذي لقى منه ما لقى، هدده بالرجم، فصبر على ذلك، وتصدى بقوة وعزيمة للملك الذي ادعى الربوبية لنفسه، فأدحض حججه الواهية، وصبر على عدم الإنجاب حتى بلغه الكبر، فرزقه الله – سبحانه وتعالى – الأبناء الأنبياء، صبر على إيذائه وإلقائه في النار دون ذنب يقترفه إلا أنه قال ربي الله، ودعاهم إلى طريق الحق والاستقامة، صبر على طاعة الله وتنفيذ أمره في ذبح ولده إسماعيل – عليهما السلام – من خلال الرؤيا التي رآها في منامه، ورؤيا الأنبياء حق ووحى، فأخذ السكين ليذبح ابنه الوحيد الذي رُزق به بعد بلوغ الكبر، وقد اشترك معه ابنه في ذلك، حتى قال الإبن لما أخبره بذلك: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾(5)، فأسلما أمرهما لله – سبحانه وتعالى – صابرين، "وما علينا إلا أن نتأسى بهما في صبرهما، وتنفيذ التكاليف الشرعية دون ضجر.

---

(1) سورة نوح الآيات "٥ – ٧ "
(2) سورة القمر، الآية "٥٢"
(3) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج٥، صـــ١٢٣، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج٢٨، صـــ١٦٧، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي، مرجع سابق، ج٨، صـــ٢٥٢.
(4) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـــ ن وما بعدها، في المقدمة
(5) سورة الصافات من الآية "١٠٢"

- إن الأقدار تحتاج من الإنسان إلى صبر، لأنه لا يدرى من أين يأتيه الخير، والله - ﷻ - وحده هو العالم بظواهر الأمور وبواطنها، فقد يأتي الخير للإنسان في أمرٍ كان ظاهره شر، والعكس، وما على المسلم إلا أن يتحلى بالصبر والرضا بما قدر الله - سبحانه وتعالى - له، حتى يذوق حلاوة الرضا، وهذا هو ما فعلته أم سيدنا موسى - عليه السلام - حينما أوحى الله - سبحانه وتعالى - إليها أن تلقيه في اليم، فصبرت على ذلك، وألقته في اليم، لأنها واثقة من وعد الله - ﷻ - لها برجوع ابنها لها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(١)، فصبرت، فكانت نتيجة صبرها أن رده الله - سبحانه وتعالى - إليها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢)، كذلك صبر سيدنا موسى - عليه السلام - على فرعون وتهديده له بالحبس والقتل، فلم يجزع، ثم ربىَّ قومه على هذا الخلق العظيم، لأن فرعون قد تمادى في غيه وجبروته، ونفذ تهديده، فقتل الرجال، واستبقى النساء، ولكنه قابل ذلك بِحَثِّهم على الاستعانة بالله - سبحانه وتعالى - والصبر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٣)، فتحقق وعد الله - سبحانه وتعالى - لهم بالنصر، بسبب صبرهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾(٤)، فالله - ﷻ - قد جعل للصابرين حسن العاقبة في الدنيا بالنصر والتمكين، والعزة في الآخرة، ولقد جعل الله - ﷻ - الإمامة في الدين: لمن تخلق بالصبر واليقين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) سورة القصص الآية "٧"

(٢) سورة القصص الآية "١٣"

(٣) سورة الأعراف الآية "١٢٨"

(٤) سورة الأعراف الآية "١٣٧"

يُوقِنُونَ ﴾(١)، "إن هذه الآية تدل على أنهم إنما استحقوا تلك الدرجات العالية من الله – ﷻ – بسبب الصبر"(٢)، فكانت ثمرة الصبر: إمامة الناس، بهدايتهم إلى الخير والطريق المستقيم.

- لقد جرت سنة الله – ﷻ – في الكون أن يكون الإنسان بين خير وشر، ومحنة ومنحة، ولا يخلو إنسان من الابتلاء، فإذا نزل به الابتلاء، وجب عليه ضبط النفس من الضجر والجزع، فلا يظهر سخطاً بقدر الله – ﷻ – ولا يتكلم بكلام ربما أبعد عنه أجر وقوع هذا البلاء، فلا يتمنى الموت تخلصاً من البلاء إلا إذا كان خوفاً على النفس من التهم والظنون السيئة، وهذا ما فعلته السيدة مريم – عليها السلام – عندما جاءها المخاض، فقالت: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾(٣)، وهذا لا ينافي الرضا بالقضاء والقدر، ولكنها خافت أن يُظن بها الشر في دينها، فتتطاول عليها الألسنة، ومعلوم أن جرح اللسان أشد وقعاً من جراح السنان، فصبرت على تطاول الألسنة عليها، وعلى النظرات المريبة التي لا خير فيها، فكانت نتيجة صبرها: أن تولى الله – ﷻ – رعايتها، وأظهر براءتها "وهذه التربية الإسلامية من شأنها أن ترفع معنويات المسلمين في الحياة، وتشد عزائمهم، وتنفي السأم والضجر عن نفوسهم وقلوبهم، وتضع بينهم وبين الطرق التي تنحدر بكثير من الناس إلى الانتحار: سداً منيعاً"(٤)، كذلك صبر سيدنا عيسى – عليه السلام – على تكذيب بني إسرائيل له، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾(٥) ورفض دعوته، وعلى مكرهم به حتى أرادوا قتله وصلبه، إلا أن الله – ﷻ – نجاه من كيدهم.
- لقد أمر الله – ﷻ – سيدنا محمداً – ﷺ – بالصبر في أول مراحل الدعوة، في مرحلة الإعداد والتربية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾(٦)، فطريق الدعوة إلى الله – ﷻ – ليس سهلاً، ولا مفروشاً بالورد والرياحين، بل هو شائك، يحتاج إلى صبر وجلد كبير، فلا يتأثر بما يقف في طريقه من عقبات أو عراقيل، ثم أمره بعد ذلك بالصبر على الأذى، فلا يلتفت إلى قولهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ

---

(١) سورة السجدة الآية "٢٤"
(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٧، صـ١٦٦
(٣) سورة مريم الآية "٢٣"
(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها، حنبكة، مرجع سابق، ج٢، صـ٣١٤
(٥) سورة النساء الآية "١٥٥"
(٦) سورة المدثر الآية "٧"

عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾[١]، فاتهموه بالجنون – وهو سيد العقلاء – اتهموه بأنه شاعر وساحر – وهم يعلمون بأنه ليس كذلك –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[٢] حتى كانت حياته حافلة بالصبر الجميل، مليئة بالابتلاءات التي مرت به في مراحل حياته ودعوته، ولذلك فقد أمر الله – ﷻ – رسوله – ﷺ – ، ومن تبعه من المؤمنين بالاستقامة على دينه الذي أنزله إليه، وأعلمهم بأن الاستقامة على هذا الدين تتطلب منهم الصبر على القيام بأعبائه، ولذلك جاء قوله تعالى بعد الأمر بالاستقامة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٣]، "لأجل ذلك يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيراً، ذلك أن الله – ﷻ – يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب محبذة القوى، يقظة للمداخل والمخارج، ولابد من الصبر في هذا كله"[٤]، فلابد للمسلم حتى يحقق الاستقامة: من أن يتحلى بالصبر، فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: أن رسول الله – ﷺ – قال: "..... وما أعطى أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر"[٥]، فأفضل ما يعطاه الإنسان الصبر، سواء الصبر على الطاعة، والتي تحتاج إلى مجاهدة النفس وقمع شهواتها، أو الصبر عن المعصية: بمنع النفس من فعل المعاصي والحرام، أو صبر على الأقدار، فلا يظهر السخط والجزع، فالصبر يحتاج إليه المرء في حياته كلها، كما فعل أولو العزم من الرسل، وينبغي علينا أن نتأسى بهم في ذلك.

٢- التخلق بخلق الأمانة

إن الأمانة من الأخلاق التي يتفق الناس على ضروريتها في كل أمرٍ من أمورهم، فالنفوس بفطرتها تميل إلى تقدير الأمانة والأمناء، ولذلك فقد أمر الإسلام بها، وجعلها في كل شيء في حياة الإنسان، في جميع معاملاته، وأقواله، وأفعاله، "والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، وهي ترمز إلى

---

(١) سورة المزمل الآية "١٠"
(٢) سورة الأنبياء الآية "٥"
(٣) سورة هود الآية "١١٥"
(٤) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ج١، صـ١٤١
(٥) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب فضل الاستعفاف عن المسألة، ١٢٢/٢، رقم ١٤٦٩، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر ٧٢٩/٢، رقم ١٠٥٣،

معان شتى، مناطها جميعاً شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه"[١]، فهي تشمل كل التكاليف الشرعية وتفاصيلها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[٢]، والنبي – ﷺ – قد وضح ذلك، فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته" قال: وحسبته أن قد قال: "والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته"[٣]، وهي أمرٌ لازمٌ لكل داع ومرب، فهي فضيلة من الفضائل التي لا يمكن أن يستغنى عنها أي فرد من أفراد الأمة، وإلا اختلت الموازين، وانقلبت رأساً على عقب، وهي سبب من أسباب التمكين في الأرض، فسيدنا يوسف – عليه السلام – لم يرشح نفسه لإدارة الخزائن المالية: إلا لأمانته وعلمه، قَالَ تَعَالَى:على لسان سيدنا يوسف: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[٤]، فالأمانة كانت من أهم المؤهلات التي ذكرها، حتى يستحق أن يكون على خزائن الأرض، و "الإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ، تصان به حقوق الله، وحقوق الناس، وتحرس به الأعمال من دواعي التفريط والإهمال، وَمِنْ ثَمَّ أوجب على المسلم أن يكون أميناً"[٥]، فمن عظم الأمانة: أنها قرينة للإيمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالله – ﷻ – قد ذكر صفات المؤمنين، وبين أن حفظ الأمانة، وعدم ضياعها من أهم صفاتهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[٦]، وقد أكد النبي – ﷺ – هذا المعنى، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: ما خطب نبي الله – ﷺ – إلا قال: "لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له"[٧]، "أي: لا إيمان كامل، فالأمانة لب الإيمان،

---

(١) خلق المسلم، الغزالي، مرجع سابق، صـ٤٥

(٢) سورة الأحزاب الآية "٧٢"

(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ٥/٢، رقم ٨٩٣، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر والحث على الرفق به، ١٤٥٩/٣، رقم ١٨٢٩،

(٤) سورة يوسف الآية "٥٥"

(٥) خلق المسلم، الغزالي، مرجع سابق، صـ٤٥

(٦) سورة المؤمنون الآية "٨"

(٧) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، ٤٢٣/١، رقم ١٩٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده حسن في الشواهد".

وهي منه بمنزلة القلب منه"[١]، ولما كانت الأمانة من الأهمية بمكان: فقد حرص الأنبياء – عليهم السلام – على إبرازها من بين أخلاقهم، لأنها ترفع صاحبها في أعين الناس، وتجعله مطاعاً محبباً لنفوس المدعوين، ويقدمونه في كل شيء.

- فها هو سيدنا نوح – عليه السلام – يعرض لقومه صفة الأمانة، قبل دعوتهم إلى الهداية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[٢]، فالأمانة من لوازم الرسالة، وشرط في البلاغ، لأن صاحبها محبوب عند الله – سبحانه وتعالى – وعند الناس، مرغوب في صداقته، بخلاف الخائن فهو مبغوض من الله – سبحانه وتعالى – ومن الناس، وكان سيدنا نوح – عليه السلام – معروفاً بالأمانة بين قومه "وتأكيده بحرف التأكيد مع عدم إنكارهم أمانته، لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم بتجربة أمانته، قبل تبليغ الرسالة، فإن الأمانة دليل على صدقه فيما بلغهم من رسالة الله"[٣]، فمتى كانت الأمانة موجودة، كان للكلام أثرٌ بالغٌ في نفوس المدعوين – بإذن الله – إلا إذا ركبهم شيطانهم فظلوا في غيهم يعمهون، لأن من طبيعة حال الخائنين استبدال الهدى بالانحراف، وطريق الحق، بالضلال، وفضلوا ظلام الانحراف على نور الهدى.
- إن مخالفة الأنبياء – عليهم السلام – وعدم اتباع منهجهم الذي جاءوا به من قبل ربهم خيانة للأمانة، وهذا ما كان من امرأة سيدنا نوح ولوط – عليهما السلام – فقد سمى الله – عز وجل – مخالفتهما لمنهج الأنبياء خيانة، وضرب بهما المثل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[٤]، فالخيانة هنا خيانة دين، لا خيانة فرج، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: "كانت خيانتهما: أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها، وأما امرأة لوط فكانت إذا ضاف لوطاً أحد خبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً"[٥]، لأن الخائن في دين الله – سبحانه وتعالى – مهما صحب من الصالحين، فإن ذلك لا

---

(١) فيض القدير، المناوي، مرجع سابق، ج٦، صـــ٣٨١
(٢) سورة الشعراء الآيات "١٠٥ – ١٠٧"
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج١٩، صـــ١٥٨
(٤) سورة التحريم الآية "١١٠"
(٥) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج٢٣، صـــ١١٢

يغني من الله شيئاً فامرأة سيدنا نوح – عليه السلام – كانت تحت نبي كريم، إلا أنها خانته في أمر العقيدة والرسالة، ولم يغن عنها أنها زوجة نبي، وعندئذ يجب البراءة من الخائنين مهما كانت درجة الصلة والقرابة، لأن الرابطة الحقيقية، هي رابطة العقيدة والإيمان، وكل الروابط لا قيمة لها من غيرها، ولا تفيد صاحبها شيئاً، وهذا ما نتعلمه من دعوة سيدنا نوح – عليه السلام – مع ابنه، وسيدنا إبراهيم – عليه السلام – مع أبيه، فالذي لا يرتضى لنفسه دين الله الذي شرعه فهو خائن.

- لابد وأن يكون الإنسان أميناً على بلده ووطنه، فلا يفرط في ذرة من ترابه، ولا يتآمر على مقدراته ومصالحه، ومن تلاعب بأمن وطنه أو رزقه، أو أي شيء من مقدراته فهو خائن، ولقد أكد سيدنا إبراهيم – عليه السلام – عظم هذه الأمانة حينما قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(١)، هذا قبل أن تصير البلد بلداً، وكرر الدعاء مرة أخرى بعد أن صارت بلداً، فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾(٢)، وتخصيص طلب الأمن والرزق من بين سائر النعم، دلالة على أهميتها بالنسبة إلى غيرهما، فهما أمران ضروريان للأوطان، فليت يتعلم كل خائن لوطنه، ممن يريدون العبث بمقدراته وأمنه، ليتهم يتعلمون كيفية حب الأوطان، وكيف يحفظوا هذه الأمانة الكبرى بالعمل الجاد، والدعاء بإخلاص.
- إن الأمانة خلق من أخلاق سيدنا موسى – عليه السلام – فقبل أن يختاره الله – عز وجل – رسولاً: كان يسمى بالأمين، ويظهر ذلك جلياً في موقفه مع ابنتي الرجل الصالح، حيث سارع إلى معاونتهما، وسقى لهما بدون أجر، ولم ينظر إليهما، لأن غض البصر دليل على أمانة الرجل، فكانت أمانته مبعث إعجاب الشيخ(٣) وابنتيه، وكانت سبباً في زواجه من إحداهما، ولذلك خاطبت إحدى الفتاتين أباها بقولها في حق سيدنا موسى – عليه السلام –، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾(٤)، فوصفته لأبيها بالقوة والأمانة "فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته، وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السّقي منه، وأما الأمانة: فإنه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا

---

(١) سورة البقرة من الآية "١٢٦"
(٢) سورة إبراهيم الآية "٣٥"
(٣) وهو شعيب.
(٤) سورة القصص من الآية "٢٦"

إلا وهو أمين، فسُرى عن أبيها، وصدقها، وظن به الذي قالت"(١)، إن القوة والأمانة أمران ضروريان في القيام بالعمل، والتعامل مع الخلق، وهما أمران لازمان لتبليغ أوامر الله – ﷻ – ولذلك فقد أمر الله – ﷻ – سيدنا موسى – عليه السلام – أن يأخذ الشريعة بقوة، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾(٢)، "أي: باجتهاد في أداء الأمانة، وتشدد في القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف"(٣)، فالأخذ بقوة يتطلب الأمانة، والقوة العظمى في الاحتمال، وهذا ما تحلى به سيدنا موسى – عليه السلام – قبل الرسالة وبعدها، ولذلك قال لقوم فرعون: ﴿ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾(٤)، فالله – ﷻ – قد ائتمنه على الرسالة، فأداها على الوجه الأكمل.

- إن سيدنا عيسى – عليه السلام – بلغ القوم الرسالة كما أمره ربه، فلم يزد شيئاً، ولم ينقص، ولقد سجل القرآن الكريم ذلك على لسانه بعد سؤاله من الله – ﷻ – فيقول: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾(٥)، فلم يقل شيئاً من تلقاء نفسه، ولكن رسول مبلغ لأوامر الله – ﷻ – وقد بلغ على أكمل وجه دون زيادة أو نقصان.

لقد جعل الله – ﷻ – المال عند الإنسان أمانة، فينبغي عليه أن يستثمره استثماراً طيباً، وأن يكون الحصول عليه بطريق مشروع، وكذلك الإنفاق، يكون في طرق حلال، فيحرم على الإنسان الاكتناز الذى لا يكون معه إنفاق، ولذلك فقد ذم الله – ﷻ – الكثير من الأحبار والرهبان الذين يحصلون على الأموال بطرق محرمة، قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾(٦)، فالمال أمانة، ومسئولية عظيمة، وخطيرة سواء من جهة الحصول عليه، وإنفاقه.

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٥، صـ ٢٥٤
(٢) سورة الأعراف الآية "١٤٥"
(٣) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢٦، صـ٣٧٤
(٤) سورة الدخان الآية "١٨"
(٥) سورة المائدة من الآية "١١٧"
(٦) سورة التوبة الآيات "٣٤ – ٣٥"

- إن سيدنا محمداً – ﷺ – معروف بالأمانة منذ نشأته، حتى أصبح لقباً يلقب به (الصادق الأمين) فكان قومه يتركون عنده الودائع ليحفظها، وكانت أمانته هذه سبباً في منع حرب كادت أن تنشب بين قريش، من أجل وضع الحجر الأسود في مكانه حتى حكَّموا أول قادم عليهم، "فكان أول داخل عليهم، رسول الله – ﷺ – فلما رأوه قالوا: هذا الأمين: هذا محمد"(١) – عليه الصلاة والسلام – وارتضوا به حكماً لأمانته، وعند الهجرة أمر سيدنا على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – بأن ينام في فراشه لكي يرد الأمانات إلى أهلها، رغم أنهم كفره، قد آذوه، ولم يكن معهم من الوثائق ما يضمن لهم هذه الأمانات، ثم بين النبي – ﷺ – أن الخيانة صفة من صفات المنافقين، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال "آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان"(٢)، والحديث "معناه: أن هذه الخصال: خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال، ومتخلق بأخلاقهم، فإن النفاق هو: إظهار ما يبطن كلامه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه، ووعده، وائتمنه، وخاصمه، وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الإسلام، فيظهره وهو يبطن الكفر، ولم يُرِدِ النبي – ﷺ – بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار"(٣)، ومن هنا ندرك خطورة الخيانة على الإنسان، وخاصة أن المتصف بها محروم من هداية الله – ﷻ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾(٤)، فهم محرومون من توفيق الله – ﷻ – وهدايته، بل سيخزيهم ويفضح أمرهم، "وهكذا كانت الأمانة أولى الصفات التي ظهرت في أعمال الرسل، وحياتهم لشمولها وأهميتها، وكذلك حاول المعارضون ردها، وعقدوا من أجل إبطالها المؤتمرات والمجتمعات"(٥).

فالأمانة هي سبب لكل خير، وهي صفة لازمة لأولى العزم من الرسل كغيرهم من الأنبياء – عليهم السلام –.

---

(١) سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ج١، صـ١٨٢

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ١٦/١، رقم ٣٣، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، ٧٨/١، رقم ٥٩، "متفق عليه".

(٣) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٧

(٤) سورة يوسف الآية "٥٢"

(٥) دعوة الرسل إلى الله تعالى، غلوش، مرجع سابق، صـ٥٤٤.

٣- المؤمن مأمور بالتواضع

إن الله – ﷻ – هو الذي خلق الإنسان، وأوجده من العدم وتفضل عليه بالنعم، وهداه إلى طريق الخير والاستقامة، ولذلك يجب على الإنسان أن يتواضع لله – ﷻ – والتواضع صفة حميدة تُكسب من اتصف بها العزة والرفعة والعلو والسمو، وهو من أبرز الأخلاق التي اتصف بها الأنبياء والمرسلون – عليهم السلام – فقد لانوا للفقير قبل الغنى، والصغير قبل الكبير، والضعيف قبل القوى، فطابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، فكانوا أفضل الخلق، وأشرف البشر.

- لقد أثنى الله – ﷻ – عليهم بصفة العبودية التي ترفع صاحبها، لأن العبودية هي: أشرف الأوصاف، فقال في معرض الثناء على سيدنا نوح – عليه السلام –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(1)، وقال أيضاً عن سيدنا إبراهيم –عليه السلام–: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(2)، ومدح سيدنا موسى وهارون – عليهما السلام – فقال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(3)، وقال عن سيدنا عيسى – عليه السلام – ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾(4)، وشرف سيدنا محمداً – ﷺ – بقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾(5)، وصفهم جميعاً بالعبودية، ومن أبرز مظاهر العبودية: الخشوع، والتواضع، وعدم الاستكبار، لأن الكبر خلق مذموم من أخلاق إبليس اللعين، وهو مانع من فهم الآيات، وعدم تدبر ما فيها، ومن استعرض دعوات أولي العزم من الرسل: وجد أن أغلب المتكبرين هم (الملأ)، أصحاب الجاه والمكانة، الذين رفضوا الهداية للإيمان بسبب كبرهم، لأن الكبر مانع من الفهم والتدبر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ

---

(1) سورة الصافات الآيات "٧٩ – ٨١"

(2) سورة الصافات الآيات "١٠٩ – ١١١"

(3) سورة الصافات الآيات "١٢٠ – ١٢٢"

(4) سورة الزخرف الآية "٥٩"

(5) سورة الإسراء الآية "١"

لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾[١]، فهذا عقاب الله – ﷻ – لهم، بأن يتخبطوا في الظلمات، ويطبع على قلوبهم، فلا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، "أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي، وشريعتي، وأحكامي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق، أذلهم الله بالجهل"[٢]، وهذا وعيد من الله – ﷻ – لكل متكبر، بأن يطبع على قلبه، فيحرم من المعونة، والتوفيق، والسداد، ويوكل إلى نفسه حتى لا يميز بين الحق والباطل.

- إن المتكبر يرى نفسه فوق الآخرين، فيزدريهم ويحتقرهم، ويسخر منهم، فهو لا يرضى أن يتساوى مع غيره في شيء، وهذا ما كان من الملأ من قوم سيدنا نوح – عليه السلام – حينما ترفعوا عن مجالسة الفقراء، وسخروا منهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[٣]، وهذه صورة من صور التكبر الطبقي الذي يورث الافتراق والتناحر، ويقود إلى عدم قبول الحق الذي اتبعه الفقراء، لأنهم يرون أنهم أعلى منزلة، وأرفع مقاماً وهذا "هو المعنى الذي وضع إبليس اللعين أساسه حين رفض السجود لآدم – عليه السلام – رفضاً قاده إلى الكفر بالله .. والوقوف في سبيل الدعاة إلى الحق ما دامت الحياة .. وجاء قوم نوح ليكونوا أبرز حلقة في سلسلة هذا العدوان المتطاول عبر الزمان"[٤]، فقابلوا دعوته بالتكذيب والاستكبار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[٥]، وصفوه ومن معه من المؤمنين بالجنون والضلال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٦] وهذا هو حال المستكبرين في كل زمان، لا يتورعون عن وصف أهل الفضل والاستقامة بمثل هذه الألفاظ، ويقفون في وجه المصلحين ويتهمونهم بالفساد.

---

(١) سورة الأعراف الآية "١٤٦"
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٣، صـ٤٢٦
(٣) سورة هود الآية "٢٧"
(٤) نوح عليه السلام أول داع إلى الله، عمارة، مرجع سابق، صـ١٩
(٥) سورة نوح الآية "٧"
(٦) سورة الأعراف الآية "٦٠"

- إن التواضع لدين الله – ﷻ – يكون بقبول الأحكام، والخضوع لها، فإذا لم يقبل الإنسان هدى الله – سبحانه وتعالى – الذي جاء به الأنبياء، فهو متكبر، وإن منتهى الكبر والطغيان أن يعتدي على مقام الربوبية، وذلك بادعائها، أو ادعاء خصيصة من خصائصها، وهذا ما ادعاه الملك الذي حاج سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في ربه، حيث ادعى لنفسه ما ليس لها، ولكن الله – ﷻ – ألهم سيدنا إبراهيم – عليه السلام – الحجة فأبطل ما ادعاه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(١)، فيشقوا في حياتهم، أما المتواضعون فهم في مكانة عالية، لأنهم يقبلون على الحق وينقادون له، إن حقيقة التواضع تكون باستصغار الإنسان نفسه فالضعف والافتقار إلى الله – ﷻ – صفة ملازمة للإنسان منذ وجوده، فلا داعي للكبر، وسيدنا موسى – عليه السلام – علم ثقل أمانة التبليغ فطلب من ربه أن يجعل معه أخاه هارون – عليه السلام – مساعداً له في حملها، مع أنه قام بها خير قيام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾(٢)، فاعترافه بفصاحة أخيه، وأنه أفضل منه في لغة البيان، وهو في حاجة لمساندته، لهو أكبر دليل على تواضعه، ويظهر تواضعه كذلك حينما جعل نفسه تابعاً للعبد الصالح، فقال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾(٣)، فجعل نفسه تابعاً مع منزلته العالية، وهذا يوجب على طالب العلم أن يتواضع لمن يعلمه ويأخذ عنه، لأن المتكبر لا يستفيد من أحد، فهو يرى نفسه أعلى من غيره وأفضل، مما يمنعه من قبول النصح، والإصغاء للتذكير والوعظ، فيتمادى في كبره وضلاله "ومتى تمادت الأنفس في استكبارها وغرورها، أصابها من الطغيان، وكان كبرها أشبه ما يكون بالطوفان، وطوفان الكبر قد يصل في أقصى مَدِّه إلى جحود الله، والاستكبار عن عبادته وطاعته، وتحدى قوته وقدرته وجلاله وقهره لعباده، ويقف في أدنى مَدِّه عند حدود احتقار الناس، والازدراء بهم،

---

(١) سورة البقرة الآية "٢٥٨"

(٢) سورة القصص الآية "٣٤"

(٣) سورة الكهف الآية "٦٦"

واستصغارهم، والاستهانة بما عندهم، والتعالي عليهم"(١)، وهذا ما فعله فرعون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٢)، لأنه بلغ في الكبر والطغيان مبلغاً عظيماً، فادعى الربوبية، والألوهية، وطلب من وزيره أن يبني له قصراً عظيماً يرقى عليه ليطلع إلى إله موسى - عليه السلام - ومن زعم أنه رب وإله فلا عجب بعد ذلك من أي فساد يظهره ويقترفه.

- إن صفة الكبر والعجب بالنفس التي اتصف بها قارون: صفات مذمومة ممقوتة، فقد نسى مصدر النعمة، ولم يشكر المنعم الحقيقي، وهو الله - سبحانه وتعالى - ثم نسبها إلى نفسه ومجهوده، فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾(٣)، "إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة، وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء"(٤)، ثم ختم الله - عز وجل - هذه القصة ببيان جزاء المتواضعين، فالدار الآخرة خالصة لهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٥)، فالدار الآخرة لا يحظى بها إلا من تواضع في الدنيا لله - عز وجل - ولذلك فقد نزه الله - عز وجل - المسيح عن الكبر، فقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾(٦)، فهو - عليه السلام - لن يتكبر من "أن يكون عبداً له - سبحانه وتعالى - مستمراً على عبادته وطاعته حسبما تقتضيه وظيفة العبودية، كيف وإن ذلك أقصى مراتب الشرف، والاقتصار على ذكر عدم استنكافه - عليه السلام - عنه، من أن شأنه - عليه السلام - المباهاة به كما يدل عليه أحواله، ويُفصِحَ عنه أقواله، أو لا يرى أن أول مقالة قالها للناس قوله: (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً)"(٧)، وهذا تنويه عظيم بتواضع المسيح - عليه السلام - فهو عبد لله، وهذه

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، حنبكة، مرجع سابق، ج١، صـ٧٣٢
(٢) سورة القصص الآية "٤"
(٣) سورة القصص من الآية "٧٨"
(٤) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ج٥، صـ٢٧١١
(٥) سورة القصص الآية "٨٣"
(٦) سورة النساء الآية "١٧٢"
(٧) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج٢، صـ٢٦٠

أعظم الصفات وأعلاها، وأشرفها إن "كانت لله – ﷻ – وقد جاء في الأثر: أن المسيح – عليه السلام – قال "طوبى للمتواضعين في الدنيا الذين هم أصحاب المنابر يوم القيامة"(١)، لأنه ما تخلق أحد بالتواضع لله – ﷻ – إلا رفعه الله – ﷻ – فعن أبي هريرة: أن النبي – ﷺ – قال: "وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"(٢)، والنبي محمد – ﷺ – أشد الناس تواضعاً، وأبعدهم عن الكبر والترفع، فكان يعلف بعيره، ويحلب شاته، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويأكل مع خادمه، ويشتري الشيء ويحمله إلى أهله، ويجالس الفقير والغنى، والصغير والكبير، وكان يجلس على الأرض، ويأكل عليها، وكان يركب الحمار، فعن أبي موسى قال: "كان رسول الله – ﷺ – كان يركب الحمار ويلبس الصوف ويحلب الشاة ويأتي مراعاة الضعيف"(٣)، وقد سئلت السيدة عائشة: "ما كان النبي – ﷺ – يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله يعني: خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة"(٤) فكان يقوم بمثل هذه الأعمال، لكمال تواضعه، فقد كان من الممكن أن يقوم بهذه الأعمال المنزلية أمهات المؤمنين، أو أحد الخدم والموالي بكل سرور ورغبة، ولكنه يأبى إلا أن يقوم بنفسه لكمال تواضعه، فالتواضع هو أول صفة اتصف بها عباد الرحمن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾(٥)، فبه يسمو المرء عند الله – ﷻ – ، ويعظم في أعين الناس، فالنفوس جبلت على حب من يتواضع لها، وكره من يستطيل عليها، ويستصغرها، لقول النبي – ﷺ – "إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد"(٦)، إنه سبيلٌ لمنع البغي والظلم، وبه تتكامل المودة والعطف، ويدفع الحقد، ويكسب السلامة، ولذلك فقد اتصف به الرسل – الكرام – وفي هذا ترغيب لسلوك طريقهم، والتخلق بأخلاقهم، فكل فلاح في الاقتداء، والتأسي بهم، وكل خسارة في سلوك سبيل غير سبيلهم.

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٤١

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، ٢٠٠١/٤، رقم ٢٥٨٨

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، ١٢٩/١، رقم ٢٠٤.

(٤) رواه البخاري، كتاب الآذان، باب إذا دعي الإمام إلى الصلاة وبيده ما يأكل، ١٣٦/١، رقم ٦٧٦.

(٥) سورة الفرقان الآية "٦٣"

(٦) رواه مسلم، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٢١٩٨/٤، رقم ٢٨٦٥

ثانياً: أثر الأخلاق مع النفس في الوقاية من الانحراف

إن تزكية النفس البشرية من أهم جوانب التربية الإسلامية في دعوة الرسل – عليهم السلام – لأن تأثيرها على شخصية الإنسان تأثيرٌ قويٌ، فتجعله مقبلاً على الخير، متحلياً بالأخلاق الحميدة، بعيداً عن الشر، والأخلاق الذميمة، حتى يكون مصدر خير للأمة، لا مصدر شر، لذلك فقد أعطاها الإسلام أهمية بالغة، وعناية خاصة، وجعل الفلاح مترتباً عليها، وجعل الخيبة في إهمالها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(١)، فإذا علم الإنسان ذلك: فإنه يسعى جاهداً إلى تزكيتها بالإيمان أولاً، ثم التحلي بالأخلاق الحميدة، والتخلي عن الرذائل ثانياً، لأنه ما من إنسان إلا وهو يبحث عن أسباب النجاح والفلاح، وهو يحب ذلك بطبعه، فإذا قرأ كتاب الله – ﷻ – ووجد فيه أن تزكية النفس طريق يؤدي إلى السعادة، والجنة: اجتهد في طلب ذلك قدر الإمكان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(٢)، وتطهر من الأخلاق الرذيلة، والعادات الذميمة، فإذا فعل ذلك فقد اعتق نفسه من النار، وإلا كان سبباً في هلاكها، فعن أبي مالك الأشعري – ؓ – قال: أن رسول الله – ﷺ – قال: "كل الناس يغدوا، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها"(٣)، إن هذا الحديث يبين أن "كل إنسان يسعى بنفسه، فمنهم من يبيعها لله – ﷻ – بطاعته، فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان، والهوى باتباعها، فيوبقها، أي: يهلكها"(٤)، فعدم التمسك بالأخلاق الحسنة مع النفس ينتج عنها ما لا يحمد عقباه، فتقويم النفوس، وإصلاح الأخلاق: هو سبيل للفكاك من ذلك.

إن حسن الأخلاق مع النفس من أعظم الأسباب التي تعلي من شأن صاحبها، وترفع قدره، وتضعه في منزلة عالية لائقة، فإذا فعلت ذلك، فإنها تجد الهدوء والراحة والطمأنينة، لأنها وجدت ما يلائم فطرتها السوية التي فطر الله – ﷻ – الناس عليها، والتزامها بهدى النبوة، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – إن النبي – ﷺ – قال "إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءً من النبوة"(٥)، والإنسان يحب الكمال في كل شيء، ويعمل على تزكية نفسه بالأخلاق الحميدة،

---

(١) سورة الأعلى الآية "١٤"

(٢) سورة طه الآيات "٧٤ – ٧٦"

(٣) سبق تخريجه، صـ٢٤٨.

(٤) شرح النووى على مسلم، مرجع سابق،ج٣، صـ١٠٢.

(٥) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب الوقار، ٧/١٥٥، رقم ٤٧٧٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث حسن لغيره".

حتى لا تصاب بالأمراض كالأبدان، فيزداد من فعل الخيرات والطاعات، ويعمل على تنمية الأخلاق وصلاحها، لخوفه من الله - ﷻ - ، ولذلك فإن الخوف من الله - ﷻ - ونهى النفس عن الميل إلى شهواتها: تزكية للنفوس، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾(١)، وهذه "إشارة إلى أن لأهواء النفس سلطاناً قاهراً، كلما دعته دواعيه إنقاد لهذا الهوى الذي يغلبه على أمره، ويطرحه في مطارح الضلال والهلاك"(٢)، والإنسان يحتاج إلى أن يراقب أعماله وأخلاقه، ويعلم أنها وعاء للإيمان، فإذا سلبه فلا خير في هذه الحياة، وإذا علم الإنسان أن الانحراف في الأخلاق سببه نقص في الدين، انزجر وانكف عن فعل ما يؤدي إلى الانحراف، وخاصة: أن رسول الله - ﷺ - جعل حسن الأخلاق من كمال الإيمان، فعن أبي هريرة - ؓ - أن النبي - ﷺ - قال: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً"(٣)، إن هذا الحديث "دليل على أن من ثبت له مزية حسن الخلق كان من أهل الإيمان الكامل، فإن كان أحسن الناس خلقاً! كان أكمل الناس إيماناً"(٤)، والإنسان محب للكمال في كل شيء، ولذلك فهو يسعى لأن يعامل الناس معاملة طيبة، ويبتعد عن إيذاء الآخرين، وعن كل نزعات الشر والإثم.

إن التزام الإنسان الخلق الكريم، والسلوك القويم: يصل به إلى الاستقامة، فعندما يعلم العبد أن الله - ﷻ - ينظر إليه ويراقبه، وأن نظر الله - ﷻ - إليه في مراقبة أعماله وسلوكه موجهاً للقلوب، فإنه يجاهد نفسه ليهذبها من نزعات الشيطان، ليستقيم على الحق، وهذا هو ما أراد النبي - ﷺ - تربية أصحابه وأتباعه عليه، فعن أبي هريرة - ؓ - أن النبي - ﷺ - قال: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم" وأشار بأصبعيه إلى صدره(٥)، وهذا يدفع الإنسان لإصلاح عمله وقلبه، فيتخلق بالأخلاق الحسن، ويترفع عن سفاسف الأمور، والدنايا التي تسئ إليه، وتعطي عنه صورة سيئة مذمومة.

---

(١) سورة النازعات الآيات "٤٠ - ٤١"

(٢) التفسير القرآني بالقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج١٦، صـ١٤٤٤

(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب أبواب الرضاعة، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، ٤٥٨/٣، رقم ١١٦٢، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، باب حسن الخلق، ٣٥٥/١٠٠ رقم ٧٦١٤، والحاكم في مستدركه، باب بدون ترجمة، كتاب الإيمان، ٣٤/١، رقم ٢، وقال: "هذا حديث صحيح ولم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم".

(٤) نيل الأوطار، محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكاني، المتوفي سنة ١٢٥٠ هـ، تحقيق عصام الدين الصبابطي، الناشر دار الحديث مصر، ط١، سنة ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ج٦، صـ٢٤٥

(٥) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، ١٩٨٦/٤، رقم ٢٥٦٤

المبحث الثالث

التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع الناس

يقصد بالأخلاق مع الناس: التوجيهات التي تنظم العلاقة بين الناس مع بعضهم البعض، ضمن نظام شامل يشمل جميع مناحي الحياة، بهدف الارتقاء بالحياة الاجتماعية بين الناس.

أولاً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع الناس

كما نظم الإسلام العلاقة بين الإنسان وخالقه، وما يجب عليه تجاهه – ﷻ – نظم أيضاً العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، بصورة تكفل حق كل واحد منهم، ليعيش في أمن، وكرامة، فيأمن على دينه، ونفسه، وماله، وعقله، وعرضه، فالأخلاق في الإسلام شاملة وكاملة، ودعوة أولي العزم من الرسل جاءت ناطقة ببعض التوجيهات الوقائية في جانب الأخلاق مع الناس، لترسخها في قلوبهم، حتى يكون ذلك واقعاً ملموساً، وَمَرْضِيّاً في حياتهم، لكي يقبلوا على الأخذ بهذه التوجيهات، للوصول إلى أفضل الأخلاق، ومن هذه التوجيهات ما يلي:-

١- وجوب الإحسان إلى الخلق

من القيم الأخلاقية الكبرى التي ينبغي على المسلم أن يتحلى بها: خلق الإحسان، فلقد حث عليه الإسلام، ودعا أبناءه إليه، لأنه من أعلى درجات التعامل مع الناس، وهو جوهر العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتتسع دائرته لتشمل النفس والأقارب، بل والمجتمع كله بما فيه، فلم يفرق بين الناس من حيث النوع، أو الدين، بل شمل الجميع، وقد قال تعالى لبني إسرائيل وهم أتباع نبي الله سيدنا موسى – عليه السلام – وهو أحد أولي العزم من الرسل: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا ﴾[١]، أي للناس كل الناس، وقد تخلق به الأنبياء – عليهم السلام – فلقد جاء التعقيب بقوله – ﷻ –: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٢]، بعد أن ذكر مجموعة من الأنبياء والرسل الكرام، مما يدل على أن خلق الإحسان إلى الخلق: خلقٌ رفيعٌ من أخلاق الأنبياء – عليهم السلام –.

- إن سيدنا نوحاً – عليه السلام – من أكمل المحسنين الذين أحسنوا إلى قومهم، من خلال دعوتهم إلى الهداية والصراط المستقيم، كذلك يظهر إحسانه: حينما دعا لنفسه، ولوالديه، وللمؤمنين بالمغفرة، فقال ﷻ: ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِىَ مُؤۡمِنًا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ

---

(١) سورة البقرة من الآية "٨٣".

(٢) سورة الأنعام من الآية "٨٤".

﴿إِلَّا تَبَارًا﴾[١]، فقد أحسن إلى نفسه بكمال طاعته لله – ﷻ – وإخلاصه له، وأحسن إلى والديه بالدعاء لهما، والدعاء نفسه ورد على لسان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – قبل النهي عن الاستغفار له، فقال – ﷻ –: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٢]، وهذا يوضح أن من أبرز صفات المحسن: الإحسان إلى الوالدين، ويشمل معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما في غير معصية، هذا في حال حياتهما، أما بعد مماتهما: فيكون بالدعاء لهما بالمغفرة والرحمة، والمحسن الحقيقي: هو الذي لا يحصر إحسانه على والديه فقط بل يتعدى ذلك إلى الأبناء، فهم فلذات الأكباد، وبهجة النفوس، وأنس المعيشة، ومن كمال الإحسان إليهم: رعايتهم، وتأديبهم، هذه الرعاية إذا أداها على أكمل وجه، فهي وقاية له من النار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٣]، وقد أحسن سيدنا نوح – عليه السلام – إلى ابنه، فدعاه إلى النجاة من الهلاك والغرق، بأن يؤمن بالله – ﷻ – قال – ﷻ –: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[٤]، فترفق به في دعوته إلى الهداية، وأشعره بالحب والحنان والرحمة، عن طريق إسماعه الكلمات الودية التي تدفع القلوب السليمة للإقبال على سماع التوجيهات بصدقٍ ورغبةٍ، إلا أن الابن رفض وأصر على كفره، فاستحق سيدنا نوح – عليه السلام – المدح والثناء من الله – ﷻ – لإحسانه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

- على المسلم الإحسان إلى والديه، سواء كانا على دينه، أم كانا على دينٍ آخر، فإن الاتفاق في الدين، أو الاختلاف فيه، لا يمنع من الإحسان إليهما، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

---

(١) سورة نوح الآية "٢٨".
(٢) سورة إبراهيم الآية "٤١".
(٣) سورة التحريم الآية "٦".
(٤) سورة هود الآيات "٤٢ – ٤٣".
(٥) سورة الصافات الآيات "٧٩ – ٨١".

لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١)، وعن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت: "قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله – ﷺ – فاستفتيت، قلت: وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمكي"(٢) وهذا ما يفهم من دعوة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – حينما دعا أباه إلى الإيمان بالله – سبحانه وتعالى –، فهو أولى الناس بذلك لأن "الأب قد أحسن إلى والده الإحسان كله، بتربيته، والانعام عليه، فكان من اللائق مكافأته على ذلك الإحسان، وإن أكبر إحسان للأب دعوته إلى ما فيه سعادته، وإنقاذه من عذاب الله"(٣)، فخاطبه بأسلوب يحمل عبارات التأدب والاحترام، والتبجيل، فخاطبه بقوله: (يا أبت) ولم يناده باسمه مجرداً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾(٤)، وفي ذلك قمة الإحسان من سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لأنه "بدأ بدعوة أبيه براً به، لأن من البر إرشاد الأب إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة وقد أحسن الوالد لابنه بتربيته، والإنفاق عليه، وواجب على الابن، هذا الإحسان بدعوته إلى الحق، وجذبه إلى صراط الله المستقيم، وحتى يقطع اعتراض الناس إذا اعترضوا، وقالوا لماذا لم تدعو أباك إلى ما تدعونا إليه؟ ولو كانت دعوتك خيراً لبدأت بأبيك وأهلك؟ وحتى لا يتصور أحد أن الإنسان غير مسئول عن دعوة آبائه لمقامهم ومنزلتهم، بل هو بذلك يعد مسؤولاً إن ترك دعوتهم وإرشادهم"(٥)، وهذا يؤكد أن الإحسان إلى الوالدين من الأخلاق التي لا يعذر الابن بالتخلي عنها، مهما كانت الظروف والأحوال، إلا في المعصية، ومن صور إحسان سيدنا إبراهيم –عليه السلام– إحسانه إلى ذريته، وذلك بكثرة الدعاء الصادق لهم بالصلاح في الدنيا والآخرة، فقال – سبحانه وتعالى –: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّىۖ

---

(١) سورة لقمان الآية "١٤ – ١٥".

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الهدية للمشركين، ٣/١٦٤، رقم ٢٦٢٠، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الآخرين، ٢/١٩٦، رقم ١٠٠٣.

(٣) دعوة الرسل إلى الله تعالى ، العدوي، مرجع سابق، صـــ٤٤.

(٤) سورة مريم الآيات "٤١ – ٤٥".

(٥) دعوة الرسل، غلوش، مرجع سابق، صـــ١١٩ وما بعدها.

وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(١)، وكان من إحسانه لذريته أيضاً، الدعاء لهما بالمحافظة على الصلاة، فقال – ﷻ –: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾(٢)، فالدعاء للذرية والأهل بالصلاح والهداية، كان من هدى سيدنا إبراهيم – عليه السلام – كذلك يظهر إحسانه، حينما دعا لأمته بالأمن، ثم اتبعه بطلب الرزق، فقال – ﷻ – على لسانه: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾(٣)، وهذا من الإحسان، لأنه يتعلق بأمرين عظيمين في حياة الناس، لا غنى لهم عنهما، وهما الأمن والرزق، ولم يقتصر إحسانه إلى الأهل والأقارب فقط، بل تعدى ذلك، فقد كان يكرم كل من نزل عليهم من ضيوفه، من غير سابق معرفة بهم، فلا يحل به الضيف إلا ويسارع إلى إكرامه وإحسانه، بتقديم خير ما عنده من الإبل والبقر، حتى ولو كان لا يعرفه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾(٤)، والكرم صفة لازمة من صفات المحسنين، وبذلك يكون سيدنا إبراهيم – عليه السلام – قد بلغ الغاية في الإحسان، فاستحق وولده سيدنا إسماعيل – عليهما السلام – ثناء الله – ﷻ –، حين عرض عليه رؤياه بالذبح، فاستسلما، فكانت النتيجة أن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾(٥).

- أما سيدنا موسى – عليه السلام – فيظهر إحسانه حينما سأله الله – ﷻ – أن يرسل معه أخاه هارون لكى يؤازره، ويؤانسه، في القيام بأعباء الدعوة، فقال كما أخبر الله – ﷻ –: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾(٦).

(١) سورة إبراهيم الآيات "٣٥ – ٣٧".
(٢) سورة إبراهيم الآية "٤٠".
(٣) سورة البقرة من الآية "١٢٦".
(٤) سورة الذاريات الآيات "٢٤ – ٢٧".
(٥) سورة الصافات الآيات "١٠٤ – ١١٠".
(٦) سورة القصص الآية "٣٤".

إن المسكين الذي لا يجد من النفقة ما يكفيه: يحتاج إلى من يحسن إليه، ويمد يد العون إليه، عندما يرى خلة يقدر على سدها، أو فاقة يتمكن من إزالتها، وهذا ما بينه العبد الصالح لسيدنا موسى – عليه السلام – حينما أنكر عليه خرق السفينة، فقال له: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾(١)، كذلك اليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، يحتاجون إلى من يحسن إليهم، لأنهم ضعفاء بين الناس، والضعيف أحوج ما يكون إلى من يحسن إليه، لأنه عرضة للإهمال، لذلك أمر الإسلام برعايتهم، والعطف عليهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾(٢)، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾(٣)، وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما"(٤) ومن الإحسان إليهم، صيانة حقوقهم، وهذا ما بينه العبد الصالح لسيدنا موسى – عليه السلام – حينما أنكر عليه إقامة الجدار بعد أن رفض أهل القرية إطعامهما، فقال – تعالى –: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾(٥)، فالإحسان إلى اليتامى والمساكين عام وشامل لكل ما من شأنه صلاح أمرهم وحالهم "فإن الله – تعالى – يوصي باليتامى في مثل هذا المقام، لأن اليتيم يُهمل أمره بفقده الناصر القوى الغيور، وهو: الأب، أو تكون تربيته ناقصة بالجهل الذي هو جناية على العقل، أو فساد الأخلاق الذي هو جناية على النفس، وهو بجهله، وفساد أخلاقه يكون شراً على أولاد الناس يعاشرهم فيسري إليهم فساده، وقلما تستطيع الأم أن تربى الولد تربية كاملة، مهما اتسعت معارفها، وكذلك المساكين: لا تنتظم الهيئة الاجتماعية إلا بالعناية بهم، وصلاح حالهم، فإن أهمل أمرهم الأغنياء، كانوا بلاءً وويلاً على الناس"(٦)، وذاقوا من هذا

---

(١) سورة الكهف الآية "٧٩".
(٢) سورة النساء الآية "٢".
(٣) سورة النساء الآية "١٠".
(٤) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان، ٧/٥٣، رقم ٥٣٠٤.
(٥) سورة الكهف الآية "٨٢".
(٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٥، صـ٧٤.

الويل الكثير والكثير، بسبب التفريط في حقهم، والإحسان إلى اليتامى كان من ضمن الميثاق الذي أخذ على بنى إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[١]، ومن صور الإحسان إلى الخلق في دعوة سيدنا موسى – عليه السلام – حينما عاون المرأتين في سقيا دوابهما، بعد أن علم منهما سبب عدم السقيا، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾[٢]، فعاونهما، ويسر لهما مهمتهما، ولذلك استحق أيضاً الثناء من الله – سبحانه وتعالى – والمدح فقال عنه وعن أخيه هارون – عليهما السلام –: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٣].

- لقد ذكر سيدنا عيسى – عليه السلام – أن الإحسان إلى الأم من الأوامر الإلهية التي أُمر بها، فقد أوصاه الله بذلك، كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[٤]، وفي ذلك "إشارة إلى تنزيه أمه عن الزنا – إذ لو كانت زانية، لما كان الرسول المعصوم مأموراً بتعظيمها"[٥]، فامتثل سيدنا عيسى – عليه السلام – لما أمر به، ولذلك نفى عن نفسه التجبر والشقاء، كما أحسن إلى أمته حينما دعاهم إلى عبادة الله وحده، فاستحق السلام من الله – سبحانه وتعالى – كما دعا بذلك، فقال: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[٦].
- أما سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فهو سيد من أحسن إلى الخلق، وصور الإحسان في دعوته قد بلغت حداً في الكثرة، فمن صور الإحسان، الإحسان إلى الوالدين والذي هو من أعظم الأعمال والحقوق التي قرنها الله – سبحانه وتعالى – بحقه، قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ

---

(١) سورة البقرة الآية "٨٣".
(٢) سورة القصص الآيات "٢٣ – ٢٤".
(٣) سورة الصافات الآيات "١٢٠ – ١٢١".
(٤) سورة مريم الآية "٣٢".
(٥) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢١، صـ٥٣٦.
(٦) سورة مريم الآية "٣٣".

ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[١]، وتأتي السنة المطهرة، لتؤكد وجوب الإحسان إليهما، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: قد جاء رجل إلى رسول الله – ﷺ – فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد ابتغى الأجر من الله، قال: فهل من والديك أحد حيّ؟ قال نعم، بل كلاهما، قال: فتبتغي الأجر من الله؟ قال: نعم، قال: ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما"[٢]، ثم أمر بالإحسان إلى الأبناء، وذلك برعايتهم، وتأديبهم، وتعليمهم ما ينفعهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[٣]، وأكد النبي – ﷺ – على وجوب هذا الإحسان فقال: "علموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعاً، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً، وفرقوا بينهم في المضاجع"[٤]، كذلك اعتنى الإسلام بالفقراء والمساكين أشد عناية، وراعى احتياجاتهم المعيشية والنفسية، فأمر اتباعه بالإحسان إليهم، وحذر من الإساءة إليهم، والتفريط في حقهم، وأوجب لهم من أموال الأغنياء حقاً يؤدونه بنفس طيبة، من مال طيب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٥]، وقال أيضاً آمراً نبيه – ﷺ – بحسن صحبتهم وجميل معاشرتهم، فقال: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٦]، ثم أمر بالإحسان إلى المخالفين في العقيدة، إلا من حارب منهم الله – ورسوله – ﷺ – وتربص بالمسلمين الدوائر، أما ماعداهم فالإسلام لا يمنع الإحسان إليهم وبرهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٧]، هذه بعض صور الإحسان في دعوة سيدنا محمد – ﷺ – فاستحق ثناء الله عليه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٨]، فالإحسان إلى الخلق كان من هدى أولي العزم من الرسل وما علينا إلا أن نتأسى بهم.

---

(١) سورة الإسراء الآيات "٢٣ – ٢٤".
(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأيهما أحق به، ١٩٧٥/٤، رقم ٢٥٤٩.
(٣) سورة التحريم من الآية "٦".
(٤) سبق تخريجه، صـ٤٣.
(٥) سورة الروم الآية "٣٨".
(٦) سورة الكهف الآية "٢٨".
(٧) سورة الممتحنة الآية "٧".
(٨) سورة القلم الآية "٤".

٢- النهي عن الظلم لعاقبته السيئة

إن الظلم خلق ذميم قديم، وقع في الأرض منذ أن خلق الله البشرية، وهبوط سيدنا آدم إلى الأرض، حتى قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١)، ولا يخلو زمان من الأزمنة إلا ونجد فيه صراعاً بين الحق والباطل، بين أهل العدل وأهل الظلم، والله - ﷻ - بعث الرسل، وأنزل الكتب ليُخرج الناس من ظلم الباطل وأهله، إلى نور العدل وأهله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾(٢)، فالله - ﷻ - بين الحكمة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب عليهم، وهي تعليم الناس التعامل فيما بينهم بالحق والعدل في جميع أمورهم الدينية والدنيوية، فلا يظلم أحدٌ أحداً، وأن هذه الهداية لا تكون إلا فيما أنزل الله - ﷻ - من الأحكام والشرائع على أنبيائه ورسله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣)، فالظلم سبب للحرمان من التوفيق إلى الهداية عقاباً لكل من ظلم، فيذرهم الله في طغيانهم يعمهون، لا يهديهم إلى طريق الحق، ولا يلهمهم حُجَّة ولا برهاناً بسبب هذا الظلم، "والمراد بالظالمين: الكاملون في الظلم، وهو ظلم الأنفس، وظلم الناس، وأعظمه الإشراك، وإتيان الفواحش والعدوان، فإن الله لا يخلق في نفوسهم الاهتداء عقاباً منهم على ظلمهم، فهم باقون في الضلال، يتخبطون فيه، فهم أضل الضالين"(٤)، والنبي - ﷺ - أُخْبِرَ بأن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - قال: أن النبي - ﷺ - قال: "الظلم ظلمات يوم القيامة"(٥)، لأن ظلمات الظلم ترين على القلوب، فتمنعها من رؤية الحق، وأداء الحقوق لأهلها، فيكون ظلاماً وهلاكاً على صاحبه في الدنيا والآخرة، ولذلك فقد أمر الله - ﷻ - بالنظر في مآل الظالمين، واستحضار مصيرهم، ليكون

---

(١) سورة المائدة الآية "٢٧".

(٢) سورة الحديد الآية "٢٥".

(٣) سورة القصص الآية "٥٠".

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج٢٠، صـ١٤١.

(٥) رواه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، ١٢٩/٣٠، رقم ٢٤٤٧، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب البر، باب تحريم الظلم، ١٩٩٦/٤، رقم ٢٥٧٨.

ذلك دافعاً للابتعاد عن الظلم، وتوقيه، فالنظر في مآل الظالمين له أثر كبير في الإقلاع عنه، والله – ﷻ – جعل قوم نوح – عليه السلام – آية للناس لأخذ العبرة والعظة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١]، لقد جعلهم الله – ﷻ – آية للناس، حتى يظل هذا العقاب عالقاً أمام الأعين من وقت لآخر، كي يسترجعه الناس، فيعمل على توقيه والنفور منه.

- إن الإيمان والاهتداء برسالات الأنبياء، بعد الاعتراف بها لا يكون بطريق الإلزام والإكراه، ولذلك كان الأنبياء – عليهم السلام – يحاورون أقوامهم للدخول في الإسلام عن اقتناع وطواعية، وهذا ما فعله سيدنا نوح – عليه السلام –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾[٢]، لقد خفيت عليهم الهداية الممتثلة في الإيمان، لأنهم بلغوا الغاية في الظلم والطغيان، وتمادوا فيه حتى حُرموا منها، وأهلكوا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾[٣]، مع أن الله – سبحانه وتعالى – أمهلهم على ظلمهم قروناً طويلة، فكان سيدنا نوح – عليه السلام – يدعوهم للإقلاع عنه، ولكنهم أصروا واستكبروا وبالغوا في الظلم، فقال كما أخبر الله – – ﷻ – في قرآنه: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[٤]، فدعا عليهم بزيادة الضلال بعد أن أعلمه الله – ﷻ – بعدم إيمانهم فقال: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾[٥]، "أي: ولا تزدهم يارب على طغيانهم وعدوانهم إلا ضلالاً فوق ضلالهم"[٦]، حتى يموتوا على هذا الضلال وهذه هي سنة الله – سبحانه وتعالى – في الظالمين المُصرِّيين المستكبرين، فلا ينالوا توفيقاً للهداية.
- عندما طلب سيدنا إبراهيم –عليه السلام– أن يجعل من ذريته أئمة للناس ليهدوهم، أجابه الله –ﷻ– بأن الإمامة لا تكون في الظالمين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

---

(١) سورة الفرقان الآية "٣٧".
(٢) سورة هود الآية "٢٨".
(٣) سورة النجم الآية "٥٢".
(٤) سورة نوح الآية "٧".
(٥) سورة نوح الآية "٢٤".
(٦) صفوة التفاسير، الصابوني، مرجع سابق، ج٣، صـ٤٣٠.

إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١)، "وهو وعد ضمني بأن يجعل من ذريته أئمة للناس، ولكن عهده بالإمامة لا ينال الظالمين، لأنهم ليسوا أهلاً لأن يقتدي بهم، لينفر ذرية إبراهيم من الظلم ليتحاموه، وينشئوا أولادهم على كراهته، ولتنفير سائر الناس من الظالمين، وترغيبهم من الاقتداء بهم"(٢)، ولقد بين سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في محاجته للملك، أن الظالم محروم من الهداية، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٣)، إنَّ تَرَفَ الملك أدى به إلى الوقوع في الظلم، بادعائه القدرة على الإحياء والإماتة، وبذلك يكون قد سوى نفسه بالله – عز وجل – في الإحياء والإماتة، فوقع في الضلال والظلم العظيم، وهذا ما سيعترف به أهل الضلال يوم القيامة في المخاصمة التي تدور بينهم وبين مَنْ عبدوهم من دون الله – عز وجل –، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٤)، فهؤلاء قد وقعوا في غاية الضلال، والبعد عن الحق، حينما عدلوا الآلهة التي عبدوها من دون الله – سبحانه وتعالى – وقد أكدوا ذلك بالقسم (تالله) وهذا الذي حاج سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في ربه، بلغ الغاية في الظلم بهذا الادعاء، لأنه وضعٌ للشيء في غير موضعه ومحله، ولذلك لم يرشده الله – عز وجل – إلى الحجة والبيان، ولذلك خُتمت الآية بقوله – تعالى –: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٥)، لأنهم رضوا بالكفر بديلاً عن الإيمان، والضلال بديلاً عن الهدى.

- إن الإسلام جاء ليحرر الإنسانية من كل أشكال الذل والعبودية لغير الله – عز وجل – وهذه هي إحدى مهمات سيدنا موسى – عليه السلام – التي جاء بها كما بينها القرآن الكريم "ولهذا أطال فيها إطالة لا تكاد تجدها في غيرها من السير، ولا عجب فهي قصة الاستبداد المقنع، والظلم الصارخ، والطغيان البالغ منتهاه، هي قصة الخروج على دساتير العدل، وقوانين الفطرة،

---

(١) سورة البقرة الآية "١٢٤".
(٢) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٤١.
(٣) سورة البقرة الآية "٢٥٨".
(٤) سورة الشعراء الآيات "٩٦ – ٩٨".
(٥) سورة البقرة من الآية "٢٥٨".

وحرمة الإنسانية، وجدير بالإنسان أن يقف على هذه القصة العجيبة، قصة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، جدير به أن يعرف كيف نشأ ذلك الظلم؟ ولماذا أقدم فرعون عليه؟ وأن يعرف كيف كانت عاقبة الظالمين؟ علمنا الله في هذه القصة أن فرعون استخف قومه فأطاعوه، فكان منه ما كان من عسف وجور، وأن كل ظالم شأنه شأن فرعون متى وجد بطانة تحببه في الظلم وتعينه عليه"(١)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾(٢)، فقد جعل فرعون من نفسه وسلطانه رباً وإلهاً، وجعل من قومه، ومن بني إسرائيل عبيداً له، يخضعون لأمره، ويطيعونه طاعة مطلقة، وبذلك يكون قد ظلم نفسه، وظلم غيره، وهناك أتباع للظالمين في كل زمان، يشاركونهم في ظلمهم يشاركوهم في ذنبهم وخطئهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾(٣)، لأنهم شاركوا الظالم في الظلم بالإعانة عليه، ولقد لجأت امرأته إلى الله – ﷻ – راجية النجاة من ظلم الظالمين، وفي مقدمتهم فرعون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤)، فلم يخب تضرعها، وضرب الله – ﷻ – بها المثل في صدق الإيمان.

إن بني إسرائيل لما استبطأوا رجوع سيدنا موسى – عليه السلام – من الميقات، اتخذوا عجلاً من ذهب ليعبدوه، فازدادوا في الظلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾(٥)، فالله – ﷻ – بين أن الشرك الذي وقع فيه بنوا إسرائيل بعبادتهم العجل ظلم، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، وصرفوها إلى مخلوقات ضعيفة لا تملك النفع لنفسها ولا لغيرها، ثم بين سيدنا موسى – عليه السلام – أن من عواقب الظلم: عدم الفلاح والفوز قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٦)،

---

(١) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، في المقدمة صـــ صـــ وما بعدها.
(٢) سورة الزخرف الآية "٥٤".
(٣) سورة القصص من الآية "٨".
(٤) سورة التحريم الآية "١١"
(٥) سورة البقرة الآية "٥١"
(٦) سورة القصص الآية "٣٧"

أي: "لا يفوزون بالهدى في الدنيا، وحسن العاقبة في العقبى"(١)، لتوهمهم عدم الرجوع إلى الله – ﷻ – فاستكبروا بغير حق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾(٢)، فحملهم ذلك على الإعراض عن الحق، والتكذيب والإنكار، فأهلكهم الله – ﷻ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٣)، فالتمادي في الظلم يدمر الحضارات بل وكل مظاهر الحياة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٤)، وهذا يدل على أن الظلم هو سبب الهلاك بعد الحرمان من التوفيق إلى الهداية.

- لقد سمى القرآن الكريم الشرك ظلماً عظيماً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٥)، وأكد ذلك بأدوات التوكيد (إن، واللام، والجملة الاسمية) حتى لا يكون هناك مجال للشك في أن الشرك من أعظم أنواع الظلم، ولقد أكد سيدنا عيسى – عليه السلام – ذلك، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾(٦)، هذا القول "ظاهره أنه من كلام عيسى، أخبرهم أنه من تجاوز، ووضع الشيء في غير موضعه فلا ناصر له، ولا مساعد فيما افترى وَتَقَوَّلَ، وفي ذلك ردع لهم عما انتحلوه من حقهم من دعوى أنه إله، وأنه ظلم، إذ جعلوا ما هو مستحيل في العقل واجباً وقوعه، أو فلا ناصر له ولا منجي من عذاب الله في الآخرة، أو يحتمل أنه من كلام الله – ﷻ – أخبرهم أنهم ظلموا، وعدلوا عن الحق في أمر عيسى وتقولهم عليه، فلا ناصر لهم على ذلك"(٧)، فإذا كان الادعاء بذلك فيه ظلم أكبر للنفس، ففيه ظلمٌ أيضاً لسيدنا عيسى – عليه السلام – لأنهم سيكونون سبباً في الهول الذي سيحصل له من السؤال يوم القيامة عن ذلك، ولكنه يعلن عن تبرأه من ظلمهم، ويعترف بربوبية الله – ﷻ – له ولهم، لأن الطاعة والخضوع المطلق لا يكون إلا لله – ﷻ – خالق الكون بأَسرِه.

---

(١) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج٤، صـ١٧٨
(٢) سورة القصص الآية "٣٩"
(٣) سورة النمل الآية "١٤"
(٤) سورة النمل الآية "٥٢"
(٥) سورة لقمان من الآية "١٣"
(٦) سورة المائدة من الآية "٧٢"
(٧) البحر المحيط في التفسير، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٤، صـ٣٢٩.

لقد ذكر القرآن الكريم أن الإعراض عن آيات الله - ﷻ - بعد التذكير بها للاتعاظ، والهداية إلى الحق نوع من الظلم الأعظم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾[١]، إن هذا الظالم عطل آليات الفهم والفقه عنده حتى أصبحت القلوب والآذان عاجزة عن فهم ما ينفعها، نتيجة توغلهم في الظلم الذي يجلب الحقائق، فالله – ﷻ – جعل على القلوب أغطية تمنع وصول النور والحق إليها، ففي الآذان ثقلٌ يمنعها من سماع ما ينفعها حتى استحبوا العمى على الهدى، ومن هنا ندرك أهمية العدل وقيمته، فبه تستقيم حياة الإنسان، فلا يظلم بعضهم بعضاً، ولا يقع الظلم من أحدهم، ولذلك فقد أمر الله - ﷻ - بالعدل في كل شيء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[٢]، ويكفي أن من أسماء الله - ﷻ - العدل، فهو الذي حرم الظلم على نفسه، وجعله بين الخلائق محرماً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[٣]، وقال أيضاً: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[٤]، وقد روى أبو ذر - ﷺ - أن النبي - ﷺ - قال فيما رواه عن الله – تبارك وتعالى – قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"[٥]، فالله - ﷻ - حرم الظلم على نفسه، وعلى عباده، لأنه عدوان وبغى على حقوق الآخرين.

فأولوا العزم من الرسل جاءوا محذرين من الظلم في الأرض، لأنه سبيل لكل شرٍ وبلية، وحتى لا تشيع الفوضى، والحقد والكراهية بين الناس، وحق لا يحرم صاحبه من الهداية الربانية.

٣- التزام الصدق فإن المؤمن لا يكذب

مما لاشك فيه أن الصدق أصل أصيل من الأخلاق الإسلامية التي حث الإسلام عليها، وهو من أهم الفضائل التي يقوم عليها المجتمع، حتى يستتير سبل الهداية، فلولاه ما قامت شريعة، ولفسد الكون كله، وهو من المقومات الأساسية في بعثة الأنبياء – عليهم السلام – وواجب في حقهم فبالصدق تنال الثقة، وتحفظ الحقوق والأرواح، ويعيش الناس في أمن وسلام، ولو جُرّب على أمرهم الكذب،

---

(١) سورة الكهف الآية "٥٧"

(٢) سورة النحل الآية "٩٠"

(٣) سورة النساء الآية "٤٠"

(٤) سورة الكهف الآية "٤٩"

(٥) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧

حتى ولو قبل الرسالة: لكان ذلك داعياً للشك فيما ينقلوه إلى الناس من التوجيهات الإلهية لهداية البشرية، ففي عرف الناس أنهم لا يعاملون إلا من اشتهر بالصدق في المعاملة، وبدون الصدق لا يستقيم سير المعاملات بين الناس، فإذا كان ذلك ضرورياً في المعاملات العادية، فهو أشد ضرورة في تبليغ التكليفات الدينية، ولذلك فقد صان الله – ﷻ – أنبياءه عن الكذب، لأنه خيانة عظيمة هم منزهون عنها، حتى لا يتطرق ذلك إلى البلاغ والهداية التي يحملونها من الله – ﷻ – إلى البشر، وهو يقضي على الثقة الموجودة بين الناس، ويجعل الشك والارتياب بديلاً للأمن والطمأنينة، فيسود التفكك والتصارع بين الناس، فالصدق هو حلية الأنبياء وزينتهم، وهو ضرورة دينية، ولذلك فقد جعله النبي – ﷺ – طمأنينة، فعن الحسن بن على – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – كان يقول "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة"(١)، "ومن هنا كان الاستمساك بالصدق من شأنه، وتحريه في كل قضية، والمصير إليه في كل حكم، دعاية ركينة في خلق المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه، وكذلك كان بناء المجتمع في الإسلام قائماً على محاربة الظنون، ونبذ الإشاعات، وإطراح الريب، فإن الحقائق الراسخة وحدها هي التي يجب أن تظهر وتغلب، وأن تعتمد في إقرار العلاقات المختلفة"(٢)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾(٣)، والمسلم يحرم عليه إتباع الظنون والأوهام.

- إن سيدنا نوحاً – عليه السلام – في دعوته قد وجه قومه إلى أن الحياة لابد وأن تبنى على الصدق واليقين، لا على الظن والتخمين، فنفى عن نفسه أموراً ليست من خصائصها(٤)، وذلك بعد أن طلبوا منه طرد المؤمنين الفقراء من حوله، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، كتاب المطاعم والمشارب وما يجب التورع عنه منها، باب الفصل الثالث في طيب المطعم والملبس، واجتناب الحرام، ٤٩٧/٧، رقم ٥٣٦٣، ورواه الحاكم في مستدركه، كتاب الأحكام، ١١٠/٤، رقم ٧٠٤٦، وقال: "إسناده قوي".

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، سنة ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، صـ٣٤

(٣) سورة يونس من الآية "٣٦"

(٤) والنفي هنا ليس لكل الغيب، فالله – ﷻ – يطلع رسله على بعض الغيب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ سورة الجن من الآية "٢٦، ٢٧".

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١]، لقد نفى عن نفسه هذه الأمور الأربعة "إرشاداً إلى أن اللائق لكل أحد ألا يبت القول إلا فيما يعلمه يقيناً، ويبني أموره على الشواهد الظاهرة، ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة"[٢]، وحينما طلبوا منه استعجال العذاب الذي توعدهم به، فراراً من الحق، واتباعاً للهوى لظنهم وشكهم في دعوته: بينَّ لهم أن ذلك ليس من شأنه، أسند الأمر إلى الله – ﷻ – فهو مالك الأمور ومصرفها، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[٣]، وهذا يبين مدى الصدق الذي التزمه سيدنا نوح – عليه السلام – في دعوته لقومه، ولكنهم كذبوه، فكان هذا التكذيب سبباً لهلاكهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٤]، حتى لا يسلك أحد مسلكهم في الظلم.

- كما التزم سيدنا إبراهيم – عليه السلام – الصدق في كل شيء، حتى أصبح مشهوراً به، ولذلك فقد سماه الله – ﷻ – صديقاً، مبالغة في الصدق، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[٥]، و"تأمل كيف وصفه الله – ﷻ – بذلك الوصف، وهو أنه صديق، قبل أن يصفه بالنبوة، ليرينا قيمة الصدق، وأنه ملاك أمر النبوة .. لعل في ذلك مذكراً لقوم يطمعون في إمامة الناس، ثم هم مع ذلك لا يتحرجون من الكذب، وإذا أنت أخذت تلومهم، رأيت منهم المعاذير تلو المعاذير، وأسهل شيء عندهم أن يقولوا: إنه كذب قضت به المصلحة، وما دروا أن هذا العذر يفتح عليهم باباً من أبواب جهنم"[٦]، ولقد أخبر الله – ﷻ – عن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – أنه سأله أن يجعل له لسان صدقٍ، فقال: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[٧]، "أي: اجعل لي ذكراً حسناً فيمن يأتون من بعدى، فلا يقال في تاريخي كلام

---

(١) سورة هود الآية "٣١"
(٢) تفسير القاسمي، مرجع سابق، ج٦، صـ٩١
(٣) سورة هود الآيات "٣٢ – ٣٣"
(٤) سورة الفرقان الآية "٣٧"
(٥) سورة مريم الآية "٤١"
(٦) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، مرجع سابق، صـ٥٠
(٧) سورة الشعراء الآية "٨٤"

كذب، وألا يخلع عليَّ الناس ما ليس فيَّ"[١]، فهو يسأل الله - ﷻ - الثناء الحسن من سائر الأمم من بعده، ويكون هذا الثناء بالصدق، وليس بالكذب، وهذا يدل على مدى حرصه على التزام الصدق، حتى بعد الممات، وأما ما جاء في حديث سيدنا أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: "لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله - ﷻ - ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[٢]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[٣]، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: مَنْ هذه؟ قال: أختي"[٤]، إن هذه الثلاث من باب المعاريض[٥]، وهي جائزة للمصلحة، فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ عند إصرارهم على اصطحابه معهم ليشاركهم في الاحتفال بأصنامهم، إشارة إلى السبب الرئيس لعدم شعوره بالراحة، فالأصنام كانت مصدر حزنه وسقمه، وإذ لم يهدمها لم يجد طعماً للراحة، فظن القوم أنه مريض جسدياً، فتولوا عنه و"ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض من الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث (إن في معاريض الكلام لمندوحة عن الكذب)"[٦][٧]، ومن هنا نعلم أن هذا الكلام لا يعد كذباً، فالكذب محال في حق الأنبياء – عليهم السلام –، وإنما سمى في الحديث كذباً تشبيهاً له بالكذب في الصورة، ولفهم السامع، لا بالنسبة لمن تكلم، أما قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ فهو من باب الكيد والتبكيت بعقول الكافرين المشبعة بعبادة الأصنام، ولم يقصد نسبة الفعل إلى الصنم "وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج٩، صـ٥٦٧١

(٢) سورة الصافات من الآية "٨٩"

(٣) سورة الأنبياء من الآية "٦٣"

(٤) رواه مسلم، كتاب الفصائل، باب فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام، ١٨٤٠/٤، رقم ٢٣٧١، والبخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً، ١٤٠/٤، رقم ٣٣٥٧، واللفظ له

(٥) أعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه: كلام يشبه بعضه بعضاً في المعاني، لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق،ج٧، صـ١٨٣

(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب المعارض، ٤٧٨/١، رقم ٨٨٥، وقال: "صحيح موقوفاً"، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب المعاريض فيها مندوحة عن الكذب، ٣٣٦/١٠، رقم ٢٠٨٤٢

(٧) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٧، صـ٢١

تعريض يُبَلّغ فيه غرضه، من الزامهم الحجة وتبكيتهم"(١)، لعجز الصنم عن القيام بمثل هذا الفعل، ولذلك لم يجب بقوله: (فعلت) حينما سألوا، (أأنت فعلت)؟، وأما قوله عن زوجته سارة: أختي، فليس فيها كذب أيضاً، لأنها بالفعل أخته في الإسلام، كما بين ذلك في الحديث، وما قاله هذا مطابق للحقيقة الإيمانية التي تبين أن جميع المؤمنين أخوة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(٢)، والإيمان هو الرباط الأول الذي يربط الإنسان بغيره.

- كذلك التزم سيدنا موسى – عليه السلام – الصدق منهجاً له في جميع الأقوال والأفعال، وهذا ما أعلنه لفرعون، حينما ذهب إليه ليبلغه رسالة ربه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾(٣)، لقد أعلن منهجه في الدعوة والبلاغ، وهو حرصه على ألا يقول إلا حقاً وصدقاً، لأن الرسول معصوم من الكذب لأنه لو كذب في دعواه، أو نسب إلى الله – سبحانه وتعالى – ما لم يوح به، للزم الكذب في خبره – سبحانه وتعالى – لأن الله صدقه بالمعجزة والآيات الدالة على صدقه، والتي لا يقدر عليها أحد سوى رب العالمين، ولذلك قال له فرعون كما أخبر الله – عز وجل –: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾(٤)، "لقد أرسله الحق سبحانه بالمعجزة الدالة على صدق رسالته في البلاغ عن الله، والمعجزة خرق لنواميس الكون، وقد جعلها الحق – سبحانه وتعالى – رسالة بين يدي رسوله، وعلى لسانه، فهذا يعني أنه سبحانه قد شهد له بأنه صادق، والمعجزة أمر خارق للعادة يظهرها الله على من بلغ أنه مرسل منه – سبحانه وتعالى – وتقوم مقام القول: (صدق عبدي فيما بلغ عنى)"(٥)، ولكنه بعد أن رأى الآيات أصر على التكذيب والآباء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾(٦)، ثم بين لهم العقوبة المترتبة على كذبهم، حتى يلتزموا

---

(١) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢٢، صـ١٥٦

(٢) سورة الحجرات الآية "١٠"

(٣) سورة الأعراف الآيات "١٠٤ – ١٠٥"

(٤) سورة الأعراف الآيات "١٠٦ – ١٠٨"

(٥) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج١٢، صـ٧٤١٤

(٦) سورة طه الآية "٥٦"

الصدق بكل ألوانه وأشكاله، ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾(١)، إنه تحذير شديد من الكذب، وتزييفٌ للحقائق، فإذا فعلوا ذلك فالعذاب الأليم والهلاك في انتظارهم، لأن من كذَّب الله – ﷻ – فالحرمان، والخسران نصيبه، وهذا ما أكد عليه مؤمن آل فرعون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾(٢)، كذلك التزم سيدنا موسى – عليه السلام – الصدق حينما ذكَّر فرعون بقتل القبطي، فلم ينكر بل قال: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾(٣)، فلم يشأ أن يكذب، بل قال الصدق بأنه هو الذي فعل ذلك، مع التأكيد على عدم الرضا بما وقع منه، فإنه لم يكن عن قصد بل كان للتأديب.

- إن التزام الصدق من الصفات التي تحقق الخير للإنسان، وتجعله في منزلة عالية، ولذلك وصف الله – ﷻ – به السيدة مريم، لكثرة صدقها قولاً، وفعلاً، وحالاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾(٤)، فالله – ﷻ – وصفها بالصديقية "وغلب استعمال وصف الصديق استعمالُ القلب الجامع لمعاني الكمال، واستقامة السلوك في طاعة الله – ﷻ – لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوى صدقه في الوفاء بعهد الدين"(٥)، فكانت تتحرى الصدق في كل شيء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾(٦)، فلكثرة تحريها للصدق: ارتفعت منزلتها، كما التزم سيدنا عيسى – عليه السلام – الصدق، فقد بين لبنى إسرائيل أنه جاء ليصدق التوراة وليبشر بسيدنا محمد – ﷺ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ

(١) سورة طه الآية "٦١"
(٢) سورة غافر الآية "٢٨"
(٣) سورة الشعراء الآية "٢٠"
(٤) سورة المائدة من الآية "٧٥"
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج١٢، صـ٢٨٤
(٦) سورة التحريم الآية "١٢"

مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[١]، وفي إجابته لله – ﷻ – يوم القيامة عند سؤاله، يذكر أنه التزم الصدق في التبليغ فيقول: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾[٢]، وقد جاءت هذه الأحداث في القرآن الكريم تتويجاً لموضوع الصدق، وبيان جزائه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٣]، و"هذا تصديق لعيسى فيما قال: وذلك أنه كان صادقاً في الدنيا، ولم يقل للنصارى اتخذوني إلهاً، فنفعه صدقه"[٤]، لأنه التزمه منهجاً له، حتى كان أهلاً لهذا الفوز العظيم.

- ولقد كانت حياة سيدنا محمد – ﷺ – مثالاً رائعاً للصدق لا يحيد عنه قدر أنملة، حتى عُرف بذلك واشتُهر به، قبل البعثة وبعدها، فكان يُلقب بالصادق الأمين، وحينما اجتمع بأهله وعشيرته، وسألهم عن مدى تصديقهم له، إذا أخبرهم بشيءٍ، فاعترفوا له بالصدق دوماً، فعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[٥]، ورهطك فيهم المخلصين، خرج رسول الله – ﷺ – حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه!: فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً قط، قال: "فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد"[٦]، فلو لاحظت قريش عليه كذبة واحدة، لاتخذوها دليلاً على تكذيبه، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك، لأن علامة الصدق كانت تظهر على وجهه، فإذا تحدث مع من لم يعرفه، فإنه يقول: والله ما هذا بوجه كذاب، وحسب الصدق من العظمة، أن اتصف به رب العالمين، لأنه ليس هناك من هو أصدق من الله وعداً ولا حديثاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[٧]، وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ

---

(١) سورة الصف الآية "٦"
(٢) سورة المائدة من الآية "١١٦"
(٣) سورة المائدة الآية "١١٩"
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي، مرجع سابق، ج٢، صـ٢٤٨
(٥) سورة الشعراء الآية "٢١٤"
(٦) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله فسبح بحمد ربكك واستغفره إنه كان تواباً، ١٧٩/٦ رقم ١٩٧١ واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى، وأنذر عشيرتك الأقربين، ١٩٣/١، رقم ٢٠٨.
(٧) سورة النساء من الآية "٨٧"

أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾[١]، فليس هناك أصدق من الله قولاً، ولا وعداً، ولقد أمر الله – ﷻ – أهل الإيمان بأن يكونوا مع الصادقين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٢] فهذا توجيه إلهي لعباده المؤمنين بالتزام الصدق والتقوى، وهذا يدل على أن التزام الصدق يورث التقوى في قلب الإنسان، ومما يؤكد ذلك، قول الله – ﷻ –: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[٣]، ويكفي أن الصدق يؤدي بصاحبه إلى كل خير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾[٤]، وقد أكد النبي – ﷺ – هذا المعنى، فعن ابن مسعود – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً"[٥]، فالصدق يهدى إلى البر، والبر كلمة جامعة لجميع أنواع الخير، وقد بين النبي – ﷺ – أن هناك بعض الناس يتهاونون في الكذب على الصبيان، وهذا فساد عظيم، وفتح لباب التهاون بالكذب، والتربي عليه، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "من قال لصبي: تعال هاك، ثم لم يعطه شيئاً، فهي كذبة"[٦]، "فانظر كيف يعلم الرسول – ﷺ – الأمهات والآباء أن ينشئوا أولادهم تنشئة يقدسون فيها الصدق، ويتنزهون عن الكذب، ولو أنه تجاوز عن هذه الأمور، وحسبها من التوافة الهينة، لخُشى أن يكبر الأطفال وهم يعتبرون الكذب ذنباً صغيراً، وهو عند الله

---

(١) سورة النساء من الآية "١٢٢"

(٢) سورة التوبة الآية "١١٩"

(٣) سورة الزمر الآية "٣٣"

(٤) سورة محمد الآية "٢١"

(٥) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، ٢٥/٨، رقم ٦٠٩٤، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب، وحسن الصدق وفضله، ٢٠١٢/٤، رقم ٢٦٠٧،

(٦) رواه أبو داود في سننه، أول كتاب الأدب، باب في الكذب، ٣٤٢/٧، رقم ٤٩٩١، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث حسن لغيره".

العظيم"(١)، فعلى الدعاة، التزام الصدق في تربية أولادهم، سواء في المعاملات أو العبادات، حتى تكون التربية صالحة.

من خلال ذلك يتضح أن الصدق كان منهجاً أساسياً لأولي العزم من الرسل في جميع أمورهم، لأن الصدق طمأنينة ونجاة، بخلاف الكذب فهو ريبة وهلاك.

ثانياً: أثر الأخلاق مع الناس في الوقاية من الانحراف

إن الأخلاق الحميدة هي الدعامة الأولى في حفظ كيان المجتمعات، ولذلك فقد أمر الإسلام الناس بأن يتحلوا بها، لما لها من أهمية كبيرة في دوام الحياة الاجتماعية، واستقرارها، فالعلاقة بين الناس لابد وأن تقوم على الحب والإيثار، لا على الكراهية والأنانية، فيحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، فإذا التزم الناس ذلك: استقامت سلوكياتهم، وتخلص المجتمع من القلق، والخوف، والاضطراب، ولذلك فقد حرص على غرس التآخي، والتأليف بينهم، وأن يفرح المرء لفرح إخوانه، ويألم لحزنهم، ويكشف عن ضوائقهم إن استطاع، فإذا فعلوا ذلك، كان المجتمع آمناً معافىً من الجرائم والأخلاق الرذيلة، فعن ابن عباس: أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله - ﷺ - فأتاه رجل فسلم عليه، ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان أراك كئيباً حزيناً، قال: نعم يا ابن عم رسول الله - ﷺ - لفلان على حقٌّ ولاء، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه، قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟، قال: إن أحببت، قال: فانتقل ابن عباس، ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ قال: لا: ولكنى سمعت صاحب هذا القبر - ﷺ - والعهد به قريب - فدمعت عيناه - وهو يقول: "من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها: كان خيراً من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله - ﷻ - جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعد ما بين الخافقين"(٢)، "وهذا الحديث يصور إعزاز الإسلام لعلائق الإخاء الجميل، وتقديره العالي لضروب الخدمات العامة، التي يحتاج إليها المجتمع لإرساء أركانه، وصيانة بنيانه، لقد آثر ابن عباس أن يدع اعتكافه، والاعتكاف عبادة محضة رفيعة الدرجة عند الله، لأنها استغراق في الصلاة والصيام والذكر، ثم هو في مسجد رسول الله، حيث يُضاعف الأجر ألف مرة فوق المساجد الأخرى، ومع ذلك فإن فقه ابن عباس في الإسلام جعله يدع ذلك ليقدم خدمة إلى مسلم يطلب العون: هكذا تعلم من رسول الله - ﷺ -"(٣)، ولذلك لا يتوانى المؤمن الحق عند سماع ذلك، عن المبادرة إلى التحلي بمحاسن الأخلاق، حرصاً على نبيل فضلها.

---

(١) خلق المسلم، الغزالي، مرجع سابق، صــ٣٨.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، كتاب الصيام، باب فضل من فطر صائماً، ٤٣٥/٥، رقم ٣٦٧٩.

(٣) خلق المسلم، الغزالي، مرجع سابق، صــ١٧٢ وما بعدها.

المبحث الرابع

التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع البيئة

يقصد بالأخلاق مع الأحياء غير العاقلة: الأخلاق التي تحكم علاقة الإنسان بما حوله في هذا الكون من الكائنات الحية، من الحيوان والنبات، حتى يتمكن من استخدامها في الأمور النافعة، دون ظلم أو طغيان:-

أولاً: التوجيهات الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في جانب الأخلاق مع الأحياء غير العاقلة

يجب أن يعرف الإنسان الذي استخلفه الله - ﷻ - لعمارة هذه الأرض، أنه لا يعيش عليها وحده، ولكن يوجد حوله الكثير من الكائنات الأخرى، التي لم يخلقها الله - ﷻ - عبثاً، بل لفائدة ومنفعة، ومن هذه الكائنات: الأحياء غير العاقلة، والإسلام لم يغفل هذه الأحياء الأعجمية، من أن يحدد علاقة الإنسان بها، فوضع التوجيهات التي تعين الإنسان على الاستفادة الكاملة منها في مختلف الميادين، ليستفيد منها الاستفادة القصوى، دون تعدٍ، أو إلحاق ضرر، أو فوات خير، فينبغي عليه أن يعرف هذه التوجيهات، حتى يكون على وقايةٍ ويتجنب الأخطاء التي ترتكب في استخدام هذه الأحياء المسخرة للإنسان، ومن هذه التوجيهات الوقائية التي جاءت في دعوة أولي العزم من الرسل تجاه هذه الأحياء غير العاقلة ما يلي:-

١- رعايتها والاهتمام بها

الإسلام دين الرأفة والرحمة، والله - ﷻ - افتتح كتابه باسمين عظيمين من أسمائه، قَالَ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[١]، فالرحمة صفة لازمة له - ﷻ - لا تزول عنه، وقد ظهرت آثار رحمته في الخليقة كلها، حتى في الأحياء غير العاقلة من الحيوانات والنباتات، والتي لها عالمها الخاص، ولها مشاعر وأحاسيس خاصة، ربما يجهلها البعض من الناس، لقصور إدراكهم، ومن رحمة الله - ﷻ - أنه كتب الإحسان على كل شيء، ومنها هذا العالم العجيب، فما من مخلوق إلا ونال من الإحسان والرعاية والاهتمام قسطاً كبيراً.

- ومن تأمل في دعوات الرسل - عليهم السلام - عامة، وأولى العزم منهم خاصة أدرك ذلك، فسيدنا نوح - عليه السلام - حينما أمره الله - ﷻ - بصنع السفينة لينجوا عليها، ومن آمن معه، أمره

---

(١) سورة الفاتحة الآيات "١ – ٣"

الله – ﷻ – عند ركوبها، أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾[١]، وهذا أمر من الله – ﷻ – لسيدنا نوح – عليه السلام – "أن يحمل في هذه السفينة من كلٍ زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه روح من المأكولات، وغيرها، لبقاء نسلها"[٢]، بعد الغرق والفناء للأحياء، وهذا من أعظم أبواب الرعاية، والاهتمام، والإحسان، ومن الممكن أن يخصص جزء من أموال المسلمين للمحافظة على الحيوانات، والزروع من الاندثار والفناء، فالمحافظة عليهما من الانقراض مطلب إسلامي، وهما من أهم الأمم التي سُخرت للإنسان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[٣]، وفي بقائهما: بقاء لفوائدهما، وبقاء للإنسان، وفي فنائهما: ضياع لفوائدهما، سواء عرف الإنسان هذه الفوائد أم لا، وضياع للإنسان نفسه، لأن الإنسان يعتمد في غذائه عليهما اعتماداً كلياً، وهما مصدران هامان، من مصادر الرزق للعباد، وهناك تلاءم تام بين الإنسان والحيوان والنبات، فلا غنى لأحدهما عن الآخر، فهم يتبادلان أسباب الحياة والمنافع.

- لقد كان من دعاء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لذريته، قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[٤]، لقد جاء التعبير بالثمرات التي تحملها الأشجار بعد أن أخذت حظاً من الرعاية والاهتمام، لأن الزرع لا يصير ثمراً إلا بعد النضج، ولذلك جاء التعبير بلفظ ﴿ رَبِّ ﴾ الذي يفيد التربية والرعاية والاهتمام، فالزرع إذا أهمل لم يصل إلى مرحلة الثمار، أو يصل إليها مع الضعف والهزل، كذلك أيضاً الحيوان لا يصل إلى مرحلة الذبح إلا إذا نال هو الآخر قسطاً من الرعاية والاهتمام، وهذا مستفاد من حادثة الذبح الذي فدى الله – ﷻ – به سيدنا إسماعيل – عليه السلام – قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾[٥]، فالفداء كان حيواناً سميناً طيب اللحم والجثة، وكان

(١) سورة هود من الآية "٤٠"
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، صـ٩٨
(٣) سورة الحج الآية "٦٥"
(٤) سورة البقرة من الآية "١٢٦"
(٥) سورة الصافات الآية "١٠٧"

مهيأ لأن يذبح "وقد اجمعوا على أنه كبش، ولا شيء أعظم مما عظم الله – ﷻ – ومن شيء فدى به نبي"[١]، وهذا يدل على الرعاية والاهتمام حتى وصل إلى هذه المرحلة، وهذا الوصف.

- لقد بين سيدنا موسى – عليه السلام – أهمية العصا لديه، وأنها سبب لتربية الأغنام، وذلك من خلال إجابته على سؤال رب العزة – سبحانه وتعالى – عما في يديه، قال تعالى:﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾[٢]، فالعصا يحملها رعاة الأغنام لسوقها، وزجرها، وتهذيبها، ورعايتها، فهم يضربون بها ساق الأشجار حتى تتساقط الأوراق على الغنم لتأكلها، وهذه المهمة تتجدد بتجدد الزمان والمكان، ولذلك جاء التعبير بالفعل المضارع (أهش) مما يدل على تجددها، وأهميتها من بين سائر منافع العصا، فقد قال بعدها سيدنا موسى – عليه السلام – كما أخبر الله – ﷻ –:﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾[٣]، إن هذه الرعاية مهمة من مهام إعداد الله – ﷻ – للرسل – عليهم السلام – للاصطفاء الرباني، ولذلك نجد جميع الأنبياء – عليهم السلام – قد رعوا الغنم، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم" فقال أصحابه: وأنت؟ قال: "نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"[٤]، ورعى الغنم يتطلب: المحافظة عليها، والاهتمام بها، وإيرادها المراعي والكلأ، وكل ما ينفعها، والأنبياء – عليهم السلام – قاموا بهذه المهمة، لأنها تهيء لهم بعد الاصطفاء من الله – ﷻ – رعاية الأمم، والاهتمام بالرعية، ولذلك فإن "الحكمة في إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة؛ أن يحصل لهم التمرن برعيتها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة: ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك

---

(١) الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، الشهير بالجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ، ج٥، صـ٢٤٢

(٢) سورة طه الآيات "١٧ – ١٨"

(٣) سورة طه من الآية "١٨"

(٤) رواه البخاري – كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ٨٨/٣، رقم ٢٢٦٢

أسهل مما كلفوا بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعى الغنم"[١]، والله – ﷻ – خلق الأرض، ومهدها لنا، وسلك لنا فيها السبل، وأنزل الماء من السماء حتى ينبت الزرع، فيتغذى ويتقوى به، مما يدل على الرعاية والاهتمام بسقيا النبات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾[٢]، فمن حكمة الله – ﷻ – أن جعل النبات أنواعاً مختلفة، وكلها يحتاج إليها الخلق، والإنسان لا يستطيع أن يعتمد في طعامه على نوع واحد منه، حتى لا تمل النفس، وتسأم منه، ولبقاء قوته وصحته، وهذا يتطلب من الإنسان الاهتمام والرعاية لأن ذلك يؤثر على الإنسان في طعامه، ولذلك فقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ﴾[٣]، فيهيئ لها الطعام الطاهر، والمكان الصالح، حتى تصلح للانتفاع بها وأكلها صالحة.

- إن الإحسان إلى كل شيء أمر مأمور به في الإسلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٤] ، ولقول النبي – ﷺ –: "إن الله كتب الإحسان على كل شئ، فإذا قتلت فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته"[٥] أما الإيذاء والضرر والتعدي على حقوق الآخرين، فليس من أخلاق الإسلام في شيء، فالمسلم لا يؤذي نباتاً، وذلك بالإهمال في رعايته وتعهده، ولا يؤذي حيواناً، فيتعدى عليه بغير وجه حق، حتى ولو كان هذا الأذى باللسان، كاللعن والسب، فإن سيدنا عيسى – عليه السلام – لقى خنزيراً على الطريق فقال له: "انفذ بسلام" فقيل له: أتقول هذا لخنزير؟ فقال سيدنا عيسى – عليه السلام – : "إني أخاف أن أعود لساني المنطق بالسوء"[٦]، فالمسلم عفيف اللسان، لا يقول إلا طيب الكلام، حتى ولو كان هذا الكلام لحيوان مسخر له، لأن أذيته

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٤، صـ٤٤١

(٢) سورة طه الآيات "٥٣ – ٥٤"

(٣) سورة طه من الآية "٥٤"

(٤) سورة الزمر الآية "١٠"

(٥) رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، ١٥٤٨/٣، رقم ١٩٥٥.

(٦) موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي، المتوفى سنة ١٧٩هـ، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م، كتاب الكلام، باب ما يكره في الكلام، ٩٨٥/٢، رقم ٤.

منهى عنها، حتى ولو كان الأذى كلام يخرج من اللسان، ولكن يجب عليه رعايته وتعهده، كذلك "فإن الزارع يتعهد زرعه بسقيه عند الاحتياج، وحمايته من الآفات، وقلع ما يخنقه من النبات"[١]، ولشدة احتياج النبات إلى الرعاية والتعهد، عبر القرآن الكريم، عن نشأة السيدة مريم – عليها السلام – وتربيتها بالنبات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[٢]، فالإنسان في صغره، وأحوال ضعفه، يحتاج إلى رعاية وحفظ دائمين، كما يحتاج الزرع إلى ذلك، ولذلك جاء التعبير بلفظ (ربها) ولم يقل (إلهها)، فقيض الله – ﷻ – لها سيدنا زكريا – ﵇ – فكلفها، ورعى مصالحها، فكانت تحت حضانته ورعايته، فتربية الإنسان وإنبات النبات، كليهما يحتاج إلى رعاية وتعهد، ولقد قدم الله – ﷻ – أكل الحيوان على طعام الإنسان، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣]، وفي ذلك حث على الاهتمام بما تحت أيدى الإنسان، سواء كان ذلك حيواناً أم نباتاً و "هذه الآية مبنية على مكارم الأخلاق، وهو أن يكون اهتمام الإنسان بمن يكون تحت يده، أكمل من اهتمامه بنفسه"[٤]، والإنسان مجزي بأعماله تجاه الحيوان والنبات، فعن أنس بن مالك – ﵁ – قال: قال رسول الله – ﷺ – : "ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة"[٥]، فالرعاية والاهتمام بالأحياء غير العاقلة، والقيام على شؤونها، أمر يؤجر عليه الإنسان، وكان هذا هو منهج أولى العزم من الرسل – عليهم السلام –.

٢- استخدامها فيما ينفع دون ظلم وعدوان

إن من نعم الله – ﷻ – على الإنسان أن سخر له الكون لخدمته، والاستفادة منه بطريقة نافعة له في جميع الميادين، وتسخير الكون للإنسان دليل على تكريم الله – ﷻ – لها على كثير من الخلق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ

---

(١) تفسير الألوسي، مرجع سابق، ج٢، صـ١٣٤

(٢) سورة آل عمران من الآية "٣٧"

(٣) سورة النحل الآيات "١٠ – ١١"

(٤) اللباب في علوم الكتاب، النعماني، مرجع سابق، ج١٢، صـ٢٣.

(٥) رواه البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، ٣/١٠٣، رقم ٢٣٢٠، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب المسقاة، باب فضل الغرس والزرع، ٣/١١٨٩، رقم ١٥٥٣،

كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[١]، فالإنسان يستفيد بجميع ما في الكون من الماء والهواء والحيوان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[٢]، ولكن ضمن التوجيهات الإسلامية التي وُضعت للاستفادة منها، بأن يحسن استغلال ما حوله في هذا الكون الفسيح، وأن يبحث عن كل طريق يُمكنه من الاستفادة مما سخره الله - ﷻ - لخدمته ونفعه، دون طغيان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾[٣].

- فهذه الأشياء، وجميع ما في الكون مسخر لخدمة الإنسان، ولكن وفق حدود الله - ﷻ - وشرعه، ولذلك "فقد ربانا القرآن التربية التي لا يطغى فيها الإنسان، ولا يتجاوز حده في استخدام هذه الأمور، فلا يفسد ماء الأنهار، ولا يقتل كائنات البحار، ولا يستعمل نعم الله في سفك الدماء، وتعميم الدمار، ولا يظلم أخاه الإنسان، فيغتصب خيراته بغياً وعدواناً، أو زوراً وبهتاناً"[٤]، والأحياء غير العاقلة من جملة ما في الكون من الخلائق التي خلقها الله - ﷻ - وسخرها للإنسان ليوظفها لخدمته، كي يستفيد بكل ما فيها من خيرات وإمكانيات، ولقد قرن الله - ﷻ - في الآية السابقة بين ذكر النبات، والفلك التي تجري في البحر، ليبين للناس أن هناك علاقة بين الزرع والفلك، لأن السفن تصنع من أخشاب النباتات بعد التحوير، والتغيير والإضافة والتطويع، فعندما أمر الله - ﷻ - سيدنا نوحاً - عليه السلام - أن يصنع الفلك لتكون أداة نجاة له وللمؤمنين معه من الغرق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[٥] فامتثل لهذا الأمر، وصنع الفلك بعناية الله - ﷻ - ووحيه له، ولقد بين القرآن الكريم أن الأخشاب كانت من ضمن مواد صنع السفينة، ومعلوم أن الأخشاب تستخرج من الزروع والنباتات، قَالَ تَعَالَىٰ:

(١) سورة الإسراء الآية "٧٠"
(٢) سورة البقرة من الآية "٢٩"
(٣) سورة إبراهيم الآيات "٣٢ - ٣٤"
(٤) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي، مرجع سابق، صـ ٤١
(٥) سورة هود من الآية "٣٧"

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾(١)، "والألواح: جمع لوح، وهو: القطعة المسواة من الخشب، والدسر: جمع دِسَار وهو: المسمار"(٢)، أو كل رباط يربط به الخشب.

- وهذا تعليم للبشرية بأن الأخشاب النباتية تدخل في كثير من الصناعات التي تلعب دوراً هاماً في الحياة الإنسانية، وأنها من ميادين تسخير الزروع للإنسان وفق منهج الإسلام، وهو مصدر هام من مصادر الرزق له، فعند سماع كلمة الرزق، فإن الأذهان تنصرف غالباً إلى الكسب المادي، والزراعة من أهم طرق تحصيله، ولذلك كان من دعاء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – أن يرزق ذريته عن طريق الزرع والثمار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(٣)، والإسلام أباح للمسلم أكل الطيبات التي يتغذى بها ليقوى على طاعة ربه، والغذاء ضروري لحياة الإنسان، ومن غذاء الإنسان أكل اللحوم المباحة ليتغذى بلحمها وألبانها، وبجميع مشتقاتها، وكان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – يسارع إلى إكرام ضيوفه الذين ينزلون به، فيقدم لهم اللحم الطيب، فكان لا يحل به ضيف حتى يسارع إلى إكرامه بذبح العجل، ولذلك عندما جاءته الملائكة لإهلاك قوم سيدنا لوط – عليه السلام –، ولتبشيره بغلام حليم، قدم لهم عجلاً سميناً مذبوحاً ليأكلوه، ظناً منه أنهم بشر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾(٤)، فمن منافع الحيوان الذي سخر الله – عز وجل – للإنسان أكل لحمه الحلال، وتقديمه كواجب للضيافة.

- من منافع النبات المسخر للإنسان: انتفاعه بظله، حتى تسكن نفسه وتطيب، ويتجدد النشاط، فهو يجعل الإنسان يشعر بالراحة والطمأنينة، فيتحقق الهدوء والسكينة، وهذا ما وجده سيدنا موسى – عليه السلام –، بعد أن سقى للفتاتين دوابهما، حيث استظل بظل شجرة من شدة الحر، والتزاحم على موارد المياه في الصحراء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ

(١) سورة القمر الآية "١٣"
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج٢٧، صـ١٨٤
(٣) سورة إبراهيم الآية "٣٧"
(٤) سورة الذاريات الآيات "٢٤ – ٢٧"

أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[١]، فالنفس إذا كانت مجهدة، مكللة بالتعب، ووجدت الظل، فإنها عادة ما تشعر بالسكون والراحة من الكلل والتعب، وخاصة إذا كان ذلك في وقت الظهيرة، وأحس بالتعب أو الإرهاق، ولذلك فإن السيدة مريم – عليها السلام – في وقت شدتها حينما جاءها وقت المخاض والولادة، كانت متكأه على جذع النخلة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[٢]، وهذا يبين أن النبات والزرع كما هو مصدر من مصادر الرزق، فهو أيضاً عامل مؤثر في نفسية الإنسان، كما أنه سبب من أسباب الوقاية من الأمراض، والصحة أمر مهم للإنسان، وبها يسعد في حياته، والنباتات التي تقي من الأمراض عند تناولها كثيرة وكثيرة، وقد بين الله – ﷻ – للناس بعضاً منها، فمثلاً الرطب، وهو: من ثمر النخيل، غذاء جيد للحامل وخاصة عند الولادة، فهو يسهل عملية الولادة ويساعد عليها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾[٣]، "وفي هذه الآيات الكريمة إشارة واضحة إلى أهمية بلح الرطب في عملية الولادة، ذلك أن احتواء التمر على نسبة عالية من المواد السكرية، يعطي طاقة عالية للمرأة الحامل والمرضع، ويعوض ما أصابها من ضعف أثناء الوضع، ويعيد لها نشاطها، كما أن التمر يعوض نقصان المعادن والفيتامينات، علاوة على ما ثبت طبياً من فائدته في إدرار لبن المرضع، ومعظم السكريات التي في التمر من نوع سكر الفاكهة (فركتوز) وسكر العنب (جلوكوز) وهي سكريات بسيطة سهلة الهضم والامتصاص والاحتراف، لإمداد الجسم بالطاقة، إثر تناولها بفترة قصيرة، فإن أخذتها المرأة أثناء المخاض كان ذلك من أحسن الأغذية لها، حيث إن عضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بمجهود الجسم، وتقوم بمجهود شاق أثناء الولادة التي تستهلك كمية كبيرة من الطاقة، وتتطلب تعويضها بكميات جيدة، ونوعية خاصة من السكريات سهلة

---

(١) سورة القصص الآية "٢٤"

(٢) سورة مريم الآية "٢٣"

(٣) سورة مريم الآيات "٢٤ – ٢٦"

الهضم، سريعة الامتصاص والتمثل، كتلك التي في الرطب"[١]، فالرطب مصدره الأساسي من النبات، يستعمل كغذاء ودواء، وقاية وعلاجاً، لكثير من الأمراض الجسدية.

- لقد بين الله – ﷻ – في القرآن الكريم أن الحيوان مسخر للإنسان، ليخدمه في تنقلاته، وحمل أثقاله، وأكله، وركوبه ليخفف عنه مشقة السفر والترحال، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[٢]، ولقد راعى الإسلام الحيوان في وظائفه التي خلق من أجلها، فبين أنه ليس كل حيوان يصلح لأن يسخر للركوب، والحمل عليه، بل هناك بعض الحيوانات التي لم تسخر للركوب، والحمل عليها، ولكن لها وظائف أخرى، فعن أبي هريرة، أن النبي – ﷺ – صلى الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: "بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنما لم نخلق لهذا: إنما خلقنا للحرث"[٣]، فالبقر رغم تسخيره للناس، الا أنه لم يخلق للركوب، ولكنها سخرت للحرث والأكل، وعلى الرغم من هذا التسخير، وهذه الاستفادة من الحيوانات، إلا أنه يبقى لها حق، وعلى المسلم أن يراعي هذه الحقوق، فلا يحملها فوق طاقتها، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجاتكم"[٤]، فهذا بيان نبوي شريف لبعض الأخطاء التي يمكن أن يرتكبها الإنسان في استخدامه للحيوان، فنهى الإسلام عن هذه الاستخدامات الخاطئة في تسخير الحيوان، فلا يُستعمل إلا فيما سخر له، وخُلق من أجله، بحيث يمكن الاستفادة القصوى منه بعيداً عن الظلم والعدوان.

---

(١) الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مصر، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م، صـ٧١١

(٢) سورة النحل الآيات "٥ – ٨"

(٣) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، ٤/١٧٤، رقم ٣٤٧١

(٤) رواه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الجنائب، ٤/٢١٤، رقم ٢٥٦٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده حسن"، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في رحم الصغير وتوقير الكبير، ١٣/٤٢٤، رقم ١٠٥٧٢.

- لقد ذكر الله – ﷻ – أن النبات مصدر من مصادر الوقود التي ينتفع بها الإنسان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[١]، فالنار التي توقد ليستدفئ بها الإنسان عند البرد، أو الإنارة في الظلام، أو لتسوية الطعام وطهيه، وغير ذلك من الفوائد، كلها مستخرجة من النبات والأشجار التي خلقها الله – ﷻ – للإنسان، وهي أيضاً وسيلة من وسائل الكتابة، فالقلم المستعمل للكتابة[٢] يتخذ من الشجر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣]، وفي ذلك توجيه إسلامي من الله – ﷻ – لعباده إلى وسيلة من الوسائل التي يمكن أن تُتخذ منها أدوات الكتابة، ومنها القلم الذي يُستخدم لتقييد العلم وتثبيته.

فالله – ﷻ – سخر لنا هذه الأحياء غير العاقلة لينتفع بها، ولكن دون ظلم وعدوان.

ثانياً: أثر الأخلاق مع الأحياء غير العاقلة في الوقاية من الانحراف

إن الله – ﷻ – وجه أنظار الناس إلى التأمل والتفكر في آياته المثبوتة في أرجاء هذا الكون، حتى يقبلوا على الحق ويتبعوه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[٤]، وهذه الأحياء من آيات الله – ﷻ – تستدعى من الإنسان أن يتدبر فيها، وما تشتمل عليه من الإعجاز الإلهي، فيبصر الإنسان نعم الله – ﷻ – عليه، ويحس بها، فيقوى إيمانه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٥]، إن هذه الأحياء غير العاقلة تلعب دوراً هاماً

---

(١) سورة الواقعة الآيات "٧١ – ٧٣"

(٢) فالقلم في القديم كان لا يتخذ إلا من الشجر، كالذي يتخذ من الغاب المجوف الذي يغمس في المداد، أما الآن فتعددت خامات الأقلام ولم تقف عند أقلام الرصاص وحدها والتي تتخذ من الشجر ورغم ذلك فإن القلم الرصاص في مجمله أو في سنه الذي يكتب به لا يكون إلا من الشجر.

(٣) سورة لقمان الآية "٢٧"

(٤) سورة فصلت من الآية "٥٣"

(٥) سورة الأنعام الآية "٩٩"

في الهداية الروحية للإنسان، ليحيا حياة طيبة كريمة، فالمؤمن يجد فيها ما يُزيد إيمانه حتى يصل إلى الاطمئنان، لأنه يقر بما تعاينه حواسه، وعندما ينغمس الإنسان في الابتهاج بالحياة الدنيا، وزخارفها ومتاعها، يأتي دور هذه الأحياء لتوقظ قلبه من هذه الغفلة، وتشد انتباهه إلى الدار الآخرة، فيتذكر الموت فيعمل له، وذلك من خلال الأطوار التي تمر بها حتى تصير ركاماً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١)، وإذا تذكر الإنسان ذلك، انكف عن المعاصي، وانزجر عن السيئات، ليحظى بالفوز والجنان، وهذه هي الغاية المحمودة التي يريدها كل إنسان ويرغب فيها، لأنها مليئة بالمتع الحسية والمعنوية، والله - ﷻ - جعل الزرع مصدراً من مصادر نعيم الإنسان في الآخرة في الجنة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢)، وهذه المتع تجعل الإنسان يسارع إلى الكف عن المنكرات، والامتناع عن الآثام والشرور، وتدفعه إلى عمل الصالحات، والحض عليها.

إن الإنسان في عصوره الأولى تعلم من الحيوان سبيلاً من سبل الوقاية، وذلك عندما أرسل الله - ﷻ - غراباً ليعلم ابن آدم كيفية دفن أخيه الذي قتله ظلماً وعدواناً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾(٣)، فالغراب كان سبباً من أسباب هداية الإنسان من حيرته، فعلمه كيف يحفر في الأرض، ليواري سوءة أخيه، وقاية للإنسانية من الأمراض التي تنتج عن تحلل الجسد وعطبه.

عن طريق الحيوان يتعلم الإنسان بعض الأمور التي تدفعه إلى فعل الخير، والتعوذ بالله - ﷻ - من الشر، لأن الحيوانات ترى الملائكة والشياطين، والإنسان لا قدرة له على ذلك، وقد علمنا النبي - ﷺ - أن الديك إذا رأى ملكاً صاح، فيغتنم الإنسان هذه الفرصة، ويسأل الله من فضله، والحمار إذا رأى شيطاناً نهق، وعند سماع نهيقه يتعوذ الإنسان بالله - سبحانه وتعالى - لأنه رأى شيطاناً،

---

(١) سورة الأعراف الآية "٥٧"

(٢) سورة المرسلات الآيات "٤١ – ٤٤"

(٣) سورة المائدة الآية "٣١"

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطاناً"(١)، "وفائدة الأمر بالتعوذ: لما يخشى من شر الشيطان، وشر وسوسته، فيلجأ إلى الله في دفع ذلك"(٢)، والتعليم من جهة الحيوان أيضاً يبعث روح التحدي داخل الإنسان الحر، فهو يحب الانفلات من لحاق الحيوان به، فيعمل جاهداً على أن يضبط أخلاقه وسلوكه.

إن الحيوان سبب من أسباب فتح أبواب الخير للناس عامة، وغلق أبواب الشر، وذلك من خلال إجراء التجارب العلمية عليه، والتي ينتفع بها الإنسان في الدين والدنيا، فيزداد اليقين في قلوب المؤمنين، ويقتنع غير المسلم بالدخول في دين الله – عز وجل – "فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي، ولا حتى بالمنطق الوجداني، ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان، إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة التي يمتلئ بها الحس، ويطمئن بها القلب دون كلام"(٣)، وهذه التجارب العلمية تقام على الحيوان لأنه يشترك مع الإنسان في بعض الصفات والخصائص، فما ينطبق عليه ينطبق على الإنسان، لوجود تشابه بينهما في بعض النواحي، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾(٤)، فالحيوانات أمم أمثال البشر، والنبي – صلى الله عليه وسلم – بين أن الحيوان يشابه الإنسان في التأثر ببعض الصفات الوراثية، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جاءه أعرابي، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال: "هل لك من إبل؟" قال: نعم قال: "وما ألوانها؟" قال: أحمر، قال: "هل فيها من أورق؟" قال: نعم، قال: "فأني كان ذلك؟" قال: أراه عرق نزعه، قال: "فلعل ابنك هذا نزعه عرق"(٥)، فالرسول – صلى الله عليه وسلم – بين أن الإنسان والإبل يتشابهان في تأثر كل واحد منهما بالعوامل الوراثية.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنى يتبع بها شغف الجبال، ١٢٨/٤، رقم ٣٣٠٣، "واللفظ له"، ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك، ٢٠٩٢/٤، رقم ٢٧٢٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٢، صـ٢٥٣

(٣) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ج١، صـ٣٠٠

(٤) سورة الأنعام الآية "٣٨"

(٥) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، ٥٣/٧، رقم ٥٣٠٥، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل، ١١٣٧/٢، رقم ١٥٠٠.

إن هذه التجارب تحمل بين طياتها الخير للإنسانية كلها، وتساعد على سرعة اكتشاف النافع من الضار، وتحقق السلامة والرفاهية للأمة كلها، فيستفيدوا منها على مر العصور والأزمان، كتدريب الطلاب على التشريح، وتجريب الداء والدواء عليه، قبل أن يطبقها على الإنسان، فإذا ثبت نجاحها، يمكن بعد ذلك تجريبها على عينة من الناس عند التأكد من خلوها من الأضرار، وبذلك تتحقق الهداية إلى الخير، وما ينفع الناس في معاشهم ومعادهم، ويجلب الخير للإنسان، ويرفع عنه الضرر.

كذلك جعلت هذه الأحياء غير العاقلة لوقاية الإنسان من برد الشتاء، وحر الصيف، فاللباس والسكن من نعم الله - ﷻ - الكبرى على الإنسان، يستر به عورته، وأهله، ويقيه من تقلبات الجو من الحرارة والبرودة التي تؤذيه، وهما يتخذان من النبات والحيوان، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾[١]، "وهذا امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقي من أضرار الحر والقَر، في حالة الانتقال، أعقبت به المنة بذلك في حال الإقامة والسكنى، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقي باستعمال الموجود، وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس، إذ خلق الله الظلال صالحة للتوقي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال، ليمكن اللجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لإتخاذ دروع القتال"[٢]، وهذا يبين ما لهذه الأحياء الغير عاقلة من دور عظيم في وقاية الإنسان مما يؤذيه ويضره، وهذا يوجب على الإنسان الخضوع لله - ﷻ - وطاعته، والاستقامة على منهجه وطريقه، لأن في ذلك الأمن والسلامة.

---

(١) سورة النحل الآيات "٨٠ – ٨١"

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج١٤، صـ٢٣٩ وما بعدها

الفصل الخامس

أثر التربية الوقائية في إزالة أسباب الانحراف من خلال دعوة أولي العزم من الرسل

ويشتمل على أربعة مباحث

المبحث الأول: أثر التربية الوقائية في إزالة مظاهر الانحراف الفكري

المبحث الثاني: أثر التربية الوقائية في إزالة مظاهر الانحراف السلوكي

المبحث الثالث: أثر التربية الوقائية في إصلاح الواقع الدعوي للدعاة

المبحث الرابع: أثر التربية الوقائية في إصلاح الواقع الدعوي للمدعوين

أثر التربية الوقائية في إزالة أسباب الانحراف من خلال دعوة أولي العزم من الرسل

تمهيد:

لقد جاء الإسلام حافلاً بالتوجيهات والتعاليم التي تؤدي إلى حماية الإنسانية، وتطهيرها من كل أشكال الانحراف، وما ينتج عنها من الجرائم والمفاسد المتعددة، فجاء بمنهج شامل قويم ليربي النفوس، وخط لها طريقاً يهديها إلى الصراط المستقيم، وتنشأ نشأة تتواءم مع مهمتها في هذه الحياة، وليربي الإنسان السوي الذي يتجنب سلوك الانحراف والمنحرفين، ويستقر الإيمان في قلبه، فالقلب إذا استقر فيه الإيمان، انعكس ذلك على الجوارح والأعضاء، فلا تعمل إلا خيراً، أما إذا زاغت الأبصار، وضلت الأفكار، حدث الانحراف، والذي ينشأ عن معتقدات من الأفكار الضالة التي ترعرعت ونمت في عقول أصحابها، وجعلتهم ينظرون إلى من خالفهم على أنه كافر حلال دمه وماله، وهذا يؤثر على المجتمع تأثيراً سلبياً، فسلامة المجتمعات، وانضباطها متعلق بسلامة الفكر والمعتقد.

إن الإسلام يغرس الفضائل والأحكام التي إذا تمسك بها المجتمع أَمِنَ من الضلالة، فهناك بعض الناس يتهاونون في أداء التكاليف الشرعية، ومنهم من يغالي، ويظهر هؤلاء وأولئك على أنهم حريصون على العبادة والاستقامة، وهم في الوقت ذاته يقعون في أعمال لا يرتضيها الإسلام، وإذا نظرنا إلى واقع الأمة الإسلامية في العصر الحاضر، وجدناها مليئة بالانحرافات العديدة التي لا تخفى على أحد، كما أنها تواجه الكثير من المخاطر والتحديات الشاملة لكل مناحي الحياة، ومن هذه المخاطر ضعف دور الخطاب الديني عند بعض الدعاة، إما لعدم فهمهم للواقع، وعدم مسايرة الأحداث، أو لعدم الاطلاع الكافي في مختلف العلوم والمعارف، أو لعدم قدرتهم على التأثير على المدعوين، ولكن الإسلام قدم منهجاً للحياة بشتى مجالاتها، يتفق هذا المنهج مع العقيدة الإسلامية، كما جاء بالأحكام التي تبرز السلوك السوي من المسلمين، وأوجب على المسلمين اتباع هذا المنهج، لتحقيق الهداية والاستقامة المطلوبة، وهذه الأحكام متداخلة، ومترابطة، كل منها يؤدي إلى هدف معين في حماية المجتمع من كل ألوان الانحراف، فإذا اتبع المسلمون هذه المناهج، أمنوا من الانحراف، وعاشوا في أمن وسلام، وهذا ما سيتضح في هذا الفصل – إن شاء الله – تعالى –.

المبحث الأول

أثر التربية الوقائية في مواجهة الانحراف الفكري

إن المدقق في هذه اللفظة: يجد أن الانحراف الفكري يكون نتيجة لمعتقد منحرف سبق هذا الانحراف، لأن الفكر هو "ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب يكون علماً أو ظناً"(١)، ومن خلال الفكر الضال الذي يبعد عن الصواب، والمعتقد الباطل يحدث الانحراف، والإسلام جاء ليحصن فكر الإنسان من المعتقدات الباطلة، ولو تتبع المسلم هذه التوجيهات الوقائية كان في حصن منيع، فلا يتطرق إليه هذا الانحراف، ومن أهم أثر هذه التوجيهات الوقائية في حماية الإنسان في الانحراف الفكري ما يلي:-

أولاً: بيان الأفكار الضالة وتحرير العقول منها

كان من مهام القرآن الكريم العمل على إبطال الأفكار المنحرفة، التي تحول بين الإنسان والاستقامة، حتى تزول هذه الحجب الكثيفة التي نتج عنها بعض الأمراض التي أصابت الأمة، وفتكت بها إلى الحد الذي جعلتها هزيلة لا تقوى على شيء، فعمل الإسلام على تحصين الإنسان من الركون إليها، وتحريره من سلطان هذه الضلالات التي توقع الإنسان في الحيرة والتخبط، وكان من أخطر هذه الأمراض التي دعا الإسلام إلى التحرير منها وإبطالها:-

(١) التكفير

إن الكلام عن التكفير يحتاج إلى احتياط وحذر شديدين، فكلمة الكفر ليست هينة سهلة يخرجها المرء من لسانه، ولا يلقى لها بالاً، بل هي كلمة خطرها عظيم، لما يترتب عليها من آثار كبيرة في الدنيا والآخرة، ولذلك فقد احتاط الشرع في إطلاقها، احتياطاً بالغاً شديداً، حتى لا يتهم مسلم أخاه بالكفر، وحتى لا تُستباح الدماء والأموال بمجرد الظن والهوى، وحتى لا تُطَلَّق الزوجات، وتقطع علائق التوارث بينه وبين الأقارب، وغير ذلك من الآثار التي تترتب على الكفر، فالمسلم في الإسلام يتمتع بسياج من الحماية والوقاية، سواء في دمه أو ماله، أو عرضه، فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أنه قال: خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - الناس في حجة الوداع، فقال: "إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"(٢)، والتكفير سبب رئيس للقتل والسلب،

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن على الفيومي الحموي المتوفى سنة ٧٧٠هـ، المكتبة العلمية بيروت، ج٢، صـ٤٧٩.

(٢) رواه مسلم، كتاب الحج، باب من حجة النبي - ﷺ -، ٢/٨٨٦، رقم ١٢١٨.

واستحلال ذلك باسم الدين، وهو من أخطر أدوات التدمير لبنيان الأخوة بين المؤمنين، فقد يلجأ البعض إلى تكفير الآخرين لأوهى الأسباب، بسبب جهلهم بقواعد الشرع، فبمجرد النظر إلى بعض النصوص الشرعية، يبادرون إلى تكفير غيرهم، دون النظر إلى مقاصد الحكم ومدلولاته، كمن كفر بعض أهل المعاصي والذنوب، بسبب بعض النصوص التي وصفت الكثير من المعاصي بالكفر، ومن هذه النصوص قول النبي – ﷺ –: "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر"(١)، وكقوله – ﷺ –: "اثنتان في الناس هما بهما كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت"(٢)، لأن الكفر في الشرع له إطلاقات عديدة "وقد ورد الكفر في الشرع بمعنى جحد النعم وترك شكر المنعم والقيام بحقه"(٣)، فهناك كفر دون كفر كمن يكفر الإحسان والعشير، إذن فالجهل بدلالة اللفظ في الشرع أوقع المغالين في تكفير بعض أهل الذنوب والمعاصي التي وصفت بالكفر، ولخطورة الجهل فقد أنكر سيدنا نوحاً – عليه السلام – على قومه جهلهم، قال تعالى على لسانه: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾(٤)، وقد وصف سيدنا موسى – عليه السلام – بني إسرائيل بالجهل حينما طلبوا منه أن يجعل لهم صنماً ليتخذوه إلهاً من دون الله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾(٥)، حيث "وصفهم بالجهل المطلق وأكده لبعد ما صدر عنهم بعدما رأوا من الآيات الكبرى عن العقل"(٦)، وهناك من يتمسك بالفروع، ويترك الأصول المتفق عليها، فيلجأ مثلاً إلى تكفير من لم يعف اللحية، أو من لم يستخدم السواك وغيره، وهذا جهل فاضح وفادح بقواعد الشرع وأحكامه ومقاصده، وقد أمر الإسلام بالتثبت، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾(٧)، فالفهم الخاطئ، والجهل بدلالات النصوص الشرعية من أهم الأسباب التي توقع الإنسان في فتنة التكفير، "فالتكفيريون لا يرجعون

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ١٩/١، رقم ٤٨، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب سباب المسلم فسوق، ٨١/١، رقم ٦٤.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب، ٨٢/١، رقم ٦٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج١٠، صـ٤٦٦.

(٤) سورة هود الآية "٢٩".

(٥) سورة الأعراف الآية "١٣٨".

(٦) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٢.

(٧) سورة الحجرات، الآية "٦".

في أحكامهم على من كفروهم إلى دليل صحيح، ولا يتجردون في هذا للحق، ولهذا يكفرون عموم مخالفيهم، وليس لهم في هذا مستند شرعي، وإنما يحملهم على هذا الهوى، ومن هنا كان تكفير المخالف من علامات أهل الأهواء والبدع"(١)، فالذي يتجرأ ويخوض في عملية التكفير، وخاصة إذا كان بغير علم ولا هدى، فقد ألقى بيديه إلى التهلكة، فواجب عليه أن يمسك عن الخوض في هذه المسألة، حذراً من الوقوع في الذنب والجناية، وهناك من يقع في التكفير بسبب الغلو والتشدد في الأحكام كمن يكفر أولياء الأمور الذين لا يحكمون بغير ما أنزل الله بإطلاقه دون تفصيل، وكمن يتمسك بالفروع دون الأصول المتفق عليها، وينحرف عن مصدر التلقي الصحيح من القرآن الكريم والسنة المطهرة وهناك من يقع في التكفير بسبب اتباع الهوى، كالقائلين بقتل المسيح – عليه السلام – وصلبه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾(٢)،

إن الإسلام حذر أتباعه من تكفير بعضهم البعض، فالتكفير ليس حكماً متروكاً للأهواء والشهوات، بل هو حق لله – عز وجل – وحده، فهو الذي يحكم وحده على ما في قلوب الناس وضمائرهم، فلا دخل للإنسان فيه، فمن دخل الإسلام فلا يجوز لأحد أن يتعجل في إصدار الأحكام، على الآخرين بخروجهم من الإسلام، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(٣)، في هذه الآية تربية للمؤمنين عامة، بأن لا يتسرعوا في الحكم على ما في باطن الآخرين، وخاصة الذين يظهرون الإسلام، ويتأدبون ببعض آدابه، لعدم علمهم بما في قلوبهم، فقد يكون باطنهم كظاهرهم، فالباطن لا يعلمه إلا الله – تعالى – ولقد قال سيدنا ابن عباس – رضي الله عنهما – في هذه الآية: "حرم الله على المؤمنين أن يقولوا لمن يشهد أن لا إله إلا الله لست مؤمناً، كما حرم عليكم الميتة، فهو آمن على ماله ودمه، فلا تردوا عليه قوله"(٤)، فالواجب على المسلم التورع في هذا الجانب،

---

(١) التكفير وضوابطه، إبراهيم بن عامر الرحيلي، دار الإمام أحمد، بدون ط، ت، صـ٤٧.

(٢) سورة النساء الآية "١٥٧".

(٣) سورة النساء، الآية "٩٤".

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي المتوفي سنة ٩١١هـ، دار الفكر، بيروت، بدون ط، ت، ج٢، صـ٦٣٦.

ولا يلقى بالأحكام جزافاً، بل عليه أن يترك الحكم على الخلق للخالق، فهو - ﷻ - أدرى بخفايا خلقه، ولذلك فقد حذر النبي - ﷺ - من الاتهام بالكفر أشد التحذير، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - قال: "أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما"[١]، وهذا زجر وتحذير من النبي - ﷺ - حتى لا يقذف أحد آخر بالكفر، وحتى لا يستحق هو هذا الوصف الذي قذف به غيره، ولقد توعد الإسلام بالوعيد الشديد لمن يكفر مسلماً، أو يرميه بالفسق، فعن أبي ذر - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: "لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك"[٢]، فالرمي بالكفر باب لآثام وشرور عظيمة، تعود أول ما تعود على صاحبها، ويكفي أنه بذلك قد احتمل بهتاناً وذنباً عظيماً.

إن التكفير من الأمور التي أعطت فرصة لأعداء الإسلام لشن هجماتهم على الإسلام والطعن فيه، ليلصقوا به التهم والدعاوي التي لا أصل لها ولا سند، وذلك من خلال ما رأوه من بعض الغارقين في الجهل بأمور الدين، حينما يكفرون الناس، ويفجرون دور العبادة، والأماكن العامة، لاعتقادهم الفاسد بأن هذا العمل يتقربون به إلى الله - ﷻ - وهم بذلك أصبحوا عوناً لأعداء الإسلام، لتحقيق مآربهم في إلصاق التهم بالإسلام، وكانوا سبباً في نشر الحقد والكراهية والبغضاء، والخوف بين أفراد المجتمع، "والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه: الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة، أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم"[٣]، لأن الأصل في دماء المسلمين وأموالهم حرام في الإسلام، فينبغي الامتثال لتعاليم الإسلام وتوجيهاته، للوقاية من مثل هذه الانحرافات الخطيرة التي تجر لمشاكل لا حصر لها.

([١]) البخاري، كتاب الأدب، باب من كفر أخاهُ بغير تأويل فهو كما قال، ٢٦/٨، رقم ٦١٠٤، واللفظ له، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر، ٧٩/١، رقم ٦٠.

([٢]) البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهي في السب واللعن، ١٥/٨، رقم ٦٠٤٥ واللفظ له، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال من رغب عن أبيه وهو يعلم، ٧٩/١، رقم ٦١.

([٣]) الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي المتوفي سنة ٥٠٥هـ، الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، صـ١٣٥.

(٢) التعصب

إن التعصب للنفس أو الرأي أو الجماعة، ظاهرة مرضية، وهو من أول دلائل التطرف والانحراف، ولذلك فقد حذر الإسلام منه أشد التحذير، لأن الإنسان إذا وقع فيه، أُغشي على عقله وقلبه، وأُعميت بصيرته، فلا يرى حسناً إلا ما حسن في رأيه، أو من يتعصب له، ولا يعترف بوجود للآخرين، ويقوم بالحجر على آراء من خالفه، ويلغيها، فهو يتشبث برأيه، ويتعصب لمن ينتمي إليهم، لاعتقاد أنهم على حق، أما من سواهم فهم على باطل وضلال، ومن هنا كان التعصب انحراف بالمرء عن الحق والصواب، وخروجه عن المنهج المستقيم الذي يحبه الله - ﷻ - ورسوله - ﷺ - لأن المتعصب في الغالب محجوب البصر، فقبول الحق عنده منوط بطريق الوصول إليه عن طريق هذه الطائفة التي ينتمي إليها، أو يناصرها، فهو لا يرى إلا من خلالها، فلو ظهر له الحق من طريق آخر ربما لا يقبله، لأنه جاء من غير الطريق الذي ينتمي إليه، فهو يحب ويبغض لأجل الأهواء، والتعصب من العصبية "والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أم مظلومين"[١]، وهلى هذا فلا يعد اتباع القول الصحيح المدعم بالدليل من التعصب بل هو أمر ممدوح ومأمور به في الإسلام، ولذلك كانت وصية الله - ﷻ - لرسوله - ﷺ - بلزوم الشريعة، وعدم اتباع أهواء الجهلة الذين استولى عليهم جهلهم، فتركوا الحق والهدى، وانقادوا لأهوائهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[٢]، فالواجب أن يكون مناط قبول الحق، بالأخذ من الشريعة الإسلامية، وليس عن طريق فرقة متعصبة، ويزداد الأمر خطورة حينما يريد هؤلاء أن يفرضوا آراءهم ومتعقداتهم على الآخرين بالقوة والغلبة، والذي يتأمل في أحداث الانحراف التي تقع، يدرك أن من أهم أسباب هذه الأحداث هو التعصب لشئ ما، وأنه يجب على الجميع أن يجتمعوا تحت رايته، ومن لم يفعل ألصقوا به التهم، كالضلال أو الفسق، أو الكفر، والعياذ بالله - ﷻ -، ويقومون بحملات عنيفة على من خالفهم، انتصاراً للأهواء والآراء والمصالح الشخصية، حتى هوى بهم التعصب إلى دركات سحيقة، فلا يعدلون عن آرائهم ومعتقداتهم المنحرفة، حتى ولو ظهر خطؤها،

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري، ج٢، صـ٣٠.

(٢) سورة الجاثية، الآيات "١٨ – ١٩".

فيؤولون الخطأ، ويبرزون المحاسن، ويكونون سبباً في نشر المبادئ الهدامة، والأفكار الضالة، وظهور طوائف وجماعات مختلفة الأفكار والمناهج، كل واحد منهم يطعن في الآخر، ويأخذ الإسلام بمفهوم وطريقته، وهذا ليس من الإسلام في شيء، بل هو مما نهى عنه الإسلام، وحذر منه أشد التحذير، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(١)، "أي: أن كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه ديناً لنفسه، معجب به، يرى المحق أنه الرابح، وأن غيره المبطل الخاسر"(٢).

ولقد بين النبي – ﷺ – خطأ ما عليه هؤلاء وأمثالهم، فعن أبي هريرة، أن النبي – ﷺ – قال: "من قاتل تحت راية عُمِّية، يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، فَقُتِلْ فَقِتْلَةٌ جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب بَرَّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ عهده، فليس مني، ولست منه"(٣)، لأنه كان يقاتل من أجل العصبية، لا لنصرة الحق وأهله، ويكفي هذا الوعيد من النبي – ﷺ – فعن جبير بن مطعم(٤) – رضي الله عنه –، أن النبي – ﷺ – قال: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية"(٥)، فالتعصب يعد خللاً فكرياً خطيراً، فهو يقود صاحبه للضلال والهلاك، والابتعاد عن رؤية الحق، من خلال التقليد الأعمى، والمتأمل في دعوة الرسل – عليهم السلام – يدرك ذلك

---

(١) سورة الروم، الآيات "٣١ – ٣٢".

(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢٣، صـ٢٨٢.

(٣) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة من الكفر، ١٤٧٦/٣، رقم ١٨٤٨.

(٤) هو جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي النوفلى، كان يكنى أبا محمد، وقيل: أبا عدى، أمه أم جميل بنت سعيد من بني عامر بن لؤي، قال مصعب بن عمير: كان جبير من علماء قريش وساداتهم، وكان يؤخذ عنه النسب، فكان من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة، وكان يقول: إنما أخذت النسب عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – وكان أبو بكر من أنسب العرب، أسلم جبير يوم الفتح، وقيل: عام خيبر، كانت له عند رسول الله – ﷺ – يد، وكان من أشراف قريش، وكانت وفاته بالمدينة سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة تسع وخمسين في خلافة معاوية وذكره بعض العلماء في المؤلفة قلوبهم وممن حسن إسلامه منهم. "الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج١، صـ٢٣٣، أسد الغابة، ابن الأثير، مرجع سابق، ج١، صـ٥١٥.

(٥) أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في العصبية، ٤٤١/٧، رقم ٥١٢١، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده ضعيف لضعف محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة".

جيداً، فالتعصب هو الذي دفع الملأ المترفين من أقوام الرسل – عليهم السلام – للوقوف في وجه الرسل والرسالات، فكذبوهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[١]، وهذا هو دأب المترفين من أقوام الرسل – عليهم السلام – وفي كل زمان ومكان، ولذلك فهم يقفون في وجه الدعاة والمصلحين يناصبونهم العداء، فمثلاً قوم سيدنا نوح – عليه السلام – كان حجتهم في عدم إيمانهم، أن هذا الإيمان جاء إليهم عن طريق آخر غير طريق آبائهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٢]، وقد تعلل قوم سيدنا إبراهيم – عليه السلام – بفعل الآباء لعبادة الأصنام، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[٣]، ولقد عنف الله بني إسرائيل لتعصبهم وتشددهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٤]، فهم لا يقبلون إلا ما جاء عن طريق آبائهم، وهذا هو التعصب بعينه، والذي أدى بهم إلى عدم الانصياع للحق رغم وضوح الرؤية، فهو داء فتاك يهوى بصاحبه إلى التكذيب بالحق وعدم اتباعه، ولذلك حذر منه الإسلام أشد التحذير حتى يكون المسلمون على حذر منه لتوقيه.

ثانياً: تحقيق الوسطية في التفكير دون إفراط أو تفريط

أمر الإسلام أتباعه بالوسطية والاعتدال في كل شيء، والوسطية فيه ليست محصورة في ركن من أركانه، ولا جزء من جزئياته، ولكنها منهج شامل متكامل، لا ينفصل بعضه عن البعض الآخر، وهي منهج بَعَثَ الله – عز وجل – به الأنبياء والرسل – عليهم السلام – لتكون سياجاً قوياً ضد الوقوع في براثن الانحراف والتطرف، حتى أصبحت الوسطية من أبرز خصائص الإسلام ومميزاته، وبها استحقت أمة الإسلام أن تكون شاهدة على جميع الأمم قبلها، في حين أنه لم تشهد عليها أمة أخرى، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ

---

(١) سورة الزخرف الآيات "٢٣ – ٢٤".

(٢) سورة المؤمنون من الآية "٢٤".

(٣) سورة الشعراء الآيات "٦٩ – ٧٤"..

(٤) سورة الشعراء الآيات "٦٩ – ٧٤"..

ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[١]، فالوسطية من خصائص هذه الأمة، وسبب خيريتها، ولا تزال بخير ما دامت تحافظ على هذه الخاصية، ووسطيتها هذه مستمدة من وسطية منهجها، الذي جعله الله - ﷻ - وسطاً بين الإفراط والتفريط، "وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد"[٢]، والإسلام جاء بالتوجيهات التي ترسم منهج الوسطية والاستقامة، وذلك من خلال نهيه عن الغلو والتقصير، فكلاهما مذموم في الإسلام، ولذلك فقد مدح التوسط في الإنفاق فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[٣]، وأمر كذلك بالتوسط في القراءة بعد نهيه عن الجهل والتخافت بها فقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[٤]، وقد غالى بنو إسرائيل في وصف البقرة كما غالى النصارى في سيدنا عيسى - ؏ - كل ذلك كان سبباً لانحرافهم ولقد غالى قوم سيدنا نوح - ؏ - حينما طلبوا منه طرد الفقراء من حوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[٥]

لقد تضافرت الأدلة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة، على ذم الغلو في الدين، والتحذير من سلوك سبيل أهله، وعدم مجاوزة حد الاعتدال، فقال تعالى محذراً من محاكاة الأمم السابقة في غلوها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ

---

(١) سورة البقرة من الآية "١٤٣".

(٢) مدارج السابقين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٦٥.

(٣) سورة الفرقان الآية "٦٧".

(٤) سورة البقرة الآية "٦٧".

(٥) سورة هود الآية "٢٧".

ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[١]، وقال أيضاً: قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٢]، إن هذا النهي تحذير للأمة الإسلامية من الغلو في الدين، لأنه من أهم أسباب الانحراف عن العقيدة الصحيحة، وسبب من أسباب هلاك الأمم السابقة، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي – ﷺ – قال: "يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم، الغلو في الدين"[٣]، وهذا نهي صريح عن الغلو في الدين، والخروج عن منهج الوسطية الذي جاء به الإسلام، وهو سبب من أسباب هلاك الأمم، فليحذر المسلمون منه حتى لا يهلكوا، فعن ابن مسعود – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال "هلك المتنطعون، قال ثلاثاً"[٤]، "أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"[٥] أما الاعتدال والوسطية في كل الأمور، سبيل للنجاة، ووقاية للإنسان من الانحراف، فإرهاق النفس الإنسانية وإتعابها في الغلو والتشديد قد يؤدي إلى ترك العمل بالكلية، ولقد بين النبي – ﷺ – أن التشدد في أداء العبادات ليس من سنته ومنهجه، فقد روى عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي – ﷺ – يسألون عن عبادة النبي – ﷺ – فلما أخبروا كأنهم تَقالُّوها ، فقالوا: وأين نحن من النبي – ﷺ – قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: إني أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله – ﷺ – إليهم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء،

---

(١) سورة النساء، الآية "١٧١".

(٢) سورة المائدة، الآية "٧٧".

(٣) النسائي، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، ٢٦٨/٥، رقم ٣٥٧، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، ١٠٠٨/٢، رقم ٣٠٢٩، واللفظ له، والحاكم في مستدركه، أول كتاب المناسك، ٦٣٧/١، رقم ١٧١١، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب التقاط الحصى لرمي الجمار من المزدلفة، ٢٧٤/٤، رقم ٢٨٦٧.

(٤) رواه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ٢٠٥٥/٤، رقم ٢٦٧.

(٥) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج١٦، صـ٢٢٠.

فمن رغب عن سنتي فليس مني"[١]، ولذلك كان الأمر بالتيسير من توجيهات النبي - ﷺ - لرسله وأمرائه الذين بعثهم للقبائل، فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال لما بعثه رسول الله ومعاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال لهما: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا"[٢]، و "المراد بالأمر بالتيسير فيما كان من النوافل مما كان شاقاً، لئلا يفض بصاحبه إلى الملل فيتركه أصلاً، أو يعجب بعمله، فيحبط فيما رخص فيه من الفرائض"[٣]، فالتشدد والغلو في الدين، من الأمور التي يجب أن لا يستهان بها، فلها آثار مهلكة على الفرد والجماعة، والتساهل في أمور الدين لا يقل كذلك خطورة عن الغلو، ولذلك فقد نهى عنه الإسلام، كما نهى عن الغلو، فكلاهما تطرف وانحراف، فمن يتساهل، أو يفرط في التعامل مع الأحكام الشرعية ونصوصها فإنه يقع في الضلال، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[٤]، فالوسطية ليست تفلتاً من الأحكام والشرائع، ولكنها التزام بما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهي طريق الاستقامة الذي يجب على المسلم ألا ينحرف عنه، وقد جاء النهي عن الطغيان، ومجاوزة الحد بعد الأمر بالاستقامة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[٥]، وهناك بعض الناس الذين لا يستطيعون التمسك بالكتاب والسنة دون تقليد لأحد الأئمة والتزام بمذهبه دون انتقاص لغيره وهذا لا حرج فيه فهو إيمان العوام، إن هذا بيان لكيفية الاستقامة التي يريدها الله - عز وجل - والتي تكون بلا غلوٍ، ولا مبالغةٍ أو تشديدٍ، "والظاهر أن هذا أمر بالدوام على الاستقامة، وهي لزوم المنهج المستقيم، وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل، وسائر الأخلاق"[٦]، وفي موضع آخر في القرآن الكريم جاء النهي عن اتباع الأهواء بعد الأمر بالاستقامة، لأن في اتباع الأهواء صد عن الحق

---

(١) البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ٧/٢ رقم ٥٠٦٣، واللفظ له، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت له نفسه، ١٠٢٠/٢ ، رقم ١٤٠١.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي - ﷺ - يسروا ولا تعسروا، ٣٠/٨، رقم ٦١٢٤ واللفظ له، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ١٣٥٩/٣، رقم ١٧٣٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج١٠، صــ٥٢٥.

(٤) سورة مريم، الآية "٥٩".

(٥) سورة هود، الآية "١١٢".

(٦) تفسير الألوسي، مرجع سابق، ج٦، صــ٣٤٥.

والاستقامة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾(١)، ففي إتباع الهوى خروج عن حد الاستقامة، وانحراف عن منهج الوسطية الذي جاء به الإسلام، حتى ينشأ المسلم نشأة سوية، فينبذ الغلو والتطرف، كما ينبذ التقصير والتفريط، والله - ﷻ - زكى الإسلام، وسماه صراطاً مستقيماً، وأمرنا باتباعه، وحذرنا من اتباع سبل المنحرفين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٢)، فمنهج الإسلام ليس فيه التواء ولا اعوجاج، ويوصل إلى المطلوب من أقصر الطرق، ولذلك سماه صراطاً مستقيماً، فمن اتبعه عصمه الله - ﷻ - من الذلل والانحراف.

ثالثاً: الاعتصام بالكتاب والسنة بعيداً عن الأهواء

إن الاعتصام بالكتاب والسنة أساس متين لاستقامة النفوس وصلاحها، وهما حصن حصين ونجاة لمن تمسك بهما من إتباع الهوى، وهما منهج كامل للحياة، والميزان العادل الذي توزن به أقوال العباد وأفعالهم، ولذلك فقد أمر الإسلام باتباع الوحي، ونهى عن اتباع الهوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾(٣)، فالمعيار في الحلال والحرام هو الوحي: "والخروج عن هذا المعيار معناه اتباع الهوى، والهوى باطل لا يصلح لتمييز الصلاح من الفساد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾(٤)، فليس هناك إلا الحق أو الهوى، والحق هو ما أنزل الله، وفيه بيان للمصلحة والمفسدة، وما عداه الهوى فهو باطل، وفيه فساد للناس، فالمصلحة إذاً في اتباع الحق المنزل من عند الله وهجر ما سواه"(٥)، فالوحي هو النبع الصافي لكل خير، وفي التمسك به الهدى والنور، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾(٦)، إن هذا الأمر الإلهي يوجب على

---

(١) سورة الشورى، من الآية "١٥".

(٢) سورة الأنعام، الآية "١٥٣".

(٣) سورة الجاثية، الآيات "١٨ - ١٩".

(٤) سورة ص، الآية "٢٦".

(٥) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٣٠٢.

(٦) سورة آل عمران، من الآية "١٠٣".

المسلمين أن يتمسكوا بما يعصمهم، ويمنعهم من الوقوع في المحذور و "المراد بالحبل: الكتاب والسنة على سبيل الاستعارة، والجامع كونهما سبباً للمقصود، وهو الثواب والنجاة من العذاب، كما أن الحبل سبب لحصول المقصود به من السقي وغيره"(١)، فكذلك التمسك بالكتاب والسنة سبب لنجاة الإنسان من أسر الشهوات وقيودها، كما يستمسك الغريق إذا وجد الحبل وهو يخشى على نفسه الغرق والهلاك، وقد أكد النبي - ﷺ - هذا المعنى، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ - "إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض"(٢)، إن هذا بيانٌ واضحٌ لكل من أراد النجاة من الانحراف في جميع شئونه وأحواله، فعليه الاعتصام بالكتاب والسنة، فبهما النجاة من الضلالة، فالنجاة مرهونة بالامتثال بكتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله - ﷺ - بعيداً عن الأهواء والنزعات، "فإن إتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن إتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل معه بصيرة العبرة البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فَأَرَتْه نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأن له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة"(٣)، فإذا انحرف الإنسان، وأخذ منهجه من غيرهما، لم يكن من الفائزين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾(٤).

إن من أعظم دواعي الضلال، وعدم استجابة المدعوين لدعوة الحق، اتباع الهوى الذي يجعل صاحبه أسيراً له، ولذلك فقد حرص الإسلام على عدم اتباع الهوى ، لما له من آثار خطيرة تبعد الإنسان عن الحق والهداية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٥)، وهذا بيان من الله - عز وجل - يدل على أن اتباع الهوى من غير بيان وهدى من الله - سبحانه وتعالى - من موانع الهداية، ومعوقات استجابة المدعوين، "فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج١٣، صـ٢٤٥.

(٢) رواه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، ٥/٦٦٣، رقم ٣٧٨٨، وقال: "حديث حسن غريب"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب العلم، ١/١٧٢، رقم ٣١٩، "واللفظ له".

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ج١، صـ٤٤٨.

(٤) سورة الأحزاب، من الآية "٧١".

(٥) سورة القصص الآية "٥٠".

به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى"[١]، فقد كان المشركون يسمعون القرآن من النبي – ﷺ – وهو يقرأ القرآن، ومع ذلك فهم لم يستجيبوا مع تأثرهم به، لأنهم آثروا ما دعتهم إليه أهواؤهم من عدم الاستجابة والتكذيب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[٢]، فمن شؤم اتباع الهوى، الطبع على القلوب، حتى لا ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً، فلا يتبعون أحكام القرآن ومواعظه، ولذلك قال سيدنا علي – رضي الله عنه –: "يا أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم: طول الأمل، واتباع الهوى، فأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيضل عن الحق"[٣]، فهو من أشد الأمراض الفتاكة التي تصيب القلوب، وتجعل بينها وبين الهداية حائلاً تصدها عن النظر في معرفة الحق فلا يتبين له، فيكون في ظلام دائم، مما يجعله يجد الحق والخير، ويعرض عنه.

إن الأصل الأول في التشريع، وإثبات الأحكام، وبيان حلالها من حرامها هو: القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو منزل من قبل الله العزيز الحميد، وقد أمر الله – عز وجل – بإتباع هذا الكتاب، والتمسك به، والوقوف عند حدوده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[٤]، وقال أيضاً: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٥]، كذلك جاءت الأحاديث تأمر بالتمسك بالقرآن الكريم، والاعتصام به، فهو كتاب هداية، فعن زيد بن أرقم[٦]، أن النبي – ﷺ –

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ج١، صـ٣٧ وما بعدها.

(٢) سورة محمد الآية "١٦".

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل، ١٧٣/١٣، رقم ١٠١٣٠.

(٤) سورة الأعراف الآية "٣".

(٥) سورة المائدة الآيات "١٥ – ١٦"

(٦) زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعماني بن مالك الأنصاري الخزرجي، مختلف في كنيته، قيل: أبو عمرو، وقيل: أبو عامر، وقيل: أبو سعد، وقيل: أبو سعيد، واستصغر يوم أحد، وأول مشاهده الخندق، وقيل: المريسيع، وغزا مع رسول الله – ﷺ – سبع عشرة غزوة، وشهد مع على صفين، وهو معدود في خاصة الصحابة، توفى بالكوفة سنة ثماني وستين، وقيل: مات بعد قتل الحسين بقليل، "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٨٧، وينظر أيضاً "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٢، صـ٥٣٥.

خطب بالصحابة يوماً فقال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد: ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: "وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، اذكركم الله في أهل بيتي، اذكركم الله في أهل بيتي"[١] فالتمسك بكتاب الله – ﷻ – أمر لابد منه حتى ينتصر الإنسان على هوى نفسه الإمارة بالسوء، والشيطان الذي يزين له هذا الهوى، فيأمن من الانحراف والزلل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٢]، فالاعتصام بالله فيه احتماء للإنسان من كل ما يؤذيه ويضره من الدين "ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين، فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة"[٣]، فإذا كان منهج الدعوة الصحيح قائماً على القرآن الكريم، فإن السنة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، ولذلك فقد أوجب الله ﷻ على عباده، طاعة رسوله – ﷺ – وجعل طاعته من طاعته – ﷻ –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[٤] وبين أن السنة وحي من عنده يجب على المسلم أن يتمسك بها، ويحرص عليها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[٥]، وقال أيضاً: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٦]، فسنة رسول الله – ﷺ – وحي يجب اتباعه، ويعتبر الأخذ بها اعتصاماً بكتاب الله – ﷻ –، وإنه لا يسوغ لأحد أن يبدل ما جاء به أو يغيره، وكلما كان المرء عالماً بالأحاديث ودلالاتها كان أكثر فهماً للقرآن، واستنباط الأحكام منه، وقد بين النبي – ﷺ – أن ما حرمه في سنته مثل ما حرم الله في كتابه، فعن

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل على بن أبي طالب، ١٨٧٣/٤، رقم ٢٤٠٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية "١٠١".
(٣) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ج١، صـ٤٥٨.
(٤) سورة النساء، من الآية "٨٠".
(٥) سورة النجم، الآيات "١ – ٤".
(٦) سورة الحشر، من الآية "٧".

المقدام بن معدي كرب[١]، إن رسول الله – ﷺ – قال: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي نياب من السبع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغنى صاحبها، ومن نزل بقوم فعليه أن يَقْرُوه، فله، فإن لم يقروه، فله أن يُعقِبهم بمثل قراه"[٢]، فإن في التمسك بهما حماية للمسلم من الانحراف والضلال، والوقوع في الخرافات لما فيها من النور والهداية لحياة البشرية، فالله – ﷻ – شرع لعباده الدين القويم، من تمسك به نجا، ولكن المسلم الذي لم يتمكن الإيمان من قلبه كثيراً ما تغزوه الشهوات والشبهات، فيحيد عن الاعتصام بالكتاب والسنة، ويقع في البدع والأهواء المخالفة لتعاليم الإسلام فتصده عن الهداية والاستقامة.

([١]) هو المقدام بن معد يكرب بن عمرو بن يزيد بن معد يكرب بن عبد الله بن وهب بن ربيعة بن الحارث الكندي، يكني أبا كريمة، وقيل: أبو صالح، وقيل: أبو يحيى، وهو أحد الوافدين الذين وفدوا على رسول الله – ﷺ – صحب النبي – ﷺ – وروي عنه أحاديث، ونزل حمص، مات سنة سبع وثمانين، وهو ابن إحدى وتسعين، "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٤، صـ١٤٨٣، وينظر أيضاً "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٦، صـ١٦١.

([٢]) رواه أبو داود في السنن، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ٢٠٠/٤، رقم ٤٦٠٦ واللفظ له، وابن ماجه في السنن، كتاب أبواب السنة، باب تعظيم حديث رسول الله – ﷺ – والتغليظ على من عارضه، ٩/١، رقم ١٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث صحيح".

المبحث الثاني

أثر التربية الوقائية في إزالة أسباب الانحراف السلوكي

إن كل ما يقوم به الإنسان من الأعمال المنحرفة سواء كانت قولاً أو فعلاً، يكون نتيجة لأفكار مسبقة ترسخت بداخل الإنسان، وهي التي توجهه لفعلٍ معين يطرأ على سلوكه وأخلاقه، يعد داخلاً تحت مسمى الانحراف السلوكي، وهو: "بعد الفرد عن التمسك بالمبادئ والاتجاهات والفضائل التي من شأنها أن تراعي صالح نفسه وصالح الجماعة، وتمسكه بمبادئ واتجاهات سلوكية محطمة للذات ومضرة للجماعة، وذلك لأسباب نفسية، أو اعتقادية، أو اجتماعية"(١)، وهو ظاهرة قديمة قدم الإنسانية ذاتها، فهو ليس ظاهرة حديثة العهد، فأول جريمة للقتل في تاريخ الانسانية، حينما قتل أحد أولاد آدم – عليه السلام – أخاه هي انحراف سلوكي، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾(٢)، وفي وقتنا الحاضر أخذ هذا الانحراف صوراً متعددة، وأشكالاً مختلفة، نتيجة التقدم والتطور في أمور الحياة ، ولقد وقف الإسلام بتوجيهاته الوقائية ليعصم الانسانية من خطورة هذا الانحراف، الذي يسبب فساداً عظيماً في الأرض، بل ربما أكل الأخضر واليابس منها، ومن أهم أثر التربية الوقائية في مواجهته ما يلي:

أولاً: حرمة النفس الإنسانية

إن النفس الإنسانية معصومة في دين الله – عز وجل –، حيث حرم الاعتداء عليها بغير وجه حق، وجعل دم الإنسان من أعظم ما ينبغي أن يحفظ ويصان، لأن الإنسان بنيان الله – عز وجل – في الأرض، خلقه وكرمه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾(٣)،ومن تكريم الله – عز وجل – لهذا البنيان، أن حرم قتل النفس البشرية بغير حق، وشدد النكير على أولئك الذين يقترفون هذا الجرم العظيم، بسفكهم للدماء البريئة، واعتدائهم على بنيان الله – عز وجل – في أرضه، وتوعدهم بالعذاب الأليم، جزاء هذا

---

(١) مصطلحات التربية لفظاً واصطلاحاً، فاروق عبده فلية، أحمد عبد الفتاح الزكي، دار الوفاء للطباعة والنشر، بدون ط، ت، صـ٥٩.

(٢) سورة المائدة الآية "٢٧".

(٣) سورة الإسراء الآية "٧٠".

الفعل الشنيع الذي اقترفوه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾(١)، "وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن تعاطى هذا الذنب العظيم"(٢)، إنه وعيد ترتجف منه القلوب، وترتعد منه الفرائص، وتنزعج منه القلوب للردع والزجر عن الإقدام على مثل هذا الفعل الأثيم، صيانة للأرواح وحفاظاً على الحياة، ولما يترتب عليه من الفساد، والجرأة على حدود الله – ﷻ –، فالقتل وسفك الدماء نتيجة طبيعية للفساد، ولذلك فقد قرنت الملائكة بينهما حينما أخبرهم الله – ﷻ – أنه جاعل في الأرض خليفة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣)، وعلى الرغم من أن القتل من عموم الفساد، إلا أن الملائكة خصته بالذكر، لبيان شناعته، وأن الإنسان لا يقترف ذلك إلا إذا بلغ حداً في الفساد، وجاء التعبير بصيغة المضارع (يسفك) لبيان تكراره وتجدده من بعض خلقه الذين إذا وصلوا إلى هذه الدرجة من الفساد، وهان عليهم الاعتداء على كل شيء، ولذلك فقد أنكر سيدنا موسى – عليه السلام – على العبد الصالح حينما قتل الطفل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾(٤)، عبر بالنكر لأن "النكر أعظم من الأمر في القبح وهذه إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة، لأن ذلك ما كان إتلافاً للنفس لأنه كان يمكن ألا يحصل الغرق، أما ها هنا حصل الإتلاف قطعاً فكان أنكر"(٥).

لقد قرر النبي – ﷺ – أن النفس الإنسانية أعظم عند الله – ﷻ – من حرمة الكعبة المشرفة نفسها، مع مكانتها وجلالة قدرها، فهي قبلة للمسلمين، يتوجهون إليها في صلاتهم، ولا تقبل الصلاة إلا باستقبالها، ومع ذلك فهي لا تقارن بحرمة النفس الإنسانية، فهي أعظم حرمة منها، فعن ابن عمر – رضي الله عنه – قال: رأيت رسول الله – ﷺ – يطوف بالكعبة، ويقول: "ما أطيبك، وأطيب ريحك، ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند

(١) سورة النساء الآية "٩٣".
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، صـ٣٣٢.
(٣) سورة البقرة الآية "٣٠".
(٤) سورة الكهف الآية "٧٤".
(٥) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٢١، صـ٤٨٧.

الله حرمة منك، ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً"[١]، وإذا كان هذا الحديث يشير إلى حرمة النفس المؤمنة على وجه الخصوص، فإن هناك بعض النصوص التي تشير إلى حرمة النفس البشرية عامة، لأن حرمة النفس البشرية، والمحافظة عليها، يتساوى فيها كل البشر، لأنهم يتساوون في أصل خلقتهم، حيث خلقهم الله – ﷻ – أسوياء من أصل واحد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ ﴾[٢]، وهذا تذكير بالأصل الجامع للناس مما يقتضي الشعور بالمساواة، والعدل بينهم، والإسلام دين العدل والإنصاف، حيث تكفل بحفظ النفوس، "لأن القتل أعظم الذنوب، إذ فيه إذابة الجنس، وإيثار النفس، وتعاطي الوحدة التي لا قوام للعالم بها"[٣]، فليس لأحد أن يسلب إنساناً حق الحياة، يستوي في ذلك نفوس كل البشر مؤمنهم وكافرهم، وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أن من يعتدي على نفس إنسانية واحدة، فكأنما اعتدى على المجتمع الإنساني كله، وأن من يحافظ عليها، فكأنما يحافظ على المجتمع كله، وهذا ما كتبه الله على بني إسرائيل وهم أتباع سيدنا موسى وسيدنا عيسى – عليهما السلام –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾[٤]، ولقد عنيت السنة النبوية الشريفة بحق الإنسان في الحياة عناية فائقة، فأكثرت من النهي عن الاعتداء على النفس البشرية مؤمنها وكافرها، وشددت على من يتساهل في ذلك حتى ولو كانت الدماء لغير المسلمين، فعن عمرو بن الحمق[٥]

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، ٨٥/٥، رقم ٣٩٣٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده ضعيف لضعف نصر بن محمد شيخ المصلي".

(٢) سورة النساء من الآية "١".

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي، مرجع سابق، ج٣، صـ١٩٣.

(٤) سورة المائدة من الآية "٣٢".

(٥) هو عمرو بن الحمق بن الكاهن بن حبيب الخزاعي، من خزاعة، ومنهم من ينسبه فيقول: هو عمرو بن الحمق، والحمق مسعد بن كعب، هاجر إلى النبي – ﷺ – بعد الحديبية، وقيل بل أسلم عام حجة الوداع، والأول أصح، صحب النبي – ﷺ – وحفظ عنه أحاديث، وسكن الشام ثم انتقل إلى الكوفة فسكنها، وكان ممن سار على عثمان – ﷺ – وهو أحد الأربعة الذين دخلوا عليه الدار فيما ذكروا، ثم صار من شيعة على، وشهد معه المشاهد كلها – الجمل، والنهروان وصفين، ثم هرب إلى الموصل في زمن زياد، ودخل غاراً فنهشته حية فقتلته، وحمل برأسه إلى معاوية، وكانت أول رأس حملت في الإسلام من بلد إلى بلد، كانت وفاته سنة خمسين، وقيل قتله عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٣، صـ١١٧٣، وينظر أيضاً "أسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٠٥.

- ﷺ - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: "أيما رجل أَمَّنَ رجلاً على دمه ثم قتله: فأنا من القاتل برئ، وإن كان المقتول كافراً"[1]، ولقد ضمن الإسلام للمعاهدين حرمة دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، والدفاع عنهم ضد من اعتدى عليهم، والانتفاع بمرافق المسلمين العامة، ولقد حذر النبي - ﷺ - من التعرض لهم، وقتلهم من غير جرم، فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً"[2]، وهذا تحذير وترهيب من قتل المعاهد، "والمراد به من له عهد مع المسلمين، سواء كان بعقد جزية، أو هدنة من سلطان، أو أمان من مسلم"[3]، وهذا نص صريح يبين عصمة نفوس أهل الذمة من المعاهدين، والمستأمنين، ووعيد شديد لمن تعرض لهم، حيث رتب هذا الوعيد على قتلهم، وذلك بعدم دخول الجنة، فلو دخل أحدهم أي بلد من بلاد المسلمين بعقد أمان، أو بتأشيرة دخول، أو بأي صورة من صور الأمان في واقعنا المعاصر، فهو آمن لا يُقتل، ولا يجوز التعرض له بأذى، طالما أنه لم يرتكب جرماً، وذلك تعظيماً لحرمة الدماء، وصوناً للعهد، مما يدل على أن الدماء في الإسلام لها حرمة عظيمة وجليلة، وهذا يشمل جميع بني آدم، لا فرق بينهم في ذلك إلى قيام الساعة، حتى يعيش الناس في أمن وسلام واستقرار.

ثانياً: حماية الأعراض

لقد اهتم الإسلام بالمحافظة على الأعراض، وحمايتها من العبث بها، والاعتداء عليها، وجعل ذلك هدفاً أساسياً من أهداف الشريعة الإسلامية، والمحافظة على العرض في نظر الإسلام يشمل الرجال والنساء على حد سواء، فإذا كان عرض المرأة يُدَنس بما ترتكبه من الفواحش، فإن الرجل كذلك يدنس عرضه إذا كان فاجراً يقترف الفواحش والمنكرات، فالإسلام كما حرص على حماية عرض المرأة، حرص كذلك على حماية عرض الرجل، وضرب بيد من حديد على كل من أراد العبث بأعراض الناس، ولذلك فإنه لم يكتف بوسيلة واحدة لحماية الأعراض، ولكن

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الجنايات، باب الزجر عن قتل المرء من أمنه على دمه، ٣٢٠/١٣، رقم ٥٩٨٢، واللفظ له، "وقال شعيب الأرنؤوط اسناده حسن"، ورواه البيهقي في السنن الصغرى، كتاب السير، باب الأمان، ٤٠١/٣، رقم ٢٨٨٦.

(2) رواه البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، ٩٩/٤، رقم ٣١٦٦.

(3) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج١٢، صـ٢٥٩.

تعددت الوسائل في ذلك، فهو لم يقتصر على الجانب العقابي فقط[١]، ولكنه شرع الوسائل الوقائية التي تحول دون الوقوع في تدنيس الأعراض، فالإسلام قبل أن يفرض العقوبة لحماية العرض، شرع التوجيهات المتعددة التي ترشد الناس إلى الخير، وتقيهم من انتهاك الأعراض بالاعتداء عليها، سواء بالنظر، أو اللمس، أو الزنا، أو القذف، أو أي شيء مهما قل، وقد رتب أقسى العقوبات على من انتهك أعراض الآخرين، فعن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي – ﷺ – قال لأصحابه: "أخبروني ما أربى الربا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أربى الربا عند الله: استحلال عرض المسلم"[٢] ثم قرأ قول الله – تعالى –: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[٣]، وقد شدد الإسلام في هذه العقوبة "لأن العرض شرعاً وعقلاً، أعز على النفس من المال، وأعظم خطراً"[٤]، ولهذه الأهمية فقد وضع الإسلام الآداب والأحكام التي تحمي الأعراض، وتصونها من العبث بها إذا تمسك بها أفراد المجتمع، ومن هذه الآداب:–

١– الترغيب في الزواج

لقد رغب الإسلام في الزواج، لما له من أثر كبير وفعال، في حماية الأعراض وصيانتها، فهو الذي يربط الرجل بالمرأة برباط وثيق، وذلك من خلال الاتصال بها وفق نظام حكيم يحفظ كرامة الإنسان، ويصون شرف كل واحد منهما، فيلبي غرائز البشر الفطرية التي خلقهم الله – تعالى – مزودين بها، والإسلام بتشريعاته الوقائية لا يتيح الفرصة للإنسان بإشباع هذه الغرائز في غير مجالها المباح، فشرع النكاح ليطفئ نار الشهوة، ولا يتطلع أحد إلى محارم الآخرين، فيبتعد الزوجان عن الفاحشة بما حصل لهما من إعفاف نتيجة إشباع غرائزهما عن طريق النكاح، فها هو سيدنا نوح – عليه السلام – تزوج وأنجب، ولذلك قال في حق ابنه الكافر عند غرقه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[٥]، "وفي إضافته إليه

---

(١) سبق الحديث عن التربية الوقائية في العقوبات الشرعية في الفصل الأول صـ٢١.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل فيما ورد من الأخيار في التشديد على من افترض من عرض أخيه المسلم شيئاً بسبب أو غيره، ٩/٧٩، رقم ٦٢٨٥.

(٣) سورة الأحزاب الآية "٥٨".

(٤) فيض القدير، المناوي، مرجع سابق، ج٢، صـ٥٣١.

(٥) سورة هود الآية "٤٥".

هنا، وندائه دليل على أنه ابنه لصلبه"(١)، ولقد تزوج سيدنا إبراهيم - عليه السلام - السيدة هاجر والسيدة سارة، وأنجب سيدنا إسماعيل وإسحاق، ولذلك فقد رغب الإسلام فيه بصور شتى، فتارة يرغب فيه بذكر أنه من سنن الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام -، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾(٢)، وتارة يرغب فيه عن طريق ذكره في معرض الامتنان على الإنسان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾(٣)، وتارة يرغب فيه عن طريق كونه آية من آيات الله - عز وجل -، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤)، وتارة يرغب فيه عن طريق لفت أنظار من يتردد عن الزواج خوفاً من الفقر إلى أن الزواج هو طريقه إلى الغنى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٥)، وقد زاد النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا المعنى تأكيداً في الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "ثلاثة كلهم حق على الله عونه، الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد التعفف"(٦)، إن تعدد صور الترغيب في النكاح يدل دلالة قاطعة على أنه واحد من أهم وسائل حماية الأعراض وصيانتها.

وإذا كان الإسلام قد أعطى للولي الحق في تزويج موليته مشروطاً بموافقتها، ففي الوقت نفسه حرم عليه العضل "ومعنى العضل: منع المرأة من التزويج بكفئها إذا طلبت ذلك، ورغب كل واحد منهما في صاحبه"(٧)، لأن ذلك قد يؤدي إلى ارتكاب الفواحش، أما إذا زوَّجها على الوجه

---

(١) البحر المحيط في التفسير، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٦، صـ١٥٧.

(٢) سورة الرعد من الآية "٣٨".

(٣) سورة النحل الآية "٧٢".

(٤) سورة الروم الآية "٢١".

(٥) سورة النور الآية "٣٢".

(٦) رواه ابن ماجه في سننه، أبواب العتق، باب المكاتب، ٣/٥٦١، رقم ٢٥١٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده قوي من أجل ابن عجلان".

(٧) المغني، أبو محمد موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسة، المتوفي سنة ٦٢٠هـ، الناشر مكتبة القاهرة، بدون ط، سنة ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م، ج٧، صـ٣١.

المشروع، فقد صان عرضها وعرضه، ولذلك فقد جعل الله – ﷻ – عدم العضل، مرتبطاً بالتزكية والتطهير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، فالله – ﷻ – جعل عدم العضل تزكية وتطهيراً، "لأن العضل ربما أدى إلى ارتكاب المحظور منهما على غير وجه العقد"[2]، فيكونا فريسة للشيطان، وهذا هو المقصود من قول النبي – ﷺ – في الحديث الذي رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – "إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض"[3]، ذلك فقد عرض شعيب على سيدنا موسى – عليه السلام – أن يتزوج ابنته لأمانته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4]، وهذا يبين خطأ ما عليه بعض البلاد التي تقضي بتزويج المرأة داخل قبيلتها، أو عائلتها، ولا يجوز لها أن تتزوج خارجها، لما يترتب على ذلك الكثير من الأضرار، كما في بعض القرى والأرياف وصعيد مصر.

٢- الأمر بستر العورة

لقد حرص الإسلام على طهارة المجتمع ونقائه، فأوجب على المسلمين ستر عوراتهم، وعدم إبدائها إلا للأزواج، منعاً للفتنة، ولتطهير المجتمع من كل ما يضر به، ولقد بين القرآن الكريم أن الارتباط وثيق بين ستر العورة، وبين حصول التقوى عند الإنسان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[5]، فكلا

---

(١) سورة البقرة الآية "٢٣٢".

(٢) أحكام القرآن، أحمد بن على أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي المتوفي سنة ٣٧٠هـ، تحقيق عبد السلام محمد على شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، سنة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ج١، صـ٤٨٧.

(٣) رواه الترمذي في سننه، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه ٣/٣٨٧ رقم ١٠٨٥، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب الأكفاء، ٣/١٤١، رقم ١٩٦٨، "واللفظ له"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ٢/١٧٩، رقم ٢٦٩٥ وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٤) سورة القصص الآية "٢٧".

(٥) سورة الأعراف الآية "٢٦".

اللباسين الحسي والمعنوي: يقي الإنسان من وقوع الآفات الحسية والمعنوية، ولذلك فقد بين الله - ﷻ - الحكمة من ستر العورة، بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾(١)، وهذا دليل على أن طهارة القلوب من الشهوة لا تتحقق إلا بستر العورة، أما التبرج(٢) فهو يولد في المجتمع الخطر الجسيم، والشر الكبير، لأنه يحرك الدافع الجنسي، ويثير الشهوة بداخل الإنسان، مما يصل إلى الوقوع في أذى الفاحشة، من أجل ذلك أمر الإسلام بالستر، وبين الحكمة من ذلك، قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٣) حتى لا تكون المرأة مطمعاً للأنظار، كذلك أمر النبي - ﷺ - بستر العورة بالنسبة للرجال، لأن كشف العورة طريق يؤدي إلى الوقوع في الرذيلة، وانتهاك الأعراض فعن بهز بن حكيم(٤) - ﷺ - عن أبيه عن جده قال: قلت يا رسول الله: عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: "احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك"، قلت يا رسول الله: إذا كان أحدنا خالياً؟، قال: "الله أحق أن يُستحيا منه من الناس"(٥)، فوجوب ستر العورة من باب سد الذرائع لحماية أعراض الناس، وتطهير المجتمع من الخبائث التي تُشيع الفاحشة بين الناس.

---

(١) سورة الأحزاب من الآية "٥٣".

(٢) التبرج هو: "التكثر والتعنج، أو التبختر، وقيل هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال"، تفسير البغوي، مرجع سابق، ج٣، صـــ٦٣٦، ولقد نهى الإسلام عنه، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ سورة الأحزاب الآية "٣٣".

(٣) سورة الأحزاب الآية "٥٩".

(٤) هو بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، الإمام المحدث، أبو عبد الملك القشيري، البصري، له عدة أحاديث عن أبيه عن جده، وعن زُرارة بن أوفي، وثقه ابن معين، وأبو داود والنسائي، وقال أبو داود: هو عندي حجة، وقال البخاري: يختلفون في بهز، توفى قبل الخمسين ومائة، "سير أعلام النبلاء"، الذهبي، مرجع سابق، ج٦، صـــ٢٥٣.

(٥) رواه الترمذي في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في حفظ العورة، ٥/٩٧، رقم ٢٧٦٩، وقال: "هذا حديث حسن"، ورواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب التستر عند الجماع، ٣/١٠٦، رقم ١٩٢٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده حسن".

٣- الأمر بغض البصر

إن غض البصر صمام أمان يحفظ الناس، ويحول دون وقوعهم فيما حرم الله - عز وجل - ولذلك أمر الإسلام به، لأن النظر محرك للشهوة، وباعث لها، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾[١]، فالآية بينت ما يترتب على غض البصر من التزكية والتطهير، حتى لا يفكر الإنسان في فعل المحرم "فإن العين مبدأ الزنا، فحفظها مهم، وهو عسير، من حيث إنه قد يستهان به، ولا يعظم الخوف منه، والآفات كلها منه تنشأ"[٢]، ولذلك فقد سماه النبي - ﷺ - زنا، لأنه يوصل إلى محرم، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: "لكل ابن آدم حظه من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النظر"[٣] لأن النظر بريد الزنا، والباعث عليه، والإنسان إذا ترك لنظره العنان يجول هنا أو هناك بلا ضابط، ولا رقيب، لجال في أعراض الناس، فالإنسان جبل على حب الاستطلاع، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالناحية الجنسية التي تثير الشهوة داخل الإنسان، فجاء الإسلام بالمنهج القويم، وأمر بغض البصر، إلا في حالات الضرورة التي يباح فيها النظر[٤]، مثل نظر الخاطب لمخطوبته التي يريد منها الزواج، وذلك حتى يكون المجتمع على درجة عالية من الطهر والعفة، وبعيداً كل البعد عن الوقوع في الشهوات والمحرمات.

٤- تحريم الخلوة

الإسلام حينما أراد منع الجريمة، فإنه يمنع كل الأسباب التي تؤدي إليها، فإن ذلك أقوى في الحماية، والخلوة من الأسباب التي تمهد للمحظور والوقوع فيه، لذلك حرم الإسلام الخلوة بين الرجل والمرأة الأجنبيين، وذلك سداً لذرائع الفساد، وهذا تشريع وقائي يُسهم بشكل كبير في صيانة الأعراض، حتى لا تُستباح، أو يُستهان بها، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه سمع النبي - ﷺ - يقول: "لا يخلون رجل بامرأة، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم، فقال

---

(١) سورة النور الآيات "٣٠ - ٣١".

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي، مرجع سابق، ج٣، صـ١٠٦.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب تحريم النظر إلى الأجنبيات من غير سبب مبيح، ١٤٣/٧، رقم ١٣٥١١، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

(٤) مثل نظر الخاطب إلى مخطوبته، والتداوي، والقضاء، والشهادة، والمعاملة، والتعليم وغيرها.

رجل: يا رسول الله، اُكْتتبت في غزوة كذا وكذا، وخرجت امرأتي حاجة، قال: "اذهب فحج مع امرأتك"[١]، ففي تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية أثر كبير في حماية الأعراض وصيانتها من الدنس والاعتداء عليها، فالرجل إذا تفرد بالمرأة بحيث لا يراهما أحد، وأُغلق عليهما باب، فإن الشيطان لا يتركهما، بل يحركهما، فيزين المرأة في عين الرجل، والرجل في عين المرأة، فيدفعهما إلى مهاوي الشر والفساد، وخاصة أقارب الزوج، ولذلك فقد حذر النبي - ﷺ - من ذلك، فعن عقبة بن عامر[٢]، - ﵁ - أن رسول الله - ﷺ - قال: "إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ قال: الحمو: الموت"[٣]، وفي ذلك تحذير واضح من الدخول على النساء من غير المحارم، وجعل دخول أقارب الزوج على الزوجة في حال الخلوة يفضي إلى الهلاك، وهذا يرجع إلى "أن الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه والفتنة أكثر، لتمكنه من الوصول إلى المرأة، والخلوة من غير أن ينكر عليه، بخلاف الأجنبي، والمراد بالحمو هنا: أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته، تجوز لهم الخلوة بها، ولا يوصفون بالموت، وإنما المراد: الأخ، وابن الأخ، والعم، وابنه، ونحوهم ممن ليس بمحرم، وعادة الناس المساهلة فيه، ويخلو بامرأة أخيه، فهذا هو الموت، وهو أولى بالمنع من الأجنبي"[٤]، لأن الرجل ينجذب إلى المرأة بدافع الغريزة، والإسلام بذلك يغلق كل طريق يؤدي إلى الفتنة حتى تصان الأعراض.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من اكتتب في جيش فخرجت امرأته حاجة، أو كان له عذر، هل يؤذن له؟، ٥٩٤/٤، رقم ٢٠٠٦، واللفظ له، وأخرجه مسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، ٩٧٨/٢، رقم ١٣٤١.

(٢) هو عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو بن عدى الجهني، كان يكنى أبا حماد، وقيل: أبو لبيد، وأبو عمرو، وغير ذلك، روي عنه أبو عشانة أنه قال: قدم رسول الله - ﷺ - المدينة وأنا في غنم لي أرعاها، فتركتها ثم ذهبت إليه، فقلت: تبايعني يا رسول الله؟ قال: فمن أنت؟ فأخبرته، فقال: أيها أحب إليك؟ تبايعني بيعة أعرابية أو بيعة هجرة، قلت بيعة هجرة، فبايعه، وكان من أصحاب معاوية بن أبي سفيان، ولى مصر وسكنها، وتوفى بها سنة ثمان وخمسين، وكان يخضب بالسواد. "الإصابة في تمييز الصحابة" ابن حجر، مرجع سابق، ج٤، صــ٤٢٩، وينظر أيضاً "أسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٤، صــ٥١.

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، ٣٧/٧، رقم ٥٢٣٢، ورواه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية، والدخول عليها ١٧١١/٤، رقم ٢١٧٢، "متفق عليه".

(٤) شرح النووي على مسلم، مرجع سابق، ج١٤، صــ١٥٤.

ثالثاً: سلامة المجتمع من عوامل الفساد

لقد كانت عناية الإسلام كبيرة بتربية أتباعه على اجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ووضع لهم منهجاً تربوياً متكاملاً للقضاء عليها، فمن كمال التشريع الإسلامي أن جعل الله – ﷻ – هذا الدين مشتملاً على ضوابط وقيود، من شأنها أن تحمي الأفراد والمجتمعات من كل فساد يتربص بها، لأن الفساد في الأرض يجلب القهر، ويدفع إلى الظلم، ويضيع الحقوق، ويشيع الفوضى، ويفقد الأمن، ويهلك الحرث والنسل، فلا يهدأ للإنسان بال ولا يستقر له حال، والله – ﷻ – خلق الكون بإحكام عجيب ودقة بالغة، ولكن سلوك الإنسان السيء هو الذي يحدث الفساد والخلل في هذا الكون، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾[١]، وجاء منهج الإسلام واضحاً في محاربة الفساد قبل وقوعه، مهما كان حجمه، حتى يعيش الناس في أمن وسلام، بعيداً عن كل أسباب تؤدي إلى هذا الانحراف، والفساد ليس له هيئة محددة ولا صفة ثابتة، ولكنه يتطور، ويأخذ أساليباً تتلاءم مع تقدم الزمان، مما أدى إلى تعدد صوره، واختلاف وسائله وأساليبه، مما يصعب على الباحث تناول صوره وأساليبه كلها، ولذلك فإن الباحث سيقتصر على ثلاث صور منها لعظيم خطرها وضررها وهي:-

١- سلامة المجتمع من الشائعات

الإسلام يعلم المسلمين الأدب في حديثهم وفي كلامهم، وينهاهم عن كل ما يثير الغضب والحقد بين الناس، وعن كل ما يكون سبباً في إيذاء حي، أو إهانة ميت، فوقف الإسلام أمام الشائعات الكاذبة التي تلوث سمعة الناس، وتدنس أعراضهم، فأمر بالصبر عند سماع خبر السوء، فلا يتعجلوا بقبوله، بل عليهم أن يثبتوا ويتبينوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[٢]، وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٣] فمسؤولية التأكد، والتثبت من الأخبار تقع على كاهل كل فرد من أفراد المجتمع، فلا يقبل أي خبر إلا بعد التأكد من صحته، ولابد من تحاشي التسرع

---

(١) سورة الروم، من الآية "٤١".

(٢) سورة الحجرات، الآية "٦".

(٣) سورة النساء، الآية "٨٣".

وسوء الظن، وذلك من خلال اليقظة والحذر، ومعرفة المصدر، ولقد بين النبي – ﷺ – أن المرء عند سماع الخبر، عليه أن يميز بين ما يقبله العقل، وما لا يقبله، فلا يحدث بكل ما يسمع من غير تمييز، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع"(١)، وهذا درس عظيم للمؤمنين كي يتثبتوا من الأخبار، وعدم اتهام الآخرين بدون علم، "ومن هنا كان الاستمساك بالصدق في كل شأن، وتحريه في كل قضية، والمصير إليه في كل حكم، دعاية ركينة في خلق المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه، وكذلك كان بناء المجتمع في الإسلام قائماً على محاربة الظنون، ونبذ الإشاعات، وإطراح الريب، فإن الحقائق الراسخة وحدها هي التي يجب أن تظهر وتغلب، وأن تعتمد في إقرار العلاقات المختلفة"(٢)، لأن المجتمع الإسلامي مجتمع الأصل فيه أن يكون منضبطاً، خالياً من التهم والريبة، ومن كل كلام يجرح هذا، أو يشتم ذاك، فإذا انتشرت الشائعات والظنون، وتساهل المسلمون في التعامل بها، فإن ذلك سيؤدي إلى منكرات اجتماعية أخرى خطيرة، عواقبها وخيمة، تصيب الأفراد والمجتمعات، مما يكون سبباً في هلاكها، ودمارها، فالشائعات من أخطر الحروب المعنوية، ومن أشد الأسلحة الفتاكة القادرة على تفتيت الصف الواحد، فالناس أمام الشائعة ما بين مصدق لها، وما بين مكذب ومتردد، وهي من أخطر الوسائل الهدامة التي لجأ إليها أعداء الرسل – عليهم السلام – والمناوئون لدعوتهم، فهم لم يهملوا سلاح الشائعات في محاربتهم، بل أشاعوا عنهم الأباطيل والمنكرات، "فقد وصفوهم بالضلال، وبالكذب، وبالجنون، وبالسفه، وبالتكبر، وبالغرور، وبالإفساد في الضرر، وبغير ذلك من الأقاويل الباطلة، ومن الشائعات الكاذبة، وما قصد أولئك الأعداء للرسل من وراء ذلك، إلا صرف الناس عن الحق، وحسدهم للرسل – الكرام – على ما آتاهم الله – سبحانه وتعالى – من فضله، ولم يكتف أعداء الحق، والفضائل بإشاعة السوء حول الرسل – الكرام – بل حاربوا أيضاً ما جاءوا به من هدايات، ومن أخلاق كريمة، ومن عقائد قويمة، ومن سلوك حميد"(٣)، فقد أشاعوا على سيدنا نوح – عليه السلام – حينما دعاهم إلى عبادة الله الضلال المبين، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ

(١) رواه مسلم، في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ١/١٠، رقم ٥.
(٢) خلق المسلم، الغزالي، مرجع سابق، صـ٣٤.
(٣) الإشاعات وكيف حاربها الإسلام، د/ محمد سيد طنطاوي، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٤٢١هـ، سنة ٢٠٠١م، صـ٦.

عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[١]، وكذلك أشاع فرعون على سيدنا موسى - عليه السلام - الجنون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴾[٢]، كذلك أشاعوا عليه السحر حينما جاءهم بالآيات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[٣]، هذه الإشاعة نفسها ألصقوها لسيدنا عيسى - عليه السلام - حينما قال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[٤]، فقد وصفوا ما جاءوا به من الحق، بأنه سحر وأساطير الأولين، وغير ذلك من الأقاويل الكاذبة، كل ذلك من أجل تشويه سمعتهم، وزعزعة الثقة فيهم، لإبعاد الناس عنهم، أو القضاء على معنوياتهم، لأجل ذلك تصدى الإسلام لهذه الظاهرة، نظراً لآثارها الخطيرة على الفرد والمجتمع، فعن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – أن النبي – ﷺ – قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"[٥].

ومن الملاحظ أن النبي – ﷺ – قدم ذكر اللسان على ذكر الأيدي – والله أعلم – لخطورته، ولبيان ضرورة حفظه، وأن التهاون في نقل الأخبار، والأحاديث قد يسبب ضرراً بالغاً، وأذى كبيراً، والإسلام جاء بتحريم الأذى والضرر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾[٦]، وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله – ﷺ –: "لا

---

(١) سورة الأعراف الآيات "٥٩ – ٦٠".
(٢) سورة الشعراء الآية "٢٧".
(٣) سورة يونس الآية "٧٦".
(٤) سورة المائدة الآية "١١٠".
(٥) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ١١/١، رقم ١٠ واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل ٦٥/١ رقم ٤٠.
(٦) سورة الأحزاب الآية "٥٨".

ضرر ولا ضرار، من ضار ضاره الله، ومن شاق شاق الله عليه"[١]، ولعل اتهام العرض الذي نال بيت النبوة، أكبر دليل على ذلك، فمجرد كلمات نطق بها لسان منافق[٢]، وتناقلتها الألسنة، كانت سبباً لوجود أزمة عظيمة في المجتمع المسلم آنذاك، ظل المجتمع طيلة شهر كامل يكتوي بنار هذه الكلمات الكاذبة، ولولا رحمة الله – ﷻ – وعنايته بالمسلمين، لاكتوى بنارها كل أفراد المجتمع، فنزلت آيات القرآن الكريم بعد ذلك قاطعة لدابر هذه الحادثة التي شاعت عن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها – فأنزل الله – ﷻ – براءتها من فوق سبع سماوات، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[٣]، وهذه صورة من أبشع صور الشائعات، والتي تتعرض إلى السمعة الشخصية، فجعلها الله – ﷻ – قرآناً يتلى على مر العصور والأجيال، ليحذر المسلمون من مخاطرها، وليأمن الإنسان على نفسه من الوقوع في البهتان والظلم، حتى لا يعرِّض إخوانه لمقالة السوء، ولقد أوجب الإسلام على المسلم أن يقدم حسن الظن بأخيه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾[٤] وهذا حث للمؤمنين على حسن النية بإخوانهم، وعدم تصديق ما يقال عنهم من شائعات، وأن يقيس ما يقال على نفسه، فإذا استبعده على نفسه، فليستبعده عن غيره، وهذا ما فعله أبو أيوب الأنصاري[٥] حينما قالت له امرأته: "أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال فعائشة والله خير منك"[٦]، ثم بين القرآن الكريم أن الإسلام لم يأخذ الناس بالشبهات والظنون، ولكن اشترط

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب البيوع، باب وأما حديث معمر بن راشد، ٦٦/٢، رقم ٢٣٤٥، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٢) هو عبد الله بن أبي بن سلول.

(٣) سورة النور، الآية "١١".

(٤) سورة النور، الآية "١٢".

(٥) هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة أبو أيوب الأنصاري، غلبت عليه كنيته، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد، آخى الرسول – ﷺ – بينه وبين مصعب بن عمير، ونزل عليه رسول الله – ﷺ – حينما هاجر إلى المدينة، توفى أبو أيوب مجاهداً سنة خمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين بالقسطنطينية من أرض الروم في خلافة معاوية تحت راية يزيد، وقيل: سنة اثنين وخمسين وهو الأكثر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٤، صـ١٦٠٦، وينظر أيضاً "أسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٦، صـ٢٢.

(٦) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج١٩، صـ١٢٩.

وجود أربعة شهود، كما في قصة إثبات الزنا، وهذا سد منيع أمام الشائعات المدمرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١)، وهذا يوجب على الإنسان ألا يسارع إلى تصديق الشائعة، بل لابد من البحث عن الأدلة والبراهين التي تدل على الصدق، ثم أشار القرآن الكريم بعد ذلك إلى أن تبسيط الأمور، وتهوينها من الأسباب التي أدت إلى إشاعة هذا الإفك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾(٢)، فعدم تصور النتائج التي تترتب على نشر أي خبر دون تحقق أو ثبوت، يؤدي إلى خطر عظيم، وفساد كبير، وهذا يوجب على الإنسان، إذا بلغته شائعة ألا يبادر بتصديقها، ولا يتحدث بها، فلو لم يتكلم الناس بأي إشاعة لماتت في مهدها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣)، و"هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير: أي إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة، فأولى أن ينبغي الظن بهم خيراً، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة، أو خيالاً فلا ينبغي أن يتكلم به"(٤)، ثم توعد الله - ﷻ - من يحب انتشار أخبار السوء، والفواحش بين الناس بالعذاب، حتى لا يقدموا على مثل هذه الأشياء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٥)، وهذا منهج تربوي متكامل يدل على تحريم الإسلام للشائعات، وترديد الأراجيف الكاذبة، والاتهامات الباطلة، لأن ذلك منافٍ للأخلاق الكريمة، والمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وهذا يعد منهجاً وقائياً يحمي المجتمع من العابثين والمفسدين، ويحد من تبعات فسادهم، وذلك بعدم مجاراتهم في هذا الفساد، وعدم إتباع أهوائهم الضالة الفاسدة.

---

(١) سورة النور، الآيات "١٣ – ١٤"

(٢) سورة النور، الآية "١٥".

(٣) سورة النور، الآيات "١٦ – ١٧".

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٦، صــ٢٧.

(٥) سورة النور، الآية "١٩".

٢- تحريم ترويع الآمنين:

مما لا شك فيه أن الإسلام هو دين إصلاح وأمن وأمان، وليس دين فساد وتخريب وترويع للآخرين، والله - ﷻ - أمر الناس بعمارة الأرض، وعدم الإفساد فيها، ليستفيدوا من خيراتها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١)، فهذا نهى عن الفساد بجميع صوره وأشكاله، لأنه يحدث الخوف والفزع والرعب في قلوب الآمنين، ولقد بين القرآن الكريم: أن الخوف والقتل للآمنين، يمتاز به المفسدون على مر العصور، فيهدمون البيوت، ويقتلعون الأشجار، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾(٢)، كذلك هدد فرعون السحرة حينما آمنوا بسيدنا موسى - عليه السلام -، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٣)، ولقد وصف الله - سبحانه وتعالى - فرعون بالفساد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(٤)، فإتلاف الأموال بالتحريق، والقتل وخلافه، فساد يذهب بأمن الناس وطمأنينتهم، وحياة الناس لا يمكن أن تستقيم، وتسير على الوجه المطلوب إلا إذا كانت آمنة مطمئنة، فالأمن بمثابة القلب من الجسد، وهو حاجة إنسانية ملحة، ويحتاج إليه الإنسان، كحاجته للطعام والشراب بل أشد، وهو من أهم مقومات السعادة والاستقرار، والإسلام جاء ليزرع الأمن، ويشيع الطمأنينة في نفوس الناس والبشرية كلها، وشدد النهي والتحذير من ترويع الآمنين لحفظ النظام، ومن الجرائم التي حذر منها الإسلام لتحقيق الأمن: الحرابة وهي: "التعرض للناس، وتهديدهم بالسلاح في الصحراء، أو البنيان في البيوت، أو وسائل النقل، من أجل سفك دمائهم، أو انتهاك أعراضهم، أو غصب أموالهم، ونحو ذلك"(٥)، وهي محرمة تحريماً قاطعاً لما فيها من ترويع الناس والإفساد في الأرض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي

---

(١) سورة الأعراف الآية "٥٦".

(٢) سورة البقرة الآية "٢٠٥".

(٣) سورة الأعراف الآية "١٢٤".

(٤) سورة القصص الآية "٤".

(٥) موسوعة الفقه الإسلامي، التويجري، مرجع سابق، ج٥، صـ١٦٦.

ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١]، فالله – ﷻ – "جعل محاربة المسلمين: محاربة لله تعالى، ورسوله، تعظيماً لهم، والمعنى: يحاربون أولياءهما، وأصل الحرب: السلب، والمراد هنا: قطع الطريق، وقيل: المكابرة بطريق اللصوصية"[٢]، سواء كان ذلك في الصحاري، أو في القرى والأمصار، ولقد حذر الله – ﷻ – الناس من الوقوع في هذه المفاسد على لسان الرسل والأنبياء – عليهم السلام – قال تعالى على لسان سيدنا لوط – عليه السلام –: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٣]، فمن الخصال التي حذر منها قومه: قطع السبيل، لأنها صفة من صفات المفسدين في الأرض، كذلك ينهي سيدنا شعيب – عليه السلام – قومه عن قطع الطريق، بهدف إخافة الناس، والصد عن سبيل الله – ﷻ – قال تعالى على لسانه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٤]، "وذلك أنهم كانوا يجلسون على قوارع الطريق، فيقولون لمن يريد الإيمان بشعيب: إن شعيباً كذاب، فلا يفتنك عن دينك، ويتوعدون المؤمنين بالقتل، ويخوفونهم"[٥]، كما كانت قريش تفعل لتصد الناس عن رسول الله – ﷺ – في مواسم الحج.

لقد كثرت وسائل الترويع في هذا الزمان، مع التقدم، فاستغل المنحرفون وسائل التقنية الحديثة للترويع والتخويف، كاستخدام العبوات الناسفة، لتفجيرها في عمليات القتل والتخريب، هؤلاء المنحرفون قد تجمعهم منظمة سرية، أو تقوم دولة معادية بدعمهم وإمدادهم، وقد يستهدف هذا التفجير دور العبادة، وقد يكون الترويع بالهجوم على الآمنين، وأخذ ما معهم من الأموال والأعراض، قهراً تحت وطأة السلاح، أو يكون بالسطو على البيوت والمتاجر، ومواجهة من بداخلها وتهديدهم بالقوة، وكل ذلك محرم، لما فيه من ترويع الآمنين، والاعتداء على أنفسهم وأعراضهم، وأموالهم بغير حق، ولقد تبرأ النبي – ﷺ – ممن حمل السلاح على أخيه، فعن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي – ﷺ – قال: "من حمل علينا السلاح فليس

---

(١) سورة المائدة، الآيات "٣٣ – ٣٤".

(٢) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج٣، صـ٣١.

(٣) سورة العنكبوت، الآيات "٢٩ – ٣٠".

(٤) سورة الأعراف، من الآية "٨٦".

(٥) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج٢، صـ٢١٤.

منا"(١) وفي ذلك تأكيد على عدم ترويع الآخرين، وتخويفهم، أو التعرض لهم بسوء وأذى، و "المراد مَنْ حمل عليهم السلاح لقتالهم، لما فيه من إدخال الرعب عليهم، لا مَنْ حمله لحراستهم مثلاً، فإنه يحمله لهم لا عليهم، وقوله فليس منا، أي: على طريقتنا، مع احتمال أنه ليس على الملة للمبالغة في الزجر والتخويف"(٢)، ولقد أكد النبي - ﷺ - على تعميم الحكم في النهي عن الترويع والتخويف، سواء كان ذلك المروَّع إنساناً أم حيواناً، فنهى عن إدخال الرعب على الحيوان بأي وسيلة، فعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: كنا مع رسول الله - ﷺ - في سفر، ومررنا بشجرة فيها فرخا حمرة، فأخذناها، قال: فجاءت الحمرة إلى رسول الله - ﷺ - وهي تصيح، فقال النبي - ﷺ -: "من فجع هذه بفرخيها؟ قال: فقلنا: نحن، قال فردوهما"(٣)، فالإسلام الذي يحرص على عدم أذية الحيوان وترويعه بدون سبب، لهو أشد حرصاً على حماية الإنسان من الترويع حتى يهنأ بالعيش، وتستقر الحياة، ولقد بلغ من حرص النبي - ﷺ - على عدم ترويع الآمنين، أن نهى عنه حتى ولو كان ذلك مزاحاً، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى(٤) قال: حدثنا أصحاب محمد أنهم كانوا يسيرون مع النبي - ﷺ - فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه، فقال رسول الله - ﷺ - "لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً"(٥)، لأن الأمن من أهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ومن أحياها ٤/٩ ، رقم ٦٨٧٤، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي - ﷺ - من حمل علينا السلاح فليس منا ٩٨/١، رقم ٩٨، "متفق عليه".

(٢) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج١٢، صـ١٩٧.

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب حرق العدو بالنار ٣٠٩/٤، رقم ٢٦٧٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده صحيح"، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الذبائح ٢٦٧/٤، رقم ٧٥٩٩، وقال: "هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه"، "واللفظ له".

(٤) هو عبد الرحمن بن أبي ليلى واسمه يسار بن بلال بن بليل بن أحيحة بن الجلاح، من الأوس، ويكني أبا عيسى، روى عن عمر وعلى وعبد الله وأبي بن كعب وغيرهم، وروي أيضاً عن أبيه، وقال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب النبي - ﷺ -، وقال مجاهد: كان لعبد الرحمن بن أبي ليلى بيت فيه مصاحف يجتمع إليه فيه الفقراء، وكان ممن خرج على الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وإنه قتل برجيل" سنه اثنين وثمانين،= ="الطبقات الكبرى"، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منبع الهاشمي المعروف بابن سعد، المتوفي سنة ٢٣٠هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٠هـ ، سنة ١٩٩٠م، ج٦، صـ١٦٦.

(٥) رواه أبو داود في سننه، أو كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، ٣٥٢/٧، رقم ٥٠٠٤، واللفظ له، وقال الشيخ الأرنؤوط: "إسناده صحيح"، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب المزاح لا ترد به الشهادة ما لم يخرج من المزاح إلى عضه النسب، أو عضه يحد أو فاحشة، ٤٢٠/١٠، رقم ٢١١٧٧.

المطالب الأساسية في حياة الناس، فهو ضرورة لهم، وبدونه لا يستطيعون التنعم بأي شيء حولهم، ولذلك فقد كثرت التوجيهات الوقائية في الإسلام، التي تحمي المجتمع، وتحيطه بسورٍ واقٍ، يحفظ له أمنه واستقراره.

٣- مقاومة الرشوة

لقد أعطى الإسلام للإنسان حق التملك، ليكتسب بكد يمينه، وعرق جبينه ما يقيم به حياته، ويربى أهله وولده، وجعل هذا التملك حقاً له مكانته وقداسته، فرفض التعدي والجور على حقوق الآخرين، ولكن الإسلام في الوقت الذي أعطى للإنسان فيه حق التملك، قيد هذا الحق، بأن يأتي من طريق صحيح، أباحه الإسلام، وحرم أن يأتي المال من أي باب من أبواب السحت، فإذا جاء المال من طريق حرام، فإن الإسلام يرفضه رفضاً تاماً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾[١]، فالشريعة الإسلامية لا تبيح للإنسان أن يكتسب المال بأي وسيلة، بل حددت طرقاً مشروعة لكسب المال كالبيع والشراء، وحرمت الطرق غير المشروعة، ومنها كسب المال عن طريق الرشوة، والرشوة هي: "ما أعطاه المرء ليحكم له بباطل، أو ليولي ولاية، أو ليظلم له إنسان"[٢]، وهي نوع من أكل أموال الناس بالباطل، وكسب خبيث، لأنها بدون وجه حق، ورضا، وقد تعطي عن رضا ظاهر، إلا أن صاحبها يكره هذا الآخذ للمال ويلعنه، ولذلك فهو يعطيها في الخفاء بعيداً عن أعين الناس، لأنه يشعر في قرارة نفسه، بخطأ ما هو عليه، ولما كانت جريمة الرشوة طريقة من طرق الكسب غير المشروع، فقد نهى الإسلام عنها وحرمها، والإسلام لا يحرم شيئاً إلا وفي هذا التحريم مصلحة للعباد والبلاد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾[٣]، فهذا نهى عن أكل الأموال بالباطل، والأكل بالباطل له أنواع كثيرة، من أخطر هذه الأنواع: الرشوة، ولذلك جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ

---

(١) سورة النساء، من الآية "٢٩".

(٢) المحلى بالآثار، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري المتوفي سنة ٤٥٦هـ، دار الفكر، بيروت، بدون ط ت، ج٨، صـ ١١٨.

(٣) سورة البقرة، من الآية "١٨٨".

تَعۡلَمُونَ ﴾[١]، "أي: لا ترشوها إليهم، لتأكلوا طائفة من أموال الناس بالباطل"[٢]، وذلك للإضرار بحق الآخرين لصالحه، وتفويت الحق على أهله لمن لا يستحقه، ولعظم هذا الأمر فقد لعُن كل من سعى في هذا الطريق، فعن ثوبان - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "لعن الله الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما"[٣]، واللعن والطرد من رحمة الله - سبحانه وتعالى - لا يكون إلا في أمر كبير ضرره، عظيم خطره، وبذلك يكون الإسلام قد حافظ على حقوق الأفراد والجماعات من الضياع، ليربي مجتمعاً فاضلاً، ينال فيه كل واحد ما له من حقوق، ويبذل ما عليه من واجبات، دون ضرر يلحق بالأفراد أو المجتمعات.

ولقد عاقب الله - عز وجل - قوماً عتواً عن أمر ربهم، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وتعاملوا بالرشوة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾[٤]، بتحصيله "من الرشا في الحكم، والمآكل التي يصيبونها من عوامهم، عاقبناهم بأن حرمنا عليهم طيبات، فكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرم عليهم شيء من الطيبات التي كانت حلالاً لهم"[٥]، وفي ذلك تربية للمسلمين على أن يحذروا من هذا النوع من المعاملات فلا يقربوا إليه، لما يترتب عليه من آثار خطيرة على الفرد والمجتمع، من محق للبركة، وتوليد الحقد، والكراهية بين الناس، وتفتيت وحدة المجتمع.

إن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، وهذا ما جعل ملكة سبأ تقوم بإرسال هدية، للتأكد من نبوة سيدنا سليمان - عليه السلام - لحسن مواقع الهدايا في النفوس، كما ذكر القرآن الكريم:﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾[٦]، ولذلك قال قتادة: "يرحمها الله، إن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها، قد علمت أن الهدايا تقع موقعها من الناس"[٧]، ولكن غضب سيدنا سليمان –

---

(١) سورة البقرة، من الآية "١٨٨".

(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ج٥، صـ٢٨٠.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الأحكام، باب وأما حديث ثوبان، ٤/١١٥، رقم ٧٠٦٨، وقال: "وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٤) سورة النساء، الآيات "١٦٠ – ١٦١".

(٥) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج١، صـ٧٢٠.

(٦) سورة النمل، من الآية "٣٥".

(٧) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج١٣، صـ٢٠٠.

عليه السلام - وقال راداً على إرسال هذه الهدية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾(١)، فلم يقبلها، لأنها لم تكن لوجه الله - سبحانه وتعالى - ولم يكن فيها خير، ولكن لصده عن الجهاد والدعوة للدخول في دين الله - سبحانه وتعالى - فلا حاجة له بها، فقد أعطاه الله - عز وجل - الرسالة، والملك، وآته ما لم يؤت أحداً من العالمين، ولقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الهدايا التي تهدي للولاة ومن في حكمهم، محرمة، فعن ابن حُميد الساعدي(٢) - رضي الله عنه - قال: استعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من الأَزْد يقال له ابن الأُتبِية(٣) - رضي الله عنه - على الصدقة، فلما قدم، قال: هذا لكم، وهذا أُهدى إلى، قال: "فهلا جلس في بيت أبيه، أو بيت أمه فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأخذ أحد منه شيئاً، إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، وإن كان بعيراً له رغاء(٤)، أو بقرة لها خوار(٥)، أو شاه بَتعَر(٦)،

---

(١) سورة النمل، من الآية "٣٥".

(٢) هو أبو حميد الساعدي الأنصاري، اختلف في اسمه، فقيل: المنذر بن سعد بن المنذر، وقيل: عبد الرحمن بن سعد بن المنذر، وقيل: عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن المنذر، وقيل: عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن المنذر، وقيل: عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن المنذر، وقيل: عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن مالك الخزرجي، وأمه أمامة بنت ثعلبة بن جبل بن أمية الخزرجية، شهد أحداً وما بعدها، وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عدة أحاديث يعد في أهل المدينة، وتوفى في آخر خلافة معاوية، وقيل: أول خلافة يزيد بن معاوية، "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، ابن عبد البر، مرجع سابق، ج٤، صـ١٦٣٣، وينظر أيضاً "أسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٦، صـ٧٥.

(٣) هو عبدالله بن الأتبية، وقيل: ابن اللتبية الأزدي، استعمله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الصدقة، روي عنه أبو حميد الساعدي، "معرفة الصحابة" أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصفهاني، المتوفي سنة ٤٣٠هـ، تحقيق: عادل يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرباط، ط١، سنة ١٤١٩هـ، سنة ١٩٩٨م، ج٦، صـ٣٠٦٥، وينظر أيضاً "أسد الغابة"، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٦، صـ٣٣٩.

(٤) الرغاء: صوت الإبل، "لسان العرب"، ابن منظور، مرجع سابق، ج١٤، صـ٣٢٩.

(٥) الخوار: صوت البقرة: "لسان العرب"، ابن منظور، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٦١.

(٦) بتعر: من البعر، وهو رجيع الخف والظلف من الإبل والشاء وبقر الوحش، لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج٤، صـ٧١.

ثم رفع بيده حتى رأينا غفرة إبطيه[١] "اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت، ثلاثاً"[٢]، وبذلك يكون قد حرم الإسلام أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الرشوة وما في صورتها كالهدايا التي تُعطى لبعض أصحاب النفوذ، ليصل صاحبها إلى غرضه، لما يترتب عليها من الفساد، والأضرار، سواء للراشي الذي يحول دون وصول الحق لأهله، أو نال شيئاً ليس من حقه بعد ضياعه لحقوق غيره، وكذلك بالنسبة للمرتشي، لأنه سيعتاد على ذلك، ولا يمكن أن يقدم معروفاً لأحد، ولا أن ينجز عملاً لوجه الله – ﷻ –، فيصير عبداً للمال والدنيا، ولا يعين مظلوماً، لا يغيث ملهوفاً، وكذلك تضر بالمجتمع، فتتفتت وحدته، وينتشر الظلم، والبغضاء بين أفراده، وتدمير لاقتصاده، ولذلك فقد شدد الإسلام في تحريمها، والتحذير منها.

---

(١) غفرة إبطية، بضم العين المهملة، وسكون الفاء، وفتح الراء، آخره تأنيث، أي: بياضهما المشوب بالسمرة "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني، مرجع سابق، ج٤، صــ٣٤٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب من لم يقبل الهدية لعلة، ٣/١٥٩، رقم ٢٥٩٧، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال ٣/١٤٦٣، رقم ١٨٣٢.

المبحث الثالث

أثر التربية الوقائية في إصلاح الواقع الدعوي للدعاة

إن الدعوة لا يمكن أن تقوم بالدور المنوط بها، إلا إذا وُجد الداعي الذي ينأى بالناس عن مزالق الخطر والضلال، والداعي هو "المبلغ للإسلام، والمعلم له، والساعي إلى تطبيقه"[١]، فهو محور العملية الدعوية، والعنصر الأهم فيها، وهو الذي ينقل أحكام الإسلام، ويحث عليها، ويحذر من مخالفتها، ولقد عانى بعض الدعاة من اضطراب في التصور والمنهج، وتقصير في الدعوة، مما أثر سلباً على الساحة الدعوية، وحدث تراجع في مجال الدعوة إلى الله – ﷻ – فلم يؤد بعض الدعاة دورهم المنوط بهم على أكمل وجه، لذا فقد أصبح من الضروري ذكر لمحة سريعة عن واقع بعض الدعاة، لتقويمه ومعالجته.

أولاً: لمحة موجزة عن الواقع الدعوي المعاصر المراد تغييره عند بعض الدعاة

إن المتأمل في واقع الأمة الإسلامية في هذه الأيام، يجد بعض الأزمات التي لحقت بها، وأصابت بنيانها في جوانب عدة، ومن هذه الجوانب ما وصل إليه حال بعض الدعاة إلى الله – ﷻ – من الوهن والضعف في القيام بدورهم، إلى مستوى يندى له الجبين، مع أنهم قادة الأمة، ومرشدوها نحو الخير والصلاح، فهناك بعض الدعاة يظنون أن مجرد حفظ الموضوع، وقوة إلقائه، وبلاغة تعبيره، كافٍ لأن يصير الإنسان داعية مميزاً، يشار إليه بالبنان، ولكن هذه الأمور رغم أهميتها، وحاجة الدعوة إليها، إلا أنها لا قيمة لها، ولا فائدة منها، إذا لم تتوج بفهم صحيح، وإلا انعكس ذلك على المدعوين بالآثار السلبية الضارة، التي تعرقل طريق الدعوة، وتنفر المدعوين، لأن انحراف الفهم عند بعض الدعاة يجلب المفاسد، ويفوت كثيراً من المصالح، فكم من مضرة حدثت بسبب سوء الفهم؟ كمن يؤذي السائحين وغيرهم ممن لهم عهد وذمة، باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لاستشهاده بنصوص وضعها في غير موضعها، وكمن ينصب نفسه قاضياً على الناس، بدلاً من أن يكون داعية رحيماً، بل ربما وقع في الكبائر باسم الدين، كمن سفك دم آخرين بدعوى أنهم مبتدعة مخالفون له في المنهج، وهتك حرمة دور العبادة، وغير ذلك من الأمور التي جَرَّت على المسلمين أذى كثيراً، لا يعلمه إلا الله – ﷻ – وفوق ذلك كله، تشويه صورة الإسلام والمسلمين في عيون المدعوين، مما يجعلهم

---

(١) مدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـ٤٠.

ينفرون من الإسلام، ويصفونه بالإرهاب والوحشية، وحب التشبع من القتل والدماء، ولهذا كله "يحتاج الداعي إلى الله في أداء مهمته ورسالته التي هي في الأصل مهمة رسل الله إلى عُدةٍ قويةٍ من الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والاتصال الوثيق بالله – ﷻ – هذه هي مقومات عدة الداعي وأركانها، وإذا فقدها لم يغن عنها شيء آخر، وإذا ضعفت معانيها في نفسه فعليه أن يقويها"[١]، حتى يؤثر في المدعوين، وحتى تؤتي الدعوة ثمارها المرجوة منها، لأن الدعوة إلى الله – ﷻ – مسئولية كبيرة، تستوجب ممن يقوم بها، أن يتفقه في دين الله – ﷻ – لينذر قومه، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الاستقامة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[٢].

لقد ذهب بعض الدعاة إلى محاسبة الناس، والحكم عليهم بأمور لا يعلمها إلا الله – ﷻ – كالدخول في الجنة أو النار، في الوقت الذي أُمروا فيه بدعوة الناس وهدايتهم، ولذلك فقد نفى سيدنا نوح – عليه السلام – عن نفسه أموراً لا يعلمها إلا الله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣]، ومنهم من يتصدى للفتوى في أمور لو عُرضت على أحد من الصحابة الكرام لأحجم عنها، وجمع لها كبار صحابة رسول الله – ﷺ – ليرى فيها ما يوافق الإسلام ، وإذا لم يقل أحد بفتوى هؤلاء، لاستهزأوا به، واتهموه باتهامات باطلة، ربما تصل إلى حد الخروج من الإسلام، والعياذ بالله، لأن ذلك من الأمور البديهية، المسلمة عندهم.

إن من آفات بعض الدعاة اليوم، التعمد في استخدام بعض الأساليب المعقدة التي لا يفهمها كثير من الناس، وذلك باختيار الكلمات الصعبة التي لا يعيها السامع، بل يحتاج إلى وجود قاموس لغوي معه ليعرف من خلاله ما يقصده الداعية، فلا يخرج بفائدة تذكر من دعوته، فسهولة الأسلوب وبساطته تدفع الناس إلى التأثر والاستجابة، لأن النفوس جبلت على بغض التكلف والتشدق والنفور منه لذا "يجب أن يكون القول واضحاً بيناً لا غموض فيه، ولا إبهام، مفهوماً

(١) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٣٢٥.

(٢) سورة التوبة الآية "١٢٢".

(٣) سورة هود الآية "٣١".

عند السامع، لأن الغرض من الكلام إيصال المعاني المطلوبة إلى من يكلمه الداعي، فيجب أن يكون واضحاً غاية الوضوح، ولهذا أرسل الله رسله بألسنة أقوامهم، حتى يفهموا ما يدعونهم إليه، ويستطيعون بيانه إليه"(١)، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾(٢)، والدعاة الآن بأمس الحاجة إلى ترتيب أوراق دعوتهم منهجياً أكثر من أي وقتٍ آخر، لأن الأزمة التي يعانيها الخطاب الدعوى عند بعض الدعاة اليوم، يعود إلى عدم وضوح المنهج عندهم في طريق دعوتهم، مما أدى إلى جهل بعض الناس بأمور دينهم، لأنهم يخاطبون بما لا يعقلون، أو ما هو فوق مستواهم، بأسلوب معقدٍ عالٍ على أفهامهم، مما كان سبباً في صد كثير من الناس عن قبول الدعوة والإعراض عنها، وهذا ليس من الحكمة في شيء.

إن من الخطأ ما يفعله بعض الدعاة اليوم من الاهتمام بشعبة من شعب الإيمان، ويرى فيها الدين كله، فيجعلها محور دعوته، ولا يلتفت إلى غيرها، ويرتحل ويقيم من أجلها، وكأن الدين محصور في هذه القضية، وهذا خطأ كبير، لأن الدين لا ينحصر في شعبة واحدة من شعبه، ومن تأمل في دعوة الرسل – عليهم السلام – أدرك تناولهم لشعب الإيمان المختلفة "ومع التركيز على المفاسد الرئيسية الموجودة: لم يهمل الرسل أي جانب في بيئتهم، فكانوا يشجعون الصالح، ويحاولون منع سائر المفاسد الضارة بالمجتمع والناس"(٣)، فسيدنا نوح – عليه السلام – دعا قومه إلى عبادة الله – سبحانه وتعالى – ونهاهم عن عبادة الأصنام، ومع ذلك فلم يهمل الجوانب العملية في حياة قومه كالزراعة مثلاً، فربطها بالإيمان، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾(٤)، وكذلك دعا سيدنا إبراهيم – عليه السلام – بالأمن والزيادة في الرزق، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٥)، ولذا كان من الخطأ ما يفعله البعض اليوم ممن يحفظون خطبة معينة، ثم يلقونها في كل زمان ومكان على كل المدعوين دون تغيير في ألفاظها وأساليبها، رغم اختلاف مستويات المدعوين، وعليه فإن الدعاة بحاجة إلى التعامل مع مختلف القضايا والمستجدات التي تخص الأمة وتشغل بالها،

---

(١) المرجع سابق، صـ٤٧١.

(٢) سورة إبراهيم من الآية "٤".

(٣) دعوة الرسل عليهم السلام، غلوش، مرجع سابق، صـ٥٢٢.

(٤) سورة نوح الآيات "١٠ – ١٢".

(٥) سورة البقرة الآية "١٢٦".

مع معالجة الأدواء التي يعانون منها، ولذلك فقد كان من مهمات سيدنا موسى - عليه السلام - تحرير بني إسرائيل من ظل العبودية لغير الله، فكم من داع علا صوته، واحمر وجهه؟ وهو يدعو الناس إلى أمور بعيدة كل البعد عن اهتمام الناس، ومعاناتهم، مما أدى إلى نفور الناس من حوله، لأن الدعوة تحتاج إلى الابتكار في كيفية العرض بثوب جديد محبب لدى الناس لإيصال الدعوة إليهم، فالابتكار سبب رئيس من أسباب النجاح، حتى في حياة الناس العامة، فالأمور التقليدية غالباً ما تصاب بالإخفاق.

هناك بعض الدعاة امتن الله - عز وجل - عليهم بحسن التأثير، والوصول إلى قلب المدعوين، إلا أنهم لم يستطيعوا القيام بعبء الدعوة، نظراً لقلة ذات اليد، فيلجأون إلى طلب الرزق، لاكتفاء أمورهم الحياتية، والدعوة تحتاج إلى شيء من التفرغ للاطلاع، مما يؤدي إلى ضعف دورهم، وتقصيرهم في عملهم، وقد يكون ذلك ذريعة للهروب من عبء الدعوة، والتفلت من القيام بمهامها.

هذه لمحة سريعة عن الواقع الدعوي المعاصر لبعض الدعاة مما يجعل الأمر يحتاج إلى معالجة وتقويم حتى تؤتي الدعوة ثمارها.

ثانياً: أثر التوجيهات الوقائية في تغيير الواقع الدعوي للداعيين

لقد جاء الإسلام ببعض التوجيهات الوقائية التي تعين الدعاة على إتمام رسالتهم، وتبليغها حق البلاغ، لما لهم من دور هام وخطير، لأنهم ورثة الرسل والأنبياء - عليهم السلام - في تبليغ رسالة الإسلام، لذا فقد أصبح من الضروري إيجاد دعاة إلى الله - سبحانه وتعالى - على أسس علمية ومنهجية معتدلة، لهداية الضالين، واستقامة المنحرفين ومن هذه الأسس ما يلي:-

١- تهيئة الدعاة وإعدادهم

الدعاة إلى الله - عز وجل - هم المبلغون عن الله - سبحانه وتعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - أحكام الشرع، فهم الذين ينقلون تعاليم الإسلام، ويوضحونها للناس، وهم بذلك يشكلون عقولهم، وبقدر ثقافتهم تكون ثقافة الأمة، لذا كان من الضروري الاهتمام بإعدادهم، وتهيئتهم للقيام بهذا العمل، حتى يتقنوا عرض الدعوة، ويستميلوا المدعوين إليهم، وحتى لا تضيع الأمة بأسرها، فهم كالأطباء الذين يعالجون الناس، ويرشدونهم إلى الوقاية من العلل والأسقام، ولا يمكن أن يكونوا كذلك إلا بعد إعدادهم، وتدريبهم تدريباً دقيقاً لهذه المهمة التي يقومون بها، ولذلك فقد بين سيدنا نوح - عليه السلام - لقومه إنه على علم ومعرفة من قبل الله - سبحانه وتعالى -، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾[1]، فبين لهم أنه على علم ومعرفة وبيان من الله لما

([1]) سورة هود الآية "٢٨".

يجب عليه من مهام الدعوة، كذلك وضح سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لأبيه آزر إنه جاءه علم من الله – تعالى –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[١]، وإذا كان الإعداد واجباً للطبيب، فإن الداعية إلى الله – عز وجل – أولى بذلك الإعداد "لأن ما يقوم به من الدين منسوب إلى رب العالمين، فيجب أن يكون الداعي على علم وبصيرة بما يدعو إليه، وبشرعية ما يقوله ويفعله ويتركه، فإذا فقد العلم المطلوب واللازم له كان جاهلاً بما يريد، ووقع في الخبط والخلط والقول على الله ورسوله بغير علم، فيكون ضرره أكثر من نفعه، وإفساده أكثر من إصلاحه، وقد يأمر بالمنكر وينهي عن المعروف، بجهله بما أحله الشرع وأوجبه، وبما منعه وحرمه"[٢]، وبذلك يصاب الداعية بالإخفاق والخيبة في تحقيق مقاصد الدعوة وأهدافها.

- إن من العوامل الهامة والمؤثرة في نجاح الدعوة، اختيار الداعية، فهو حجر الزاوية فيها، فلابد وأن يُختار اختياراً دقيقاً حتى يتحقق الهدف من الدعوة، وهو إصلاح الناس وهدايتهم، وهذه هي مهمة الأنبياء والرسل – عليهم السلام – الذين اختارهم الله – عز وجل – واصطفاهم من الناس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[٣]، ولقد بين الله – عز وجل – إنه اختار واصطفى سيدنا موسى – عليه السلام – – كغيره من الرسل –، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِي وَبِكَلَـٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[٤]، ولقد قال الله – تعالى – عن سيدنا موسى – عليه السلام –: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾[٥]، أي: "اصطفيتك لرسالتي، واجتبيتك لتكون سفيراً بيني وبين خلقي، وما أغلى هذه الكلمة التي خوطب بها نبي الله موسى، ولو كانت من عظيم من عظماء الدنيا، أو ملك من ملوكها، لكان لها قيمتها في نفس رجل قيلت له، فكيف وقد قيلت من ملك الملوك: خالق السماوات والأرض"[٦] ولما كانت الدعوة هي مهمة الرسل – عليهم السلام – والدعاة هم خلفاء الرسل – عليهم السلام – في أداء هذه المهمة، كان لزاماً على الهيئات المسئولة عن الدعوة، أن يحسنوا اختيار الدعاة،

---

(١) سورة مريم الآية "٤٣".
(٢) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص٣٢٦
(٣) سورة القصص، من الآية ٦٨
(٤) سورة الأعراف الآية "١٤٤".
(٥) سورة طه الآية "١٣".
(٦) دعوة الرسل إلى الله تعالى، العدوي، صـــ٢٣٥.

وأن يعملوا على تأهيل أجيال منهم، لهم كفاءة عالية، لأنهم يبنون النفوس، ويهذبونها على أساس سليم، ومنهج قويم، إذا أتيحت لهم الفرصة، ولا يتم ذلك إلا حينما يؤهل جيل من الدعاة يسيرون على مبادئ علمية، ويكونوا بمثابة طلائع النور في مجتمع طال عليه الظلام، ولذلك فقد أوجب الله – عز وجل – على الأمة أن تهيء طائفة من بين أفرادها، ليقوموا بالدعوة إليه عن علم ووعي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1]، فهذا حض من الله – عز وجل – بتخصيص جماعة من المسلمين للقيام بالدعوة، هذه الجماعة لابد وأن تكون معدة إعداداً يناسب هذه المهمة الكبرى، ولذلك فقد سأل سيدنا موسى – عليه السلام – ربه عدة أمور ليتهيأ لهذه المهمة الكبرى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[2]، فسيدنا "موسى – عليه السلام – لما سأل ربه تلك الأمور الثمانية وكان من المعلوم أن قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل إلا بإجابته إليها لا جرم أجابه الله – سبحانه وتعالى – ليكون أقدر على الإبلاغ على الحد الذي كلف به"[3]، ولذلك فقد قام الأزهر الشريف جامعةً وجامعة بتهيئة الدعاة وإعدادهم إعداداً كبيراً يتناسب مع مهمته في الحياة، فيقوم بين الحين والآخر بتطوير المناهج التي تدرس فيه، ومراجعتها بأسلوب يتناسب مع العصر، والتقدم العلمي، كذلك يعقد دورات تدريبية بالتعاون مع وزارة الأوقاف لتمكين الدعاة من أداء مهمتهم على الوجه الأكمل، وكذلك يهتم اهتماماً بالغاً بعقد الدورات والندوات التي تدعوا لتجديد الخطاب الديني، ليتماشى مع واقع الناس ولذلك فإنه يقوم بإرسال البعثات إلى بلاد العالم كله ليعلموا الناس أمور دينهم بل ودنياهم حتى في البلاد التي نزل فيها الوحي، من أجل تهيئة الدعاة، وإعدادهم إعداداً جيداً، حتى يصمدوا أمام التحديات، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، والنبي – صلى الله عليه وسلم – كان يقوم بإرسال الدعاة في القرى والأمصار، هؤلاء الدعاة كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يهتم باختيارهم أعظم اهتمام، وقد شهد المدعوون للنبي – صلى الله عليه وسلم – على حسن اختياره لهؤلاء الدعاة،

---

(1) سورة التوبة الآية "١٢٢"

(2) سورة طه الآيات "٢٥ – ٣٢"

(3) تفسير الرازي، ج٢٢، صـ٤٦.

فقد قال المقوقس[١]، لحاطب بن أبي بلتعة[٢] "أنت حكيم قد جاء من عند حكيم"[٣]، ولذلك فقد تعين أن يُختار الدعاة إلى الله – ﷻ – من بين أفراد الأمة اختياراً دقيقاً، حتى يكونوا قادرين على التوجيه والإقناع، وتفنيد الشبهات التي تثار حول الإسلام.

إن الناظر إلى واقع بعض الدعاة الآن، يرى الوهن والضعف في حالهم، وتراجع دورهم، وعدم قدرتهم على مواجهة التحديات، لأن الدعوة لابد وأن تقوم على علم وبصيرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾[٤]، فهما زاد الداعية، عالماً به، ولا يمكن للداعية أن يُوصّل دعوته للناس، ويقنعهم بها، إذا لم تتضح عنده الرؤية إلى ما يدعو إليه، وهذا يوجب على الداعية "العلم قبل العمل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[٥] فقدم العلم على العمل، والواقع أن تقديم العلم على أي عمل ضروري للعامل، حتى يعلم ما يريد، ليقصده ويعمل للوصول إليه"[٦]، ولذلك خاطب سيدنا إبراهيم وأباه بقوله: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[٧] وهذا يدل على أن الإعداد والتأهيل أمر لا غنى عنه لأي داعية يهيئ نفسه لينفع الأمة.

---

(١) المقوقس بفتح القاف، وسكون الواو، وكسر الثانية بعدها مهملة، هو لقب، واسمه جريج بن مينا بن قرقب، ومنهم من لم يذكر مينا، وهو أمير القبط بمصر من قبل ملك الروم، وذكره ابن مندة في الصحابة، فقال: مقوقس صاحب الإسكندرية، وقد أنكر ابن الأثير ذكره، فقال: لا مدخل له في الصحابة، فإنه لم يسلم وما زال نصرانياً: ومنه فتح المسلمون مصر في خلافة عمر، "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٦، صـ٢٩٥.

(٢) هو حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي، حليف بني أسد بن عبد العزي، يقال إنه خالف الزبير، وقيل كان مولى عبيد الله بن حميد بن زهير فكاتبه فأدى مكاتبته، اتفقوا على شهوده بدراً، وكان حاطب رجل من أهل اليمن، وكان من أصحاب رسول الله – ﷺ –، وقال المزرباني في معجم الشعراء: كان أحد فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها، مات في سنة ثلاثين في خلافة عثمان، وله خمس وستون سنة، "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٢، صـ٤.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ج٣، صـ٣١٠.

(٤) سورة يوسف، من الآية "١٠٨".

(٥) سورة محمد، من الآية "١٩".

(٦) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٣٢٦.

(٧) سورة مريم الآية "٤٣".

- لقد أمر الله – ﷻ – رسوله – ﷺ – بالطاعات والعبادات، توطئة للدعوة، وإعداداً للقيام بهذه المهمة الشاقة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾(١)، فالمدعوين ثقافتهم مختلفة، فلابد أن يشبع هذه الثقافات، وليس بالضرورة أن يكون عالماً جامعاً بكل العلوم "ولكن العلم ليس شيئاً واحداً لا يتجزأ ولا يتبعض، وإنما هو بطبيعته يتجزأ ويتبعض، فمن علم مسألة وجهل أخرى، فهو عالم بالأولى، جاهل بالثانية، ومعنى ذلك أنه يعد من جملة العلماء بالمسألة الأولى، وبالتالي يتوفر فيه شرط وجوب الدعوة إلى ما علم دون ما جهل"(٢)، وكل دعوة لا تقوم على أساس العلم، هي دعوة ناقصة، ضررها أكثر من نفعها، ولذلك خاطب الله – سبحانه وتعالى – سيدنا نوحاً – عليه السلام – ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾(٣).
- إن المتأمل في دعوة الرسل –عليهم السلام– يجد أنهم كانوا يبتغون بدعوتهم وجه الله –سبحانه وتعالى–، وتحقيقاً لأداء الرسالة المنوطة بهم، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولذلك كان موقفهم حاسماً على من كذبوهم حينما اعتقدوا أن الرسل – عليهم السلام – ما خالفوا ما هم عليه إلا لطمع دنيوي، وعرضوا عليهم من أمور الدنيا، ولكنهم أخبروهم أنها دعوة خالصة لوجه الله – سبحانه وتعالى – ولم يدعوا لأجل شيء دنيوي، وكان شعار الواحد منهم كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٤)، ولقد نطق بها سيدنا نوح – عليه السلام – فقال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾(٥)، فالدعوة إذا أصبحت وسيلة لتحقيق مصلحة شخصية، أو حرفةً يكتسب بها الأموال، انحرفت عن مسارها الصحيح، وفقدت التأثير والقبول، فلابد وأن تكون مجردة عن الهوى، وحب الشهرة، بل يريد بها وجه الله – سبحانه وتعالى –، وهذا هو ما وضحه الرجل الذي جاء من أقصى المدينة لقومه بأن المرسلين لا يطلبون أجراً

---

(١) سورة المزمل الآيات "١ – ٥".

(٢) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٣١٢.

(٣) سورة هود الآية "١١".

(٤) سورة هود الآية "٥١".

(٥) سورة هود الآية "٢٩".

على ما جاء به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[١] وهذا يوجب على الداعية "تطهير قلبه من جراثيم الرياء، تطهيراً كاملاً، بتجريد الإخلاص لله رب العالمين، بحيث لا يبقى فيه أي تلفت إلى الناس، وطلب السمعة عندهم، أو طلب مرضاتهم على حساب النهج الصحيح للدعوة، إن الداعي قد ينحرف عن النهج الصحيح لما يسمعه من ضجيج الناس، ومن صياحهم، أو من رغبة أصحابه في التساهل في معاني النهج الصحيح، والذي يعينه على الثبات والاستقامة، وعدم الخروج على النهج الصحيح، إخلاصه الكامل التام الذي لا يلتفت إلى أي من دواعي الخروج"[٢]، ولذلك فقد أمر الله – ﷻ – رسوله – ﷺ – بالدعوة إليه وحده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[٣]، وذلك بإضافة الدعوة إلى لفظ الجلالة (الله)، وقال أيضاً: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٤] بالإضافة إلى لفظ (الرب) للدلالة على أن الدعوة لابد وأن تكون خالصة لله – سبحانه وتعالى – وحده، فهذا يبين أن الإخلاص هو أساس أي داع.

فلابد لمن يتصدى للعمل بالدعوة إلى الله – سبحانه وتعالى – أن يكون مؤهلاً تأهيلاً دقيقاً لذلك، متصفاً بالأخلاق الحميدة، لأن هناك بعض المدعوين، قد لا ينظرون في بداية الأمر إلى مضمون الدعوة، ولا إلى ما يُدعون إليه، بقدر نظرهم إلى خلق الداعي أولاً، فإذا أعجبهم أخذوا عنه، وإن لم تعجبهم أخلاقه، تركوه ودعوته، وإذا حدث أي خلل في إعداد الداعية، وتأهيله، فلا يعرف النجاح طريقه إلى الدعوة.

٢- مراعاة أحوال المدعوين

إن المدعوين اليوم جماعات شتى، وأمم مختلفة، كل جماعة منهم لها توجيهاتها الفكرية، ومشاربها الخاصة بها، فضلاً عن اختلافهم وتباينهم في الخِلْقة واللون والجسم، مع اشتراكهم في الخصائص والصفات البشرية الثابتة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ

---

(١) سورة يس الآيات "٢٠ – ٢١".
(٢) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٤١٩.
(٣) سورة يوسف من الآية "١٠٨".
(٤) سورة الحج من الآية "٦٧".

دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾[١]، ولقد أكد النبي – ﷺ – أن معادن الناس متفاوتة، وأن هذا التفاوت من سنن الله – ﷻ – في خلقه، فعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ – إن الله – تبارك وتعالى – خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنوا آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب"[٢]، فهذا الحديث يبين مدى تفاوت الناس، واختلافهم في أشكالهم وألوانهم وجوهرهم، هذا التفاوت بين البشر ليس في الخلقة، واللون، والجنس فحسب، ولكنه في الفكر والطباع، فالناس متباينون في ذلك، فمنهم الذكي، ومنهم الأقل ذكاءً، ومنهم من لا يكاد يُبين، وقد أقر النبي – ﷺ – ذلك أيضاً، فعن أبي بكرة[٣] – رضي الله عنه –، قال: خطبنا رسول الله يوم النحر، فكان مما قال: "فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"[٤]، فالإدراك العقلي يختلف من شخص لآخر، هذا التفاوت والاختلاف واضح في البشرية جمعاء، لذلك فقد حرص الإسلام على تقديم ما يناسب المدعوين "ويراعي الفروق الفردية بينهم، حتى لا يرهق المتعلم بأشياء يصعب عليه فهمها وأداؤها، لأنها فوق إدراكه، ولا تتفق مع استعداده"[٥]، بل لابد وأن تكون مناسبة لإدراكه وفهمه.

لقد أنزل الله – ﷻ – القرآن الكريم محتوياً على التشريعات، هذه التشريعات لم تنزل دفعة واحدة على النبي – ﷺ – ليبلغها لأتباعه مرة واحدة، ولكنها نزلت مفرقة على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، ولم تنزل عليه دفعة واحدة، لأن الناس يحتاجون إلى وقت ومراحل للإقلاع عن السلوكيات المذمومة، هذه المراحل لا تتحقق من يوم وليلة، كما حدث في تحريم الخمر، فكان أول ما نزل في تحريمها قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ

---

(١) سورة الإسراء، الآية "٢١".

(٢) رواه الترمذي في سننه، في أبواب تفسير القرآن من رسول الله – ﷺ – باب ومن سورة البقرة، ٢٠٤/٥ رقم ٢٩٥٥ وقال "هذا حديث حسن صحيح".

(٣) هو نفيع بن الحارث، ويقال: ابن مسروح بن كلده بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزي الثقفي، مشهور بكنيته، كان من فضلاء الصحابة، سكن البصرة ، وكان تدلى إلى النبي – ﷺ – من حصن الطائف بكره فاشتهر بأبي بكرة، توفى بالبصرة سنة إحدى وخمسين، وقيل اثنتين وخمسين، وأوصى أن يصلي عليه أبو برزة الأسلمي، "الإصابة في تمييز الصحابة"، ابن حجر، مرجع سابق، ج٦، صـ٣٦٩.

(٤) رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ١٧٦/٢، رقم ١٧٤١.

(٥) التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، عاطف السيد، مرجع سابق، صـ٣٩.

لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا ﴾(١) لكن لم يأمر باجتنابها باللفظ الصريح، ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾(٢)، وكان هذا تحريماً مؤقتاً بحال الصلاة، ثم نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(٣)، فجاء التحريم باتاً، فكان في ذلك مراعاة لأحوال المخاطبين، لأن شرب الخمر قد تغلغل في نفوس بعضهم، ومن الصعب اجتنابه مرة واحدة، ولذلك فقد قالت السيدة عائشة – رضي الله عنها –: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أوّل شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً"(٤) "وذلك لما طُبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف، فاقتضت الحكمة الإلهية ترتيب النزول على ما ذكر"(٥)، فجاءت أحكام التشريع مراعاة لأحوال الناس، وهي تحمل التيسير ورفع المشقة عنهم، كذلك لم يرسل الله – ﷻ – رسولاً إلا بلسان قومه، مراعاة لأحوالهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾(٦)، وكون النبي – ﷺ – يتكلم بلسان قومه، مراعاة لأحوال المدعوين الذين بعث إليهم، فيخاطبهم بما يناسبهم، وما يحتاجون، فهو منهم يعرفهم ويعرفونه، ويعرف طبائعهم وما هم عليه، فهو أقدر على التأثير فيهم، لأنه أعرف الناس بهم وبأخلاقهم، ولقد أمر الله – ﷻ – نبيه – ﷺ – بالقيام بالدعوة بطرق متنوعة مراعاة لأحوال المدعوين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾(٧)، هذه الطرق

---

(١) سورة البقرة، الآية "٢١٩".

(٢) سورة النساء، الآية "٤٣".

(٣) سورة المائدة، الآية "٩٠".

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ٦/١٨٥، رقم ٤٩٩٣.

(٥) إرشاد البخاري، شرح القسطلاني، مرجع سابق، ج٧، صــ٤٥٣.

(٦) سورة إبراهيم الآية "٤".

(٧) سورة النحل من الآية "١٢٥".

الثلاث: وهي: الحكمة[١]، والموعظة الحسنة[٢]، والجدال بالتي هي أحسن، تستخدم مع أصناف المدعوين المختلفة حسب ما يوافق حالهم، فكان النبي - ﷺ - ينوع في كلامه، فتارة يكون مجيباً على سؤال المدعو، وتارة يكون سائلاً له، وأخرى بالرعاية، وغيرها بضرب الأمثال، مما يدلل على تنوع طرق الدعوة إلى الله - تعالى - وقد استخدم سيدنا نوح - عليه السلام - الوسائل المتعددة والأساليب المتنوعة، كان يدعوهم ليلاً ونهاراً، مرة جهراً وأخرى سراً، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[٣]، فمراعاة أحوال المخاطبين تتطلب التنوع في أسلوب الدعوة، لأن المدعوين منهم من يتأثر بالعاطفة، ومنهم من يتأثر بالعقل، ومنهم من يحتاج إلى ترغيب، وآخر إلى ترهيب، ومن الحكمة أن تراعي طبائع الناس، فيخاطب كل صنف بما يناسبه، "فعلى الداعية أن يكون حكيماً في أسلوب دعوته، يختار لمن يدعوهم الأسلوب الحسن المناسب، فيضع كل أسلوب في محله، والحكيم هو من يحسن الاختيار، ويضع كل شيء في محله"[٤]، وإلا باءت دعوته بالضعف، لأن من أسباب ضعف بعض الدعاة في بعض الأحيان، عدم التبصرة بمراعاة أحوال المخاطبين، والدعوة كالدواء، لابد من وضعه في محله، وهذا لا يكون إلا بعد معرفة حالة، وما يناسبه، والداعية كالطبيب الذي يعالج المرضى بتقديم الدواء المناسب النافع بعد التشخيص الصحيح للمريض، وبكمية محدودة، وفي وقت محدود، حتى لا يزداد المريض مرضاً، أو يفقد الحياة بسبب التشخيص الخاطئ، الذي يترتب عليه وصف العلاج غير المناسب، أو ينفر منه ولا يأتي إليه مرة أخرى لعدم قدرته على التشخيص الصحيح، ولذلك فقد استخدم سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أسلوب التدرج في إبطال عبادة الكواكب ولم يبطلها مرة واحدة حتى لا ينفروا من حوله، وكذلك فعل سيدنا موسى - عليه السلام - مع فرعون في إثبات الألوهية لله - تعالى -.

---

(١) الحكمة هي: "الأسلوب الذي يضع الشئ موضعه، فيكون أسلوب الحكمة شاملاً لجميع الأساليب الدعوية من هذا الوجه"، المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـ٢٤٥.

(٢) الموعظة الحسنة في الاصطلاح الدعوي ترادف النصيحة وهي القول الصريح اللطيف اللين، المرجع السابق، صـ٢٥٩.

(٣) سورة نوح الآيات "٥ - ٩".

(٤) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـ١٦٠.

لقد كانت عناية النبي - ﷺ - بمعرفة أحوال المخاطبين كبيرة، تحقيقاً للحكمة التي أمره الله - ﷻ - أن يسلكها في طريق دعوته للناس، ومن الحكمة أن يخاطبهم بما يناسبهم، فإن ذلك أدعى إلى القبول والإتباع، ولذلك فقد اختلفت أجوبة النبي - ﷺ - على أسئلة بعض الناس، مع كون السؤال واحداً، وهذا من باب معرفة خصائص الناس وطباعهم، واختيار ما يناسب أحوالهم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: "كنا عند النبي - ﷺ - فجاء شاب فقال يا رسول الله أُقَبِّل وأنا صائم؟ قال لا، فجاء شيخ فقال: أُقَبِّل وأنا صائم؟ قال: نعم. قال: فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله - ﷺ -: "قد علمت لِمَ نظر بعضكم إلى بعض؟، إن الشيخ يملك نفسه"(١)، وهذا الحديث يدل على مراعاة النبي - ﷺ - لأحوال الناس من خلال تفريقه بين الشاب والشيخ، ولمعرفته خصائص كلٍ منهما، فرخص لمن يملك نفسه وهو الشيخ الكبير، لأن الغالب فيه انكسار الشهوة، وهو أقدر على ملك إربه، ولا يُخشى عليه من الفتنة، أما النهي فكان للشاب، لأن الغالب عليه هيجان شهوته، فلا يملك نفسه، وهذا يدل على أن اختلاف الأجوبة في هذا الحديث وأمثاله راجع إلى اختلاف الأحوال، فكان النبي - ﷺ - يتخذ لكل حال ما يلائمه ويناسبه.

إن لكل مرحلة عمرية سماتها الخاصة بها، والتي تستوجب معاملة خاصة لها، تختلف عن غيرها من المراحل، وإذا كان الأمر كذلك "فإن الأساليب الدعوية تختلف من وقتٍ إلى آخر، ومن حالٍ إلى حالٍ، وذلك بحسب المقتضيات والأزمان، فقد يصلح أسلوب دعوي مع شخص معين في حال معينة أو عمر معين"(٢)، ومن هنا جاء الإسلام مراعياً لكل الأعمار، مراعياً كل مرحلة بما يناسبها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾(٣)، ولذلك كانت معاملة النبي - ﷺ - تختلف باختلاف المراحل العمرية، فما يصلح للتعامل مع الأطفال قد لا يصلح مع الشباب والشيوخ، فلكل واحد منهم طريقته في الدعوة، فمرحلة الطفولة يليق بها المداعبة والملاطفة، والرفق واللين، فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال: "كان رسول الله - ﷺ - يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ثم يقول «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما"(٤)، وهنا تظهر الشفقة والرحمة على

---

(١) سبق تخريجه، صــ١١٠.

(٢) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صــ٢٧٨.

(٣) سورة الروم، الآية "٥٤".

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب وضع الصبي على الفخذ، ٨/٨، رقم ٦٠٠٣.

الأطفال، بخلاف مرحلة الشباب، فهي مرحلة القوة والنشاط، ولذلك كان يسخرها النبي - ﷺ - في الأعمال الهامة التي لا يقدر عليها إلا الشباب، كإمارة الجيش لسيدنا أسامة بن زيد - رضي الله عنه - ، أما مرحلة الشيخوخة والكبر، فهي مرحلة تحتاج إلى مراعاة الضعف والشيبة، وتخفيف الأحكام، فعن أبي مسعود الأنصاري - رضي الله عنه - قال، قال النبي - ﷺ -: "إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة"[١]، فراعى النبي - ﷺ - الكبير في حال ضعفه، وخفف عنه الأحكام، وفي ذلك مراعاة أحوال المدعوين، وهذا يقتضي أن يضع الداعية كل شيء في موضعه الصحيح، حتى لا ينفر منه الناس، وليعلم أن المدعوين ليسوا في الفهم سواء، ولا في الدعوة، ولا في الاستجابة، فمخاطبتهم على حد سواءٍ ليس من الحكمة في شيء، فمنهم من يتأثر بالعاطفة، ومنهم من يتأثر بالاستدلال العقلي، فعليه أن يدرك مستويات المدعوين، فيخاطبهم بما يناسبهم، وما يحتاجونه، حتى يُكتب لدعوته القبول بينهم.

٣- التعايش مع الواقع

إن واقع المدعوين في تغيير مستمر، من بداية الدعوة إلى يومنا هذا، ليتطلب هذا التغيير من الدعاة تغييراً في طريقة التناول، وأسلوب التعامل، تبعاً لتغير الأحوال والظروف، فكل دعوة يبغي صاحبها الإصلاح والهداية، لابد وأن تكون موافقة لمعطيات الواقع الذي يعيش فيه المدعوون، والظروف التي يحياها الناس في كل زمان ومكان، حتى يتلاءم الدعاة مع الواقع وتغييراته، فالدعوة لا تستقر عند صورة واحدة، ولا حد معين، بل يطرأ عليها التغيير، مما يؤدي إلى مزيد من الجهد في دعوة الناس، والمتأمل في واقع الدعوة الآن يجد بعض الدعاة قد وقعوا في خطأٍ فادحٍ حينما كانوا بمعزلٍ عن الواقع، فلم يتفاعلوا مع المدعوين وأحوالهم، ولم يدرسوا واقعهم على ضوء الهدى الإسلامي الصحيح، حتى باءت دعوتهم بالفشل الذريع، وإذا كان تعايش الدعاة مع الواقع أمراً يستمر عبر العصور بحكم حاجة الناس إليه، فإنه في هذا الوقت أشد حاجة إليه من أي وقت آخر، نظراً للتقدم والتطور، والتغيير الهائل الذي حدث، وهذا يحتم على الدعاة أن يكونوا قادرين على استيعاب الأمور التي من شأنها عدم الاستقرار، وتحتاج إلى تغيير حسب واقع الناس، وأن يكونوا قادرين على احتواء هذه التغييرات التي تعتري تفكير المدعوين، وأعمالهم، ومن نظر في دعوة الرسل - عليهم السلام - أدرك ذلك جيداً، فقد "عايش نوح - عليه السلام - واقع قومه وهو يدعوهم، ولعل ذلك أجلى في الشرح، وأدعى للفهم والاقناع، إن قوم نوح أصحاب زراعة ورعي وتجارة، يحتاجون للمطر يسقيهم، وللأنهار تروي زرعهم، وللسماء

---

(١) رواه البخاري، كتاب الآذان، باب تخفيف الإمام في القيام واتمام الركوع والسجود، ١٤٢/١، رقم ٧٠٢، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، ٣٤٠/١، رقم ٤٦٦.

تظلّهم، وللشمس تدفئهم، وللقمر ينير لهم، وهم يقطعون سبل الأرض، وفجاج الصحراء، ومعهم الأموال والأولاد، تلك حياة القوم، وهذا هو واقعهم، فماذا قال لهم نوح – عليه السلام – وهو يدعوهم؟ لتقرأ الآيات؛ لتدرك مدى معايشة نوح لواقع المدعوين"[١]، ولم يكن بعيداً عنه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[٢]، فمعايشة واقع الناس أمر مهم في الدعوة، وأعظم الناس فهماً لواقع المدعوين هم الرسل – عليهم السلام – فسيدنا نوح – عليه السلام – استدل على دعوته بما يعيشه الناس ويحسونه أمام أعينهم ليل نهار، ومن خلال طبيعتهم وأسلوب حياتهم، فلابد أن يعيش الداعية زمان المدعوين، ويشاركهم واقعهم بالفكر والعقل، والثقافة، لأن فهم الواقع والتعايش معه من الأمور التي تعصم من الزلل والخطأ في الدعوة، وذلك من خلال إدراكه للمشاكل التي يعيشها الناس، يعرف كيف يخرجهم منها، ويقدم لهم الحلول المناسبة، لأنه يعيش آلامهم وأمالهم، فيحدثهم بما يعرفونه، وما تعارفوا عليه، ولا يحدثهم حديثاً لا تدركه عقولهم، فيكون ضرره أكثر من نفعه، ولهذا قال سيدنا على بن أبي طالب – رضي الله عنه – "حدثوا الناس بما تعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله"[٣]، فعدم مراعاة الواقع يؤدي إلى حرج شديد، وهناك بعض المدعوين مرتبطون بما ألفوا واعتادوا عليه، فلابد من معرفة واقعهم حتى لا تكون الدعوة في وادٍ، وما يحتاجه الناس في وادٍ آخر، ولكن يجب مراعاة أن الإسلام له ثوابت لا ينبغي المساس بها، ولكن يغير طريقة العرض حسب الواقع الذي يعايشه الناس، ولذلك فإن "الأصل في الوسائل والأساليب التطور والتجدد، تبعاً لتطور عادات الناس وأعرافهم، ولتقدم العلوم والفنون، كما أن الأصل في المبادئ والأهداف، والمناهج الربانية: الثبات وعدم التحول، تبعاً لكمال الله وعظمة شرائعه، وإحاطة علمه، فإن لكل عصر أساليبه ووسائله من جميع نواحي الحياة، وإن هذه الوسائل المعاصرة قد تشترك مع وسائل عصر سابق، وقد تختلف عنها، فالداعية الحكيم هو الذي يختار لكل عصر وسائله المناسبة له، والموجودة فيه"[٤]، ولذلك فقد نوع القرآن الكريم في أسلوب دعوته حسب المكان والزمان، فهناك

---

(١) دعوة الرسل عليهم السلام، غلوش، مرجع سابق، صـ٧٠.
(٢) سورة نوح، الآيات "١٠ – ٢٠".
(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، ٣٧/١، رقم ١٢٧.
(٤) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـ٣٤٠.

القرآن المكي والمدني، ولكل منهما أسلوبه، وهذا يدل على أن الخطاب يتغير تبعاً للطريقة المناسبة للمدعوين، وما تقبله عقولهم.

إن معرفة الواقع يحتاج إلى معرفة عادات المدعوين، وأعرافهم وأحوالهم التي تحدد لهم طريقة سلوكهم ومعاشهم، وأعرافهم تتغير بتغير الزمان والمكان، فالإمام الشافعي – رحمه الله – تأثر بعادات الناس وأعرافهم في العراق، وظهر أثر ذلك على ما قاله وكتبه، وهو ما يعرف في الفقه الشافعي (بالقول القديم)، ولكنه حينما جاء إلى مصر عدل عن بعض آرائه، واختلف الحكم فيها، تأثراً بالواقع الذي يعيشه أهل مصر، وهو ما يعرف في الفقه الشافعي (بالقول الجديد)، فجاءت الأحكام تتوافق مع الظروف والحدث والمكان، فما يصلح من أساليب الدعوة في وقت أو مكان، قد لا يصلح بالضرورة لكل زمان ومكان، فكل عصر له مفاهيمه، ومسلماته التي تشكل مدى قبول المدعوين للدعوة، والإسلام في أحكامه وشرائعه راعى واقع الناس، وحاجاتهم وميولهم، فتعامل معهم باعتبار ضعف تكوينهم، فلم يكلفهم بعبادات لا يستطيعون أداءها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾(١)، "ولذلك قامت التكاليف الإسلامية والعبادات على أساس اليسر والسهولة في أدائها والقيام بها، كما قامت على أساس تجنيب الإنسان المشقة والضيق والحرج"(٢)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(٣)، فالشريعة الإسلامية بتعاليمها وأحكامها راعت واقع البشر، وأخذت بعين الاعتبار تباين قدراتهم، والنبي – ﷺ – كان على علم ودراية بواقع الناس حوله، فعن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي – ﷺ – قال لها: "يا عائشة! لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم"(٤)، فقد ترك النبي – ﷺ – إعادة بناء البيت على قواعد سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وقَبِلَ بقاء البيت قاصراً في بنيانه عن قواعد سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وبين السبب في ذلك، وهو مراعاة واقع الناس، وهو حداثة قريش بالجاهلية، وخاف أن يرجعوا عن الدين، ويقع الناس في فتنة، وهذا دليل على معرفة النبي – ﷺ – بما يدور حوله من واقع الناس، فالدعوة لا يكون لها أثر إلا إذا كان الداعية على فهم كبير، ودراية بواقع المدعوين الذين يريد دعوتهم، وكلما كان أعرف بواقعهم كلما كان اتصاله بهم أمكن، وتعامله معهم أنجح، وليس معنى التعايش مع الواقع، مسايرته والرضا به إن كان فاسداً، فيتخلى عن مبادئه، ويحرف فيها حتى ينتهي إلى الانحراف، كلا، ولكن معناه تغيير فساد الواقع، وتسييره إلى ما يحبه الله – ﷻ – ويرضاه، إذا كان واقعاً فاسداً.

---

(١) سورة البقرة، من الآية "٢٨٦".

(٢) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسي، مرجع سابق، صـ٦٤.

(٣) سورة الحج، من الآية "٧٨".

(٤) رواه البخاري، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، ٢/١٤٧، رقم ١٥٨٦.

المبحث الرابع

أثر التربية الوقائية في إصلاح الواقع الدعوي للمدعوين

لقد اعتنى الإسلام بالمدعو، فقدم له الخير، وأعانه على تلمس طرف الخير والاستقامة، فهو لا يقل أهمية عن الداعية، لأنه هو المقصود بالدعوة، وإليه تتوجه جهود الدعاة، ولذلك عرف بأنه "الإنسان مطلقاً، قريباً كان أو بعيداً، مسلماً أو غير مسلم، ذكراً أو أنثى.... إلى غير ذلك من أوصاف"[١]، والمتأمل في أحوال المدعوين يجد أنهم قد طرأت عليهم أوضاعاً عديدة على حياتهم، وهناك تداخل في أحوالهم، فبعضهم يتقلب من حال إلى حال، ومن وضع إلى آخر، خاصة في هذا الوقت مع تطور المجتمعات في كل شيء، وهذه نبذة بسيطة عن واقع بعض المدعوين لتقويم ما فيه من انحراف وتطرف.

أولاً: لمحة موجزة عن الواقع الدعوي المعاصر المراد تغييره عند بعض المدعوين

إن الحضارة المعاصرة التي يعيش فيها المدعو، تقتضي منه أن يفهمها، وأن يساهم فيها، وأن يطوعها لخدمة الإسلام والمسلمين، فلا يناصبها العداء، بل يتفاعل معها، ويستفيد منها قدر الإمكان، إفادة تعينه على الطاعة والعبادة، إلا أن هناك بعض المدعوين يصدون الناس عن سبيل الله – ﷻ –، ويضعون العقبات أمامهم ليثنوهم عن الهداية إلى الخير، بحجة أن هذه الحضارة من الأمور المستحدثة التي لا يقرها الإسلام، ولقد كان من حجج الملأ من قوم سيدنا نوح – عليه السلام – في عدم الإيمان به أنهم لم يسمعوا بدعوته من آبائهم الأولين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[٢]، فهؤلاء قد فسدت سجاياهم، فهم لا يحبون الخير للناس، ولذلك فهم يتصدون لهم، ليحولوا دون وصولهم إلى الحق، ويتوعدونهم ويرهبونهم، وهذا هو حال قوم سيدنا شعيب – عليه السلام – من قبل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾[٣]، فوسائل العصاة من المدعوين واحدة لا تتغير، ولكن تتطور حسب متطلبات العصر، فيضعون العراقيل ويحيكون

---

(١) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـ٤٢.

(٢) سورة المؤمنون الآيات "٢٤ – ٢٥".

(٣) سورة الأعراف، من الآية "٨٦".

المؤامرات، ولا يزال الصد عن سبيل الله - ﷻ - في هذا الزمان، بل لعل أساليبهم تنوعت، ووسائلهم تعددت، وأصبح لهم من يتبنى أفكارهم من بلاد ترعى مصالحهم، وتسخر كل إمكانياتها لصد الناس عن الاستقامة، والوصول إلى الحق.

إن الناظر إلى حال الأمة الإسلامية اليوم يرى العجب من بعض المدعوين، كيف وصل حالهم إلى ما وصل إليه في أدنى درجات التيه والضياع والاستكبار، حتى صار هذا التيه معلماً بارزاً في كل مواقفهم في الحياة، فهناك من المدعوين من يتعالى ويستكبر عن سماع الحق والخير، ويرفض الانقياد للدعاة المصلحين، مع اعتقادهم بصحة ما يدعون إليه "ولكن الكبر يمنع من الاعتراف به، والانقياد له، كما يمنع الاعتراف بالفضل لأولى الفضل، ويمنع المتكبر من الرؤية الصحيحة لقدر نفسه، فيراها فوق أقدار الناس، فيستنكف أن يكون معهم، أو تابعاً لأحد منهم، وقد يقترن الحسد مع الكبر فيزيد من آثاره سوءً وصدوداً عن الحق، وجحداً له، ومحاربة لأهله، وعداوة لهم"(١)، وهذا هو دأب المفسدين من المدعوين في كل زمان ومكان، يرفضون الانقياد للحق رغم كل الحجج والأدلة الساطعة الدالة عليه، ولكنهم يصرون على التمسك بباطلهم، كما حدث مع قوم سيدنا نوح - عليه السلام - حينما دعا قومه إلى الإيمان والهداية، قال تعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - وهو يشكوهم إلى خالقهم: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾(٢)، ولقد بالغوا في هذا الاستكبار بوضع الثياب على الوجوه، وجعل الأصابع في الآذان، مما يكشف عن مدى الفساد والاستكبار الذي هيمن عليهم، حتى لم يعد في وسعهم سماع للحق، كذلك استكبر فرعون وجنوده عن دعوة سيدنا موسى - عليه السلام -، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾(٣).

إن بعض المدعوين قد انحرفت أهواؤهم عن معاني الخير، وضلت أخلاقهم عن الفطرة السليمة التي فطر الله - ﷻ - الناس عليها، وَأَلِفُوا الشر حتى أصبح صفة ومعلماً من معالمهم، وذلك لإتباعهم سبل الشيطان، الذي تعهد بأن يضل الناس، ويخرجهم عن الصراط المستقيم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾(٤)، ولذلك

---

(١) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٣٨٢.

(٢) سورة نوح الآية "٧".

(٣) سورة القصص الآية "٣٩".

(٤) سورة الأعراف الآيات "١٦ - ١٧".

فقد حذرنا الله - ﷻ - من إتباع خطواته، وأمرنا بأن يبتعد عنه وعن سبله، فهو عدو لدود للإنسان، ويجب الحذر منه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[١]، فينبغي للإنسان أن يحذر منه، حتى لا يضله عن طريق الاستقامة إلى سوء السبيل، ولذلك فقد حذر سيدنا إبراهيم - عليه السلام - منه فقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾[٢]،

إن بعضاً من المدعوين بعد أن وفقوا إلى الحق والخير، لم يستوضحوا عما أُشكل عليهم، ولم يسألوا عما لا يعرفونه، أو ما أشكل عليهم من أمورهم، ولذلك فقد أوجب الله - تعالى - على طلاب العلم أن يسألوا عما أُشكل عليهم، حتى يكونوا على بينة من أمرهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[٣]، فالأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، وألا يتبع طريق الجهلة الذين لا يعلمون، لأن طريقهم غير مستقيم، لذلك فقد أمر الله - ﷻ - أن نعبده عن علم، وحذرنا من اتباع الجهلة الذين لا يعلمون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[٤]، فإتباع سبيل الجهلة من الأمور التي تمنع من الاستقامة، وتبعده عنها، وربما يكون من أسباب الانحراف عند بعض المدعوين، الفجوة التي تحصل بين الدعاة والمدعوين، لذا بات من الضروري المسارعة إلى سدها، وهناك من المدعوين من وفقه الله - تعالى - للحق والاستجابة، ولكنهم رجعوا للضلالة مرة أخرى، إما لعدم تعهدهم من قبل الدعاة، وإما لعدم صبرهم على الاستقامة، واتباعهم سبل الشيطان، وهذا الواقع عند بعض المدعوين يحتاج إلى توجيهات لتقويمه ومعالجته.

ثانياً: أثر التوجيهات الوقائية في تغيير الواقع الدعوي للمدعوين إلى الأحسن

إن إصلاح أحوال المدعوين واستقامتهم على الطريق الصحيح الذي أراده الإسلام، بعيداً عن الانحرافات التي تصيب بعض المدعوين في كل زمان ومكان، لا تتم إلا بتحقيق مجموعة من المبادئ المهمة التي جاء بها الإسلام ولو عمل بها المدعو لتحققت الاستقامة المطلوبة منهم ومن هذه الأسس ما يلي:-

---

(١) سورة البقرة الآيات "١٦٨ - ١٦٩".

(٢) سورة مريم الآية "٤٤".

(٣) سورة النحل من الآية "٤٣"، سورة الأنبياء من الآية "٧".

(٤) سورة الجاثية الآية "١٨".

١- إقناع المدعوين واستمالتهم

من تأمل منهج الإسلام في دعوته، وجد أنه يلامس وجدان المدعوين، فيحركهم نحو الخير بعودتهم إلى الفطرة التي خُلقوا عليها، لأن المدخل إلى إيمان المدعوين هو إقناعهم بالدعوة، والاستجابة للحق تقوم بإقناع المدعو، واستمالته لما يعرض عليه من المبادئ، وما يدل عليها من الحجج والبراهين، وهذا هو ما استخدمه سيدنا نوح - عليه السلام - في دعوة قومه، ولقد ميز الله - عز وجل - الإنسان بالعقل، وجعله محل التكليف، والإنسان له قلب وعقل، وهو لا يستجيب إلا إذا اقتنع العقل، وتأثر القلب، ومن رحمة الله - عز وجل - بالإنسان أن جعل الإقناع والتأثير على المدعوين مسألة لا تخالف الفطر السوية، ولا العقل الصحيح، والمدعو بطبيعته مهيأ لقبول الحق والخير إذا أحسن الداعي استغلالها، وقدم الدعوة بطريقة تقبلها النفوس والعقول، حتى يبتعد الضال عن ضلالته من غير أن ينفر من الداعي، ومن تأمل آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - وهما نبراس المسلمين، وفيهما كل خير، وجدهما قد جاءا بما يقرر الإقناع والاستمالة، ويؤكد على أثرهما في نفوس المدعوين.

إن القرآن الكريم كتاب دعوة إلى الله - تبارك وتعالى - وهو ملئ بالآيات التي تدل على قوة تأثيره في نفوس المدعوين، فهو يلمس وجدانهم، ويحرك مشاعرهم، ويرقق قلوبهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1]، فأحدث القرآن الكريم تغييراً في نفوس الصحابة الكرام، وسما بهم، فتحولوا تحويلاً عجيباً، وهجروا ما كانوا عليه، وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، رغم ما أصابهم من الأذى والعذاب، كل ذلك لم يصدهم عن الاهتداء للحق، لأنهم تأثروا بدعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي أحسن استخدام وسائلها وأساليبها، فحرك وجدانهم، ولقد تأثر سحرة فرعون بدعوة سيدنا موسى - عليه السلام - لأنه حرك وجدانهم ومشاعرهم فدخل الإيمان إلى قلوبهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ

([1]) سورة الزمر، الآية "٢٣".

ٱلدُّنۡيَآ ﴾[١] وهذا يدل على أن الدعوة تحتاج إلى تحريك القلوب نحو الإيمان "هذا وعلى الداعي في محاضرته أن لا يكون جافًّا، عليه أن يضفي على محاضرته شيئًا من التحريك العاطفي الوجداني، بما يذكره من حقائق الإسلام، ومعاني العقيدة الإسلامية، وهذا التحريك الوجداني يقوم على أساس إثارة ما في النفوس من معاني الإيمان"[٢]، وفي آيات القرآن الكريم عون على إقناع المدعوين واستمالتهم، ليدخل في قلوبهم نور الهداية والرشاد، ولقد بين الله - ﷻ - أن الجبال التي ليس فيها روح لو نزل عليها القرآن لتأثرت، ووجلت من خشيته، لو كان لها عقل وتمييز، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣]، هذا هو شأن القرآن، فكيف بمن يسمعونه، ولا يتأثرون به؟ ولقد كان الكافرون يكرهون سماع القرآن الكريم خشية أن يؤثر فيهم، وتواصوا بذلك فيما بينهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾[٤]، وشعر بعضهم أنه قد أثر فيهم، وتملك قلوبهم، فكانوا يأتون لسماعه ليلاً خفية عن أعين الكفار، بل لقد اعترف بعضهم بأثر القرآن في القلوب، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن الوليد بن المغيرة - ؓ - جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال: قد علمت أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم بزجره ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر، قال: "هذا سحر

(١) سورة طه الآيات "٧٠ – ٧٢".

(٢) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٤٧٨.

(٣) سورة الحشر، الآية "٢١".

(٤) سورة فصلت، الآية "٢٦".

يؤثر يأثره من غيره"[١]، فأنزل الله – ﷻ – قوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[٢]، فقد اعترف هذا الكافر بأثر القرآن على القلوب، وهو وإن وصف القرآن بالسحر، فما ذلك إلا لغروره، وعناده، فأعمى الله – سبحانه وتعالى – بصيرته، كذلك الجن لما سمعوا القرآن الكريم، شعروا بأثره قد دب في نفوسهم، فلم يملكوا إلا الإيمان به، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[٣]، لقد جذبهم حتى سرت روحه إلى قلوبهم، فخرجوا من الظلمات إلى النور ، بل ودعوا إلى الإيمان، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٤]، وهذا يدل على أن الاستجابة للدعوة الإسلامية لا تتم إلا بالإقناع والاستمالة "ليحرك الداعية مشاعر المعادين، ويستميل قلوبهم لدعوته فيستجيبوا له، أو يخفف من شدتهم وبطشهم"[٥]، وكل ما في القرآن الكريم من دعوة، يقوم على الإقناع، ومحاولة التأثير في نفوس المدعوين.

لقد اعتمد النبي – ﷺ – في دعوته أيضاً على الإقناع والاستمالة، فلم تكن دعوته تصدر من اللسان فلا تتجاوز الآذان، بل كانت تصدر من القلب لتصل إلى القلب، وكان يظهر أثر ذلك على وجهه وصوته، فهو يعبر عن واقع صادق، من شأنه أن يلتمس القلوب، ويثير الوجدان، ويظهر أثر ذلك على المدعوين حتى ذرفت عيونهم، ووجلت قلوبهم، وتأثروا تأثيراً حقيقياً، مثل إقناع الأعرابي الذي شك في مولود له لاختلاف اللون، فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رجلا من أهل البادية أتى النبي – صلى الله عليه وسلم –، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت على فراشي غلاما أسود، وإنَّا أهل بيت لم يكن فينا أسود قط! قال: "هل لك من إبل؟ " قال:

([١]) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المدثر، ٢/٥٥٠، رقم ٣٨٧٢، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه"، "واللفظ له"، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، باب الإيمان برسل الله – صلوات الله عليهم –، ١/٢٨٧، رقم ١٣٣.

([٢]) سورة المدثر، الآية "٢٤".

([٣]) سورة الجن، الآيات "١-٢".

([٤]) سورة الأحقاف، الآيات "٢٩ – ٣١".

([٥]) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـــ٢٠٦ وما بعدها.

نعم، قال: "فما ألوانها؟ " قال: حمر، قال: "هل فيها أسود؟ " قال: لا. قال: "فيها أورق؟ " قال: نعم، قال: "فأنى كان ذلك؟ " قال: عسى أن يكون نزعه عرق، قال: "فلعل ابنك هذا نزعه عرق"(١)، فالنبي - ﷺ - قد عمد إلى إقناع هذا الأعرابي عن طريق ضرب الأمثال بشيء ظاهر، رغم اختلاف الشبه، وكذلك أيضاً اقتناع الشاب الذي جاء إليه - ﷺ - ليستأذنه في الزنا فأقنعه، وتأثراً تأثيراً حقيقياً، فلم يلتفت إليه بعد ذلك، بعد فوران الشهوة عنده، ويظهر الإقناع للمدعوين في كثيرٍ من أحاديث النبي - ﷺ - فالغرض من دعوة الرسل هو حصول الاهتداء للمدعوين، هذا الاهتداء لا يتم إلا بالإقناع والاستمالة، وهذا ما استخدمه القرآن الكريم، والسنة المطهرة في دعوة الناس جميعاً.

٢- ضرورة الاستجابة لدعوة الداعين إلى الله - ﷻ -

لقد أرسل الله - ﷻ - الرسل، وأنزل عليهم الكتب التي تضمنت الأحكام والشرائع الإلهية حتى يبلغونها إلى الخلق، لتستقيم حياتهم، ويسعدوا بها في الدنيا والآخرة إذا استجابوا لها، وإذا فكر الإنسان في هذه الأحكام والتوجيهات التي جاء بها الرسل - عليهم السلام - تفكيراً صحيحاً، فإنه لا يجد في نفسه إلا القبول والتسليم، لأنها دعوة إلى الفطرة التي فطر الله - ﷻ - الناس عليها، وعندما يدعى إليها فإنها تعود به إلى أصل فطرته، ولكن اقتضت حكمة الله - ﷻ - أن "الناس ليسوا سواء في الاستجابة إلى الحق، وقبول الدعوة، فمنهم السريع جداً في الاستجابة، ومنهم البطيء جداً، ومنهم بين هذين الحدين في درجات كثيرة جداً يستعصي على العد والإحصاء، فمن الناس من يؤمن حالاً، وبدون تردد، أو تلكؤ، أو تعثر، حتى كأنه ينتظر سماع الدعوة ليؤمن"(٢)، فلا يأنف ولا يستكبر، ولا تأخذه العزة بالإثم، ولكنه يتقبل الدعوة شاكراً لله - ﷻ - والصحابة الكرام ضربوا لنا أروع الأمثلة في الاستجابة للخير ودعوة الداعي إلى الحق، فها هو سيدنا أبو بكر الصديق يستجيب على الفور، ولم يتردد لحظة واحدة في الاستجابة، ولم يتلعثم، وأقام جميع أمور حياته على هدى هذا الدين، وترجم استجابته للدعوة إلى واقع عملي، حتى كانت هذه الاستجابة دخولاً في الدين نطقاً بالشهادة، وعملاً بمنهج الإسلام في حياته كلها، فاستحق هذا اللقب.

---

(١) سبق تخريجه، صـ٣٦١.

(٢) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، صـ٣٧٦ وما بعدها.

لقد أمر الله – ﷻ – المؤمنين في قرآنه بالاستجابة له – ﷻ – ولرسوله – ﷺ – إذا دعاهم لما يحييهم، والإذعان للبلاغ المبين وكلمة الحق، والاستجابة تكون بفعل الأوامر التي أمروا بها، واجتناب النواهي التي نهوا عنها، فلا يصرفهم صارف من الاستجابة لما يحييهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾[1]، فواجب على المدعو العاقل المدرك لعواقب الأمور، أن يستجيب لداعي الله، ولا يعرض عن الحق والخير، ولا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنه يدرك أن هذا الداعي لا يريد منه شيئاً خاصاً، بل يريد إنقاذه من النار، وغضب الجبار، وهذا ما جعل الصحابة الكرام يكفئوا القدور التي تغلى باللحم، وهم في جوع شديد، حينما جاءهم النهي عن أكل لحوم الحمر الأهلية، فما توانوا لحظة، ولكنهم أراقوها بما فيها من اللحوم، استجابة لنداء الله – ﷻ – فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – جاءه جاءٍ، فقال: أُكلت الحمر؟ فسكت، ثم أتاه الثانية، فقال: أُكلت الحمر فسكت، ثم أتاه الثالثة فقال: أُفنيت الحمر؟ فأمر منادياً في الناس: "إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية، فأُكفئت القدور، وإنها لتفور باللحم"[2] فلم يترددوا، ولكنهم استجابوا لذلك بمجرد النداء بتحريمها، من أجل ذلك جاء العطف بالفاء (فأكفئت القدور) مما يدل على التعقيب وسرعة الاستجابة، وهذا يدل على أن "أهم واجب على المدعو تجاه الدعوة، أن يستجيب لدعوة الحق، فلا يمنعه من الاستجابة مانع، سواء أكان عادة اعتادها، أم جهلاً، أم كبراً في نفسه"[3]، لأن الكبر آفة قاتلة، ومن أخطر الصفات على الإنسان، وخاصة إذا عرف الحق، فإبليس عندما تكبر ورفض الاستجابة لأمر الله – ﷻ – بالسجود لآدم – عليه السلام – لعنه الله – ﷻ – وحكم عليه بالطرد والخسران، والملأ من أقوام الرسل – عليهم السلام – عرفوا الحق، لكن الكبر حال بينهم وبين الاستجابة لنداء الحق من الرسل، لذلك فإن المدعو يجب عليه أن يحذر من الكبر، لأنه يدمر النفس البشرية، ويطمس على قلوب أصحابها، فلم يفرقوا بين الحق والباطل.

لقد أكد القرآن الكريم، على أهمية الاستجابة، لداعي الله – ﷻ –، حتى لا يقع الإنسان في الضلال والانحراف، فبين أن المنافقين لو استجابوا لما كلفوا به من الشرع، وانقادوا لرسول الله

---

(١) سورة الأنفال، الآية "٢٤".

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/١٣١، رقم ٤١٩٩، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب تحريم أكل لحم الحمر الإنسية ٣/١٥٣٨ رقم ١٩٣٧.

(٣) المدخل إلى علم الدعوة، البيانوني، مرجع سابق، صـ١٧٢.

- ﷺ - لحصل لهم من المنافع الكثير والكثير، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(١)، "فلو أن هؤلاء المعاندين الضالين امتثلوا أوامر الله، وفعلوا ما وعظوا به، لكان في ذلك خيرهم وسعادتهم، لأنه يقيم طريقهم على الحق والإحسان، ويثمر لهم أطيب الثمر في الدنيا والآخرة جميعا، ولو أنهم تقبلوا شرع الله، واستقاموا عليه، لوجدوا له روحا في أنفسهم، وتجاوبا مع مشاعرهم"(٢)، ولكنهم تقاعسوا عن الاستجابة، فكان ذلك سبباً في ضلالهم وانحرافهم، لأن الله - ﷻ - لم يأمرهم بشيء إلا فيه صلاحهم، واستقامتهم، وانقاذهم من عواقب الهلاك والشر.

لقد بين القرآن الكريم أن الإنسان قد لا يستجيب للحق، ويرفض إتباعه، بسبب تقليده الأعمى، وتبعته الآخرين، دون فكر وإعمال للعقل، فعاب على أولئك الذين تشبثوا بما تركه الآباء والأجداد دون عقل، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٣)، فالتقليد المذموم كان سبباً في رفض كثير من المدعوين لدعوة الأنبياء – عليهم السلام –، وهذا ما فعله قوم نوح - عليه السلام - حينما عللوا كفرهم بأنهم لم يسمعوا بما جاءهم به سيدنا نوح - عليه السلام - في آبائهم وأجدادهم، ولم يكن سند الكثير منهم عند سؤالهم عن سبب عبادتهم للأصنام، إلا أنهم اتبعوا ما توارثوه عن الآباء والأجداد دون عقل، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾(٤)، كذلك فعل الملأُ من قوم سيدنا موسى - عليه السلام - حينما جاءهم بدعوته فاتهموه بالسحر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(٥)، من أجل ذلك فقد ذم الإسلام التقليد الأعمى، والتبعية، لأنها بمثابة الحاجز المنيع الذي يمنع

---

(١) سورة النساء، الآيات "٦٦ – ٦٧".

(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، مرجع سابق، ج٣، صـ٨٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية "١٧٠".

(٤) سورة الشعراء، الآيات "٦٩ – ٧٤".

(٥) سورة يونس، الآيات "٧٥ – ٧٦".

الإنسان عن قبول الحق والاستجابة، ودعا إلى إعمال العقل والفكر، وإذا كان الإسلام قد ذم التقليد الأعمى، الفاقد للوعي والفهم، إلا أنه بين من يجوز اتباعهم وتقليدهم ممن اتصفوا بصفات تؤهلهم لذلك، كالأنبياء والرسل – عليهم السلام – قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١) فهذا هو الإتباع الحق "وتقليده في هذه الحالة مفيد، وكذلك يصبح تقليد القدوة الصالحة مسلكا مرغوباً في الإسلام، حث عليه كمنهج سليم للتربية، وضرب مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كبائع المسك، ونافخ الكير، ومن الأمور العادية المعروفة أن الصغير يقلد الكبير، والابن يقلد أباه، والبنت تقلد أمها، والتلميذ يقلد معلمه، والتقليد إذن مهم في التربية الخلقية، وفي تزكية السلوك الرشيد"(٢)، وكذلك في أمور الدنيا إذا كان على وعيٍ وبصيرةٍ، وهذا يخالف التقليد المذموم الذي يجعل صاحبه في جمود، واقتصار على ما كان عليه السابقون، فيمنعه ذلك من التفريق بين الخير والشر والحق والباطل.

٣- الثبات على الطاعة

إن الثبات على الطاعة أمر عظيم، لاسيما مع فساد الزمان، وكثرة الفتن والمغريات، وبالنظر إلى الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وما تواجهه من المغريات، وسائر أنواع الشهوات، فهي في أمس الحاجة إلى الثبات على الطاعة، والاستمرار عليها، والعض عليها بالنواجذ، وقدوتهم في ذلك رسل الله – عليهم السلام –، فها هو سيدنا نوح – عليه السلام – قد لاقى ما لاقى من قومه من التكذيب ووصفه بالجنون والاستهزاء فما صرفه ذلك عن تبليغ دعوة ربه، كذلك سيدنا إبراهيم – عليه السلام – حينما ألقى في النار، وما لاقاه من أبيه وقومه إلا أن ذلك لم يصده عن الدعوة كذلك سيدنا عيسى – عليه السلام – حينما حاولوا قتله وكذلك أيضاً النبي – صلى الله عليه وسلم – فقد لاقى ما لاقى من ألوان التعذيب، فما صرفه ذلك عن التبليغ، ثم عرضوا عليه المال ليكون أغناهم على الإطلاق، عرضوا عليه الملك والسيادة، فلا يقطعوا أمراً إلا بالرجوع إليه، فلم يلتفت إلى شيء من ذلك، ولكنه ثبت على الحق، حتى بلغ رسالة ربه على الوجه الأكمل فقال لهم: "ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم

(١) سورة النحل، الآية "١٢٣".
(٢) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسي، مرجع سابق، صـ١٣٠.

به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"[١]، والصحابة الكرام قد لاقوا ما لاقوا، ولكنهم ثبتوا على الطاعة والإيمان، فلم يخضع النبي - ﷺ - ولا الصحابة الكرام لوسائل الترهيب التي مارسها أعداء الدعوة، وضحوا في سبيل هذه المبادئ، كما أنهم لم يخضعوا لوسائل الترغيب مما عرضته عليهم قريش من المال والجاه وغير ذلك، فالثبات على الدين من أهم الأمور في حياة المسلمين، ولذلك فقد رغب الإسلام المدعوين بالثبات على الطاعات حتى الممات، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[٢]، وهذا أمر بالاستمرار في العبادة مدة الحياة، كما قال سيدنا عيسى - عليه السلام -: ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[٣]، فالمداومة على الحق مطلب أساسي لكل مسلم صادق أراد سلوك الصراط المستقيم، فلا ينقطع عنه إلا بنهاية الأجل، لأن ظاهرة الفتور والانقطاع عن العبادة بعد الاستمرار، يقع فيه بعض الناس في أغلب الأحيان، ولاسيما بعد مواسم الخير والطاعة، فإذا جاء موسم الطاعة، فإنهم يقدمون على العمل والخير، فإذا انقضى هذا الموسم، فسرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه من قبل، فلم يغير هذا الموسم فيهم شيئاً، ولقد نهانا الله - عز وجل - عن التشبه بقوم اجتهدوا في العبادة مدة، ثم بعد ذلك تقاعسوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[٤]، وهذا دليل على أن هؤلاء القوم "طالت عليهم المهلة، وتمادى عليهم الأمد، فتغيرت الشرائع والأحكام، وتنوسيت الأديان، فتركوا أمر الله، ونسوا عهده"[٥]، بعد أن اجتهدوا في العبادة، وهذا يدل على أن الانقطاع عن الطاعة مذموم في الإسلام، ومنهى عنه، ولذلك جعل الإسلام ملازمة الطريق المستقيم دليل على صدق الإيمان، وسبب لحصول الخيرات، وتنزل الرحمات في الدنيا والآخرة، وبين الله - عز وجل - أن عدم الثبات على الطاعة من عمل الشيطان، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾[٦]، فالشيطان هو الذي يسول للإنسان، ويريه أن الانقطاع عن العبادة حسن، ويسهل له المعصية، وعدم الثبات على الطاعة.

---

(١) سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ج١، صـ٢٦٣.
(٢) سورة الحجر، الآية "٩٩".
(٣) سورة مريم، الآية "٣١".
(٤) سورة الحديد، الآية "١٦".
(٥) فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٠٣.
(٦) سورة محمد، الآية "٢٥".

إن الثبات ليس بالأمر الهين على الإنسان، وليس باستطاعة جميع الناس الالتزام به، فالإنسان قد يصل إلى القمة، وهذا فتح من الله – سبحانه وتعالى – ولكن الاحتفاظ بالقمة، والثبات على ذلك الخير، أمر صعب، ولذلك فقد جاء التوجيه النبوي، داعياً المسلم إلى الثبات والاستمرارية قدر المستطاع، فعن ثوبان – رضي الله عنه – قال: ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم: الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن"(١)، ولما كان الأمر كذلك، كان لزاماً على المسلم أن يتضرع إلى الله – عز وجل – ويسأله الثبات، وعدم الزيغ، وهذا هو ما فعله المؤمنون مع كثير من الأنبياء السابقين، حينما توجهوا إلى الله – سبحانه وتعالى – متضرعين إليه، ليستمدوا منه الثبات على الطريق القويم، فلا تزحزحهم الفتن أو الشهوات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢)، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – حريصاً على تعليم أمته الإكثار من الدعاء بالثبات على الهداية، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يكثر أن يقول: "اللهم ثبت قلبي على دينك" فقال رجل: يا رسول الله، تخاف علينا، وقد آمنا بك وصدقناك بما جئت به، فقال: "إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن – عز وجل – يقلبها"(٣)، وهذا تعليم وتوجيه للأمة ليدعوا الله – سبحانه وتعالى – بالثبات على الدين، ومعنى ثبت قلبي على دينك، "أي: اجعله ثابتاً على دينك، غير مائل عن الدين القويم، والصراط المستقيم، والخلق العظيم"(٤)، ولقد بين الله – عز وجل – في قرآنه أيضاً: الغاية التي من أجلها نزل القرآن الكريم، وهي تثبيت القلوب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾(٥)،

---

(١) سبق تخريجه، صـ٨٥

(٢) سورة آل عمران، الآيات "١٤٦ – ١٤٨".

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، أبواب الدعاء، باب دعاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ٩/٥، رقم ١٨٣٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: "حديث صحيح".

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، على بن سلطان محمد أبو الحسن نور الدين الملا الهروي المتوفي سنة ١٠١٤هـ، دار الفكر بيروت، لبنان، ط١، سنة ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ج١، صـ١٧٨.

(٥) سورة الفرقان، الآية "٣٢".

فآياته تنزل على قلب المسلم، لتكون برداً وسلاماً، وتثبيتاً له، ليطمئن بها اطمئناناً، فلا تعصف به الفتن والشهوات، لأنه يعمل بما جاء فيه من الأحكام والتوجيهات التي تقيه من الاضطراب.

لقد قص الله – ﷻ – على رسوله – ﷺ – قصص الأنبياء من قبله، ومواجهة الأعداء له، ليثبته، ويخفف عنه ما يجده من كيد الأعداء ومكرهم، ويبعث في نفسه الأمل والتفاؤل بالنصر، فبعد أن قص جملة من أنباء الرسل – عليهم السلام – جاء قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[1]، فالإنسان قد يضعف في مواطن الابتلاءات والمحن، ولكنها تشعر بشيء من التخفيف والتسلية حينما ترى من يشاركها همومها وآلامها، أو تسمع عمن يعاني مما تعاني منه، فيعتبر ويثبت على الحق.

---

(١) سورة هود، الآية "١٢٠".

الخاتمة

وتشتمل على:

أولاً: النتائج

ثانياً: التوصيات

ثالثاً: المصادر والمراجع

رابعاً: فهرس الموضوعات

❖ **أولاً: النتائج**

❖ **من أبرز ما تجلى للباحث من نتائج في هذه الدراسة ما يلي:-**

أولاً:- أن دعوة أولي العزم من الرسل - عليهم السلام - زاخرة بكثرة التوجيهات الوقائية التي تحتاج إليها المجتمعات في كل زمان ومكان، وأولوها عناية كبيرة من أجل حماية أممهم من الانزلاق في مهاوي الشر والضلال.

ثانياً:- الانحرافات التي حلت بالمجتمعات في كل زمان ومكان، نتيجة طبيعية لإهمال الأخذ بالتوجيهات التي جاء بها أولو العزم من الرسل - عليهم السلام -، وأن السلامة من الانحرافات متعلق بمدى تمسك الأمم بهذه التوجيهات، فعلى قدر تمسكهم بها تكون الهداية والاستقامة.

ثالثاً:- لا اختلاف بين الأنبياء في الأصول التي جاءوا بها من قبل الله - ﷻ - مما يدل على وحدة مصدرها، واستمداد تعاليمها من نبع واحد، وأن كل واحد من هذه الأصول له دور هام في الوقاية من الانحراف.

رابعاً:- دعوة أولي العزم من الرسل - كغيرها من دعوات الرسل عليهم السلام - جاءت بالتوجيهات والأساليب الوقائية والإصلاحية التي شملت جميع تصرفات الإنسان وسلوكياته، فنظمت علاقة الفرد بربه، وعلاقته مع نفسه، وعلاقته بالآخرين، بل شملت الأحياء غير العاقلة كالحيوان والنبات.

خامساً:- دعوة أولي العزم من الرسل جاءت بالأساليب الوقائية والإصلاحية التي تحصن فكر الإنسان من المعتقدات الباطلة، وذلك ببيانها وتحرير العقول منها، كالتكفير، والتعصب، ثم أمرت الأمم بالوسطية في التفكير دون إفراط أو تفريط، مع الالتزام بما جاءوا به بعيداً عن الأهواء من أجل حماية الأفكار من الانحراف.

سادساً:- الأصول العامة التي جاءت في دعوة أولو العزم من الرسل لها أثر كبير في وقاية الأمم من الانحراف عند الالتزام بها وتطبيقها، فالغاية من هذه الأصول: تحقيق التقوى، ولذلك فقد أمر كل واحد منهم قومه بها.

سابعاً:- الانحراف السلوكي نتيجة طبيعية لأفكار مسبقة ترسخت بداخل الإنسان فهي التي توجهه لفعلٍ معين يطرأ على سلوكه وذلك لبعده عن التمسك بالأسس والأساليب التي جاءوا بها أولو العزم من الرسل من قبل ربهم.

ثامناً:- الدعوة إلى الله - ﷻ - مسئولية كبيرة تستوجب ممن يقوموا بها أن يتفقه في دين الله لينذر قومه، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الاستقامة كما فعل أولو العزم من الرسل.

تاسعاً: للأزهر الشريف دور كبير وهام في الإعداد الأمثل للدعاة وتهيئتهم للقيام بالدعوة على أكمل وجه، فهو النواة الأولى التي يتخرج منها أجيال من الدعاة يجوبون العالم كله للتعريف بالإسلام والدعوة إليه بوسطية.

عاشراً: إن الظالمين في كل زمان ومكان يقفون في وجه الحق، ويحاولون طمس الحقائق، وإجهاض الحق، وصرف الناس عن إتباعه، كما فعل الملأ من الكافرين المستكبرين مع أولي العزم من الرسل ودعوتهم.

حادي عشر: إن الإسلام دين عالمي صالح لكل زمان ومكان، وفيه تخليص للبشرية من ورطاتها، وارتفاع بها إلى أعلى درجات السمو، ومن أعلى درجات السمو، الوقاية من الأمراض الحسية والمعنوية، الدينية والدنيوية، وفي ذلك، استقرارها، وإشاعة الأمن والطمأنينة بين أفرادها.

❖ ثانياً: التوصيات

أولاً:- تشكيل لجان متخصصة في جميع المجالات، للعمل على استخراج التوجيهات الوقائية، كلٌ في مجال تخصصه، من أجل خدمة المجتمع وسلامته من الانحرافات، مع التركيز على متابعة البحث في أسرار القرآن العظيم، حتى يتم استخراج وجوه الإعجاز القرآني في شتى مجالات الوقاية.

ثانياً:- اهتمام الدعاة والمربين بإبراز التوجيهات الوقائية المستنبطة من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، فهما المعين الذي لا ينضب أبداً، وذلك من خلال عقد الندوات والمؤتمرات بصفة مستمرة، لما فيها من السلامة والمحافظة على الأفراد والمجتمعات من الوقوع في الخطأ والذلل.

والحمد لله بدءً وختاماً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: الكتب المطبوعة

١) الإبانة في اللغة العربية، سلمه بن مسلم العتبي الصحارى، تحقيق د/ عبدالكريم خليفة، د/ نصرت عبد الرحمن، د/ صلاح جرار، د/ محمد حسن حواس، د/ جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط عمان، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
٢) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية من الأفكار الهدامة، عبد الله عبد الرحمن الجربوع، الناشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
٣) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
٤) أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
٥) أحكام القرآن، الجصاص، تحقيق عبد السلام محمد على شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، سنة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
٦) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، بدون ت.
٧) إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري، القسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط٦، ١٣٢٣هـ.
٨) إرشاد السالك إلى أشرف المسالك في فقه الإمام مالك، عبد الرحمن أبو زيد شهاب الدين المالكي، الناشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٣، بدون ت.
٩) أركان الإسلام الخمسة، أحكامها وأثرها في بناء الفرد والمجتمع، أ.د/ رفعت فوزى عبد المطلب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط٣، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.
١٠) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، محمد كامل الفقي، المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف.
١١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، زياد العاني، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٢) أساليب دعوة العصاة، د/ عبدالرحمن بن نواب الداين بن غريب، الناشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط السنة الثالثة والثلاثون، العدد ١٢٣.

١٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، بن عبد البر، تحقيق على محمد البيجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٤) أسد الغابة في تمييز الصحابة، ابن الأثير، تحقيق محمد على معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٥هـ، سنة ١٩٩٤م.

١٥) الإسلام والتوازن الاقتصادي بين الأفراد والدول، محمد شوقي الفنجري، وزارة الأوقاف، بدون ط.ت.

١٦) الإسلام والفوارق الاقتصادية بين الأفراد والدول، محمد شوقي الفنجري، وزارة الأوقاف، بدون ط، ١٤٣١هـ.

١٧) الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط١٢، سنة ٢٠٠٣م.

١٨) الإشاعات وكيف حاربها الإسلام، د/ محمد سيد طنطاوي، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٤٢١هـ، سنة ٢٠٠١م.

١٩) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلى أحمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٢٠) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، عبدالرحمن النحلاوى، دار الفكر، ط٢٥، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٢١) أصول التربية الإسلامية، د/ خالد بن حامد الحازمي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، السعودية، بدون ط، ١٤٢٠هـ، سنة ٢٠٠٠م.

٢٢) أصول التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل على، دار السلام القاهرة، بدون ط، ١٤٢٦ ٢٠٠٥.

٢٣) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، الناشر مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٢٤) إعراب القرآن وبيانه، محى الدين درويش، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط٤، سنة ١٤١٥هـ.

٢٥) الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٢٦) أفعال الرسول – ﷺ – ودلالتها على الأحكام الشرعية، محمد بن سليمان عبدالله الأشقر العتيبي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط٦، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
٢٧) الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.
٢٨) الأم، الشافعي، دار المعرفة، بيروت، بدون ط، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
٢٩) أهداف التربية الإسلامية، د/ ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، بدون ط، ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨م.
٣٠) البحر الرائق، شرح كنز الرقائق، ابن نجيم المصري، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، بدون ت.
٣١) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، أبو بكر محمد بن أبى إسحاق الكلاباذي، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
٣٢) البحر المحيط في التفسير، ابن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت، ط ١٤٢٠هـ.
٣٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد المهدى، بن عجيبة، تحقيق أحمد بن عبدالله القرشي رسلان، الناشر د/ حسن عباس زكى، القاهرة، ط ١٤١٩هـ.
٣٤) بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز، الفيروز أبادي، تحقيق محمد على النجار، الناشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
٣٥) بناء المجتمع الإسلامي، د. نبيل السمالوطي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
٣٦) بيئات التربية الإسلامية، عباس محجوب، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، الطبعة الثانية عشر، العدد السادس والأربعون، ربيع الآخر – جمادى الأولى – جمادى الثاني ١٤٠٠هـ.
٣٧) تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون ط، ت.

٣٨) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن قيم الجوزية، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ط١، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.
٣٩) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسى، بدون ط، سنة ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م، عالم الكتب، القاهرة.
٤٠) التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، عاطف السيد، بدون ، ط، ت.
٤١) التربية الوقائية في الإسلام، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٧، سنة ١٩٩٧م.
٤٢) التربية الوقائية وأساليبها في سورة الحجرات وتطبيقاتها التربوية، خالد بن عوض ابن على الفهر، المملكة العربية السعودية وزارة التعليم العالي، جامعة أم القرى، كلية التربية مكة المكرمة وهو بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية، سنة ١٤٢١هـ.
٤٣) التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم الغرناطي، تحقيق د/عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، سنة ١٤١٦هـ.
٤٤) التعريفات الفقهية، البركتي، دار الكتب العلمية، ط١، سنة ١٤٢٤هـ، سنة ٢٠٠٢م.
٤٥) التعريفات، الجرجاني، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م.
٤٦) تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم"، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد على بيضون بيروت، ط١ ١٤١٩هـ.
٤٧) تفسير أبي السعود المسمى "ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، أبو السعود العماري محمد بن محمد بن مصطفى، دار احياء التراث العربي، بيروت.
٤٨) تفسير البيضاوي المسمى "بأنوار التنزيل وأسرار التأويل"، البيضاوي، تحقيق محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، سنة ١٤١٨هـ.
٤٩) التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١٣٨٣هـ، بدون ت.
٥٠) تفسير الرازي المسمى "مفاتيح الغيب"، فخر الدين الرازي، دار احياء التراث العربي، لبنان، بيروت، ط٣، سنة ١٤٢٠هـ.

٥١) تفسير الزمخشري المسمى "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٥٢) تفسير الشنقيطي المسمى "أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن"، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، بدون ط، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٥٣) تفسير الصابوني المسمى "صفوة التفاسير"، محمد على الصابوني، دار الصابوني للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٥٤) تفسير الطبري المسمى "جامع البيان في تأويل القرآن" ابن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، سنة ١٤٢٠هـ، سنة ٢٠٠٠م.

٥٥) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد على رضا محمد شمس الدين بن محمد بن بهاء الدين، المتوفى سنة ١٣٥٤هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٠م.

٥٦) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي القاهرة، بدون ت.

٥٧) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والتبليغ، د/ وهبة مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ.

٥٨) تفسير النسفي المسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، حافظ الدين النسفي، تحقيق يوسف على بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٥٩) التفسير الوسيط د/ محمد السيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٨م.

٦٠) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط١، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

٦١) التكفير وضوابطه، إبراهيم بن عامر الرجيلي، دار الإمام أحمد، بدون ط، ت.

٦٢) التنوير شرح الجامع الصغير، الصنعاني، تحقيق د/ محمد اسحاق محمد إبراهيم، الناشر مكتبة دار السلام، الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١.

٦٣) تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق محمد عوض مركب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٦٤) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، سنة ١٤١٠هـ.
٦٥) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ابن رجب بن الحنبلي، تحقيق شعيب الارناؤوط، إبراهيم ناصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.
٦٦) حاشية الإمام البيجوري على جوهرة التوحيد، المسمى تحفة المريد على جوهرية التوحيد، إبراهيم الجيزاوي، تحقيق أ.د على جمعة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
٦٧) حجة الله البالغة، الشاة ولى الله الدهلوي، تحقيق سيد سابق، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م
٦٨) الخشوع في الصلاة، لأبى الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، مطبعة العباسية الحديثة، مصر، بدون ط، ت.
٦٩) خلق المسلم، محمد الغزالي دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، سنة ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.
٧٠) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، بدون ط، ت.
٧١) الدعوة الإسلامية، أصولها، ووسائلها، د. أحمد أحمد غلوش، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٨٧م.
٧٢) دعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد العدوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٤٥٣هـ، ١٩٣٥م.
٧٣) دعوة الرسل عليهم السلام، د/ أحمد أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٧٤) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٥٨هـ.
٧٥) الروض المعطار في خير الأقطار، أبو عبدالله الحميري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
٧٦) زاد المعاد في هدى خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٧٧) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت.
٧٨) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، تحقيق شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
٧٩) سنن أبي داود، أبو داود سليمان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الناشر دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
٨٠) السنن الكبرى، البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
٨١) السنن الكبرى، النسائي، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
٨٢) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، بدون ط، ت
٨٣) الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح رحمه الله تعالى، أبو إسحاق الأنباسي، تحقيق صلاح فتحي هلل، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م.
٨٤) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك لبهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط١٤، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.
٨٥) شرح السنة، البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش، الناشر، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط٢، سنة ١٤٠٣هـ، سنة ١٩٨٣م.
٨٦) شرح العقيدة الطحاوية، أبو العز الحنفي، تحقيق جماعة من العلماء، الناشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
٨٧) شرح النووي على مسلم المسمى (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، النووي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.
٨٨) شرح صحيح البخاري لابن بطال تحقيق أبو تميم ياسر إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
٨٩) شرح مصابيح السنة، الإمام البغوي، تحقيق لجنة مخصصة من المحققين إشراف نور الدين طالب، طبعة إدارة الثقافة الإسلامية، ط١، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

٩٠) شعب الإيمان، البيهقي، تحقيق د/ عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
٩١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري الفارابي، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، سنة ١٤٠٧هـ، سنة ١٩٨٧م.
٩٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الفارابي، دار العلم للملايين بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٩٣) صحيح البخاري "الجامع المسند الصحيح المختصر من أيام رسول الله - ﷺ - وسننه وأيامه"، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
٩٤) صحيح مسلم "المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - ﷺ -"، مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ط، ت.
٩٥) ضوابط العمل الدعوى في مجالات الموعظة والمجادلة والحكم على الآخرين، حسين مجد خطاب، ط٣، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، بدون دار نشر.
٩٦) الطب الوقائي في الإسلام د/ أحمد شوقي الفنجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، سنة ١٩٩١م.
٩٧) الطبقات الكبرى، ابن سعد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٩٨) الطبقات الكبرى، بن سعد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٠هـ ، سنة ١٩٩٠م.
٩٩) العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق خالد بن عثمان، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٦هـ.
١٠٠) عظات وعبر في قصص الأنبياء، سعيد عبد العظيم، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية.
١٠١) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ط، ت.

١٠٢) العملية الارشادية، محمد محروس الشناوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، سنة ١٤١٦هـ، سنة ١٩٩٦م.

١٠٣) عون المعبود، شرح بن أبى داود، محمد أشرف العظيم آبادي، سنة ١٣٢٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.

١٠٤) العين، الفراهيدي، تحقيق د/ مهدى المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، بيروت، بدون ط، ت

١٠٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني ، الناشر دار المعرفة، بيروت سنة ١٣٧٩هـ.

١٠٦) فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١ سنة ١٤١٤هـ.

١٠٧) الفصول في السيرة، ابن كثير، مؤسسة علوم القرآن، ط٣، ١٤٠٣هـ.

١٠٨) الفقه الإسلامي وأدلته، د/ وهبة الزحيلي، ط٤، بدون ت.

١٠٩) فقه الدعوة إلى الله، على عبد الحليم محمود، مطابع دار الوفاء، ط٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

١١٠) فقه الدعوة وأساليبها، محمود محمد حمودة، محمد مطلق عساف، مؤسسة الوراق، عمان، الأردن، سنة ٢٠٠٠م.

١١١) فقه السنة، السيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٣٩٧هـ، ١٩٩٧.

١١٢) فقه السيرة مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٢٥، ١٤٢٦هـ.

١١٣) الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، د. مصطفى الخن، دار القلم للطباعة والتوزيع، دمشق، ط٤، ١٤١٣هـ.

١١٤) الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن الجزيري، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١١٥) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، مكتبة وهبة، ط١٠.

١١٦) فلسفة التربية الإسلامية، عمر الشيباني، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ط٥، سنة ١٩٨٥م.

١١٧) فنون الحوار والإقناع، محمد راشد دياس، دار ابن حزم، جده، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
١١٨) فوات الوفيات، محمد بن شاكر، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
١١٩) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، سنة ١٣٥٦ه.
١٢٠) القرآن الكريم هدايته واعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، دار العلم، دمشق، ط٢، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.
١٢١) قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف، القاهرة، ط١، سنة ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
١٢٢) الكامل في التاريخ، الشيباني، ابن الأثير، تحقيق عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
١٢٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين، بن الجوزي، تحقيق على حسين البواب، دار الوطن الرياض ، بدون ط، ت.
١٢٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي أبو البقاء الحنفي، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت.
١٢٥) لباب التأويل في معانى التنزيل، الخازن، تحقيق محمد على شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
١٢٦) اللباب في علوم الكتاب، النعماني، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
١٢٧) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط ٣ ت، سنة ١٤١٤هـ.
١٢٨) مجمع الزوائد ومنع الفوائد، الهيثمي، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدس، القاهرة، ١٤١١هـ، ١٩٩٤م.
١٢٩) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد الأندلسي المحاربي، تحقيق عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
١٣٠) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيدة المرسي، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٣١) المحلى بالآثار، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري المتوفي سنة ٤٥٦هـ، دار الفكر، بيروت، بدون ط ت.

١٣٢) مختار الصحاح، زين الدين الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت صيدا، بدون ط، ت

١٣٣) مختصر الفقه الإسلامي في ضوء القرآن والسنة، محمد إبراهيم بن عبدالله التويجري، دار اهداء المجتمع، المملكة العربية السعودية، ط ١١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

١٣٤) المخصص، ابن سيده المرسى ، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

١٣٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

١٣٦) المدخل إلى علم الدعوة، د. محمد البيانوني، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط٤، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

١٣٧) المدخل إلى علم الدعوة، د/ محمد أبو الفتح البيانوني، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط٤، سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م.

١٣٨) المدخل إلى مناهج البحث العلمي، محمد محمد قاسم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٩م.

١٣٩) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، على بن سلطان محمد الهروي، دار الفكر بيروت، لبنان، ط١، سنة ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

١٤٠) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

١٤١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، المكتبة العلمية بيروت، بدون ط، ت.

١٤٢) مصطلحات التربية لفظاً واصطلاحاً، فاروق عبده فلية، أحمد عبد الفتاح الزكي، دار الوفاء للطباعة والنشر، بدون ط، ت.

١٤٣) مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، الشيخ محمد الغزالي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط٥، سنة ١٩٨١م.

١٤٤) المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد بن محمد حسن شراب، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، سنة ١٤١١هـ.

١٤٥) المعجم الفلسفى، د/ جميل صلبيا، دار الكتاب اللبنانى بيروت، بدون ط، ١٩٨٢م.

١٤٦) معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر، المتوفى سنة ١٤٢٤هـ، دار عالم الكتب، ط١، سنة ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١٤٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، بيروت، بدون ط، ت.

١٤٨) معرفة الصحابة، أبو نعيم الأصفهاني، تحقيق: عادل يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرباط، ط١، سنة ١٤١٩هـ، سنة ١٩٩٨م.

١٤٩) معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ١٤١١هـ، ١٩٩١م، بدون ط.

١٥٠) المغني، ابن قدامة، الناشر مكتبة القاهرة، بدون ط، سنة ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

١٥١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزيـة، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون ت، ط.

١٥٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صوان عدنان الداوي، دار القلم، دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

١٥٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، بدون طبعة، ت، سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

١٥٤) مكانة المسجد ورسالته، المنصور الرفاعي عبيد، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١ ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

١٥٥) الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحد الشهرستانى، المتوفى سنة ٥٤٨، مؤسسة الحلبى، بدون ط ت.

١٥٦) من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، كمال الدين عبد الغنى المرسى، دار المعرفة الجامعية، ط١، سنة ١٤١٩هـ، سنة ١٩٩٨م.

١٥٧) مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط٣، ١٩٧٧م.

١٥٨) مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، على أحمد مدكور، دار الفكر العربي، بدون ط، سنة ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

١٥٩) مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، علي أحمد مدكور، دار الفكر العربي، بيروت، بدون ط، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
١٦٠) مناهج أولى العزم من الرسل في تبليغ الدعوة على ضوء ما جاء في القرآن الكريم، د/عبد الوهاب عبد العاطي عبد الله، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، دار الطباعة المحمدية ودرب الأتراك بالأزهر.
١٦١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبى وشركاه، ط٣، بدون ت.
١٦٢) منهاج المسلم، أبو بكر الجزائري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، بدون ط، ت.
١٦٣) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب إبراهيم، دار الشروق، ط١٦، بدون ت.
١٦٤) منهج القرآن في تربية المجتمع، عبدالفتاح عاشور، دار الجيل للطباعة، مصر، ط١، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٩م.
١٦٥) موارد الظمآن لدروس الزمان خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق، حسان عبدالعزيز بن محمد بن عبد المحسن السمان، ط٣٠، ١٤٢٤هـ.
١٦٦) مواهب الجليل في شرح مختصر الخليل، شمس الدين الطرابلسي، دار الفكر، ط٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
١٦٧) موسوعة الأعمال الكاملة، محمد خضر حسين، دار النوادر، سوريا، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
١٦٨) الموسوعة التاريخية، إعداد مجموعة من الباحثين، ١٤٢٣هـ.
١٦٩) موسوعة الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم بن عبدالله التويجري، الناشر بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
١٧٠) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط ١٤٠٤هـ، سنة ١٤٢٧م.
١٧١) الموسوعة القرآنية، إبراهيم إسماعيل الإبياري، مؤسسة كل العرب، الطبعة ١٤٠٥.
١٧٢) النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه، د. أحمد العسال، مكتبة وهبة، ط٧، ١٤٠٥هـ.

١٧٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بدون ط، بيروت، سنة ١٣٩٩هـ، سنة ١٩٧٩م.

١٧٤) نوادر الأصول في أحاديث الرسول – ﷺ –، الترمذي، تحقيق عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت.

١٧٥) نوح عليه السلام أول داع إلى الله من خلال آيات القرآن الكريم، د. محمود محمد عمارة، مكتبة الإيمان المنصورة، ط٢، بدون تاريخ.

١٧٦) نيل الأوطار، الشوكاني، تحقيق عصام الدين الصبابطي، الناشر دار الحديث مصر، ط١، سنة ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١٧٧) وجوب تطبيق الحدود الشرعية، عبدالرحمن بن عبد الخالق اليوسف، مكتبة ابن تيمية، الكويت، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

١٧٨) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، على عبد الله بن أحمد الحسنى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

١٧٩) وقاية الأولاد من الانحراف من منظور إسلامي، المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد ٤/العدد ٢٨، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية الرياض سنة ١٤٢٠هـ.

الموضوع	رقم الصفحة
إهداء	أ
شكر وتقدير	ب
المقدمة	ج
التمهيد	١
الفصل الأول: التربية الوقائية في المنظور الإسلامي	١٩
المبحث الأول: مفهوم التربية الوقائية في الإسلام	٢٠
المبحث الثاني: خصائص التربية الوقائية	٣٣
المبحث الثالث: وسائل وأساليب التربية الوقائية	٤١
المبحث الرابع: أهداف التربية الوقائية	٨٠
المبحث الخامس: دور التربية الوقائية في بناء الأفراد والمجتمعات	٩٥
الفصل الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الجانب العقدي	١٣١
المبحث الأول: التربية الوقائية في دعوة أولى العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالله	١٣٤
المبحث الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالملائكة	١٥٩
المبحث الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالكتب	١٧٢
المبحث الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالرسل	١٨٦
المبحث الخامس: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر	٢٠١
المبحث السادس: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الدعوة إلى الإيمان بالقضاء والقدر	٢١٦
الفصل الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الجانب التشريعي	٢٣١
المبحث الأول: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الصلاة	٢٣٣
المبحث الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الزكاة	٢٤٨
المبحث الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الصيام	٢٦٢
المبحث الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في فريضة الحج	٢٧٤

الفصل الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الجانب الخلقي	٢٩٣
المبحث الأول: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الأخلاق مع الله	٢٩٥
المبحث الثاني: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الأخلاق مع النفس	٣٢١
المبحث الثالث: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الأخلاق مع الناس	٣٣٩
المبحث الرابع: التربية الوقائية في دعوة أولي العزم من الرسل في الأخلاق مع البيئة	٣٦٠
الفصل الخامس: أثر التربية الوقائية في إزالة أسباب الانحراف من خلال دعوة أولي العزم من الرسل	٣٧٣
المبحث الأول: أثر التربية الوقائية في إزالة أسباب الانحراف الفكري	٣٧٥
المبحث الثاني: أثر التربية الوقائية في إزالة أسباب الانحراف السلوكي	٣٩٠
المبحث الثالث: أثر التربية الوقائية في إصلاح الواقع الدعوى للدعاة	٤١٢
المبحث الرابع: أثر التربية الوقائية في إصلاح الواقع الدعوى للمدعوين	٤٢٨
الخاتمة	٤٤١
أولاً: النتائج	٤٤٢
ثانياً: التوصيات	٤٤٤
ثالثاً: المصادر والمراجع	٤٤٥
رابعاً: فهرس الموضوعات	٤٦٠